مع المسيح
فى الأناجيل الأربعة



فتحي عثمان


منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET

مَعَ المسِيحْ

فى الأناجيل الأربعة

مع المسيح

فى الأناجيل الأربعة

فتحى عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثانية

هذه طبعة جديدة من كتاب يعتز صاحبه به ، ويعتز بالاستقبال الكريم الذى استقبله به القراء ٠

وأشهد أننى حين دفعت بأصول هذا الكتاب ــ فى طبعته الأولى ــ الى الناشر ، صارحته بأننى لا أتوقع لهذا الكتاب كبير رواج ، فالقراء (المسيحيون) قد لا يحبون أن يقرءوا عن المسيح كتابا كبيرا لكاتب مهما كان معجبا بالمسيح فهو يخالفهم فى عقيدتهم فيه ، والقراء (المسلمون) قد لا يعنون بقراءة كتاب كبير يعتمد عن الأناجيل المتداولة فى الحديث عن المسيح !!

وكان رد القراء على المؤلف بليغا ٠

كان دفاعا رائعا عن القارىء العربى الذى كثيرا ما تبخس قيمته ايما بخس !!

وكان دفعة قوية للكاتب العربى كى يلح على طلب الحقيقة ، ويلح على ابداء مايرى أنه الحقيقة ٠٠ وليكن بعد ذلك مايكون !!

ولقى الكتاب رواجا « ماديا » عجيبا ٠٠ ثم لقى تقديرا « أدبيا » يعتز به كاتبه ايما اعتزاز !!

وعقد هذا الكتاب صداقة غالية بين مؤلفه وبين كثير من كتاب المسيحية على اختلاف مذاهبهم ومواطنهم ٠

فصحيفة (وطنى) قد أفسحت للحديث عنه مجالا كبيرا ، وأثنت على هذه المحاولة التى يرجو صاحبها أن تكون مخلصة بقدر ما يستطيع الانسان أن يتحرى الاخلاص ٠

والأب عدلى خزام مدير مدرسة القلب الأقدس Collège du Sacré Coeur بالزيتون قد تفضل بالكتابة الى صـــاحب الكتاب ، وتعددت المراسلات لتعقد صلات فكرية أنا بها سعيد ٠

وتفضل القس الأمريكى كنيث نولين Kenneth E. Nolen من مستشفى الارسالية الأمريكية بأسيوط بزيارتى مرات ، ثم قرأت عرضه للكتاب فى مجلة The Muslim World التى تصدر باللغة الانجليزية عن مؤسسة هارتفورد Hartford Seminary Foundation فى عددها الصادر فى يوليو ١٩٦٣ ٠

وكان لهذا الكتاب الفضل فى صـــلات ود مع الأســـتاذ الألمانى الدكتور أولداج وكان يمر بالقاهرة فى أثناء عودته من (مؤتمر الأديان) الذى أقيم فى دلهى ٠ وقد عمل مشكورا على توجيه الدعوة الى من قبل حكومة الجمهورية الألمانية الاتحـــادية لزيارتها وقضـــاء أسبوعين فى ضيافتها ٠

* * *

وقد استهل العرض الذى نشرته مجلة The Muslim World بالحديث عن الكتابات المعاصرة التى تناول بها المسلمون المسيح ، فأشار الى (عبقرية المسيح) للعقاد و (قرية ظالمة) لمحمد كامل حسين و (معـــا على الطريق) لخالد محمد خالد ٠ ثم ذكر أن كتاب (مع المسيح) يشهد بصلابة فى الحرص على انتهـــاج المنهج العلمى فى البحث ، وبوفرة فى الحواشى الدقيقة ٠ وهو يرى للكتاب مكانة خاصة من أجل سعيه المخلص المتجاوب للاقتراب من (شخصية المسيح) و (رسالة المســـيحية) من وجهة نظر الاسلام ٠ وكاتب المقال يرى أن هذه النزعة ضرورية للمسلمين والمسيحيين على السواء اذا ما عزمنـــا على اجتياز الفجوة التى خلقهـــا سوء الفهم والعزلة على مر القرون ٠ ولم يفت القس كنيث نولين أن يقرر أن فى الكتاب مسائل يجدها الباحث المسيحى مخيبة للآمال ، ولكنه يرى أنه ما من مسألة من هذه المسائل يصح أن يسمح لها بأن تحجب اخلاص المؤلف فى مسعاه وروحه الودية فى سبر أعمق أغوار العقيدة المسيحية من جانب مسلم مؤمن غيور ٠ وهو يأمل أن يقدم للعالم العربى المسيحى كتابا من نفس المستوى ، ينزع الى التعرف على (الاسلام) فى نزاهـــة

وتفهم حتى نقترب من لقاء حقيقى بين العقيدتين فى أعمق الجذور . ثم يأخذ القس نولين على الكتاب تحليل نصوص الانجيل دون اشـــارة الى (التفاسير) المسيحية المأثورة ، وان كان قد أثبت رأيى بالنسبة لهـذه الملاحظة وهو اننى حريص على الاقتراب من المسيح مباشرة بقدر الامكان ، وعلى عدم التقيد بالفكر التقليدى الموروث ، فاذا استطعت أن أفهم كلمات المسيح لم أجد مدعاة للرجوع الى الشروح والتفاسير وان كنت لا أنكر قيمتها . وقد تساءل القس نولين معاقبـا : أفلا يكون هـــذا ضروريا لكلا الجانبين على السواء لأى لقاء فى مجال بحث الكتب المقدسة ؟

كذلك يأخذ كاتب المقال على المؤلف نزوعه الى (اعتمــاد) كتابات لا يمثل أصحابها (الايمان المسيحى) ، وان كان يعذر العالم الاسلامى فى ذلك نظرا لهذا الحشد المتدافع من الدراسات الذى ظهر عن المسيحية فى الغرب بصورة تدعو الى الارتباك . والمسلم لم يألف كاتبا ينقد دينه أو يخرج عليه ، ومن هنا فهو معذور فى تقبل هذه الدراسات التى قد ينحرف كتابها المسيحيون عن الخط المسيحى المقرر !

وأحب أن أؤكد للقس نولين هنــــا ، اذ أحسب اننا لم نعرج فى حديثنا خلال مقابلاتنا المتكررة على هذه النقطة .. أحب أن أؤكد له هنا أننى أظن اننى لم أعتمد على كتابات خارجة على التفكير المسيحى خروجا تاما ، لكن متابعة (التيارات الداخلية) فى نطاق الفكر المسيحى ضرورية اذ تعين على تقديم صورة متكاملة للواقع الفكرى من جهة ، ثم هى تشهد بأنه ان كان ثمة (مسلم) يفهم نصا من الانجيل على وجه من الوجوه ، فان النص لا بد يسمح بهذا التأويل دون اعتساف ما دام قد شاركه فيه مسيحى ـ مهما كان موقفه الجزئى من بعض المســـائل التفصيلية فى المسيحية ، ذلك انه أقرب بغير جدال الى المسيحية من حيث (البعد النفسى) وأسلم من دواعى الشبهة والتهمة والانحراف ! كما أحب أن أبشر القس نولين بأن المسلمين الآن لم يعودوا يضيقون باتجاه (المراجعة) بالنسبة لتراث الفكر الاسلامى !

* * *

ولقد بلغ من قوة الصلات الفكرية التى عقدها هذا الكتاب مع قرائه أن كتب لى الأب عدلى خزام فى احدى رسائله ، يشكو فى ألم من كتاب الأستاذ منصور حسين عبد العزيز : « الحقيقة أو دعوة الحق بين المسيحية فى الاسلام » .

ولقد قرأت هذا الكتاب ، ورأيت أن صاحبه قد اختار طريقه ، وقد

أشار الى ذلك فى مقدمة كتابه ، ولكنه على أية حال يعرف طريقه جيدا ٠ وقد اختلف مع كاتب « الحقيقة » فى أشياء ، ولكنى لا يمكن الا أن أقرر أنه اختط منهجه فى البحث على أساس علمى رشيد ، وأن كتابه محاولة جادة مخلصة لتقديم دراسة جديدة فى المسيحية ، استفدت أنا شخصيا منها ٠ وبودى أن يألف اتباع أى دين أن يقرأوا من مخالفيهم مالا يرضى عقيدتهم ، والا للزم الكاتب أن يكون منطقيا مع نفسه ويتحول الى الدين الذى يكتب عنه ما دام يرضى عن كل شىء فيه ! وحسبنا أن يكون الكاتب مخلصا فى طلب الحقيقة واتباع المنهج العلمى ، ومن ثم يكون مالا يرضى من كتابته (بحثـــا منهجيا) ولو تخلله الخطأ ، ولا يكون مجرد تجن وعدوان !!

ولقد كتبت الى الأب خزام برأيى ، وأنا لا أعرف الشاكى أو المشكو منه الا عن طريق الفكر ، وأحسب أن هذا أعون على الحياد وأقوم بالقسط ٠

* * *

ولقد سألنى البعض : ماذا تقصد من وراء هذا الكتاب ؟

وأعتقد أننى قد أجبت فى صدق على هذا السؤال فى مقدمة الطبعة الأولى ٠٠ ولا بأس أن أؤكد اننى لا أريد الا أن أتعرف فى أمانة وسلامة على (المسيح) و (المسيحية) فى الأناجيل المعتمدة عند المسيحيين اليوم وأن أقدم محاولتى للناس فى هذه الحدود !!

لا أزعم قط اننى أقصد بطريق مباشر أو غير مباشر أن أبشر بين المسيحيين بالاسلام ، أو أن أبشر بين المسلمين بالمسيحية ٠٠ وأنى لى ذلك ودراستى للمسيحية ما زالت فى خطواتها الأولى !

وأخشى أن نكون لطول ما عشنا فى (منـــاخ) نفسى وفكرى غير صحى ، قد درجنا على الالتواء ، وألفنا التساؤل فى ذكاء ٠٠ أو دهاء !!

* * *

وهذه الطبعة الجديدة أردت أن أؤدى بها حق الشكر للقراء الذين أحسنوا استقبال الطبعة السابقة ، فسعيت الى مزيد من الاتقان ٠ ولقد استفدت مما وقع بين يدى من كتابات عن المسيحية وبخاصة عن البيئة الجغرافية والتاريخية التى شهدت مبعث المسيح ٠ ولعل القارىء يلمس هذه المحاولة للاتقان فى صفحات الكتاب ٠ ولم أغفل سياق الأحداث ، فتناولت الوثيقة التى عرضت على المجمع المسكونى للفاتيكان بشأن موقف المسيحية من غير المسيحيين عامة ومن اليهـــود الذين تحمل أســـلافهم

وزر الجريمة النكراء ، جريمة (قتل) المســـيح أو (الشروع فى قتله) على الأقل !!

وحين يكون حظ الكتاب فى طبعته الجديدة حظه فى طبعته السابقة .. فما أسعد كاتبه بهذا التجاوب .. وانه لا يفتأ يرجو مخلصا أن يكون العمل الذى يتقدم به « مقبولا عند الله مشمرا بين الناس » . ؟

ديسمبر ١٩٦٦

« فتحى عثمان »

مقدمة الطبعة الأولى

وعيت وأنا تلميذ بالمدرسة الابتدائية مناقشة فكرية ، اذ أخرج القس « ابراهيم لوقا » كتابا أسماه (المسيحية فى الاسلام) تعرض فيه لاثبات بعض وجهات النظر العقائدية عند المسيحيين ـ بنصوص من القرآن الكريم، وأثار هذا الكتاب وقتها ما أثار ، وتصدى له كاتب مسلم هو الأستاذ محيى الدين سعيد البغدادى فدبج مقالات مطولة متتابعة استغرقت من صفحات مجلة (الاسلام) حيزا كبيرا وأمدا طويلا •

تفتح تفكيرى اذن على هذا اللون من الاتصال ـ أو الاحتكاك ـ بين المسيحية والاسلام ، لون الجدل العقائدى فى عقد الخلاف التاريخية الحساسة بين الدينين العظيمين ، وكنت أمارس أحيانا بعض الصور المتواضعة لهذا اللون من الجدل مع زميل مسيحى أثناء التعليم الثانوى •• حتى اذا اتجهت الى الجامعة ازددت شغفا بمتابعة الدراسة فى التاريخ الفكرى والحضارى للديانات على مستوى علمى ، وكنت أجد فى محاضرات الأستاذ الدكتور عزيز سوريال عطية عن تاريخ الرهبنة والديرية والبابوية والجامعات الأوربية والحروب الصليبية متعة رائعة ، كما تلذذت أيضا وأنا أدرس على الأستاذ الدكتور محمد فؤاد شكرى تاريخ الاصلاح الدينى المذهبين البروتستنتى والكاثوليكى Reformation, Counter Reformation فى أوربا • وعكفت بعد تخرجى من كلية الآداب على الدراسات الاسلامية عموما والتاريخ الاسلامى خاصة ، ولكنى لم أنصرف عن الدراسات المقارنة فى الديانات والمذاهب •

حتى كان هذا الكتاب •

***

طالعت القرآن فوجدت (لأهل الكتاب) فيه نصيبا مذكورا ،

ودرست التاريخ الاسلامى فوجدت (لأهــل الذمة) فى المجتمع والدولة رصيدا مذخورا ·· وتأملت الفكر الاسلامى فوجدته يلتقى فى بعض صوره مع الفكر المسيحى ــ لا منذ درس المسلمون الفلسفة واتجهوا للتصــوف واتصلوا بالسريان والنساطرة فحسب ، بل منذ الينابيع الأولى ·· نجد هذا اللقاء فى قصص الأنبياء،ومن ذلك قصص ابراهيم واسحق ويعقوب، ويوسف وموسى ، وداود وســـليمان ، وأخيرا زكريا ويحيى ومريم ثم المسيح بن مريم ·

تقرأ فى انجيل لوقا عن زكريا وزوجه :

« ولم يكن لهما ولد اذ كانت اليصابات عاقرا ، وكانا كلاهمامتقدمين فى أيامهما · فبينما هو يكهــن فى نوبة فرقته أمام الله حســـب عادة الكهنوت ، أصابته القرعة أن يدخل الى هيكل الرب ويبخر · وكان كل جمهور الشعب يصلون خارجا وقت البخور ، فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور ، فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف ، فقال له الملاك : لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا وتسميه يوحنا ، ويـــكون لك فرح وابتهــاج وكثيرون سيفرحون بولادته لأنه يكون عظيما أمام الرب ·· فقال زكريا للملاك ، كيف أعلم هذا ، لأنى أنا شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها ؟ فأجاب الملاك وقال له : أنا جبرائيل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا ، وها أنت تكون صامتا ولا تقدر أن تتكلم الى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنكلم تصدق كلامى الذى ســيتم فى وقته · وكان الشــعب منتظرين زكريا ومتعجبين من ابطائه فى الهيكل ، فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل ، فكان يومىء اليهم وبقى صامتا»(١)·

« هنالك دعا زكريا ربه ، قال رب هب لى من لدنك ذرية طيبة انك سميع الدعاء · فنادته الملائكة وهو قائم يصلى فى المحراب أن الله يبشرك بيحيى ، مصدقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين · قال : رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر ؟ قال : كذلك الله يفعل ما يشاء · قال : رب اجعل لى آية ، قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاثة أيام الا رمزا ، واذكر ربك كثيرا ، وسبح بالعشى والابكار » (٢) ·

« ·· ذكر رحمة ربك عبده زكريا · اذ نادى ربه نداء خفيا · قال

---

(١) لو ١ : ٧ ــ ٢٢ ·

(٢) آل عمران ٣٨ : ٤١ ·

رب اني وهن العظم مني واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا • واني خفت الموالى من ورائي وكانت امرأتي عاقرا فهب لي من لدنك وليا • يرثني ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا • يازكريا انا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميا • قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيا • قال كذلك قال ربك : هو علي هين ، وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا • قال : رب اجعل لي آية ، قال : آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا • فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا (١) » •

ألاترى الصورتين : المسيحية والاسلامية تتفقان ، حتى فى كثير من التفاصيل ؟؟

كذلك نرى الجمع بين مولد يحيى (يوحنا) بن زكريا ، ومولد عيسى بن مريم فى مقام واحد من القول فى انجيل لوقا وفى سورتى آل عمران ومريم ، ولا عجب فقد كان أولهما مقدمة بين يدى الآخر •

« وفى الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله الى مدينة من الجليل اسمها ناصرة الى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف، واسم العذراء مريم • فدخل اليها الملاك وقال : سلام لك أيتها المنعم عليها ، الرب معك ، مباركة أنت فى النساء ! فلما رأته اضطربت من كلامه ، وفكرت ما عسى أن تكون هذه التحية ؟ فقال لها الملاك : لا تخافى يا مريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، وها أنت ستحبلين وتلدين ابناً وتسميه يسوع ، هذا يكون عظيما ، وابن العلى يدعى ، ويعطيه الرب الاله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب الى الأبد ولا يكون لملكه نهاية • فقالت مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا ؟ فأجاب الملاك وقال لها الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظللك ، فلذلك أيضا القدوس المولود منك يدعى ابن الله • وهو ذا اليصابات نسيبتك هى أيضا حبلى بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا ، لأنه ليس شيء غير ممكن لدى الله » (٢) •

وفى القرآن ما كادت سورة آل عمران تختتم حديث مولد يحيى « واذكر ربك كثيرا وسبح بالعشى والابكار » ، حتى استهلت حديث مولد عيسى بن مريم :

---

(١) مريم ٢ : ١١

(٢) لو ١ : ٢٦ ــ ٣٧

« واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين • يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين • ذلك من أنباء الغيب نوحيه اليك ، وما كنت لديهم اذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم اذ يختصمون • أذ قالت الملائكة يا مريم ان الله يبشرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى بن مريم ، وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين • ويكلم الناس فى المهد وكهلا ومن الصالحين • قالت : رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر ؟ قال كذلك الله يخلق مايشاء • اذا قضى أمرا فانما يقول له كن فيكون » (١) •

وما كادت سورة مريم تختتم حديث مولد يحيى « والسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » حتى استهلت كذلك حديث مولد عيسى بن مريم : « واذكر فى الكتاب مريم اذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا • فاتخذت من دونهم حجابا فأرسلنا اليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا • قالت انى أعوذ بالرحمن منك ان كنت تقيا • قال : انما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا • قالت : أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا • قال كذلك قال ربك : هو على هين ، ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا » (٢) •

والتشابه واضح فى السياق لا يحتاج الى اشارة أو بيان ، اذا استبعدنا المشكلة الخلافية المعروفة : تسمية المسيح ابن الله •

ثم نلمس فى ثنايا الكتابين تقاربا فى التعبير عن بعض الصور الكونية والنفسية •• « ان يوما واحدا عند الرب كألف سنة » (٣) وفى القرآن « ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون » يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره ألف سنة مما تعدون (٤) •

وفى أعمال الرسل « ستسمعون سمعا ولا تفهمون ، وستنظرون نظرا ولا تبصرون ، ولأن قلب هذا الشعب قد غلظ بأذانهم سمعوا ثقيلا وأعينهم أغمضوها ، لئلا يبصروا بأعينهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم » (٥) وفى القرآن تصويرات عدة لهذا المعنى :

---

(١) آل عمران ٤٢ : ٤٧

(٢) مريم ١٦ : ٢١ •

(٣) بطرس ٣ : ٨ ـ ٩

(٤) الحج ٤٧ ، السجدة : ٥ •

(٥) أعمال ٢٨ : ٢٦ ـ ٢٧

« لهم قلوب لا يفقهـــون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بهـا ، ولهم آذان لا يسمعون بها ، أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » « ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة ، ولهم عذاب عظيم » » صم بكم عمى ، فهم لا يرجعون » (١) ٠

***

واذا كان القرآن ـ ينبوع الفكر الاسلامى ـ قد أذن لمجرى تفكير المسلمين أن يكون على هذه الصورة من الاتساع ، فهو لم يخرج فى هذا عن قاعدته الثابتة الراسخة « قولوا آمنا بالله وما أنزل الينا ، وما أنزل الى ابراهيم واسماعيل واسحق ويعقوب والأسباط ، وما أوتى موسى وعيسى ، وما أوتى النبيون من ربهم ، **لا نفرق بين أحد منهم** ونحن له مسلمون » « آمن الرسول بما أنزل اليه من ربه والمؤمنون ، كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسـله ، **لا نفرق بين أحد من رسله** ، وقالوا سـمعنا وأطعنا غفرانك ربنا واليك المصير » « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحينا اليك ، وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى ، أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه » (٢) ٠

وجاءت السـنة النبوية تعزز هـذا التفكير الجـامع ، ففى الحديث الشريف : « بلغوا عنى ولو آية ، وحدثوا عن بنى اسرائيل ولا حرج ، ومن كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار » يقول ابن كثير بعد ايراد الحديث « رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو ـ وكان قد أصاب يوم اليرموك زاملتين من كتب أهل الكتاب ، فكان يحدث منهما بما فهمه من هذا الحديث من الاذن فى ذلك ٠ ولكن هذه الأحاديث الاسرائيلية تذكر للاستشهاد لا للاعتضاد ، فانها على ثلاثة أقسام : أحدها ماعلمنا صحته مما بأيدينا مما يشهد له بالصدق فذاك صحيح ، والثانى ماعلمنا كذبه مما عندنا ما يخالفه ، والثالث ما هو مسكوت عنه لا من هذا القبيل ولا من هذا القبيل فلا نؤمن به ولا نكذبه ويجوز حكايته لما تقدم ٠٠ ويختلف علماء أهل الكتاب فى هذا كثيرا ، ويأتى من المفسرين خلاف ذلك ٠٠ وأحسن ما يكون فى حكاية الخلاف أن تستوعب الأقوال فى ذلك المقام ، وأن ينبه على الصـحيح منها ويبطل الباطل وتذكر فائدة الخـلاف وثمرته » (٣) ٠

---

(١) الاعراف ١٧٩ ، البقرة ٧ ، ١٨ ٠
(٢) البقرة ١٣٦ ، ٢٨٥ ، الشورى : ١٣ ٠
(٣) تفسير ابن كثير : المقدمة ص ٤ ٠

غير أن الناس لا تمحص الامور هـذا التمحيص ، ومن هنا غطت الخلافات المتعصبة على البحث المستنير .. وفضل الدعاة والمرشدون أن يلجئوا الى تحقيق التوافق بين أهل الديانات عن طريق تربية المجتمع عمليا على آداب السلوك الرفيع ، بعد أن عزت الدراسات الفكرية الهادئة الجادة ، التى لا أقول تحل عقدة الاذهان والنفوس ، ولكنها على الاقل تكشف كلا من الاسلام والمسيحية وصلة الاسلام بالمسيحية تحت أضواء العلم الصحيح ، وحينئذ تتجاوب العقول فتحقق التوافق تلقائيا على مستوى أعمق وأدوم فى علاقات الناس .

***

فكرت فى هذا كله ووجدت الاسلام معروضا على المسلمين والمسيحيين فى كتابات عربية عصرية مبسطة (*) ، ولم أجد للمسيحية مثل هذا العرض فى أدبنا الحديث والمعاصر الا قليلا ... وقد يكون من دواعى هذا أن الاستعمار الغربى قد أراد أن يجر المسيحية فى ركابه أثناء الحروب الصليبية والاستعمارية ، فوقف المسلمون موقف الدفاع ، ووقف المسيحيون موقف الحذر .

كتب رحمه الله بن خليل الرحمن الهندى فى مقدمة كتابه المشهور (اظهار الحق) : « ان الدولة الانجليزية تسلطت على مملكة الهند تسلطا قويا .. ومن ابتداء سلطنتهم الى ٤٣ سنة ما ظهرت الدعوة من علمائهم الى مذهبهم ، وبعدها أخذوا فى الدعوة . وكانوا يتدرجون فيها حتى ألفوا الرسائل والكتب فى رد أهل الاسلام ، وقسموها فى الأمصار بين العوام ، وشرعوا فى الوعظ فى الأسواق ومجامع الناس والشوارع العامة ، وكان عوام أهل الاسلام الى مدة متنفرين عن استماع وعظهم ومطالعة رسائلهم فلم يلتفت أحد من علماء الهند الى رد تلك الرسائل . لكن تطرق الوهن بعد مدة فى تنفر بعض العوام ، وحصل خوف مزلة أقدام بعض الجهال فعند ذلك توجه بعض علماء أهل الاسلام الى ردهم .

وانى وان كنت منزويا فى زاوية الخجول ، وما كنت معدودا فى زمرة العلماء الفحول ، لكنى لما اطلعت على تقريراتهم وتحريراتهم ووصلت

(*) اخذت بعض المطبوعات العربية التى تعرض للمسيحية فى اسلوب مبسط طريقها الى الظهور أخيرا ، ومنها مطبوعات لجنة التأليف والنشر للمجمع المسيحى للشرق الادنى A.C.L.C. (بيروت ـ القاهرة) مثل مجموعة الكتاب المسيحى S.P.C.K. ومطبوعات دار السلام بالمعادى بالقاهرة ـ الخ .

الى رسائل كثيرة من مؤلفاتهم ، استحسنت أن اجتهد أيضا بقدر الوسع والامكان : فألفت أولا الكتب والرسائل ليظهر الحال على أولى الالباب ، واستدعيت ثانيا من القسيس الذى كان بارعا وأعلى كعبا من العلماء المسيحيين الذين كانوا فى الهند مشتغلين بالطعن والجرح على الملة الاسلامية تحريرا وتقريرا — أعنى مؤلف ميزان الحق — ان يقع بينى وبينه المناظرة فى المجلس العام ليتضح حق الاتضاح أن عدم توجه العلماء الاسلامية ليس لعجزهم عن رد رسائل القسيسين كما هو مزعوم بعض المسيحيين . فتقررت المناظرة فى المسائل الخمس التي هى أمهات المسائل المتنازعة بين المسيحيين والمسلمين أعنى التحريف ، والنسخ ، والتثليث، وحقية القرآن ، ونبوة محمد .

« فانعقد المجلس العام فى رجب سنة ١٢٧٠ هـ فى أكبر أباد ، وكان بعض الأحباء معينا لى فى المجلس وكان بعض القسس معينا للقسيس الموصوف ، فظهرت الغلبة لنا بفضل الله فى مسئلتى النسخ والتحريف اللتين كانتا من أدق المسائل وأقدمها فى زعم القسيس — كما تدل عليه عباراته فى كتاب حل الاشكال — فاذا رأى ذلك سد باب المناظرة فى المسائل الثلاث الباقية » .

ولست بالذى ينكر أهمية العقيدة واختلافاتها فى بناء أى دين ، ولا بالذى ينكر أهمية الفروق بين المسيحية والاسلام ، لكنى أقول ان المسيحية ليست فقط هى التثليث والصليب !! ان الاناجيل المتداولة زاخرة بالقصص والامثال والوصايا التى هى معين لأدب أخلاقى انسانى ينهل منه كل متدين وكل صاحب خلق وعقل ، لكن هذا كله يضيع فى زحام الخلافات العقائدية المحدودة !!

فالكثير من المؤلفات تجعل مدار بحثها المجادلات العقائدية وحدها. من ذلك ما كتبه الامام الجليل أبو محمد على بن حزم فى موسوعته العقائدية (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) : « معتمد النصارى كله الذى لا معتمد لهم غيره من قولهم بالتثليث ، وان المسيح اله وابن الله ، واتحاد اللاهوتيه بالناسوتيه والتحامه به — انما هو كله على أناجيلهم وعلى ألفاظ تعلقوا بها مما فى كتب اليهود كالزبور وكتاب أشعيا وكتاب ارميا ، وكلمات يسيرة من التوراة ، وكتاب سليمان وكتاب زخريا ، وقد نازعتهم اليهود فى تأويلها فحصلت دعوى مقابلة لدعوى .. وقد أوضحنا بحول الله تعالى وقوته فساد أعيان تلك الكتب وأوضحنا أيضا فساد نقلها وانقطاع الطريق منهم الى من نسب اليه تلك الكتب .. ثم نورد

تكذيبهم فى دعـواهم أن التوراة عند اليهود وعندهم سـواء ، ونورد مايخالفون فيه نص التوراة التى عند اليهود (ولا يصح لأحد الاحتجاج بتصحيح ما يكذبه) ، ثم نذكر مناقضات الأناجيل » (١) ... وعلى هذا المنوال يسير الكتاب ، متعقبا روايات بعض الأنساب والوقائع مثبتا اختلافها .

أفليس فى تعاليم المسيحية الشىء الكثير الذى تتفق عليه جميع الأديان ، والذى يستفيد منه الفكر الدينى على وجه العموم ؟!

وان الاسلام يقدر أثر المسيحية ـ فى واقعها القائم ، ولها وضعها باعتبارها الرسالة التى تقدمته مباشرة ، وباعتبار الدينين قد أقاما حضارتين عالميتين تنافستا بكل سبيل . وقد وصف الاسـلام أتباع المسيح خصوصا بأنهم أقرب مودة للذين آمنوا وأنهم لا يستكبرون . وميز أهل الكتاب عموما فى التشريع « اليوم أحل لكم الطيبات ، وطعام الذين أوتوا الكتاب حل لكم وطعامكم حل لهم ، والمحصنات من المؤمنات والمحصنات من الذين أوتوا الكتاب » (٢)...

بهذه العشرة الكريمة من مؤاكلة ومشاربة ، ومعاملة ومصاهرة حدد الاسلام مركز الكتابيين ، على ما فى كتبهم مما ليس يرضاه ، وذلك على خلاف المشركين « ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ، ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ، ولا تنكحوا المشركين حتى يؤمنوا ، ولعبد مؤمن خير من مشرك ولو أعجبكم » (٣) .

والعلاقة الزوجية التى أقرها الاسلام بين المسلم والكتابية ، هى العلاقة التى عبر عنها القـرآن بقوله « ميثاقا غليظا » (٤) ، وصورها المسيح « أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى . من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ، ويكون الاثنان جسدا واحدا » (٥) .

ثم ان خلافات العقيدة بين الاسلام والمسيحية ليست فى ضوء الدراسة الرصينة لهـذا الضيق ، فلئن كانت الأناجيل المتداولة قد أطلقت على المسيح (ابن الله) ، فهو قد سمى نفسه (ابن الانسان) فى

---

(١) ابن حزم : الفصل ـ طبعة صبح ـ ص ٦ ومابعدها .
(٢) المائدة : ٥ .
(٣) البقرة : ٢٢١ .
(٤) النساء : ٢١ .
(٥) مت ١٩ : ٤ ـ ٥ ، بعبارات أخرى مر ١٠ : ٦ ـ ٨ .

أكثر من موضع من هذه الأناجيل (١) • حقا تحدثت النصوص المسيحية المتداولة باللفظ الصريح عن (الأب السموى) « فهكذا أبى السموى يفعل بكم ، ان لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته » (مت ١٨ : ٣٥) وعن المسيح الابن « وصوت من السموات قائلا : هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت » (مت ٣ : ١٧ ، مر ١ : ١١ ، لو ٣ : ٢٢) ، غير أن التعبير بأبوة الله قد ورد مرات لغير المسيح « ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلونى وأنا انسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله ، هذا لم يعمله ابراهيم ، أنتم تعملون أعمال أبيكم • فقالوا له : اننا لم نولد من زنا ، **لنا أب واحد وهو الله** ، فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى لأننى خرجت من قبل الله وأتيت ، لأنى لم آت من نفسى بل ذاك أرسلنى » (يو ٨ : ٤٠ ـ ٤٢) • وفى أعمال الرسل « لكى يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه ، مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيدا لأننا به نحيا ونتحرك ونوجد ، كما قال بعض شعرائكم أيضا لأننا أيضا ذريته ، **فاذا نحن ذرية الله** لا ينبغى أن نظن أن اللاهوت شبيه بذهب أو فضة أو حجر نقش صناعة واختراع انسان » (أعمال ١٧ : ٢٧ ـ ٢٩) وفى الرسالة الى أهل رومية « لأن كل الذين ينقادون بروح الله فأولئك هم أبناء الله ، اذ لم تأخذوا روح العبودية أيضا للخوف ، بل أخذتم روح التبنى الذى به نصرخ يا أبا الآب • الروح نفسه يشهد لأرواحنا أننا **أولاد الله** ، فان كنا أولادا فاننا ورثة أيضا ـ ورثة الله ووارثون مع المسيح » (رومية ٨ : ١٤ ـ ١٧) وهناك أيضا « ان كنتم تحتملون التأديب يعـــاملكم الله كالبنين » (عبرانيين ١٢ : ٧) « أنظروا أية محبة أعطانا الأب حتى ندعى **أبناء الله** » (رسالة يوحنا الرسول الأولى ٣ : ١) « أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضا لأن المحبة هى من الله ، وكل من يحب فقد **ولد من الله** ويعرف الله » (نفس الرسالة : ٤ : ٧) •

وثمة اشارات فى ثنايا الأناجيل المتداولة عن نبوة المسيح « بل ينبغى أن أسير اليوم وغدا وما يليه ، لأنه لا يمكن أن يهلك **نبى** خارجا عن أورشليم • يا أورشليم يا أورشليم ، يا قاتلة **الأنبياء** وراجمة المرسلين » (لو ١٣ : ٣٣ ـ ٣٤) « واذا اثنان منهم كانا منطلقين فى ذلك اليوم الى قرية بعيدة عن أورشليم ستين غلوة اسمها عمواس ، كانا يتكلمان بعضهما مع بعض عن جميع هذه الحوادث • وفيما هما يتكلمان ويتحاوران اقترب

(١) على سبيل المثال مت ٨ : ٢٠ ، ١١ : ١٩ ، ١٢ : ٤٠ ، ٢٠ : ٢٨ ، ٢٥ ، ٣١ ، مر ٢ : ٢٨ ، ٩ : ٩ ، ١٤ : ٤١ ، لو ٩ : ٥٦ ، ١٧ : ٢٤ ، ٢٦ ، ٣٠ ، ١٨ : ٨ ، يو ٣ : ١٣ ، ٥ : ٢٧ ، ١٢ : ٣١ •

اليهما يسوع نفسه وكان يمشي معهما ، ولكن أمسكت أعينهما عن معرفته. فقال لهما ماهذا الكلام الذى تتطارحان به وأنتما ماشيان عابسين ؟ فأجاب أحدهما الذى اسمه كليوباس وقال له : هل أنت متغرب وحدك فى أورشليم ولم تعلم الأمور التى حدثت فيها هذه الأيام ؟ فقال لهما : وما هى ؟ فقالا : المختصة بيسوع الناصرى الذى كان انسانا نبيا مقتدرا فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب ، كيف أسلمه رؤساء الكهنة وحكامنا لقضاء الموت وصلبوه ، ونحن كنا نرجو أنه هو المزمع أن يفدى اسرائيل ، ولكن مع هذا كله اليوم له ثلاثة أيام منذ حدث ذلك ؟ .. فقال لهما : أيها الغبيان والبطيئا القلوب فى الايمان بجميع ما تكلم به الأنبياء ، أما كان ينبغى أن المسيح يتألم بهذا ويدخل الى مجده ؟ ثم ابتدأ من موسى ومن جميع الأنبياء — يفسر لهما الأمور المختصة به فى جميع الكتب ، ثم اقتربوا الى القرية التى كانا منطلقين اليها وهو تظاهر كأنه منطلق الى مكان أبعد . فألزماه قائلين : امكث معنا لأنه نحو المساء وقد مال النهار ، فدخل ليمكث معهما ، فلما اتكأ معهما أخذ خبزا . وبارك وكسر وناولهما. فانفتحت أعينهما وعرفاه ثم اختفى عنهما » (لو ٢٤ : ١٣-٣١) « الله لم يره أحد قط » (يو ١ : ١٨) ويقول بولس « فليكن فيكم هذا الفكر الذى كان فى المسيح يسوع الذى اذ كان فى صورة الله لم يحسب خلسة أن يكون معادلا لله لكنه أخلى نفسه آخذا صورة عبد صائرا فى شبه الناس واذ وجد فى الهيئة كانسان وضع نفسه وأطاع حتى الموت .. »

وبجانب هذا كله هناك اشارة فى انجيل يوحنا تستحق التأمل « ان كنتم تحبوننى فاحفظوا وصاياى ، وأنا أطلب من الآب أن يعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم الى الأبد . روح الحق الذى لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم . لا أترككم يتامى ، انى آتى اليكم . وبعد قليل لا يرانى العالم أيضا وأما أنتم فتروننى » (يو ١٤ : ١٥ — ١٩) « وأما المعزى الروح القدس الذى سيرسله الآب باسمى فهو يعلمكم كل شىء ويذكركم بكل ما قلته لكم » (يو ٢٦:١٤) « ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا اليكم من الآب روح الحق الذى من عند الآب ينبثق فهو يشهدنى » (يو ١٥ : ٢٦) .

لكنى لا أريد أن أفتح باب الجدل العقائدى الذى قلت انه حجب عن الأعين نور المسيحية ، وانما أريد أن أقنع المسلمين بأن العهد الجديد المتداول لايتعرض فقط فى لما ينكرون ، وحتى ما ينكرونه فيه مجال كبير للبحث والنظر . ليرفضوا عن بينة كما اقتنعوا عن بينه ، ولا يعيش الواحد

منهم ويموت غير عالم شيئا من هذه الديانة الكبرى ، مع أن كتابهم ينعى على التقليد والمقلدين « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا » ، ومع أن أصولهم الاعتقادية تعلن :

اذ كل من قلد فى التوحيد ايمـانه لم يخـل من ترديد

***

ولا يعنى التجاوب العقلى على أساس الدراسة العلمية المقارنة للأديان أن يصطنع التوافق التافه الباهت الممقوت ، وأن تعتسف الوحدة الفكرية على أساس الافتراء على اللغة والمنطق والتاريخ . هذا عبث لا يزيد الناس الا بعدا وتجافيا .

كتب الأستاذ محمد رشيد رضا يقول : « ان تلك الأقوال المعروفة عند النصارى دفعت بعض الراغبين فى التأليف بينهم وبين المسلمين الى الجمع بين ماجاء فى القرآن العزيز وما يؤخذ من الأناجيل بنـوع من التأويل : وهو أن قول القرآن (وما قتلوه يقينا) يشعر بأنه قد حصل ما هو مظنة القتل ، لأنه صورة من صوره ووسيلة من وسائله ، وذلك التعليق على الخشبة الذى كان بدون كسر عظم ولا اصابة عضو رئيسى ، ولم يطل زمنه فكأنه ليس صلبا ، وعنـدهم أن هذا هو معنى قوله (وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم) ـ وهذا التأويل بعيد . وممن ولع بالجمع بين النصرانية البولسية التى تؤخذ من الكتب التى يسمونها العهد الجديد وبين الاسلام قسيس من طائفة الروم الأرثوذكس اسـمه (خريستوفورس جباره) كان برتبة ارشمندريت وكاد يكون مطرانا ، فخلع ثوب الكهنوت وطفق يدعو الى التـأليف والجمع بين الاسـلام والنصرانية ، ويقول بعدم التنافى بينهما ، ويؤلف الكتب فى ذلك : يثبت فيها التوحيد وصدق القرآن ونبوة محمد ، مع صحة الأناجيل وتطبيقها على القرآن . ولكن لم يستطيع أن يؤلف حزبا ، واننى أعتقد أنه كان مخلصا فى عمله ، وكان الأستاذ الامام يحسن الظن به أيضا ، ويرى أن دعوته لاتخلو من فائدة وتمهيد للتأليف بين الناس ، وظهور دين الحق فى جميع البلاد .. ولكن المحال هو الجمع بين دين القرآن وبين الديانة البولسية المبنية على أن الثلاثة واحد حقيقة وعلى عقيدة الصلب والفداء ... الخ » (١) .

الحق أن هذه محاولات غير مجدية ، والمجدى أن ينظر الى الأمور

---

(١) رشيد رضا : عقيدة الصلب والفداء ـ الطبعة الثانية ص ٧٥ : ٧٧ .

النظرة الواقعية الصحيحة فالاسلام اسلام ، والمسيحية مسيحية ، وهما يتفقان ويختلفان ، ومن الخير أن يسلم بالمختلف كما يتفق على المؤتلف ، دون أن يختل ميزان الحق والعقل • ونحن نقرأ للأستاذ الامام محمد عبده توجيها فى البسملة (بسم الله الرحمن الرحيم) قال فيه « ••• الذى عرف هو قول النصارى فى ابتداء شئونهم باسم الآب والابن والروح القدس ، وهو فى زعمهم ثلاثة مختلفة الآحاد مع أنها واحد ، فأراد الله أن يجعل للمسلمين فاتحة أعمال تحتوى على ثلاثة معان : الأول ذات والآخران صفتان ـ فلفظ الجلالة هو الذات وهو يقابل الآب عنـــدهم ، والرحمن وصف الفعل المتجدد الصادر من فيض الكرم وهو يقابل الابن لزعمهم أنه منبثق من الذات ، والرحيم يدل على الصفة الثابتة للذات الأقدس وهى التى يرجع اليها الفعل المتجدد وباعتبارها يصدر ويتجدد وهو يقابل روح القدس فانه عندهم الصلة بين الآب والابن ـ وان حاولوا ستر ذلك بضروب من العبارات • فأراد الكتاب أن يعلمنا كيف نضع التوحيد مكان التثليث ، ونستبدل بألفاظ التشبيه خيرا منها من ألفـــاظ التنزيه ، ولا يفوتنا المعنى الذى يحتج بقصده من الآب والابن والروح القدس وهو معنى الرحمة وافاضة النعمـــة ، وهذا هو وجه تكرير هذه الفـــاتحة الكريمة فى كل سورة والندب الى الافتتاح بها فى كل عمل ذى بال » •
وقد عقب على هذا القول معقب فقال : « أقول : لو قبل أهل الدين من النصارى هذا التفسير ، لانحلت أعظم عقدة تباعد بين عقيدتى المسيحية والاسلام » !!

وأنا أعتقد أن الأمر ليس بهذه البساطة ، وأن من الخير أن يعترف أصلا بوجود الخلاف ، وألا تكون الطريقة الى الوفاق هى الدهان السطحى الظاهرى للألفاظ والعبارات ببريق لماع ، بل الولوج الصحيح من الباب ، وحصر الخلاف فى نطاقه المحدود ، ثم تلمس الاستفادة من الدائرة الواسعة للاتفاق الحقيقى بدلا من المداهنات التى لاتغنى •

ومن حصر نطاق الخلاف أن يفرق بين ما ثبت فى نصوص الأناجيل المتداولة ، وبين الشروح والتأويلات الفلسفية ، والتقاليد الكنسية وما الى ذلك •

***

هذا هو حق المسيحية على الاسلام كما يوجبه الاسلام ، وللمسيحية حق على مصر تمليه ظروف المكان ، ففى احدى الروايات الانجيليـــة : « وبعد ما انصرفوا اذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم قائلا : قم وخذ الصبى وأمه واهرب الى مصر ، وكن هناك حتى أقول لك ، لأن هيرودس

مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه ، فقام وأخذ الصبى وأمه ليلا وانصرف الى مصر ، وكان هناك الى وفاة هيرودس ، لكى يتم ما قيل من الرب بالنبى القائل : من مصر دعوت ابنى .. فلما مات هيرودس اذا ملاك الرب قد ظهر فى حلم ليوسف فى مصر قائلا : قم وخذ الصبى وأمه واذهب الى أرض اسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى » (١) .

وقد كتب هـ . آيدرس بل Bell أستاذ علم البردى Papyrology بأكسفورد « وعند هذا التاريخ ـ أواخر القرن الثالث ـ ينبغى أن ندخل فى حسابنا عاملا جديدا ، وهو المسيحية ـ التى لاتزال معلوماتنا عن بدء انتشارها فى مصر طفيفة جدا . ولئن كنا نميل الى استبعاد القصة القائلة بأن القديس مرقس هو الذى أسس كنيسة الاسكندرية ، الا أننا نظن أن الدين الجديد لم يكن ليتأخر فى الوصول الى أكبر ميناء فى شرقى البحر المتوسط ، وأنه لم يكن هناك محيص بعد ذلك عن انتشاره فى سائر أنحاء مصر .. على أننا نستخلص من أوراق البردى الأدبية أن المسيحية كانت قد تغلغلت فى مصر الوسطى ومصر العليا ، ولدينا الآن مالا يقل عن سبع قصاصات من البرديات الانجيلية التى يمكن أن ننسبها باطمئنان الى القرن الثانى ، بل ان جميع الباحثين الثقات ينسبون احدى هذه القصاصات التى تتضمن بعض فقرات من انجيل القديس يوحنا الى مستهل القرن الثانى . ولا بد أنه كان يوجد فى مقابل كل بردية مسيحية حفظتها لنا محض الصدف مئات من البرديات التى عفا عليها الزمن ، وأن كل مسيحى كان لديه مثل هذه البردية يقابله عشرات لم يكن لديهم شىء » (٢) .

***

لهذا كله ، احببت أن أكتب عن المسيحية ...

وكان أمامى رواد مصريون فى هذا الباب ، من الأساتذة الثقات ، وقرأت للأستاذ الباحث محمد أبو زهرة فى مقدمة كتابه القيم (محاضرات فى النصرانية) : « عسير على المرء أن يكتب فى رأى يخالف رأيه ، ويقدر مع هذه المخالفة أن يصور الرأى كما يجول بخاطره صاحبه وينبعث فى نفسه ، فيبين دوافعه وغاياته . وان كان ذلك واضحا فى رأى مخالف يرتأى ، فكيف تكون الحال اذا كانت المخالفة فى عقيدة تعتنق وتتغلغل

---

(١) مت ٢ : ١٣ ـ ١٥ ، ١٩ ـ ٢٠

(٢) هـ . ايدرس بل H. A. Bell مصر من الاسكندر الاكبر حتى الفتح العربى ـ ترجمة الدكتورين عواد حسين وعبد اللطيف أحمد على ص ١٦٨ ـ وقد ظهرت أخيرا دراسة بالانجليزية للرحلة المقدسة في مصر .

في أعماق النفس وتستكن في أطوائها ؟! ولكن البحث العلمي يتقاضى الباحث الحر المنصف أن يدرس المسيحية ـ ان أراد أن يعلمها كما يعتقد أهلها ـ مجردا من نزعاته السابقة على الدراسة ، غير جاعل لعقيـــدته سلطانا على حكمه ، حتى لاتسيره في دراسته وتتحكم في اتجاهاته لأن ذلك قد يدفعه لأن يتزيد ·· واذا كان الانصاف قد طالبنا بألا نزيد على ما عندهم ، أو نحرفه عن مراده ومرماه ، فالانصاف يطالبنا بألا نهمـل العقل ، والا خرج بحثنا عن معناه العلمي التاريخي » (١) ·

ما أصعبها اذن من مهمة ···

وأرجع لمؤرخ الحضارة الأستاذ ول ديورانت فتزداد المهمة صعوبة وخطرا : « هل وجد المسيح حقا ، أو ان قصة حياة مؤسس المسيحية ، وثمرة أحزان البشرية وخيالها وآمالها أسطورة من الأساطير ؟ لقد كان بولينجبروك Bolyngbroke والملتفون ـ حوله وهم جماعة ارتاع لأفكارهم فولتير Voltaire نفسه ـ يقولون في مجالسهم الخاصة : ان المسيح قد لا يكون له وجود على الاطلاق ! وجهر فولني Volney بهذا الشك نفسه في كتابه (خرائب الامبراطورية ـ ١٧٩١ م) · ولما التقى نابليون سنة ١٨٠٨ م بفيلاند Wieland العالم الألماني ، لم يسأله القائد الفاتح سؤالا تافها في السياسة أو الحرب بل سأله : هل يؤمن بتاريخية المسيح؟ ولقد كان من أعظم ميادين نشاط العقل الانســــاني في العصر الحديث وأبعدها أثرا ، ميدان (النقد الأعلى) للكتاب المقدس ، والتجهم الشديد على صحته وصدق روايته ، تقابله جهود قوية لاثبـــات صحة الأسس التاريخية للدين المسيحي ، وربما أدت هذه البحوث على مر الأيام الى ثورة في التفكير لا تقل شأنا عن الثورة التي أحدثتهـــا المســيحية نفسها » (٢) ·

كيف السبيل اذن لدراسة المسيحية مع هذه الصعوبات والأخطار ؟

أقصر الطرق هو دراسة الأناجيل المتـداولة ، ان لم يكن هذا هو الطريق الوحيد · ودراسة الأناجيل المتداولة تختلف وجهات النظر ازاءها فقد ألف الأستاذ عبد الوهاب النجار من قبل كتابه (قصص الأنبياء) . وتحدث عن منهجه في مقدمة الطبعة الأولى « أقسم قصص النبي من الأنبياء الى عدة مواقف ·· يغلب أن أذكر ذلك الموقف ان كان له ذكر في كتب العهد القديم (التوراة) أو العهد الجديد (الانجيل) ، وهو أحيانا يوافق

---

(١) محمد أبو زهرة : محاضرات في النصرانية ص ٥ ـ ٦ ·

(٢) ديورانت : قصة الحضارة جـ٣ من م٣ (قيصر والمسيح) ترجمة محمد بدران ص ٢٠٢ ـ ٢٠٣ ·

القرآن وأحيانا يخالفه • ولا يعزب عن فكر القارىء الكريم أن القرآن جاء مصدقا لما بين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فما جاء به هو الحق الذى لا مراء فيه وكل ما يخالفه لا معولٍ عليه •• ولكننى بذلك أنبه الطالب ــ طلبة تخصص الوعظ والارشاد ــ الذى سيكون عرضة للاتصال بأهل الكتابين بحكم مهمته وبصدد أن ترد عليه النصوص منهما فى الموضوعات المختلفة ، ليكون على استعداد للاجابة عما يسأل عنه وتكون عنده فكرة عنها وليأخذ منها ما يساعده على أدلته وبراهينه و •• الخ » • ومع هذا التحفظ الذى أورده المؤلف فقد حقق الأزهر فيما أورده المؤلف فى كتابه، فشكلت لجنة من الأساتذة المشايخ محمد أحمد بديوى ومحمد العزبى رزق وعيسى منون ، أتبعتها لجنة برئاسة الأستاذ الشيخ ابراهيم الجبالى وعضوية الأساتذة المشايخ عيسى منون ومحمد العزبى رزق ومحمود أبى دقيقة بأمر شيخ الأزهر ، وأسفر الأمر عن تقرير مطول رد عليه المؤلف فى الطبعة الثانية للكتاب ، ومما جاء فى هذا التقرير : « نحن والحق يقال فى حيرة شديدة من تصرف الأستاذ مؤلف هذا الكتاب ، ولم نهتد الى جواب عن تصرفه هذا تطيب اليه النفس • ذلك أنه اعتبر (انجيل متى) كتابا ثابتا صحيحا معتمدا يجوز صرف القرآن الكريم عن ظاهره وتأويله على مقتضى ما ورد فى هذا الانجيل ، مع الاعراض عن المأثور فى تفسير القرآن وعما أجمع عليه أئمة التفسير •• يقول فضيلته ويكرر القول ان مسألة المائدة السماوية التى جاء بها القرآن الكريم هى مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين المحكية فى الاصحاح الرابع عشر من انجيل متى ! » • وقد رد المؤلف على هذه المسألة تفصيلا فى الطبعة الثانية ، وأوضح قواعد منهجه فى المقدمة « كتب العهد القديم والجديد ما كان منها موافقا للقرآن فهو حق ، وما كان منها مخالفا للقرآن فهو باطل ، وما كان القرآن ساكتا عنه فلا نقطع بصدقه ولا بكذبه ويجوز نقله واستئناس به • أقوال المفسرين ليست حجة قاطعة فيما نصت عليه ، بل هى أوجه ، كما يجوز حمل عبارة القرآن عليها يجوز مخالفتها وحمل عبارته على غيرها ولا مؤاخذة على من خالفها • القرآن الكريم لا تنقضى عجائبه ولا تنفد غرائبه ، فلكل امرىء أن يتدبره بعقله ويفهمه على الوجه الذى يستقر فى اعتقاده ، بشرط أن يكون ذلك جاريا على مقتضى العربية غير مخل بفصاحته ولا مخل بشىء من مقاصد الدين • متى اختلف التابعون لم يكن بعض أقوالهم حجة على بعض » (١) •

---

(١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ــ الطبعة الثالثة (المكتبة التجارية) المقدمة ، هامش ٤١٣ •

وعلى النقيض من مذهب اللجنة التى انتقدت كتاب الأستاذ النجار، كان رأى الأستاذ العقاد « وليس من الصواب أن يقال ان الأناجيل جميعا عمدة لا يعول عليها فى تاريخ السيد المسيح ، لأنهـا كتبت عن سماع بعيد ولم تكتب من سماع قريب فى الزمن والمكان ، ولأنها فى أصلها مرجع واحد متعدد النقلة والنساخ ، ولأنها روت من أخبار الحوادث ما لم يذكره أحد من المؤرخين كانشقاق القبور وبعث موتاهم وطوافهم بين الناس ـ وما شابه ذلك من الخوارق والأهوال ... **وانما الصـواب أنهـا العمدة الوحيدة فى كتابة ذلك التاريخ** ، اذ هى قد تضمنت أقوالا فى مناسباتها لا يسهل القول باختلاقها . ومواطن الاختلاف بينها معقولة مع استقصاء أسبابها والمقارنة بينها وبين آثارها ، ورفضـها على الجملة أصعب من قبولها عند الوجوع الى أسباب هذا وأسباب ذاك . **فانجيل متى** : مثلا ملحوظ فيه أنه يخاطب (اليهود) ويحاول أن يزيل نفرتهم من الدعوة الجديدة ، ويؤدى عباراته أداء يلائم كنيسة بيت المقدس فى منتصف القرن الأول للميلاد . وانجيل مرقس : على خلاف ذلك ملحوظ فيه أنه يخاطب (الأمم) ولا يتحفظ فى سرد الأخبار الالهية التى كانت تحول بين بنى اسرائيل المحافظين والايمان بالهية المسيح . **وانجيل لوقا** : يكتبه طبيب ويقدمه الى سرى كبير فيورد فيه الأخبار والوصايا من (الوجهة الانسانية) ويحضر فى ذهنه ثقافة السرى الذى أهدى اليه نسخته وثقافة أمثاله من العلية . **وانجيل يوحنا** : غلبت عليه فكـرة (الفلسفة) وبداه بالكلام عن الـكلمة Logos ، ووصف فيه التجسد الالهى على النحو الذى يألفه اليونان ومن حضروا محـافلهم ودرجوا معهم على عادات واحدة . وسواء رجعت هذه الأناجيل الى مصدر واحد أو أكثر من مصدر ، فمن الواجب أن يدخل فى الحسبان أنها هى العمدة التى اعتمد عليها قوم هم أقرب الناس الى عصر المسيح ، وليس لدينا نحن بعد قرابة ألفى سـنة عمدة أحق منها بالاعتماد » (١) .

والكتاب الذى بين يدى القارىء سيستند الى الأناجيل المتداولة فى

---

(١) العقاد : عبقرية المسيح (كتاب اليوم) ص ١٩٤ ـ ١٩٥ ، ويذكر أوجان جولى أن ثمة قرائن جغرافية وتاريخية تعزز ما ورد فى الاناجيل ، فقد كشف التنقيب عن أبواب (بيت حسدا) الخمسة ، وتنسجم موعظة الجبل مع منظر شـاطىء بحيرة ، ونبوءات نهاية العالم لا تلائم الا أورشليم ، ومفاوضات بيلاطس وهيرودس وقيافا أثناء محاكمة المسيح انما تتبين فى ضوء المعروف عن تداخل السلطات السياسية والدينية حوالى سنة ٣٠ م ، اذ تغير الوضع بعد اضطرابات سنة ٤٤م ، وانقلب تماما عقب ثورة سنة ٦٦ م . (ما هو الايمان ؟ الترجمة العربية ـ مطبوعات دار السلام ص ٣٩) .

الحديث عن المسيحية .. فأنا أريد أن أتحدث عن المسيحية من وجهة نظر أهلها ، وأريد أن أثبت للمسلمين والمسيحيين أن مجال الخلاف أضيق من أن يحجب كلا من الدينين العظيمين عن معتنقى الدين الآخر ، وأن بجانب المجادلات العقائدية الذائعة المحدودة ، آفاقا رحبة فى الأناجيل المتداولة تفيض بالدعوة الى الخير والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

وكثيرا ما تجذبنى نصوص الأناجيل المتداولة الى مواقف مشابهة فى الاسلام ، وهذا التوارد والتقارب والتمازج أكبر شاهد على وحدة دين الله على ألسنة جميع المرسلين والكتب .

والدين المسيحى ـ كالدين الاسلامى ـ يواجه اليوم أخطارا بالنسبة للعقلية المعاصرة ، فلا حرج أن تتعاون الثقافتان فيما يتفقان عليه انتصارا لقضية التدين جملة وهى تتعرض للامتحان . وأنا ما زلت متفائلا من كفاءة العقل البشرى لمهمته التى تتضخم أعباؤها يوما بعد يوم ، واثقا من أنه ـ فى الحساب النهائى والمدى البعيد ـ لن يتهاوى أو يطيش ، مؤمنا كذلك بأن (الدين) لن يفقد صلاحيته لأى بيئة أو جيل .

وهأنذا أؤدى واجبى ، وأطلع قومى على ما عند أهل المسيحية اليوم من تراث ، وأطلع أهل المسيحية على ما عند واحد من المسلمين : ما فى قلبه من مشاعر وما فى عقله من خواطر ، وهو واحد يحسب أنه وهو يقول ما يقول لن يتخلى عن اخلاصـــــه لدينه ، بقدر مالا يفرط ـ قدر طاقته المتواضعة ـ فى الحيدة والانصاف ، وهو يتحرى جهده ـ ألا يتورط فى المجاملة أو التحامل على السواء .

ويرجو أن يكون العمل الذى يتقدم به اليوم مقبولا عند الله ، مثمرا بين الناس .

ديسمبر ١٩٦١

فتحى عثمان

خطوط ... من الصورة

لبترسون سميث

* ينتسب المسيح الى (الناصرة) ، وجاء مولده فى بيت لحم « لأنه صدر أمر من اغسطس قيصر بان يكتتب كل المسكونة فصعد يوسف ايضا من الجليل من مدينة الناصرة الى اليهودية الى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى »

* نشأ المسيح كصبى عادى مطيع واخذ « يتقدم فى الحكمة والنعمة عند الله والناس »

* يحتفل ببلوغ الصبى اليهودى (الثانية عشرة) من عمره اذ يصير (ابن الناموس) ويتحمل تكاليف الدين ويباح له أن يذهب الى الاعياد والمحافل ولما بلغ اثنتى عشرة سنة صعد مع أبويه الى أورشليم كعادة اليهود فى عيد الفصح وقد بهت الاحبار من فهمه وأجوبته « وكانت امه تحفظ جميع هذه الامور فى قلبها »

* فى سن الثامنة عشرة توفى (يوسف النجار) . ليعول والدته فاشتغل بالنجارة

* بلغ المسيح (الثلاثين) وكان (يوحنا المعمدان) قد اخذ ينذر القوم « توبوا فانه قد اقترب ملكوت السموات .. حينئذ جاء يسوع من الجليل الى الاردن

ليعتمد منه » وبين المسيح والمعمدان أشهر قلائل في تاريخ الميلاد ٠

* بعد المعمودية تعرض المسيح لاختبار نفسي ، فواجه (تجربة) مع ابليس بعد أن صعد في البرية ، واستغرقت أربعين يوما كما يذكر (لوقا) التقى المسيح بتلاميذه بعدها ، وروى (يوحنا) ذكرياته مع المسيح خلال ثلاث سنوات اتصل به فيها عن قرب وبينهـا ذكريات (الاسبوع) الذي أعقب التجربة ، في حين نجد متى ومرقس ولوقا ينتقلون رأسا من الاشارة لواقعة التجربة الى فترة الخدمة في الجليل ٠ وفي أواخر هذا الاسبوع صعد المسيح مع أهله الى أورشليم في عيد الفصح وانتقد بشدة أن يجعل الهيكل متجرا وأن يصير بيت الصلاة مغارة لصوص ، وتحدى أحبار اسرائيل ٠

* عاد المسيح الى الريف وتجول فيه مع تلاميذه (ثمانية أشهر) ينشر دعوته وهدايته ٠٠ لقد مرت (السنة الاولى) من حياته في هدوء وقد غمض الكثير من أحداثها في حين حملت السنة (الثانية) في طياتها عصفا وقصفا وكانت (الثالثة) محنة ٠ وفي خلال العام الأول كان مقتل يوحنا المعمدان على يد هيرودس « ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف الى الجليل وابتدأ ينادي ويقول : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات » ٠ وهنا تأتي مرحلة الدعوة المباشرة أو (الخدمة العلنية) التي عنيت بها الاناجيل ، واعتبرت ما قبلها تمهيدا لها

* في حياة المسيح ٤ مدن بارزة : (بيت لحم) حيث ولد ، (الناصرة) على مدرج دائري طبيعي في الجبال التي اليها ينتسب ، و (أورشليم) حيث لقي النهاية ٠٠ ثم (كفر ناحوم) على ضفاف بحيرة الجليل التي قضى فيها أكثر من سنة ٠ وكان جنوب فلسطين يبغض شمالها وقد نقلت الأناجيل من كلمات القوم ما يعكس مشاعرهم « انه لم يقم نبي

من الجليل » « أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح !! »

* بدأت الآيات تظهر على أيدى المسيح فى شفاء المرضى (بكفر ناحوم) وبخاصة من الحمى التى توطنت الاقليم المتاخم (لبحيرة الجليل) ، ومع ذلك قال المسيح مستنكرا : « ما لم تروا عجائب وآيات لن تؤمنوا » !! وفوق مياه (بحيرة الجليل) كد التلاميذ لكسب عيشهم ، وهناك جلس المسيح فى السفينة يعلم الجموع ، وجرت معجزة صيد السمك الكثير ومشى المسيح فوق الماء ووجه المسيح أتباعه ليكونوا « صيادى الناس » !

* أخذ المسيح يتنقل فى (قرى الجليل) مستخدما السفينة التى وضعها بطرس تحت تصرفه فى التنقل بين شواطىء البحيرة ، وانتهى الى (الناصرة) « حيث كان قد تربى » ولما يمض عليه عام منذ هجرته تلك الربوع والتقائه بالمعمدان فى البرية • وانتهى المسيح من جولته فى بلده الى أنه « ليس نبى مقبولا فى وطنه » !

ورجع الى (كفر ناحوم) التى أصبحت «مدينته» لكثرة ما أقام بها وهناك واصل شفاء المرضى «وكان فريسيون ومعلمون للناموس جالسين وهم قد أتوا من كل قرية من الجليل واليهودية وأورشليم » وكان يحادث العشارين والخطاة ويجالسهم ، ولا يفعل شيئا للقضاء على أعدائه أو استرداد ملك اسرائيل، بينما كانت معجزاته تتوالى قارعة صادعة ، ومن هنا وهناك اخذ الحقد والتعصب يتسللان الى القلوب •• حتى فى (كفر ناحوم) !

* استعلن العداء بعد تسعة أشهر أمضاها المسيح فى ربوع (الجليل) ولم يعد مقامه فى (كفر ناحوم) هادئا رخيا ، وتأجج الموقف بعد زيارة أخرى منه (لأورشليم) « فكان يسوع يتردد بعد هذا فى

الجليل لأنه لم يرد أن يتردد فى اليهودية لأن اليهود كانوا يريدون أن يقتلوه »

* وأمضى المسيح مع حوارييه (أسبوعا فى عزلة (بجبل حرمون) ، أمضاه فى تربيتهم واعدادهم « وبعد ستة أيام أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا وصعد بهم الى جبل عال وتغيرت هيئته قدامهم .. وفيما هو يتكلم اذا سحابة نيرة ظللتهم وصوت من السحابة قائلا : هذا هو ابني الحبيب الذى به سررت ، له اسمعوا وسقطوا على وجوههم ولم يدروا شيئا حتى جاء يسوع ولمسهم ... » ثم انقضت الايام الاخيرة (بكفر ناحوم) فى تعليم وتوجيه ولم يكن فيها الا القليل من المعجزات والتعاليم العلنية العامة . كانت صحبة طيبة للمسيح مع الاثنى عشر « وحين تمت الايام لارتفاعه ثبت وجهه لينطلق الى أورشليم »

* ذكريات (الرحلة) الى أورشليم اختص بها لوقا اذ رواها فى ٣٠٠ آية فى منتصف انجيله بينما مر بها متى ومرقص مرورا عاجلا وينتقلان الى(أسبوع الآلام) ، وعني يوحنا بالحوادث داخل أسوار أورشليم . ويقضي المسيح ستة أشهر حافلة بعناء التجوال المتتابع لايكاد يستقر يأخذ حذره ويتوقى تدابير أعدائه « للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار وأما ابن الانسان فليس له من يسند رأسه » !

وقدم المسيح (أورشليم) وقد مضيت نصف أيام (المظال أو الحصاد) فى ١٨ تشرين ــ أكتوبر سنة ٢٨ م . ولما أحدق به خطر اليهود على أثر صيحاته ومعجزاته خلال الايام الثلاثة التى قضاها هناك استطاع الفرار الى البرية مع جماعته الصغيرة

* وبعد (شهرين) من التجوال جاءالمسيح (أورشليم) مرة أخرى فى ديسمبر سنة ٢٨ م . وصادف ذلك

ذكرى جهاد يهوذا المكابى منذ مائتى عام • وهنا يتعرض المسيح للرجم « لأجل تجديف لأنك وانت انسان تجعل نفسك الها »

ومرة أخرى يخرج الى (البرية) ويمضى الى (عبر الاردن) حيث كان يوحنا المعمدان يعمد أولا وهناك تتوالى معجزات المسيح ووصاياه وتاتى حادثة (اقامة لعازر) من الاموات تستثير البقية الباقية من رباطة جاش اليهود !

واجتمع (مجلس السنهدريم) على عجل قبل أن يؤمن الشعب بالمسيح بعد هذه المعجزات ويتوجه ملكا ويتعرض اليهود بذلك لسخط الرومان !! وجاء القرار الحاسم : « خير ان يموت انسان واحد عن الشعب » وهرع المسيح الى (افرايم) فى البرية يقضى مع تلاميذه أسابيعه الاخيرة •

* ويقترب (الفصح) ويحج المسيح (حجته الاخيرة الى أورشليم) « وكنا فى الطريق صاعدين الى أورشليم ويتقدمنا يسوع وكنا نتحير وابتدأ يقول لنا عما سيحدث له ••• » ولا يتخلى المسيح فى طريقه عن معجزاته وتعاليمه• ثم يدخل (أورشليم) فى شعبية مهيبة ليتحدث فى صراحة ووضوح ، ويضع النقط والخطوط على الحروف !!

* وبيت اليهود (المؤامرة) •• حاولوا أن (يصطادوه بكلمة) ضد روما أو ضد الناموس •• ثم خامر معهم (يهوذا) •• وبعد أن تناول المسيح (عشاء الوداع الاخير) مع حوارييه خرج يتمشى ليلا فى (بستان جشيمانى) ، ثم صلى ••

وأقبل الجند الرومان يلقون القبض على (المسيح) بارشاد (يهوذا) •• وقد شنق يهوذا نفسه بعد أن أنجز مهمته !!

* أدان مجلس (السنهدريم) المسيح بعد محاكمة صورية وأحاله الى الوالى الرومانى (بيلاطس) الذى

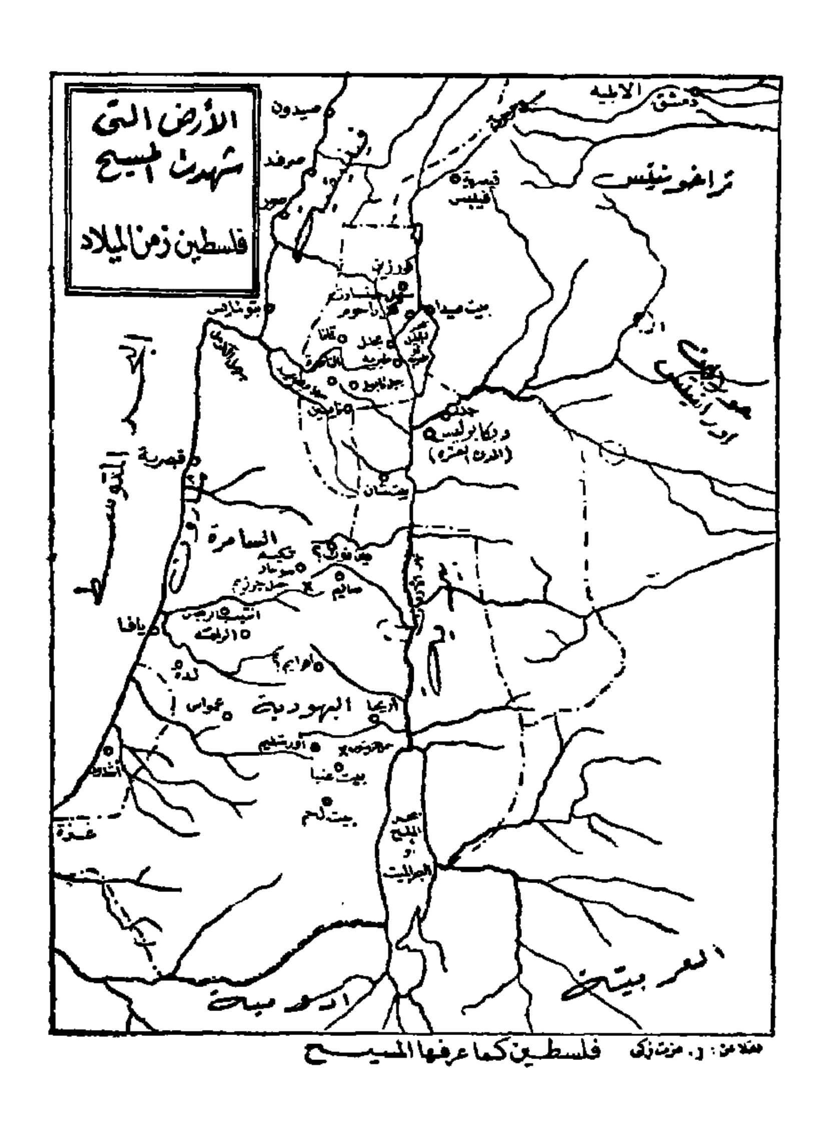
حاول أن يتخلص من القضية الشـــائكة باحالتها (لهيرودس) بدعوى الاختصاص الاقليمى ، ولكن هيرودس صاحب التجربة الاليمة مع يوحنا المعمدان أعادها اليه بالتالى وحاول بيلاطس اقناع اليهـــود كى يطلق سراح المسيح ففشل ·· وهكذا صـــدر على المسيح حكم الموت ·

مستمدة من « الأناجيل الأربعة »

وكتاب بيترسون سمث : السيرة الشعبية للمسيح

إطار ... من البيئة والتاريخ

« وأنت يا بيت لحم ـ
ارض يهوذا ـ لست الصغرى
بين رؤساء يهوذا ، لأن منك
يخرج مدبر ، يرعى شعبى
اسرائيل » (مت ٢ : ٦)



نقلا عن: د. عزت زكي فلسطين كما عرفها المسيح

أرض

حوض البحر المتوسط له قدم راسخة فى التاريخ ..

فمن شماله وجنوبه أطلت مدنية الاغريق ومدنية الفراعنة ، وفى شرقيه تحدثت الآثار عن الفينيقيين، وأهل ميثانى، والحيثيين ، والبابليين، والأشوريين ، وسمعنا عن الكلدانيين ، والعبرانيين . ومن شماله وجنوبه تصارعت روما وقرطاجنة .. وهـكذا تدافعت موجات البشر مع موجات البحر العتيد !!

وبلاد الشام من أقدم العصور معبر بين قارات العالم القديم : آسيا وافريقيا وأوربا وفلسطين (١) هضبة تعلوها سلسلة من الجبال ترتفع عن مستوى ساحل البحر المتوسط فى الغرب ، وعن مستوى صحراء الشام فى الشرق ، يخترقها الاردن من الشمال الى الجنوب ، ويتخلل أرضـــها كثير من السهول والوديان . وأظهر أقسامها :

(ا) **سهول** المنطقة المحصورة ، بين هضبة اليهودية Judaea وساحل البحر المتوسط ، وهو الطريق التاريخى الذى سلكه غزاة فلسطين منذ القدم . والسهل الساحلى الذى يمتد فى محاذاة الساحل الشرقى للبحر المتوسط من خليج الاسكندرونة الى سينا ضيق فى الشمال والوسط ، ثم يأخذ فى الاتسـاع جنوبا حتى يبلغ ٢٠ ميلا عند غزة . وسلسـلة الجبال الممتدة على موازاة الساحل تنحدر نحو الجنوب وتنتهى دون فاصـــل الى هضبة الجليل .

(ب) **الهضبة** الغربية : وهى مجموعة سلسلة تلال يطلق عليها تلال اليهودية ، وتتميز بانحدار خفيف من الجهة الغربية وشديد من جهتـه الشرقية ، ويخرج كثير من التلال العمودية عليها وتتجه شرقا وغربا .

---

(١) للتعريف الجغرافى فى اجمال يراجع : دكتورة نجلاء عز الدين : العالم العربى ص ٢٢ : ٢٥ ، دكتور عبد الرحمن زكى : الشرق الأوسط ص ١٥٩ ـ ١٦٠

ويفصل مرج ابن عامر الجليل عن هضبة اليهودية التى تندمج فى النقب . وتنحدر الهضبة فى شرقى الأردن شرقا وجنوبا حتى تنــدمج فى بادية الشام .

(حـ) **ولدى نهر الأردن** والبحر الميت ، وهذا الوادى خنـــدق جيولوجى عظيم (أخدود) يمتد من آسيا الصغرى (تركيا) الى خليج العقبة ، ووسطه يضــم وادى البقاع بين سلسلتى جبال لبنان ولبنان الشرقى ، ويستمر الخندق جنوبا حتى يبلغ أقصى انخفاضه فى حوض الأردن وهو أعمق منخفض برى فى العالم . وبين بحيرة طبرية والبحر الميت يوجد (الغور) ، وهى كلها تحت مستوى سطح البحر وتبلغ أعمق نقطة فيها ١٣٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر عند ساحل البحر الميت .

ومن هنا يأتى ذكر المياه والسفن والصيد فى ثنايا الأناجيل « واذا كان يسوع ماشيا **عند بحر الجليل** ، أبصر أخوين : سمعان الذى يقال له بطرس . واندراوس أخاه ــ يلقيان شبكة فى البحر ، فانهما كانا صيادين » (مت ٤ : ١٨ ، مر ١ : ١٦).

« ولما رأى يسوع جموعا كثيرة حوله ، أمره بالذهاب الى **العبر (فى يوحنا : عبر بحر الجليل وهو بحر طبريه** ــ ٦ : ١) ... ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه ، واذا اضطراب عظيم قد حدث فى البحر حتى غطت الأمواج السفينة ... ثم قام وانتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم ... ولما جاء الى العـــبر الى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان ... وكان بعيدا منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى ، فالشياطين طلبوا اليه قائلين : ان كنت تخرجنا فائذن لنا أن نذهب الى قطيع الخنازير ، فقال لهم : امضوا ... واذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف الى البحر ومات فى المياه ، أما الرعاة فهربوا ومضوا الى المدينة ، وأخبروا عن كل شىء وعن أمر المجنونين ، فاذا كل المدينة قد خرجت لملاقاة يســـوع ، ولما أبصروه طلبــوا أن ينصرف عن **تخومهم** ، فدخل السفينة واجتاز وجاء الى مدينته » (مت ٨ : ١٨ ــ ٣٤ ، ٩ : ١ ، مر ٤ ، ٥ ، لو ٨ ، يو ٦) .

« فانصرف يسوع مع تلاميذه الى البحر ، وتبعه جمع كثير من الجليل ومن اليهودية ومن أورشليم ومن أدوميه ، ومن عبر الأردن والذين حول صور وصيداء ، جمع كثير اذ سمعوا كم صنع أتوا اليه ، فقال لتلاميذه أن تلازمه سفينة صغيرة لسبب الجمع كى لايزحموه » (مر ٣ : ٧ ــ ٩) .

***

ونهر الأردن منخفض عن سطح البحر ، له ٣ منابع من سفح جبل حرمون والرابع يصب فيه من الغرب ويمر النهر ببركة ضحلة تعرف (بمياه حيروم) ويستمر فى سيره حتى يصب فى **بحر الجليل** ومنه يخرج فى طريق متعرج الى (البحر الميت) ؛ وتكون سرعة المياه عظيمة لانحدارها من المنابع المرتفعة الى البحر الميت المنخفض وتختلط المياه بالطين كلما تقدم سيرها . وبين الجليل والبحر الميت يمر الأردن بمنطقة غنية بالخضرة من الحور والصفصاف والغاب . وقد اكتشفت أماكن كانت ما هولة بالسكان منذ أكثر من ٢٠٠٠ عام فى الضفة الشرقية للأردن . ويبلغ طول بحر الجليل ١٣ ميلا وعرضه ٨ أميال وتكون مياهه زرقاء فى وضح النهار وتحمر عند الغروب . والى جوارها (جبل حرمون) الذى يرتفع الى ١٠,٠٠٠ قدم فوق سطح البحر ، فى حين ينخفض مستوى بحر الجليل الى ٧٠٠ قدم تحت مستوى سطح البحر ، ومن هنا يتعرض لزوابع مفاجئة . وفى عصر المسيح كانت تحيط به ٩ **من أجمل المدن** تحوى الهياكل والمجامع اليهودية بجانب الحمامات والمسارح وساحات السباق والقصور وتتوفر فيها الخضرآوات كما كان السمك فيها يصاد ويملح .

ومن هذه المدن **طبرية** التى بناها هيرودس الكبير واسماها نسبة (الطبريوس قيصر) وجعلها أقوى قلعة في الجليل . ولما كانت المدينة فى اتساعها قد امتدت الى بقايا جبانة قديمة للموتى فان اليهود المتورعين كانوا يعتبرون من يدخل تلك المنطقة نجسا يلزمه التطهر . ومن هنا كان سكان طبرية من (يهود الشتات والأمم) وقد أصبحت بعد سقوط أورشليم مركز المجامع والثقافة اليهودية وهناك أكمل التلمود . والبلدة غنية بالينابيع الحارة . وليس فى الأناجيل المتداولة ما يشير الى دخول المسيح طبرية . والى شمالى غربى المدينة يرى الرائى قمتين ارتفاعهما ٢٠٠٠ قدم يعرفان (بقرون هاتين) وهما فوهتا بركان خاق ويعتقد أن (موعظة الجبل) كانت فى هذا الموضع . كذلك انتصر هناك صلاح الدين على الصليبيين « ولقيت المسيحية الاسمية الكاذبة ــ كما قال أحد المؤرخين ــ نهايتها فى نفس المكان الذى نادى فيه السيد بالتسامح وقدم انجيل الاخاء والمحبة » ... (١)

---

(١) قارن ذلك بما يذكره بترسون سمث « لقد باءت الحروب الصليبية بالفشل وظلت الأرض المقدسة فى قبضة الأتراك ولكن حادثا خطرا حدث بعد ذلك فانه بعد الحملات الصليبية السبع وبعد فشل امتد الى الف سنة بعثت انجلترا بحملتها الصليبية الثانية وفازت انجلترا هذهالمرة !! اننا نعيش فيعصر حافل بالعجائب حقا ، ونحن =

وعلى ثلاثة أميال الى الشمال تقع **المجدل** بلدة (مريم المجدلية) وكانت مشهورة بالصباغة فى عصر المسيح والى جنوبيها وادى جنيسارت حيث تجود زراعة الكروم والتين والزيتون والنخيل وفى هذا الوادى تحدث المسيح بأمثاله عن الزارع والحاصد وحقول الحنطة وزنابق الحقل والأمطار التى تهبط على الأبرار والظالمين ...

والى الجنوب الغربى من البحيرة تقع **كفر ناحوم** حيث تحدث المسيح فى مجمعها مرارا وقام بمعجزات كثيرة وهو الآن خرائب (تل حوم) . وكشفت الحفريات عن مجمع لليهود كانت واجهته تتجه الى أورشليم ولابد أن يكون مجمعا غير الذى كان يعظ فيه المسيح ذلك أن تيطس سنة ٧٠ م وهادريان **Tirus, Hadrian** سنة ١٣٠م قد قاما بهدم جميع المجامع . وعلى احدى أعمدة المجمع المكتشف نجد منقوشا اسم (زبدى بن يوحنا) . فهل تراه من سلالة يوحنا البشير ؟ والعجيب أن نجد بين نقوش الجدران علامة (النسر الرومانى) !! وقد عاش المسيح حقبة طويلة فى (كفر ناحوم) ويشتغل أهلها بالتجارة والصيد ومنهم بعض المتهودين من (يهود الشتات) وهى أكبر من (الناصرة) التى عاش فيها المسيح فى طفولته وعاصرها فى شبابه . فكفر ناحوم على بحر الجليل انيقة ومبانيها فاخرة من بينها المجمع الذى ماتزال خرائبه باقية وكانت مركزا تجاريا هاما تعداده بين ١٥ و ٢٠ ألفا وسكانها خليط من اليهود الأصلاء ويهود الشتات بينما كانت الناصرة مدينة صغيرة سكانها محدودون متعارفون . والى الجنوب الغربى من كفر ناحوم فى مكان يسمى (عين طبقة) توجد بقايا كنيسة من القرن ٤م تدعى كنيسة السمك والأرغفة . وقد أنذر المسيح بالويلات (كورزين وبيت صيدا وكفر ناحوم) (لو ١٠ : ١٣ ـ ١٥) وتوجد الآن خرائب مدينة تسمى (كرزة) على بعد ميلين من كفر ناحوم اكتشف فيها بقايا مجمع ، اما (بيت صيدا) أو بيت الصيد فتقع على شرقى الأردن وقد أعاد بناءها فيليب وأسماها (جوليا) نسبة الى ابنة الامبراطور .

= فى نهاية الحرب العظمى (الاولى) وسط هتاف النصر وقرقعة عروش الامبراطوريات المتناثرة لم نعر هذا الحدث الجلل فى الارض المقدسة التفاتا ، وقد كسبت الحملة الصليبية الأخيرة لواء النصر وتحررت الأرض المقدسة من قيود الأسر وعادت الى فلسطين مرة أخرى فرصتها فى الحياة ! ومن يدرى ماتبطنه الأيام فى المستقبل : أتعيد فلسطين قصة عهدها القديم ؟ أنزخر ثانية فنصير جنة الرب » ـ حياة يسوع ـ ترجمة حبيب سعيد ص ١١٢ .

والى الشمال تقع مدينة **صور** الساحلية وقد أقيمت على جزيرة صخرية تبعد عن الساحل بنصف ميل وكانت مركزا تجاريا هاما ، وحين أراد سليمان أن يبنى الهيكل ارسل الى حيرام ملك صور ليرسل اليه من يقومون بقطع الأخشاب وتجهيزها (الملوك الاول ٥ : ٦) وفى (حزقيال) نجد وصفا دقيقا لرخاء صور وتجارتها الدولية فى الفضة والحديد والقصدير والرصاص والعاج والابنوس والكتان والمرجان والعطور والأحجار الكريمة والذهب . وقد حفظتها حصانتها من الغزو قرونا ونجح الاسكندر فى فتحها بعد حصار عنيف . وقد أعاد هيرودس الكبير بناء صور وبنى فيها هيكلا وفى القرن الثانى كانت مركز أسقفية ودمرت كنيستها الأولى أثناء الاضطهاد ثم أقيمت بها كاتدرائية فاخرة فى عهد قسطنطين ، واتخذها الصليبيون قاعدة لأعمالهم البحرية .

وفى عصر المسيح كانت (**العشر مدن**) أو الديكا بوليس من أجل مناطق فلسطين وكانت مدنا يونانية عدا واحدة تقع شرق الأردن . وتعد (جيرازة) من أروعها وتقع جنوبى شرقى بحر الجليل وكان فيها هياكل ومسارح وطرقات ذات أعمدة وحمامات وقد اكتشفت بها آثار حلبة مصارعة وبحيرة صناعية وتحت الارض كان هناك نظام دقيق من المجارى لتصريف المياه .وفى (الطريق بين أريحا وأورشليم) يقع فندق (السامرى الصالح) وهو الوحيد فى ذلك المكان المقفر وقد بنى فى عهد الرومان أو قبله بقليل .

أما **بيت عينا** فتقع على الجانب الشرقى لجبل الزيتون حيث تقع الآن قرية (العازرية) وهناك كهف يقال انه قبر (لعازر) ينزل اليه بعشرين درجة . ومن على سفح التل يرى الرائى وادى الأردن وجبال مؤاب ويستشرف أورشليم .

وتقع مدينة **الناصرة** على قمة جبل عال فى الجليل وبجوارها ينبوع يعرف الآن (ببئر مريم) والى الغرب يقع (جبل الكرمل) وتتلاطم أمواج البحر عند قاعدته والى الشمال الشرقى (جبل حرمون) الذى تتوجه الثلوج معظم السنة والى الشرق (جبل طابور) وسفح الجبل الذى تقوم عليه المدينة منحدر خصيب تغطيه فى الربيع الزهور البرية . وكانت الناصرة فى عهد المسيح تقع على الطريق الرئيسى الموصل الى (سفوريس) عاصمة الجليل وهى التى زينها هيرودس بعمائره . وعاصر المسيح فى طفولته ثورة (يهوذا الجليلى) على روما وقد احتل سفوريس ولكنه هزم عند طبرية وأحرقت سفوريس وصلب ألفان من جنوده وسبى الباقون فى روما . وقد أعاد هيرودس انتيباس بناء سفوريس .

والى الجنوب من أورشليم تقع **بيت لحم** على مسافة ستة أميال وفيها (**كنيسة المهد**) التي اقامها الامبراطور قسطنطين وقامت بتدشينها امه هيلانه وقد بنيت فوق المغارة التي يعتقد أن المسيح قد ولد فيها . وأعيدت عمارة الكنيسة على صورة افخم فى عهد جستنيان (٥٢٧ : ٥٦٥م) . ويروى أن الفرس لم يتعرضوا لها خلال فتحهم للشام عام ٦١٤م حين رأوا على مدخلها صورة المجوس الثلاثة بملابسهم الفارسية يقدمون الهدايا للوليد المبارك .

ولسنا نعرف بالضبط كيف كانت صورة **أورشليم** فى عهد المسيح، وكان يشقها الوادى التيروبى وهو الآن منخفض ضئيل يمر به القادم من الشمال بين جدارين بنيا لحماية المدينة وأضاف اليهما هيرودس انتيباس ثالثا لم يكمل حتى عام ٧٠ م • ويرجح أن (كنيسة القيامة) بنيت خارج الجدار الثاني وخلف الثالث - وقد بنى هيرودس الكبير جدار المدينة وأقام فى جانبها ٣ أبراج حصينة كما ذكر المؤرخ يوسيفوس فى وصفها وزينها بمسرح وساحة سباق ومدرج دائرى (أمفيتيانز) وهكذا كانت أورشليم مدينة رومانية الطابع لا يميزها عن سواها من المدن الرومانية غير (الهيكل) و (مجمع الكهنوت) اليهودى • وكان الهيكل مكان (قبة الصخرة) وقد احاطه هيرودس بجدران ثلاثة ضخمة بقى منها حائط المبكى ، كما كانت للهيكل ساحة داخلية تحوطها اروقة ذات أعمدة وأخرى خارجية ، ويقول يوسيفوس انها من صنع سليمان ولعلها (رواق سليمان) الذى اجتمع فيه التلاميذ بعد معجزة اقامة المقعد (٣ أعمال ١ : ١١) والى الجنوب تحيط بالهيكل الأروقة الملكية وترتكز على ١٦٢ عمودا ضخما • ويفصل الساحة الداخلية عن الخارجية سياج حجرى عليها لافتات تنذر الوثنى بالموت اذا اجترأ على الدخول . ومن الساحة الخارجية طرد المسيح الباعة والتجار ، وكان العابدون يدخلون للهيكل من ٩ بوابات ضخمة .

وقد امضى المسيح (أيامه الأخيرة فى أورشليم) حول (هيكل هيرودس) ويشير لوقا (٢١ : ٥) الى الاحجار العظيمة التى بنى بها الهيكل ، وهذا يدل على وجود محاجر كبيرة قريبة • وفى منتصف القرن ١٩م كشف كهف يؤدى لمحاجر سليمان الملكية وبها طريق يؤدى الى الجبل وبئر وتحيط بها الصخور ولربما احتوت هذه المحاجر كنوزا من الهيكل خبأها اليهود عند (سبى نبوخذ نصر) وحصاره لاورشليم ٥٨٧ ق.م ولعل (تابوت العهد) قد خبىء هناك .

وقد دمرت أورشليم تماما عام ٧٠م على أيدى قوات تيطس الرومانى

وهرب المسيحيون الى بيلا عبر الاردن . وبمرور السنين أخذ الناس في البناء شيئا فشيئا كما عاد المسيحيون الى سكناها . وفي عام ١٢٢م أمر هادريان أن يعاد بناء المدينة على الطراز الروماني فثار اليهود في جميع قرى اليهودية وأخمدت ثورتهم بالقوة . وأقام هادريان على (تل الجلجثة) ــ حيث كانت واقعة الصلب ــ معبدا وثنيا واحاطه بجدار ارتفاعه عشرون قدما وملأ الفراغ بالحجارة والبلاط وزرع الأشجار حول المعبد وأقام فوق القبر تمثالا (لجوبيتر) وعلى قمة التل تمثالا لفينوس وهدم قسطنطين المعبد الوثني سنة ٣٣٦م وأرسل الى الأنبا مكاريوس اسقف أورشليم يطلب بناء(كنيسة القبر المقدس) والبعض يرجح أن ذلك كان على يد الملكة الأم هيلانة . وقد أعيد بناء الكنيسة ، وتكررت عمارتها على صورة أضخم وأفخم بأيدي الصليبيين . ونظرا لتعدد الطوائف فقد احتفظ كل منها بمكان من الكنيسة في حرص، وهكذا شارك فيها الأرثذوكس والأرمن والروم الأرثذوكس والسريان والاحباش والكاثوليك . ويذكر الدكتور (جون الدر) ان الضغائن الطائفية تجعل كنيسة القبر المقدس مكانا لا يحس فيه المرء بجلال المسيحية ولا حتى بأنه مكان عبادة « ولعل الاسقف جوركان متسامحا للغاية حينما شبه الطوائف في الكنيسة بأطفال وشبه تقاليدهم بأنها دمى يلعبون بها » ! وهناك بقعة أخرى قرب كنيسة القبر المقدس يعتقد أنها القبر الحقيقي قرب مكان يدعى جلجثة غوردن .

أما مدينة دمشق فتقع على نهرين عظيمين ينبع أحدهما من (جبل حرمون) الى الجنوب الغربي الآخر من سلسلة الجبال المقابلة لهذا الموضع من الغرب وهي جبال لبنان . وكل من النهرين يروى دلتا خصبة . ويقترن اسم دمشق بايام (ابراهيم الخليل) عليه السلام في العهد القديم كما يتصل في أيام العهد الجديد اذ دخلها (شاوول) ــ بولس بعد الرؤيا التي انتهت باعتناقه المسيحية . وفي أيام ملوك اسرائيل كانت دمشق معادية ، وقد غلب عليها الاشوريون والاغريق والرومان وفي عهد المسيح كانت جزءا من ملك الحارث الرابع الذي امتد ملكه الى بترا Petra واستمر خمسين عاما (٩ق٠م : ٤٠م) وقد تزوج هيرودس انتيباس ابنته ثم طلقها ليتزوج هيرودويا زوجة أخيه فوقعت حروب بين الملكين ويرد اسم الحارث في (سفر الاعمال) ويتحدث عنه بولس كملك دمشق ، ولعلها خرجت عن الولاء للرومان فترة من الزمن .

وتتصل **قيصرية** كذلك بتاريخ المسيحية المبكر وفيها رأى كرنيليوس قائد المائة في الكتيبة الايطالية رؤياه واستدعى بطرس من يافا لتأويلها .

وفيها قدم بولس دفاعه أمام فيلكس وفستوس ومعهما هيردوس أغريباس وبرنيكى ومع ذلك سجن عامين ثم قصد روما لرفع دعواه الى قيصر مصطحبا لوقا فى رحلته هذه وقد أقام هيردوس الكبير قيصرية بين حيفا ويافا وجلب الأحجار وارساها فى قاع البحر لصد التيارات واللجج اذ لم يكن للمدينة مرفأ طبيعى ٠ وقرب الشاطىء أقام هيردوس تمثالى (روما) و (أغسطس قيصر) تلمحهما السفن من بعيد ٠ وبعد موت هيردوس صارت قيصرية مقرا لحكام الرومان يغادرونها الى أورشليم أيام الأعياد لضبط الأمن فيها وبعد انتشار المسيحية أصبحت قيصرية ذات شأن كبير وصارت مقرا للأسقف ومن اساقفتها المؤرخ الكنسى الشهير يوسابيوس ٠

وفى انطاكية دعى (المسيحيون) بهذا الوصف أول ما دعوا وبعد سقوط أورشليم أصبحت انطاكية مركز الاشعاع المسيحى فى العالم القديم وتقع على نهر الاورنط وتبعد ٢٠ ميلا عن البحر وهى بين سلسلتين جبليتين مما جعل لها موقعا هاما بين الشام وآسيا الصغرى وأعالى الفرات وبين البر والبحر وكانت مركزا أماميا على مشارف جبال طوروس وقريبة من البحر المتوسط وقد بناها سلوقوس الاول سنة ٣٠١ق٠م (من قواد الاغريق الذين اقتسموا امبراطوريته بعد وفاته) ٠ وفى عهد بولس كانت انطاكية تضم أربع مدن مسورة ويحيط بالجميع سور واحد وقد أصبحت بعد الفتح الرومانى عاصمة لوريام وقد عمل فى تجميلها القياصرة المتعاقبون ومهد هيرودس الكبير طريقا طويلا بها رصفه بالرخام وأقام على جانبيه الاعمدة ٠ وكانت انطاكية تعتبر فى ذلك الحين المدينة الثالثة فى الامبراطورية بعد روما والاسكندرية وان كانت سمعتها الاخلاقية سيئة٠ ومن (رسالة غلاطية) نعرف أن بطرس استقر فى انطاكية فترة ٠ وكان لأسقف انطاكية المركز الثالث بعد اسقفى الاسكندرية وروما فى مجمع نيقية المشهور ويخبرنا (يوحنا فم الذهب) انه فى نهاية القرن ٤م كان نصف سكان المدينة البالغ عددهم ٢٥٠ ألفا من المسيحيين وفى الفترة بين عامى ٢٥٢ ، ٣٨٠م عقدت بها ١٠ مجامع كنيسة فكانت انطاكية « أم المسيحية بين الامم» ٠ وقد عثر على كأس فضية تحمل فى داخلها كأسا أخرى أصغر منها ويظن انها الكأس التى تناول فيها المسيح وتلاميذه من نتاج الكرمة فى ليلة (خميس العهد) ٠ وعلى جدار الكأس من الخارج نقشت صور للمسيح مع تلاميذه منها رسم للمسيح وتحت أقدامه (النسر الرومانى) ! وارتأى أحد علماء الآثار ان هذه الكأس لا يمكن أن يتعدى تاريخ صنعها عام ٧٠م ٠ كذلك اكتشفت كنيستان فىسلوقية بيريه ميناء

انطاكية التى أبحر منها بولس وبرنابا وقد بنيت أكبرهما عام ٤٨٠م ٠ وعلى بعد أربعين ميلا توجد بقايا (كنيسة القديس سمعان العمودى) الذى ولد شمالى سوريا عام ٣٩٠م واعتزل الناس فى خلوة على رأس عمود من الحجر ارتفاعه ستون قدما ٠ هذا وهناك أيضا انطاكية بمفيلية التى بناها سلوقوس الاول وفيها ناقش بولس اليهود فى مجامعهم ٠

***

ويذكر الكتاب المقدس رحلتين للرسل الأوائل الى **قبرص** : الأولى قام بها بولس مع مرقص وبرنابا والثانية قام بها برنابا ومرقص معا ونزلا فى سلاميس وكانت بها فى ذلك الوقت مجامع كبيرة لليهود ونجد الآن هناك ديرا باسم برنابا ٠ وبعد أربعمائة سنة من هـــذه الرحلة حاولت كنيسة قبرص الانفصال عن مجمع انطاكية استنادا الى أنها تأسست بأيدى أحد الرسل ٠ وقد واصل الرسل رحلتهم الى يافوس مقر الحاكم الرومانى، وفى تلك الايام كانت الامبراطورية ما بين (أقاليم يحـكمها السناتو) ويرسل عليها من قبله ولاة ، و (أقاليم يحكمها الامبراطور مباشرة) ويولى عليها من قبله الولاة ٠ ويحدد لوقا حكاما من قبـــل قيصر مثل بيلاطس وفيلكس وفستوس كما يذكر عن سرجيوس انه كان من قبل السناتو ٠

وبالقرب من قونية يوجد مرتفعان باسم (بولس وتكلا) والأخير من أهل قونية الذين اعتنقوا المسيحية وهناك سفر غير معترف به يســمى (سفر أعمال بولس وتكلا) كان معروفا للمسيحيين الأولين ٠ وكانت قونية مدينة يونانية حرة مستعمرة ٠ وكانت خاتمة المطاف فى جولة بولس **مدينة دربة، وتقع هذه مع انطاكية بمفيلية وقونية ولسترةفى دائرة غلاطية** ولذلك يرجح أن رسالة بولس الى غلاطية كانت الى مسيحيى هـــذه المدن الأربعة التى خضعت للرومان عام ٦٤ ق٠م ، ومنها رجع الرسل الى انطاكية فى سوريا ٠ وفى رحلة بولس اتجه الى ترواس فى غربى آسيا الصغرى ثم بدأت رحلاته التبشيرية فى أوربا وهنــاك انضم الى بولس وســيلا تيموثاوس فى لسترة ولوقا فى ترواس ٠

وكانت **فيلبى** أول مدينة أوربية بشر فيهــا الرسل وسميت على اسم فيليب المقدونى الذى أسسها عام ٤٠٠ ق٠م ثم أصبحت مستعمرة رومانية عام ٤٢ق٠م٠ ونزلت جماعة بولس فى نيابوليس على بعد ٩ أميال من طريق اجنائيا الذى كان يشـق قلب فيلبى مارآ باليونان ويصل الى روما ٠ وكانت فيلبى مركزا حربيا ممتازا فى عهد بولس ، ومنها تقدم الى تسالونيكى على بعد ٧ أميال على طريق اجنائيا وقد بناها الاسكندر عام

٣١٥ ق٠م وبعدها رحل بولس الى أثينا التى كانت تزينها التماثيل فى كل مكان وكان (الاجورا) Agora أو السوق هو مركزها التجارى والسياسى والثقافي أيضا اما (الاريوس باغوس) Arios Pagos فكان صالة للاجتماعات على تل غربى الاكروبوليس وفيها يجتمع شيوخ المدينة وكبارها لبحث المسائل العامة وفي عهد بولس كان قد انتقل مكان الاجتماع الى مكان مجاور للاجورا ٠ ويبدو أن بولس كان ملما بالفلسفة الرواقية غير ان الفترة التى قضاها في أثينا كانت قصيرة ولم تنته الى نتائج مشجعة ٠

وقد رحل بولس بعد ذلك الى **كورنثوس** عاصمة اليونان التجارية اذ كانت ملتقى تجارة الشرق والغرب وتقع الى الجانب الغربى من البرزخ الارضى الذى يصل الجزء الجنوبى من شبه الجزيرة بالجزء الشمالى منها والذى فكر نيرون فى شق قناة تصل بين مياه الجانبين الغربى والشرقى عنده باستخدام آلاف من يهود سبى أورشليم ولكنه عدل عن ذلك ٠ وقد غزا الرومان كورنثوس عام ١٤٦ ق٠م وأعاد بناءها يوليوس قيصر عام ٤٦ ق٠م وأصبح بها دار القنصلية منذ عهد أغسطس وقت كانت بحكم ثرائها وموقعها البحرى والتجارى مرتعا للفساد وفيها التقى بولس بعدد من اليهود الذين طردهم كلوديوس من روما ٠ وكانت حفلات (الالعاب الاولمبية) تقام في كورنثوس كل عامين وهناك كتب بولس (رسالته الاولى الى أهل تسالونيكى) وهى أقدم كتابات (العهد الجديد) ، وان كان قد شاع أن (انجيل مرقس) هو أقدم أسفار العهد الجديد وقيل انه يظهر المسيح فى صورة (ابن الانسان) وما زالت صورته تتطور حتى صار (ابن الله) فى انجيل يوحنا وبين الانجيلين مائة عام ٠ وفى (رسالة كورنثوس الاولى) نجد صورة لثغرات المجتمع المسيحى الاول من تفرق وعدم نزاهة وسكر وعثرات ٠

وقد زار بولس **افسوس** حيث أقام ثلاث سنوات وكانت تقف فى عصر بولس مع انطاكية والاسكندرية بين مدن الشرق العظمى وكانت ميناء على البحر ولكنها الآن تبعد عنه ٣ أميال ويذكر أن يوحنا أمضى سنى حياته الأخيرة فى افسوس وهناك أقام جستنيان كنيسة باسمه ٠ ومن أهم أثارها بقايا (كنيسة العذراء) التى اجتمع فيها (مجمع افسوس) عام ٤٣١ م والسراديب التى اتخذها الأقدمون مقابر لموتاهم وحولها تدور (قصة أهل الكهف) الذين ذكر انهم التجأوا اليها عام ٢٥٠ م فرارا من بطش الامبراطورا داقيان فسدت عليهم السراديب فناموا واستيقظوا فى حكم ثيودوسيوس الثانى عام ٤٥٠ م ٠

وأخيرا زار بولس **روما** التي أقيمت على ٧ تلال واستهلت في السفوح والوديان ثم تدرجت الى المرتفعات وكانت تحيط بالمدينة الأسوار من جوانب ثلاثة وعند الرابع يجرى نهر التيبر حيث كانت المعابر عليه موضع رقابة حريصة وتصل المياه للمدينة من ينابيع ومجار في الجبال عن طريق نظام للقنوات والخزانات • وكانت روما تضم المسارح والملاعب والحمامات وتنتظم الحدائق والميادين وتزينها الأعمدة والأقواس على أن المدينة العظيمة كانت تضم أيضا أحياء فقيرة مكدسة • وفي وسط المدينة مبنى (الفورم) Forum وهو المركز الديني والتجارى والتشريعي • وقد وصل بولس المدينة من (الطريق السلطاني) الذى يصل بينها وبين (كابوا) وللامبراطورية الرومانية شهرة ذائعة بشبكتها من الطرق الجيدة التي توصل كلها الى روما ! ويشير تعداد المدينة عام ١٤ م الى انه كان يبلغ ٠٠٠ر١٠٠ر٤ نسمة • ويعتقد أن السجن الذى أودع فيه بولس كان ما يعرف باسم (سجن مامرثيوس) في موقع كنيسة سان جوسيبيو وهو طابقان السفلى منهما زنزانة لا يمكن الوصول اليها الا بفتحة ضيقة في أرضية الطابق العلوى •

وقد زار بولس كذلك أسبانيا ، ولم يحدد موضع قبره بالضبط وان كانت هناك كنيسة مسماه باسمه خارج أسوار المدينة يؤكد البعض أنها تضم رفاته ، في حين يعتقد أن (كنيسة بطرس) قد أقيمت مكان استشهاده وفي فنائها عثر على بقايا كنيستين وعثر في السفلى على عظام انسان عجوز قوى ولكن لا يقطع بأنها لبطرس •

وفي مستهل (سفر الرؤيا) نجد رسائل بيد يوحنا الى الكنائس السبع بآسيا الصغرى ، وأولها : **افسوس** وهي مشهورة بقديسيها وشهدائها ومجمعها الكنسى الذى عقد للبحث في عقيدة (نسطور) أسقف القسطنطينية بشأن اللاهوت والناسوت وقد اعترض على تسمية العذراء أم الاله فهو يراها أم المسيح فحسب . أما **سميرنا (ازمير)** فتقع على بعد خمسين ميلا شمالى افسوس وبها كنيسة بنيت فيها من قديم ويبدو أنها نشأت في مستعمرة يهودية • وكانت **برغامس** مقر الحكومة المدنية والسلطة ففيها أقيم أول هيكل بآسيا لعبادة الامبراطور الرومانى وكانت بها مدرسة طب شهيرة • وعلى بعد ٤٠ ميلا من برغامس قامت **ثياتيرا** وكانت مركزا لنقابات المهن التجارية المختلفة ومن بينها هيئة قوية لصناعة التماثيل وبيعها • أما **ساردس** فكانت العاصمة السابقة لمملكة ليديا وتقع على مسافة ٣٥ ميلا جنوبى غربى ثياتيرا • وأخيرا كانت **فيلادلفيا** على بعد ٢٨ ميلا الى الجنوب الغربى من ساردس وقد سميت قيصرية الجديدة

بعد أن توالت عليها الزلازل . وبالقرب من **لاودكية** كانت هناك ينابيع دافئة (١) .

***

هـــذه ملامح الارض التى جاست خلالها أقدام (المســيح) ...

ونظرا لاختلاف تضاريس المنطقة فقد اختلف مناخها ، فالأمطار بين سبتمبر ومايو تغزر عند الساحل والجبال الغربية وتتناقص نحو الداخل ، وفى الوديان يعتدل المطر فى جهات ويقل فى أخـــرى . والطقس فى الساحل تسرى عليه قاعدة مناخ البحر المتوسط العتيدة التى تتناقلهـا شفاه تلاميذ المدارس منذ أجيال : فالصيف حار خال من المطر ، والشتاء معتدل ممطر ، وفى الجبال الشتاء بارد والصيف لطيف ، أما فى الداخل فالمناخ قارى ، شتاؤه بارد وصيفه حار ، مع ارتفاع المدى بين درجات حرارة الليل والنهار .

ونتيجة لحرارة الاقليم المتاخم لبحيرة الجليل كانت الحمى لا تنفك تجثم على أنفاس الناس هناك ، ومن هنا تتابعت الشكاية للمسيح من اصابات الحمى ليمارس معجزاته فى شفاء المرضى .

وبالنظر الى الرياح الغربية (العكسية) التى تدفع السحاب الممطر أمامها يفهم قول المسيح : « اذا رأيتم السحاب تطلع من المغارب تقولون انه يأتى مطر ـ فيكون هذا ، واذا رأيتم ريح الجنوب تقولون هو حـر ـ فيكون .. وأما هذا الزمان فلا يميزونه » (لو ١٢ :٥٤ ـ ٥٦) .

ونتيجة لتباين الطبيعة وتنوع المناخ تعـــدد النبات ، ففى منخفض الأردن نبات غير نبات أعالى الجبال ، وفى الساحل تكثر زراعة الحمضيات والموز .

ومنحدرات الجبال والتلال مدرجة تدريجا متقنا ومزروعة بالخضر والفاكهة. وتزرع السهول الداخلية الحبوب ومنها ما حول لبســـاتين . لذا يضرب المسيح كثيرا من أمثاله حول الزراعة والحصاد ، والكروم والحبوب ويتكرر ذكر رعاة الخراف والخنازير ! وتنتشر زراعة الزيتون على سفوح الجبـــال وفى المنطقة الساحلية والسهول الداخلية كلها من جبـــال نابلس حتى منخفضات أعالى نهر العاصر ، وكانت ســـفوح الجبـــال قديما مكتسية بالغابات حتى البحر وقد ذهبت كلها الا بقايا صغيرة من صنوبر وأرز ،

---

(١) دكتور جون الدر : الاحجار تتكلم ـ ترجمـة دكتور عزت زكى ص ١٥٤ : ٢٢١ ، دكتور عزت زكى : فلسطين كما عرفها المسيح ص ٧٧ : ٩ .

أما الموارد المعدنية فضئيلة فى المنطقة ، عدا المواد الكيماوية فى البحر الميت ٠

***

غير أن ساحل البحر كان يدفع لركوب البحر والتجارة ٠ وقد فر (يونان) أحد أنبياء العهد القديم من يافا الى (ترشيش) وهى احدى موانىء اسبانيا ٠ ولا بد أن جزر البحر المتوسط كانت معروفة أيضا لسكان تلك البلاد ، وسفرات بولس تؤكد علاقات بولس بمنطقة البحر المتوسط ٠ وكذلك كانت فلسطين ملتقى طرق تجارية برية : طريق صور وصيدا فى فينيقية الى دمشق ومنها الى بين النهرين ـ والطريق الذى يمر بشرقى البلاد وشمالها من دمشق الى الجزيرة العربية ثم الطريق الثالث بين مصر وفينيقية ، والرابع الذى يمر بالتخوم الجنوبية لفلسطين ويتصل بمصر والبحر الأحمر وخليج فارس ٠ وطبيعى أن هذه الطرق كانت تيسر التواصل التجارى والاجتماعى والحضارى ومن ثم اختلط شعب فلسطين بأمم راقية كالمصريين والفينيقيين والبابليين والاشوريين ٠ واليهودى حريص حقا على التماسك والانعزال لكن هذا لم يمنع صورا من التمازج والاختلاط ٠ وقد امتزجت (اسباط العبرانيين الاثنى عشر) كذلك فيما بينها بعد (سبى بابل) فضلا عن امتزاجها بسكان البلاد التى سبيت اليها ممن اعتنقوا اليهودية ، حتى انه بعد الرجوع من السبى لم يتميز من الاسباط الا (سبطا يهوذا وبنيامين) وقد سكنا اليهودية والجليل (سبط لاوى) وسبط الكهنوت ، وقد امتزجت الاسباط الثلاثة فى عهد المسيح ٠ وصار استخدام العبرانية مقصورا على الطقوس الدينية وكتابة التوراة ٠وفى عهد المسيح كان هناك من يترجم النص العبرانى الى لغة السامعين كما هو الحال عند تلاوة القداس فى الكنائس الارثذوكسية ، أما اللغة السائدة وقتذاك فقد كانت (الآرامية) وقد كتب قسم من كتابات (الأنبياء الصغار) بها كما انها استمرت (لغة الشعب) الى عهد المسيح وما بعده ، على أن (اليونانية) كان لها مكانها فى فلسطين ، اذ كانت لغة التجارة والادارة كذلك سيطر الطابع اليونانى على الحياة فى الازياء والاثاث وغير ذلك » (١) ٠

***

ولطالما شهدت بلاد الشام صراعا داميا ٠٠ فقد كانت بحكم استراتيجيتها نقطة احتكاك القوى المتجاورة المتغالبة ، واصطدمت فيها مصر بميثانى وخيتا ، وبابل وآشور ، وتنازعت عندها مطامع امبراطورية

---

(١) دكتور عزت زكى : فلسطين كما عرفها المسيح ص ٩ : ١٢ .

الشرق الفارسية وامبراطورية الاسكندر الاغريقية . وعندما تقسم قوله الاسكندر دولته تنافسوا وتحاربوا فى أرضها ، وورثت روما امبراطورية الاغريق وورثت عنها كفاحها مع الفرس .

وهكذا شاء الله أن يخرج رسول السلام فى أرض الزيتــون وقد تخضبت بدماء الصراع الدولى والاهلى أيضا ..« فمنذ غزوة الاسكندر لبلاد الشرق ، وقصة الصراع بين الشرق والغرب تمثل فصولا طويلة فى تاريخ القسم الشرقى من حوض البحر المتوسط ، حتى أن كر العصــور ومر الازمان لم يخفف من حدة النضال الذى عرك أوصــال الطرفين .. وواجهت الصحراء الشامية روما وأباطرتها ، وهذه الصحراء لم تكن كما يتصور المرء امتدادا شاسعا من رمال لا يمكن اجتيازها وفلاة موحشــة مقفرة ، اذ على النقيض من ذلك لعبت هذه الصحراء دورا هاما فى حلقة الاتصال التجارى بين الشرق والغرب ، فقد اشتملت على بعض مســالك تجارية اخترقت بقاعها ذات الحصى والتى انتشر فيها بين هنا وهناك بعض الحشائش والنباتات . وقد أدرك القدامى طبيعة هذه الصحراء وقسموها أقساما تساعدهم على الافادة من مسالكها : فأطلق بطلميوس على قسم منها اسم بلاد العرب الصخرية Arabia Petraea نسبة الى مدينة البتراء التى ازدهرت لمرور القوافل التجارية بها (Petra كلمة يونيا معنــاها الصخر) ، على حين سمى الجزء الاوسط والجنوبى الشرقى من الصحراء باسم بلاد العرب الصحراوية Arabia deserta ، أما الجزء الباقى من الصحراء الذى نال قسطا كبيرا من التأثير الرومانى فسماه سوريا » (١)

***

على أن لجورج ماتيسون تصورا آخر لظروف فلسطين الجغرافيــة . انه يقول : « لم أر فى حياتى صورة بهذه العظمة ـ يقصد صورة المسيح ـ فى اطار بهذه الحقارة .. شريط ضيق من الارض المختنقة لا يتعدى طوله ١٤٠ ميلا فى عرض ١٤٠ ميلا .. لعل الطبيعة قصدت أن تحبس فلسطين فى هذا السجن وتغلق عليها الباب ، وهــكذا أقامت على كل جانب من جوانبها جدارا يقطع اتصالها الحر بالغير ، ففى شـــمالها ترتفع سلسلة جبال لبنان وفى جنـــوبها تنبسط صحراء سيناء ، من الشرق يمتـــد بمحاذاتها وادى الاردن ومن الغرب تتراقص على شواطئها مياه البحـــر المتوسط » !! (٢) .

---

(١) الدكتور ابراهيم العدوى : الأمويون والبيزنطيون ص ٢ ـ ٣ .

(٢) جورج ماتيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكى حـ١ ص ١٠ .

والحق أن تصور عزلة فلسطين على هذا النحو شيء مبالغ فيه ويخالف الحقائق الجغرافية والتاريخية عن هذه المنطقة ، ولا يخدم الغرض المقصود في ابراز معجزة ظهور المسيح ورسالته في مثل هذه الارض ، وقد سار المسلمون في تأريخ ظروف شبه الجزيرة العربية قبيل البعثة النبوية مثل هذه المسار وتحت تأثير مثل هذه النظرة أيضا وأعتقد أن انصاف رسالات الله وانصاف الحقيقة العلمية معا يقتضيان ألا تنزل هذه الرسالات في أرض تعجز فيها عن الحركة ويقتلها الجمود والخمود ، خاصة اذا لم يكن الامر أمر نبوة موقوتة ينتهي أثرها في وقت قصير ، وانما أمر رسالة يقصد منها الاستمرار والانتشار ·

وهذه الديار ــ ديار الأنبياء ··

« جاء يوحنا المعمدان يكرز في برية اليهودية ، قائلا : توبوا لأنه اقترب ملكوت السموات ، فان هذا هو الذي قيل عنه باشعياء النبي القائل : صوت صارخ في البرية أعدوا طريق الرب ، اصنعوا سبله مستقيمة ·· حينئذ خرج اليه أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة المحيطة بالاردن » « كل واد يمتلىء ، وكل جبل وأكمة ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة ، والشعاب طرقا سهلة ، ويبصر كل بشر خلاص الله » (١) ·

« ولما سمع يسوع أن يوحنا أسلم انصرف الى الجليل ،و ترك الناصرة وأتى فسكن في كفر ناحوم التي عند البحر في تخوم ربولون ونفتاليم ، لكي يتم ما قيل باشعياء النبي القائل : أرض زبولون وأرض نفتاليم طريق البحر عبر الاردن جليل الامم » (٢) ·

تابع المسيح طريق الهداة الدعاة في أرض فلسطين المباركة «فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر والمدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن » (٣) ·

---

(١) مت ٣ : ١ ــ ٥ مرا ١ : ٣ ــ ٥ ، لو ٣ : ٤ ــ ٦ ، يو ١ : ٢٣

(٢) مت ٤ : ١٢ ــ ١٥ ، مر ٢ : ١٦ ايضا مر : ٤ ، ٥ ، لو ٨ ، يو ٦

(٣) مت ٤ : ٢٥

قوم

« اليهود شعب عجيب : كانوا فى السابق قبيلة صغيرة أو عدة قبائل تسكن فلسطين ، ورد تاريخها فى العهد القديم فى التوراة، وكانوا وما زالوا يظنون أنهم شعب الله المختار ، ويظهر أن هذا الظن قد جنى عليهم كثيرا فغزاهم الغزاة وأخضعوهم وأسروهم ٠

« ويضم الأدب الانجليزى أجمل القصائد وروعها التى تصف عذابهم كما ورد فى التوزاة ، ولابد أنها فى أصلها العبرى أجمل منها فى ترجمتها، وأورد مثلا على ذلك هذه الأبيات من أحد المزامير :

هناك على أنهار بابل جلسنا ٠٠٠ وبكينا عندما تذكرناك يا صهيون ٠٠٠

وعلى أشجار الصفصاف علقنا أعوادنا ٠٠٠ بعد أن طلب منا الذين سبونا أن نغنى لهم أغنية من أغانى صهيون ٠٠٠

كيف نغنى أغنية الرب فى أرض غريبة ؟٠

شلت يمينى ان نسيتك يا أورشليم ٠٠

ليلتصق لسانى بحلقى ان لم أذكرك يا أورشليم ٠٠٠ ان لم أفضلك على أعظم أفراحى ٠٠

« وأخيرا تفرق هؤلاء اليهود فى مختلف أنحاء العالم ، فلم يكن لهم بيت أو وطن ، وأينما حلوا كانوا يعاملون معاملة الغرباء غير المرغوب فيهم ، فاضطروا أن يسكنوا فى أماكن خاصة فى المدن منفصلة عن باقى الأحياء حتى لا يدنسوا بقية الناس ٠٠

« ومع ذلك فقد استطاع هذا الشعب أن يعيش ٠

« وهؤلاء الناس الذين يعيشون بلا بيت ولا وطن يحلمون دائما بالقدس التى تتراءى لهم أحسن وأعظم مما هى فى الحقيقة ٠ يسمون

القدس (صهيون) أو الأرض الموعودة ، ومنها كلمة (الصهيونية) التى تعنى نداء الماضى للعودة الى القدس » (١) •

بهذه الكلمات المحكمة أو جزء (نهرو) تاريخا طويلا لشعب قديم•

لقد كانت (كنعان) على الطرق التجارية الكبرى التى مرت بها القوافل حاملة السلع والمتاجر بين مصر وبابل ••• ومن هنا حذق الكنعانيون التجارة وكان (الفينيقيون) فرعا منهم مهروافى ركوب البحر• وكذلك كانت (أور) – فى جنوبى بابل – مسقط رأس ابراهيم • و (حران) مهجره أيضا على طريق القوافل وقد اتجه أهم الطرق من أشور فى الشرق الى قرقميش وحلب فى الغرب وجبال طوروس فى الشمال • وكانت أور مركز عبادة القمر ، وكذلك كانت وثنية أكثر المدائن التى كان يتصل بها ابراهيم والعبرانيون رواجا وحضارة • ونقل الكنعانيون عن البابليين كثيرا من كتاباتهم وأفكارهم •

ومن سكان بين النهرين أيضا (السومريون) ، وقد تأثروا فى تاريخهم وحضارتهم كذلك بالموقع التجارى للمنطقة •

كانت التجارة اذن سبيلا هاما للنشاط الاقتصادى فى تلك الديار• وكانت المنطقة فى موقعها الجغرافى ملتقى شبكة من الطرق ، وأدى هذا الى امتزاج السكان من عموريين وآراميين وحورانيين وأوريين وبابليين كما امتزجت الألسنة أيضا • وحين نزح العبرانيون القدماء من أور الى حران ومنها الى كنعان حملوا معهم عقائد وتقاليد من حضارات البلدان التى عاشوا فى كنفها أو اختلطوا بها وظلوا متأثرين بها ردحا طويلا •

ثم نزح العبرانيون الى مصر وتكاثروا بها واستوطنوها فى عصر (يعقوب والأسباط) وحين نزل (الفلسطينيون) الوافدون على الساحل الجنوبى من أرض كنعان واقتربوا من مصر ، اصطدموا بالمصريين والعبرانيين • ودارت الدائرة على هؤلاء الوافدين ، « وقتل داود جالوت وآتاه الله الملك والحكمة وعلمه مما يشاء ولولا دفع الله الناس بعضهم لبعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين – البقرة:٢٥١ »•

واستقر العبرانيون فى (أرض كنعان) بعد (الخروج) التاريخى من أرض مصر •• وأخذوا يتميزون عمن حولهم ، ويحسون بهذا التميز، وبخاصة بعد أن ذاقوا حلاوة الغلبة » وكانت آراؤهم الدينية بسيطة ،

---

(١) نهرو : لمحات من تاريخ العالم (الترجمة العربية – طبعة بيروت) ص ٣٥١ – ٣١٦•

فأمنوا أن الاله الذى يعبدونه الههم دون سائر الشعوب وهو يحميهم مهما فعلوا ... وانسابت الى مجتمعهم الحضاة ، وكان من آثار تطاحن آراء البداوة وآراء الحضارة فى مجتمعهم أن ظهر من بينهم مفكرون سبقوا زمانهم هم (الأنبياء) ... وتطورت هذه الآراء على مدى السنين وفى كتابات أسفار (العهد القديم) ترى الأنبياء المتأخرين يفضلون المتقدمين فى ادراك معانى (الحق) و (البر) و (الصلاح) ... وكان لكل مدينة أخيرا (ملك) ، وقلما اتحدت هذه المدن ،وهكذا كان يسهل دائما على الاعداء قهرها ... والى سنة ١٠٠٠ ق . م عاش العبرانيون فى (أسباط) ـ أى عشائر ـ متفرقة » (١) ..

« .. ولقد هيأ الرومان لليهود فرصة الانفراد بالسيطرة على تجارة البحر المتوسط حين قضوا على الفينيقيين والبطالمة ، كما حاولوا عبثا القضاء على السبئيين ـ فى اليمن ـ بغزوهم سنة ٢٤ ق.م. على أن الرومان لم يلبثوا أن فطنوا الى استفحال نفوذ اليهود ، فوجهوا عنايتهم نحو التخلص منهم. ففى بداية القرن الأول الميلادى قضوا على مراكزهم التجارية ، وفى سنة ٧٠م خربوا معابدهم فى القدس ، وأرغموهم على الجلاء والتفرق فى شعاب الأرض . ولم يقتصر اليهود ـ بعد أن طردهم الرومان ـ على الهجرة والاستيطان فى شتى البلاد بل انهم حاولوا أيضا أن يؤسسوا دولا على حساب غيرهم من الشعوب : ففى القرن الاول الميلادى أقاموا تحت حماية الفرس دولة يهودية بين أرمينية وفارس ، وفى العصر الاسلامى أسسوا دولة يهودية فى الحبشة ودولة أخرى فى شمال البحر الأسود ،ومن هذه المحاولات تأسيس دولة لهم فى سبأ فى أرض اليمن فى بداية القرن ٦م، ولقد جاء تأسيسهم لهذه الدولة بعد مرحلة طويلة من المنافسات الدينية والعنصرية والاقتصادية . وقد باءت بالفشل جميع المحاولات لتأسيس دولة يهودية على مدى التاريخ .

حرص اليهود فى هجرتهم بعد سنة ٧٠م على أن يتجهوا نحو الطرق العالمية فأخذوا يستقرون على طولها فى مراكز يستطيعون فيها أن يتدخلوا فى الاشراف على التبادل التجارى عليها .

ولقد كان من أهم مقاصدهم طرق القوافل العربية ، وأقاموا أولا عند طرفها الشمالى فى بطره (فى الأردن) وكانت لها أهميتها من حيث

---

(١) كاترين هنرى : التاريخ فى الكتاب ترجمة حبيب سعيد وبخاصة ص ١٤ : ٢٢ ، ٢٤ ، ٢٩ ، ٣٣ : ٤٤ وللتفصيل راجع دكتور جون الدر : الاحجار تتكلم ترجمة الدكتور عزت زكى .

التبادل التجارى العالمي. ثم أخذوا يرحلون جنوبا تحت الضغط الرومانى فانبثوا فى الواحات الواقعة على طول طريق القوافل الرئيسي ، فأقاموا فى العلا وفى يثرب ، ونزح بعضهم نحو دولة سبأ في جنوب بلاد العرب .. غير أن الخطر الذى هدد النفوذ اليهودى جاء عن طريق المسيحية التى أخذ أتباعها يهاجرون من فلسطين فرارا من عسف الرومان ، وكان طريق القوافل العربية منفذا طبيعيا لهم ، وعن طريقه دخل بلاد العرب عدد من المسيحيين الذين تقدموا من الشام الى الحجاز ومنها الى اليمن » (١) .

***

نزح اليهود الى فلسطين فاستقروا فيها ، وتضخمت أحلامهم حولها « ظهر اله المجد لأبينا ابراهيموهو فيما بين النهرينقبلما سكن فى حاران، وقال له اخرج من أرضك ومن عشيرتك ، وهلم الى الأرض التى أريك . فخرج حينئذ من أرض الكلدانيين وسكن فى حاران ، ومن هنا نقله بعد ما مات أبوه الى هذه الأرض التى أنتم الآن ساكنون فيها ، ولم يعطه فيها ميراثا ولا وطأة قدم ، ولكن وعد أن يعطيها ملكا له ولنسله من بعده ، ولم يكن له ولد . وتكلم الله هكذا : أن يكون نسله متغربا فى أرض غريبة ، فيستعبدوه ويسيئوا اليه أربعمائة سنة ، والأمة التى يستعبدون لها سأدينها أنا ، يقول الله : وبعد ذلك يخرجون ويعبدوننى فى هذا المكان » (٢) .

وقد تعرضت الشام لهجرات آرامية أتت من الشرق واستقرت حول دمشق وفى شمال فلسطين وشرقى الاردن ، كما وصلتها موجات من ناحية البحر المتوسط ، ويذكر الدكتور جون الدر أن أنظار العرب متجه الى فلسطين « كوطن قومى عرفته قبائل أجدادهم القدامى من قبل أن يوجد العبرانيون(٣) » . أما بالنسبة للوضع الجنسى لليهود: «فان التباين فى المميزات الجثمانية للجماعات اليهودية المختلفة تباين شديد ، لا فى الصفات الظاهرية كلون البشرة والعين مثلا ، بل يتجاوز هذا الى شكل الشعر وصفات الأنف وأبعاد الرأس وما الى ذلك وعلى ذلك يقسم بعض الكتاب (اليهود) الى مجموعتين رئيستين : الاولى اشكنازم Achkenasim ويمثلهم غالبية اليهود فى أوربا ويتميزن بالوجه المستدير والأنف المحدب القصير والعيون الرمادية الصغيرة ، والثانية سفردم Sephardism

---

(١) دكتور حسن الباشا : المشكلة اليهودية من عهد سبأ الى صدر الاسلام (المجلة : العدد ٩ السنة الأولى .

(٢) اعمال ٧ : ٢ ــ ٧ .

(٣) دكتور جون الدر : الأحجار تتكلم ترجمة دكتور عزت زكى ص ١٣ .

ويمثلهم يهود اقليم البحر المتوسط ويشبهون سـلالات الاقليم : وجوه بيضاوية وأنوف ضيقة بارزة وشعر أسـود وعيون تأخذ فتحتها شكل اللوزة · ومع ذلك فكل هذا لون من التبسيط للصورة الجنسية المعقدة لليهود الحاليين · **أما اليهود قبل فترة الانتشار التى بدأت عندما وضع البابليون أيديهم على أورشليم حوالى سنة ٥٨٦ ق·م· فقد تكونوا نتيجة لموجات متعـددة وصلت الى فلسطين فى فترات مختلفـة وبطرق مختلفة وتحت زعامات مختلفة ، وان كان بنو اسرائيـــل الذين يكونون العنصر الاساسى فى اليهـــود الحاليين فيما يظهر قبائل بدوية أو نصف بدوية تتكلم اللغة السامية جاءت من الصحراء وسكنت أولا على حافتها فى جنوب العراق ، ثم تحركت الى فلسطين** وكانت تسكن فلسطين حوالى منتصف القرن ٢ ق·م جماعات متعددة : فالى جانب الاسرائيليين ، كان يسكن العموريون الى الشـمـال ، والكنعـانيون فى أرض كنعـان ، وكذلك كان يعيش الفلسـطينيون الذين انتشروا فى شرقى البحر المتوسـط حوالى ١٢٠٠ ق · م آتين فيما يغلب من اقليم بحر ايجه ، هذا الى جانب بعض القبائل والعناصر الحيثية ·· »

ومن العلماء من لا يرى فى اليهود أحد أنواع الجنس البشرى التى دامت طويلا ، اذ أنهم تغيروا فى الأماكن المختلفة ، فشكل تركيب الرأس يحاول دائما أن يلائم نفسه مع الظروف المحلية فى البيئة التى يقطنونها ، وقد أكد Baos بكل شدة أن شكل رأس المهاجرين اليهود فى الولايات المتحدة يتغير ليطابق المقاييس الأمريكية حتى فى أول جيل من المهاجرين!! ويقسم البعض اليهود نوعين : واحـد قريب من النوع العربى والثـانى قريب من النوع المعروف بالأشورى Assyria · وهذا تسليم بأن هذه الأنواع قد تغيرت الى حد ما عن طريق الشعوب التى تعيش بينها (١) ·

***

وكان اليهود يجعلون من أنفسهم عالما وحده ، ويحسبون أنفسهم هم العالم وحده !!

« (الهيكل) هو مركز الوجود كله ومادام الهيكل قائما فكل شيء يدور حوله فهو رمز لمسكن الله مع الناس ـ ليس مع كل الناس بل مع شعبه فقط ! وكما يتركز مجد الشكناه فى الهيكل هكذا يتركز فى اتباع الهيكل مواعيد يهوه العظيم للآباء ونبوات الأنبياء وأحاديث الناموس

---

(١) دكتور عباس عمار . شعوب الاقطار العربية الأقطار العربية الآسيوية ،

Buyton : Peoyjesop Asia (Tha wear Easr)

وأمجاد القديم ! لقد كانت فلسطين هي (الأرض) أما ماعداها فقد كان خارج الأرض وتخوم الأمم وكانت هذه الأرض تحمل عبير القداسة ! وكان أقل عبرانى يئتزر بالاسمال ويعيش على الفتات يشمخ بأنفه الى السماء قائلا : لنا ابراهيم أب ••• لقد كان (أبناء اسرائيل) في قلب (أرض اسرائيل) التي سرى فيها الفساد في الداخل والخارج ، وفي الوقت الذي كانت روما تدوس على أعناقهم بأقدامها كانوا يصيحون في تبجح : نحن ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحـــد قط ! فالوجود كله ـ هـــكذا كانوا يعتقدون ـ قد خلق من أجل اسرائيل وأبناء اسرائيل ! بل ان اسرائيل كانت فى فكر الله الأزلى قبل أى شيء آخر ، وما كل الخليقة الى اعداد لمجيء اسرائيل ! ومركز كرة الأرض والكواكب هو الهيكل والجبل الذى أقيم عليه • (التوراة) وجدت قبل خلق العالم بألفى عام والآباء ولدوا يحفظون الناموس قبل أن يكون الناموس ، وقد قدم الرب الناموس للأمم فرفضوه ورفضهم وانتهى الأمر ولا مكان للتوبة بعد ! لكن اسرائيل مهما فعلوا فسيقتص الله منهم فى الحياة الدنيا لكى لا يدانوا مع الأمم ! وغاية الاسرائيلى القح أن (يدرس) الناموس لا أن يعمل به ، لأن الله نفسه انما يدرس الناموس » !

على أن وضع فلسطين الجغرافى جعلها تتفاعل مع غيرها بحكم الجوار والتجارة والغزوات التى تعرضت لها • وكان (للروح الهيلينية) مكانها وآثارها وقد بنى هـيرودس مـــدنا اغريقية رومانية فى قلب فلسطين • وكانت مدن فلسطين اذن فيها مدن (يهودية) أصيلة ، ومدن (أممية) لها حكامها ومجالها • وكانت المدن اليهودية الأصيلة فى دائرة (اليهودية) Judaea تحيط بهـا الجليل والســـامرة وبيرية وتكون كتلة مركزها أورشليم وهى تتفاوت فى المركز الدينى وان اشتركت فى دفع العشور للهيكل • (فالجليل) جليل الامم شعب الناموس ، و (السامرة) من سقط المتاع ! وكانت هناك مناطق تتداخل بين النوعين فبالقرب من بيرية كانت هناك منطقة نصفها يكون جزءا من الديكابوليس أو المدن العشر والجزء الآخر بمحاذاة الساحل يدخل فى قلب فينيقية : وهذه المناطق نصف اليهودية أو الأممية فى قلب فلسطين كان يسكنها خليط من الأمم من يونانيين أو يهود دخلاء أو متهودين ويسمونهم (يهود الشتات) وهؤلاء كانوا يتكلمون اليونانية العامية ويكتبون بها كما كانت عاداتهم وتقاليدهم وأفكارهم تختلط بالغريب عن التعاليم الموسوية •

وقد قسم اليهود أرض فلسطين الى درجات متفاوتة مابين الارض

العادية الى أرض قدس الاقداس في الهيكل ٠ وكانت (أرض الامم) تعتبر نجسة ، وحين يعود التاجر اليهودى الى فلسطين يقف عند الحدود ويخلع نعله لينفض عنه الغبار العالق بهما من أرض الأمم !! فلا عجب أن كرههم الرومان وشنعوا عليهم ، وقد تحدث عنهم شيشرون Cicero « كشعب بربرى تسيطر عليه الخرافات » ، ووصفهم بلينى Bliny « بالأمة التى تحتقر الآلهة » ، وكان رجال الدولة من الرومان يرون فيهم جرثومة للفتنة والتمرد :

وهناك مثل يهودى يقول : « اذهب شمالا ان أردت الغنى ، واتجه الى الجنوب ان كنت تبحث عن الحكمة » ٠٠٠ لقد كانت (الجليل) أرض جنات وكروم وزيتون مكتظة بخليط من السكان ، ومن ثم كان يهود الجليل أقل تزمتا وأرحب صدرا من يهود (اليهودية) الذين كانوا أكثر تدقيقا بشأن الدين والناموس ، وكانت بلادهم جبلية قاحلة ولكنها تؤدى الى أورشليم حيث الهيكل رمز عناية الله بشعبه المختار ! ولقد كان (الصدوقيون) يبنون ايمانهم على الناموس ، بينما كان (الفريسيون) يعتقدون أن الآباء أو تفسيراتهم وتعليقاتهم على الناموس هى من الناموس ، الا أن هؤلاء وهؤلاء قد اتفقوا على ازدراء الجليليين! انهم أقل من الوثنيين ٠٠ كان صوت أورشليم يصيح بالجليل « أما هذا الشعب الذى لا يعرف الناموس فهو ملعون » ! وكانت الجليل دائما مثار الهزء والسخرية « ألعلك أنت أيضا من الجليل ؟ أنظر انه لم يقم نبى من الجليل » ! ومع أن يهود الجليل واليهودية كانوا يتكلمون (الآرامية) الا أن يهود الجليل كانت لهم لهجتهم المتميزة ، حتى قالت الخادمة لبطرس فى أورشليم وهو يجد فى الاختفاء «أنت جليلى ولغتك تظهرك» ! ومن هنا قاومت (اليهودية) المسيح بشدة حتى « لم يعد يمشى فى دوائر اليهودية » ! ! (١) على أن أهل الجليل كانوا سكان الهضاب الآحرار الذين جبلوا على العزة والكرامة ولم ترضخ رقابهم للذل بينما خنع أهل (يهوذا) للهوان وقد امتدحهم (التلمود) بحرصهم على الكرامة أكثر من المال وامتدحهم يوسيفوس (٢) ٠

وحين انتقل المسيح من دائرة (الجليل) الى دائرة (أورشليم) رأينا فى مواعظه هناك الروح الجامعة الشاملة ٠٠٠ لقد كان المسيح فى (الجليل) يضع حدودا ضيقة حيث تزايدت المرونة والتوسع ، فحذر من طريق الامم ومسالك السامريين ٠ وفى (أورشليم) حيث ساد التحفظ

---

(١) دكتور عزت زكى : فلسطين كما عرفها المسيح ص ٢٩ : ٤٤ ٠

(٢) بترسون سمث : حياة المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ١٠٩ ــ ١١٠ ٠

والتزمت اتجه المسيح الى توسيع الحدود ورفع القيود ونشر السماحة ٠ واتسمت جهوده في أورشليم بالعلانية والوضوح دائما ٠٠ ومن هنا جاء اصطدامه مع اليهود ٠٠ لقد أعلن أن (مسيا اليهود) هو (مسيا كل الأمم) وأن (أورشليم) ليست أعظم مدن الأرض ! ! (١) ٠

« ٠٠٠ لم يكن هناك شيء في تاريخ هؤلاء القوم يوحي بالاستقرار والثبات كانوا في البـــداية (قبيلة) تنتجع المرعى ، فأصبحوا عـــدة (قبائل) يحكمها رئيس واحد ، ثم صاروا (شعبا) تحت امرة مشرع ثم (سلالة) تحت امرة قواد الحرب ، ثم (مملكة) خاضعة لحكم ملك ، ثم (مقاطعة) معرضة لغزوات الأعداء ثم (جمهورية) يرأسها كهنتها ٠٠ وليس هناك شيء يستوجب الفخر في تطورها الاقتصادى والاجتماعى ، افصل عنها (الدين) فلا يبقى لها شيء ٠٠٠ انهـــا لا تحب الصور ولا التماثيل ولا تمتلك أية نظريات فلسفية أو مدارس للحكمة ، وشعراؤها كلهم كتاب مزامير لا يتغنون بأى جمال سوى جمال الله ٠٠ انها لا تملك الفكر العميق الذى تتميز به أرض الهند ، وليست لها موهبة الثبات والاستقرار كالصين ، ولا يميزها الشعور بالجمال كبلاد الاغريق ، ولم تنل حظا عاليا من الثقافة مثل أرض مصر ، ولم يكن لها الجيوش مثلما كانت لروما ٠٠٠ انها تمثل مجموعة من النواهى عن فعل الشر أكثر مما تمثل أوامر لفعل الخير ٠٠ ولكن هذه الارض الضيقة العقيمة تعهدت بأن تقدم (ملكا) للعالم ، وكان رجاء يهوذا فى اقامة دعائم امبراطورية راسخة يزداد قوة فى أوقات انحلال الأمة اليهودية وضعفها ـ وانك لن تستمع الى موسيقاها الظافرة الا حينما تتحطم أوتار قيثارها ٠٠٠ على أن هذه الأمة أعطت العالم ملكا ولكنها رفضت أن تتوجه بيديها ٠٠ انهم (الأمم) الذين أتوا لنوره » ! (٢)

***

الى هذا الشعب كانت رسالة المسيح ٠٠٠

« يخرج مدبر يرعى شعب اسرائيل » « فأجاب وقال : لم أرسل الا الى خراف بيت اسرائيل الضالة » (٣) ٠٠٠

---

(١) جورج ماتيسون : دراسات في صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكى ج٢ ص ٦٣ ـ ٣ ، ٧٠ ٠

(٢) جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ـ ترجمة دكتور عزت زكى ج ١ ص ١١ : ١٤ ٠

(٣) مت ٢ : ٦ ، ١٥ : ٢٤

وقد التقى المسيح في طريقه بطوائف شتى يهـــودية وغير يهودية « ثم خرج يسوع من هناك وانصرف الى نواحي صور وصيداء ، واذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت اليه قائلة : ارحمني ياسيد يا ابن داود ، ابنتي مجنونة جدا » ، وبتعبير انجيل مرقس « وكانت المرأة أممية ، وفي جنسها فينيقية سورية (١) » • وكان هناك أيضـــا السامريون « ترك اليهودية ومضى أيضا الى الجليل وكان لابد أن يجتاز السامرة ، فجاءت امرأة من السامرة لتستقي ماء ، فقال لها يسوع أعطيني لأشرب •• فقالت له المرأة السامرية : كيف تطلب مني لتشرب وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية ، لأن اليهود لا يعاملون السامريين (٢) » •

ويذهب المســـيح الى نواحي (صـــور) و (صـــيدا) ، أراضي (الفينيقيين) ، تاركا (فلسطين) ومتجها (للأمم) حيث المجتمعات الوثنية • وقد أراد أن يبقى رحلته سرا مكتوما (مر ٧ : ٢٤) ولعلها أن تكون خلوة موقوتة ولكن شهرته سبقته الى هناك ، « وهكذا وجد نفسه في خطر التجربة بارساء الحجر الأساسي لملكوته في (فينيقية) بدلا من (فلسطين) ولكن ثارت نفسه على هذا التفكير • وعلى كل حال فقد سارت الدعوة المسيحية خطوة في طريق (العالمية) » (٣) •

***

ونتجه الآن الى اليهود (من الداخل) •• في عصر المسيح

كان الشعور العام ينتظر ظهور (المسيا) من (نسل داود) كقائد شعبي كبير يستخدم المعجزات والخوارق للانتصار على الأعداء • وكان البعض ينتظر من (المسيا) صراعا دمويا ، والبعض قد تأثر برسالة المعمدان وتعاليمه فهو يرى اليهودية في حاجة الى تغيير جذري في دوائر الفكر اللاهوتي اليهودي يستثير صلات جديدة بين الانسان والهه ومن ثم يقوم على أكتاف (المسيا) ملكوت روحي سام يحطم الجمود اليهودي !

وجاءت كتابات (الرؤى الرمزية) تعكس هذه المشاعر والآمال •• لقد كتبت لتشجع قوما في شدة الضيق والمتاعب فهي تصور لأحلامهم قضاء قريبا سريعا على الشر وسعادة ومجدا للمؤمنين • وقد يكون ذلك في رحاب سماء جديدة أو بين ربوع أرض جديدة ، ولكن المهم أن دوام الحال من المحال !!

---

(١) مت ١٥ : ٢١ ـ ٢ ، مر ٧ : ١٤٦ •

(٢) يو ٤ : ٣ ـ ٩ •

(٣) جورج ماثيسون : دراسات في صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكي جـ٢ ص ٢١ : ٤ ، ٣٢ •

واستهلت تلك الكتابات الرمزية عام ٢٠٠ ق ٠ م وتوالت الى ماقبل نهاية القرن الاول للميـلاد وما فتئت هذه الكتابات قبـل مجيء المسيح تلح على انتظار المخلص (المسيا) فى أية صورة من الصور ! ولما رفض اليهود المسيح تناولت كتاباتهم فكرة عامة غامضة عن ظهور (قوة الله وجلاله) فى صورة من الصور ٠٠٠ انها محاولة للتعويض عن الواقع السيء ، بالأمل فى مستقبل أفضل ! !

وحين انتهت النبوات بدأت تعوض كتابات الرؤى الرمزية ، ومنها : سفر أخنوخ ، أسفار الآباء الاثنى عشر ، اختطاف موسى ، صعود أشعياء ٠٠٠ ونجد اشارات كثيرة اليها فى رسائل بولس ، وفى رسالة يهوذا نجد اقتباسا مباشرا من سفر اخنوخ وهذا يدل على تأثير تلك الكتابات على العقلية اليهـــودية فى عصر المسيح ، وان لم تدرج ضمن الكتابات المعترف بها ٠

وهذه مثلا (قصة الدينونة) فى الاصحاح ٦٢ من (سفر اخنوخ) الذى يرجع الى عام ١٥٠ ق ٠ م :

« ويجلس رب الأرواح على عرش مجده ٠٠٠ وتقف أمامه كل الملوك وكل الجبابرة وكل المتعالين فى الأرض ، وينظرون ويعرفون الجالس على عرش مجـــده والذى يدين بر الانســـان وينظر فريق منهم الى الآخـــر ويرتعبون وينكسون الوجوه ٠٠٠ حينما يرون ابن الانسان الجالس على عرش مجده فيسلمهم الى الملائكة للعقاب ولتنفيذ حكم الدينونة عليهم ٠٠ ويخلص الأبرار والمختارين فى ذلك اليوم ولن يروا وجوه الأشرار والخطاة فيما بعد وسوف يحـــل معهم رب الأرواح وسيأكلون مع ابن الانسان ويضطجعون ويقومون آمنين الى دهر الدهور ٠٠ »

وفى (انجيل متى) اصحاح ٢٥ تقرأ :

« ومتى جاء ابن الانسان فى مجده وجميع الملائكة القديسين معه ، فحينئذ يجلس على كرسى مجده وسيجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم عن بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار ثم يقول الملاك للذين عن يمينه تعالوا يامباركى ربى رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم ، ثم يقول أيضا للذين عن اليسار اذهبوا عنى ياملاعين الى النار الأبدية ٠ فيمضى هؤلاء الى عذاب أبدى والابرار الى حياة أبدية » ٠

ومن المحاولات التى بذلت لصرف نظر الشعب اليهودى عن المسيح

ذلك التفسير الذى ذهب فيه أحبار لليهود الى أن (المسيا) لا بد وأن يكون ملكا من ملوك العهد القديم قام من الموت ، زعم البعض عنه أنه الملك (يهوشا فاط) وزعم آخرون أنه الملك (داود) أو (النبى ايليا) ويقول عنه الحبر (يوحنا بن زكاى) المعاصر لرسل المسيح انه الملك (حزقيا) أخذا مما جاء في (سفر اشعياء) • وذهب البعض الى أن اسرائيل ينبغى ألا ترتقب ظهور (المسيا) لانها قد سعدت به فى عهد (حزقيا) ! ومن هنا روى عن المسيح في غير الاناجيل الاربعة مانقله القديس أوغسطينوس عن (الماركيونيين) في رده عليهم « أنتم ترفضون الحى الواحد الذى أمام عيونكم وتشغلون أنفسكم بالموتى » ! والماركيونيون طائفة ظهرت فى القرن الثانى الميلادى بروما واستمرت الى القرن السابع ، وكتابهم يضم انجيلا ورسائل بولس العشر ، وهم لا يؤمنون بالتجسد ولا القيامة ، وكانوا يمتنعون عن الخمر حتى في طقس التناول وقالوا ان اله المسيحيين غير اله اليهود •

وكانت العقيدة الرسمية لليهود تتركز فى (الشيما) وهى « الوصايا العشر » ، اذ يرد فى أول الوصايا (شيما يسرائيل) أى اسمع يا اسرائيل • وكان على كل يهودى ذكر أن يكرر الشيما مرتين كل يوم وكانت تكرر مع صلوات أخرى فى مستهل الصلوات فى المجمع •

وكانت حياة اليهود تزحمها (الطقوس) ، (ومجامعهم) تفصل فى مشكلات الدين والدنيا ، ولقد وصف اليهود فى عصر المسيح بأنهم « كانوا كنيسة أكثر منهم أمة » ! « لا آداب الا مانطقت به الأنبياء ، ولا فن ولا شعر ولا موسيقى ولا تاريخ الا ماكان متصلا بالدين » !! على أن « يهود الشتات » كان لهم لون ثقافى مغاير ، والطابع الهيلينى اليونانى فيهم واضح ، ومن هنا اعتبرهم المحافظون منحرفين !!

واتجه (الفريسيون) الى حفظ اليهودية من طغيان الوثنية الهيلينية اليونانية ، وكانت الفريسية اليهودية صاحبة العقيدة الرسمية السائدة فى عصر المسيح وهى تتخذ الناموس أساسا والتقاليد أو التعليقات المجموعة تفسيرا للناموس • وقد تراكمت (المشنا) وغيرها من كتب (التلمود) على مر الأجيال حتى القرن الثانى • و (الناموس) فى ذهن اليهودى (تحالف) بين طرفين : (يهوه) و (شعب اسرائيل) ! (الشعب) يطيع الوصايا ، و (يهوه) من جانبه مع الشعب مادام الشعب فى طاعته يحارب حروبهم ويدافع عنهم ويخلصهم من أعدائهم

ويكتب لهم النجاح والتوفيق فى كل أمورهم · وعلى مر الزمن يتجمد (الناموس) فى الفكر والسلوك فيستحيل الى حروف وطقوس !!

خذ مثلا هذه المناقشة : هل يجـــوز أن تنظر سيدة فى المرآة يوم السبت ؟ والجواب هو النهى الجازم والتحريم القاطع « لئلا ترى شعرة بيضاء فتجرب بنزعها فيقع الفعل فى يوم السبت » · !!

واذا باضت دجاجة يوم السبت فماذا نفعل بالبيضة ؟ تسامح فريق فأجازوا أكلها ، وتشدد آخرون فقرروا التحريم !

هذه صورة من أبحاث (التلمود) ··· وكلما تعاظم التدقيق تعاظم التحايل ، فاذا كان التقليد يفرض بألا يسافر الانسان أكثر من مسافة معينة هى (حد السبت) ، فان اليهودى لم تعوزه الحيلة ليختار (سبته) حيث يشاء فيقول : سبتى يبدأ من هذا الجبل أو هذه الربوة أو الشجرة !

يقول اليهودى المتنصر اميل شرر :

« لم يترك أقل شىء للارادة الحرة ··· كل شىء وضع تحت قيود الحرف · لقد أصبح الاسرائيلى الغيور على حفظ الناموس يتساءل فى كل خطوة يخطوها ماهو المكتوب : فى عمله ، فى صلاته ، على مائدته ، فى البيت ، فى الخـــارج ! ! من الفجر الى المســـاء ، فى الشباب وفى الشيخوخة أصبحت تلاحقه حرفية الناموس !! لقد باتت الحياة عذابا لا يطاق لليهودى المتزمت الذى يخشى فى كل لحظة أن يتردى فى خطر التعدى على الناموس » !

أضاف الفريسيون التقليد والمأثور الى الناموس ··· وهذه قد تعرضت لآلاف المسائل من وقائع الحياة ··· وفى أوقات السبى وخراب الهيكل كانت الروابط الشعائرية التقليدية تتفكك ببطلان المراسيم والذبائح والطقوس وكانت القلوب تهفو الى النبوات والمواعيد ، ولكن ماكاد القوم يعودون من السبى ويأخذ الهيكل مقامه حتى بدأت الطقوس والتقاليد تحتل مكانها من جديد · « وعند عهد (عزرا) و (نحميا) اتخذ (الناموس) مكان الأنبياء الذين تنبأوا قبل السبى ، حتى أصبح احياء النبوات وعهد النبوة أمرا مستحيلا » !

على أن كتب الأنبياء ظلت تقرأ فى المجامع ، وانتشرت كتابات الرؤى الرمزية ــ كما سلفت الاشارة ··· ولكن كان الاثر الاكبر لـ (يوحنا المعمدان) !!

وفى بداية تاريخ اليهــود كان (الكتبة) ينســخون النــاموس ويدرسونه ، ومكانهم بحكم طبيعة عملهم بعيد عن أعين الناس ، لكنهم مالبثوا أن تحولوا بمرور الزمن الى (طائفة) ٠٠٠ الى هيئة ثابتة تتوارث المهنة ! وأصبح لهم مقامهم الكبير ، فهم أســاتذة الديانة الرسميون ، والأناجيل تسميهم (بالكتبة) حينا و (الناموسيين) حينا آخر • وكان المعلم فى عهد المسيح يدعى الحبر Rabi والكاتب ينادى بـ (ربونى) أى يامعلمى ، وان لم يصبح هذا لقبا رسميا لهم الا بعد المسيح بسنين • وهكذا كان الكتبة هم الهيئة الرسمية التى تعلم الدين وتشرح التقاليد وتجلس فى كرسى القضاء فى المجامع الاقليمية الدينية • وكان اليهودى يرجع الى هؤلاء فى عظيم الامور ويسيرها • ونزع أتبــاع (هليل) الى الترخص ومن ذلك أنهم سمحوا بطلاق الزوجة لأدنى سبب حتى ولو كان تقديم طبق سيء الطهو للزوج ! ونزعت مدرسـة (شماى) منزع التشدد فقصرت الطلاق مثلا على علة الخيانة الزوجية • وتعددت المناقشات وتفنن القوم فيها ، ودار الجدل الطويل على تفسير الكلمات والحروف !

وكان (للربيين) الكبار (مدارس) يستقبلون فيها تلاميذهم ، يجلس المعلم أو (الربى) على مقعد مرتفع ويتحلق حوله تلاميذه وكانت حلقات التدريس تعقد أحيــانا فى أروقة الهيكل الخارجية وذلك أيام الاعياد ، كما كان الربيون يتنقلون فى القرى حيث يلقون أكرم ضيافة • وقد يقدم أحد (العلمانيين) عظة أو نصيحة ، لكن (الكاهن) وحده هو الذى يفسر الناموس والتقــاليد ! وكان هناك (ربيون) يعيشون فى اليهودية وفى الجليل وفى المدن والقرى يعلمون ويفتون ويقضون ، وكان الفريسون يضمون ربيين وعلمانيين • واذا كانت العقيدة الفريسية هى العقيدة الرسمية ، فان الفريسيين أنفسهم لم يكونوا (هيئة رسمية) معينة من قبــل السلطات الدينية ، بل كانوا منفصلين عنها • وقدر (يوسيفوس) عددهم بستة آلاف • وكان الروجة والأولاد يتبعون الرجل فى ولائه الطائفى •

واذا كنا نصادف فى عهد المسيح كثيرين من الفريسيين فى شتى أنحاء فلسطين وبخاصــة فى الجليل فانه ينــدر أن نلتقى بواحد من (الصدوقيين) خارج أورشليم وضواحيها • وهؤلاء يخالفون الفريسيون حتى فى نظامهم وشروط قبول الأعضاء ، فالعضوية عندهم مقصورة على رؤســاء الكهنة وأسرهم ، وكانت مكانة الصــدوقيين تقــوم على ثرائهم ومكانتهم ، وكانوا أكثر (عالمية) من الفريســيين ! لقد مالوا الى تطعيم الفكر اليهودى بالثقافة اليونانية ، وكانوا يرون أن حسبهم الاستمساك

(بناموس الله) وحده ، اذ أن كل (تقليد) هو من صنع البشر ! وهم لا يؤمنون (بقيامة الاموات) أو الحياة الآخرة ! ولعلهم لم يتجاوزا بضع مئات • وقد حرصوا على تنظيم (الهيكل) فعن طريق الهيكل وأمواله امتلأت جيوبهم • واذا كان بعض (الكتبة) من (الفريسيين) وقد وصل فى عهد المسيح الى عضوية مجلس (السنهدريم) الاعلى ، فان أعضاء المجلس بعد المسيح كان جميعهم من (الصدوقيين) !

وكان (السنهدريم) يتمتع بكل السلطات الدينية والمدنية ، التشريعية والقضائية • وكان (الناموس) المرجع فى تحديد كل المراكز القانونية ، فالسرقة لا تعتبر جريمة فى حق المجتمع فحسب بل فى حق الناموس أيضا ، وكان السنهدريم يملك أن يصدر الاحكام وينفذها عدا حكم الموت الذى كان يلزم له تصديق الحاكم الرومانى لأجل التنفيذ • ويضم المجلس ٧١ عضوا يعينون بمراسم احتفال كبرى • واذا ماعرض للمجامع الاقليمية حالات هامة فانها كانت ترفع للسنهدريم ليصدر فيها حكمه النهائى ، ومنه كانت تصدر التوجيهات والتعليمات للمجامع الصغرى• كما كان أعضاء المجامع الاقليمية يعينون بقرار من السنهدريم• وهناك روايات كثيرة عن عدالة هذا المجلس التى امتهنت فقط حين كان المتهم هو المسيح ! وكان اليهود يتجهون من جميع الأنحاء الى الهيكل فى الأعياد الثلاثة الكبرى : (عيد الفصح) و (عيد الخمسين) و (عيد المظال) • وشعائر الهيكل تعتمد على الذبائح ، وفى الساحة الخارجية للهيكل كان تجار المواشى والأغنام يبيعون للقادمين الذين يحملوا معهم ذبائحهم وكان الصيارفة يبدلون النقود • وشارك الكهنة الصدوقيون التجار فى تجارتهم ، وكانت الذبائح تقدم فى الصباح وفى المساء على أنغام الصنوج والبوق وترانيم المزامير وعطر البخور • وأقيمت مجامع اقليمية تقتصر الشعائر فيها على قراءة الفصول من الناموس أو الأنبياء وبعض الصلوات وبعض المواعظ القصيرة تعليقا على الفصول المقروءة (١)•

هكذا كان اليهود فى (داخل عالمهم) •••

وقد أبدع العقاد فى ابراز ملامح الصورة ••• فى اجمال وجمال :

« كان العالم اليهودى فى العصر الذى ولد فيه السيد المسيح يشتمل على طوائف مختلفة ، لكل منها مذهبه فى انتظار المسيح المخلص الموعود •

---

(١) دكتور عزت زكى : فلسطين كما عرفها المسيح ص ٦٤ / ١٣٤ ، يواكيم ارميا : أقوال المسيح غير المدونة فى بشائر الانجيل ص ٨٧ : ٩١ ، بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٨٢ : ٤ ، ٣١٠ •

فالصدوقيون هم فى دعواهم أتباع (صدوق) وأسرته، الذين تتواتر الروايات بأنهم كانوا يتولون الكهانة فى عهد داود وسليمان • وكانت طائفتهم مهتمة بمراكز أصحابها ، لانهم على الجملة أنصار المحافظة والاستقرار وأصحاب الوجاهة والثراء ، وقد كانوا متشددين فى انكار البدع والتفسيرات متشبثين بالقديم يؤيدون سلطان الهيكل والكهان ويقبلون أقدم الكتب التى احتوتها التوراة ويرفضون ما عداها ولا سيما المأثورات المنقولة بالسماع • وتدعوهم المحافظة على النظام القائم الى مسلك يناقض عقيدتهم فيما هو ظاهر من لوازمها ، فقد كانوا أقرب اليهود الى الأخذ بالحضارة اليونانية وعادات المعيشة فى البيئات الرومانية ، لكنهم يحافظون على نظام المجتمع لانهم أصحاب اليد الطولى عليه ويملى لهم انهم يؤمنون بأن الكتب اليهودية الاولى لا تذكر البعث ولا اليوم الآخر ، وخلاصة الآداب الصدوقية انهم **حرفيون فى مسائل الدين ، متوسعون فى مسائل المعيشة ، وانهم يعاشرون الاجانب ولا يعتزلونهم كسائر أبناء قومهم ، لان أعمالهم ومراكزهم متصلة بذوى السلطان •**

وتقابل الصدوقيين طائفة **الفريسيين** ـ أقوى بكثرة العدد وشيوع المبادىء وحسن السمعة بين سواد الشعب وعلية القوم الذين لا يخالطون الاجانب ، وان لم يكن بين أفرادها كثيرون فى مرتبة الرؤساء والوجهاء • واسم الفريسيين مأخوذ من كلمة عبرانية تقارب كلمة (الفرز) العربية فى لفظها ومعناها ، فهم المفروزون أو المتميزون ••• لهذا كانت تلازمهم فى بعض الاحيان صفات الادعاء والتعالى، على انهم كانوا يقابلون بهذه الكبرياء كبرياء الوجاهة والثروة التى كانوا يستنكرونها على خصومهم الصدوقيين، وكانوا يثورون على السلطان (الرسمى) حيث كان : فى الهيكل أو فى المراجع الاجنبية ، **فكانوا ينكرون على الكهان استبدادهم بالشعائر والمراسم ، وينكرون فى الوقت نفسه عادات الاجانب والمتشبهين بهم محاكاة للحكام والمتسلطين • الا ان الغالب عليهم انهم أقرب الى التصرف والقياس** ، أو أقرب الى تحكيم العقل فى مسائل النصوص والتقاليد ••• يفضلون ـ على عكس الصدوقيين ـ الدية والمسامحة على القصاص، وكانوا أقرب الى الروحانية والآداب النظرية أو آداب التأمل والتفكير ، فسبقوا مراحل الى انتظار المسيح المخلص فى عالم الروح غير مقيد بشروط الصولة والصولجان • فهم (الديمقراطيون) اذا وصف الصدوقيون على الاجمال بانهم طبقة (الارستقراطيين) • وقد جاء عصر الميلاد وهم ينقسمون الى فريقين : فريق منهما يتبع الحكيم (هلل) الذى قدم الى فلسطين من بابل ـ وهو الفريق السمح الودود فى معاملة الاجانب ، والفريق الآخر

يتبع الحكيم (شماى) – وهو أقرب الى التحرج والتضييق ورد الراغبين في دخول الدين من غير اليهود ·

والطائفة الثالثة التى تقـل عن هاتين الطائفتين فى العـدد كثيرا وتساويها أو تزيد عليها فى القوة والاثر هى طائفة **الآسين** أو الآسيين ، والراجح ان الاسم مأخوذ من كلمة (آسي) بمعنى الطبيب أو النطاسى من الآراميه وهى تفيد هذا المعنى فى العربية التى تعـد الآرامية أقرب اللغات السامية اليها ، ومن المعقول أن يتسمى أصحاب هذا المذهب بالآسين لانهم كانوا يتعاطون طب الروح ويدعون ابراء المرضى بالصلوات والأوراد كما يدعون العلم بخصائص العقاقير · ومصدر قوتهم صراحة العقيدة وتنظيم الخطة ، وقد تكون دلالتهم أعظم من قوتهـم لانهم طائفة من صميم الامة الاسرائيلية قد استقلت بشعائرها وعباداتها وآرائها وأسرارها وأوشكت أن تسـتقل عن (الهيكل) كله لولا القرابين ، ولكنها مع هذا تنـكر ذبح الحيوان ولا تقرب القرابين من غير النبات ·· وقد نشأت الطائفة على الأغلب بالاسـكندرية فى القرن ٢ ق · م ، واقتبسـت من المـدارس الاسكندرية كثيرا من أنظمة العبادات السرية وبعض المذاهب الفلسفية·· كان حراما عند أبناء هذه النـحلة أن يملك أحدهم ثوبين أو زوجين من النعال أو يدخر الامتعة والاقوات ، وكانت الرهبانية غالبة عليهم الا من أذن له بالزواج فيعفى من قيود النسك والبنولة ·· والمادة عندهم مصدر الشر كله والسرور بها سرور بالدنس ، وكان يغلب عليهم من أجل هذا وجـوم الصمت والنـدم ، وكل ما يباح لهم من السرور فهو سرور الروح بالعبادة والرياضة والقنوت ، وكانوا يتآخون ويصطحبون اثنين اثنين فى رحـلاتهم ·· وهـم **مؤمنون بالقيامة والبعث ورسالة المسيح المخلص ، معتقدون أن الخلاص بعث روحاني يهدى الشـعب الى حياة الاسـتقامة والصلاح ، ورائدهم فى طلب الرضا من الله هو النبي عاموس الذى كان يعلم الشـعب أن التقرب الى الله بالعـدل والرحمة خير من التقرب اليه بالذبائح والهدايا · ولا يبعد أن يكون الغلاة أو الجليليون اتباع يهوذا الجليلى فرقة متطرفة من فرق الآسين ·**

والطائفة **السامرية** خليط من اليهود والأشوريين كانوا يقيمون فى مملكة اسرائيل القديمة ، يقال انهم قبائل أشورية أرسلها ملوك بابل الى فلسطين ليسكنوها فى أماكن القبـائل اليهـودية التى نفيت الى ما بين النهرين وسـميت من أجل ذلك بسبايا بابل ، ويقال انهم اختلطوا باليهود الذين بقوا فى بلادهـم ولم تحملهم الدولة البابلية الى بلادها مع القبائل

المسبية ، فوقع من هذا الاختلاط في السكن والنسب اختلاط في العادات والعبادات ، وعاد اليهود الذين رجعوا من السبى بعد سقوط بابل فأنكروا من السامريين شعائرهم المخـــالفة لتقاليدهم واتهموهم بعبادة الاوثان ، ورفضوا مشاركتهم فى بناء الهيكل الجديد • فعمـد السامريون الى بناء هيـكل خاص لهم فى جرزيم ، وجعلوا يتعمدون أن يدنسوا هيكل بيت المقدس ويحصروا القبلة فى هيكلهم ـ وقد بقي منافسا لهيكل بيت المقدس زهاء ٢٠٠ سنة حتى هدمه رئيس كهان بيت المقدس (حنا هير كانوس) قبل الميلاد بأكثر من ١٠٠ سنة ، ولكنهم أعادوا بناءه وظل قائما حتى هدمه الرومان بعد ثورة الســامريين فى القرن ٥ للميـلاد ••• ولا تزال بقايا السامريين تحتفظ بتقاليدها وتعتمد على نسخة التوراة المكتوبة بلغتها • ومن المحقق ان هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر ، ويرجع شأنهم هذا الى **النزاع القديم بين مملكة يهوذا فى الجنوب ، ومملكة اسرائيل التى ورثها السامريون وهم ينسبون الى يعقوب ويدعون انهم دون غيرهم الجديرون باسم (الاسرائيليين) ، فاذا اعتقد أصحاب مملكة يهوذا فى الجنوب أن عاصمتهم ـ بيت المقدس ـ هى مقر الملك المنتظر من سلالة داود ، فان السامريين أبناء الشمال يفتحون الســبيل الى الايمان بالخلاص الروحانى والهداية الشعبية ، ويزعزعون الثقة بأحبار الهيكل الجنوبى وفيمن عسى أن يبايعوه بالملك اذ حان الموعد المقدور •**

ولم تخل البلاد جميعا ـ مع هذا ـ **من ناس هنا وهناك يتسعوا عن جميع الطوائف والنحل واعتزلوا الدنيا** وعاشوا فى الصـوامع بمعزل عن العمران ، وارتفع شأنهم فى أعين الشعب لسوء ظنه بالدعاة المغـامسين للدنيا فى بيئات الساسة والكهان ، ومن هؤلاء (بانوس) الذى تتلمذ عليه يوسيفوس المؤرخ الكبير ٣ سنوات •

أما موقف **الهيكل** من هذه الطوائف والفرق فهـو الموقف الرسمى المعهود ، أو موقف المسئولين الذين يحاولون أن يتجنبوا التحيز لهذا أو لذاك ، ويجتهدون غاية اجتهـــادهم أن يكسبوا ثقة الشعب ولا يغضبوا سلطان الدولة ، وقلما يتيسر النجاح فى هذه المهمة ، ولا سيما فى أوقات القلق والتطلع والتبرم بكل موجود • وولد السيد المسيح ووظائف الهيكل على أشـــهر الروايات مصـفاة فى المجمع المقـدس الذى يطلق عليه اسم (السنهدرين) ، وعدة أعضـــائه ٧١ : منهم ٢٣ يتألف منهـم المجلس المخصوص وتغلب عليه الصفة الرسمية التقليدية ، ويتصل أعضاؤه برجال

الدولة فى الشئون العامة وما يرجع منها الى تنفيذ الاحكام والمحافظة على الشريعة المحلية أو الشريعة الموسوية ٠

ونشير الى طائفة **النذيرين** أو المنذورين لحياة القداسة وخدمة الله والتبشير باليــوم الموعود : يوم الخــلاص من الظلم والجور والتطهر من الذنــوب ، ولم يكن هؤلاء طائفة تجمعهم الوحدة ، لــكنهم كانــوا آحادا متفرقين ينذر كل منهم نفســه أو ينـــذره أهله على حدة ٠ وقــد تكاثر النذيرون قبيل مولد السيد المسيح لأنه وافق نهاية الالف الرابعة منذ بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى ، وهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف ســنة ٠٠ ومن المؤرخين من يحسب السيد المســيح من النذيرين ، ويلتبس عليه الامر بين النــذيرى والنــاصرى وهمــا فى اللفــظ العبرى متقاربان» (١) ٠

***

ونستطيع أن نتبين خصائص الجو الفكرى الذى عاشت فيه اليهودية اذا ما قارناها بالفكر السائد ٠٠ فالى أى مدى تأثرت بغيرها ؟ والى أى مدى تأثرت المسيحية بها ؟؟

اذا ما رجعنا مثلا الى **قوانين حمورابى** فى الالف الثانية قبل الميلاد نجدها تحتوى على ٢٧٧ بندا فى ٣٦٠٠ سطر ويتناول القسم الاول منها الممتلكات الخاصة والمهنة والتجارة ، بينما يحيط القسم الثــانى بالاسرة وروابط الافراد وعلاقات العمل والعمال ٠ ويرى الدكتــور جون الد أن المشابهة بين قانون حمــورابى وناموس موسى ظاهرة لدى مقــارنة بعض البنود ، مثل : تحرير العبيد بعد الخدمة (خروج ٢١ : ٢ / حمو ١٧) وعقوبة ضرب الابن لأبيه (خروج ٢١ : ١٥ / حمو ١٩) وسرقة الاشخاص (خروج ٢١ : ١٦ حمو / ١٤) وقصاص الجروح (خروج ٢١ : ٢٤/حمو ١٩٦ ، ٧) والتعويض عن قلع العين (خروج ٢١:٢٦/حمو ٩٩) وما يترتب على نطح الثور رجلا وقتله (خروج ٢١ : ٢٨/٩/حمو ٢٥٠ ــ ١)والتعويض عن سرقة ثور اوشــاه (خروج ٢٢ : ٢٤/حمو ٨) وقتل الســارق الذى يثقب (خروج ٢٢ : ٢/حمو ٢١) ٠ على اننا حين ننظر بنظرة القوانين السائدة اليوم نجد بنودا فى قانون حمورابى قاسية للغاية ٠ فهناك مثلا ٣٢ جريمة حددت لها عقوبات عنيفة ، ومن ذلك عقوبة (الاحراق) لكاهنه

---

(١) العقاد عبقرية المسيح ١٥ : ٣٧ ملخصا ، حتى تاريخ سوريا ــ ترجمة حداد ورافق. جـ ١ ص ٣٧٥ ٠

المعبد ان فتحت محلا لبيع النبيذ ، ولمن يضبط متلبسا وهو يشعل النار في ممتلكات غيره وللزوجة التى تتسبب في موت زوجها • وهناك عقوبة (الاغراق) لمن يغش في الخمور أو يرتكب الزنا وللزوجة التى تهجر بيتها أثناء غياب زوجها• و (تشويه الجسد) أيضا كان عقوبة مشروعة في جرائم أخرى فالعبد الذى يؤذى ابن سيده تقطع أذنه والجراح الذى يخطىء في عملية جراحية ويتسبب بذلك في موت المريض تقطع يده والنمام يقطع لسانه • وهناك فروق كثيرة بين (قانون حمورابى)و (ناموس موسى) فقانون حامورابى قانون مدنى ولا يمس الأمور الدينية الا من بعيد في حين كان ناموس موسى شريعة دينية تقوم على تعاليم الهية • (١)

وتذكر كاترين هنرى أن شرائـع العبرانيين كانت تمـاثل شرائع البلدان المحيطة بهم ، غير ان شرائع (بابل) ـ متمثلة في تجميع وتقنين حمورابى • قد عالجت الحياة التجارية خلافا للشرائع العبرانية وقد عرف العبرانيون هذه الشرائع وخضعوا لها يوما •

كذلك نجد بعد ذلك شريعة (الأشوريين) وشريعة (الحيثيين) ، ونلمس أن المزاج القانونى في ذلك التاريخ كان متقاربا في بلدان الشرق الأدنى • وقد تضـمنت أسـفار (العهد القديم) أحكاما وشرائع وفتاوى ترجع لتـواريخ مختلفـة وقد تعرضت للتعـديل والاضافة والحذف وفقا لحاجات الناس وتغيرت العقوبات : فبينما كانت عقوبة الموت في الاحكام المبكرة مفروضة في حالات كثيرة اكتفت الاحكام المتأخرة فيها بالغرامة أو التعويض • وفى أول الامر لم يفرق في العقوبة بين جريمتى القتل أو السرقة في حين جاءت التفرقة في العقوبة على جريمة واحدة بالنظر الى اختلاف شخص المجنى عليه وذلك في ايذاء الحر وايذاء العبد • ونظرا لان حياة العبرانيين قد قلت فيها المعاملات التجارية فقد اقتصرت الاحكام على تلبية احتياجات المشتغلين بالزراعة وتربية الماشية كما تناولت مطالب الاسرة والقبيلة • (ولسفر الشريعة) أهمية في التشريع اليهودى وقد عثر عليه رئيس الكهنة (حلقيا) أثناء ترميم أبنية الهيكل في أورشليم بمقتضى الامر الصـادر من (برخيا) ملك يهوذا حوالى سنة ٦٤٠ ق•م (سفر الملوك الثانى ص ٢٢) وحين قرىء السفر على مسامع الملك كان له أثره البالغ عليه فأمر بتلاوته وقطع الملك وشعبه (العهد) على حفظه وقد اسـتهدف السفر تدعيم عقيدة التوحيد والتطهر من الاصنام والسـحر

---

(١) دكتور جون الدر : الاحجار تتكلم ترجمة د• عزت زكى ص ٦٠ : ٦٢ •

وتركيز العبادة العامة فى أورشليم وكانت العبادة المحلية قد اختلطت برواسب وثنية ٠

و « لسفر التثنية » كذلك أهميته فى التشريع اليهودى ويقال ان سفر الشريعة جزء منه وهو يستهدف تحقيق بعض المثل العليا التى تسمو على ما أوردته الاسفار الخمسة الاولى (ابتداء من التكوين حتى التثنية) ـ خلافا للاسفار التاريخية (يشوع والقضاة وصموئيل والملوك وأخبار الايام) وقد تعرض للتنقيح والاضافة ٠ وفى (سفر اللاويين) نجد ضمن الكتابات الكهنوتية مجموعة من الشرائع تدعى (شريعة القداسة) تحث أبناء شعب الله القدوس أن يكونوا قديسين (ص ١٧ : ٢٦) والاحكام فى هذه المجموعة تتفاوت فى القدم ويظن انها كتبت خلال سبى اليهود حوالى سنة ٥٧٠ ق٠م٠ ولم تكن نظرة كتاب (المجموعة الكهنوتية) قاصرة على ظاهر الاحكام بل حاولت النفاذ الى ماوراءها من مبادىء وحكم (فالقول) هو ارادة الله للناس و (الباعث للبر) ليس الصالح الذاتى أو النجاة من العقاب بل محبة القداسة والبر ٠ وتعتبر كتابات الكهنة مصدرا لأحدث المجموعات القانونية فى العهد القديم التى تعنى بالطقوس والذبائح وشعائر العبادة عموما (اذ أعقبت المصادر التى استعمل فيها لفظ يهوه Jeovah وتلك التى استعمل فيها لفظ الوهيم Ehohim للدلالة على الله أو الرب) وتمثل هذه الكتابات الكاهن اليهودى وقد زالت عنه صفة القضاء وأصبح فى مرتبة مقدسة ٠ ونحن نجد هذه المجموعة التشريعية الكهنوتية فى أسفار مختلفة (مثلا أحكام عيد الفصح فى سفر الخروج ص ١٢ : ٤٥ ـ ٩ ، أحكام الذبائح فى سفر اللاويين) «وقد ادخل الكهنة روحا جديدة فى التشريع اذ اقترنت العقيدة والعبادة بحوادث التاريخ ووقائع حياة الشعب رجالا ونساء ليثبتوا ان الله يعنى بالناس ويتداخل فى حياتهم ٠ وفكرة أن الله سيد التاريخ البشرى ويده عاملة فى تطور الانسانية قد ورثتها الكنيسة المسيحية عن اليهودية » (١)

وثمة جماعة أخرى لها آراؤها وتقاليدها ، أشار اليها العقاد فى اجماله الجميل ـ وكشفت مخطوطات البحر الميت عن مكانها ومكانتها ٠ ونحن نعرف (الأسينيين) من خلال كتابات يوسيفوس الذى يثنى عليهم كثيرا ٠ كان كل شىء بينهم مشتركا ، وكانوا يمتنعون عن الزواج ويخدمون أنفسهم ويتميزون بالكرم وحسن الخلق ويعيشون معيشتهم الجماعية الزاهدة فى محلات (مراكز تجمع) وأديرة ويذكر يوسيفوس

---

(١) كاترين هنرى : لمحات من التاريخ فى الكتاب تلخيص وترجمة حبيب سعيد ص ٥٠ : ٩

الكثير عن تعبدهم وتشددهم كما يذكر الفروض والممنوعات فى جماعاتهم. و (القسم على حفظ السر) الذى يرتبطون به وقد ازدهرت هذه الطائفة من بداية العهد المكابى (١٧٥/١٣٢ق٠م) حتى سقوط أورشليم سنة ٧٠م ٠ واذا ما كانت هناك مشابهات عدة بين معتقدات الاسينيين والمسيحيين فان هناك أوجه خلاف ٠ فالجميع يجتمعون على الاعتقاد فى (العهد الجديد) أو الموعد ، وعلى ان أعظم الوصايا هى محبة الله ومحبة القريب كما يجمعون على الاعتقاد بان هناك مجموعة من ١٢ شخصا سيدينون المسكونة فى اليوم الآخر ، وان كل واحد من الطائفة هو ابن للنور ٠ كذلك كان للجميع عشاء مقدس يرددون فيه الصلوات ومعمودية يلتزمون بها كما كانوا جميعا يعتقدون ان أيامهم هى الايام الاخيرة التى تشهد اصطراع الخير مع الشر ولهذا يجب اتباع الحق والبر اذ قد اقترب ملكوت السموات ٠ وهناك تشابه كبير فى الاسلوب بين (انجيل يوحنا) وبين (حروب أبناء النور مع أبناء الظلمة) للأسينيين ٠

لكن نجد خلاف الفريقين فى (ناموسى موسى) (١) فالاسينيون كانوا يلتزمون به عقيدة وسلوكا بينما اعتقد المسيحيون أن (عهد الناموس قد كمل فى عهد النعمة) وان الخلاص لم يعد بعد باتباع وصايا موسى وانما بالايمان بالمسيح ٠ كذلك امتنع المسيحيون عن أى قسم ٠ وكانوا يرون أن ايليا الذى يأتى ليمهد الطريق بين يدى (المسيا) قد تحقق فى شخص المعمدان ، بينما كان الاسينيون ينتظرون ايليا ، كما كانوا ينتظرون ظهور مسيحين : مسيح هارون ومسيح اسرائيل ٠ وهكذا يمكن القول ان (الاسينية) كانت امتدادا أو تطهيرا أو احياء لليهودية فى أصولها ومصادرها لا ديانة جديدة ٠

ونحن نجد الاسينيين يدققون فى أدق الفروض الخاصة بحفظ السبت بينما اعتقد المسيحيون ان الايمان بالمسيح قد حرر من عبودية التقاليد الجافة ، ونجد الاسينيين يحرصون على الاغتسال قبل تناول الطعام بينما سار تلاميذ المسيح على ان الطهارة فى القلب ، ونجد الاسينيين يمارسون الزهد ويمتنعون عن الزواج بينما نادى المسيحيون بقدسية الزواج كوصية الهية ٠ ومعمودية الاسينيين فريضة طهارة يمارسونها مرتين فى كل يوم ولكن معمودية المسيحيين فريضة تثبيت وقبول واعلان واعتراف بالايمان بالمسيح ٠ والعشاء الدينى عند تلاميذ المسيح تذكار لآلام المسيح وموته وهذا غير متصور بالطبع بالنسبة

---

(١) سيتناول فصل قادم عنوانه « بل جئت لاكمل » موقف المسيحية من الناموس .

للأسينيين . كما كان الاسينيون ينادون بكراهية الاعداء ومحاربتهم في حين انّ المسيح دعا الى مباركتهم والصلاة من أجلهم . هذا وقد كانت طائفة الاسينيين سرية مغلقة لا يقبل ضمنها الا من يلتزم بفروض صارمة في حين كانت كنيسة المسيح مفتوحة للجميع . وكان الاسينيون ينبذون النساء ويحتقرونهن في حين نلن في المسيحية التكريم والرعاية .

أما (معلم البر) الذى أشار اليه الاسينيون في كتاباتهم فليس هو المسيح بالطبع ، لقد نادى هذا بمذهب ناموسى دقيق صارم ، وهو وان كان قد احتمل العنت الا انه لم يواجه الصلب والقبر والقيامة ولم يناد أحد بعودته ثانية في نهاية الدهر . ولربما كان الاسينيون يشيرون بتعبير (معلم البر) الى المعلمين والانبياء في كل عصر وجيل (١) .

***

في هذا الجو الاجتماعي والنفسي والفكرى قدر لرسالة المسيح أن تتنفس ... « في ذلك اليوم جاء اليه صدوقيون يقولون ليس قيامة فسألوه ، أما الفريسيون فلما سمعوا أنه أبكم الصدوقيين اجتمعوا معا وسأله واحد منهم وهو ناموسى ليجربه ... » « فجاء واحد من الكتبة وسمعهم يتحاورون ، فلما رأى أنه أجابهم حسنا سأله ... » (٢) « فأمر حنانيا رئيس الكهنة الواقفين عنده أن يضربوه على فمه ... ولما علم بولس أن قسما منهم صدوقيون والآخر فريسيون صرخ في المجمع : أيها الرجال الاخوة أنا فريسى بن فريسى ، على رجاء قيامة الأموات أنا أحاكم . ولما قال هذا حدثت منازعة بين الفريسيين والصدوقيين وانشقت الجماعة ، لأن الصدوقيين يقولون أنه ليس قيامة ولا ملاك ولا روح ، وأما الفريسيون فيقرون بكل ذلك (٣) » .

وقد تآمرت الطوائف اليهودية جميعها ضد المسيح وتعاليمه ... « ان الفريسيين لا يترددون في محالفة الهيرودوسيين ألد أعدائهم ، على الرغم مما بين الحزبين من تشاحن وبغضاء وعداء قديم مستفحل ، مرده ما يتمتع به الهيرودوسيون من نفوذ وثروات طائلة نتيجة مما لأتهم لقوات الاحتلال الرومانية وولائهم لهيرودوس . أما كيف لبى الهيرودوسيون دعوة الفريسيين فلأنهم أوجسوا خيفة أن يكون هذا المعلم سببا في انقلاب

---

(١) دكتور جون الدر : الأحجار تتكلم — ترجمة دكتور عزت زكى ص ١٣٩ .
(٢) مت ٢٢ : ٢٣ ، ٢٤ — ٥ ، مر ١٢ : ١٨ ، ٢٨ .
(٣) أعمال ٢٣ : ٢ — ٩ .

اجتماعى وأحداث تطيح بالاستعمار وحليف الاستعمار هيرودوس الملك ٠٠
ولا غرو أن يجرب حزب الصدوقيين أيضا حظه بعد فشل باقى الاحزاب ، وهو الحزب القائل بعدم قيامة الاموات وأن لا حياة الا الحياة الحاضرة ٠ ومن ثم كان ينكر الصدوقيون الدينونة وخلود النفس ووجود الملائكة ، ويرفضون باصرار لا تعاليم التقليد فحسب بل تعاليم الكتاب المقدس أيضا ، باستثناء ما جاء فى أسفار موسى الخمسة وهى الاسفار المعروفة بالشريعة أو التوراة ٠ هذا من جهة العقيدة ، أما من جهة الآداب فكانوا على مذهب أبيقور ـ وهو المذهب الذى يبيح التمتع بالطيبات مهما كان نوعها الى أقصى الحدود ، بشرط ألا ينجم عن ذلك مضرة للجسد أو خطر على الحياة نفسها ٠ وكان حزب الصدوقيين حزب الأقلية ، الا انهم كانوا أصحاب سلطة ونفوذ بسبب ممالأتهم للرومان ، فمنهم كان الاعيان ورؤساء الكهنة أعضاء السندريم ٠٠٠ وكان اليهود يستخدمون العصائب والأهداب للدلالة على تمسكهم بحبل الله وأهداب الشريعة ، أما العصائب فهى قطع من الرق كانوا يكتبون عليها الاربعة الاجزاء التالية من الشريعة: خروج ١٣ : ١ ـ ١٠ ، خروج ١٣ : ١١ ـ ١٦ ،تثنية الاشتراع ٦ : ٤ ـ ٩ تثنية الاشتراع ١١ : ١٣ ـ ٢١ ، وذلك استنادا الى ما ورد فى هذه الآيات نفسها ، وفى تثنية الاشتراع ٦ : ٨ « واعقدها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك) علما بأن المقصود من ذلك هو المعنى المجازى لا الوضعى ، اذ المراد هو العمل بالوصايا واطالة النظر فيها بتأملها الملى لا حملها ماديا ٠ على أن قطع الرق المذكورة كانت تطوى وتحفظ داخل علب خاصة وتربط العلب بسيور على الجبهة والذراع اليسرى ، وذلك فى أيام وساعات معينة ـ ولاسيما وقت الصلاة أما الأهداب فهى عبارة عن أربع شرابات من الخيوط ، تعلق فى ذيل الثوب فى أربع زواياه ، كانت تأمر بها الشريعة ، تذكرة بجميع وصايا الرب ، وقد ورد ذكر ذلك فى سفر العدد ١٥ : ٣٧ ـ ٤١ ٠ وكان الكتبة والفريسيون ، كما هو واضح من قول الرب يعرضون عصائبهم ويعظمون أهدابهم ويطولونها ، حبا فى الفخفخة والمجد الباطل ، وبذا تشاغلوا عن جوهر الدين بأسباب الفخر والكرامة ٠ ولذا لا غرو اذا أحبوا الكرامة وأن يدعوهم الناس : رابى ، أى يا معلم »(١) ٠

وبين هؤلاء جميعا أشرق الهدى : « نور اعلان للأمم ، ومجدا لشعبك يااسرائيل » ٠

---

(١) لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج ٢ ص ٨٧ ، ٩٠ ، ٩٧ ـ ٨

دولة

يرى قارىء الأناجيل فى ديار المسيح ملكيات صغيرة فى ظلال الحكم الرومانى المسيطر ٠٠ « فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجمع أورشليم معه (١) » ، « وفى تلك الأيام صدر أمر من أغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة ، وهذا الا كتتاب الأول جرى اذ كان كيرينيوس والى سوريا فذهب الجميع ليكتتب كل واحد الى مدينته ، فصعد يوسف أيضا من الجليل مدينة الناصرة الى اليهودية الى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ـ ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة ٠٠ (٢) » « وفى السنة الخامسة من سلطنة طيباريوس قيصر اذ كان بيلاطس البنطى واليا على اليهودية ، وهيرودس رئيس ربع على الجليل ، وفيلبس أخوه رئيس ربع على ايطوريه وكورة تراخونيتس ، وليسانيوس رئيس ربع على الأبلية ـ فى أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فى البرية » (٣) ٠

وهكذا نجد أمامنا تنظيمات رومانية فى الادارة الاقليمية ، وقد أشار بولس بوضـوح الى ترتيب المدن والأقاليـم فى التنظيم الادارى للدولة الرومانية حين سئل من الأمير عند اضطراب أورشـليم عليه : « أفلست أنت المصرى الذى صنع قبل هذه الأيام فتنة ٠٠٠ الخ » فأجاب « أنا رجل يهودى طرسوسى من أهل مدينة غيردنية من كيليكية » (٤) ٠ كذلك نجد أيضا اصطلاحات عسكرية رومانية « ولما دخل يسوع كفر ناحوم جاء اليه قائد مائة يطلب اليه ويقول : يا سيدى غلامى مطروح فى البيت ٠٠٠٠ الخ (٥) » ٠ ٠ وقائد المائة Centurio من رتب الجيش الرومانى ٠ ونجد للعشار ـ جابى العشور أو الضرائب ـ ذلك الوضع البغيض « وبعد هذا

(١) مت ٢ : ٣ ٠
(٢) لو ٢ : ١ ـ ٥ ٠
(٣) لو ٣ : ١ ـ ٢ ٠
(٤) أعمال ٢١ : ٣٩ ٠
(٥) مت ٨ : ٥ ـ ٦ ٠

خرج فنظر عشارا اسمه لاوى ضيافة كبيرة في بيته والذين كانوا متكئين معهم كانوا جميعا كثيرا من عشارين وآخرين · فتذمر كتبتهم والفريسيون على تلاميذه قائلين : لماذا تأكلون وتشربون مع عشارين وخطاة (١) » ·

ويبدو أن الا كتتاب الذى أمر به القيصر أغسطس كما ذكر في انجيل لوقا هو الاحصاء الذى أشــار اليه المؤرخ يوســيفوس وأرخه بما يقابل السنتين السادسة والسابعة للميلاد ، ويذكر الأستاذ العقاد أنه لا يمكن أن يكون قبل ذلك لأن تاريخ ولاية كيرينوس المشار اليه في النص ـ معروف وهو السنة السادسة ، وعند ذلك « حسب الشعب الاسرائيلى أن الاحصاء مقدمة لفرض السيادة القيصرية عليهم فردا فردا وتقييدهم عبيدا للقيصر ومطالبتهم بعبادته وافتتاح الصلوات باسمه ···· أما المشكلة الأخرى التى أثارها تقرير الاحصاء فهى مشكلة الضريبة وعسف الجباة في تحصيلها ، فقد كان اليهودى يؤدى ضريبتين احداهما للهيكل والأخرى للدولة ، فلما صدر الأمر بالاحصاء العام توهم الدهماء أن الدولة لا تكتفى بما تحصله جملة وتنوى أن تزيد عليه ضرائب تستوفيها من الآحاد فرداً فردا مع الشطط فى تحصيل ضرائب الالتزام ، فاستجابوا داعى الثورة من الغلاة وغضبوا لعقائدهم كما غضبوا لأرزاقهم ، حين أمروا بالعودة الى بلادهم ليسجلوا أسماءهم حيث ولدوا أو حيث يقيمون · ومن هنا كان من المتواتر أن السيد المسيح ولد فى أعقاب ثورة جائحة اشتعلت فى أقاليم فلسطين اليهودية على وجه الخصوص ، وأهدرت فيها دماء الألوف من الغلاة وأتباعهم لأنهم هبوا فى وجه الدولة الرومانية محتجين على صدور الأمر بالاحصاء العام » (٢) ·

وقد جهد خصوم المسيح أن يستثيروا شكوك الدولة الرومانية ضده « ثم أرســلوا اليه قوما من الفريســيين والهيروديســيين لكى يصطادوه بكلمة ، فلما جاءوا قالوا له يا معلم : نعلم أنك صادق ولا تبالى بأحد لأنك لا تنظر الى وجوه الناس ، بل بالحق تعلم طريق الله ، أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ نعطى أم لا نعطى ؟ فعلم رياءهم ، وقال لهم · لماذا تجربوننى؟ ايتونى بدينار لأنظره فأتوا به ، فقال لهم : لمن هذه الصــورة والكتابة ؟ فقالو له : لقيصر · فأجاب يسوع وقال لهم : أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله · فتعجبوا منه » (٣) ·

---

(١) لو ٥ : ٢٧ ـ ٣٠ ، أيضا مت ٩ : ٩ ـ ١١ ، مر ٢ : ١٣ ـ ١٦ ·
(٢) العقاد : عبقرية المسيح ص ٤٣ : ٥٠ ·
(٣) مر ١٢ : ١٣ ـ ١٧ ، أيضا مت ٢٢ : ١٥ ـ ٢٢ ، لو ٢٠ : ٢٠ ـ ٦ ·

ثم نرى أخيرا ان والى الرومان وجنوده يتـولون اجراءات المحـاكمة وتوقيع العقوبة : « فوقف يسوع أمام الوالى قائلا : أأنت ملك اليهود ؟ فقال له يسوع : أنت تقـول · وبينما كان رؤساء الـكهنة والشيوخ يشتكون عليه لم يجب بشيء · فقال له بيلاطس : أما تسمع كم يشهدون عليك ؟ فلم يجبه ولا عن كلمة واحدة ، حتى تعجب الوالى جدا · وكان الوالى معتادا في العيد أن يطلق للجمع أسيرا واحدا من أرادوه ، وكان لهم حينئذ أسير مشهور يسمى باراباس ··· فأجاب الوالى وقال لهم : من من الاثنين تريدون أن أطلق لكم ؟؟ فقالوا : باراباس ، قال لهم بيلاطس : فماذا أفعل بيسـوع الذى يدعى المسيح ؟؟ قال له الجميع : ليصلب ·· فأخذ عسكر الوالى يسوع الى دار الولاية ، وجمعـوا عليه كل الكتيبة ، فعروه وألبسوه رداء قرمزيا ، وضفروا اكليـلا من شـوك ووضعوه على رأسه ، وقصبة في يمينه ·· »

« وكان عنـوان مكتوب فوقه بأحرف يونانية ورومانية وعبرانية : هذا هو ملك اليهود » (١) ·

ويظهر ان حادثة الصلب قـد اعتبرت وقتها من المسـائل المحلية الداخلية ، فلم يهتم بها أحد من حكام الرومان خارج أورشليم ، ولذلك صدر أمر بيلاطس فيها بدون استئذان روما ، وترك الرأى فيها لليهود · وقد كان الصلب من طرق العقاب الرومانية ، كمـا كان الجـلد يسبقه عادة (٢) ·

ونقرأ فى أعمـال الرسـل أسـماء أمم وأقاليم متعـددة تضمها الامبراطورية الرومانية « فنهض قـوم من المجمع الذى يقـال له مجمع الليبرتنيين والقيروانيين والاسكندريين ، ومن الذين من كيليكيا وآسـيا يحاورون استفانوس » (٦ : ٩) وفى رسالة بطرس الرسول الاولى «بطرس رسول يسوع المسيح الى المتغربين من شتات بنتس وغلاطية وكبدوكية وآسيا وبيثنية المختارين» (١ : ١) · وتتحدث رؤيا يوحنا اللاهوتى عن الكنائس السبع « التى فى آسيا الى افسس والى سميرنا والى برغامس والى ثياتيرا والى ساردس والى فيلادلفيا والى لاودكيا » (١ : ١١) · ونرى فى العهد الجديد رسـائل الى رومية وكورنثوس وغلاطية وافسس وفيليبى وكولوس وتسالونيكى ·

---

(١) مت ٢٧ ، لو ٢٣ ، مر ١٥ ، يو ١٩

(٢) ديورانت : قصة الحضارة ترجمة بدران جـ ٣ م ٣ (قيصر والمسيح) ص ٢٣٧

وقد كان متى عشارا (جابيا) للدولة الرومانيه . وكان بولس الذى صار من بعد رسول المسيح ـ يمارس سلطته في اضطهاد المسيحيين قبل تحوله للمسيحية ، وهو يروى قصته بنفسه في موقف خطابى مثير ، اذ تألب عليه اليهود الذين من آسيا فى الهيكل « فأهاجوا كل الجمع وألقوا عليه الأيادى ، صارخين : يا أيها الرجال الاسرائيليون أعينوا ، هذا هو الرجل الذى يعلم الجميع في كل مكان ضد الشـــعب والناموس وهذا الموضع ، حتى أدخل يونانيين أيضا الى الهيكل ودنس الموضع المقدس .. حينئذ اقترب الأمير وأمسكه وأمر أن يقيد .. فقال بولس : أنا رجل يهودى طرسوسى من أهل مدينة غير دنية من كيليكية ، وألتمس منك أن تأذن لى أن أكلم الشعب ، فلما أذن وقف بولس على الدرج وأشار بيده الى الشعب ، فصار سكوت عظيم ، فنادى باللغة العبرانية قائلا : أيها الرجال الاخوة والآباء اسمعوا احتجاجى الآن لديكم ـ فلما سمعوا أنه ينادى باللغة العبرانية أعطوا سكوتا أحرى ، فقال : أنا رجل يهودى ولدت فى طرســـوس كيليكية ، ولكن ربيت فى هذه المدينة مؤدبا عند رجلى غمالائيل على تحقيق الناموس الأبوى ، وكنت غيورا لله كما أنتم جميعكم اليوم ، واضطهدت هذا الطريق حتى الموت مقيدا ومسلما الى السجون رجالا ونساء ـ كما يشهد لى أيضا رئيس الكهنة وجميع المشيخة الذين أخذت أيضا منهم رسائل للاخوة الى دمشق ، ذهبت لآتى بالذين هناك الى أورشليم مقيدين لكى يعاقبوا . فحدث لى وأنا ذاهب ومتقرب الى دمشق ، انه نحو نصف النهار بغتة أبرق حولى من السماء نور عظيم ، فسقطت على الأرض وسمعت صوتا قائلا لى : أنا يسوع الناصرى الذى أنت تضطهده ـ والذين كانوا معى نظروا النور وارتعبوا ، ولكنهم لم يسمعوا صوت الذى كلمنى . فقلت : ماذا أفعل يارب ؟ فقال لى الرب : قم واذهب الى دمشق ، وهناك يقال لك عن جميع ماترتب لك أن تفعل . واذ كنت لا أبصر ـ من أجل بهـاء ذلك النـــور ، اقتادنى بيدى الذين كانوا معى فجئت الى دمشق .. (١) »

وقد انتفع بولس من رعويته الرومانية الى آخر مدى خلال جولاته التبشيرية . حدث هـذا عنـدما نزل مع رفيق له يدعى تيموثاوس الى كولونية من مقاطعة مقدونية للدعوة والتبشير « واذا أتوا بهما الى الولاة قالوا : هذان الرجلان يبلبلان مدينتنا ، وهما يهوديان ويناديان بعوائد

---

(١) أعمال ٢١ ، ٢٢ وقد كررت القصة في مواضع مختلفة من أعمـــال الرســـل مثـل صح ٩ ، ٢٦ .

لا يجوز لنا أن نقبلها ولا نعمل بها اذ نحن رومانيون • فقام الجمع معا عليهما ، ومزق الولاة ثيابهما وأمروا أن يضربا بالعصى •• ولما صار النهار أرسل الولاة الجلادين قائلين : أطلق ذينك الرجلين فقال لهم بولس : **ضربونا جهرا غير مقضي علينـا ، ونحن رجـلان رومانيـان ، وألقونا في السجن** ـ أفالآن يطردوننا سرا !! كلا بل ليأتوا هم أنفسهم ويخرجونا • فأخبر الجلادون الولاة بهذا الكلام ، فاختشوا لما سمعوا أنهما رومانيان ، فجاءوا **وتضرعوا** اليهما وأخرجوهما وسألوهما أن يخرجا من المدينة(١) »

وفي أورشليم ثار اليهود على بولس وعلى رفيقه اليوناني ـ وهناك خطب خطبته عن اعتناقه للمسيحية بعد أن كان ســوط عذاب عليها ـ وقبض عليه « فلما مدوه للسياط قال بولس لقائد المائه الواقف : أيجوز لكم أن **تجلدوا انسانا رومانيا غير مقضي عليه ؟** فاذ سمع قائد المائة ذهب الى الامير وأخبره قائلا : أنظر ماذا أنت مزمع أن تفعل ، لان هذا الرجل روماني • فجاء الامير وقال : قل لي ، انت روماني ؟ فقال : نعم • فأجاب الامير : أما أنا فبمبلغ كبير اقتنيت هذه الرعوية • فقال بولس : أما أنا فقد ولدت فيها • وللوقت تنحى عنه الذين كانوا مزمعين أن يفحصوه ، **واختشى الامير لما علم انه روماني ولانه قيده(٢)** » !

كذلك تعرض بولس في قيصرية للمحاكمة أمام فستوس ، وأراد اليهود أن يستدرجوه الى أورشليم ليقتلوه في الطريق ، وطلبوا من الوالي أن يحقق لهم ذلك « ولكن فستوس اذ كان يريد أن يودع اليهود منة أجاب بولس قائلا : أتشاء أن تصعد الى أورشليم لتحاكم هناك لدى من جهة هذه الامور • فقال بولس : **أنا واقف لدى كرسي ولاية قيصر حيث ينبغي أن احاكم** ، أنا لم أظلم اليهود بشيء كما تعلم أنت جيدا ، لاني ان كنت آثما أو صنعت شيئا يستحق الموت فلست أستعفي من الموت ، ولكن ان لم يكن شيء مما يشــتكي علي به هؤلاء فليس أحد يســتطيع أن يسلمني لهم • **الى قيصر أنا رافع دعواي** • حينئذ تكلم فستوس مع أرباب المشــــورة فأجاب : الى قيصر **رفعت دعواك** ، الى قيصر تذهب • وبعدما مضت أيام أقبل أغريباس الملك وبرنيكي الى قيصريه ليسلما على فستوس ، ولما كانا يصرفان هناك أياما كثيرة عرض فستوس على الملك أمر بولس قائلا : فلما وقف المشتكون حوله لم يأتوا بعلة واحدة ، لكن كان لهم عليه مسائل من

(١) أعمال ١٦ •

(٢) أعمال ٢٢ : ٢٥ ـ ٢٩ •

جهة ديانتهم ، وعن واحد اسمه يسوع قد مات وكان بولس يقول انه حي، واذ كنت مرتابا فى المسألة عن هذا قلت لعله يشاء أن يذهب الى أورشليم ويحاكم هناك من جهة هذه الامور ، ولكن لما رفع بولس دعواه لكى يحفظ لفحص أغسطس أمرت بحفظه الى أن أرسله لقيصر • فقال أغريباس لفستوس : كنت أريد أنا أيضا أن أسمع الرجل ، قال : غدا تسمعه •• فقال أغريباس لبولس : مأذون لك أن تتكلم لأجل نفسك ، حينئذ بسط بولس يده وجعل يحتج •• وقال أغريباس لفستوس : كان يمكن أن يطلق هذا الانسان لو لم يكن رفع دعواه الى قيصر •• فلما استقر الرأى أن نسافر فى البحر الى ايطاليا ، سلموا بولس وأسرى آخرين الى قائد مائة من كتيبة أغسطس •• ولما أتينا الى رومية سلم قائد المائة الاسرى الى رئيس المعسكر ، وأما بولس فأذن له أن يقيم وحده مع العسكرى الذى كان يحرسه • وبعد ثلاثة أيام استدعى بولس الذين كانوا وجوه اليهود ، فلما اجتمعوا قال لهم : أيها الرجال الاخوة — مع أنى لم أفعل شيئا ضد الشعب أو عوائد الأباء ، أسلمت مقيدا من أورشليم الى أيدى الرومانيين الذين لما فحصوا كانوا يريدون أن يطلقونى لأنه لم تكن فى علة واحدة للموت ، ولكن لما قاوم اليهود اضطررت أن أرفع دعواى الى قيصر ، ليس كأن لى شيئا لأشتكى به على أمتى ، فلهذا السبب طلبتكم لأراكم وأكلمكم لأنى من أجل رجاء اسرائيل موثق بهذه السلسلة • فقالوا له : نحن لم نقبل كتابات فيك من اليهودية ، ولا أحد من الاخوة جاء فأخبرنا أو تكلم عنك بشيء ردىء ، ولكننا نستحسن أن نسمع منك ماذا ترى ، لأنه معلوم عندنا من جهة هذا المذهب أنه يقاوم فى كل مكان • فعينوا له يوما فجاء اليه كثيرون الى المنزل ؛ فطفق يشرح لهم ••• ولما قال هذا مضى اليهود ولهم مباحثة كثيرة فيما بينهم • وأقام بولس سنتين كاملتين فى بيت استأجره لنفسه ؛ وكان يقبل جميع الذين يدخلون اليه كارزا بملكوت الله ••• (١) » •

ونحن لا يسعنا الا أن نحيى هذا العدل الرومانى فى اجراءات الاتهام والتحقيق ؛ على الأقل فى المراحل الأولى للمسيحية ؛ وان كانت درجة المواطن الرومانى التى تكفل لصاحبها هذه الحقوق والضمانات لم تكن تشمل كل سكان الامبراطورية طبعا ؛ وانما كانت تمنح بشروط خاصة• وان نصوص العهد الجديد ذاته لتعزز ماقرره أستاذ علم البردى هـ • آيدرس بل H.A.Bell حيث يقول « وانه لمن الخطأ أن نعتقد أن الاضطهاد

---

(١) أعمال : ٢٥ : ٢٨

كان حملة متصلة ، أو أن الحكومة الرومانية اضطهدت المسيحيين بسبب عقائدهم الدينية بالذات • فقد كانت روما متسامحة كل التسامح فى المسائل الدينية ، ولم تحاول أن تستأصل شأفة أى عبادة جديدة الا بحجة منافاتها للمبادىء الآخلاقية أو تعارضها مع السياسة العامة • كان المسيحيون فى نظر السلطات مواطنين أشرارا وعنصرا خطرا فى المجتمع ، لأنهم كانوا يترفعون عن ممارسة شعائر الديانة الرسمية ولا يقدسون صور الأباطرة ولا يشتركون فى عبادة (روما المؤلهة) أو (الروح الحارس) للامبراطور ، وكان فى تضامنهم وخلوتهم وقت التعبد مايوحى بأنهم جماعة سرية ، وقد اتهموا بممارسة أبشع العـــادات كالزواج المحرم والشعائر المخلة بالآداب واهراق الدماء البشرية ـ طبقا للطقوس ـ هذه هى التهم التى كالها الوثنيون للمسيحيين ، وهى نفس التهم التى كالها المسيحيون لليهـود فى القـرون التالية • غير أنه كان هناك دائما بين الوثنيين من كانوا مستعدين للتستر على أصدقائهم المسيحيين ، كما كان حكام الولايات يحجمون أشد الاحجام فى معظم الأحيان عن تطبيق قانون العقوبات عليهم • ولم يكن الاضطهاد عاما الا عند حدوث كارثة قومية أو هياج شعبى ، وكما يقول ترتوليان Tertullianus فى احدى فقراته المشهورة : « فاذا فاض التيبر على الأسوار ، أو غاض النيل فلم يبلغ الحقول ، أو أمسكت السماء عن المطر ، واذا زلزلت الارض أو حدثت مجاعة أو انتشر وباء •• تتعـــالى الصيحات على الفور هـــاتفة : فليلق بالمسيحيين الى الأسد » !! وفى تلك الاوقات كان هناك بين الناس من يعوزهم الجلد على احتمال البلاء ، ولو أن كثيرين منهم صمدوا للمحنة • ومن المستحيل أن نقـــرأ القصص الأولى ـ الحقيقية فيما يبـدو ـ عن الاستشهاد مثـــل آلام القديســـة بربتوا Perpetua أو أعمال شهداء سكيلى Scilli دون أن تهتز مشاعرنا اهتزازا للبطولة الرائعة التى أبداها كل من الرجال والنساء فى غير مباهاة ، وخاصة عندما نتذكر أن مضمون هذه القصص يتلخص فى العبارة البسيطة : أنا مسيحى ، أنا مسيحية Christianus sum, Christiana sum

ولدينا من منتصف القرن الثالث طائفة من البرديات التى توضح بجلاء اضطهاد المسيحيين على أيام الامبراطور ديكيوس Dicius ، وهى عبارة عن شهادات بتقديم القرابين للآلهة الوثنية libeli ••• وكان الذين لا يقدمون هذه الشهادات يعتبرون مسيحيين !! على أن بعض ضعاف

النفوس سمحت لهم ضمائرهم أن يقدموا للسلطات شهادات مزورة !! » (١)

ولا يفوتنا أن نذكر في هذا المقام كيف أن السلطات الرومانية ـ ممثلة فى بيلاطس البنطى الحاكم المحلى ـ كانت زاهدة فى توقيع أية عقوبة على المسيح نفسه بشهادة الأناجيل !! وأن اليهود ورؤساءهم كانوا هم أسباب ماكان ... حتى أن بيلاطس أراد أن يطلقه لهم فى العيد ، فأبوا له الا القتل على الصليب !!

ويبدو بجلاء أن الامبراطورية الرومانية كانت تعتبر المسيحية فى أولها مسألة دينية محلية بين اليهود وغيرهم ، ويظهر هذا تماما فى قول فستوس « لكن كان لهم عليه مسائل من جهة ديانتهم ، وعن واحد اسمه يسوع قد مات وكان بولس يقول انه حى !! » .

ولم يكن يدرى فستوس ـ كما لم يكن يدرى بيلاطس من قبل ـ أنهما بصدد حدث تاريخى ضخم ، سيكون أبقى على الزمن من روما المجيدة !!

***

فتح الرومان سوريا وفلسطين على يد قائدهم الكبير (بومبى) Pompeii الذى قضى على ثورة العبيد بقيادة سبارتاكوس المشهور Spartacus « ومن دلائل القوة أن تستطيع الدولة قمع فتنة كتلك الفتنة الجبارة التى لم يعرف لها مثيل فى ثورات العبيد الأقدمين ، ولكنها ولاريب دلائل القوة التى تقابلها دلائل الضعف من جانب آخر ، فلو لم يكن فى بنية الدولة صدع مخيف لما استطاع عبد أن يجمع سبعين ألف عبد ويقهر بهم جيوش رومة زهاء ثلاث سنوات ، ولولا خلل فى كيان المجتمع لما اشتمل على أضعاف هذا العدد من الأرقاء المسخرين الذين ينظرون الى مجد رومة نظرة الحقد ، ويجازفون بالحياة ليهبطوا به الى الحضيض !! » (٢)

وعندما توفى قيصر ، وتحارب أنطونيوس وأوكتافيوس ، وبدا كأن الامبراطورية الرومانية على وشك الانقسام ، انتصر أوكتافيوس فارتبطت عرى الامبراطورية خلال هذه القرون التى امتلأت بالأحداث الخطيرة « ويبدو

---

(١) بل : مصر من الاسكندر الأكبر حتى الفتح العربى ـ ترجمة الدكتورين عواد حسين وعبد اللطيف أحمد على ـ ص ١٧٠ : ١٧٣ .

(٢) العقاد : عبقرية المسيح ص ٣٩ .

كان العناية الالهية هى التى أوصت باقامة هذه الامبراطورية العالمية ، لكى تعين على قيام دين عالمى » ـ كما يقول المؤرخ فيشر H.Fisher

وقد كان أسبق الى تقـــرير هذا (أوريجنوس) الذى عاش فى الاسكندرية سنة ١٨٥ م اذ يقول :

« كان أمر المسيح لتلاميذه بأن يذهبوا ويتلمذوا جميع الأمم ٠ ومن المؤكد أن المسيح ولد فى زمن أغسطس الذى عاش من ٣١ ق ٠ م الى ١٤ م واستطاع هذا الامبراطور أثناء حكمه أن يدمج أقواما متنوعة من شعوب العالم ضمن امبراطورية واحدة لأنه لو كان هناك ممالك متعددة لحاربوا بعضهم بعضا لأجل موطنهم ، وهذا مما يعمل على تأخير انتشار العقيدة المسيحية فى العالم تأخيرا كبيرا » ٠ وهكذا فانا نجد بلدان البحر المتوسط منذ زمن (بولس) حتى مولد (اوريجنوس) تعيش فى ظل السلام الرومانى والطرق الرومانية المعبدة (١) ٠

لقد « هيأ الرومان عالما متواصلا قبل الميلاد ٠٠٠ ويكفى أن نلقى نظرة الى سفرات بولس الطليقة فى أنحاء الامبراطورية لنرى فضل السلام الرومانى والطرق الرومانية والوحدة الرومانية على انتشاء الدين الجديد وذيوعه ٠٠٠ وعند اقتراب مجىء المسيح كانت اللغة اليونانية قد أصبحت اللغة الرئيسية فى الامبراطورية ، فتعلمتها الشـــعوب المحيطة بالبحر المتوسط بجانب لغاتها الأصلية وصارت اللغة الرسمية فى كل العالم المتمدن فتهيأت الأداة لنقل التعليم الجديد وترويجه ٠ وفى سفرات بولس نسمعه يتحدث الى الأقوام كلهـا بلغة مفهــومة : ســواء بالنســبة للرومان أو الكورنثيين أو القبائل الوثنية فى هضاب غلاطية ٠٠٠ لقد مهد الرومانى الطريق وهيأ اليونانى اللغة ولكن ترى ماذا فعل اليهودى ؟ انه بعزلته مدى الاجيال الطويلة من تلال فلسطين قد احتفظ للعالم بأقوال الله وتعاليم الديانة الروحيـــة ونبوات العصر الذهبى الذى ســيجىء فيه (الموعود) ! وشتت السبى اليهود فى كل أصقاع العالم واستقر بعضهم فى أوطانهم الجديدة والبعض الآخر جاب البلدان الاخرى سعيا وراء التجارة والكسب ولم يعد بعد السبى الى فلسطين وهكذا انتشر اليهود بين كل الشعوب وأصابوا قوة وثراء ونفاذا ونفوذا فى التجارة ٠ وتستطيع أن تكون فكرة عن ذلك حين تراهم بعد خمسين سنة من الميلاد يفدون أفواجا الى أورشليم لحضور عيد يوم الخمسين (فرتيون وماديون وعيلاميون

---

(١) جون فوستر : من أورشليم ـ ترجمة ابراهيم مطر ص ٤ ـ ٥ ٠

والساكنون مابين النهرين واليهودية وكبدوكية وبنتس وآسيا وفريجية وبمفيلية ومصر ونواحي ليبية التي نحو القيروان والرومانيون المستوطنون يهود ودخلاء كريتيون وعرب) • وحمل اليهود معهم الى كل مكان دينهم وكتبهم المقدسة ، لأن موسى منذ أجيال قديمة له في كل مدينة من يكرز به اذ يقرأ في المجامع كل سبت ، وفي كل مكان اعتصموا برجائهم القومي في (المسيا) الموعود المنتظر مجيئه وفي التلمود (تنبأ الأنبياء فقط عن المسيا ولأجله فقط خلق العالم) وهم ان كانوا لم يترقبوا نورا يضيء على الأمم بل توقعوا مجدا لشعب اسرائيل وحسب الا أنهم بغرسهم هذه العقائد في الأوســـاط الوثنية كان لهم فضل لا ينكر في اعداد الطريق للملك السماوي • ومع أن اليهود كانوا شعبا مكروها الا أن أحرار الوثنيين المفكرين أحسوا بجاذبية دينهم فانضموا اليه ، وكان هناك عدد من المنتمين اليه قيل عنهم في سفر الأعمال أنهم (رجال أتقياء) مثل قائد المائة الذى أشار اليه (العهد الجديد) • وأعان على ذلك أن الكتاب المقدس العبرى كان قد ترجم قبل المسيح بمئتى سنة الى اليونانية • ومهما كان من أمر اليهود مع المسيح فقد كان (المجمع) هو التربة التى نمت فيها بذرة الكنيسة ، وقد نشأ المسيح بين (عشاء السبت) و (المجمع الاسبوعى) و (الحفلات السنوية) وعيد الأسابيع ويوم الكفارة وعيد الفصح ومارس الحج الى أورشليم وهكذا كان الدين ينسج الحياة اليومية فى مجتمع المسيح (١) •

وكان أوكتافيوس (أغسطس ٢٧ ق • م . ١٤ م) قد عمد الى مكافحة الشرور التى خلفتها حروب قرنين ، وكان شعار امبراطورية أغسطس هو السلم والرحمة والأمن والعدالة ••• وخلع على الادارة طابع الجد والعمل ، بتنظيمها على نمط بيروقروطي واجراء احصائيات منظمة وادخال نظام دقيق للمحاسبة أغلب الظن أنه نقل من مصر • وقد أملت الحكمة على أغسطس أن يحتفظ بمظاهر الحرية التى كانت عزيزة على شعب فخور محافظ كالشعب الرومانى • ومع ذلك فقد خلعت على شخصه حماية قدسية ، ووضعت فى قبضته الجيوش والولايات ••• ولقد كانت التغيرات التى استحدثها أغسطس فى نظم الحكم واسعة المدى ، ولكنها جاءت دون طفرة ، « وفى يد أغسطس أصبحت السلطة مصدر خير دائم للجميع ، واتسمت بطابع رحيم بل أبوى ، وانتهت أعمال الاغتصاب الكريهة التى كان يرتكبها الرأسماليون الأوليجاركيون ، وشن أغسطس حربا شعواء

---

(١) دكتور بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٩ : ١١ ، ٣٦ .

على عدم التدين واهمال التناسل ، وحاول أن يعيد ذلك الخلق الرومانى المتين » ــ كما يقول فيشر • ولم يكن لدى الشعب الرومانى يوم خرج من محنة الحرب الأهلية ــ أى ميل لمناهضة حاكم نافذ البصيرة يسهل الاتصال به ، أو نظام حكيم يتيح لكل طبقة فرصة أداء عمل شريف فى خدمة الحكومة ، « ولم يكن فى وسع أغسطس المتواضع الذى اعتبره الشعب ــ بحق ــ منقذ الوطن أن يتفادى منحه مظاهر التأليه التى خلعت من قبل على خال والدته الفذ • وعلى كل حال فان عبادة الامبراطور ــ التى أدمجت فى رفق وهوادة فى عبادة الأسر والمذاهب المحلية فى روما وكان أهل الولايات يبالغون فى اقامة شعائرها ــ سرعان ما أصبحت تعتبر أحد العوامل التى تساعد على الوحدة بين أجزاء تلك الامبراطورية التى خلقتها العناية الالهية » • وشاء القدر أن يولد فرجيل Virgel شاعر ايطاليــــا الملهم (٧٠ ق • م) ، وليفيوس Livius مؤرخ الجمهورية الرومانية القصصى (٥٩ ق • م) فيبلغا بالعظمة الرومانية شأوا بعيدا ، وكانت الامبراطورية فى الشكل الذى أعطاه اياها أغسطس تشمل أسبانيا وبلاد الغال وايطاليا والبلقان والشــاطىء الشــــمالى لافريقية وفلسطين وسوريا وآسيا الصغرى ، « وهكذا غدا البحر المتوسط بحيرة رومانية ، وأصبح كل شعب من الشعوب التى ساهمت بنصيب فى قيام الحضارة الغربية خاضعا لروما » •

غير أن الريح لم تكن تجرى طيبة رخية هكذا دواما ، ففى الشمال والشمال الغربى جثم أكبر مصدرين لضغط البرابرة ، حقا امتد الدانوب والرين يذودان عن حياض الامبراطورية الرومانية ، لكن انتشرت وراء هذه الحدود النهرية الطويلة جحافل القبائل الجرمانية ، تنخس الدولة Tiberius (١٤ : ٣٧ م) ابن زوج أغسطس وخليفته جنديا بارعا واداريا ممتازا اقتفى آثار سلفه ، فان خلفاءه الثلاثة من بعده كانوا : بين مجنون هو كاليجولا Caligula (٣٧ : ٤١ م) ودعــى هو كلاوديوس Claudius (٤١ : ٥٤ م) ، ووحش ذائع الصيت هو نيرون Nerun (٥٤ : ٦٨ م) ثم أعقب هؤلاء الثلاثة أربعة أباطرة متنافسين ، وحل عام من الفوضى ••• لكن الدفاع الرومانى لم يتحطم الا فى النصف الأخير من القرن الثانى (١) •

، وللأستاذ العقاد رأى آخر فى عصر أغسطس : « فقد كان عصرا

---

(١) فيشر H. Fisher : تاريخ أوربا فى العصور القديمة ــ ترجمة الدكتورين ابراهيم نصحى ومواد حسين ــ ص ١٢١ : ١٢٧ .

مجيدا بقوة السيف دون قوة أخرى من القوى الانسانية ... وانتهت بروما الحاجة الى تلك القوة ، فباعتها حريتها وكرامتها ، وضيعت الجمهورية فى سبيل القيصرية المطلقة ، بل - فعت القيصر الى مقام الربوبية المعبودة ... وكان القانون والنظام فخر .رمة بين الدول ، فضاع القانون مع السلطان المطلق ، وضاع النظام مع التفاوت البعيد بين الحاكمين والمحكومين : ثروة وترف وطغيان من ناحية ، وفقر وضنك وهوان من ناحية .. ولم يستقر الأمر للدولة الرومانية فى فلسطين دفعة واحدة على أثر افتتاحها ، لأن التنازع بين الرومان والفرس لم يترك للبلاد قرارا فى مدى عشرين سنة » (١) .

أما الدكتور أسد رستم فيقول : « كانت الدولة الرومانية قد بسطت سلطتها على جميع أنحاء حوض البحر المتوسط ، وربطت أجزاء امبراطوريتها بشبكة واسعة من الطرقات ، وفرضت شرائعها ولغتها فبلغ بذلك عالم البحر المتوسطدرجة من التوحيد لم يبلغها من قبل ، وبهذا **التوحيد سهلت روما انتشار الدين الجديد** ، ولكن كبار الرومانيين لمسوا فى تعاليم هذا الدين نفسه خطرا يهدد سلامة الدولة . وتفصيل هذا أن اليونانيين والرومانيين لم يفرقوا بين الوطنية والدين ، فالمواطن عندهم كان مواطنا بقدر اشتراكه فى التعبد لاله المدينة ، وباتساع أفق المدينة السياسى اتسع كذلك أفق دينها ، فلما تم لروما بسط سلطانها فى حوض البحر المتوسط اعتبر رجالها الهتهم روما ألهة الامبراطورية بأسرها . وبهر أغسطس رعايا روما فى الشرق بقوته وتدبيره وعظمته ، فرأوا فى شخصه مخلصا اليها يمنع الحروب ويوطد السلم - وهو ماتنص عليه جملة نقوش فى نواح متعددة من آسيا الصغرى ترقى الى القرن الأول ق . م . وذهب اليونان فى آسيا الصغرى فى سنة ٢٩ ق . م . الى أبعد من هذا فأنشأوا هيكلا خاصا لعبادة روما وأغسطس ، ورأى أغسطس فى هذا خيرا له ولروما فشجع عليه رعاياه ونقله الى الغرب ... واتخذ لنفسه لقب الحبر الأعظم Pontifex Maximus وما كادت تنتظم أمور هذا الدين الامبراطورى الجامع حتى أخذ رسل المسيح وتلاميذه يبشرون ... **ولو حصر الرسل والتلاميذ عملهم فى الأوساط اليهودية لما تنبه الرومان وتيقظوا ، ولكنهم بشروا الخليقة كلها ، وحملوا رسالة السيد الى أمهات المدن - بل الى روما نفسها ، فكان لابد من الاضطهاد .**

ويجدر بالقارىء أن يذكر فيما يتعلق بالاضطهاد أربع حقائق :

---

(١) العقاد : عبقرية المسيح ص ٣٩ - ٤٥

أولا : ان المؤرخين يشيرون عامة الى عشرة اضطهادات بين عامى ٦٤ م ، ٣١٣ م ـ عام البراءة •

وثانيا : أن الاضطهاد أجرى بموجب تشريع خاص صدر عن نيرون سنة ٦٤ م وقضى بألا يكون أحد مسيحيا •

وثالثا : أن الاضطهاد لم يكن دائما عاما شاملا •

ورابعا : أنه لا يمكن تحديد عدد الضحايا ، ويجوز القول أنهم كانوا كثيرين » (١) •

وكان عالم البحر المتوسط يزداد اهتماما بعقيدة الحياة الآخرة ••• فوثنية الرومان لا تتبنى أهدافا خلقية ولا تنتظم اشرافا كهنوتيا ، ولا تتناقض مع الأعياد والمباهج بل هى جزء منها ، « ثم ان هذا المذهب البهيج المتسامح قد عجز منذ أمد طويل عن كسب ولاء أصحاب العقول المستنيرة ، وذلك لأنه كان لا يستجيب الى الاحتياجات النفسية العميقة ولا الى المطالب العقلية ••• والواقع أنه قبل أن تصبح المسيحية دينا أوربيا كانت الفئة المستنيرة فى الامبراطورية الرومانية تألف عقيدة التوحيد والحياة الموهوبة • وأصبح للفيلسوف فى القرن الثانى للميلاد مكان ملحوظ بين الناس باعتباره ناصحا روحيا وشافيا للآلام النفسية ، وهكذا كان يضطلع بقسط كبير من المهام التى كان يقوم بها ـ فيما بعد ـ الآباء فى الكنيسة المسيحية » •••• اذن جاءت الرسالة المسيحية فى وقتها ، فازدهرت رغم الاضطهاد ، وما وافى عصر الامبراطور أورليان Aarelian (٢٧٠ : ٢٧٥ م) حتى كانت قد انتشرت فى الشرق وتغلغت فى روما نفسها حتى نافست ديانة الدولة الرسمية (الشمس) ، « ولعله يحق لنا أن نعزو ـ ولو جزئيا ـ الى ذلك الاهتمام البالغ بالدين ، تلك الظاهرة الغريبة التى بدت فى حياة الامبراطور وسياستها خلال القرنين الرابع والخامس ••• لم يبق من شعلة الوطنية الرومانية القديمة الا ضياء خافت ، وأخذ عامل جديد يفوز بولاء أعداد متزايدة من الرجال والنساء الممتازين بنشاطهم وأهميتهم فى الغال وايطاليا والعالم الاغريقى • كانت الدولة توفر للناس أودهم المادى ، لكنها لم تعد تغذى أرواحهم • وعندما تكدست الصعاب الخارجية ازدادت تكاليف الحكومة واضطربت أداتها واشتد ارهاقها للمحكومين ، وقد ازداد ضغط الدولة على الأفراد بقدر ما نقص ولاؤهم السياسى ، وشاعت بين جميع الطبقات روح التملص

---

(١) الدكتور أسد رستم : الروم جـ ١ ص ٣٢ ـ ٣٣

والتبرم بأداء ضرائب الدم والمال والحاجات التى تطلبها الدولة • فقد انتشرت هذه الروح بين المزارعين والتجار وأعضاء المجالس ، فقابلتها الحكومة بأساليب عنيفة حولت هؤلاء جميعا الى فئة وراثية من الأرقاء فى دولة من العبيد » (١) •

***

هذه صـــورة امبراطورية الرومان فى عمومها ، فما تكون صـــورة حكمها فى فلسطين ؟ ؟ ؟

« لقد شملت الامبراطورية الرومانية على عهـــد أغسطس سبعين مليونا من السكان على الأقل ••• حوالى ثلاثة أرباعهم كانوا فى الأقاليم التى ارتفع عددها فى ختام حكم أغسطس الى ٢٤ أو ٢٥ اقليما ••• وفى اليهودية Judaea منح أغسطس ثقته التامة للملك هيرودوس الذى جمع بين كفاءة الادارة والنشاط الفائق فى تنمية التقدم المادى لمملكته والاخلاص لروما الذى لا يقبل الجدل ، وان لم يكن لديه مثل هذا التوفيق فى ارضاء رعاياه • وأذن أغسطس لأبناء هيرودوس الثلاثة أن يقتسموا مملكة أبيهم بعد وفاته سنة ٤ ق•م ، لكنه عاد فى سنة ٦ م فعزل الأكبر أرخيلاوس Archelaus وجعل حصته اليهودية وسماريا Judaea, Samaria فى ولاية خاصة ، فى حين ظلت الجليل فى يد الابن الثانى هيرودس أنتيبا Herodus Antipas ••• وقد كانت المشكلة الادارية العاجلة بالنسبة لأغسطس فى الأقاليم ، أن يتدارك التدهور المزعج فى ثروتها الذى كان يتفاقم بخطى متسارعة منذ وفاة قيصر ••• ومن أجـل مواجهة الأعباء المتزايدة للادارة كان الامبراطور مضطرا لفرض ضرائب جديدة» (٢) •

هذه صورة موجزة ينقلهـــا الينا الأستاذ كارى عن نظام الحـكم الاقليمى فى أرجاء الامبراطورية ، كما يجمل لنا بها أمر هيرودوس وأبنائه ، ولهم فى الأناجيل شأن مع الدعوة المسيحية •••

وكانت فلسطين تتكون من ٣ أقسام ادارية : (الجليل) و (اليهودية) و (السامرة) فى الوسط •

وكانت البلدة التى تتجه اليها أنظار اليهـــودية من يهود أصليين

---

(١) فيشر H.Fisher : تاريخ أوربا فى العصور القديمة ـ ترجمة الدكتورين ابراهيم نصحى وعواد حسين ـ ص ١٣٤ : ١٣٧

(٢) Cary : Hist. of Rome, p. 507,509,512

ويهود دخلاء أو يهود الشتات هى (**أورشليم**) عاصمة اليهودية وتقع شمالى البحر الميت بحوالى ٢٥ ميلا وتقوم على هضبة مرتفعة تحيط بها الأودية من ٣ جوانب ٠ ويقسم المدينة أخدود الى جانبين : غربى يشرف عليه جبل صهيون وشرقى أكثر ارتفاعا كان فيه الجبل الذى أقيم عليه الهيكل (جبل المريا) ٠ وكانت أورشليم فى زمن المسيح محاطة بسورين الأول يحيط بصهيون والهيكل أقامه داود والثانى يحيط بالقسم الأدنى من المدينة بناه الملك حزقيا وثمة سور يحيط بالبيزيثا أو المدينة الجديدة وقد بناه اغريباس الأول بعد صعود المسيح بعشرة أعوام ٠ وفى شمالى غربى المدينة كانت هناك قلعة تضم قصر هيرودس الكبير الى الشرق من أورشليم وهناك جبل الزيتون وفى سفحه (بستان جسثيمانى) وبالقرب من الطريق الموصلة من أورشليم الى أريحا قرية بيت عنيا على ميل الى الجنوب أما أريحا فتبعد ١٥ ميلا الى الشمال الشرقى ٠ وكانت قلعة انطونيا تجاور الهيكل ، أسماها هيرودس كذلك نسبة لأنطونيوس ويرجح أن محاكمة المسيح أمام بيلاطس تمت فى هذه القلعة ٠ أما محاكمة المسيح أمام مجلس السنهدريم فيرجع أنها تمت فى احدى القاعات الجانبية الملحقة بالهيكل ٠

وكانت (**الجليل**) تمثل اليهودية المختلطة (بالأممية) ٠

وكانت (**السامرة**) غنية بمروجها ورياضها وأهلها أكثر مرونة فى التعامل مع غيرهم وقد تداخلت فى دينهم عقائد وطقوس غريبة دعت سائر اليهود الى التحفظ معهم ٠ وكان السامريون لا يؤمنون الا (بكتب موسى الخمسة) وقد أقاموا لأنفسهم هيكلا على (جبل جرزيم) قرب شتانيم استمر قائما أكثر من مائتى عام بعد صعود المسيح ثم أصابه الخراب .

ومن أولئك تألق نجم يهوذا المكابى أو (المطرقة) فأصبح القائد العام

ولكى يضمن هيرودس الكبير الاستقرار فى البادية الواقعة شرقى الأردن أتى بالكثيرين من اليهود وأسكنهم هناك ٠

وقبل مجىء المسيح بحوالى قـــرنين ثار الكاهن اليهودى متنائيا وأولاده الخمسة ضد أنتيوخس ابيفانس الرابع (سليل السليوقيين) للثورة عام ١٦٥ : ١٦١ ق٠م بينما تولى أخـوه سـمعان حـكم المقاطعة الصغيرة المستقلة ورئاسة كهنوتها وهكذا تأسست نواة مملكة لليهود ٠ وبعد سمعان تعاقب ابنه يوحنا هيركانوس (١٣٥ : ١٠٥ ق٠م) ثم حفيده أرسطو بولس الأول (١٠٥ ــ ٤ ق٠م) وأخوه الاسكندر جانايوس (١٠٤ : ٧٨ ق ٠ م) وفى عهده باغ اليهود أوجهم وقاربت مملكتهم ماكانت

عليه أيام داود . وبعد موت الاسكندر هذا تنازع الحكم ابناه هيركانوس الثاني وأرسطو بولس الثاني بينما كان القائد الروماني بومبي يحارب في سوريا . وقد كتب له الفوز عام ٣٤ ق . م فتقدم اليه كلا الجانبين المتنازعين يستنصرانه وانتهى الأمر بأن نصب الرومان هيركانوس الثاني حاكما ورئيسا للكهنة . ودارت عجلة السياسة الرومانية على بومبي وانتصر يوليوس قيصر فارتمى هيركانوس الثاني وصديقه الأدومي انتيباترس بين يدى حزبه فكافأهما برفع بعض الضرائب والسخرة العسكرية عن فلسطين . ووصل انتيباترس الى منصب حاكم اليهودية بأمر من قيصر وعين ولديه فازيل وهيرودس حاكمين على أورشليم والجليل على التوالي . أما فازيل فقد انتحر حين هاجم أنتيجونس بن أرسطو بولس الثاني أورشليم متحالفا مع (البارثيين) عام ٣٧ ق.م ، أما هيرودس فقد نال حظوة كبرى لدى أنطونيوس وأوكتافيوس . وقد منح لقب حاكم اليهودية وملكها بقرار السناتو الروماني عام ٤٠ ق.م وفي عام ٣٧ ق.م حاصر أورشليم واستولى عليها وقبض على أنتيجونس وأعدمه . واستمر حكم هيرودس الكبير ٤٠ عاما كان فيها صديقا للرومان وغير محبب لليهود وقد أخضع الأدوميين في جنوبي فلسطين وأرغمهم على اعتناق اليهودية وان كانت ثقافة هيرودس نفسه وثنية يونانية كما تدل على ذلك عمائره التي تضمنت ماخصص لعبادة الامبراطور الى تجديد بناء الهيكل ! (١)

وقد كانت الأعوام الأولى لحكم هيرودس غير مستقرة فقد وهب انطونيوس حين تولى الحكم مدينة اريحا والمدن الساحلية لكليوباترة ولكن مالبث أوكتافيوس أن أعاد الى هيرودس ما انتزع منه .

وكان هيرودس مغرما بالعمارة وقد أعاد بناء السامرة وأسماها سبسطة وأقام هياكل في عدة بلدان . وفي مقدمة أعماله المعمارية اعادة بناء الهيكل حتى بدا كما وصفة مؤرخ معاصر « كجبل من جليد متوج بالذهب » ، وقد خرب في حصار أورشليم عام ٧٠ م .

وكان هيرودس قاسيا دمويا حتى بالنسبة لأبنائه وزوجاته وفي أيامه حدثت (مذبحة الأطفال) في قرية بيت لحم وقد قسمت المملكة اثرموت هيرودس بين أبنائه : اليهودية والسامرة وأدومية لأرخيلاوس ، والجليل وبيريه لانتيباس ، ووادى الأردن لفيليبس وفي عهد هيروس انتيباس قتل المعمدان وصلب المسيح .. (٢)

---

(١) دكتور عزت زكي : فلسطين كما عرفها المسيح ص ١٣ : ٢٣ .

(٢) دكتور جون الدر : الأحجار تتكلم ـ ترجمة دكتور عزت زكي ص ١٥٣ ـ ٤

وكان التعداد (الاكتتاب) يجرى فى الامبراطورية كل ١٤ عاما ومن البرديات القديمة مايتحدث عن اكتتاب عام ١٤٦ ، ١٦٠ ، ١٧٤ م ٠ وتحدثت بردية عن اكتتاب ضريبى أيام تيبريوس عام ٢٠ م وأخرى عن اكتتاب فى عهد نيرون عام ٦٢ م وثالثة تتحدث عن اكتتاب فى السنة الحادية والأربعين من حكم أغسطس الذى بدأ عام ٢٧ ق٠م - أى أن الاكتتاب قد تم حوالى عام ١٤ م ٠ ويذكر أن أغسطس بكر منذ بداية حكمه الى اجراءات متعددة لتنظيم الدولة ٠ وقد اكتشفت لوحة فى خرائب أنطاكية جنوبى غلاطية يرجع تاريخها الى عامى ١٠ ، ٧ ق٠م وعليها أسماء من بينها كيرينيوس الذى كان قائدا وعين واليا ٠ وكان يطلب الى كل فرد أن يعود الى بلده عند الشروع فى الاكتتاب ٠ وتذكر بردية مضرية أنه « نقرا لقرب ميعاد الاكتتـــاب القادم فمن المفروض على كل واحد يسكن بعيدا عن بلده أن يستعد للرجوع اليها حتى يدرج اسمه فى التعداد ضمن أفراد عائلته وتثبت صـــحة امتلاكه للأرض » ٠ وكانت الآيات الأولى من انجيل لوقا بشأن الاكتتاب قد أثارت مجادلات حتى كتب أحد المتأخرين ساخرا « ان لوقا قد حرك كل أفراد الشعوب فى الامبراطورية العظيمة كما يحرك اللاعب قطع الشطرنج حتى يجعل المسيح يولد فى بيت لحم » !! (١)

وقد أعاد فيليبس الذى حكم المناطق شمالى بحر الجليل بناء مدينة بانياس قرب منابع الاردن وأسماها قيصرية وعرفت فيما بعد بقيصرية فيليبس تمييزا لها عن قيصرية الساحل كذلك أقام مدينة جوليا اكراما لابنة الامبراطور وقد استمر حكم فيليبس ٣٠ عاما٠ أما هيرودس انتيباس فقد أصبح واليا على الجليل وبيريه واستمر حكمه ٤٣ عاما وقد بنى طبرية عاصمة لولايته على الساحل الجنوبى لبحر الجليل وجاءت تسميتها نسبة لتيبريوس قيصر ٠ وطلق انتيبـــاس زوجته العربية ابنه الحارث ملك النبطيين ليتزوج هيروديا زوجة أخيه غير الشقيق ٠ وهكذا ألب على نفسه الحارث كما ألب عليه يوحنا المعمدان ! ولم يغن عنه قطع رأس المعمدان بل انتهى مصير انتيباس الى المنفى فى بلاد الغال وانتقل لقبه وحكمه الى أخيه **هيرودس أغريباس الأول** ٠ وحكم أرخيلاوس ثالث أبناء هيرودس اليهودية والسامرة وأدومية ولم يسمح ل ه الرومان له الا بلقب وال وكان حكمه قصيرا عمت خلاله الاضطرابات وشكاه اليهود لقيصر فعزل سنة ٦ م ونفى الى بلاد الغال ووضعت ولايته تحت الحكم الرومانى المباشر ، فنصب

(١) دكتور جون الدر : الأحجار تتكلم ترجمة دكتور عزت زكى ص ١٥٦ - ٧

الرومان واليا من طبقة الفرسان وخولوا له طلب المعونة من ولاية سوريا عند الحاجة • وكان مقر الوالى قيصرية ويذهب الى أورشليم عند الضرورة وخاصة في الأعياد وكان من أشهر ولاة الرومان **بيلاطس البنطى** (٢٦ : ٣٦ م) وقد عين بمساعدة سيجانوس كبير وزراء تيبريوس قيصر الذى كان يبغض اليهود • ودخل بيلاطس أورشليم يحف به الجند يحملون الشعائر الوثنية كما اتجه الى استخدام أموال الهيكل لمد قنوات مائية من (برك سليمان) الى أورشليم ، وعمد الى اخماد أية معارضة بالقوة • وقد اصطدم بكهنة للسامريين كانوا ينقبون آثار من عهد موسى فى (جبل جرزيم) وقتل منهم الكثيرين ، فشكا السامريون الى قيصر فعزله ووجهت اليه تهم الفساد والرشوة واستغلال النفوذ والاغتيال والقتل بدون محاكمة ! وفى عام ٤١ م أضاف الامبراطور كلوديوس اليهودية والسامرة الى ممتلكات أغريباس الأول وهكذا امتدت الى حدود مملكة هيرودس الكبير • لكن ابنه اغريباس الثانى من بعده أصبح واليا بالاشتراك مع الولاة الرومان على فيليبس مضافا اليها اجزاء من بيريه والجليل •

ولقد تدخل الرمان حتى فى تنصيب الكهنة ، ومن هنا تتابع من عهد هيرودس الكبير الى خراب أورشليم ٢٨ رئيسا للكهنة وكان حنان هو الذى تولى رئاسة الكهنوت عام ٦ م واستمر الى عام ١٥ م ، ثم عين زوج ابنة تيافا ومع ذلك ظل نفوذ حنان طيلة عهد تيافا ثم طيلة عهود أبنائه من بعده •

وأدت مظالم الولاة الرومان الى الثارة العماة الشاملة سنة ٧٠ م وهى التى انتهت بخراب الهيكل وأورشليم كذلك كانت هناك مظالم الجباية التى عرفتها الامبراطوريات وعرفتها امبراطورية الرومان ، وبجانب (ضرائب الدولة) كانت هناك (ضرائب الهيكل) ، ولم يكن يعنى روما فى شىء أن يجبى اليهود لهيكلهم ضرائب ثقيلة أو يسيرة ، وانما الذى يعنيها مادامو يعيشون فى نطاق الامبراطورية ويتمتعون بحمايتها وخدماتها هو اقتضاء ضرائب الولة دون ترخص • وكانت هذه الضرائب المزدوجة عبئا ثقيلا فى أرض خيراتها الطبيعية محدودة ، وتوزيعها بالطبع غير متكافىء فى تلك العصور • وقد تعرض حكم هيرودس للتمرد وعرفت السلطات الحاكمة خطر هؤلاء القوم كثائرين ومتحمسين فكانت تعد عليهم الأنفاس (١) •

---

(١) دكتور عزت زكى : فلسطين كما عرفها المسيح ص ٢٣ : ٢٨ ، ٥٢ : ٦٤

والأناجيل تقدم لنا (هيرودس) ... اذ تروى سيرة المسيح وسيرة يوحنا المعمدان .

« ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك ، اذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود ؟ .. وبعدما انصرفوا اذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم قائلا : قم وخذ الصبى وأمه واهرب الى مصر وكن هناك حتى أقول لك ، لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه .. فأرسل وقتل جميع الصبيان الذين فى بيت لحم وفى كل تخومها من ابن سنتين فما دون بحسب الزمان الذى تحققه من المجوس ، حينئذ تم ماقيل بأرميا النبى القائل : صوت سمع فى الرامة ـ فرح وبكاء وعويل كثير ، راحيل تبكى على أولادها ولا تريد أن تتعزى ، لأنهم ليسوا بموجودين ... فلما مات هيرودس اذا ملاك الرب قد ظهر فى حلم ليوسف فى مصر قائلا : قم وخذ الصبى وأمه واذهب الى أرض اسرائيل . ولكن لما سمع أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضا عن هيرودس أبيه خاف أن يذهب الى هناك ، واذ أوحى اليه فى حلم انصرف الى نواحي الجليل ، وأتى وسكن فى مدينة يقال لها ناصرة ، لكى يتم ماقيل بالأنبياء انه سيدعى ناصريا (١) » .

وقصة المأساة الدامية ليوحنا المعمدان ترويها الأناجيل على هذا النحو :

« فى السنة الخامسة عشرة من سلطة طيباريوس قيصر : اذ كان بيلاطس البنطى واليا على اليهودية ، وهيرودس رئيس ربع على الجليل ، وفليبس أخوه رئيس ربع على ايطوريه وكورة تراخونيتس ، وليسانيوس رئيس ربع على الأبلية ـ فى أيام رئيس الكهنة حنان وقيافا ، كانت كلمة الله على يوحنا بن زكريا فى البرية ... أما هيرودس رئيس الربع ، فاذ توبخ منه لسبب هيروديا امرأة فيلبس أخيه ، ولسبب جميع الشرور التى كان هيرودس يفعلهـا زاد هذا أيضـا على الجميع أنه حبس يوحنا فى السجن » (٢) « لأن هيرودس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه فى السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه اذ كان قد تزوج بها ، لأن يوحنا كان يقول لهيرودس لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك ، فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله ولم تقدر ، لأن هيرودس كان يهاب يوحنا

---

(١) مت : ٢ .

(٢) لو ١ : ٥ ، ٣ : ١ ، ١٩ ـ ٢٠

عالما أنه رجل بار وقديس وكان يحفظه ، واذا سمعه فعل كثيرا وسمعه بسرور • واذ كان يوم موافق لما صنع هيرودس فى مولده عشاء لعظمائه وقواد الألوف ووجوه الجليل ، دخلت ابنة هـــيروديا ورقصت فسرت هيرودس والمتكئين معه • فقال الملك للصبية : مهما أردت اطلبى منى فأعطيك ، وأقسم لها أن مهما طلبت منى لأعطينك حتى نصف مملكتى ، فخرجت وقالت لأمها : ماذا أطلب ؟ فقالت رأس يوحنا المعمدان ! فدخلت للوقت بسرعة الى الملك ، وطلبت قائلة : أريد أن تعطينى حالا رأس يوحنا المعمدان على طبق ، فحزن الملك جدا ، ولأجل الأقسام والمتكئين لم يرد أن يردها • فللوقت أرسل الملك سيافا وأمر أن يؤتى برأسه على طبق ، وأعطاه للصبية ، والصبية أعطته لأمها » (١) •

هذا هو هيرودس الذى قدر له أن يخضب يديه من دماء هذا البشير النذير يوحنا ••• ثم قدر له أن يشـــهد بعثة المسيح أيضا : « فسمع هيرودس الملك لأن اسمه صار مشهورا ، وقال : ان يوحنا المعمدان قام من الأموات ، ولذلك تعمل به القوات • قال آخرون : انه ايليا ، وقال آخرون : انه نبى أو كأحد الأنبياء ، ولكن سمع هيرودس قال : هذا هو يوحنا الذى قطعت أنا رأسه ، انه قام من الأموات !! » (٢) •

« كان هيرودس يعيش فى قصره الجديد بين أشباح الماضى ، يرتجف فرقا على عرشه ، فهو يعلم أنه ارتقى العرش اغتصابا •••

كان حفيد خادم فى هيكل أشقلون ، واغتصب الملك بمعاونة قياصرة الرومان المغامرين ، وجاءه اليهود وأخبروه أنهم لا يقبلونه ملكا عليهم ، فما كانوا يملكون عليهم الا رجلا من بنى اسرائيل ، فأزهق أرواحهم ــ حتى لا ترتفع اعتراضاتهم الوقحة !!

كان الخوف من أن يهوى عرشه يقلقه ويثير ضراوته ، فاذا طاف به طائف من شك برزت وحشيته ••• أمر بقتل المرأة الوحيدة التى خفق قلبه بحبها ، وسفك دماء الفريسيين لأنهم تنبأوا بزوال ملكه ، وقتل بعض أولاده ليقضى على وساوسه فقد حامت حولهم شكوكه وظن أنهم يتآمرون على ملكه ••• طالما ذبح كهنة ونبلاء ، وطالما انتزع الاعترافات ممن يظنهم أعداء ••• » •

---

(١) مر ٦ : ١٧ ــ ٢٩ ، مت ١٤ : ٣ ــ ١١

(٢) مر ٦ : ١٤ ــ ١٦ ، مت ١٤ : ١ ــ ٢ •

هكذا يصور الأستاذ السحار هيرودس ، أما الأستاذ العقاد فيقول عنه انه :

« زعيم مشهور بالحصافة والحزم على رأس قبائل الأدوميين ، عرف بفراسته وبعد نظره أن الكفة الراجحة فى النزاع على فلسطين لدولة الرومان ، فانضوى اليها واستبسل فى معونتها ، فكافأته على خدمته بتنصيبه ملكا على اليهودية والسامرة والجليل – حيث ولد السيد المسيح ، وكافأهم هو بالتمادى فى محاكاة المدنية الرومانية ، وأوحت اليه حصافته أن يداهن السلطة الدينية ويداهن السلطة الدنيوية فى وقت واحد ٠٠ ومع هذا الجهد المضنى مات هيرود وهو مغضوب عليه أشد الغضب بين أبناء دينه ، وحدث قبيل وفاته أن طائفة من الغلاة ثارت على مبانيه وأنصابه لتمسح منها معالم الوثنية ، فعقد لهم محكمة علنية وأمر بأجناده فحملوه الى المحكمة حيث قضى عليهم بالحرق وهم أحيـــاء !! وقبض على الزعماء المحبوبين فحبسهم وأوصى أخته أن تقتلهم اذا مات قبل اعلان وفاته ، لتذهب حسرة الشعب عليهم بفرح الشماتة فيه ٠٠ » ٠

وتمت البلية بتقسيم البلاد بين أبناء هيرودوس الثلاثة ، وتنافس الاخوان أرخيلاوس وهيرودوس انتيباس ، وقد وقعت الجليل فى حصة الأخير – وفيها ولد السيد المسيح « وكان هيرودس أنتيباس كأبيه وغيره من أفراد أسرته ذا وجهين ، فهو يهودى فى وطنه وهلنستى خارجه » – على حد تعبير الدكتور حتى Hitti ٠ وبعد خلع أرخيلاوس سنة ٦ م جعلت أرض اليهودية تحت الحكم المباشر لوال رومانى ٠٠٠ « وأقر القيصر الأبناء الثـــلاثة فى ولاياتهم ، وخرجت البـــلاد ممزقة بين أبنـــاء هيرود وحكومات النبطيين والمدن العشر ، وقصدت روما بهذا التمزق أن تخيف ولاية بولاية ، وتلجئهم الى التنافس بينهم فى مرضاتها ، وتتخذهم جميعا درعا تدفع به غارات الصحراء وهياج المتعصبين » ٠

وقد واجه يوحنا المعمدان فى شجاعة وقوة طغيان هيرودوس ٠٠٠ فكان خير تقدمة بين يدى المسيح : « لقد أثارها حملة شعواء على بؤرة الفساد فى زمنه ٠٠ وهو بلاط الملك هيرود ، فانها البؤرة التى استبيح فيها الفجور بالمحارم والبناء بهم على غير شريعة ، وقتل الاخوة والأبناء ، وتدنيس العبادة والقداسة بالبذخ والجسارة على المنكرات ، فكانت جسارة النبى على التطهير كفئا لجسارة الطاغية الأثيم على الدنس والخيانة ٠٠٠ وخرج الرسول من الميدان شهيدا يجر وراءه جثة ميت بقيد الحياة، فان

جسد هيرود قد أكله الدود قبل دفنه ، وان عهده قد وصف نفسه أصدق صفاته حين بذل رأس النبى هدية لراقصة مبذولة الجسد !!

ولا جرم أن يكون عصر يحى المغتسل (يوحنا المعمدان) عصر رسالة عاجلة ، أو عصر ارتياد وتمهيد • هجمة من هنا وهجمة من هناك ، ثم تبدأ المعركة حتى تستوفى الميدان كله ولا تنحسم بين صباح ومساء (١) » •

***

تلك هى دولة الرومان ، وهذا حكمها فى الأرض المقدسة من ديار الشام ••• لا يفوتنا فى خاتمة القول أن نؤكد تدلل اليهود على حكامهم ، وحرص الرومان على استرضائهم ، عندما كانت ظروف الدولة تملى عليهم ذلك • ومن هنا ألح اليهـــود على الرومان ، يستعدونهم ضـــد المسيح والمسيحية ، تشهد بهذا محاكمة المسيح ، ثم محاكمة بولس من بعده

ويعلق الأب فيليب الثالث على ما ورد فى انجيل متى «ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم : ايلى ايلى لم شبقتنى ، أى الهى الهى لماذا تركتنى ٢٧ : ٤٦ » فيقول « المسيح كانسان يقول ويردد القول : الهى الهى ، ليعبر عما فى أعماق نفسه من عواطف ، ويتكلم عن الترك على سبيل التشبيه ، لانه حين يتعرض انسان لشر الخطيئة أو عقابها يقال له متروك ، والحال أن المسيح بحكم الاتحاد الاقنومى وبحكم النعمة لايمكن أن يتركه أبوه ، انما يقال له متروك بسبب الآلام والاوجاع • وسؤاله : لماذا تركتنى ؟ لا ينم عن الضجر واليأس ولكن عن رأفته وعطفه على اليهود الذين غمرهم الظلام وعن اعجابه بحب أبيه نحو الخطاة والمساكين (١) »

هذا وقد كانت العقيدة فى (المسيا) Messias اللاتينية ، Meshina السريانية Mesha العبرية Croyances Messianiques تشير الى (المسح) والمراد المسح بالزيت المقدس وهو رمز لتتويج الملوك عند بنى اسرائيل ، ومعنى الكلمة المحرر أو المخلص الذى بشر به الانبياء بنى اسرائيل ، وهو يسوع فى اعتقاد المسيحيين • وقد أطلقت التوراة هذه الكلمة قبل ظهور

---

(١) السحار : المسيح عيسى بن مريم ص ٢٩ ، ٣٨ ـ ٩ ، ٦٥ ، حتى : تاريخ سوريا ج ١ ترجمةحداد ورافق ص٣١٢ ـ ٣١٣ ، عبقريةالمسيح ص ٤٢ ـ ٤٣ ، ٤٧

المسيح اطلاقين : أحدهما عام يعنى الملوك والانبياء وكل مبعوث يحمل رسالة من عند الله ، والثـانى خاص على من يرسله الله لتـكفير خطايا البشر وانقاذ بنى اسرائيل وتخلص العالم • وكان شـعب الله المختار يدين بهذه العقيدة ولا يزال ينتظر ظهور المخلص الموعود طوال ذلك الأمد الكبير ـ عشرين قرنا من الزمان ! ويزعم بنو اسرائيل ان الله بشرهم ب (المسيا) ووعدهم اياه غداة ان هبط آدم من الجنة بعد أن وسوس اليه الشيطان ليأكل من الشجرة المحظورة ، ويقول أنبيـاء بنى اسرائيل ان (المخلص) سيخرج من نسل ابراهام بن اسحق بن يعقـوب من سبط يهوذا (التكوين : ١٢ ، ٢٢ ، ٢٦ ، ٢٧) وانه سيكتب له النصر على رغم شنآن قومه له وعدائهم اياه ، وانه سيشرع لهم من الدين ما لم يأت به شريعـة موسى ، وانه يولد من عذراء بيت لحـم • ويذكر ان مثـل هذه (الاعتقادات المؤملة)Wishful thinkingظهرت فى أسطورة تيفون وحورس عند المصريين القدماء ، وفى احدى أساطير مترا Mithra عند الفرس ، ثم فى كتب الصينيين القديمة وفى عقائد الهنود وبخاصة مايتعلق بتناسخ براهما ، ولا تزال آثار من أمثال هذه الاعتقادات المؤملة فى اسـكندناوة والمكسيك ، وقد وجدت عند المسمين فكرة (المهدى المنتظر) الذى يأتى « ليملأ الأرض عدلا بعد أن ملئت جورا » ! ويقول فولتير « ان الهنود والصـينيين يتنظرون خروج المخلص الموعود من المغرب ، بينما ينتظر الغربيون خروجه من المشرق (١) »

ويذكر جريجوريوس النزينزى :

« سمى يسوع مسيحا أو ممسوحا بسـبب اتحاده باللاهوت ، فاللاهوت هو مسـحة النـاسوت ، تقـدس الناسوت بمجرد الاتحـاد باللاهوت ، وليس بطريقة فاعلة كما هو الحال عند سائر القديسين(٢) » فقد ظهر من محاكمة المسيح أن اليهـود كانت لهم امتيازات قانونية وقضائية فى المسائل الدينية ، وأن الرومان كانوا يطلقون لهم سجينا فى عيدهم ••• وأما محاكمة بولس فنحن نقرأ عنها : « ولكن لما كملت

---

(١) Encyclopedie La Rousse فان فلوتن : السيادة العربيـة والشيعة والاسرائيليات في عهد بن أمية ـ ترجمة د. حسن ابراهيم ومحمد زكى ابراهيم ص ١٠٨ ـ ٩ هامش .

(٢) فرنسيس فرييه : التجسد ـ ترجمة لويس ابادير ص ١١٩ .

سنتان قبل فيلكس بوركيوس فستوس خليفة له ، واذ كان فيلكس يريد أن **يودع اليهود منة** ـ ترك بولس مقيدا ٠٠ فعرض له رئيس الكهنة ووجوه اليهود ضد بولس ، والتمسوا منه طالبين عليه منة أن يستحضره الى أورشليم ، وهم صانعون كمينا ليقتلوه فى الطريق ٠٠ ولكن فستوس اذ كان يريد أن **يودع اليهود منة** ـ أجاب بولس قائلا : أتشاء أن تصعد الى أورشليم لتحاكم هناك لدى من جهة هذه الامور ؟ » (١) ٠

ويح يهود ، ذكرتنى بقريش ، التى قال عنها رسول الاســلام حين اعترضت طريقه وهو يسعى الى الطواف بالكعبة فى عمرة الحديبية « ياويح قريش ، قد أكلتهم الحرب ! ماذا عليهم لو خلوا بينى وبين سائر العرب ، فان هم أصابونى كان ذلك الذى أرادوا ، وان أظهرنى الله عليهم دخلوا فى الاسلام وافرين !! »

« كذلك ما أتى الذين من قلبهم من رسول الا قالوا ساحر أو مجنون ٠ أتواصوا به ؟ بل هم قوم طاغون ٠ فتول عنهم ، فما أنت بملوم ٠ وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » ٠

« ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات ، وفضلناهم على العالمين ٠ وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا الا من بعد ماجاءهم العلم ـ بغيا بينهم ، ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (٢) ٠

---

(١) أعمال ٢٤ : ٢٧ ، ٢٥ : ٢ ـ ٣ ، ٩

(٢) الذاريات : ٥٢ ـ ٥٥ ، الجاثية ١٦ ـ ١٧ ٠

معلم وأمة

المسيح رسول عند المسلمين وعند المسيحيين ، أرسله الله ليبلغ رسالة بعينها ... مهما كان الخلاف فى صدد قضية اللاهوت والناسوت .

« ومن قبلنى فليس يقبلنى أنا ، بل الذى **أرسلنى**» (١) . «تعليمى ليس لى ، بل للذى **أرسلنى** . ان شـــاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم هل هو من الله ، أم أتكلم أنا من نفسى . من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه ، وأما من يطلب مجد الذى **أرسله** فهو صادق وليس فيه ظلم» (٢) . «أنا معكم زمنا يسيرا بعد، ثم أمضى الى الذى أرسلنى» (٣) . « وان كنت أنا أدين فدينونتى حق لأنى لست وحدى بل أنا والآب الذى **أرسلنى** » (٤) « فأنا علمت انك فى كل حين تسمع لى ، ولكن لاجل هذا الجمــع الواقف قلت ، ليؤمنوا انك **أرسلتنى** » (٥) . « فنادى يسوع وقال : الذى يؤمن بى ليس يؤمن بى ، بل بالذى **أرسلنى** ، والذى يرانى يرى الذى أرسلنى » (٦) .

والمسيحيون يفسرون مثل هذه النصوص تفسيرا يتلائم مع عقيدتهم فى تأليه المسيح ، فيقول الأب لويس برسوم الفرنسسكانى « ... يطلب يسوع هنا أن يؤمن الجميع به كاله : له والآب الأزكى طبيعة آلهية واحدة مشتركة ، بحيث أن كل من آمن به فقد آمن فى الوقت نفسه بالآب الذى أرسله ، وهما معا واحد بالذات ، الأمر الذى يتضح لنا بأعلى بيان فى الجزء الأخير من الآية المذكورة حيث يقول . (ومن رآنى فقد رأى الذى أرسلنى) ـ معلنا بذلك أنه صورة الآب الذى أرسله وصورة جوهرية ، حتى ان كل من رآه فقد رأى الآب . اذن فهو اله من اله ، ونور من نور » . بل ان المسيح يقول : « وهذه هى الحياة **الأبدية : أن يعرفوك انت الاله**

---

(١) مر ١٩ : ٣٧
(٢) يو ٧ : ١٦ ـ ١٨
(٣) يو ٧ : ٣٣
(٤) يو ٨ : ١٦
(٥) يو ١١ : ٤٢
(٦) يو ١٢ : ٤٤ ـ ٥٠

الحقيقي الوحيد ، والذى أرسلته يسوع المسيح » ومع ذلك يستطرد الأب لويس فيقول : « قال القديس أغسطينوس ، ومن بعده القديس توما الأكويني ردا على استنتاج الأريوسيين الباطل : ألا وهو أن الآب وحده دون الابن والروح القدس هو الاله الحقيقى بحصر المعنى - بأن حرف العطف فى الآية يجمع المسيح والآب على صعيد واحد هو صعيد اللاهوت ولاشك ، بحيث أن المعنى لا يستقيم الا اذا فهمناه على هذا النحو : وهو أن الآب والمسيح مرسله - والمسيح من حيث لاهوته - هما مع الروح القدس الاله الحقيقى الوحيد » (١) .

ولقد أثارت شخصية هذا الرسول الكريم (٢) - كما قدمنا - كثيرا من الجدل عند المحدثين ، فالأستاذ ريماروس Herman Reimarus أستاذ اللغات الشرقية ترك مخطوطا ضخما بعد وفاته سنة ١٧٦٨ م - نشر أجزاء منه لسنج Gotthold Lessing ، ومما جاء فيه : ان يسوع لا يمكن أن يعد مؤسس المسيحية أو أن يفهم هذا الفهم ، بل يجب أن يفهم على أنه (الشخصية النهائية الرئيسية فى جماعة المتصوفة اليهود القائلين بالبعث والحساب) !!

ويشير هردر سنة ١٧٩٦ م الى مابين مسيح متى ومرقس ولوقا ومسيح انجيل يوحنا من فوارق لا يمكن التوفيق بينها !!

وعرض بولس Heinrich Paulus تفسيرا عقليا للمعجزات عزاها لعلل وقوى طبيعية (١٨٢٨ م) . لكن شتراوس David Strauss حوالى (١٨٣٥ - ١٨٣٦ م) رفض هذه المحاولة ، وقرر أن الروايات التى تتضمن خوارق للطبيعة أساطير خرافية ، وينبغى اعادة كتابة حياة المسيح متحررة من هذه الأساطير !

وفى نفس الوقت هاجم بور Ferdinand Christian Bour رسائل بولس وقال انها مدسوسة عليه - عدا رسائل غلاطية وكورنثوس ورومية

---

(١) لويس برسوم : حياة يسوع المسح ج ٢ ص ١١١ ، ١٨٢

(٢) لاينفرد المسيح بهذا الجدل في (تاريخية) يقول فيليب حتى « ان محمد هو النبى الاوحد بين انبياء العالم الذى ولد فى ضوء التاريخ الكامل . وأول اشارة لمحمد في اللغة الديانية وردت في مؤلف يرجع للقرن ٧م وكان تيوفانيز أول مؤرخ بيزنطى سجل لنا حقائق عن (حاكم المشارقة والنبى المزعوم) في الشطر الاول من القرن ٩م» راجع تاريخ العرب ترجمة نافع جا ص ١٣٦ .

وهكذا تبارى المنكرون في الانكار على تباين في الأسلوب ودرجته ، حتى قرر Bruns Bauer سنة ١٨٤٠ م أن : يسوع لا يعدو أن يكون أسطورة أو تجسيدا للطقوس في القرن الثاني !! وأنكرت المدرسة الهولندية حقيقة المسيح التاريخية بعد بحوث مضنية ، كان ممن قاموا بها Pierson, Naber, Matrhas وفي انجلترا وصل لنفس النتيجة Arrhur Drews W.B. Smith, J.M. Robertson أما ألمانيا فقد عرض فيها سنة ١٩٠٦ م النتيجة السالفة محدودة ، وكان Ernest Renan قد أورد نتائج النقد الألماني وعرض مشكلة الأناجيل في كتابه (حياة يسوع) سنة ١٨٦٣ ، ومثل Loisy مدرسة أواخر القرن التاسع عشر الفلسفية اذ حلل نصوص العهد الجديد تحليلا أدى الى صدور قرار بحرما

هذا أحد الوجهين في قضية المسيح ...

والوجه الآخر يمثل جانب الاثبات ، وأقدم اشارة تعزز هذا الرأى ما أورده المؤرخ **يوسيفوس** (٩٣ ؟) : « في ذلك الوقت كان يعيش يسوع ، من رجال الدين – اذا جاز أن نسميه رجلا ، لأنه يأتي بأعمال عجيبة ويعلم الناس ، ويتلقى الحقيقة وهو مغتبط ، واتبعه كثيرون من اليهود واليونان .. لقد كان هو المسيح ! » .. وتكتنف هذه الاشارة شكوك متزاحمة ، سيما وهي صادرة من يهودى ، يستغرب منه أن يخص المسيح بهذا الاعتراف الصريح والثناء الجميل !!

وأرسل **بلني الأصغر** Pilnius سنة ١١٠ م خطابه الى الامبراطور تراجان يستشيره في معاملة المسيحيين ، وبعد ذلك بسنين أورد تاستوس Tacitus وصفا لاضطهاد نيرون لمن أسماهم Christiani في قطعة ينال منها الشك ، وان كانت أقرب لأسلوب هذا المؤرخ القديم .

وفي سنة ١٢٥ م ينقل سوتونيوس Suetonius خبر الاضطهاد نفسه ، كذلك خبر نفى كلوديوس سنة ٥٢ م لجماعة (اليهود الذين أثاروا اضرابات عامة بتحريض المسيح (Impulsore Céresto) ، وتتفق اشارته مع ما ورد في (أعمال الرسل) .

ولربما يقال : تلك أدلة على وجود المسيحية لا المسيح ... « ولكننا اذا لم نسلم بوجود المسيح فلا مناص من الفرض الضعيف جدا ، وهو أن شخصية المسيح اخترعت في جيل واحد !! » ...

ولابد أن الطائفة المسيحية وجدت قبل سنة ٥٢ م ببضع سنين ، والا لما كان هناك مدعاة لصدور مرسوم من أجلها .

ويروى يوليـــوس أفريكانوس Africanns عن الكاتب الوثنى Thallus الذى عاش فى منتصف القرن الأول : أن الظلمة التى خيمت وقت موت المسيح كانت محض ظاهرة طبيعية « فنكران ذلك الوجود لم يخطر على ما يظهر لأشد المخالفين لليهودية ، أو اليهود المعارضين للمسيحية الناشئة فى ذلك الوقت » ٠

وأبرز الأدلة على وجود المسيح كتابات بولس ـ ومنها رسائل تؤرخ سنة ٦٤ م ـ ولم يشك أحد فى وجود بولس نفسه ، أو لقائه لبطرس ويعقوب ويوحنا ، ويعترف بولس بمعرفة هؤلاء للمسيح ويحسدهم على ذلك ، ويشير لقصة العشاء الأخير والصلب (١) ٠

« وكل مايفهم من سكوت المؤرخين المعاصرين على سبيل الجزم ، أن المؤرخين لم يدركوا خطرها ـ المســـيحية ـ ولم يميزوها عن الحركات المتفرقة التى كانت تختلج بها طوائف اليهود على صفة عامة ٠٠٠ ويبدو لنا أن نشوة العلم الجديد : علم المقابلة بين الأديان ، هى التى دفعت أصحابها فى القرن الثامن عشر الى تحميل المشابهات والمقارنات ـ بين القصص المروية عن السيد المســـيح والقصص المروية عن الأرباب فى العبادات الشرقية القديمة ، ومنها القول بأن أخبار المسيح بقية من الديانات الشمسية القديمة يدل عليها عدد اثنى عشر الذى يشير الى البروج والى عدد التلاميذ ـ تحميلها فوق طاقتها ٠٠٠ وينبغى أن نذكر أن المسيحية وجدت قبل أن تقترن بها تلك المراسم والتقاليد » (٢) ٠

وبرز جورج ماثيسون اللاهوتى الاسكتلندى ملامح صورة (المسيح) بين دعاة الاصلاح فيقول :

« تشـــترك صـورة المســيح مع صـــورة بعض الفلاسفة أمثال (كونوفوشيوس) و (بوذا) و (زرادشت) فى كثير من الملامح ، ولكن هنا يكمن السر الفريد، فحيث تبدو وحدة الملامح تستتر أعظم الفوارق»٠٠

« دعنا نضعه بجـوار حكيم الصـــين ورجلهـــا القـــوى الراسخ (كونفوشيوس) ٠٠٠ نعم هناك تشابه فى الملامح الظاهرة ، فكلا الاثنين جاء ليؤسس مملكة أرضـــية ، وكلاهما قد أعلن فائدة العمل العادى البسيط ، وكلاهما قد حول أنظار تلاميذه الى الأمور البسيطة التافهة تحت

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ (قيصر والمسيح) ـ ترجمة بدران ص ٢٠٢ : ٢٠٦

(٢) العقاد : عبقرية المسيح ص ١٨٤ : ٦

أقدامهم ·· لكن عبقرية يسوع وتفرده تكمن : ليس فى (ماذا) ، ولكن فى (لماذا) ؟ لماذا رفع كونفوشيوس من قيمة العمل العادى ؟ لأنه أراد أن يجعل الناس عالميين (أى يربطهم بالعالم) · ولماذا رفع المسيح من قدر الواجبات العادية ؟ لأنه أراد أن يجعل الناس غير عالميين ··· فى نظر حكيم الصين أن القوة التي تعيننا لنقوم بأداء الواجبات البسيطة هي دليل العبقرية الطبيعية ، ولكن هذه القوى فى نظر ابن الانســـان هى برهان الالهام السماوى · يرى كونفوشيوس أن بركة المساكين بالروح تكمن في كونهم ولدوا من أسفل ، ويرى يسوع أن تطويب المساكين بالروح كان فى كونهم ولدوا من فوق (لأن لهم ملكوت السموات) ··· وأنا لا أعرف عملا قام به أحد الصينيين ونجح فيه مالم يكن قد وجه نظره الى آفاق أوسع من محيط عمله · ان الطالب لا يستذكر دروسه في نور المصباح بل فى نور العطلة القادمة ! وهكذا لا أظن أن تثبيت النظر فى الحال الحاضرة ينتج عملا ناجحا ، بل ان الاجتهاد فى الحاضر هو نتيجة الرجاء فى المستقبل ، ينبغى أن أنظر الى ماوراء الساعة ان كنت أريد أن أجتازها ···

« وكم اقترن اسم المسيح باسم (بوذا) فى مخيلة الكثيرين ··· هناك أوجه شبه كثيرة ·· على الأقل فى الملامح ، فكلاهما وصل الى مستوى واحد فى التضحية ، كلاهما يصرح أعط أعط ، كلاهما أخلى نفسه من مجد سابق ، كلاهما اختار الفقر والوحشة والعمل المضنى ، كلاهما نصح الناس بأن يحملوا الصليب وكلاهما رآه الناس يصعد مدارج جبل الجلجثة · ولــكن فى وحـــدة الملامح تبرز الفوارق : بوذا يرى أن الصليب خنوع التعاسة البشرية ويسوع يرى أن الصليب ثورة فى وجه الشقاء البشرى ! بوذا يدعو الناس ليتحققوا بطلان وجودهم ويجثوا أمام هذه الحقيقة المرة ويسوع يدعوهم ليقطعوا صـــلتهم بالأرض ويتنكروا لحالتهم ويسهموا فى رفع أحمال البشرية المذلة ! يسوع يدعونى لأرفع حمل أخى ليس لأننا نشترك فى الحمل الواحد بل لأن الحمل ينبغى أن يزاح ! انه حمل (صليبه) من أجل السرور الموضوع أمامه · انه تحمل للحمل فى الحاضر على رجاء التحرر منه فى المستقبل · انه تحمل للكلفة فى سبيل تحرير البشرية (١) ·

---

(١) الأديب اليونانى نيكوس كزنتزاكى المولود فى كريت ١٨٨٥ م ومن أعماله (المسيح يصلب ثانية) كما أن له كتابات فى الفلسفة ومؤلفات شعرية ومسرحية ، يرى أن التحرر عند بوذا هو محاولة الخلاص حتى من الخلاص نفسه ، فالذى يسعى للخلاص يكبل روحه بأغلال الأمل وتعاليم بوذا تدعو الى التسامى على الرغبة والأمل حتى لايريد المرء شيئا ويبلغ اللاوجود ويتحرر من كل مادى ومعنوى وتفنى روحه في الصمت المطلق وهكذا =

« ولنظر صورة أخرى : صورة (زرادشت) حكيم الفرس · هناك تشابه كبير ، انه أتى الى العالم بصيحة الحرب هاتفا : ان الكون قد اختل نظامه فهناك قوة شريرة تقف فى وجه الله وتقاومه هلموا معى ولنتهيأ للقتال ، وهكذا كان أيضا يسوع يتملكه شعور بنضـــال مقبل ومن ثم رفض أن ينظر للحياة نظرة المتفائل ودعا أتباعه ليعدوا أنفسهم لمنظر الصراع الدامى : لحروب وأخبار حروب ··· وفى مواضع الشبه تبرز أوجه الخلاف : زرادشت يقصد أن يقول : انكم تعيشون فى عالم نضال لذلك تمنطقوا بلباس الحرب ويسوع يقول : أنكم تعيشون فى عالم محارب لذلك البسوا روح السلام ! الروح المحاربة فى نظر يسوع هى آخر ما يصلح للحرب فالحرب تحتاج الى هدوء النفس والقوة التى تغلب العالم معه هى قوة الســـلام ! انه يطلب الاســتعداد للمعركة بالهدوء الفكرى ، فالفكر الذى يشترك فى الصراع من أجل ملكوته هو الفكر الذى يتخلى عن ذاتيته ويتجرد عن التفكير حتى فى أعدائه ! أن مؤسسى الديانات الأخرى يعدون شعبهم بالسلام بعد انتهاء الحرب ، أما يسوع فانه يعد شعبه بالسلام قبل أن تبدأ المعركة ! ··

« دعنا نختار الرجل الذى ســبى فى محيط الفكر عقــول أفراد امبراطورية الرومان الفيلسوف الروافى (ابكتيتوس) Ep Cctitus الروح التى بعثها فى الامبراطورية الرومانية ؟ انهــا الشجاعة وسط مخاطر الحياة والهدوء وسط عواصفها والجــرأة فى مواجهة أشباحها المظلمة · يسوع أيضا كانت له هذه الملامح ، ولكن هل صورة العبد المشوه على ضفاف التيبر تطابق صورة رجل الأحزان على ضفاف الأردن ؟ هل روح الامبراطورية تشابه روح ملكوت الله ؟ كلا ··· ان شجاعة كل منهما كانت تنبع من مصدر مختلف ، فابكتيتوس يقف على البحر لأنه غلب عاطفة الخوف ويسوع يقف على البحر بدافع عاطفة الحب ! ابكتيتوس وصل الى قمة شجاعته بالحد من مجرى حيويته ويسوع وصل الى قمة اقدامه بتوسيع مجرى حيويته ! ابكتيتوس انتصر بكبح جماح عواطفه ويسوع انتصر بتسامى عواطفه فى دائرة أوسع ! ابكتيتوس ذابت أمام عينيه جبال المخاطر لأنه رأى العالم كله يذوب أمامه ويسوع تضاءلت أمامه جبال المخاطر ليس بانكماش العالم بل بانبساطه واتساعه ! أستطيع

= يخرج الانســان عن الامل المطلق واليأس المطلق معا ··· ومن هنا يصل كزنتزاكى الى أن « المسيح يخفى بوذا فى ثناياه » مقال خطاب الى الجريكو (المجلة ــ ع ٨٧ ــ مارس ١٩٦٤) ·

أن أجتاز الأتون بدون خوف اذا فقدت الاحساس بالألم وأستطيع أيضا فى سبيل انقاذ انسان آخـر من الألم ، الأولى شـــجاعة الجمود والثانية شجاعة العطف ، الأولى تنتصر بضيق الصدر والثانية باتساعه ! ان يسوع لا يقلل من الخطر الذى يحيط به ، ولكنه يزيد من ابراز الخطر المحيط بالغير ! انه لا يصـــمت أمام الكارثة الداهمة صـــمت عـــدم الاكتراث كالفيلسوف الرواقى ، ولكنـــه يصـــمت ليصـــغى لأنات من هو أفدح خسارة !! ٠٠ » (١)

على أن الانسانية لا ترتضى اليوم الطابع المأسوى الحزين ونحن نقرأ مثلا للأديب اليونانى كزنتزاكى أن المسيح لم يبلغ الله حتى امتحن بجميع عذاب الانسانية « لقد كان يحول المادة الى روح فى كل لحظة من لحظات الكفاح » ، لكن الأديب اليونانى يرفض أن يكون بلوغ الغاية مقصورا على مكابدة هذه الآلام « لقد آن الأوان أن يضحك المسيح ٠ آن الأوان ألا يجلد ، ألا يبكى ، ألا يصلب كل يوم ، أن يتطبع بقـــوة وبهجة آلهة الاغريق ٠ آن الأوان لكى يصبح مسيح اليهود اغريقيا » !! (٢)

وجورج ماثيسون يرى أن المسيح كان بطبيعته فرحا متهللا وانما كان لطابعه الحزين أســـباب وعلل « وانى لا أكاد أصغى الى حديثه عن زنابق الحقل وطيور السماء الا ويتملكنى الشعور القوى بأن قلبه كان متفتحا لتأثيرات الفرح الناجمة عن مناظر الطبيعة الجامدة ٠ لكن العالم الذى كان على يسوع أن يتعامل معه لم يكن عالم (الطبيعة) البهيج ، بل كان دائرة (البشرية) التعيسة ! لقد جعلته الطبيعة فرحا وأجازه الانسان فى اختبار الحزن ، لقد أحس بالفارق العظيم بين باقات الزنابق وجموع النفوس البشرية : الأولى كانت تنمو بلا عائق والثانية كانت عاجزة عن النمو والتطور ! ولقد تيقن فى قرارة نفسه أن حجر العثرة الذى وقف فى طريق نمو البشر هو افتقارهم الى الفرح وتثقلهم بأحمال الهموم وتلبد سمائهم بالسحب المظلمة ! ٠٠ ان أحزان يسوع كانت شيئا غريبا عنه ، شيئا دخيلا على نفسه هاجمه من العـــالم الخارجى ، وفى الرسالة الى العبرانيين : (فتفكروا فى الذى احتمل من الخطاة مقاومة لنفسه ٠٠٠) ٠ اننا كثيرا مانتحدث عن (رجل الأحزان) ، ولكننى أعتقد أن أعمق الأنغام التى صدرت عن نفس يسوع لم تكن أنغام الحزن

---

(١) جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ٠ ترجمة د٠ عزت زكى جـ١ ٢ : ٧

(٢) مقال : خطاب الى الجريكو ـ المجلة ع ٨٧ مارس ١٩٦٤

بل أنغام الفرح » ... ويمضى الكاتب فى تحليله وتعليله فيشير الى ما ورد فى الانجيل بالنسبة لواقعة اقتسام الخبز فى البرية « فى تلك الساعة تهلل يسوع بالروح .. » ويرى فى ذلك اعلانا لعودة المسيح الى طبيعته الأصلية لا تعبيرا عن حالة استثنائية نادرة الحدوث « لقد نظر يسوع الى الجمهور المبتهج ولأول مرة فى اختباره رأى وكأنهم سموا فى نموهم كزنابق الحقل وألقوا عن كاهلهم أحمال الأمس وهموم الغد فرحين بيومهم السعيد ، فرجع يسوع الى طبيعته الفرحة الأولى والى جوه السعيد الأول ... كان الحزن يتسلل الى قلبه من الظروف المحيطة ، ولكن الفرح كان ميراثه الطبيعى » « ولقد كانت النقطة التى تهلل فيها يسوع بالروح هى نقطة ختام الفترة الأولى من حياته ، وهى أنقى لحظات حياته التى اختبرها حتى الآن ، بل أنقى اللحظات التى سيختبرها من بعد حتى يخيم عليه ظل الصليب ! فى الفترة الثانية نقف أكثر مانقف بجوار صليبه ، ولكن هنا نقف أمام تاجه ! لقد وصلت رسالته الى قمة انتصارها وتوج انتصارها الرضا الالهى ! فى الفترة الأولى نرى الخطوات التى نزل بها يسوع الى الانسانية ، وفى الثانية نرى الطريقة التى حاول بها يسوع أن يجتذب الانسانية اليه ! الحادثة الرمزية التى تشير الى الفترة الأولى هى حادثة كسر الخبز فى البرية ، والحادثة الرمزية التى تشير الى الفترة الثانية هى الجسد المكسور الذى يجذب اليه جميع الناس !.. ونحن نرى الجبل لناجم عن الفرح يوضع كله على كاهل يسوع فبعد أن نراه يرفع عينيه الى السماء فى غمرة من الفرح الفياض نراه يحنى رأسه الى الأرض وينظر الى الجمهور ويشع فى عينيه بريق الحنـــان وينادى (تعالوا الى يا جميع المتعبين والثقلى الأحمال وأنا أريحكم) !! » « لقد نبع تجاوبه العاطفى مع احساسات الألم من اختباره للحظات السرور » « ولقد أعلنته الجليل كنبى وقدمت له أورشليم بالرغم من شبح الموت القادم لباس الملك ، وأستطيع أن أحدد بداية ساعة كهنوته باللحظة التى سقط فيها صليبه عن كاهله وهنا نراه فى ثوب الكاهن يقدم ذبيحة نفسه وذاته » ! (١)

ويلمح بترسون سمث الى تجاوب المسيح مع الطبيعة « وأنت تشعر هذا الشعور فى تلميحاته التى تفوه بها عن الطبيعة فى أقواله ، وتحس

---

(١) جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكى حـ ١ ص ١٥٨ ـ ٩ ، ١٦٤ : ٦ ، حـ ٢ ص ١٥٧ ايضا بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٣٥٢

أن الله وراء كل هذه المخلوقات التي يحبهـــا ويعتني بها ! يحب الحملان الصغيرة تلعب وتمرح في الحقول ، ويرى العصفور الصغير الذى يسقط من عشه ، وهو الذى يكسو الحقول خضرة ونضرة وينبت أزهار البرية فوق سفوح التلال ويكسوها جمالا يفوق جمال (سليمان فى كل مجده) ! ويرى الصبى الحياة تنبت فى بذر الحنطة من قبل الله بطريقة اعجازية (نباتا ثم سنبلا ثم قمحا ملآن فى السنبل) ! وما أجمل أن نربى أولادنا هكذا ، وأن نرى الله يتحرك ويعمل فى حياة الطبيعة ونرقب باحترام ووقار زهرة تتفتح أكمامها ، ونشعر أن ايذاء طائر صغير أو الدوس بالقدم على زهرة ناضرة من قبيل اتخاذ اسم الله باطلا » ! « ولست أدرى من أين جاءتنا الفكرة الشائعة عن محيا يسوع الكئيب ، وأظنها جاءت عن نبوة أشعياء القائلة (رجل أوجاع ومختبر الحزن) ••• أجل لقد احتمل أحزاننا وحمل أوجاعنا ، لكن الشعور مع الآخرين والموت لأجلهم لا يخفى معالم الفرح في النفس الكبيرة ، بل ان الحمية للتضحية وانكار الذات هى فرح فى حد ذاتها لمن كان مثله ! ونستطيع القول من الوجهة البشرية أن انشراح الصدر والفرح الداخلى وخفة الروح هى التى هونت عليه مهمة الحياة ، ولم يفقد هذه الروح قط حتى فى أحلك أيام حياته • فقبل نزاع جثسيمانى بثلاث ساعات فقط نراه يذكر تلاميذه بالسعادة التى تذوقوها ••• وأبناء العرس سعداء فرحون لأن العريس معهم ••• كلا ، لم يكن المسيح عابس الوجه ونحن نعلم أن شخصيته كانت جذابة ••• ولنذكر أن الله يحب الانشراح وسعادة الحياة ••• وليس الله يشبه الكاهن المترفع الذى يهتم فقط بالكنائس والوعظ وخدمة الأسرار المقدسة ، انه يرغب أن نستمتع بالحياة ، فهو الذى خلق الموسيقى والفن ووهبنا روح النكتة والضحك ، وهو الذى يشرح الصدور لتمكيننا من التغلب على وعورة الحياة » !! (١)

***

فاذا انتهينا من ذلك الى وجود المســـيح تاريخيا والى شخصيته المتميزة ، فان رســـالته قد استمرت بعـــد رفعه •• ان رسل المسيح من بعده يواصلون المهمة ويبشرون بالرسالة • ولقد مارسوا : « طقوسا ثلاثة : المعمودية ، ووضع الأيدى ، والشركة • فكان على كل مستجد يقبل الدعوة أن يتعمد باسم يسوع المسيح ، وأن يبارك بوضع الأيدى ، وأن يمارس الشركة وكسر الخبز » ••• وقد تحول بولس الى المسيحية هذا

---

(١) بترسون سميث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٣٧ ــ ٨ ، ٧٣ ــ ٤

التحول المثير الذى أشار اليه فى كلامه ، وبدأ عمله التبشيرى بين يهود دمشق ، فلما شغبوا عليه قضى ثلاث سنوات فى البادية يتأمل ويبشر العرب ، ثم عاد الى أورشليم • وعاد الشغب فابتعد هو الى أنطاكية ، وقام برحلة تبشيرية مع برنابا الى قبرص وآسيا الصغرى (٤٥ : ٤٧ م) ثم عادا • وقام بولس بعدئذ برحلتين تبشيريتين : شملت واحدة (٥٠ : ٥٢ م) غلاطية وفيليبى وتسالونيكية وأثينة وكورنثوس وافسوس وأنطاكية ، وشملت الأخرى (٥٣ : ٥٨ م) افسوس وكورنثوس وبعض جزر الأرخبيل اليونانى وصور وعكة وقيصرية فلسطين فالقدس • ولما عاد الى أورشليم ثارت ثائرة اليهود ، ويرجح أنه قضى شهيدا سنة ٦٤ م مع بطرس وغيره من ضحايا نيرون ، ويعتقد البعض أنه عاش حتى سنة ٦٦ م •

وكما انتقى المسيح الرسل الاثنى عشر وألحق بهم التلاميذ الاثنين والسبعين ، كان بولس فى رحلاته التبشيرية ينتقى لكل كنيسة يؤسسها شمامسة لخدمتها ومجلس كهنة لادارتها وقيما أعلى يمثله ويبقى على صلته بهذه الكنائس جميعها ويوجهها • ثم تعددت الكنائس فتكتلت فى كل ولاية حول كنيسة عاصمتها ، « ولا يختلف اثنان فيما نعلم أن المسيحيين الأولين كانوا مثال التقوى والصلاح ، وأن الايمان بالمسيح وبقرب عودته ليدين الأحياء والأموات كان أعمق أثرا فى نفوس أهل ذلك العصر من الايمان بالآلهة القديمة ، وأن الرسل بلغوا النجاح حيث أخفق كبار الفلاسفة • ومما يجدر ذكره أن الآباء المؤسسين حرموا الاجهاض وقتل الاطفال ، ولموا اللقطاء وعمدوهم وربوهم على نفقة الكنيسة ، وحضوا المؤمنين على العفة والبتولية وأساغوا الزواج لمن خشى العنت •• ومما يثبت استقامة المسيحيين الأولين وصلاحهم شهادات الوثنيين أنفسهم مثل بلينيوس الأصغر وغاليانوس العالم • وأدى الشعور بينهم بالخطيئة وبقرب انتهاء العالم ومجىء الديان الى رغبة فى الطهارة والى اجتناب كل لذة من لذات الجسد » (١) •

ويرى مؤرخ الحضارة ديورانت أنه من الصعب اعتبار شخصيات رسل المسيح « من طراز الذين يختارون ليبدلوا أحوال العالم » ! ويذكر أن الأناجيل تظهر ما بين أخلاقهم من اختلاف واقعى ، وتكشف عن عيوبهم كشفا صريحا !! فبطرس شخصية بشرية لحما ودما ، فهو متهور جاد كريم غيور هياب ـ يصل به الوجل أحيانا الى الجبن ! وكان هو وأندراوس

---

(١) د• أ رستم : الروم جـ ١ ص ٢٤ ـ ٢٥ ، ٢٨ : ٣٠ ، ٣٦ ـ ٧ ، ٣٩ ـ ٤٠ •

يصيدان السمك فى بحيرة الجليل ، وكذلك ولدا زبدى Zebedee ويوحنا ، وانتقل الأربعة بأعمالهم وأسرهم وأصبحوا لصيقين المسيح • أما متى فهو جاب للضرائب فى كبرنوم على الحدود « يخدم روما ، ومكروه من كل يهودى يتوق للحرية » !! ويهوذا الكريوثى وحده هو الذى لم يأت من الجليل ، وقد جمع الاثنى عشر من تلاميذ المسيح كل ممتلكاتهم وعهدوا بها ليهوذا ، ليتولاها نائبا عنهم • وكانوا فى طوافهم مع المسيح فى الرحلات التبشيرية يعيشون على مايقدمه القرويون من هدايا وضيافات • وأضاف المسيح الى هؤلاء اثنين وسبعين من الأتباع ، وانضمت اليهم بعض النساء الصالحات يقدمن المعونة فى الأعمال المنزلية التى لابد منها « وعلى يد هذه الجماعة الصغيرة ، البسيطة ، غير المتعلمة ، أرسل المســـــيح انجيله الى العالم » (١) !!

« وما كان أشد نفوذه عليهم وما أوثق صلته بهم ••• (يوحنا) : الشاب المملوء بالأحلام والأمانى ، (توما) الهـــادىء ذو الوجه الوديع ، (سمعان) الوطنى الثائر المتمرد ، (بطرس) المندفع الأهوج الذى أحبه بصفة خاصة على الرغم من عيوبه ، الصنوان اللذان لايفترقان : (فيليبس ونثنائيل ، والباقون حتى (الاسخريوطى) الذى كان من بلاد يهوذا وأحس كأنه غريب وسط الآخرين من سكان الشمال ••• كانوا كلهم بشرا فيهم كثير من العيوب والنقائص البشرية ولكن فيهم وجد يسوع صحابته ، وبدونهم كان يشعر بوحشة ••

* فريق كان أكبر مركزا وأشد حماسا ، وهم الذين تولوا الزعامة فيهم ، وكانوا أقوى أخلاقا وأعمق ولاء••• الأخوان (بطرس وأندراوس) ، (يعقوب ويوحنا) ، والأربعة متلاصقون ، وهم أول من تعرفوا بالمسيح من حوارييه ، ولذا كتب يوحنا فى شيخوخته انجيله فذكر التفاصيل حتى ساعة اللقاء ، ولم يكن (يوحنا) زعيما ولكنه أعمق من (بطرس) فهو مفكر عميق وله عيون الرائى الحالم وكان (التلميذ الذى كان يسوع يحبه) • أما (أندراوس) فقد صلب ولسانه لايفتأ يبشر بالمسيح ، وكان يعقـــوب (الابن الرعد) كما وصفه المسيح ، وأحس هيرودس خطره فقطع رأسه ونجا بطرس من أن يشاركه المصير فى ذلك الوقت ليلحقه بعد أربعين عاما !

* وفريق يحب المسيح ولا يصلح للقيادة ، يفكر ويرتاب ، ويمضى

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة ج ٣ م ٣ (قيصر والمسيح) ترجمة بدران ص ٢٢٢ ـ ٢٢٣

وقتا طويلا قبل أن يؤمن بأن يسوع شخصية الهية فهكذا ركبت طبائعهم ٠٠ (فيلبس) و (نثنائيل) و (برثلماوس) و (متى) و (توما) ٠٠ نرى (فيليبس) يسعى دائما وراء الأدلة والبراهين ويريد أن يرى دائما ، كذلك كان (نثنائيل) بطيئا حذرا مرتابا وصامتا ومنكرا قال عنه المسيح (اسرائيلى حقا لا غش فيه) ! أما (توما) فكان مرنا ينظر دائما للنواحى المظلمة فى الاشياء ، ومتى عرف المسيح صار أشد الجميع تعصبا له وتبعه الى المنتهى ٠ و(متى) كتوما هياب خجول ولا نعرف الكثير عنه ، كان منبوذا من اسرته يعمل عشارا وجابيا للاموال ، ولعل وظيفته جعلت له وضعا خاصا فى جمعه من أقوال المسيح فى انجيله ٠

✲ وفريق اخير يندر ظهورهم فى الأناجيل أو سفر الأعمال والأرجح أن أعمالهم وجهودهم كانت فى أصقاع نائية وهم نماذج لكثيرين من الذين يعملون صامتين فى كل العصور ولا يعرفهم الا الله ٠٠٠ أخوة متى الثلاثة أبناء حلفى : (يعقوب الصغير ويهوذا وسمعان الغيور) كلهم من اليهود المتشددين ٠ وصار (يعقوب) فيما بعد أسقف أورشليم وكتب (يهوذا) رسالة شديدة اللهجة فى العهد الجديد وكان (سمعان) وطنيا متحمسا وثار ضد روما ٠ وربما يصح أن نعتبر هؤلاء شهيدى الغيرة ضيقى الفكر ، وهم الذين عابوا على بطرس أن يأكل مع الأمم ولم يميلوا كثيرا الى آراء بولس المجدد بشأن كنيسة جامعة يتساوى فيها اليهودى والأممى ! أما (يهوذا الأسخريوطى) فكان الرجل المالى الذى تولى الوظيفة الادارية العملية للبعثة ، ولقد أراد أن يكون مع المسيح ، وظهرت رجولته وسط آلام وخز الضمير فالقى بالرشوة فى وجه الذين خدعوه وذهب وشنق نفسه ٠٠

« لقد دعا يسوع كل أصناف البشر ليكونوا له رسلا ، وفى ميدان خدمته متسع لجميع الجهود من العباقرة والغيورين والمرتابين والخائرين والجهلاء والبلداء ٠٠٠ فى الجميع عناصر من العظمة يهذبها ويصقلها ، وعناصر من الشر يقتلها ويبيدها ٠٠٠ يريد الجميع ويدعو الجميع » ! (١)

ويلفت النظر أن عدد تلاميذ المسيح الأولين كان اثنى عشر ، وعدد أتباعه بعدهم كان اثنين وسبعين ٠٠٠ فالرقمان لهما فى تاريخ الأديان السماويةمصادفات وموافقات ٠٠٠

فالأسباط أبناء يعقوب عددهم اثنا عشر « فأجاب بطرس حينئذ

---

(١) بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ١٨٣ : ٨

وقال له : هانحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فماذا يكون لنا ؟ فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم : انكم أنتم الذين تبعتمونى فى التجديد ، متى جلس ابن الانسان على كرسى مجده ، تجلسون أنتم أيضـــا على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط اسرائيل الاثنى عشر » (١) .

والرقم ذاته وارد فى القرآن ، ففى سورة الأعراف « وقطعناهم اثنتى عشرة أسباطا أمما ، وأوحينا الى موسى اذ استسقاه قومه أن اضرب بعصاك البحر فانبجست منه اثنتا عشرة عينا ، قد علم كل أناس مشربهم » ، وفى سورة المائدة « ولقد أخذ الله ميثاق بنى اسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبا ، وقال الله انى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضـــا حسنا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار » ، ونقرأ فى سورة الأعراف كذلك « واختار موسى من قومه سبعين رجلا لميقاتنا ، فلما أخذتهم الرجفة قال رب لو شئت أهلكتهم من قبل واياى ، أتهلكنا بما فعل السفهاء منا ، ان هى الا فتنتك تضل بها من تشاء وتهدى من تشاء أنت ولينا فاغفر لنا وارحمنا وأنت خير الغافرين » (٢) .

وفى سيرة رسول الاسلام كذلك وردت هذه الأرقام ، ففى بيعة العقبة الثانية بايع على الاسلام من الأنصار اثنا عشر : « فلما كان العام المقبل وافى الموسم من الأنصار اثنا عشر ـ منهم تســـعة من الخزرج ... وثلاثة من الأوس » ، « ثم كانت بيعة العقبة ثانيا ، وقد وافى الموســـــم خلق من الأنصار ما بين مشرك ومسلم ، فتسلل منهم جماعة مستخفين لايشعر بهم أحد واجتمعوا برسول الله صلى الله عليه وسلم فى ذى الحجة وواعـــدوه أوسط أيام التشريق بالعقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلا وامرأتان ... وأقام صلى الله عليه وسلم اثنى عشر نقيبا » (٣) .

***

حدث المسيح ولم يدون ...

وآثر المسيحيون الاولون السماع على القراءة ...

---

(١) مت ١٩ : ٢٧ ـ ٢٨

(٢) الأعراف : ٦٠ ، المائدة ١٢ ، الأعراف ١٥٥

(٣) المقريزى : امتاع الأسماع (طبعـــة لجنة التأليف والترجمة والنشر) ص ٣٣ : ٣٧ .

لكن المؤمنين تفرقوا ، واليونانيين وغيرهم ممن دخل فى الدين الجديد لم يكونوا يفهمون الآرامية ٠٠

فكان لابد من التدوين ٠٠٠ ومن هنا جاءتنا الأناجيل الأربعة ٠

فى أول الامر كانت كل المأثورات المعروفة عن المسيح : أقواله ومعجزاته وحياته والقصص المروية عن موته وقيامته ــ كلها أقوال شفوية متناقلة ٠ وحين كانت المسيحية تنتشر فى سوريا وآسيا الصغرى واليونان كانت قصص البشائر تتناقلها الشفاة واستمرت على ذلك قرابة ٣٥ عاما ٠ وانما جاء الدافع الى التدوين عند اضطهاد نيرون للمسيحيين اذ اجتمع شيوخ الكنيسة وكبارها فى خريف عام ٦٤ م وتذاكروا من افتقدوه من دعائم الكنيسة : وعلى رأسهم بطرس الذى صلب فى حدائق الفاتيكان ! ووجد المجتمعون أمامهم يوحنا الملقب (مرقس) زميل بطرس فى جهاده وكان قد هرب من الاضطهاد فكلفوه كتابة ما يستطيع أن يتذكره من أحاديث المسيح وتعاليمه ٠ وكتب مرقس بشارته ، وحذا غيره حذوه ٠ وتعددت البشائر ، ونسب بعضها الى من كانوا ينزعون الى (الغنوصية) وقيل أنهم حاولوا أن ينزعوا بالمسيحية نزعتهم ويدمجوها فى غيرها فاصطنعوا أناجيل منهـا : انجيل بطرس وانجيل المصريين وانجيل بازيليدس وانجيل توما لديها من أناجيل واعتمدت (الأناجيل الأربعة) واعتبرت ماسواها (بشائر أبو كريفية) غير معترف بها ٠

على أن (العهد الجديد) نفسه قد سجل حديثين للمسيح لاوجود لهما فى الأناجيل الاربعة ، ففى وداع بولس لشيوخ افسوس يقول : « متذكرين كلمات الرب يسوع أنه قال مغبوط هو العطاء اكثر من الاخذ ــ أعمال ٢٠/٣٥ »٠ وهو يستشهد بكلمات للمسيح لانجدها فى الاناجيل مثل « انى عالم ومتيقن فى الرب يسوع : ان ليس شيئا نجسا بذاته الا من يحسب شيئا نجسا فله هو نجس : رومية ١٤ : ١٤ » ونجد أحيانا روايات للنصوص بمعناها « أما المتزوجون فأوصيهم لا أنا بل الرب أنه لا تفارق المرأة رجلها ــ ١ كور ٧ : ١٠ » ويقابلها « فقال لهم من طلق امرأته وتزوج بأخرى يزنى عليها مر ١٠ : ١١ » واقتبس بولس من كلمات المسيح ما ورد فى ١ تس ٤: ١٦ « لأن الرب نفسه يهتف بصوت رئيس ملائكته وبوق الله سوف ينزل من السماء والاموات فى المسيح سيقومون أولا » ولا نظير لهذا القول الاخير فى كلمات المسيح المروية فى الاناجيل الاربعة ٠

وبعض النسخ القديمة من (العهد الجديد) تحوى أقوالا لاتوجد فى بقية الأصول التاريخية ، وهي غالبا أضيفت بقصد توضيح كلمة غامضة والى جانبها نجد ما هو معروف مقرر ٠ (١)

ومتى : عشار يهودى تبع المسيح وأصبح أحد الرسل الاثنى عشر ، ويستدل من أقوال بعض الآباء أن متى تولى تبشير اليهود فكتب انجيلة لهم بالآرامية ، بينما كان بطرس وبولس يعملان في روما (٥٠ : ٥٥ م) ، وفى تضاعيف الانجيل مايعزز أنه كتب لليهود ـ مثل اسناد نسب المسيح الى داود ووصل سيرة السيد بنبوءات التوراة ، وقد ضاع الأصل الآرامى وبقيت الترجمة اليونانية ٠

وكان بطرس يجهل اليونانية ولا يعرف سوى الآرامية فلما ذهب الى روما استدعى يوحنا الذى كان يدعى **مرقس** (٢) ليترجم بينه وبين سكان روما ، وكان مرقس من يهود قبرص يتكلم اليونانية ويقرأ ويكتب فالتحق ببرنابا وبولس ، وبعد وفاة الأول انتقل الى روما ودون سيرة المسيح بطلب من أهل روما بين عامى ٥٥ م ، ٦٠ م كما سمعها من فم بطرس ، دون تسلسل بل وفقا لاحتياجات القول ودواعيه ٠

وفى سنة ٦٤ م شعر دعاة المسيحية بالحاجة الى « سيرةمرتبة منظمة ، مكتوبة بلغة واضحة مضبوطة ، وبأسلوب رائق جذاب ، يستهوى العقول ، وينشط الهمم » ٠٠ وهنا جاء دور لوقا الطبيب الذى اطلع وسمع ، ورافق بولس فى رحلاته ، « فجاء انجيله تاريخياً رسمياً ، وأثراً أدبياً » ، وظهر هذا الانجيل بين عامى ٦٤ م ، ٧٠ م ، « ومن هنا جاء القول بأن انجيل لوقا هو انجيل بولس ، ويرى رجال الاختصاص علاقة وثيقة بين هذا الانجيل وبين سفر أعمال الرسل من حيث جوهر الرسالة واللغة والاسلوب ، فينسبون الاخير الى لوقا أيضا » ٠ وهكذا لم ينقل انجيلا مرقس ولوقا عن المسيح مباشرة ، بل الأول نقل عن بطرس والآخر عن بولس ٠

---

(١) يواكيم أرميا : أقوال المسيح غير المدونة فى بشائر الأنجيل ـ ترجمة دكتور عزت زكى ص ١٠ : ١٨

(٢) تشير المأثورات الكنسية الى أن البشير مرقس هو أول من أدخل المسيحية الى مصر وانه استشهد بالاسكندرية ، راجع يوسابيوس : تاريخ الكنيسة ، دكتور زاهر رياض : كنيسة الاسكندرية ، حبيب سعيد : عشرون قرنا .

ويجمع علماء الكنيسة أرثذوكسيين وكاثوليك على أن الانجيـــــل الرابع هو ليوحنا الحبيب ، « ويرون فى دقة المعلومات الجغرافيــــة التى وردت فيه عن القدس وفلسطين ، كما يرون فى شدة العاطفة التى تضمنها نحو شخص السيد ما يؤيد التقليد الموروث أن كاتب هذا الانجيل وسفر الرؤيا هو يوحنا الحبيب نفسه » (١) ٠

هذه هى الاناجيل الاربعة المتداولة ٠٠

والأناجيل مجموعة مذكرات ووقائع وأحاديث اختزنت فى عقول التلاميذ الاولين ولم يزاع فيها دائما الترتيب والتتابع الزمني وليس لدى الجيل الاول من المسيحيين سيرة تراعى هنا التتابع فى وقائع حياة المسيح٠ وكانوا فى الكنيسة يلقنون كل يوم أحد أجزاء متفرقة ويسمعون قصصا مروية ٠ وقــد عرفوا ترتيب أحداث (البداية) : التـجسد والمعمـودية والتجربة ، كمـا عرفوا ترتيب أحداث (النهـاية) : الرحلة الى أورشليم والمحاكمة والصلب والقيامة والصعود ٠ أما احداث الفترة المتوسطة فلم تبـوب ولم ترتب زمنيا ٠ « وظهرت الاناجيل المـكتوبة التى هى سجل الانجيل غير المسطور الذى تلقنه المسيحيون الاولون » ٠

والاناجيل الثلاثة الاولى يستمدها كتابها ممـا لقنه المسيحيون فى الاقاليم التى عاشوا فيها ، ومن المعلومات التى يدلى بها شهود العيان ، الى غير ذلك من المصادر ٠ والانجيل الاول كان (لمرقس) ويسهب فى حوادث الايام الجليلية وهو مستمد من بطرس الذى كان يدعو مرقس : ابنى ـ ويروى عن بابياس اسقف هيرابوليس عقب موت يوحنا أن مرقس ترجمان بطرس « كتب بدقة وان لم يكن بترتيب كل ما رواه بطرس عن المسيح ، **لان مرقس نفسه لم يسمع السيد ولم يكن تلميذا له بل لبطرس** الذى اعتاد أن يلقى تعاليم تناسب حاجات سامعيه لارواية مرتبة منسقة » ومن هنا قد يسمى هذا الانجيل بانجيل بطرس ٠ وقدم (متى) صورة مستعرضـــة لأقوال المسيح توسع فيها هو وغيره حتى صارت الانجيــل الحالى الذى بيدنا ، وفيه كثير من المواد التى جمعها مرقس ٠ وتلقى (لوقا) انجيله فى مجمع انطاكية ، وأخذ عن مرقص ومتى وعن مصادر أخـــرى ، وقد أفاد كثيرا من التلاميذ الاخرين الذين التقى بهم فى صحبته لبولس وبخاصـــة بالنسبة لذكريات الطريق الى أورشليم وقد يسمى انجيله بانجيــــل بولس (٢) ٠

---

(١) د. أسد رستم : الروم جـ ١ ص ٤٠ : ٢

(٢) تترسون سمث : حياة يسوع ــ ترجمة حبيب سعيد ص ١٠٣ ــ ٤ ، ٢٨ ٠

و(سفر الاعمال) هو القصة الوحيدة المتصلة التى انتهت الينـــا عن الفترة الاولى من التاريخ المسيحى ، والرسول بولس يقول فى رسالته الى كولوس (٤ : ١٤) أنها من صنع لوقا الطبيب المحبوب والايات الاستهلالية فى (انجيل لوقا) اهداء الى شخص غير معـــروف يدعى ثاوفيلس (وفى الاصل اليونانى يخاطبه المؤلف بعبارة تفخيم تدل على انه كبير المقام) وسفر الاعمال يخاطب ثاوفيلس أيضا ويشير الى (الكلام الاول) ٠ وهذا قد يعنى أن انجيل لوقا مع سفر الاعمال مؤلف من جزئين لكاتب واحد ٠ ولم تصلنا خاتمة هذا السفر ، ولا يعرض للحديث عن استشهاد بولس ولعل الجزء الذى وصلنا قد انتهى قبل موت بولس أى حوالى سنة ٦٠م وانه كان هذا يؤخر تاريخ كتابه انجيل لوقا عما هو عليه عند كثرة العلماء ٠ وسفر ٠٠٠

الاعمال أشبه (بيوميات) كتبت تباعا ويرجح ان لوقا لميكن يهوديا لانه بولس يذكره فى (كولوس ٤ : ١٤) بعد أن ذكر بعضا من صحابته (١١) العاملين معه وقال عنهم انه من المسيحيين اليهــود وعلى ذلك **يكون لوقا الوحيد بين كتاب أسفار الانجيل الذى اعتنق المسيحية من عالم الامم ٠** ويصور لوقا دعاة المسيحية فى نشرهم دعوتهم ، ويروى أعمال بطرس وبولس فى التبشير بالانجيل كما يصور النزاع بين اليهود والامم ويتناول (سفر الاعمال) أحداث ثلاثين عاما من ٣٠م الى عام ٦٠م (١) ٠

وقد قدم عدد من المسيحيين الأولين حتى العصور الوسطى طائفة من أقوال المسيح المتواترة بين الناس ٠ وكان بابياس أسقف هيرابوليس أول من حاول أن يجمع كلمات المسيح غير المدونة فى الأناجيل وقال عنه ايرانيوس انه سمع شخصيا يوحنا بن زبدى ٠ ولكن يذكر يوسابيوس مؤرخ الكنيسة انه أخطأ التمييز بين الصحيح والزائف ومن ذلك : « يخبرنا الشيوخ الذين سمعوا يوحنا تلميذ المسيح انه قال بأن الرب قال عن هذه الأوقات : هو ذا أيام تأتى حين تنموا كروم فى كل كرم عشرة آلاف فرع وفى كل فرع عشرة آلاف غصن وفى كل غصن عشرة آلاف محلاق وفى كل محلاق عشرة آلاف عنقود وفى كل عنقود عشرة آلاف حبة وكل حبة عنبة اذا عصرت تعطى خمسة وعشرين مكيالا من الخمر ٠٠ الخ » وهذا أسلوب شبيه بأسلوب كتـاب الادب اليهـــودى المتأخر فى بعض أجزاء

---

(١) د٠ مول : رسل المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ٩ : ١٣ أيضا د٠ بترسون سمث حياة يسوع ــ ترجمة حبيب سعيد ص ٢٨ ٠

التلمود (البراكرت السرياني) ونجد مرويات أخرى فى كتابات يوستن الشـــهيد وثيودوتس أحد تلاميذ فالنتينوس وتريليانوس وفى كتابات اكلمندوس الاسـكندرى وأوريجـانوس وابروتيموس واوغسطين على ان التلمود لا يعتبر من بين مصادر كلمات المسيح اذ تجاهل كتاب اليهود كل مايتعلق بالمسيح، وان كان يتضمن روايات لها دلالتها التاريخية٠ ومن ذلك ما روى عن الحبر اليعازار بن هيركانوس الذى عاش حوالى عام ٩٠ م وكان أحد كبار احبار اليهود ، اذ يقص قصة لقاء له مع تلميذ للمسيح وقد تقدم اليه هذا يسأله : اليس مكتوبا فى ناموسكم : لا تدخل اجرة زانية الى بيت الرب الهك بث (٢٣ : ١٨) فلماذا تستخدمون مثل تلك يعقوب يقول له : اسمع اذن ماعلمنى اياه يسوع الناصرى من عقر الزانية جمعتها والى عقر الزانية تعود (ميخا ١ : ٧) من النجـاسة أتت والى النجاسة تعود !

وقد اكتشف أثنان من الأثرين البريطانيين سنة ١٨٩١ فى حفائرهم البهنسا (اكسيرنيكوس) ورقة بردى طولها ١٥ سم وعرضها ٩سم مكتوبا على وجهيها باليونانية ويرجح أنها ترجع الى أواخر القرن الثانى الميلادى أو بعده بقليل وتحتوى على أقوال للمســيح غير معروفة يســـتهل كل منها بعبارة (قال يسوع) والقول الأول خاتمته « وحينئذ تبصر جيدا ان تخرج القذى من عين أخيك » وهو يشبه ماجاء فى انجيل لوقا (٦ : ٤٢) والقول الخامس «ليس نبى غير مقبول الا فى وطنه ولاطبيب يشفى معارفه» وهذه اضافة لما ورد فى انجيل لوقا (٤ : ٢٤) ومن الاقوال التى ليس لها ما يقابلها « ان لم تصوموا عن العالم لن تجدوا ملـــكوت الله ، وان لم تحفظوا السبت كما يجب أن يحفظ فلن تبصروا الآب» ٠ وفى عام ١٩٠٣ اكتشف الاثريون فى خرائب البهنسا برديتين أخريين تحتويان أقوالا للمسيح تستهل أيضا بعبارة ، (قال يسوع) ٠ وهذه الكلمات جميعهـا معروفة فى الاناجيل غير المعترف بها أو (الكتابات الابوكريفية) التى ليس لها مرتبة لاناجيل المعتمـدة فى الثبوت والحجية مثل انجيـل العبرانيين وانجيل المصريين أو انجيل توما ٠ وجاء فى القول الثانى : «يقول يسوع: ينبغى أن ذاك الذى يطلب لايكف حتى يجد وحينما يجد يمتلىء بالعجب ، وحين يمتلىء بالعجب سيملك ، وحينما يملك يستريح » ولا نجد فى هذا الكلام طابع أسلوب المسيح المعروف فى الاناجيل الاربعة وان كنا نجـد هناك فى انجيلى متى ولوقا « اطلبوا تجدوا » (مت ٧ : ٢٧ لو ١١ : ٩) : ونجد من بين الاقوال المنسوبة ما يشبه لغة الغنوصيين ٠٠٠ «من يستطيع

أن يزيد قامتكم انه يهبكم كساءكم • فقال له تلاميذه : متى تعلن ذاتك لنا ؟ ومتى نراك فقال : حينما تتجردون من ثيابكم ولا تخجلون » ! وقد ازدهرت (الغنوصية) في مصر في أوائل العصر المسيحي وكان من مبدئها العفة الجنسية والزهد المطلق كأساس للوصول الى السماء • وكان أهم اكتشاف في عالم البردي ســـنة ١٩٠٥ لوريقة من البردى لاتزيد عن ٨ر٨ × ٤ر٧ سم مكتوبة من الوجهين وتحوى كتابة يونانية من ٤٥ سطرا وترجع للقرن الرابع الميلادى ويبدو انها كانت تستعمل كحجاب • وفى سنة ١٩٣٥ اكتشفت صحيفة تحوى قصة موسعة لما ورد فى انجيل يوحنا من مناقشة المسيح لعلماء اليهود ويرجح انها من انجيل غير معروف ويبدو ان كاتبها كان يعرف الكثير عن الاناجيل الاربعة وانه كتب من الذاكرة ما استطاع أن يستوعبه مضيفا اليها كلمات للربط وان حال جهله دون بعض التفاصيل الهامة •

وفى احدى برديات البهنسا نجد هذه الكلمات منسوبة للمسيح

« اتيت فى وسط العالم

وفى الجسد ظهرت لهم

ووجدتهم جميعا سكارى

ولم أجد واحدا منهم ظمآنا (للحق)

ونفسى تئن فى لاجل بنى البشر

لأنهم عميان فى قلوبهم ولا يبصرون »

ولم ترد هذه الكلمات فى الاناجيل الاربعة ولكنها تسير مع ما ورد فى انجيل يوحنا « كان النور الحقيقى آتيا الى العالم ، كان فى العالم » (يو ١ : ٩ ــ ١٠) وما جاء فى الرسالة الاولى الى تيموثاوس (الله ظهر فى الجسد) (٣ : ١٦) واستخدام كلمة (سكارى) للاشارة الى الخطيئة تذكر بأسلوب بولس فى رسالته الاولى الى تسالونيكى (٥ : ٧) والثانية اليها أيضا (٤ : ٥) وأسلوب بطرس فى رسالته الاولى (١ : ١٣، ٤ : ٧، ٥ : ٨) • والبعض يعتقد بصحة نســـبة هذه الكلمات للمسيح استنادا لموضوعها •

ويروى اكليندوس الاســـكندرى قـولا لعله اقتبسه عن مجموعة من كلمات المسيح « اطلبوا الاشياء الاعظم والله يزيد لكم الاقل » وهو يوجد فى كتابات أوريجانوس ويوسابيوس وأمبروز ويقرب مما جاء فى

موعظة الجبل « اطلبوا أولا ملكوت الله وبره وهذه كلها تزاد لكم (مت ٦ : ٣٣ ، لو ١٢ : ٣١) • كذلك شاع فى الكنيسة الاولى «كونوا صيارفة مميزين حاذقين» ونسب للمسيح ولكتاب المسيحية • ومن بين ماورد فى برديات البهنسا «حيث هناك اثنان فهما ليسا بدون الله وحيث هناك واحد بمفرده أقول لكم أنا معه ••• ارفعوا الحجر تجدونى هناك ، شقوا الخشب هناك أنا » •

ويقال أن بعض الطوائف كانت تصطنع النصوص المروية عن المسيح تبريرا لتعاليمها وبخاصة (الغنوصيين) فمثلا نقرأ فى انجيل فيليبس « لقد عرفت نفسى ، ولقد جمعت نفسى من كل ركن ••• وجمعت الاعضاء المبعثرة فى الخارج ، وأنى لأعرف من أنت لانى انتمى الى القوات العليا »• كذلك يقال ان اليهود كانوا يصطنعون أقوالا ينسبونها للمسيح ويروونها فى التلمود للنيل منه • ونجد طائفة الابيونيين المعارضة للذبائح تروى قول المسيح : « شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم » على وجه آخر « هل اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم ؟ » وورد فى كتابات افرايم السريانى « لاتقتنوا شيئا على الأرض » بدلا من « لاتقتنوا ذهبا ولا فضه ولا نحاسا» على أن هناك بين أقوال المسيح غير المدونة فى الاناجيل الاربعة ما يرى بعض الباحثين أن لها « قيمتها التاريخية ، ولا يصل اليها النقد ويؤيدها التاريخ ، ومن ناحية الموضوع تستطيع أن تضعها جنبا الى جنب بلا حرج مع كلمات المسيح المدونة فى البشائر الاربع» وان فيها على كل حال ما يكشف عن بيئة فلسطين الدينية والاجتماعية وموقف المسيح من الناموس وبعض التقاليد اليهودية ، كما يكشف عن الخلافات الضخمة بين المسيح والفريسيين وفيها مزيد من العبارات الحكيمة التنبؤية وكذلك التعاليم الاخلاقية الاجتماعية (١) •

ومعنى الانجيل gospel ـ وفى الانجليزية القديمة godspel ـ (اخبار طيبة) ، واللفظ ترجمة للفظ اليونانى evangelion الذى يبدأ به انجيل مرقس (أخبار سارة ، وهى أن المسيح قد جاء وملكوت الله قد غدا قريب المنال •

وأقدم النسخ للقرن الثالث الميلادى ، ودرجع النسخ الأصلية الى ما بين عامى ٦٠ ، ١٢٠ م • وكان الكتاب قبل نهاية القرن الأول الميلادى

---

(١) يواكيم أرميا : أقوال المسيح غير المدونة فى بشائر الانجيل ص ١٣ : ٤٥ ، ٨٣ ـ ٤ ، ١٠٢ ، ١٠٤ ، ١١١

ينقلون عن العهد القديم لا الجديد ، ولا نجد اشارة لانجيل مسيحى قبل سنة ١٥٠ م الا عند Papias الذى كتب سنة ١٣٥ م يقول « يوحنا الأكبر قال ان مرقس ألف انجيله من ذكريات نقلها اليه بطرس ٠٠ ويضيف : وأعاد متى كتابة الكلمات بالعبرية » وقد كشف Hunt, Grenfell فى خرائب مدينة قديمة بمصر سنة ١٨٩٧ م ، ١٩٠٣ م عشرين قطعة من كلمات تتفق الى حد ما مع فقرات مماثلة فى الأنجيل ، ولاترجع البرديات الى ما قبل القرن الثالث ، وقد تكون نسخا من مخطوطات أقدم منها ٠

والرواية المأخوذ بها أن **انجيل متى أقدم الأناجيل** ــ وان كان هناك من النقاد والمؤرخين من يرى الأسبقية لانجيل مرقس ، ومن النقاد من يرجع الأول لتابع لمتى وليس للعشار نفسه ، ورواية المعجزات فيه أكثر ٠ ويرى ديورانت أن هذا الانجيل وان أحاط به بعض الشك « لكنه أشد الأناجيل الأربعة تأثيرا فى النفس واثارة للعاطفة ، ولا يسعنا الا أن نعده بين روائع الآداب العالمية ، وان لم يدرك ذلك كاتبه القديم » ٠

والبحث المقارن فى الاناجيل يقرر أن هناك ٦٠٠ آية مشتركة بين متى ومرقس، من بين آيات انجيل مرقس التى لاتزيد عن ٦٦١ عدا٠ ومن انجيل مرقس كذلك ٣٥٠ آية تكاد توجد بنصها فى انجيل لوقا ٠ أما الفقرات المشتركة بين متى ولوقا فهى اما أن تدل على أن لوقا أخذها عن متى ، أو تدل على أن الاثنين أخذاها عن أصل مشترك لم يعثر عليه ٠ ويشهد ديورانت « بمهارة أدبية للوقا ، تحمل على الظن بأن الانجيل أجمل ما ألف من الكتب » ٠

« وأناجيل متى ومرقس ولوقا يمكن الاحاطة بها بنظرة واحدة ، ذلك أن محتوياتها وحوادثها يمكن ترتيبها فى أعمدة متوازية والنظر اليها كلها مجتمعة ، وقد كتبت كلها باليونانية الدارجة ، ولم تكن نماذج طيبة فى النحو أو الصقل الأدبى ، بيد أن مافى أسلوبها السهل من قوة وايصال للمعانى عن أقرب طريق ، وما فى تشبيهاتها والصور التى ترسمها من وضوح ، وما فى الاحساسات التى تصورها من عمق ، وما فى القصص التى تحويها من روعة ــ كل هذا يكسبها حتى فى صورتها الأصلية الفجة جمالا فذا » ٠ !!

أما الانجيل الرابع فليس ترجمة ليسوع بقدر ماهو عرض للمسيح من وجهة النظر اللاهوتية ، بوصفه كلمة الله وخالق العالم ومنقذ البشرية ، وهو الانجيل الذى تضمنت نصوصه ذكرا صريحا لألوهية المسيح ٠

« وملاك القول أن ثمة تناقضا كثيرا بين بعض الأناجيل والبعض الآخر ، وأن فيها نقاطا تاريخية مشكوكا فى صحتها ، وكثيرا من القصص الباعثة على الريبة والشبيهة بما يروى عن آلهة الوثنيين ، وكثيرا من الحوادث التى يبدو أنها وضعت عن قصد لاثبات وقوع كثير من نبوءات العهد القديم ، وفقرات كثيرة ربما قصد منها تقديم أساس تاريخى لعقيدة متأخرة من عقائد الكنيسة أو طقس متأخر من طقوسها ...

لقد كان المبشرون بالانجيل يرون - كما يرى شيشرون وسالست وتاستوس - أن التاريخ وسيلة لنشر المبادىء الخلقية السامية ، ويبدو أن نقل الأناجيل للأحاديث والخطب معرض لما فى ذاكرة الأميين من ضعف وعيوب ولأخطاء النساخ ، (أو تصحيحهم) !!

فاذا سلمنا بهذا كله بقى الشىء الكثير ...

ان تناقض الأناجيل لا يتعدى التفاصيل الجزئية الى الحقائق العامة ، والثلاثة الأولى تتفق اتفاقا عجيبا وتعـرض فى مجموعها صورة منسقة للمسيح . ولقد دفعت حماسة الكشف كبار الناقدين الى أن يقيسوا صحة أقوال العهد الجديد بمقاييس لو طبقت على مئات من العظماء الاقدمين أمثال حمورابى وداود وسقراط لزالوا من عـالم الحقـائق وهووا الى عالم الخرافات !! **والمبشرون بالانجيل - رغم التحيز والميل والأفكار الدينية السابقة - يسجلون كثيرا من الحادثات كان يخفيها الملفقون** : كتنافس الرسل على المنازل العليا فى ملكوت الله ، وفرارهم بعد قبض يسوع ، وعجز المسيح عن الاتيان بالمعجزات فى الجليل ، واشارة بعض من سمعوه الى احتمال جنونه ، وتشككه الأول فى رسالته ، واعترافه بجهل أمر المستقبل ، ولحظات حقده على أعدائه ، وصيحة يأسه على الصليب !!.. من يطلع على هذا لا يشك فى أن وراءها شخصية تاريخية حقة .

ولو أن عددا قليلا من الرجال السذج قد اخترعوا فى مدى جيل واحد هذه الشخصية الجذابة ، وهذه المبادىء الأخلاقية السامية ، وهذه النظرية الأخوية الملهمة - لكان عملهم هذا معجزة أبعد عن المعقول من اية معجزة تسجلها الأناجيل !!

والخطوط الرئيسية فى سيرة المسيح وأخلاقه وتعاليمه تبقى بعد قرنين من النقد الشديد واضحة معقولة ، لتكون أروع ظاهرة فى تاريخ القرنين وأكثرها فتنة للألباب » (١) .

هذا هو رأى مؤرخ الحضـــارة الأستاذ ديورانت ، وقد ألمعنا فى التقديم الى رأى الأستاذ العقاد وهو أديب مسلم وباحث أوتى مقدرة ممتازة على الاستيعاب والتحليل ، وله مؤلفات عدة انتصر فيها للتدين عموما وقدم دراسات تحليلية لشخصيات الأنبياء : ابراهيم وعيسى ومحمد ، وكثير من صحابة رسول الاسلام . ونضيف الى ماذكرنا من أقواله فى هذا الصدد قوله : « وتسقط دعوى الناقدين ـ المشككين حتى فى المسيح نفسه ـ بمجرد الاحاطة بأصول المذاهب التى كانت معروفة فى عصر الميلاد ، لأن **الدعوة المسيحية كانت تعديلا لكل مذهب من هذه المذاهب فى ناحية من نواحيه ، وكانت هذه التعديلات فى جملتها تثوب الى وحدة متماسكة من القواعد والمثل العليا ـ لابد لها من (شخصية) مستقلة عن هذه المذاهب جميعا ، قادرة على عرض شعائرها وعقائدها على محك واحد متناسق الفكر والايمان** ... أما رأينا نحن فى امكان المعجزات فهو رأينا فى امكان جميع الأسباب ، فان العقل قاصر عن تعليل الحوادث بأسبابها ، وليس من العقل أن يقال أن هذه الاسباب المسماة بالطبيعة هى العوامل الفعالة فى ايجاد الاسباب ، وأصح مايقال فيها قول الغزالى : ان الاسباب والمسببات تحدث معا ، ولا تزيد علاقتها بعضها ببعض على علاقة المصاحبة والتوافق فى الاوقات ، والا لزم أن تكون المادة ألوفا من المادات كل منها مستقل بخصائصه ومؤثراته وعلاقته بالمواد الأخرى ـ ولا يقول بذلك عقل سليم . فاذا كان العقل لا يعقل الأسباب الطبيعية ، فمن الشطط أن يتعجل بانكار المعجزات والجزم باستحالتها ...

وبعد ، فمن الحق أن نقول : **ان معجزة المسيح الكبرى هى هذه المعجزة التاريخية التى بقيت على الزمن ولم تنقض بانقضاء أيامها فى عصر الميلاد : رجل ينشأ فى بيت نجار فى قرية خاملة بين شعب مقهور ، يفتح بالكلمة دولا تضيع فى أطوائها دولة الرومان** ، ولا ينقضى عليه من الزمن فى انجاز هذه الفتوح ما قضاه الجبابرة فى ضم اقليم واحد ، وقد يخضع الى حين ثم يتمرد ويخلع لنير ، ولا يخضع كما خضع الناس للكلمة بالقلوب والاجسام » (٢) ...

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ (قيصر والمسيح) ـ ترجمة بدران ص ٢٠٦ : ٢١١

(٢) العقاد : عبقرية المسيح (كتاب اليوم) ص ٢١ ، ١٩٦ ـ ١٩٧ .

« ويعلمه الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، ورسـولا الى بنى اسرائيل انى قد جئتكم بآية من ربكم انى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا باذن الله ، وأبرىء الاكمه والابرص وأحيى الموتى باذن الله ، وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم ، ان فى ذلك لآية لكم ان كنتم مؤمنين ٠ ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولاحل لكم بعض الذى حرم عليكم ، وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون ان الله ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم ٠ فلما أحس عيسى منهم الكفر قال : من أنصارى الى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله آمنا بالله ، واشهد بأنا مسلمون ٠ ربنا آمنا بما أنزلت ، واتبعنا الرسول ، فاكتبنا مع الشاهدين » (١) ٠

---

(١) آل عمران : ٤٨ ــ ٥٣ ٠

صوت ... صارخ في البرية

« وفى تلك الأيام جاء يوحنا المعمدان يكرز فى برية اليهود ، قائلا : توبوا لأنه قد اقترب ملكوت السموات ...

كما هو مكتوب فى الأنبياء : ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهىء طريقك قدامك ...

كما هو مكتوب فى سفر أقوال أشعياء النبى القائل : صوت صارخ فى البرية : أعدوا طريق الرب، اصنعوا سبله مستقيمة ، كل واد يمتلىء ، وكل جبل أكمة ينخفض ، وتصير المعوجات مستقيمة ، والشعاب طرقا سهلة ، ويبصر كل بشر خلاص الله ... »

(مت ٣ : ١ ـ ٣ ، مر ١ ـ : ٢ ـ ٣ ، لو ٣ : ٢ ـ ٦ ، يو ١ : ٢٣) .

تعاصر الأنبياء

فى تاريخ النبوات ، كثيرا مايتعاصر الأنبياء ..

«وابراهيم اذ قال لقومه : اعبدوا الله واتقوه ، ذلكم خير لكم ان كنتم تعلمون ... فآمن له لوط ، وقال انى مهاجر الى ربى ، انه هو العزيز الحكيم . ووهبنا له اسحق ويعقوب ، وجعلنا فى ذريته النبوة والكتاب ، وآتيناه أجره فى الدنيا وانه فى الآخرة لمن الصالحين (١) » .

ويتعاصر الأنبياء ويكونون أحيانا من أسرة واحدة ، ومن هنا تعاصر داود وسليمان ، وتعاصر موسى وهرون ، كما تعاصر ابراهيم واسماعيل واسحق ، ويعقوب والأسباط ... وهكذا .

« والأنبياء فى بنى اسرائيل لم يكن وجودهم ندرة ، ولم يكن بينهم فترة ... أو لم يكن حتما لزاما أن تكون بينهم فترة ، كما جاء فى سفر الملوك الأول حيث جمع ملك اسرائيل (الأنبياء نحو أربعمائة رجل وسألهم : أأذهب الى رامة جلعاد للقتال ؟) . وخير ما ورد فى وصف مكان الأنبياء بين بنى اسرائيل قول النبى محمد صلوات الله عليه : (علماء أمتى كأنبياء بنى اسرائيل) ، فقد كان عمل النبى فى شعب اسرائيل كعمل العالم الفقيه ،، ولم يكن من المستغرب أن يسمع بهم الخاصة والعامة فى وقت من الاوقات ، ولم يكن قيامهم انكارا لقيام الانبياء من قبلهم ، بل هو تفسير للكتب والنذر ، وحض على اتباع السنن التى رسمها لهم من قبل ابراهيم وموسى ويعقوب وغيرهم من الانبياء السابقين ... ولعلنا نصف الحالة حق وصفها حين نقول ان القوم كانوا يبحثون عن الأنبياء ويترقبونهم ، ولا يعتبرون ظهورهم خارقة يستهولونها أو يستغربون تكرارها (٢) » .

ومن الأنبياء من يمهد الطريق لمن بعده ، ويعد الناس لاستقبال

---

(١) العنكبوت : ١٦ ، ٢٦ – ٢٧ .

(٢) العقاد : عبقرية المسيح (كتاب اليوم) ص ١٦ ، ١٩ .

النبوة فى ذريته أو فى غيرها « واذا ابتلى ابراهيم ربه بكلمات فأتمهن ، قال انى جاعلك للناس اماما ـ **قال ومن ذريتى ؟** ـ قال لا ينال عهدى الظالمين (١) » · ولقد توجه ابراهيم واسماعيل الى الله بالدعاء أن يبتعث من ذريتهما رسولا « ربنا وابعث فيهم رسولا منهم ، يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم ، انك أنت العزيز الحكيم (٢) » · ولقد بشر المسيح ـ عند أهل القرآن ـ برسول من بعده « واذ قال عيسى بن مريم يابنى اسرائيل انى رسول الله اليكم ، مصدقا لما بين يدى من التوراة ، ومبشر برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد (٣) » ·

كذلك كان يوحنا بالنسبة للمسيح ، بشارة واعداد ···

ونحن نجد فى القرآن تشابها وتجانسا بين كلمات (يحيى) وكلمات المسيح :

« يا يحيى خذ الكتاب بقوة ، وآتيناه الحكم صبيا · وحنانا من لدنا وزكاة وكان تقيا · وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا · وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا » ·

« قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا · وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا · وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا · والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا · ذلك عيسى بن مريم » (٤) ·

---

(١) البقرة : ١٢٤
(٢) البقرة : ١٢٩
(٣) الصف : ٦
(٤) مريم : ١٢ : ١٥ ، ٣٠ : ٣٤

يوحنا... بين يدى المسيح

فلنستمع اذن الى **يوحنا** ، يصرخ فى البرية ...

كان يوحنا فى صرخته خير تقدمة بين يدى رسالة المسيح ، كذلك كان فى تعاليمه وسيرته ، وفى بشارته ونذارته ...

« فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون الى معموديته قال لهم : يا أولاد الافاعى ، من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى ، فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة . ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا ابراهيم أبا ، لانى أقول لكم ان الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لابراهيم !! والآن قد وضعت الفأس على أصل الشجر ، فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار » (١) .

هكذا صرخ يوحنا فى الفريسيين والصدوقيين ... وقد تطاولت دعاواهم بأنهم أولاد ابراهيم وكفى ، وصدق الله حيث يقول فى القرآن فى نفس القضية « ان أولى الناس بابراهيم للذين اتبعوه ، وهذا النبى ، والذين آمنوا ، والله ولى المؤمنين » « ليس بأمانيكم ولا أمانى أهل الكتاب ، من يعمل سوءا يجز به ، ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » . (٢)

ونفس الصرخة صرخها المسيح بعد يوحنا :

« ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تشبهون قبورا مبيضة ، تظهر من الخارج جميلة ، وهى من الداخل مملوءة عظام أموات وكل نجاسة !! هكذا أنتم أيضا ، من خارج تظهرون للناس أبرارا ، ولكنكم من داخل مشحونون رياء واثما ! ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تبنون قبور الأنبياء وتزينون مدافن الصديقين ، وتقولون لو كنا فى أيام آبائنا لما شاركناهم فى دم الأنبياء !! وأنتم تشهدون على

---

(١) مت ٣ : ٧ – ١٠ ، لو ٣ : ٧ – ١٠

(٢) آل عمران : ٦٨ ، النساء ١٢٣

أنفسكم أنكم أبناء قتلة الأنبياء ، فاملأوا أنتم مكيال آباءكم !! أيتها الحيات أولاد الأفاعى ، كيف تهربون من دينونة جهنم ؟ لذلك ها أنا أرسل اليكم أنبياء وحكمـــاء وكتبة ، فمنهم تقتلون وتصلبون ، ومنهم تجلدون فى مجامعكم ، وتطردون من مدينة الى مدينة ، لكى يأتى عليكم كل دم زكى سفك على الأرض ـ من دم هابيل الصديق الى دم زكريا بن برخيا الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح ـ الحق أقول لكم : ان هذا كله يأتى على هذا الجيل · يا أورشليم يا أورشليم · يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين اليها !! كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة أفراخها تحت جناحيها ـ ولم تريدوا ، هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا ، لانى أقول لكم : انكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا : مبارك الآتى باسم الرب » (١) ·

نذير مبين ، وبيان رائع ···

« ولقد آتينا موسى الكتاب وقفينا من بعده بالرسل ، وآتينا عيسى ابن مريم البينات وأيدناه بروح القدس ، أفكلما جاءكم رسول بما لا تهوى أنفسكم استكبرتم ، ففريقا كذبتم ـ وفريقا تقتلون !! ؟ » (٢) ·

***

كان يوحنا تقديما للمسيح بسيرته ، كما كان تقديما له بتعاليمه·· كان زاهدا بسيطا : « ويوحنا هذا كان لباسه من وبر الابل وعلى حقويه منطقة من جلد ، وكان طعامه جرادا وعسلا بريا » (٣) · وقد كابد العنت من اليهود ، كما لقى العسف من السلطة ·· كان صريحا لا يداهن ولا يرائى : « وسأله الجموع قائلين : فماذا نفعل ؟ فأجاب وقال لهم : من له ثوبان فليعط من ليس له ، ومن له طعام فليفعل هكذا · وجاء عشارون أيضا ليعتمدوا ، فقالوا له يامعلم ماذا نفعل ؟ فقال لهم : لاتستوفوا أكثر مما فرض لكم · وسأله جنديون أيضا قائلين : ماذا نفعل نحن ؟ فقال لهم : لا تظلموا أحدا ، ولا تشوا بأحد ، واكتفوا بعلائفكم » (٤)

ولم يكتف يوحنا بتنظيف أدنى درجات السلم ، بل أصر على أن

---

(١) مت ٢٣ : ٢٧ ـ ٣٩ ، وقد اختلفت الآراء في زكريا بن برخيا ، ويرجح القديس ايرونيموس أنه زكريا بن يوداياع الذى قتله الملك يوآش بين القدس ومذبح المحرقات ـ كما ورد فى سفر أخبار الأيام الثانى (٢٤ : ٢٠ ـ ٢٢) ، اذ من المحتمل ان يوداياع كان يحمل اسم برخيا ، أو أن يوداياع كان جدا لزكريا (لويس برسوم : حياة يسوع المسيح جـ ٢ ص ١٠٣) ·

(٢) البقرة : ٨٧

(٣) مت ٣ : ٢٤ ، مر ١ : ٦

(٤) لو ٣ : ١٠ ـ ١٤

يطهر السلم من أعلاه « ... كان يقول لهيرودس : لا يحل لك امرأة أخيك ، فحنقت هيروديا عليه ... » ـ الى آخر هذه المأساة التى تقدمت في الاطار التاريخى من فصول هذا الكتاب .

سيرة يوحنا اذن صورة لسيرة المسيح من بعده ، وما سيلقاه المسيح من بعده .. وتمخض كفاح المعمدان عن رأسه فوق طبق ، وانتهى كفاح المسيح باصدار حكم اعدامه على خشبة الصليب !!

« وكانت يد الرب معه ، وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ قائلا : مبارك الرب اله اسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه ، وأقام لنا قرن خلاص فى بيت داود فتاه ، كما تكلم بفم أنبيائه القديسين الذين هم منذ الدهر . خلاص من أعدائنا ، ومن أيدى جميع مبغضينا !! ليصنع رحمة مع آبائنا ، ويذكر عهده المقدس ـ القسم الذى حلف لابراهيم أبينا أن يعطينا : اننا بلا خوف ، منقذين من أيدى أعدائنا ، نعبده بقداسة وبر قدامه جميع أيام حياتنا . وأنت أيها الصبى ، نبى العلى تدعى ، لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتعد طرقه ، لتعطى شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم ، بأحشاء رحمة الهنا التى بها افتقدنا المشرق من العلاء ، ليضئ على الجالسين فى الظلمة وظلال الموت ، لكى يهدى أقدامنا فى طريق السلام (١) » .

***

ثم كان يوحنا يحمل بشارة صريحة بالمسيح ...

« أنا أعمدكم بماء للتوبة ، ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى ، الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه ، هو سيعمدكم بالروح القدس ونار ، الذى رفشه فى يده وسينقى بيدره ويجمع قمحه الى المخزن ، وأما التبن فيحرقه بنار لا تطفأ(٢) » .

لقد كان انتظار المسيح يدفع الناس الى أن يتساءلوا : هل يوحنا هو المسيح ؟ فما كان يتركهم فى هذا لابهام أو ايهام : « واذ كان الشعب ينتظر ، والجميع يفكرون فى قلوبهم عن يوحنا لعله المسيح ، فأجاب يوحنا الجميع قائلا : أنا أعمدكم بماء ، ولكن يأتى من هو أقوى منى ... الخ » ، « فسألوه وقالوا له : فما بالك تعمد ان كنت لست المسيح ولا ايليا ولا النبى ؟ أجابهم يوحنا قائلا : أنا أعمد بماء ، ولكن فى وسطكم

---

(١) لو ١ : ٦٦ ـ ٧٩ .
(٢) مت ٣ : ١١ ـ ١٢ ، لو ٣ : ١٦ ـ ١٧ .

قائم الذى لستم تعرفونه ، هـو الذى بعدى الذى صار قدامى(١) • »
فيوحنا يعرف جليا أنه تقدمه بين يدى للمسيح •••• ويصرح بذلك •

ولكن هل كان يعرف المسيح بشخصه وعينه ، أم بوصفه المرتقب وحسب ؟

في انجيل متى : « حينئذ جاء يسوع من الجليـــل الى الاردن الى يوحنا ليعتمد منه ، ولكن يوحنا منعه قائلا : أنا محتـــاج أن اعتمد منك وأنت تأتى الى ؟؟ فأجاب يسوع وقال له : اسمح الآن ، لأنه هكذا يليق بنا أن نكمل كل بر • حينئذ سمح له ، فلما اعتمد يسوع صعد للوقت من الماء (٢) » • لكننا نجد فى انجيل لوقا خبرا آخر عن يوحنا ، بعد أن ظهرت رسالة المسيح وفشت معجزاته : « فأخبر يوحنا تلاميذه بهذا كله، فدعا يوحنا اثنين من تلاميذه وأرسل الى يسوع قائلا : أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟ فلما جاء اليه الرجلان قالا : يوحنا المعمدان قد أرسلنا اليك قائلا : أنت هو الآتى أم ننتظر آخر ؟؟ وفى تلك الساعة شفى كثيرين من أمراض وأدواء وأرواح شريرة ، ووهب البصر لعميان كثيرين • فأجاب يسوع وقال لهما : اذهبا وأخبرا يوحنا بما رأيتما وسمعتما ، ان العمى يبصرون والعرج يمشــون والبرص يطهرون ، والصم يســمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون ، وطوبى لمن لا يعثر فى (٣) » •

وعلى أثر هذا انبرى المسيح يخطب ، يعرف نفسه بعد أن قدمتــه عجائبه ، ويشيد بسلفه يوحنا الذى حمل البشارة به : « فلمـــا مضى رســـولا يوحنا ابتــدأ يقــول للجمـــوع عن يوحنــا ، ماذا ؟ خرجتم الى البرية لتنظروا انسانا لابسا ثيابا ناعمة ؟ هو ذا الذين فى اللباس الفاخر والتنعم ، هم فى قصور الملوك ، بل ماذا خرجتم لتنظروا ؟ أنبيا ؟ نعم أقول لكم ـ و أفضل من نبى ، هذا هو الذى كتب عنه : ها أنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيىء طريقك قدامك ، لأنى أقول لكم انه بين المولودين من النساء ليس نبى أعظم من يوحنا المعمدان ، ولكن الأصـــغر فى ملكوت الله أعظم منه • وجميع الشعب اذ سمعوا والعشارون بروا الله معتمدين بمعمودية يوحنا ، وأما الفريسيون والناموسيون فرفضوا مشورة الله من جهة أنفسهم غير معتمدين منه » (٤) •

---

(١) لو ٣ : ١٥ ، يو ١ : ٢٥ ـ ٢٧ •
(٢) مت ٣ : ١٣ ـ ١٦ •
(٣) لو ٧ : ١٨ ـ ٢٢ •
(٤) لو ٧ : ٢٤ ـ ٣٠ •

والمسيح يشير أحيانا فى مواعظه الى يوحنا ويحاج اليهود به : « وفى أحد تلك الأيام اذ يعلم الشعب فى الهيكل ويبشر ، وقف رؤساء الكهنة والكتبة مع الشيوخ وكلموه قائلين : قل لنا بأى سلطان تفعل هذا ، أو من هو الذى أعطاك هذا السلطان ؟ فأجاب وقال لهم : وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة ، فقولوا لى : معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس ؟ فتآمروا بينهم قائلين : ان قلنا من السماء يقول فلماذا لم تؤمنوا ، وان قلنا من الناس فجميع الشعب يرجموننا لأنهم واثقون بأن يوحنا نبى ! فأجابوا : أنهم لايعلمون من أين ، فقال لهم يسوع : ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا » (١) .

والمسيح يقارن بين مسلكه وبين مسلك يوحنا ، وينعى على تكذيب الناس له وليوحنا : « وبمن أشبه هذا الجيل ؟ يشبه أولادا جالسين فى الأسواق ينادون الى أصحابهم ويقولون : زمرنا لكم فلم ترقصوا ، نحنا لكم فلم تلطموا ... لأنه جاء يوحنا لايأكل ولا يشرب ، فيقولون فيه شيطان !! جاء ابن الا نسان يأكل ويشرب ، فيقولون هو ذا انسان أكول وشريب خمر ، محب للعشارين والخطاه !! » (٢) .

وهكذا كان يوحنا والمسيح من طبعتين متباينتين ، ويوضح هذا الاستاذ العقاد بقوله : « السيد المسيح طبيعة أخرى غير طبيعة يحيى ابن زكريا ، فلم يكن متأبدا ولا نافرا من الناس ، بل كان يمشى مع الصالحين والخاطئين ، وكان يشهد الولائم والاعراس ، ولم يكن يكره التحية الكريمة التى تصدر من القلب ولو كانت فيها تفقة وكلفة ... هذه السماحة قد اصطدمت بعماية الشهوات وعناد الغرور، كما اصطدمت بهما تلك الصرامة (من يحيى أو يوحنا) ... رسالة قد استوفت تجربتها بل تجربتيها ، وخرجت من التجربتين معا انسانية عالمية تنادى من يستمع اليها ، وتعرض عمن أعرض عن دعوتها بل دعوتها : دعوة الغيرة الصارمة الابية ، ودعوة الغيرة السمحة الرضية » (٣) ويقول بترسون سميث « كان يوحنا انسانا متحمسا يتطاير الشرر من عينيه ، بوجه ناحل قد أعياه الزهد والتقشف واقف على النهر يسكب نفسه سكبا وحركة جهور من الناس بدت عليهم أمارات الثورة الفكرية العامية والحيرة والتساؤل واستولت على كثرتهم عاطفة دينية أخاذه يئنون أنين التوبة...

---

(١) لو ١٠ : ١ – ٨ .

(٢) مت ١١ : ١٦ – ١٩

(٣) العقاد : عبقرية المسيح (كتاب اليوم) ص ١١٦ – ١١٧ .

ولابد انه تلاقى مع المسيح فى الطفولة ولكن لم يتلاقيا فى الرجولة ، وارجح انه لم يكن يدرى ما اذا كان المسيا موجودا على الارض أم سيجىء من السماء بغتة وبقوة ومجد عظيم » (١) ٠

«وحدثت مباحثة من تلاميذ يوحنا مع يهود من جهة التطهير، فجاءوا الى يوحنا وقالوا له : يامعلم ، هو ذا الذى كان معك فى عبر الاردن الذى أنت شهدت له هو أن يعمد والجميع يأتون اليه ، فأجاب يوحنا وقال : لا يقدر انسان أن يأخذ ان لم يكن قد أعطى من السماء !

أنتم أنفسكم تشهدون لى أنى قلت لست أنا المسيح ، بل انى مرسل أمامه ٠٠٠٠ من له العروس فهو العريس ، وأما صديق العريس الذى يقف ويسمعه فيفرح فرحا من أجل صوت العريس ! اذن فرحى هذا قد كمل ، ينبغى أن ذلك يزيد وأنى أنقص ! الذى يأتى من فوق هو فوق الجميع ، والذى من الأرض هو أرضى ومن الأرض يتكلم ! الذى يأتى من السماء هو فوق الجميع وما رآه وسمعه به يشهد ، وشهادته ليس أحد يقبلها ، ومن قبل شهادته فقد ختم أن الله صادق ، لأن الذى ارسله الله يتكلم بكلام الله ، لانه ليس بكيل يعطى الله الروح ٠ الآب يحب الابن وقد دفع كل شىء فى يده ٠ الذى يؤمن بالابن له حياة أبدية ، والذى لا يؤمن بالابن لن يرى حياة ٠٠٠ بل يمكث عليه غضب الله» (٢)٠

---

(١) بترسون سميث : حياة المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ٥٣

(٢) يوم ٣ : ٢٥ ـ ٢٦ ٠

المعمودية

وارتبط اسم (يوحنا) بطقس (المعمودية) ، فكان يوحنا المعمدان ومعمودية يوحنا هي الأخرى تصرخ في البرية مع صوته : طقس من طقوس الطهارة الحسية يغسل عن البشر أدران الجسد ، ويوقظهم لتطهير القلوب والأرواح .

ولم تخل الاديان من هذه (الرمزيات) ، تهمز أتباعها ليكونوا دائما ذاكرين ، وتخرجهم عن (روتين) الحياة المألوفة بعمل غير مألوف ، لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا ...

ولقد جاء الاسلام بعدئذ يتضمن بين أحكامه الكثير عن الطهارة ... وفيه الاغتسال والوضوء . وليست هذه الطقوس شكلا ومظهرا ، أو اعناتا ومشقة : « ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج ، ولكن يريد ليطهركم ، وليتم نعمته عليكم لعلكم تشكرون . واذكروا نعمة الله عليكم وميثاقه الذى واثقكم به اذ قلتم سمعنا وأطعنا ، واتقوا الله ، ان الله عليم بذات الصدور (١) . » وهكذا لم تأتت طقوس العبادات ، الا تذكرة بالرب المعبود .

والمسيحية جاءت تحذر الناس من (تجميد الدين) فى الطقوس والأشكال ـ وسنعالج هذا فى فصل قادم ، وحسبنا أن نقول الآن : ان يوحنا أشار اشارة واضحة صريحة الى انه هو يعمد بماء ، لكن الذى يأتى بعده « سيعمدكم بالروح القدس ونار » !

***

وما كان يوحنا وحده هو الصارخ فى البرية ... وانما كان **واقع الحياة** يصرخ وقتها ارهاصا بالحدث الجديد ...

العالم الرومانى تهدده انثيالات البرابرة فى أطرافه ، وتنحر

---

(١) المائدة : ٦ ـ ٧ .

أزمات الحكام والمحكومين فى داخله ، وتلح عليه جوعته العقلية النفسية تطلعا لغذاء فكر وروح ، بعد أن تخمت البطون وترفت الأجساد ... واليهود تناحرت طوائفهم وتفاقمت انحرافاتهم ...

« ويضاف الى هذا أن عصر الميلاد قد شهد فى فلسطين طوائف شتى من الاساة الذين يطببون المرضى بالعلاج الروحانى ، ويعتمدون على قوة الايمان وطهارة المعيشة فى التطبيب والعلاج . واذا قلنا ان عصر الميلاد قد شهد عصرا مهيض الأعصاب ، فنحن نلتفت التفاتا خاصا الى هذه الظاهرة التى تشير الى الحالة النفسية فى جملتها ، فليس أحوج من عصر كذلك العصر الى السكينة وثقة الايمان ... فلم يأت أوان الرسالة المسيحية حتى كانت قد سبقتها رسالات تمهد لها وتعمل فى وجهتها عمل الرواد السابقين ، وقد كان أقوى هؤلاء الرواد يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان – وان لم يكن هو الرائد الوحيد فى طريق الرسالة والنبوة – فجعل للتطهير رمزا من الاغتسال بالماء ...

وكثر الحديث بين الناس عن الارباب والاديان والمذاهب والعقائد ، وتبادل المفكرون والفلاسفة البحث فيها بعد انتقال مدارس الحكمة والعلم الى الاسكندرية ، وتلاقى الحكماء والعلماء فيها من كل مذهب وكل عقيدة ، وتعود الناس أن ينظروا الى الأمور نظرة عالمية وبخاصة بين أهل الدرس والتأمل والمطالب الروحية ...

ان عصر الميلاد قد شهد عدة موجات دينية تجرى من الشرق وتغمر بلاد الدولة الرومانية نفسها ، ومنها العاصمة الكبرى ...

والدلالة الكبرى التى تتجمع من شيوع هذه النحل فى عصر الميلاد أنها : **أولا** : علامة على طلب الاعتقاد ، واحساس المخلصين المستعدين للايمان بما يحيط بهم من الخواء فى جو التقاليد والمعتقدات . وأنها : **ثانيا** : علامة الوجهة العالمية التى أخذت تسرى فى أنحاء العالم المعمور ، وتؤلف بين أبناء الأمم المختلفة فى طلب العقائد الروحية ...

وكانت المذاهب الفكرية التى يتحدث بها المثقفون شائعة فى بلاد الجليل حيث ولد السيد المسيح ، وحيث اختلط الغربيون والشرقيون – وأكثرها الفيثاغورية والأبيقورية والرواقية ... وهذه المذاهب الثلاثة تتلاقى فى غاية واحدة : هى طلب السكينة والراحة ، الا أن الفيثاغورية التى ظهرت قبل عصر الترف والسلطان كانت أقرب الى الروحانية والمزج بين عقائد الأمم المختلفة من اليونان والمصريين والفرس والهنود ،

وهى جميعا أقرب الى النشأة الشرقية لأنها نشأت بين قبرص وآسيا الصغرى ...

وتواريخ الأديان جميعا تثبت الحقيقة الواضحة : اطراد السنن الكونية فى الحوادث الانسانية الكبرى ، فلا يحدث طور من أطوار الدين أو الدنيا الا سبقته مقدماته التى تمهد لحدوثه وجاء سريانه فى العالم على وفاق لوازمه ودواعيه ، وليست المسيحية شذوذا عن هذه القاعدة ... فما هى آفة العصر التى برزت فى التاريخ ، واتفقت عليها أوصاف المؤرخين الذين توقعوا الانقلاب فيه من طريق الدين أو من غير طريق الدين ؟

كانت له آفتان بارزتان : احداهما تحجر الأشكال والأوضاع فى الدين والاجتماع ، والأخرى سوء العلاقة بين الأمم والطوائف مع اضطرارها الى المعيشة المشتركة فى بقعة واحدة من العالم المعمور ــ وعلى الخصوص تلك الأقاليم التى نسميها اليوم بالشرق الأدنى • تحجرت الاشكال والاوضاع وغلبت المظاهر على كل شىء ، فكل معنى الحياة عندهم سمت وزينة وأبهة و محافل وشارات ، وانتقلت الحضارة من الداخل الى الخارج ــ أو من النفس الى الجسد ، كما يحدث دائما فى أعقاب الحضارات : تبدأ فى عالم الفكر والوجدان ، ثم تستفيض العمارة فتميل الى التجسم والتضخم وتفقد من قوة النفس والضمير بمقدار ما تكسب من مظاهر المادة والمال • تجمعت الثروة والكسل فى ناحية ، وتجمعت الفاقة والجهد المرهق فى ناحية أخرى !! فغرق السادة فى الترف وغرق العبيد والأرقاء فى الشقاء ، وفسدت حياة هؤلاء وهؤلاء !! وتحجر نظام المجتمع فأصبح أشكالا ومراسم خلوا من المعنى والغاية ، وتحجرت معه الشرائع والقوانين فلم يكن غريبا أن تنقش على حجارة، وأن يرتفع ميزانها فى يدى عدالة معصوبة العينين ، وأن تفرغ الكفتان فتستويان لانهما فارغتان !! وتحجرت العقائد الوثنية فى الدولة الرومانية ، وتحجرت العقائد الكتابية بين بنى اسرائيل فأصبح فرق الشعرة بين النصين يقيم الحرب الحامية على قدم وساق ، وأصبحت التقوى علما بالنصوص وبحثا عن مراسم الشريعة ، وغلب المظهر على المتشبثين بالنصوص والمتصرفين فيها ، فلا خلاف بينهم فى طلب المظهر وان اختلفوا على اللفظ والتأويل • وساءت العلاقة بين الأمة والأمة ، وبين الطائفة والطائفة ... دنيا آفتها مظاهر الترف ومظاهر العقيدة ، ومن وراء ذلك باطن هواء وضمير خواء !! فلا جرم يكون خلاصها فى عقيدة لا تؤمن بشىء كما تؤمن ببساطة الضمير ، ولا تعرض عن شىء كما تعرض عن المظاهر ، ولا تضيق بخلاف

كما تضيق بالخلاف على النصوص والحروف !! ··· وتقطعت الاسباب بين الامم وبين الطوائف وبين الآحاد ، واتسم العصر كله بالعصبية فى السائد والمسود والحاكم والمحكوم : الرومانى سـيد العـالم بحقه ، والاسرائيلى سيد العـالم بحق الهه ، واليونانى والآسيوى والمصرى كل منهم سـيد وكل منهم مثـال الهمجية ! والمولى يخرج العبـد من زمرة الآدميين ، والعبد يمقت السيد مقت الموت ! وأبناء الأمة الواحدة طوائف طوائف ، تشيع بينها التهم وتعميها البغضاء ! ·

ويأتى الى هؤلاء البشير المنظور ··· فماذا يقول لهم ان لم يقل لهم ان الله رب بنى الانسان وانه هو ابن الانسان ، وان الحب أفضل الفضائل وأفضل الحب حب الأعداء ، وان الكرم أن تعطى فوق ما تسأل وأن تعطى بغير سؤال ، وان ملكوت السموات لاتفتحه الأموال » (١) ·

« كان عالم الرومان على جانب عظيم من الشجاعة والعظمة والكبرياء والقوة والسيادة ولكن كان تحت عظمة الظاهر فساد ناخر ، فالحيـاة العائلية لاتطاق ، والمظالم فاشية وا لقسوة سائدة ، وأحب ملاهيهـم المذابح المروعة فى ساحة المصارعات ! وكان الرق لعنـة الامبراطورية والعبد فى حالة من الشقاء والبؤس ! كان الاشرار يعيشون فسـادا فى روما وكان الفتيان يشيخون ويتلفون بالرذائل ! وقد وصـف (بولس) هذه الحال بعد المسيح بنصف قرن ·· وسئم هذا الحال خيار الرومان ، فكانوا يرحبون بقوة تنتشلهم ، وحاول المفكرون وهم أمام سماء خالية من الآلهة ايجـاد نوع من الدين ليحيوا به وأخرج (الرواقيون) تعليم نبيلة ولكن لم تخرج جهودهم عن التفكير النظرى ولم يكن لديهم أساس مكين يقيمون عليه دينا ولم تقو تأملاتهم النظرية على مصادمات الحياة وعثراتها وعلى امتلاك عامة الجمهور ·· ولم يكن (مفكرو اليهود) راضين عن دينهم أيضا وأحس اليهودى المتجول وهو يخالط أصدقاءه الوثنيين أن اليهودية عجزت أن تـفتح أبوابها لأمثال هؤلاء ، وأن (يهوه) كان خاصا باسرائيل لايتصل العالم اليه الا عن طريقهم بوساطة الختان ومراعاة أثقل الطقوس !! ويؤخذ من كتابات بعض اليهـود فى ذلك العصر انهم كانوا يحاولون اصلاح دينهم وتوسيعه ، وقد أبان بولس كيف أن الغيورين من اليهود كانوا يسـعون للاقتراب من الله · وأجرؤ على القول ان التاريخ البشرى لم يحو بين طيـاته مثل تلك الظاهرة النفسية العقلية : ظاهرة

---

(١) العقاد : عبقرية المسيح (كتاب اليـوم) ص ٤٦ ــ ٤٩ ، ٥٤ ، ٥٨ ، ١٠١ : ١٠٣

الترقب الصامت والانتظار الحار الذى كان عليه ذلك الشعب عند مجىء المسيح وكان قد مضى على آخر الانبياء الذين تنبأ عن مجىء (المسيح المنتظر) خمسة قرون ! وقد ظهرت بين العهدين القديم والجديد اسفار تعبر عن هذا التوق الشديد منها سفر اخنوخ » ! (١)

هذا هو العالم الذى كان ينتظر الرسول ...

وجاءه الرسول يناديه : « تعالوا الى يا جمع المتعبين والثقلى الأحمال وأنا أريحكم ... احملوا نيرى عليكم ، وتعلموا منى ، لأنى وديع ومتواضع القلب ... فتجدوا راحة لنفوسكم ، لأن نيرى هين وحملى خفيف » (٢) .

(١) ... ستور بترسون سميث : حياة يسوع ... جمة حبيب سعيد ص ١٣ : ١٩ .
(٢) مت ١١ : ٢٨ ـ ٣٠

إرهاص الميلاد

وكان المولد الغريب للمسيح آخر يصرخ فى البرية ، قبل أن يرتفع صوت المسيح نفسه ..

« فدخل اليها الملاك وقال : سلام لك أيتها المنعم عليها ، الرب معك ، مباركة أنت في النساء ... فقال الملاك : لاتخافى يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله ، وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسمينه يسوع ـ هذا يكون عظيما وابن العلى يدعى ، ويعطيه الاله كرسى داود أبيه ، ويملك على بيت يعقوب الى الأبد ولا يكون لملكه نهاية . فقات مريم للملاك : كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا ؟ فأجاب الملاك وقال لها : الروح القدس تحل عليك ... فقالت مريم : تعظم نفسى الرب ، وتبتهج روحى بالله مخلصى ، لأنه نظر الى اتضاع أمته ، فهو ذا منذ الآن جميع الاجيال تطوبنى ، لان القدير صنع بى عظائم واسمه قدوس ... صنع قوة بذراعه ، شتت المستكبرين بفكر قلوبهم ، أنزل الأعزاء من الكراسى ورفع المتضعين ، أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين ... (١) ».

ولا عجب أن تتحدث مريم بنعمة الله هذا الحديث الطبيب ، فهى الأخرى آية من آيات الله ومن عباده المصطفين الأخيار : « اذ قالت امرأة عمران رب انى نذرت لك ما فى بطنى محررا ، فتقبل منى انك أنت السميع العليم . فلما وضعتها قالت : رب انى وضعتها أنثى ، والله أعلم بما وضعت ـ وليس الذكر كالأنثى ، وانى سميتها مريم وانى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرحيم . فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا ، وكفلها زكريا : كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا، قال : يامريم أنى لك هذا ؟ قالت : هو من عند الله ، ان الله يرزق من يشاء بغير حساب » ، « واذ قالت الملائكة يا مريم ان الله اصطفاك وطهرك واصطفاك على نساء العالمين . يا مريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين (٢) »

---

(١) لو ١ : ٢٨ ، ٣٠ ـ ٣٥ ، ٤٦ ـ ٥٣

(٢) آل عمران : ٣٥ : ٣٧ ، ٤٢ ـ ٤٣

فقصة مريم ، وقصة مولد المسيح من ارهاصات الدين الجديد ٠٠٠

« وجعلنا ابن مريم و أمه آية ، وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين » ، « والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا ، وجعلناها وابنها آية للعالمين » (١) ٠

والأناجيل تضيف الى ذلك مزيدا من الارهاصات ٠٠٠

« ولما ولد يسوع فى بيت لحم اليهودية فى أيام هيرودس الملك ، اذا مجوس من المشرق قد جاءوا الى أورشليم قائلين : أين هو المولود ملك اليهود ، فاننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له ؟ ٠٠٠ حينئذ دعا هيرودس المجوس سرا ، وتحقق منهم زمان النجم الذى ظهر ، ثم أرسلهم الى بيت لحم وقال : اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبى ، ومتى وجدتموه فأخبرونى لكى آتى أنا أيضا وأسجد له ٠ فلما سمعوا من الملك ذهبوا ، واذا النجم الذى رأوه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف فوق حيث كان الصبى ٠ فلما رأوا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا ، وأتوا الى البيت ورأوا الصبى مع مريم أمه ، فخروا وسجدوا له ٠ ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبا ولبانا ومرا ، ثم اذ أوحى اليهم فى حلم ألا يرجعوا الى هيرودس ، انصرفوا فى طريق أخرى الى كورتهم » (٢) ٠

« فولدت ابنها البكر ، وقمطته وأضجعته فى المذود ــ اذ لم يكن لهما موضع فى المنزل ٠ وكان فى تلك الكورة رعاة متبدين يحرسون حراسات الليل على رعيتهم ، واذا ملاك الرب وقف بهم ، ومجد الرب أضاء حولهم ، فخافوا خوفا عظيما ٠ فقال لهم الملاك : لاتخافوا ، فها أنا أبشركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب ، انه ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلص هو المسيح الرب ، وهذه لكم العلامة تجدون طفلا مقمطا مضجعا فى مذود ٠ وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السموى ، مسبحين الله وقائلين : المجد فى الأعالى ، و على الأرض السلام ، وبالناس المسرة ! ولما مضت عنهم الملائكة الى السماء ، قال الرجال الدعاة بعضهم لبعض : لنذهب الآن الى بيت لحم وننظر هذا الأمر الواقع الذى أعلمنا به الرب ، فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعا فى المذود٠ فلما رأوه أخذوا بالكلام الذى قيل لهم عن هذا الصبى ، وكل الذين سمعوا تعجبوا مما قيل لهم من الرواة ، وأما مريم فكانت تحفظ جميع

---

(١) المؤمنون ٥٠ ، الأنبياء ٩١

(٢) مت ٢ : ١ ــ ١٢

هذا الكلام متفكرة به في قلبها • ثم رجع الدعاة وهم يمجـــدون الله ويسبحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم ٠٠٠

وكان رجل في أورشليم اسمه سمعان ، وهذا الرجل كان بارا تقيا ينتظر تعزية اسرائيل ، والروح القدس كان عليه ، وكان قد أوحى اليه بالروح القدس أنه لايرى الموت قبل أن يرى مسيح الرب • فأتى بالروح الى الهيكل ، وعندما دخل بالصبى يسوع أبواه ليصنعا له حسب عادة الناموس ، أخذه على ذراعيه وبارك الله وقال : الآن تطلق عبدك ياسيد حسب قولك بسلام ، لأن عيني قد أبصرتا خلاصك ٠٠٠

وكان أبواه يذهبان كل سنة الى أورشليم في عيد الفصـــح ، ولما كانت له اثنتا عشرة سنة صعدوا الى أورشليم كعادة العيد ، وبعـــد ما أكملوا الأيام بقى عند رجوعهما الصبى يسوع في أورشليم ، ويوسف وأمه لم يعلما • واذ ظناه بين الرفقة ذهبا مســـيرة يوم ، وكان يطلبانه بين الأقرباء والمعارف ، ولما لم يجداه رجعا الى أورشليم يطلبانه ، وبعد ثلاثة أيام وجداه فى الهيكل جالسا في وسط المعلمين يسمعهم ويسألهم ، وكل الذين سمعوه بهتوا من فهمه وأجوبته !! فلما أبصراه اندهشا ، وقالت له أمه : يا بنى لمـاذا فعلت بنـا هـكذا ؟ هو ذا أبوك وأنا كنـا نطلبك معذبين !! فقال لهما : لماذا كنتم تطلبانني ؟ ألم تعلما أنه ينبغى أن أكون فيما لأبى ؟ فلم يفهما الكلام الذى قاله لهما ، ثم نزل معهمـــا وجاء الى الناصرة وكان خاضعا لهما ، وكانت أمه تحفظ جميع هذه الأمور فى قلبها • وأما يســـوع فكان يتقدم فى الحكمة والقـامة والنعمة عند الله والناس » (١) •

تلك كلها خوارق روتها الأناجيل المتـــــداولة ٠٠٠٠ كانت تقدم الصبى الى الناس ، وحسبنا ميلاده من خارقه ٠٠٠

وعن أمثال هذه الخوارق فى سيرة محمد قال العقاد : « والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمـدية : يسردون ما أكده الرواة وما لم يؤكدوه ، وما قبله الثقات منهـا وما لم يقبلوه ، وما أيدته الحوادث أو ناقضته ، وما وافقته العـلوم الحديثة أو عارضته ٠٠٠ وما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى اقناع احد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة أو كان ثبوت الاسلام متوقفـا عليها ، لأن الذين شهدوا العـلامات المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ

---

(١) لو ٢ : ٨ ـ ٢٠ ، ٢٥ ـ ٣٠ ، ٤١ ـ ٥٢

مغزاها ومؤداها ، ولا عرفوا أنها علامة على شيء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة، ولأن الذين سمعوا بالدعوةوأصاخوا الى الرسالة بعدالبشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة ولم يحتاجوا الى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا اليه !! وقد ولد مع النبى أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها ، فاذا جاز للمصدق أن ينسبها الى مولده جاز للمكابر أن ينسبها الى مولد غيره ، ولم تفصل الحـــوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين الا بعد عشرات السنين : يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وانكار المنكرين !! أما العلامة التى لا التباس فيها ولا سبيل الى انكارها ، فهى علامة الكون وعلامة التاريخ ... قالت حوادث الكون : لقد كانت الدنيا فى حاجة الى رسالة ، وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة ... ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ » !! (١) .

غير أن الأمر مختلف بالنسبة لمولد المسيح ، فلا يمكن أن نغض هنا من أهمية المعجزة ... فطبيعة الزمان والمكان تلح على أهمية الاعجاز فى الاقناع ،ولو لم يكن للمعجزة قيمة ، لما كان ثمة داع للمعجزة الكبرى : معجزة ميلاد المسيح من غير أب !!

« كان الهواء مشحونا بالحماسة الدينية !! وكان آلاف من اليهـود ينتـظرون على أحر من الجمر مجيء منقذ اسرائيـل !! وكان السـحر والشياطين والملائكة وحلول الشياطين فى أجسام الآدميين واخراجهـا ، والمعجزات والنبوءات والاطلاع على الغيب والتنجيم ــ كانت كل هـذه عقائد مسلما بها فى كل مكان » (٢) !

فمقتضيات النبوة عند بنى اسرائيل الذين اعتادوا على النبوءات والآيات ، غير مقتضيـاتها عند بنى اسـماعيل فى بادية العرب حيث التباهى باللسان والبيان !!

لكن .. هل معنى ذلك أن المسـيحية لا تجد سـندا غير معجزاتها الحسـية الصـادعة القارعة ؟ تعدل جون ماثيسون « فى رأيى أن أعظم معجزة تمت
فى أرض فلسـطين هى معجزة توقع وانتظار المسـيحية .. ان الاعجاب

---

(١) العقاد : عبقرية محمد (طبعة المكتبة التجارية) ص ٣٢ ــ ٣٣ .

(٢) ديورانت : قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ (قيصر والمسيح) ــ ترجمة بدران ص ٢١٥

بالفن فى أحد معاينه هو نتيجة توقعه والاحساس به ، ولو كانت صورة يسوع غريبة عن العالم لما تقبلها العالم على الاطلاق » (١)

والمسيحية بالنسبة لنا اليوم تقوم على موضوعيتها لا على خوارقها دون جدال ، فقد تباعد العهد بيننا وبين المعجزات ، ولئن كان لهذه ما كان من أهمية فى عصر الميلاد ، فالحجة فى عصرنا ليست لمجرد الغرائب والاعاجيب !

« وقد تعب أصحاب المقارنات والمقابلات كثيرا فى اصطياد المشابهات من هنا وهناك ، ولم يكلفوا أنفسهم جهدا قط فيما هو أولى بالجهد والاجتهاد ... فمتى حدث فى تاريخ الأديان أن أشتاتا مبعثرة من الشعائر والمراسيم تلفق نفسها وتخرج فى صورة مذهب مستقل دون ان يعرف أحد كيف تلفقت وكيف انفصلت كل منها عن عبادتها الاولى ؟ ومن هو صاحب الرغبة وصاحب المصلحة فى هذه الدعوة ؟ وأى شاهد على وجوده فى تواريخ الدعاة المعاصرين لسنة الميلاد ؟ وكيف برز هذا العامل التاريخى الدينى الخطير على حين فجأة قبل أن ينقضى جيل واحد ؟ ولماذا كان يخفى مصادر الشعائر والمراسم الأولى ولا يعلنها الا منسوبة للسيد المسيح ؟؟

على أن صناعة النقد التاريخى تتهم نفسها بالعجز البالغ اذا لم تستطع أن تعتمد على الكلام المروى فى تقرير **(شخصية القائل)** وتحقيق مكانه من التاريخ ... ومهما يكن من فصل القول فى استقلال كل انجيل أو اعتماد بعضها على بعض ، فهناك علامات واضحة لايمكن أن يقصدها كتاب الأناجيل ، لانها علامات نفهمها الآن وفقا لما درسناه من تطور الدعوة المسيحية ، ولم يكن لها محل فى رءوس الرواة المشاهدين أو الناقلين . فان روايات الاناجيل تطابق التطور المعقول من بداية الدعوة الى نهايتها ، ومن التطور المعقول :

أن تبتدىء الدعوة قومية عنصرية ثم تنتهى انسانية عالمية ...

وأن تبتدىء فى تحفظ وهى محافظة ، ثم تنتهى الى الشدة والمخالفة ...

وأن تبتدىء بقليل من الثقة فى شخصية الداعى ، ثم تنتهى بالثقة التى لاحد لها فى نفوس الأتباع !

(١) جون ماتيسون : دراسات في صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكي جـ ١ ص ٩

وهكذا كانت الدعوة المسيحية كما روتها الأناجيل ، دون أن يتعمد كتابها تطبيق أحوال التطور ، أو تلتفت أذهانهم الى معنى تلك الاحوال ٠

وربما كان أوضح من هذا فى الابانة عن شخصية الداعى أن أقواله تتضمن نقدا لجميع المذاهب التى كانت شائعة فى عصره ، وأن هذه الأقوال تشير الى وجهة نظر واحدة لم يكن لها وجود فى غير تلك الشخصية ٠ فالأقوال المسيحية تنتقد الفريسيين ، لكنها لاتصدر فى نقدهمعن وجهة نظر الصدوقيين أو السامريين ، وتنتقد أصحاب النصوص ولكنها لاتصدر فى نقدهم عن وجهة نظر الاباحيين وا لمتحللين وتنتقد الآسين والمتعصبين ، ولكنها لاتدين بآراء الفلاسفة أو الأبيقوريين والرواقيين ٠ وتنتقد السامريين ، ولكنها لا ترفض السامرية بتاتا ولا ترفض غيرها من النحل كل الرفض من جانب محدود ٠ وتستشهد بأقوال موسى وابراهيم والأنبياء ، ولكنها لا تتقيد بكل قول منها تقيد المحاكاة ولا تقتدى بها اقتداء التابع للمتبوع ٠ واذا جمعنا وجوه النقد جملة واحدة ، أمكن أن نردها كلها الى وجهة نظر متناسقة وقوام شخصى مرسوم ، وقد يقع فيها الاستثناء حيث ينبغى أن يقع ، لأن التناسق الذى يجرى مجرى الأعمال الآلية على وتيرة واحدة لا يوافق طبيعة الدعوات الحية المتقدمة ـ ولاسيما الدعوات فى عصر الهدم والبناء والمراجعة والتثبيت ٠

هذه علامات (موضوعية) لها شأنها الاكبر فى الابانة عن شخصية السيد المسيح ٠

وأصدق تلك العلامات ـ بعد هذا كله ـ ان الدعوة جاءت فى ابانها وفاقا لمطالب زمانها ، بحيث تكون الغرابة أن يخلو الزمن من رسول يقوم بالدعوة ويصلح لأمانتها ، لا أن يوجد الرسول ونستغرب أن يكون ٠ ولو أن مؤلفا بعد ذلك العصر أراد أن يخلق رسولا يوافق رسالته المنشودة لوقف به الخيال دون ذلك التوفيق المطبوع » (١) ٠

والعقاد يتكلم فى منطقة بلسان عصر ، والاناجيل تتكلم فى رواية خوارقها بلسان عصر آخر ٠٠٠ وتتضافر مختلف الالوان من البيان ـ مع تباينها ـ على تقديم شخصية المسيح ٠٠

فلنتقدم نحو صحبة المسيح فى الأناجيل الأربعة ، بعد أن تهيأت منا الأذهان والقلوب ٠

---

(١) العقاد : عبقرية المسيح ص ٨٨ : ٩٠

ليس الخبز... وحده

« ... مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان، بل بكل كلمة من الله »
(مت ٤ : ٤ ، لو ٤ : ٤)

الإنسان ... والدين

نحن الآن فى أخطر قضية من قضايا التدين ، وعليها يترتب أن يكون دين ، أو لا دين ...

هل للكيان الانسانى مطالب غير مطالبه (البيولوجية) ، وهل للنفس الانسانية آفاق يصح أن تشغلها عدا ما يحفظ الذات ويحفظ النوع ؟!

للأديان السماوية كلها رد واحد على هذه الدعوى : « وقالوا ماهى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا ، وما يهلكنا الا الدهر ، وما لهم بذلك من علم ــ ان هم الا يظنون . واذ تتلى عليهم آياتنا بينات ما كان حجتهم الا أن قالوا : ائتوا بآبائنا ان كنتم صادقين . قل الله يحييكم ثم يميتكم ، ثم يجمعكم الى يوم القيامة لاريب فيه ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون . ولله ملك السموات والارض ، ويوم تقوم الساعة يومئذ يخسر المبطلون » (١).

هذا الخط الأساسى فى العقيدة الدينية ، تناوله المسيح فى حواره مع ابليس : « أما يسوع فرجع من الاردن ممتلئا من الروح القدس ، وكان يقتاد بالروح فى البرية أربعين يوما ــ يجرب من ابليس ولم يأكل شيئا فى تلك الأيام ، ولما تمت جاع أخيرا . وقال له ابليس : ان كنت ابن الله فقل لهذا الحجر أن يصير خبزا ، فأجابه يسوع قائلا : **مكتوب أن ليس بالخبز وحده يحيا الانسان بل بكل كلمة من الله** » **(٢)** .

وحيل الشيطان الخائبة مع المرسلين متعددة فى سيرهم : « وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبى ، الا اذا تمنى ألقى الشيطان فى أمنيته ، فينسخ الله مايلقى الشيطان ثم يحكم الله آياته ، والله عليم حكيم . ليجعل مايلقى الشيطان فتنة للذين فى قلوبهم مرض والقاسية قلوبهم ، وان الظالمين لفى شقاق بعيد . وليعلم الذين أوتوا العلم أنه الحق

---

(١) الجاثية ٢٤ : ٢٧

(٢) لو ٤ : ١ ــ ٤ ، أيضا مت ٤ : ١ ــ ٤

من ربك فيؤمنوا به فتخبت له قلوبهم ، وان الله لهاد الذين آمنوا الى صراط مستقيم » (١) ٠

هذا الركن الركين والأساس المتين فى كل دين ، يسميه العقاد (اختيار القبلة) ٠ « ويمكن أن يقال فى وصف تلك الدعوة العامة كثير لا يحصى ، حسب النظرة التى ينظر بها القارىء الى الأناجيل ٠٠٠ ولكننا على التحقيق نطابق جوهرها كله ، اذا وصفناها بأنها (**تغيير وجهة**) وافتتاح قبله ٠٠٠

ولاسبيل الى الجمع بين الوجهتين ، ولا الى التردد بين القبلتين ، (فلن يخدم أحد سيدين) ٠٠٠

قبلة الروح ، أو قبلة الجسد ٠٠٠

قبلة الله ، أو قبلة (مامون) ـ اله المادة والمال ٠٠٠

معبد الضمير ، أو معبد الصخر والخشب ٠٠٠

هنا أو هناك ٠٠٠ فالمهم هو الاتجاه أين يكون ، والى أى أمد يدوم ، وكل مايلى ذلك من تفصيل فهو خطوات الطريق تتسع أو تضيق ، وتسرع أو تتريث متى استقبل السالك قبلته وأدار ظهره لما وراءه ، ولابد من المفترق الحاسم بين القبلتين ، ولابد من خيرة بين السيدين » (٢) ٠

وتلك هى قضية اليوم الفاصلة : تدين أو الحاد ٠٠٠

كتب أحد دعاة (المجيئيين السبتيين) adventist : « ان كثيرين من بين موجهى هذا الجيل أصبحوا يشكون فى وجود اله يهتم بخليقة تافهة نظيرنا ، وكثيرين يجاهرون بأن الكتاب المقدس وأدب شكسبير كليهما فى منزلة واحدة من حيث التنزيل والالهام ، وأن مادونه موسى عن الخلق لا يزيد عن كونه قصصا وأساطير ٠٠٠ ومنذ سنوات قلائل صرح أحد الكتاب فى مجلة دينية قوية النفوذ واسعة الانتشار فقال : منذ جيل مضى كان جل هم علماء اللاهوت المسيحى يتركز فى الدفاع عن

---

(١) الحج : ٥٢ : ٥٤ ٠

(٢) العقاد : عبقرية المسيح ص ١٠٦ ، وبالهامش : (مآمون) كلمة آرامية ترمز الى المطامع الدنيوية والشهوات الجسدية ، وتطلق الآن فى اللغات الأوربية على اله المادة والمال ٠ راجع ايضا فصل : اختيار القبلة من كتاب العقاد المذكور

سفر التكوين ضد التعاليم الداروينية ، واليوم نراهم يدافعون عن عقيدة وجود الله – **أيا كان شكلها** – ضد الالحاد والمادية ، وضد الفلسفة الوضعية Postitivism التى تقول بوجوب تأليه الانسان ... وصرح البروفسور ج.ب. سمث فى كتابه (التفكير المسيحى المعاصر) الذى ألفه أثناء قيامه بتدريس اللاهوت المسيحى بكلية الدين بجامعة شيكاغو : ان قصة الخلق المعلنة فى الكتب المقدسة تصف هذا الوجود باعتبار أنه قد أوفى على الغاية من حيث اكتمال صنعه واتقانه ، وتمام توازنه وثبات كيانه – الأمر الذى يجعل هذه القصة تبدو فى الواقع غير مقنعة لأولئك الذين يفكرون بمقتضى قواعد علم النشوء والتطور (ص ١٧٠ من الكتاب) ... وكذلك جاء فى خطاب مشهور ألقاه العالم اينشتاين صاحب نظرية النسبية على حفل كبير من رجال العلم والفلسفة والدين – اذ قال بلغة ساخرة : على معلمى الدين أن يجاهروا فى جرأة وشجاعة بنبذ المعتقد الخامس بوجود الخالق ! ... وصرح رئيس الالتئام الخامس لمجمع الكونجريجشنال الدولى فى خطاب موضوعه (استرداد احساسنا بوجود الله) : صار رجال العلم الطبيعى ويؤازرهم لفيف من رجال علم النفس الحديث يغضون من شأن الاعتقاد الخاص بوجود الله سبحانه ، وأصبحوا ينتقصون من قدره حتى جعلوه فى عداد التصميمات التى يبتكرها العقل ويختطها الانسان وفقا لميله وهواه !؟ وقد طفقت تعاليم أولئك القوم تتسرب بواسطة المجلات والروايات الى عقول أبناء هذا الجيل من رجال وسيدات ، بل لقد أصبحت هذه التعاليم الهدامة تخلق الجو الذى يحيط بنا وتتحكم فى تكييف عقولنا وتوجيه أفكارنا الى الحد الذى انتهى بنا الى انكار حقيقة الخالق عز وجل ، حتى ليصدق علينا قول بولس الرسول : (وبينما يزعمون أنهم حكماء صاروا جهلاء ... واتقوا وعبدوا المخلوق دون الخالق ، وكما لم يستحسنوا أن يبقوا الله فى معرفتهم أسلمهم الله الى ذهن مرفوض) » (١) .

تلك هى القضية التى على كل أتباع دين سماوى – من مسيحيين ومسلمين – أن يتصدوا لمعالجتها ، وهى قضية عناصرها واحدة عند الجميع .

ومن ثم لا حرج على من يسير (مع المسيح) أن يدلل عليها بكتابات

---

(١) فرنسيس دانيكول : ايمانى ، حججه وأسانيده – ترجمة جرجس سليمان ص ١٠٣ ، ١١٤ : ١١٧

المسلمين ، ولا حرج على من ينافح عن الاسلام أن ينتصر للتدين بدراسات اللاهوتيين والفلاســفة غير المسلمين ، وقد أوضــح هذا بجلاء الدكتور ميلربروز Miller Burrowo الاستاذ بجامعة ييل حيث قال : « ان المعضلات التى تتضمنها محاولة ايجاد ملاءمة بين الدين والعلم تتشابه فى الاسلام والمسيحية . ومع أن الحواجز القومية قد تفصل بين العلماء وبعض ، فالعلم نفسه لا يقبل تجزئة مثل هذه ، اذ أن دنيا العلم واحدة ، واذا كانت دياناتنا مختلفة فالله واحد (١) » .

---

(١) بروز : Some suggsetions concerning the relations between religion and sciencein Islam بحث في مؤتمر الثقـافة الاسلامية فى « برنســتون » الترجمة العربية في كتاب (الاسـلام والثقافة الاسلامية المعاصرة) ص ٤٣ .

فطرة ... وضرورة

والأستاذ العقاد من خير من انتصر لقضية التدين فى الفكر العربى المعاصر ، وهو يقول فى افتتاح أحد كتبه :

« **الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية** . ولم يكن الدين لازمة من لوازم الجماعات البشرية لأنه مصلحة وطنية أو حاجة نوعية ، لأن الدين قد وجد قبل وجود الأوطان ، ولأن الحاجة النوعية (بيولوجية) تتحقق أغراضها فى كل زمن وتتوافر أسبابها فى كل حالة ، ولايزال الانسان بعد تحقق أغراضها وتوافر وسائلها فى حاجة الى الدين • وغرائز الانسان النوعية واحـــدة فى كل فرد من أفراد النوع وكل سلالة من سلالاته ، ولكنه فى الدين يختلف أكبر اختلاف لأنه يتجه من الدين الى غاية لا تنحصر فى النوع ولا تتوقف على غرائزه دون غيرها وليس الغرض منها حفظ النوع وكفى ، بل تعزيز مكانه فى هذا الكون أو فى هذه الحياة • فالانسان يتعلق من النوع بالحياة ، ولكنه يتعلق من الدين بمعنى الحياة •

ولن يوجد انسان ليس له نوع أو غريزة نوع أو آداب نوع ـ لأن وشيجة النوع ليست مما ينفصل عنه باختياره ، ولكن قد يوجد انسان يفوته معنى الحياة ، وقد يوجد انسان يفهم معنى الحياة على أنه اعراض عن الحياة الفردية ، وعن الحياة النوعية ، وتوجه الى ضرب آخر من الحياة •

وقد يتحول الانسان من عقيدة الى عقيدة ، فلا يقال اذن أنه آمن بعلاقة جديدة بين الخلائق جميعا وبين الحياة أو مصدر الحياة • والانسان اذا طلب من الدين الحياة الأبدية ، فهو لا يطلب ذلك لأنه فرد من أفراد نوع ، فان النوع قد يبقى ألوف السنين وقد يقدر الانسان انه مكفول البقاء بغير انتهاء ، ثم لا يغنيه كل ذلك عن طلب الحياة الأبدية لأنه يريد لحياته معنى لا يزول ، ويريد أن يتصل بحياة الكون كله فى أوسع مداه •••

وليس مقياس العقيدة الصالحة مقياس الدروس العلمية والحيل الصناعية ، وانما حسب العقيدة الصالحة من صلاح أنها تنهض بالعقل والقريحة ولا تصدهما عن سبيل العلم والصناعة ، ولا تحول بين معتقديها وبين التقدم والحضارة وأطوار الاجتماع ٠

وينبغى أن يلاحظ فى هذا الصلاح أن الجماعات البشرية لا تعيش عمر انسان واحد ولا تنحصر فى طبقة واحدة ٠ فالعقيدة التى تصلح لعشرة أجيال يشترك فيها عشرة أجيال يختلفون فى كثير من الأحوال والعادات ، والعقيدة التى يدين بها الملايين يشترك فيها الخاصة والعامة والأعلياء والأدنياء ، ولا تصاغ منهـا نسخة مستقلة لكل طبقة أو لكل فريق ٠ **فالذى يطلب من العقيدة الصالحة أن تصلح لهؤلاء مجتمعين** ، وأن تصلح لأعمار بعد أعمار ، لأنها ليس مما يخلع تارة بعد تارة ، ولا مما يستبدل ببرامج السنوات ونصوص الدساتير !! ٠٠٠

ومهما يكن من رأى العـلماء والفلاسفة فى الايمان بالله ، فهم لا يجهلون ـ ولا يستطيعون أن يجهـلوا ـ **أن الايمـان ضرورة كونية** لا تخلقها مشيئة أحد من الآحاد ، ولو كان فى قدرة الرسل والأنبياء ! فاذا أجمع الناس على الاعتقاد كيفما كان اختلافهم فى الجنس والزمن والموطن والمصلحة ، فليس هذا عمل فرد ولا هو مما يقع بين الحين والحين عرضا واتفاقا من فعل الحيلة والتدبير ، ولكنه باعث من صميم قوى الكون لا يفلح الرسل والأنبياء فى نشر دعوته مالم يكن فى تلك الدعوة مطابقة لحكمة الخلق وسر التكوين ٠٠٠ !

انهم يتخذون من عقائد بعض العامة أو عقائد بعض الخاصة دليلا على أنها أمور لا تصدر من عند الله الذى يصفه أصحاب الأديان بالعلم والحكمة والقدرة على الهداية ، فاذا كان هذا هو المبطل للوحى الالهى فكيف يثبت الوحى الالهى فى قياس أولئك الفلاسفة أو العلماء ؟؟ أيثبت بعقيدة يدين بها العامة كما يدين بها الخاصة ، وتطابق الدروس العلمية اليوم ، كما تطابقها عندما تنقض نفسها بكشف جديد ؟ أيثبت بعقيدة تدخل المعمل الصناعى أو العلمى كل سنة أو كل بضع سنوات للفحص والامتحان ؟ أيثبت بعقيدة ليست بعقيدة ، ولكنها مجموعة من الأزياء الموسمية التى يغيرها الانسان تارة بعد تارة ولا يمزجها ببواطن الضمير ؟

كلا ، فان الوحى الالهى متى ثبت لا يثبت على النحو الذى تخيلوه ، بل على النحو الذى عهدنا عليه الأديان ، مع اختلاف العقول واختلاف

الأجيال واختلاف المعلومات • عقيدة هي عقيدة ، وايمان هو ايمان ، وبعد ذلك موافقة لدواعي الحياة ومطالب الفكر وخلجات الشعور • وهكذا تصبح العقيدة ـ ان صحت على الاطلاق ، وهكذا يكون الايمان ـ ان كان ايمان » (١) •

« وكما تشتاق الابل الى جداول الميــاه هذه تشتاق نفسى اليك يا الله ، عطشت نفسى الى الله ، الى الاله الحى ••• » « عطشت اليك نفسى ، يشتاق اليك جسدى فى أرض ناشفة ويابسة بلا ماء » (٢) •

والذين يريدون أن يستغنوا عن التدين ، لا يلبثون أن يحلوا محل الدين شيئا آخر يدينون به ويتعصبون له ليسد الفراغ ويطفىء الظمأ•• ففى النفس غريزة الخضوع ، فان لم يخضع الانسان (لقوة عليا محايدة) لا تستغل فيه هذا الخضوع ، فسيخضع للقوى التى تعصف بها الشهوات والنزوات « أأرباب متفرقون خير ، أم الله الواحد القهار ! » •••

قوة الله هى القوة التى لا تتجبر لكثرة الطائعين ، ولا تهون بمعصية العاصين ، لأن صاحبها غنى عن العالمين : « ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمون • ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » ••

قوة لا تحابى الأولياء ، ولا تتحامل على المخالفين ، لأن صاحبها فوق هؤلاء وهؤلاء ، ورب هؤلاء وهؤلاء ، والرحمن الرحيم على هؤلاء وهؤلاء•••

قوة الله هى القوة التى اذا اجتمع عليهـــا الناس اتجهت طاقتهم النفسية فى الحب والبغض الى وجهة تهدهد من شحناء الانقسام والعصبية وصراع العدوان والبغى ، فلايضمر الحقد ولا تعلن الحرب الا على الشيطان الرجيم : « ان الشيطان لكم عدو فاتخذوه عدوا ، انما يدعو حزبه ليكونوا من أصحاب السعير » •••

قوة الله هى التى تجمع الناس عليها ، لتخط لهم طريقهم من عل ، بعيدا عن أهواء التحيز للدم أو الأرض أو الطائفة أو الرأى : « فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا » « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا » •••

هذه هى قوة الله التى أراد قوم أن يستبعدوها عن مجال النفس والضمير ، فهل بقيت النفس وبقى الضمير بعدها بغير اله ؟ ؟

---

(١) العقاد : الفلسفة القرآنية ـ المقدمة

(٢) مزمور ٤٢ : ١ ـ ٢ ، ٦٣ : ١

ما أصدق جوستاف نوبون حيث يقول فى (روح الجماعات) :
« ومما لا طائل تحته أن تعيد القول بأنه لابد للجماعات من دين ، ولا تستقر المعتقدات السياسية والالهية والاجتماعية الا باكتسابها شكلا دينيا على الدوام ، فتكون به فى حمى من الجدل . ولو أمكن حمل الجماعات على الالحاد ، لاكتسب هذا الالحاد ما فى الشعور الدينى من شدة تعصب ، ولأضحى فى وجوهه الظاهرة ضربا من العبادة بسرعة !! ولنا فى تطور المذهب الوضعى مثال طريف على ذلك ، ويشابه هذا المذهب العدمى (نسبة الى العدم) الذى روى العلامة دستويفسكى لنا قصته ، فقد سطعت أنوار العقل على هذا العدمى ذات يوم فحطم صور الآلهة والقديسين التى كانت تزين هيكل معبده الصغير ، وأطفأ الشموع ... ولم يبدد من الوقت ثانية ، فأحل محل الصور المحطمة كتب بعض الفلاسفة الملحدين كبوخنر ومولشوت ، ثم أشعل الشموع الثانية بورع !! !! أجل ، **لقد تحول موضوع معتقداته الدينية** ، ولكن أيمكن أن يقال : ان مشاعره الدينية تغيرت ؟؟ » (١) .

« وقد رأيت أناسا يبطلون الأديان فى العصر الحديث باسم الفلسفة المادية ، فاذا بهم يستعيرون من الدين كل خاصة من خواصه وكل لازمة من لوازمه ، ولا يستغنون عما فيه من عنصر الايمان والاعتقاد التى لا سند لها غير مجرد التصديق والشعور ، ثم يجردونه من قوته التى يبثها فى أعماق النفس ـ لأنهم اصطنعوه اصطناعا ولم يرجعوا به الى مصدره الأصيل !! فالمؤمنون بهذه الفلسفة المادية يطلبون من شيعتهم أن يكفروا بكل شيء غير المادة ، وأن يعتقدوا أن الأكوان تنشأ من هذه المادة فى دورات متسلسلة ، تنحل كل دورة فى نهايتها لتعود الى التركيب فى دورة جديدة ، وهكذا دواليك ثم دواليك الى غير انتهاء . ويطلبون منهم أن ينتظروا النعيم المقيم على هذه الأرض متى صحت نبوءتهم عن زوال الطبقات الاجتماعية ، فان زالت الطبقات الاجتماعية فى هذه السنة أو بعدها ببضع سنوات فتلك بداية الفردوس الأبدى الذى يدوم مادامت الأرض والسموات وتنتهى اليه أطوار التاريخ ـ كما تنتهى بيوم القيامة فى عقيدة المؤمنين بالأديان ، ولا يكلف دين من الأديان أتباعه تصديقا أغرب من هذا التصديق ، ولا تسليما أتم من هذا التسليم !! ولا يخلو دين الفلسفة المادية من شيطانه ، وهو (الرأسمالية) الخبيثة العسراء فكل مافى الدنيا من عمل سوء أو فكرة سوء فهو كيد من

---

(١) لوبون : روح الجمعات ـ ترجمة عادل زعيتر ص ٧٠

الشيطان الماكر المريد ، وكل مافيها من عمل سوء أو فكرة سوء يزول ويحول وتحل في مكانه بركات الفلسفة المادية ورضوانها متى سار الأمر الى ملائكة الرحمة وذهب ذلك الشيطان الى قرارة الجحيم !!.. وادخروها للزمن كله ، بل للأبد كله ، ولكنهم لم يصطدموا صدمتهم الأولى في الحرب العالمية الأخيرة حتى أفلست عقيدة الأبد ، ولجأوا الى الوطن يستعيدون مثله والى الديانة يستجدونها ويتمسحون بها ... وفحوى هذه العبرة البالغة أن أسرار العقيدة أعمق وأصدق مما يدور بأوهام منكريها ، وأنها ذخيرة من القوة وحوافز الحياة تمد الجماعات البشرية بزاد صالح لا تستمدها من غيرها ، وأن هذه الذخيرة (الضرورية) خلقت لتعمل عملها ولم تخلق ليعبث بها العابثون ، كلما طاف بأحدهم طائف من الوهم أو طارت برأسه نزعة عارضة ، لا تثبت على امتحان ! ...

ومنذ الحرب العالمية الأولى كثرت في أوربا وأمريكا مجموعات الفصول التي يبسط فيها كاتبوها آراءهم في العقائد والأديان ، ويلخص كل منهم فيها عقيدته التي استخلصها لنفسه ، وأحس أنها تناسب تفكيره وعلمه وشعوره بالعالم الذى يعيش فيه ، وبما يقتضيه أمر الاعتقاد في عصر العلوم (الوضعية) وتجارب الانسانية الحديثة ... وبعض هؤلاء قد اتخذ له الها اصطفاه على حسب المثل العليا التى يتمثل بها الاله ، وبعضهم يدين بعقيدة بشرية أرضية لا محل فيها لما وراء الطبيعة ولا تخرج عن كونها نخبة من قواعد الأخلاق وبرامج الاصلاح ، وبعضهم يفسر الدين الذى يؤمن به قومه تفسيرا يوائمه ويخالف ما اعتقده قومه من المراسم والعبادات ، وكلهم فى جملة آرائهم ومذاهبهم يدلون على شيء واحد : **وهو ان الايمان ظاهرة طبيعية في هذه الحياة** (لان الانسان غير المؤمن انسان غير طبيعى فيما نحسه من حيرته واضطرابه ويأسه وانعزاله عن الكون الذى يعيش فيه ، فهو الشذوذ وليس هو القاعدة فى الحياة الانسانية وفى الظواهر الطبيعية ، ومن أعجب العجب أن يقال ان الانسان خلق فى هذا الكون ليستقر على ايمان من الوهم أو يسلب القرار !) ...

أما عقيدة (الجماعة) فلا مناص فيها من ملاحظة شرائط لا تدعو الضرورة اليها كلها فى تلك العقائد الفردية : ومنها أن دين الجماعة لا يخلو من المجاز ، لأنه يوحى اليها بالمغيبات المحجوبة ويقرب اليها المعانى الأبدية التى لا تمتزج بالضمير ولا تستجيش الحس الا اذا اشتملت على مخيلاتهم واقترنت بما يعهدونه من المألوفات والمشاهدات . ومنها أن دين

الجماعة يعم الخاصة والعامة والمجتهدين والمقلدين ، ولا يؤدى غرضه الأسمى اذا قطع فريقا من هؤلاء عن فريق • ومنها أن دين الجماعة لأجيال كثيرة وليس لجيل واحد ، وفى هذه الأجيال الكثيرة يتسع المجال لكثير من المستحدثات فى العلم ، وكثير من الغير والأطوار فى مبادىء الأخلاق ومشارب الأذواق • وللجماعات البشرية فرص كثيرة لاستحداث العلوم ومتابعة الكشوف والمخترعات - تستطيع أن تأخذ منها ماتشاء ان لم تأخذها من نصوص الدين ، ولكنها لا تستطيع أن تأخذ الدين من غير مصادر الاعتقاد ، وحسبها منه أن يحضها على التعلم ، ولا يصدها عن سبيل المعرفة حين تتاح لها مع الزمن بوسائل البحث والاستطلاع » (١) ؛ والمسح الاجتماعى والرصد التاريخى خير شاهد ودليل •

يقول الدكتور ستيفن هربرت أحد علماء الآثار وأستاذ (الاشوريات) بجامعة اكسفورد :

« انى أذكر بثقة أن عقيـــدة (الوحدانية) فى الديانات السامية والسومرية قد سبقت الايمان بعديد من الآلهة والاعتقاد بالأرواح الخيرة والشريرة ، فكل الديانات السامية قد بدأت بالايمان باله واحد للقبيلة قام بخلق أفرادها ويسهر على حفظهم ورعايتهم • وتاريخ الديانات فى المجتمع الانسانى ليس سوى تاريخ سقوط الانسان وارتداده » •

ويؤيد ذلك سيربيتر رينو مترجم (كتاب الموتى) للمصريين القدماء فيقول : « منذ أكثر من ٥٠٠٠ سنة ارتفعت فى ربوع وادى النيل أصوات التسابيح للالــه الواحد وخلود النفس • ان الاعتقــــاد بوحدانية الاله الأعظم وصفاته القدسية باعتباره الخالق الأوحد ومصدر الناموس الأدبى تبدو جوهرة لامعة متألقة وسط أكداس المعتقدات الفرعونية الكثيرة التى تراكمت خلال العصور الطويلة لذلك ومن ثم لا يمكننا القول بأن الفكر الدينى فى مصر القديمة قد تطور من الدرجات السفلى وتسامى الى اعلى حتى وصل الى عقيدة الوحدانية والخلود » •

ويساير هذا الرأى العالم النمســــاوى شميت فى كتابه (تطور الديانات) فيقول :

« ان الذى يدرس الآثار القديمة فى مختلف أنحاء العالم يستطيع

(١) العقاد : الفلسفة القرآنية ـ المقدمة ، الخاتمة

أن يدرك أنه بين القبائل البدائية كانت تسود المعتقدات باله واحد وحياة خالدة قادمة ... » (١)

فالخبز وحده اذن – على حد قول المسيح – ليس يكفى ...

وفرق طبعا بين أن نقول : الخبز وحده ليس يكفى ، وأن نقول : الخبز ليس بلازم على الاطلاق ...

«... أجابهم يسوع وقال: الحق الحق أقول لكم: أنتم تطلبوننى ليس لأنكم رأيتم آيات ، بل لأنكم أكلتم من الخبز فشبعتم !! اعملوا لا للطعام البائد ، بل للطعام الباقى ، للحياة الأبدية ، الذى يعطيكم ابن الانسان لأن هنا الله الآب قد ختمه ... الحق الحق أقول لكم : ليس موسى أعطاكم الخبز من السماء ، بل أبى يعطيكم الخبز الحقيقى من السماء ، لأن الله هو النازل من السماء الواهب حياة للعالم • فقال له : يا سيد – أعطنا فى كل حين هذا الخبز ، فقال يسوع : أنا هو خبز الحياة ، من يقبل الى فلا يجوع ، ومن يؤمن بى فلا يعطش أبدا ، ولكن قلت لكم انكم قد رأيتمونى ولستم تؤمنون ! » (٢) •

« وأن لو استقاموا على الطريقة لأسقيناهم ماء غدقا » ، « ولو أنهم أقاموا التوراة والانجيل وما أنزل اليهم من ربهم لأكلوا من فوقهم ومن تحت أرجلهم ، منهم أمة مقتصدة ، وكثير منهم ساء مايعلمون » ، « وتزودوا ، فان خير الزاد التقوى (٣) » •

ان التدين الصحيح يحقق (للآلة الانسانية) انتظام السير : فرد متوازن ومجتمع متضامن ... كل مؤمن يراقب الله فى علاقته بالناس ، ويبتغى الآخرة فى طلب الدنيا •

ان الايمان قضية منطقية ، وحاجة نفسية ، ومصلحة اجتماعية ... أو هو اقتناع ، وراحة ، ونظام •

---

(١) دكتور جون الدر : الأحجار الكريمة ترجمة دكتور عزت زكى ص ٢٦ – ٧
(٢) يو ٦ : ٢٦ – ٣٦
(٣) الجن ١٦ ، المائدة ٦٦ ، البقرة ١٩٧ •

منطق

« وأشهر الحجج التي اعتمدت عليها الفلسفة الالهية ثلاث : **برهان الخلق** المعروف عند الاوربيين بالبرهان الكونى Cosmological Arguement وفحواه أن المتحركات لابد لها من محرك لا تجـوز عليه الحركة ، وأن الممكنات لابد لها من موجد واجب الوجود ، والا لزم التسلسل الى غير انتهاء . **وبرهان النظام** المعـروف عندهم ببرهـان الغـاية أو القصد Telological Arguement : وفحواه أن نظام العالم يدل على ارادة محيطة بما فيها من الأسباب والغايات . والبرهان الثالث **برهان الاستعلاء والاستكمال** المعروف عندهم ببرهان القديس أنسلم Ontological Arguement وفحواه أن العقل اذا تصور شيئا عظيما تصور ماهو أعظم منه والا تطلب Anselm موجبا للوقوف عند حد من العظمة لا تتعداه ، وكلما عظم شيء فهو أعظم منه وأعظم ، حتى تنتهى بالتصور الى العظمة التى لا مزيد عليها ، والعظمة التى لا مزيد عليها لا تكون مجرد تصور يقع فى الوهم ولا يوجد فى الواقع ، لأن العظمة الموجودة فوق العظمة الموهومة أو المتصورة ، فالله اذن موجود لأنه أعظم الموجودات » (١) .

وفى القرآن أمثلة لهذه البراهين ...

فبرهان الخلق واضح فى قوله تعالى : « أم خلقوا من غير شيء ، أم هم الخالقون ؟؟ »

وبرهان النظام أو برهان الغاية أو القصد تلمحه فى الآيات : «ماترى فى خلق الرحمن من تفاوت ، فارجع البصر هل ترى من فطور ؟؟ » ، « أفحسبتم أنما خلقناكم عبثا ، وأنكم الينا لا ترجعون ؟؟ فتعالى الله الملك الحق لا اله الا هو رب العرش الكريم » .

وبرهان الاستعلاء والاستكمال قائم فى وصف الله لذاته : « ليس

---

(١) العقاد : الفلسفة القرآنية ص ١٠٧ ـ ١٠٨ ـ للتفصيل راجع (الله) أيضـا (طبعة دار الهلال) ص ١٨٨ . ١٩٧ .

كمثله شيء » ، « لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير » (١) ٠

وفي رأى العقاد أن مسألة وجود الله مسألة **(وعي)** قبل كل شيء : « فالانسان له وعى يقيني بوجوده الخاص وحقيقته الذاتية ، ولا يخلو من (وعى) يقيني بالوجود الأعظم والحقيقة الكونية لأنه متصــــل بهذا الوجود بل قائم عليه ٠ والوعى والعقل لا يتناقضان ، وان كان الوعى أعم من العقل في ادراكه لأنه مستمد من كيان الانسان كله : ظاهره وباطنه وما يعيه هو وما لا يعيه ، ولكنه يقوم به قياما مجملا محتاجا الى التفصيل والتفسير ٠

ونحن نخطىء فهم العقل نفسه حين نفهم أنه مقصــــور على ملكة التحليل والتجزئة والتفتيت ، وأنه لا يعمل عمله الشامل الا على طريقة التقسيم المنطقى وتركيب القضايا من المقدمات والنتائج واثباتها بالبراهين على النحو المعروف ٠ فالعقل موجود بغير تجزئة وتقسيم ، وهو في وجوده ملكة حية تعمل عملا حيا ولا يتوقف عملها على صناعة المنطق وضوابطه في عرف المنطقيين ، وهو في وجوده هذا يقول (نعم) ويقول (لا) ــ ويحق أن يقولهما مجملتين في المسائل المجملة على الخصوص ٠ وقد يخطىء القول في بعض الأشياء ، ولا يضمن الاصابة في كل شيء ، ولكن الخطأ ينفى العصمة الكاملة ولا ينفى الوجود ٠ فقد يكون العقل المجمل موجودا عاملا وهو غير معصوم عن الخطأ الكثير أو القليل ، ولن يقدح ذلك لا في وجوده ولا في صلاحه للتفكير ، لأن التقسيم المنطقى يخطىء أيضا كما يخطىء العقل المجمل في أحكامه المجملة ولا يقال من أجل ذلك ان التقسيم المنطقى غير موجود أو غير صالح للتفكير ٠ فاذا قالت البداهة العقلية : نعم هناك اله ــ فهذا القول له قيمة في النظر الانساني لا تقل عن قيمة المنطق والقياس ، لأنها قيمة العقل الحى الذى لا يرجع المنطق والقياس الى مصدر غير مصدره أو سند أقوى من سنده ٠ **وقد كان العقل المجمل أبدا أقرب الى الايمان** وأقرب الى قولة (نعم) في البعث عن الله ، ولم يستطع التقسيم المنطقى أن يقــــول (لا) قاطعـــــة مانعــــة في هذا الموضوع (٢) » ٠

وقريب هذا مما انتهى اليه الفيلسوف **ديكارت** في قولته المشهورة

(١) الطور ٢٥ ، تبارك ٣ ، المؤمنون ١١٥ ــ ١١٦ ، الأنعام ١٠٣ ٠
(٢) العقاد : الله (طبعة دار الهلال) ص ١٨٦ ــ ١٨٧

« مهما شككت فاننى لا أشك فى أن لى نفسا تشك) ، (أنا أفكر اذن أنا موجود) !!

من أين تهب رياح الشكوك على منطق العقيدة ؟؟

هل العلم التجريبى هو مصدر الاعتراض ؟؟

« من العلماء من عقيدته تقرير وتوكيد ، ومنهم من عقيدته ترجيح ورغبة ، ومنهم من عقيدته استعداد وانتظار ... وحصة هؤلاء فى تأييد العقيدة غير قليلة ، لأنها بمثابة (فتوى علمية) بأن العلوم التى تفرغوا لها وبلغوا مبلغ الثقة فيها لا تعارض الايمان فى أساسه ، ولا تمنع صاحبها أن يفتح صدره وضميره لعالم الغيب فليس عالم الشهادة عندهم بالعالم الوحيد . ولا نعرف من علماء القرن العشرين من هو أبعد شوطا فى الاعتقاد من الدكتور ألكسيس كاريل Alexis Carrel الطبيب المتخصص فى بحوث الخلية ونقل الدم وصاحب جائزة نوبل ١٩١٢ – ختم رسالته الصغيرة عن الصلاة : (والخلاصة ان الشعور بالقداسة مع غيره من قوى النشاط الروحانى له شأن خاص فى الحياة لأنه يقيمنا على اتصال بآفاق الخفاء الهائل من عالم الروح ... والصلاة على مانرى ضرورة لا غنى عنها لنمو الانسان فى أرفع حالاته ، ولا ينبغى أن ننظر اليها كأنها عمل لا يلجأ اليه غير الضعاف والمتسولين والجبناء – أو كما قال نيتشة : انها شىء مخجل ، فما الصلاة بأدعى الى الخجل من شرب الماء والتنفس !!

وان الانسان ليحتاج الى الله حاجته الى المـاء والأكسجين ، وهذا الشعور بالقداسة الى قرائنه من الشعور بالبصيرة والحاسة الخلقية وذوق الجمال وضياء الفهم هو تمام الازدهار والنضج للشخصية الانسانية)
... ومن العلماء المؤمنين : روبرت بروم Broom عضـو الجمعية الملكية الانجليزية ، الذى سئل عن عقيدته الدينية باعتباره رجلا من رجال العلم الحديث فأجاب فى فصل خاص لمجموعة Modern Spirit towards philosphy of faith سنة ١٩٥١ : (من نحو عشرين سنة اهتم بعضهم المادية التى شاعت بين الدوائر العلمية فى النصف الأخير من القرن التاسع عشر ، هل لاتزال على شيوعها ؟ ... فتبين أن فئة مدهشة بنسبة عددها الى سائر أعضاء الجمعية الملكية – قد قررت بأسلوب واضح أنها تؤمن بعالم روحانى وعناية ربانية مهيمنة ، وأن كثيرا منهم يعتقدون بقاء الشخصية بعد موت الجسد ، وظهر فى امتحان الأسئلة أن عددا كبيرا

من الأعضاء لم يحفل بالافصاح عن رأيه ـ مما قد يفهم منه أن بعضهم على شك وتردد ، وقد يكون الشك والتردد خطوة في طريق الايمان»(١)٠

والمادة بكثافتها الغليظة لا تقف حائلا دون الايمان بالله (لا تدركه الأبصار ، وهو يدرك الأبصار ، وهو اللطيف الخبير) :

« حدثت في السنوات الخمس الأخيرة من القــرن التاسع عشر حوادث (علمية) غيرت كل صورة من صور المادة عرفها الأقدمون ٠٠٠ عرفوا الكهرب الذي تحسب ذرة الهيدروجين جبلا ضخما بالقياس اليه ، ثم تقدموا في معرفة الكهرب والذرة حتى أفلتت المادة كلها من بين أيديهم ، ولم تبق منها غير حسبة رياضية كانوا (يحسبونها) مثلا في الدقة والضبط والعصمة من الخلل ، فاذا هي في النهاية حسبة لا يضبطها الحساب الا على وجه التقريب ! أفلت من المادة كل شيء ثابت أو كانوا يحسبونه مضرب المثل في الثبوت و (الحقيقة) !!

فاللون من الشعاع ـ والشعاع هزات في الأثير !! والوزن جاذبية ـ والجاذبية فرض من الفروض ! والجــرم نفســه متوقف على الشحنة الكهربية ، وعلى سرعة الجسم في الحركة ، ونصيبه من الحرارة ٠ والحرارة ما هي ؟ حركة ! والحركة في أي شيء ؟ في الأثير ! والأثير ما هو ! فضاء أو كالفضاء، وكل وصف أطلقته على الفضاء فهو بعد ذلك مطابق لأوصاف الأثير ٠ حتى الصلابة التي تصدم الحس أصبحت درجة من درجات القوة تقاس بالحساب ، ويعلم الحاسب أنه حساب قابل للخطأ والاختلال ٠٠٠ وتقدم العلم بالكهرب والذرة مرة أخرى ، فاذا المادة كلها كهارب وذرات ، واذا بالذرات تنفلق فتنطلق شعاعا كشعاع النور !! هل هذا الشعاع موجات ؟ هل هو جزيئات ؟ قل هذا أو قل ذاك ، فهذا وذاك في ميدان (التجربة) سواء !

وعاد العلماء التجريبيون الى القوانين الطبيعية التي تحكم الحرارة والحركة والضوء ، وكل ما في عالم المادة من كهارب وذرات ، فوجدوا لها قانونا واحدا ـ وهو الخطأ والاحتمال ٠٠٠ ان المــادة اليوم لا تصد المفكرين عن عالم الحقائق المجردة ، ولا هم يتخذون من صلابتها وجسامتها

---

(١) راجع مزيدا من هذه الشهادات في فصل (عقائد العلماء) من كتاب العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين

شرطا للحقيقة الثابتة ، فان الحقيقة المادية نفسها لا تثبت اليوم بمجرد الصلابة والجسامة ، ولاتزال ترتد الى أصولها حتى تئول الى عدد من الهزات فى ميدان مجهول هو ميدان الآثير وميـدان الفضاء • فالمادة فى القرن العشرين قد اقتربت من عالم الفكر المجرد بل دخلته ، وأصبحت فى تقدير الثقات عملية رياضية أو نسبة من النسب التى تقاس بمعادلات الحساب » (١) •

(١) العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ٤٦ : ٤٨ ، ٥٢

راحة

« ... أجاب يسوع وقال لها : لو كنت تعلمين عطية الله ، ومن هو الذى يقول لك أعطينى لأشرب ـ لطلبت أنت منه فأعطاك ماء حيا ... كل من يشرب من الماء الذى أعطيه أنا فلن يعطش الى الأبد ، بل الماء الذى أعطيه يصير فيه ينبوع ماء ينبع الى حياة أبدية (١) » ...

هذه هى الراحة التى تفيض من العقيدة على جنبات النفس ...

وما أروع هـذه **المناجاة** التى تصور كيف يشفى الايمـان بالرب الرحيم متاعب الكدر فى الحياة الدنيا .

«يا الله ... ان حياة الانسان على الارض حرب عوان ... عند الرضا نخاف من الشقاء ، وعند الشقاء نتراكض لطلب الرضاء ! .. تبا لنعيم الارض لان الخوف من شقائها ينغص لذاتها ، وتبا لشقاء الدنيا لان الامل فى نعيمها يضغط على الطبيعة البشرية فلا يعـود عندها صبر على شقائها ! .. عراك متواصل ، دون فتور أو هدنة ، وقـد وضعت كل آمالى فى مراحمك ، فاعطنى أن أعمل ما تأمرنى به ، أعطنى العفة التى لا يقدر عليها الا من أعطيت له من فضلك .. أنت حبى وهواى ، أنت أملى ومناى ، لا أتعلق الا بك ، ولا أشتاق الا اليك ... أنت المتعالى بقدرتك غير المتناقص برحمتك ، القوى القدير ، وليس للعقل البشرى أن يحيط علما بصفاتك السامية ! ليس أحد يراك ، ولا أحد يدركك ، على حين أنك حاضر دائما بيننا ، لا يعتريك زوال ولا يشبهك مثال ، تغير كل شىء وأنت لا تتغير فى شىء ، وتجدد كل شىء عدا المتكبرين فانك تسحقهم سحقا ! تغير الامور لا الاوامر ... أى يوم ياترى تجعل منزلك فى قلبى وتسكره من خمرة حبك وتنسيه مرائر أوجاعه وبلاياه فيلتصق بك بجملته ! . أسألك أن لا ترد وجهك عنى ، وحبذا أن أموت عن نفسى لأقدر أن أفوز بمعاينتك ! ان منزل نفسى صغير ضيق لا يسعك فأوسعه أنت ورممه ،

---

(١) يو ٤ : ١٠ ـ ١٤ .

ومن ياترى لى باصلاح نفسى سواك ؟ وهل أصرخ الى غيرك ؟ ... عظيم أنت يا الله ، مابال الانسان يحاول أن يمجدك ، وهو جزء طفيف من خلائقك ! » ، « لقد صنعتنا لذاتك وتظل أرواحنا قلقة حتى تجد راحتها فيك » (١) .

ان الايمان بالله ليس مسألة رياضية أو فلكية وحسب ، يكتفى مقدرها بأن يقول : ان الله موجود أو ان الله واحد ، وتنتهى غايته عند هذا التقرير ... ليس مسألة كل ثمرتها زيادة المعلومات والمعارف الانسانية عن كائن يسمى (الله) صفاته كيت وكيت !! ...

« كان أناس من الحكماء يعرفون الله كأنهم يعرفون حلا مقنعا لمسألة الوجود ، أو كأنهم يعرفون خالقا للكون ولا يزيدون ... ومما لاريب فيه أن عقيدة التوحيد قد سرت من مصر فى صورة من الصور الى بلاد المشرق ومنها بلاد البحر الأبيض ووادى النهرين ، ومما لاريب فيه أنها كانت سر الخاصة وذوى الرياسة فى المحاريب والقصور ...

ولم يكن سر أحبار وحكماء ، ولم يكن خالق الكون والناس ولا مزيد !

بل كان خالق الكون والناس ، وحاكم الكون والناس ، وكان منه الأمر والنهى ، واليه المرجع والمآب . **كانت مبادئه مسألة حية تمتزج بسرائر النفس ، وتنبعث منها فضائل الخير ، ولا تنزوى عنها زاوية فى الكون ولا فى ضمير الانسان** . كانت دعوته صرخة تسمع وتتجاوب بها الآفاق ، ولم تكن لغزا يخفى وتتحاجى به العقول ! **كانت صحبة البيت والطريق ، وصحبة اليقظة والمنام ، وصحبة العزلة والجماعة ، وصحبة الحياة قبل الميلاد وبعد الموت ، ولم تزل حتى أصبحت وهى صحبة الخلود الذى لا يعرف الفناء (٢) »** .

« الذى خلقنى فهو يهدين . والذى هو يطعمنى ويسقين . واذا مرضت فهو يشفين . والذى يميتنى ثم يحيين . والذى أطمع أن يغفر لى خطيئتى يوم الدين (٣) » .

هذا الايمان الصحيح هو الذى يحقق ما ورد فى نداء المسيح : « تعالوا الى ياجميع المتعبين والثقيلى الاحمال وأنا أريحكم(٤) » .

---

(١) اعترافات القديس اغسطينوس ترجمة الخورى يوسف العلم ومراجعة الأب بولس الفرتسنسكانى ص ١٠ : ١٢ ، ٢٣٢ ــ ٣

(٢) العقاد . أبو الأنبياء ص ٩ ــ ١٠ .

(٣) الشعراء : ٧٨ ــ ٨٢ .

(٤) مت ١١ : ٢٨

فالايمان يقى النفس من ان تتبدد طاقتها فى مضطرب الحياة الدنيا ٠٠٠ يعصمها من اليأس الكسير ، كما يعصمها من القوة المغرورة على السواء : « ٠٠٠ بالايمان قهروا ممالك ، صنعوا برا ، نالوا مواعيد ، سدوا أفواه أسود ، أطفأوا قوة النار ، نجوا من حد السيف ، تقووا من ضعف ، صاروا أشداء فى الحرب ، هزموا جيوش غرباء (١) » ٠٠٠

« ونقص البراهين العقلية التى يستدل بها الفلاسفة على وجود الله أن البرهان قوة ترغم العقل على التصديق ، **ولا يأتى الايمان بارغام بل بطلب وشوق واجتهاد فى التحصيل** ، فان لم تشـــعر النفس بمكان الايمان منها فلا محل للبرهان فيها ، وان شعرت بهذا المكان فالبرهان متمم لشىء موجود يعاونه ويزيد عليه ٠٠٠ قال الوجودى المتدين كارل جاسبر Karl Jasper بصدد الأوامر المطلقة : (وينبوعها فى نفسى بما أنها مساك كيانى ، وليس وجود الكائن الأبدى المطلق مسألة علم بل مسألة يقين ، فان العلم المحدود لا يمتد وراء الحدود) » (٢) ٠

فالايمان اذن انما هو استجابة لحاجة نفسية : « فأقم وجهك للدين حنيفا ، فطرة الله التى فطر الناس عليها ، لا تبديل لخلق الله ، ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون (٣) » ٠

وفى رحاب الايمان يتوافق العقل والوجدان ، ويتوافق الجسد الروح ، ويتوافق الفرد والمجموع ، ويتوافق الانسان والكون ، ويتوافق العمر المحدود والخلود ، حين تقوم هذه الصلة الروحية العقلية بين الخالق والمخلوق ٠

ونحن نقرأ فى بعض الكتابات المسيحية مثل هذه الكلمات المنيرة التى تحاول النفاذ الى أعماق الدين وأعماق الانسان على حد سواء :

« هناك خطأ فى التفكير يحسب الجسم شرا بسبب ماديته ، وكان هذا خطأ الهراطقة المسيحيين الذين ظنوا أن المـادة شر فى ذاتهـا وأن الجسم شر سـجن وأن الروح أسـيرة فيه ! ولـكن هذه ليست عقيدة المسيحية ، فالجسد انما خلقه الله وجعله صالحا ، وفى الوسع استعماله لأغراض شريرة كما يمكن أن يكون مسكنا للروح القدس وخادما لمقاصد الله ٠ والعالم الذى يعنى الكتاب المقدس أن نبتعد عنه انما هو العالم الذى ينسى الله فيه » ٠

---

(١) عبرانيين ١١ : ٣٣ - ٣٤ ٠

(٢) العقاد : عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ١٣٧ - ١٣٨ ٠

(٣) الروم ٣٠ ٠

« ... وعلينا هنا أن نشدد على ناحية واضحة جدا في الكتاب المقدس وهي أن الله يهتم بالانسان كله وليس بجزء منه ، وقد اعتدنا أن نتكلم عن الانسان أنه جسم وروح وكثيرا مانظن بأن الجزء الذي يجب أن يكون متدينا هو روحه ! ويوضح الكتاب المقدس مثل هذا التمييز بين الجسم والروح وفي بعض الأوقات نراه يضيف النفس الى الجسم والروح ، ولكن هل معنى هذا أن الانسان يتألف من جزءين منفصلين : الروح والجسد ؟ أو ثلاثة أجزاء : الجسد والروح والنفس ؟ وهل واحد منها أدنى والآخر أعلى وأسمى ، واحد أرضي والثاني الهي ؟ ان الكتاب يتكلم دائما أن الانسان وحدة ... فالانسان وان كان جسدا ونفسا وروحا فانه وحدة ، **والله يهتم بالانسان كله كما يهتم بالناس جميعهم على** السواء .. »

« لقد خلق الانسان ليكون وحدة كاملة ، لكنه سرعان ما انقسم على نفسه ! وقد أعطانا الله غرائز وعواطف وقوة للتفكير والحكم ، ولكن هذا الانسان لم يستفد منها كما يجب .. » (١)

على أننا نقرأ أحيانا مايساير الفلسفة القديمة في تقسيم الكيان الانساني ، ومن الغريب مثلا أن تقرأ للكاتب نفسه في موضع آخر مايدل على الثنائية بل والانفصال « لا يستطيع الانسان أن يعيش كمن لا جسم له أو ككائن شابه الملائكة ولا يتأتى سلامه عن طريق التهرب من عالمه ، ويستطيع المسيحي أن يجمع بين العالمين فيعيش فيهما في وقت واحد يوافق بين مطالب الجسد ومقتضيات الروح » ويوغل الكاتب الى أبعد من ذلك فيقول « ولابد من وقوع تصادم في حياة الانسان (لأن الجسد يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد ، وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون مالاتريدون ـ غلاطية ٥ : ١٧) ولا مراء ، فالروح يرغب أن يعيش بموجب مشيئة الله في حين أن الجسد الذي هو قسم منا يرغب أن يعيش بشكل يحسب فيه الله غير موجود !! واذا ما سمح الانسان لجسده أن يسيطر على روحه فانه يتدلى الى مرتبة الحيوان ، ولكنه اذا ترك لروحه أن تتحكم فيه اقترب من طبيعته الحقيقية الكاملة ! وعندما تسيطر الروح فعند ذاك يظهر الانسان الحقيقي اللائق بملكوت الله .. ان غرض الله انما هو تحقيق انتصار الروح على الجسد .. ان هناك صعيد المادة ، وصعيد الحياة ، والنفس ، والعقل ، والروح . وما يهم الله في هذه المرحلة من مراحل تحقيق أغراضه على الأرض هو أن

---

(١) ستيفن نيل : ما هو الانسان ترجمة ابراهيم مطر ص ٢٠ ـ ١ ، ٢٩ ، ٦٦ ـ ٧

يتحقق النصر للروح على الجسد ، وذلك بأن يتمرس الناس أن يعيشوا كأرواح ، وحياة الروح فى مستطاع الجميع ، ولكن ليس كل الناس يختارون أن يعيشـــوا كأولاد لله لأن الكثرة منهم يؤثرون عيشـــة الجسد » !! (١)

ويقـول الأب فرنسيس فريبه ان القديس بولس يســـتعمل لفظ (الجسد) تارة بما يفيد الانسان بكامله ، وتارة بما يعنى الطبيعة البشرية الخاضعة للألم والموت ، وطورا بمـا يعنى الطبيعة البشرية التى أفسدتها الخطيئة « وانه من الخطأ أن ننســب لبولس ضلال المامورية حين يرسم المقابلة بين ضـــعف الجسد وقداسة الروح ٠٠٠ ومن خلال النصوص يتضــح أن المعنى المحقر للجسد الذى كان يقصــده الفلاسفة الرواقيون لم يتسرب الى لغة القديس بولس ، خاصة عندما يتحدث عن جسد المسيح الطاهر ٠٠٠ وعليه فالعلاقة القائمة بين الجسد والخطيئة ليست علاقة جوهرية» (٢) ٠

ما أصدق المسيح : «**ماذا ينتفع الانسان لو ربح العالم كله ، وخسر** نفسه (٣) » وهو يخسر نفسه اذ يتيه فى الدوامة الكبرى ويفتقد قاعدة الايمان النابتة ، فما أسرع أن تميد به الأرض أو تهوى به الريح !!

والايمان بالله كفيل بنماء الفضائل الأخلاقية ، وحسن انفاذ الأحكام التشريعية ، لأنه يملأ على النفس شعابها ، فيجعلها أقوى على حمل تبعات الحق ، وأورع عن المروق من التكاليف والجموح بين الثغرات والتآويل ، وأقدر على اطالة الأنفاس حتى لا تنقطع فى بيداء الحياة الشاسعة ــ ان أصابت المؤمن سراء شكر فكان خيرا له ، وان أصابته ضراء صبر فكان خيرا له ٠

فالعقيدة تعمق العلاقات الانسانية ، وتضاعف المجهود البشرى ، وتزيد القيم الفاضلة ثراء ، وتجعل الدنيا بزينتها وقسوتها معبرا لابد من السعى فيه بجد الى حياة النعيم ٠

وفى آفاق العقيدة الرحيبة تنطوى المشكلات الصغيرة ، والمنغصات المحدودة ، التى تفجر الرءوس وتغص الحلوق وتضيق الأنفاس ، متى كانت الدنيا للانسان غاية همه ، ومبلغ علمه ٠

---

(١) ستيفن نيل : الله فى المسيحية ترجمة ابراهيم مطر ص ٩٠ ــ ٩٣
(٢) فرنسيس فريبه : التجسد ــ ترجمة لويس أبادير ص ٢٠ : ٢٢
(٣) مت ١٦ : ٢٦ ، مر ٨ : ٣٦ ، لو ٩ : ٢٥ :

« وعقائد القيم الانسانية تقف بصاحبها دون الغاية الوافية من العقيدة ... لأنها تتركه في الكون كله بغير سند يطمئن اليه ، ولا تجاوز به حدود نوعه ، وهو - أي النوع الانساني - ضائع كله فى الكون ، ما لم يكن لوجوده معنى أصيل مرتبط بالوجود الشامل لجميع الموجودات .. ان علاقة الانسان بالكون أعرق وأوثق وأعمق من كل علاقة باقليمه أو بعشيرته أو بنوعه ، وليس بالمفهوم أن تترجم نوازعه عن علاقات العشيرة والاقليم والنوع ، ثم تخلو من ترجمة لعلاقته بالوجود كله !! فان لم تكن العقيدة الدينية هى ترجمة العـلاقة الكونية ، فأين توجد هذه الترجمة ؟؟ ... نعم ان القيم الانسانية تؤسس فى خلائق الانسان الايمان بالواجب ، وان قيامه بواجبه يبعث فيه الثقة والطمأنينة والعزاء ، وانه متى عرف القيم الانسانية عرف الأحسن والأكمل وأعرض عن القبح والنقيصة ، ومتى اهتدى الى الواجب بين ما هو حسن وما هو قبيح حمد له وتبين طريقه فى ظلمات المجهول . ولكنه ولا ريب لا يكتفى بهذا الواجب لو علم بما هو أكثر منه وأكبر ، وانه لا يستغنى معه عن سند له وسند للنوع الانسانى كله . ولا يجد هذا السند فى شيء كما يجده في عقيدة تشمل الكون وما فيه بل تشمل الكون وما وراءه ، وتحيط بالزمن بغير ابتداء ولا انتهاء » (١) .

على جذور العقيدة الضـاربة الى الأعماق ، ثبت المسيح غراس الأخلاق ونمى ثمارها ، وربى أتباعه على أن يفعلوا الخير ابتغاء مرضاة الله وحده وثوابه فى أخراه .

« ورفع عينيه الى تلاميذه وقال : طوباكم أيها المسـاكين لأن لكم ملكوت الله ، طوباكم أيهـا الجيـاع الآن لأنكم تشبعون ، طوباكم أيها الباكون الآن لأنكم ستضحكون ، طوباكم اذا أبغضكم الناس واذا أفرزوكم وعيروكم وأخرجوا اسمكم كشرير من أجل ابن الانسان - افرحوا فى ذلك اليوم وتهللوا فهو ذا أجركم عظيم فى السماء ، لأن آباءهم هكذا كانوا يفعلون بالأنبياء ! ولكن ويل لكم أيها الأغنياء لأنكم قد نلتم عزاءكم ، ويل لكم أيها الشباعى لأنكم ستجوعون ، ويل لكم أيها الضاحكون الآن لأنكم ستحزنون وتبكون ، ويل لكم اذا قال فيكم جميع الناس حسنا لأنه هكذا كان آباؤهم يفعلون بالأنبياء الكذبة .

لكنى أقول لكم أيها السـامعون : أحبوا أعـداءكم ، أحسنوا الى

---

(١) العقاد : عقائد المفكرين في القرن العشرين ص ١٦٠ : ٢

مبغضيكم ، باركوا لاعنيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم · من ضربك على خدك فاعرض له الآخر أيضا ، ومن أخذ الذى لك فلا تطالبه ! وكما تريدون أن يفعل بكم افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا · وان أحببتم الذين يحبونكم فأى فضل لكم ؟ فان الخطاة يحبون الذين يحبونهم · واذا أحسنتم الى الذين يحسنون اليكم فأى فضل لكم ؟ فان الخطاة أيضا يفعلون هكذا · وان أقرضتم الذين ترجون أن تستردوا منهم فأى فضل لكم ؟ فان الخطاة أيضا يقرضون الخطاة لكي يستردوا منهم المثل · بل أحبوا أعدائكم وأحسنوا وأقرضوا وأنتم لا ترجون شيئا ، فيكون أجركم عظيما وتكونوا بنى العلى فانه منعم على غير الشاكرين والأشرار ، فكونوا رحماء كما أن أباكم أيضا رحيم · ولا تدينوا فلا تدانوا ، لا تقضوا على أحد فلا يقضى عليكم ، اغفروا يغفر لكم ، أعطوا تعطوا » (١) ·

هذه شريعة للأخلاق فوق شريعة الواجب ··· شريعة تستند الى أوامر الله وجزائه فى عالم الغيب ، لا الى تراضى الانسان والانسان وتبادلهما المنافع العاجلة فى الواقع القريب ···

« ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ، ادفع بالتى هى أحسن ، فاذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم · وما يلقاها الا الذين صبروا ، وما يلقاها الا ذو حظ عظيم » ·

« يوفون بالنذر ويخافون يوما كان شره مستطيرا · ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيرا · انما نطعمكم لوجه الله لا نريد منكم جزاء ولا شكورا · انا نخاف من ربنا يوما عبوسا قمطريرا · فوقاهم الله شر ذلك اليوم ولقاهم نضرة وسرورا · وجزاهم بما صبروا جنة وحريرا · متكئين فيها على الأرائك ··· »

« ولكل درجات مما عملوا ، وليوفيهم أعمالهم وهم لا يظلمون · ويوم يعرض الذين كفروا على النار — أذهبتم طيباتكم فى الحياة الدنيا واستمتعتم بها ، فاليوم تجزون عذاب الهون بما كنتم تستكبرون فى الأرض بغير الحق وبما كنتم تفسقون » ·

« فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون · على الأرائك ينظرون · هل ثوب الكفار ماكانوا يفعلون ؟؟ » (٢) ·

---

(١) لو ٦ : ٢٠ — ٣٨

(٢) فصلت ٢٤ : ٣٥ ، الانسان ٧ : ١٣ ، الأحقاف ١٩ — ٢٠ ، المطففين ٣٤ : ٣٦

نظام

والعقيدة لا تجمع شتات النفس فى الفرد الواحد فحسب ، ولكنها تجمع شتات الناس مجتمعين ...

العقيدة تجمع الطبقات ، وتجمع الأقوام ، وتجمع الأوطان ، ثم هى تجمع الأجيال والأزمان ...

والى العقيدة وفلسفتها ترتكز أحكام التشريع ...

فالتشريع يقرر المساواة : ومن العقيدة تستمد هذه المساواة فى أعمق جذورها ، اذ لا يتميز على المخلوق الا الخالق ، وكل العباد سواء أمام الرب المعبود .

والتشريع يقرر الحريات : والعقيدة لا تجعل حاكما مقبولا لذاته ـ مرضى الحكم فيما يرضى وفيما يكره الا الله لا يحمد على مكروه سواه ، وكل الناس بعد ذلك مختارون لمهامهم ، مسئولون عن التزاماتهم ، يناقشون الحساب ! .

والتشريع يقرر التكافل : والعقيدة تجعل المالك الأصيل لكل النعم هو الله ، وتجعل الناس جميعا مطالبين بابتغاء رزقه واقتسام عطائه دون تظالم أو تهاون .

والعقيدة فى الله تجعل المؤمن حارسا للتشريع ، يعبد الله بطلب حقه وأداء واجبه على السواء ، وهو اذ يحرس التشريع يحرس عقيدته نفسها ـ حتى يحجز عن الكبرياء كل متعال بنسب أو طبقة ، وكل متجبر بسلطة ، وكل متطاول بثروة ـ اذ الله وحده هو الغنى القوى ، والعزيز الجبار !

والعقيدة فى الله على هذه النحو تجمع على الانسان نفسه وتجمع عليه الحياة !!

تجعله على وفاق مع عقله ونفسه ، ومصالحه ومطالبه كلها ، كما تجعله على وفاق مع الكون ، وعلى وفاق مع الناس أجمعين ـ واذ أسلم وجهه لله رب الناس والأكوان ـ رب العالمين ، فسلم من اضطراب النزعات واصطراع الأهواء !

« وهذه هي الفتوح التي لا نظير لها فيما تحدث عنه المؤرخون من فتوح الحياة الانسانيه منذ أقدم عصورها الى العصر الحديث · لا نظير لها فيما فتحه الانسان من هذا العالم حين سخر النار أو سخر الحيوان أو سخر الذرة ـ فهذه فتوح فيما يملكه الانسان ، أما تلك الفتوح ففيها ملاك الانسان كله : فيما يعلمه وفيما لا يعلمه ، وفيما يبديه وفيما يخفيه · تلك فتوح غيرت عالم الانسان الظاهر وعالمه الباطن ، وليس قصارى الأمر فيها أنها عبادة جديدة أفضل من عبادة سبقتها ـ وان كانت العبادة الفضلى غنما يغليه من يقتنيه ويفديه بكل مايعيه ومالا يعيه ! كلا، **بل هي عبادة فضلى ، وفكر فاضل ونظر جديد الى الكون والى الانسان وبني نوعه في وحدته وفي اجتماعه · وهي فتوح تصحح مقاييس الفكر وتبدل علاقة الانسان بنفسه وبدنياه ، وتحسب من أجل ذلك في سجلات العلم ورياضات الخلق وقوانين الاجتماع ·**

ان حقائق الكون الكبرى لن تنكشف لعقل ينظر الى الكون كأنه أشتات مفرقة بين الأرباب ، يتسلط عليها هذا بارادة ، ويتسلط عليها غيره بارادة تنقضها ··· فلم يكن التوحيد عبادة أفضل من عبادة الشرك وكفى ، بل هو علم أصح ونظر أصوب ومقياس لقوانين الطبيعة أدق وأوفى ، ومن هنا صدرت كل فكرة عظيمة عن الكون من عقل فيلسوف مؤمن بالوحدانية ـ وان لم تبلغه دعوة الأنبياء ·

أما ميزان العدل الالهي فهو الذى أقام المساواة بين الناس على دعامتها الراسخة ، وكل ماعداها من دعامة فانما هي دعائم القوة ممن يقدر عليها سواء اقتدر عليها بسطوته الباطشة أو بتأليب الطوائف والجماعات · **وما كان للعدل بين الناس من سبيل وهم يقيسون بعضهم الى بعض ، ويطلبون المساواة بين أقوى الأقوياء منهم وأضعف الضعفاء ! فاذا ارتفع الميزان الى اليد الالهية ، فهذا القوى مهما يبلغ من القوة ، وذلك الضعيف مهما يبلغ من الضعف ـ ندان متساويان ، ومخلوقان امام خالق واحد** : مازاد من قوة أحدهما فهو من عطاء ذلك الخالق ، وما نقص من قوة الآخر فهو من قضائه ، ومن دواعي رحمته وبلائه ، واليه المرجع في حسابه أو جزائه · فلا يدخله أحد في حساب غير ذلك الحساب ،

ولا يعرضه أحد على ميزان غير ذلك الميزان ... وان الواقع الذى لا مرية فيه أن الانسان قد ملك الذرة الصغرى فملك من الطبيعة قوتها الكبرى ، وأنه خليق بهذه القوة أن يضل ويطغى ، ولكن اليقين الحق أنه لن يكبح ذلك الطغيان من نفسه بقوة الطبيعة صغراها وكبراها ، وانما يكبحه ـ اذا قدر له أن يكبحه ! ـ بسلطان من ذلك الفتح المبين ... » (١) .

ويقول الأسقف بل : « ان البعض يعتقدون أن (الديمقراطية) بدون الله ـ أى الديمقراطية التى تستلهم من مثل بشرية محضة ـ ستؤدى فى النهاية الى المجتمع الكامل ، وأمثال هؤلاء الناس الذين يعتقدون فى مبادىء المساواة والحرية والعدل ولكن بدون اعتقاد فى الله لا يحسبون حسابا لوهن العامل البشرى ! وهم يدعون أن المجتمعات التى أخذت بهذا الأسلوب من الحياة الديمقراطية تطبق هذه المبادىء ولا تتنكر لها ، على أن واقع الأمر أن هذه الديمقراطيات ليست مبرأة من عـــدم المساواة والتفرقة فى المعاملة والظلم والاستبداد والاستغلال والعدوان ! ويعتقد آخرون أن (العلوم) مفتاح ســعادة البشر اذ بهـــا يمكن خلق مجتمع متمدين ، ولكن ليست المدنية هى المرساة الكبرى لرجاء العالم البشرى لانها اذا اختفت ولى معها الرجاء » !! (٢)

والعقيدة اذ تكون ينبوعا فوارا بالخير ينفجر منه كل مبدأ سليم ، وكل سبيل قويم ، لا تقف عند البدء والانشاء ، بل هى توالى الامداد والتجديد والانماء ...

والعالم الطبيعى شارل داروين ـ حفيد صاحب مذهب التطور ـ يشهد للعقيدة فى كتابه عن المليون سنة The Next Million Years فيقول : « ان العقائد لها خاصة أخرى أقوم وأجدر بالالتفات اليها ، وذاك أنها تكفل الدوام للخطط الاجتماعية زمنا أطول من الزمن الذى تتكفل به أية فكرة عقلية . وفى التاريخ حالات عديدة تصدى فيها نخبة من الساسة المستنيرين لوضع سياسة يتوخون بها المصلحة العامة ويقفون حياتهم على انجازها ، وما هو الا أن ينقضى جيلهم حتى يعقبهم ساسة آخرون ينقضونها ايثارا لطريقة غيرها من طرق المصلحة الانسانية ، فلا يطول أجل الخطة القائمة على العقل أكثر من جيل واحد ـ وهو أمد قصير جدا لا يكفى للتغلب على عقبات المصادفة !! فلو أن خطة من الخطط

---

(١) العقاد : أبو الأنبياء ص ٦ : ٨

(٢) التقرير المرفوع لبابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية من اللجنة المشكلة بقرار مابوى فى ١٧ أغسطس سنة ١٩٦٢ لفحص ما نسب الى مجلس الكنائس العالمى ص١٥

تسنى لهـا أن تمتزج بحماسة الايمان فاصبحت من العقائد المصدقة ، لقوى الأمل فى بقائها نحو عشرة أجيـال متعاقبة ـ وهى برهـة كافية للتغلب على طوارىء المصادفات • وبهذه المثابة تشـارك العقيدة خلية التناسل فى خاصتها التى تحفظ أثرها فى البيئة الانسانية » (١) •

هل ابتعدنا كثيرا عن صحبة المسيح فى الأناجيل الأربعة ؟؟ •••

لا أظن أننا ابتعدنا كثيرا أو قليلا ، بل نحن فى القلب والصميم • وانما نحاول أن نتبين طريق المسيح ـ فهو طريق دين الله على اختلاف رسله وكتبه ، ونتعرف العلة فى احتمال المسيح ـ واحتمال رسل الله جميعا ـ ما احتملوه ، فما كان أحراهم أن يريحوا ويستريحوا من هذا العناء ، لو كانت قضية العقيدة اثباتا لوجود اله دون تأثير على تعامل الناس ، وقولا بعالم آخر دون مساس بالحياة الواقعة القائمة !!

« ان الله حياة ••• ان الله نور ••• ان الله محبة ••• ان الله روح »

« أنا هو نور العالم ••• من يتبعنى فلا يمشى فى الظلمة ، بل يكون له نور الحياة » (١) •

« قد جاءكم من الله نور وكتـاب مبين • يهـدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم » (٢) •

---

(١) يو ١٤ : ٣٦ ، ١ : ٤ ، ٤ : ١٠ ، ٢٤ ، ٨ : ١٢ •

(٢) المائدة ١٥ ـ ١٦ •

رحمة ... لا ذبيحة

« انى اريد رحمة ، لاذبيحـة
... لأنى لم آت لأدعو آسرارا ،
بل خطاة الى التوبة »

« كان يجالس الفقراء ويستمع الى شكاتهم فقد كان فقيرا ، ويحادث الخاطئين دون أن يلتفت الى نظرات الاستنكار التى تصوب اليه ــ ولم يكن خطاء بل كان ذا قلب كبير ! كان انسانا يغفر ضعف الانسان !!

أصغى الى الكتبة والفريسيين ولكنه لم ينفعل لمواعظهم ، فكلماتهم تخرج من الفم ، كلمات ميتة بلا روح فلا تجد طريقها الى القلب ...

الفريسيون ينطلقون فى الطرقات يتجسسون على الفقراء ليتحققوا من طهارة ثيابهم ومنازلهم وحوانيتهم !! ولكنهم لايهتمـــون كثيرا بطهارة النفس ، فالفواحش ترتكب دون أن يحركوا ساكنا ، فانما كل ما يهمهــم نظافة الثوب ! وأصغى الى كبار الحاخامين فى المعبد فى موسم الحج فألفى شريعة موسى قد عقدت وتفرعت مذاهـــــب ، فما يحلله (هلل) يحرمه (شماى) ، فأعرض عن حلقات السفسطة والجدل ومعارض الكلام ، وأقبل بنفس متفتحة على الكون ــ يغترف علما وحكمة من معينه الرقراق .. »

« أورشليم غارقة فى المشاحنات الدينية ...

وبنو اسرائيل يرسفون فى أغلال الكهنة راضين ، فقد ثبتـــوا فى أذهانهم أن الله اختارهم لحفظ الدين والناموس ! راحوا يشغلون النـــاس بالمحظورات والمحرمات ، ويقسمونها الى أقسام ودرجات :

. فشماى فى تزمته يمنع فى يوم السبت عيادة المريض ، بل يحـرم فيه الدفاع عن النفس وقتال الأعداء ــ وا ن جاءوا للبلاد محتلين ، والشيوخ يحرمون حمل شيء فيه وان كان ابرة أو كان قطعة من قماش زينت ثوب امرأة ولم تثبت فيها ــ حتى الأسنان الصناعية !!

أظهروا التقشف رياء للناس ، حتى ان فريق (الجباه الدامية) ! من الفريسيين، كانوا ينطلقون فى الطرقات مغمضى العيونــ لكيلا تقع عيونهم على النساء ! فيتخبطون فى سيرهم وبالجدران يرتطمون ، فتسيل الدماء على الجباه ارضاء للناموس !!

اذا جاع يهودى يوم السبت ــ ولم يكن عنده ما يأكله ــ فخير له أن

يموت جوعا من أن يطهو طعامه ويكسر السبت ، لأن كاسر السبت يستحق الرجم ... وأما من مات فى سبيل حفظه فهو شهيد » (١) !!

هذه صورة من قلم الأديب عبد الحميد السحار ، للقوم الذين سوف يستقبلون المسيح ورسالة المسيح ...

***

وانطلق المسيح يبشر برسالته ، بعد أن تقدمه صوت يوحنا الصارخ النذير ...

تدفقت المواعظ من فمه ساحرة أخاذة ، جديدة على قوم ألفوا الكلام فى الطقوس والمراسم لاغير ، غريبة لان فيها حياة اذ تصدر من قلب فياض بالحياة : « فكل من يسمع أقوالى هذه ويعمل بها أشبهه برجل عاقل بنى بيته على الصخر ، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط ، لأنه كان مؤسسا على الصخر ... وكل من يسمع أقوالى هذه ولا يعمل بها يشبه برجل جاهل بنى بيته على الرمل ، فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط ، وكان سقوطه عظيما !! » (٢) .

« أفمن أسس بنيانه على تقوى من الله ورضوان ، خير أم من أسس بنيانه على شفا جرف هار ـ فانهار به فى نار جهنم ، والله لايهدى القوم الظالمين . لايزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم ، الا أن تقطع قلوبهم ، والله عليم حكيم » (٣) .

وكان لابد أن تحدث مقارنة سريعة فى أدمغة السامعين بين ما يسمعون وما كانوا يسمعون !! « فلما أكمل يسوع هذه الأقوال ـ بهت الجموع من تعليمه ، لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان ، وليس كالكتبة » (٤) .

---

(١) السحار : المسيح عيسى بن مريم ص ٥٢ ، ١٤٠

(٢) مت ٧ : ٢٤ ـ ٢٧

(٣) التوبة : ١٠٩ ـ ١١٠

(٤) مت ٧ : ٢٨ ـ ٢٩ ، لو ٤ : ٣٢

للخطاة ... لا للأبرار

وهل يطيق الذين عاشوا على أن يسمع الناس لهم وحدهم ، انطلاقة هذا الصوت الجديد ؟

هل يصبرون على انقياد الشـــعب لغيرهم ، واصغائه لصوت غير صوتهم ؟

« وقال الذين كفروا : لاتسمعوا لهذا القرآن ، والغوا فيه ... لعلكم تغلبون ! » (١) .

لقد بدأت حملة التشويش ضد الصوت الجديد ..

« وبينما هو متكئ في البيت ، اذا عشارون وخطاة كثيرون قد جاءوا واتكأوا مع يسوع وتلاميذه ، فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ، فلما سمع يسوع قال لهم : لايحتاج الأصحاء الى **طبيب** ــ بل المرضى !

فاذهبوا وتعلموا ما هو : **انى أريد رحمة لاذبيحة ... لانى لم آت لأدعوا أبرارا ، بل خطاة الى التوبة !** » .

« لأنه جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب ، فيقولون : فيه شيطان ! جـاء ابن الانسان يأكل ويشرب ، فيقولون : هو ذا انســـان أكول وشريب خمر ، محب للعشورين والخطاة ! » (٢) .

« وقالوا : مال هذا الرسول يأكل الطعام ويمشى فى الأسواق ، لولا أنزل اليه ملك فيكون معه نذيرا . أو يلقى اليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها ، وقال الظالمون ان تتبعون الا رجلا مسحورا . انظر كيف ضربوا لك الأمثال فضلوا ، فلا يستطيعون سبيلا ... وما أرسلنا قبلك من المرسلين

---

(١) فصلت : ٢٦ .

(٢) مت : ٩ : ١٠ ــ ١٣ ، ١١ : ١٨ ــ ١٩ ، مر ٢ : ١٥ ــ ١٧ ، لو ٥ : ٢٩ ــ ٣٢ ، ٧ : ٣٣ ــ ٣٤

الا أنهم ليأكلون الطعام ويمشون في الأسواق ، وجعلنا بعضكم لبعض فتنة ـ أتصبرون ؟ وكان ربك بصيرا » (١) ٠

بدأوا يغمزون المسيح بغمز أتباعه ، لكن اجابة المسيح كانت مفحمة، من يدعو اذن : اذا كان سيتجنب من هم في أمس الحاجة للهداية ؟ « ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ، ما عليك من حسابهم من شيء ، وما من حسابك عليهم من شيء ، فتطردهم فتكون من الظالمين » (٢) ٠٠

وقال المسيح قولته الصادعة : **انه يريد رحمة لاذبيحة !**

« والبدن جعلناها لكم من شعائر الله ، لكم فيها خير ، فاذكروا اسم الله عليها صواف ، فاذا وجبت جنوبها فكلوا منها وأطعموا القانع والمعتر، كذلك سخرناها لكم لعلكم تشكرون ٠ **لن ينال الله لحومها ولا دماؤها ولكن يناله التقوى منكم** ، كذلك سخرها لكم ، لتكبروا الله على ماهداكم، وبشر المحسنين» (٣) ٠

فليهاجم المتربصون تعاليم المسيح بعد أن أفلسوا في النيل منسيرته ومسلكه : « حينئذ جاء الى يسوع كتبة وفريسيون الذين من أورشليم قائلين : لماذا يتعدى تلاميذك تقليد الشيوخ ـ فانهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزا ؟! فأجاب وقال لهم : وأنتم أيضا لماذا تتعدون وصية الله بسبب تقليدكم ، فان الله أوصى قائلا : أكرم أباك وأمك ، ومن يشتم أبا أو أما فليمت موتا ، وأما أنتم فتقولون : من قال لأبيه أو أمه قربان هو الذى تنتفع به منى فلا يكرم أباه أو أمه ـ فقد أبطلتم وصية الله بسبب تقليدكم! يامراءون ، حسنا تنبأ عنكم أشعياء قائلا: **يقترب الى هذا الشعب بفمه ويكرمني بشفتيه ، وأما قلبه فمبتعد عني بعيدا ، وباطلا يعبدونني وهم يعلمون تعاليم هي وصايا الناس** » (٤) ٠

« كبر مقتا عند الله أن تقولوا مالا تفعلون » ! « أتأمرون الناس بالبر وتنسون أنفسكم ، وأنتم تتلون الكتاب ، أفلا تعقلون ؟ » ! « قل من أنزل الكتاب الذى جاء به موسى نورا وهدى للناس ، تجعلونه قراطيس

---

(١) الفرقان ٧ : ٩ ، ٢٠ ٠

(٢) الانعام ٥٢ ٠

(٣) الحج ٣٦ ـ ٣٧ ٠

(٤) مت ١٥ : ١ ـ ٩ ، مر ٧ : ١ ـ ١٣

تبدونها وتخفون كثيرا ، وعلمتم مالا تعلموا أنتم ولا آباؤكم ـ قل الله ، ثم ذرهم في خوضهم يلعبون » (١) ! ٠

كان اسيح في واد ، و (الطقوسيون) الشكليون الجامدون في راد آخر ٠٠٠

« لان الفريســيين وكل اليهــود ان لم يغسلوا أيديهم باعتناء لا يأكلون ٠٠٠ ومن السوق ان لم يغتســلوا لا يأكلون ، وأشياء أخرى كثيرة تسلموها للتمسك بها ـ من غسل كئوس وأباريق وآنية ونحــاس وأسرة ! » (٢) ٠

***

وتكلم المسيح بلسانه وأعماله٠٠كان يبرىء الأكمه والأبرص ويحيي الموتى باذن الله : « يطوف المدن كلها والقرى يعلم في مجامعها ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفي كل مرض وكل ضعف في الشــعب ٠ ولما رأى الجموع تحنن عليهم ، اذ كانوا منزعجين ومتطرحين كغنم لاراعي لها»(٣) ٠

واليهود يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، فهــم لا يدعون معجزات المسيح تشده الأبصار دون تمويه أو تشويه ٠

« أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا : هذا لايخرج الشــياطين الا ببعلزبول ـ رئيس الشياطين! فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم : كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب ، وكل مدينة أو بيت منقسما على ذاته لايثبت ، فان كان الشيطان يخرج الشيطان فقد انقســم على ذاته ـ فكيف تثبت مملكته ؟ وان كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين ، فأبناؤكم بمن يخرجون، لذلك هم يكونون قضاتكم ! ولكن ان كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين، فقد أقبل عليكم ملكوت الله ٠ أم كيف يستطيع أحد أن يدخل بيت القوى وينهب أمتعته ان لم يربط القوى أولا ، وحينئذ ينهب بيته ؟ » (٤) ٠

« وما يأتيهم مش رسول الا كانوا به يستهزئون ، كذلك نسلكه في قلوب المجرمين ٠ لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ٠ ولو فتحنا عليهم

---

(١) الصف ٣ ، البقرة ٤٤ ، الأنعام ٩١
(٢) مر ٧ : ٣ ـ ٤ ٠
(٣) مت ٩ : ٣٥ ـ ٣٦ ٠
(٤) مت ١٢ : ٢٤ ـ ٢٩ ، مر ٣ : ٢٢ ـ ٢٧

بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون : لقالوا انما سكرت أبصارنا ، بل نحن قوم مسحورون ! » (١) ٠

لم يسعفهم المنطق ، فليست اللمز والتنابز بالأصول والأحساب :
« ولما جاء الى وطنه كان يعلمهم في مجمعهم حتى بهتوا ، وقالوا : من أين لهذا هذه الحكمة والقوات ؟ **أليس هذا ابن النجار ؟ أليست أمه تدعى مريم** ، واخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا ؟ أو ليست أخواته جميعهن عندنا ـ فمن أين لهذا هذه كلها ؟ فكانوا يعثرون به ٠ وأما يسوع فقال لهم : **ليس نبي بلا كرامة الا في وطنه وفي بيته** ، ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم ايمانهم ! » « فجاء الخدام الى رؤساء الكهنة والفريسيين ، فقال هؤلاء لهم : لماذا لم تأتوا به ؟ أجاب الخدام : لم يتكلم قط انسان هكذا مثل هذا الانسان ؟ فأجابهم الفريسيون : ألعلكم أنتم أيضا قد ضللتم ، ألعل أحدا من الرؤساء أو من الفريسيين آمن به ؟ ولكن هذا الشعب الذى لا يفهم الناموس هو ملعون ٠ قال لهم نيقوديموس الذى جاء اليه ليلا وهو واحد منهم : ألعل ناموسنا يدين انسانا لم يسمع منه اولا ويعرف ماذا يفعل ؟ أجابوا وقالوا له : ألعلك أنت من الجليل ؟ فتش وانظر : انه **لم يقم نبي من الجليل** » !

« فيلبس وجد نثنائيل وقال له : وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء ـ يسوع بن يوسف الذين من الناصرة ٠ فقال له نثنائيل : أمن الناصرة يمكن أن يكون شيء صالح ؟ » (٢) ٠

« ولما جاءهم الحق قالوا : هذا سحر ، وانا به كافرون ٠ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ٠ أهم يقسمون رحمة ربك ؟ نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ، ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ، ورحمة ربك خير مما يجمعون» (٣) ٠

هل فرغت جعبة المعترضين ؟

لقد أعيتهم الحيل وأجهدتهم المراوغة ، فأقبلوا مباشرة الى المسيح يستفسرون ويتساءلون ، ومن ثنايا الحديث يتصيدون الألفاظ ويؤولون الكلمات ٠٠٠ ورد عليهم المسيح سؤالهم بسؤال ، فكان الهجوم أحسن طرائق الدفاع !

---

(١) الحجر ١٠ ـ ١٥ ٠
(٢) مت ١٣ : ٥٤ ـ ٥٨ ، مر ٦ : ٢ يو ٧ : ٤٥ ـ ٥٢ ، ١ : ٤٥ ـ ٤٦ ٠
(٣) الزخرف ٣٠ : ٣٢

« وقف رؤساء الكهنة والكتبة مع الشيوخ وكلموه قائلين : بأى سلطان تفعل هذا ، أو من هو الذى أعطاك هذا السلطان ؟ فأجاب وقال لهم : وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة فقولوا لى : معمودية يوحنا من السماء كانت أم من الناس ؟ فتآمروا فيما بينهم قائلين : ان قلنا من السماء ـ يقول : فلماذا لم تؤمنوا به ، وان قلنا من الناس ـ فجميع الشعب يرجموننا لأنهم واثقون بأن يوحنا نبى ! فأجابوا : أنهم لايعلمون من أين ، فقال لهم يسوع : و أنا لا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا » (١) .

« قالت رسلهم : أفى الله شك فاطر السموات والأرض يدعوكم ليغفر لكم من ذنوبكم ويؤخركم الى أجل مسمى ... قالوا : ما أنتم الا بشر مثلنا تريدون أن تصدونا عما كان يعبد آباؤنا ، فأتونا بسلطان مبين ! قالت لهم رسلهم : ان نحن الا بشر مثلكم ، ولكن الله يمن على من يشاء من عباده ، وما كان لنا أن نأتيكم بسلطان الا باذن الله ، وعلى الله فليتوكل المؤمنون » ...

« الله أعلم حيث يجعل رسالته ، سيصيب الذين أجرموا صغار عند الله وعذاب شديد بما كانوا يمكرون » (٢) .

(١) مت ٢١ : ٢٣ ـ ٢٧ ، مر ١١ : ٢٧ ـ ٣٣ ، لو ٢٠ : ١ ـ ٨
(٢) ابراهيم ١٠ ـ ١١ ، الأنعام ١٢٤

السبت ... لأجل الإنسان

وجاءت مسألة (السبت) محكا للجدل ومثارا للنقاش ٠٠٠

ومسألة السبت هذه تعرض لها القرآن مرات : « ولقد علمتم الذين اعتدوا منكم فى السبت ، فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » ، « واسئلهم عن القرية التى كانت حاضرة البحر اذ يعـــدون فى السبت ، اذ تأتيهم حيتانهم يوم سبتهم شرعا ، ويوم لايسبتون لا تأتيهم ، كذلك نبلوهم بما كانوا يفسقون » ! « انما جعل السبت على الذين اختلفوا فيه ، وان ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » (١) ٠

ورغم أن فكرة الراحة الاجبارية فى اليوم السابع وارتباطها بخلق الكون فى ستة أيام فكرة غريبة عن الأصول الاسلامية الثابتة ـ فيما أعلم، اذ الجمعة عند المسلمين يوم صلاة جامعة لا يوم راحة مفروضـــة ، فان المفسرين قد أوردوا فى تفسير هذه الآيات ماعرفوه عن أهل الكتاب ٠ قال ابن كثير : « لاشك أن الله تعالى شرع فى كل ملة يوما من الأسبوع يجتمع الناس فيه للعبادة ، فشرع تعالى لهذه الأمة يوم الجمعة لأنه اليوم السادس الذى أكمل الله فيه الخليقة واجتمعت فيه وتمت النعمة على عباده ٠٠٠٠ واختاروا ـ بنو اسرائيل ـ السبت لأنه اليوم الذى لم يخلق فيـــه الرب شيئا من المخلوقات التى كمل خلقها يوم الجمعة ، فالزمهم تعـــالى به فى شريعة التوراة ووصاهم أن يتمسكوا به وأن يحافظوا عليه ٠٠٠ يقـــول تعالى : (ولقد علمتم) ـ يامعشر اليهود ما حل من البأس بأهل القرية التى عصت أمر الله وخالفوا عهده وميثاقه فيما أخذه عليهم من تعظيم السبت والقيام بأمره اذ كان مشروعا لهم ، فتحيلوا على اصطياد الحيتان يوم السبت بما وضعوا لها من الشصوص والحبائل قبله ٠٠٠٠ والخ » (٢) ٠

« انما جعل (السبت) للانسان : لسعادته وخيرة ٠ واذا تصـــفحنا

---

(١) البقرة ٦٥ ، الأعراف ١٦٣ ، النحل ١٢٤

(٢) تفسير ابن كثير : طبعة الحلبى ج ٢ ص ٥٩١ ، ج ١ ص ١٠٥

آيات (العهد القديم) نجدها تدور حول قصد ثنائى : أن يستريح الانسان يوم (السبت) من عناء العمل وأن يفرح بالرب في يوم عطلته ، أن يستريح ويعتبر هذا هو ناموس الأب الصالح لخير أولاده ، يستريح الناس ويستردوا قوتهم ويكونوا سعداء ! وقال الله للرجال والنساء فى أعمالهم : للأحداث فى المدارس ، للعبيد فى قيودهم ، للمواشي والحيوانات تحت نيرها ، استريحوا وأهنأوا يوما واحدا كل سبعة أيام ! وربما كان يؤثر قوم من اليهود أن يعملوا معهم عبيدهم وماشيتهم ولسان حالهم يقول : متى ينتهى (السبت) فنشترى ونبيع ونكسب ؟ أما الله فلم يرض أن يوصم يوم راحته فقال : أنت وعبدك وأمتك وثورك وبهيمتك ـ الجميع يستريح ، لأن السبت جعل للانسان ! والراحة للانسان الكامل ليست للجسد الذى يتعب من عناء العمل فحسب ، بل للانسان بكليته كما تراه عن الله · ومن هنا قال : تعالوا واستريحوا معى ، فكروا أفكارا سامية نبيلة ، أعطوا أنفسكم فرصة للغد · واذكروا مقاصد الله لخيركم الزمنى والأبدى ! ·

« هذا هو يوم (السبت) هبة الله الصالحة ، ولكن المسيح رأى شعب الله يفسد يوم راحة الله وينتزعون منه غبطته وهناءه ويحيطونه بقواعد وقيود سخيفة متعبة ما أنزل الله بها من سلطان ، فالطبيب الشافى لايجوز له فى نظرهم أن يعمل عملا من أعمال الرحمة ، ولا يجوز للرجل أن يمشى عددا معينا من الامتار ، ولا للمرأة أن تضع ابرة فى ثيابها ، ولا للتلاميذ أن يفركوا سنابل الحنطة بأيديهم لئلا يقعوا تحت طائلة الناموس ··· كأن الأب سيد متسلط ، ظالم مستبد ، حقود حاسد ··· وكأن الانسان عبد خاضع لمضايقات (السبت) التى تخنق الأنفاس · وجاء يسوع بنسمات السماء الحرة العليقة ، وتحدى قواعدهم الضيقة الجافة ··· » ! (١) ·

وأثيرت مسألة السبت فى وجه المسيح ، أثارها (الطقوسيون) المتزمتون ···

« فى ذلك الوقت ذهب يسوع فى السبت بين الزروع ، فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون ، فالفريسون لما نظروا قالوا له: هو ذا تلاميذك يفعلون مالا يحل فعله فى السبت ! فقال لهم : أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه ، كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذى لم يحل أكله له ولا للذين معه بل للكهنة فقط ؟ أو ما قرأتم

---

(١) بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ١٦٦ ـ ٧

فى التوراة أن الكهنة فى السبت فى الهيكل يدنسون السبت وهم أبرياء ؟ **ولكن أقول لكم : ان ههنا أعظم من الهيكل ، فلو علمتم ماهو : انى أريد رحمة لا ذبيحة ، لما حكمتم على الأبرياء ، فان ابن الانسان هو رب السبت** أيضا . ثم انصرف من هناك وجاء الى مجمعهم ...

واذا انسان يده يابسة ، فسألوه قائلين : هل يحل الابراء فى السبوت ؟ ـ لكى يشتكوا عليه . فقال لهم : أى انسان منكم يكون له خروف واحد ، فان سقط هذا فى السبت فى حفرة ـ أفما يمسكه ويقيمه ؟ فالانسان كم هو أفضل من الخروف ! اذن يحل فعل الخير فى السبوت . ثم قال للانسان مد يدك فمدها ، فعادت صحيحة كالأخرى » ! « ثم قال **لهم : السبت انما جعل لأجل الانسان لا الانسان لأجل السبت ، اذ أن الانسان هو رب السبت أيضا ! »** .

السبت لأجل الانسان ، لا الانسان لأجل السبت ....

حقيقة كبرى هى حقيقة الأديان كلها ! فالعبرة بالجوهر ، والعبادات وسائل لترقية الانسان وتهذيبه ، لا لاعناته و اشقائه ، فما جعل الله فى الدين من حرج ، ولا يكلف نفسا الا وسعها ...

لكن الذين حصروا أنفسهم فى الأشكال هم أبعد عن تذوق الروح ، انهم يختنقون خارج مراسمهم اليابسة ! انهم يظنون الله كملوك الارض الذين يزحمون قصورهم بالمظاهر ويتشددون فى قواعد البروتوكول : « وكان الكتبة والفريسيون يراقبونه : هل يشفى فى السبت ـ لكى يجدوا عليه شكاية ، أما هو فعلم أفكارهم ... ثم قال لهم يسوع : أسألكم **شيئا ـ هل يحل فى السبت فعل الخير أو فعل الشر ، تخليص نفس أو اهلاكها ؟ (١) »**

وأعجب العجائب أن يكون جزاء من يشفى الناس ... القتل مادام يشفيهم يوم سبت ! فهذه شرعة الانصاف والطاعة كما يفهما اليهود : « ولهذا كان اليهود يطردون يسوع ويطلبون أن يقتلوه ، لأنه عمل هذا فى سبت ! فأجابهم يسوع : أبى يعمل حتى الآن ، وأنا أعمل . » ، « ففى السبت تختنون الانسان ... فان كان الانسان يقبل الختان فى

---

(١) مت ١٢ : ١ ـ ١٣ ، مر ٢ : ٢٣ ـ ٢٨ ، ٣ : ١ ـ ٦ ، لو ٦ : ١ ـ ١١ ، ١٤ : ١ ـ ٦

السبت لئلا ينقض ناموس موسى ، أفتسخطون على لأنى شفيت انسانا كله فى سبت ! لا تحكموا حسب الظاهر ، بل احكموا حكما عادلا(١) » !

ولكن كيف يأتي العدل ممن بدد نعمة العقل : « فأتوا الى الفريسيين بالذى كان قبلا أعمى ، وكان سبت حين صنع يسوع الطين وفتح عينيه • فسأله الفريسيون أيضا : كيف أبصر ؟ فقال لهم : وضع طينا على عينى ، واغتسلت فأنا أبصر ! فقال قوم من الفريسيين : هذا الانسان ليس من الله ـ لأنه لايحفظ السبت ! آخرون قالوا : كيف يقدر انسان خاطىء أن يعمل مثل هذه الآيات ، وكان بينهم انشقاق ! » (٢) •

« من الذين هادوا سماعون للكذب ، سمـــــــاعون لقوم آخرين لم يأتوك ، يحرفون الكلم من بعد مواضعه » (٣) •

هؤلاء يريدون أن يموت الناس من الجوع أو المرض ، ولا يمد اليهم أحد يدا ـ توقيرا ليوم السبت !

حدث جابر قال : خرجنا فى سفر ، فأصاب رجلا منا حجر فشجه فى رأسه ، ثم احتلم ، فسأل أصحابه : هل تجدون لى رخصة فى التميم ! فقالوا : ما نجد لك رخصة وأنت تقدر على الماء ـ فاغتسل فمات ! فلمـــا قدمنا على رسول الله أخبر بذلك ، فقال : قتلوه ، قتلهم الله ! ألا سألوا اذ لم يعلموا ، فانما شفاء العى السؤال ، انما كان يكفيه أن يتيمم(٤) •••

---

(١) يو ٥ : ١٦ ـ ١٧ ، ٧ : ٢٣ ـ ٢٤ •
(٢) يو ٩ : ١٣ ـ ١٦ •
(٣) المائدة ٤١ •
(٤) رواه أبو داود وابن ماجه والدارقطنى وصححه ابن السكن

حين تصير الأشكال ... أغلالاً

وهرش المعترضون رءوسهم ليتابعوا مراءهـم : « وجاء اليـه الفريسيون ليجربوه قائلين له : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لـكل سبب ؟ فأجاب وقال لهم : أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى ؟ وقال : من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصـق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا ، اذن ليسا بعد اثنين بل جسد واحد ، فالذى جمعه الله لايفرقه انسان ·

قالوا له : فلماذا أوصى موسى أن يعطى كتـاب طلاق فتطلق ؟ قال لهم : ان موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلقوا نساءكم ، ولكن من البدء لم يكن هكذا · وأقول لكم : ان من طلق امرأته الا بسبب الزنا وتزوج بأخرى يزنى ، والذى يتزوج بمطلقة يزنى !

قال له تلاميذه : ان كان هذا أمر الرجـل مع المرأة ، فلا يوافق أن يتزوج ! فقال لهم : ليس الجميع يقبلون هذا الكلام ــ بل الذى أعطى لهم ، لأنه يوجد خصيان ولدوا هكذا من بطون أمهاتهم ، ويوجد خصيان خصاهم الناس ، ويوجد خصيان خصوا أنفسهم لأجل ملكوت السـموات ، ومن استطاع أن يقبل فليقبل » (١) ·

هل انقطعت الأسئلة ؟

··· مازالت هناك فرصة فى الأحاجى والألغاز : « فى ذلك اليوم جاء اليه صدوقيون ــ الذين يقولون ليس قيامة ، فسألوه قائلين : يامعلم ، قال موسى : ان مات أحد وليس له أولاد ، يتزوج أخوه بامرأته ويقيم نسلا لأخيه · فكان عندنا سـبعة اخوة وتزوج الأول ومات ، واذا لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه ، وكذلك الثانى والثالث الى السبعة · وآخر الكل ماتت المرأة أيضا ، ففى القيامة لمن من السبعة تكون زوجة ــ فانها كانت

---

(١) مت ١٩ : ٢ ــ ١٢ ، مر ١٠ : ٢ ــ ١٢

للجميع ؟ فأجاب يسوع وقال لهم : تضلون اذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله ، لأنهم في القيامة لايزوجون ولا يتزوجون ، بل يكونون كملائكة الله في السماء ! وأما من جهة قيامة الأموات : أفما قرأتم ما قيل لكم من قبل الله القائل : أنا اله ابراهيم واله اسحاق واله يعقـــوب ، ليس الله اله أموات بل اله أحياء ــ فلما سمع الجموع بهتوا من تعليمه ! ٠

أما الفريسيون فلما سمعوا أنه أبكم الصدوقيين اجتمعـــوا معا ، وسأله واحد منهم وهو ناموسى ليجر به قائلا : يامعلم ، أية وصـــية هي العظمى في الناموس ؟ فقال له يسوع : تحب الرب الهك من كل قلبـــك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ــ هذه هي الوصـــية الأولى والعظمى ، والثانية مثلها : تحب قريبك كنفسك ــ بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء » ، « فقال له الكاتب : جيدا يامعلم بالحق قلت ، لأنه الله وليس آخر سواه ، ومحبته من كل القلب ومن كل الفهم ومن كل النفس ومن كل القدرة ، ومحبة القريب كالنفس هى أفضل من جميع المحرقات والذبائح ، فلما رآه يسوع أجاب بعقل قال له : لست بعيدا عن ملكوت الله ، ولم يجسر أحد بعد ذلك أن يسأله » (١) ٠

وفى الاسلام نهى عما يسمى (بالأغلوطات) فى اصـــــطلاح الفقه الاسلامي : وهى المسائل التى لم تقع أو الفروض بعيدة التحقق ، فقد ورد فى القرآن : « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء ان تبد لكم تسؤكم، وان تسألوا عنها حين ينزل القـــرآن تبدلكم ، عفا الله عنها والله غفور رحيم » ٠ وفى الحديث النبوى : « ان الله فرض فرائض فلا تضيعوها ، وحد حدودا فلا تعتدوها ، وحرم أشياء فلا تنتهكوها ، وسكت عن أشياء رحمة بكم من غير نسيان فلا تبحثوا عنها » ، « أعظم الناس جرما من سأل عن شيء لم يحرم فحرم من أجل مسألته (٢) » ٠

***

هنالك لم يبق للهادى فى قوس الصبر منزع ٠٠٠٠

انطلق المسيح يرسل على هؤلاء الشكليين شواظا من نار ، ويكشف حقيقتهم عارية سافرة بغير تزويق ٠٠٠٠

هؤلاء الذين يحصرون جهودهم فى الطقوس والشكول ، ونما من دين

---

(١) مت ٢٢ : ٢٣ ــ ٤٠ ، مر ١٢ : ١٨ ــ ٣٤ ، لو ٢٠ : ٢٧ ــ ٤٠

(٢) المائدة ١٠١ ، والاحاديث واردة في تفسير ابن كثير للآية : « يأيها الذين آمنوا لا تسألوا ٠٠٠٠ » ــ طبعة الحلبي ــ ج ٢ ص ١٠٦

الا وله مناسكه وشعائره ، لكنها تبتغى رمزا وتذكرة ! ٠٠٠٠ هؤلاء الذين يقصرون العبادة على طهارة البدن وأداء المراسم وحفظ (تقليد الشيوخ !)، وما من دين الا وله أحكامه في الطهارة ومقدساته ومأثوراته ، لكن مقصود ذلك كله طهـــارة الروح ، طهارة الفكر والوجدان ! ٠٠ فاذا بالوسائل تنقلب فى أيدى هؤلاء الى غايات ، والرموز تتحول الى أصـــول : « أنتم الآن أيها الفريسيون تنقون الكأس والقصعة ، وأما باطنكم فمملوء اختطافا وخبثا ! يا أغبياء ، أليس الذى صنع الخارج صنع الداخل أيضا ؟ بل أعطوا ما عندكم صدقة فهو ذا كل شيء يكون نقيا لكم ، ولـــكن ويل لكم أيها الفريسيون لأنكم تعشرون النعنع والسذاب وكل بقل ، وتتجاوزون عن الحق ومحبة الله ! كان ينبغى أن تعملوا هذه ولا تتركوا تلك ٠ ويل لكم أيها الفريسيون ، انكم تحبون المجلس الأول فى المجامع والتحيـــات فى الأسواق ! ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون والمراءون ، لأنكم مثل القبور المختفية والذين يمشون عليها يعلمون !

فأجاب واحد من الناموسيين وقال : يامعلم ، حين تقول هذا أتشتمنا نحن أيضا ! فقال : وويل لكم أنتم أيها الناموسيون ، لأنكم تحملون الناس أحمالا عسرة الحمل ، وأنتم لاتمسون الأحمال باحدى أصابعكم ! ويل لكم، لأنكم تبنون قبور الأنبيـــاء ، وآباؤكم قتلوهم ! اذن تشهدون وترضـــون بأعمال آبائكم ، لأنهم قتلوهم وأنتم تبنون قبورهم ! لذلك أيضا قالت حكمة الله : انى أرسل اليهم أنبياء ورسلا فيقتلون منهم ويطردون ، لكى يطلب من هذا الجيل دم جميع الأنبياء المهرق منذ انشاء العالم ٠٠ ويل لكم أيها الناموسيون ، لأنكم أخذتم مفتاح المعرفة ــ وما دخلتم ، والداخلون منعتموهم ! » (١) ٠

« مثل الذين حملوا التوراة ثم لم يحملوها ، كمثل الحمار يحمل أسفارا ــ بئس مثل القوم الذين كذبوا بآيات الله والله لا يهدى القوم الظالمين ٠ قل يا أيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء الله من دون الناس عليم بالظالمين قل ان الموت الذى يفرون منه فانه ملاقيكم ، ثم تردون الى فتمنوا الموت ان كنتم صادقين ٠ ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم ، والله عالم الغيب والشهادة ، فينبئكم بما كنتم تعملون » (٢) ٠

وأقبل المسيح يشرح حقيقة الطهارة : « ثم دعا الجمع وقال لهـــم :

---

(١) لو ١١ : ٣٩ ــ ٥٢٠

(٢) الجمعة ٥ : ٨٠

اسمعوا وافهموا ، ليس ما يدخل الفم ينجس الانسان ، بل ما يخرج من الفم هذا ينجس الانسان ! حينئذ تقدم تلاميـــذه وقالوا له : أتعلم أن الفريسيين لما سمعوا القول نفروا ؟ فاجاب وقال : كل غرس لم يغرسه أبى السموى يقلع ! اتركوهم هم عميان قادة عميان ، وان كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما فى حفرة ! فأجاب بطرس وقال له : فسر لنا هذا المثل • فقال يسوع : هل أنتم أيضا حتى الآن غير فاهمين ؟ ألا تفهمون بعد أن كل ما يدخل الفم يمضى الى الجوف ويندفع الى المخرج ، وأما يخرج من الفم فمن القلب يصدر ـ وذاك ينجس الانسان ، لأن من القلب تخرج افكار شريرة : قتل ، زنى ، فسق ، سرقة ، شهادة زور ، تجديف ـ هذه هى التى تنجس الانســـان ، وأما الأكل بأيد غير مغســـولة فلا ينجس الانسان » (١) •

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولا تعتدوا ، ان الله لايحب المعتدين • وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون » • « قل من حرم زينة الله التى أخرج لعبـــاده والطيبات من الرزق ، قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصـــة يوم القيامة ، كذلك نفصل الآيات لقوم يعملون • قل انما حرم ربى الفواحش ما ظهر منها وما بطن ، والاثم والبغى بغير الحق ، وأن تشركوا بالله مالم ينزل به سلطانا ، وأن تقولوا على الله مالا تعلمـــون » • « ولا تقولوا لما تصف ألسنتكم الكذب هذا حلال وهذا حرام ـ لتفتروا على الله الكذب ، ان الذين يفترون على الله الكذب لايفلحون » • « قل أرأيتم ما أنزل الله لكم من رزق ـ فجعلتم منه حراما وحلالا ، قل آلله أذن لكم أم على الله تفترون ؟! » (٢) •

وخشى المسيح أن تتجمد رسالته فى أيدى أتبـــاعه كما تجمدت اليهودية عند اليهود ، وأشفق عليهم أن يتبعوا سنن الذين من قبلهم ـ حتى لو دخلوا جحرا لدخلوه : « وقال يسوع : انظروا وتحرزوا من خمير الفريسيين والصدوقيين • ففكروا فى أنفسهم قائلين : اننا لم نأخذ خبزا؟! فعلم يسوع ، وقال لهم : لماذا تفكرون فى أنفسكم يا قليلى الايمان أنكم لم تأخذوا خبزا ، أحتى الآن لاتفهمون ، ولا تذكرون ؟! ••• كيف لاتفهمون أنى ليس عن الخبز قلت لكم أن تتحرزوا من خمير الفريسيين والصدوقيين؟

---

(١) مت ١٥ : ١٠ ـ ٢٠ ، مر ٨ : ١٤ ـ ٢٣

(٢) المائدة ٨٧ ـ ٨٨ ، الأعراف ٣٢ ـ ٣٣ ، النحل ١١٦ ، يونس ٥٩

حينئذ فهموا أنه لم يقل أن يتحرزوا من خمير الخبز ، بل من تعليم الفريسيين والصدوقيين » (١) ٠٠٠

وهكذا كاد أتباع المسيح أنفسهم أن يصيروا حرفيين شكليين ، فهم يغفلون عن المجاز الرائع في كلمات المسيح !

« ابتدأ يقول لتلاميذه : أولا تحرزوا لأنفسكم من خمير الفريسيين الذى هو الرياء ، فليس مكتوم لن يستعلن ولا خفى لن يعرف ، لذلك كل ما قلتموه فى الظلمة يسمع فى النور ، وما كلمتم به الأذن فى المخادع ينادى به على السطوح » (٢) ٠

ثم أنذر المسيح هؤلاء الجاحدين الجامدين : « ٠٠٠ قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب ، الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية ، من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا ، لذلك أقول لكم : **ان ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره** ، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط عليه يسحقه ٠٠٠ ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم ، واذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع ـ لأنه كان عندهم مثل نبى » (٣) ٠

« حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلا :

على كرسى موسى جلس الكتبة والفريسيون ، فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فاحفظوه وافعلوه ، ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا ـ لأنهم يقولون ولا يفعلون ، فانهم يحزمون أحمالا ثقيلة عسرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس ، وهم لا يريدون أن يحركوها باصبعهم ! وكل أعمالهم يعملونها لكى ينظرهم الناس ، فيعرضون عصائبهم ، ويعظمون أهداب ثيابهم ، ويحبون المتكأ الأول فى الولائم والمجالس الأولى فى المجامع ، والتحيات فى الأسواق ، وأن يدعوهم الناس : سيدى سيدى ! وأما أنتم فلا تدعوا سيدى ـ لأن معلمكم واحد المسيح وأنتم جميعا اخوة ، ولا تدعوا لكم أبا على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات ، ولا تدعوا معلمين لأن معلمكم واحد المسيح ، وأكبركم يكون خادما لكم ، **فمن يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع** ٠٠٠

لكن ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، **لأنكم تغلقون**

---

(١) مت ١٦ : ٦ ـ ١٢

(٢) لو ١٢ : ٢

(٣) مت ٢١ : ٤٢ ـ ٤٦ ، مر ١٢ : ١٠ ـ ١٢ ، لو ٢٠ : ١٧ ـ ١٩ ٠

ملكوت السموات قدام الناس ، فلا تدخلون انتم ولا تدعون الداخلين يدخلون ! ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تأكلون بيوت الأرامل ولعلة تطيلون صلواتكم ، لذلك تأخذكم دينونة أعظم !

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تطوفون البحر والبر لتكسبوا دخيلا واحدا ، ومتى حصل نصنعونه ابنا لجهنم أكثر منكم مضاعفا ! ويل لكم أيها القادة العميان القائلون : من حلف بالهيكل فليس بشيء ، ولكن من حلف بذهب الهيكل يلتزم !! أيها الجهال والعميان ، أيما أعظم : الذهب أم الهيكل الذى يقدس الذهب ؟؟ ... ومن حلف بالمذبح فليس بشيء ، ولكن من حلف بالقربان الذى عليه يلتزم !! أيها الجهال والعميان، أيما أعظم : القربان أم المذبح الذى يقدس القربان ؟؟.. فان من حلف بالمذبح فقد حلف به وبكل ماعليه ، ومن حلف بالهيكل فقد حلف به وبالساكن فيه ، ومن حلف بالسماء فقد حلف بعرش الله وبالجالس عليه ...

ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم تعشرون النعنع والشبث والكمون ، وتركتم أثقل الناموس : الحق والرحمة والايمان ! كان ينبغى أن تعلموا هذه ولا تتركوا تلك ! أيها القادة العميان الذين يصفون البعوضة ويبلعون الجمل ! ويل لكم أيهـــا الكتبة والفريسيون المراءون ، لأنكم **تنقون الكأس والصحفه وهما من داخل مملوءون اختطافا ودعارة ... (١) » .**

قذائف متتابعة ، كلها محكمة التصويب ! .

وقد تابع رسل المسيح تعاليمه ، ليضعوا عن الناس اصرهم والأغلال التى كانت عليهم : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم (٢) » ...

« فقال بطرس : كلا يارب لم آكل قط شيئا دنسا نجسا ، فصار اليه أيضا صوت ثانية : **ما طهره الله لا تدنسه أنت** . وكان هذا على ثلاث مرات » ، « فقال لهم : أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبى أو يأتى اليه ، وأما أنا فقد أرانى الله أن لا أقول عن انسان ما انه دنس أو نجس » ، « **لا تنقض لأجل الطعام عمل الله : كل الأشياء طاهرة ، لكنه شر للانسان** الذى يأكل بعثرة » (٣) .

---

(١) مت ٢٣ : ١ ــ ٢٥ ، أيضا أجزاء فى مر ١٢ : ٣٨ ــ ٤٠ ، لو ١١ : ٣٧ ــ ٥٢ ، ٢٠ : ٤٥ ــ ٤٧

(٢) آل عمران ٥٠

(٣) أعمال ١ : ١٥ ــ ٦ ، ١١ : ٨ ــ ٩ ، ١٠ : ٢٨ .

حوار .. في الختان

وقد واجه رسل المسيح في طريقهم مسألة الختان ، كما واجه المسيح من قبلهم مسألة السبت ، ونازعهم في هذا فريسيون أيضا ٠

وكان كثيرون من أتباع المسيح قد فروا من الاضطهاد في أورشليم وحيثما التجأوا في دمشق وأنطاكيه أو غيرها كانوا يقصـــدون الأحياء اليهودية وكانوا يسمون (أهل الطريق) باعتبار المسيحية شيعة من اليهودية ٠ واستطاع بعض هؤلاء أن يدعو للمسيحية وأن يكتسب قلوبا لها ٠ وقد اهتمت كنيسة أورشليم بهؤلاء الداخلين حديثا في المسيحية ، وكانوا بالطبع يختلفون عن اليهود في التقاليد والعـــادات ولم يكونوا يعرفون شيئا عن الكتب المقدسة أو الطقوس اليهودية ، وأوفد برنابا وبولس الى هؤلاء المسيحيين الجدد ٠ ووصل الى الكنيسة في أنطاكية زوار من (اليهـــودية) أزعجهم ما رأوه من خـروج على تقـــاليد اليهود وطقوسهم ، فثارت مشـــكلة الختان على سـبيل التمثيل لما يحدث من مخالفات ٠ وكان على بولس أن يواجه الموقف : « هل يتحتم أن يرتبط الأسلوب المسيحي في الحياة الى الأبد بنظام جماعة واحدة من الناس وبمجموعة واحدة من العادات أم يكون أسلوبا مفنوحا لجميع البشر على اختلاف تقاليدهم ؟ هل تكون (شركة المسيحيين) قاصرة على جماعة اليهود أم أنها شركة عالمية للناس من جميع الأجناس يربطهم معا ايمانهم المشترك ؟ واذ أحست كنيسة أنطاكية بأهمية هذه المسائل أرسلت بولس وبرنابا فورا الى أورشليم للتشاور مع الرسل والقادة هناك ، وكما يحدث عادة في أغلب المؤتمرات ظهرت في المؤتمر ثلاث جماعات ــ أو تيارات : كان هناك المحافظون الذين يريدون أن يحتفظوا بالأساليب القديمة ، والمتحررون منهم الذين يرون أن يواجهوا الظروف بنهج ملائم ومن هؤلاء كان بولس وبرنابا وبطرس وثمة فئة ثالثة تأخذ بطبيعتها دور الوسيط بين الفريقين وتحاول أن تقف في منتصف الطريق ، وكان يقود جماعة الوسط يعقوب الرسول ٠ وقد حاولت هذه الجماعة الثالثة التوفيق بين الطرفين لحفظ الوحدة بين الجميع ، واستطاعت أن تحدد القرار الاخير

للمؤتمر وضمنته رسالة موجهة الى الكنائس ... وتستطيع أن تتبين أن (المؤتمر الأول للكنيسة) المسيحية قد أقر أن يوجد مجال فى مستقبل الكنيسة لتباين العادات بين أتباع المسيح .

* فالذين أزعجوا كنيسة أنطاكية كانوا يعبرون عن آرائهم الشخصية وليس لهم صفة رسمية

* وليس من الضرورى للمسيحيين من غير اليهود أن يتبعوا العوائد والتقاليد اليهودية

* لكن على المسيحيين الأميين أن يمتنعوا عن الدم والمخنوق وما ذبح للأوثان لكى لا يعثروا ضمائر اليهود

* وحث المؤتمر الجميع أن يعيشوا حياة طاهرة نقية ، واعترف لبولس وبرنابا بقدرهما وجهودهما .

ان الحياة الجديدة فى المسيح هى لكل الجنس البشرى ، لذلك فليس من الضرورى أن ترتبط بعادات معينة لجماعة خاصة من الناس ، ونحن نستطيع أن نلمس أن بولس كان يقاوم على الدوام أولئك الذين لم يتقبلوا هذا الموقف ... » (١)

« ولكن قام أناس من الذين كانوا قد آمنوا من مذهب الفريسيين ، وقالوا : انه ينبغى أن يختتنوا ويوصوا بأن يحفظوا ناموس موسى . فاجتمع الرسل والمشايخ لينظروا فى هذا الأمر ، فبعدما حصلت مباحثة كثيرة قام بطرس وقال لهم : أيها الرجال الاخوة ، أنتم تعلمون أنه عند أيام قديمة اختار الله بيننا أنه بفمى يسمع الأمم كلمة الانجيل ويؤمنون ، والله العارف القلوب شهد لهم معطيا الروح القدس كما لنا أيضا ، ولم يميز بيننا وبينهم بشىء اذ طهر بالايمان قلوبهم . فالآن ، لماذا تجربون الله بوضع نير على عنق التلاميذ ـ لم يستطع آباؤنا ولا نحن أن نحمله ؟ لكن بنعمة الرب يسوع المسيح نؤمن أن نخلص كما أولئك أيضا ـ فسكت الجمهور كله » ، « **فان الختان ينفع ان عملت بالناموس ، ولكن ان كنت متعديا الناموس فقد صار ختانك غرلة** : اذن ان كان الأغرل يحفظ أحكام الناموس ، أفما تحسب غرلته ختانا ؟ وتكون الغرلة التى من الطبيعة وهى تكمل الناموس تدينك أنت الذى فى الكتاب والختان تتعدى الناموس ؟ لأن اليهودى فى الظاهر ليس هو يهوديا ، ولا الختان الذى فى الظاهر فى

---

(١) بولس كلاسبر : الحياة الجديدة فى المسيح ـ ترجمة القس فايز فارس ص ٣٢:٨

اللحم ختانا ، بل اليهودى فى الخفاء هو اليهودى ، **وختان القلب بالروح لا بالكتاب هو الختان** ، الذى مدحه ليس من الناس بل هو من الله » ، « دعى أحد وهو مختون فلا يصر أغلف ، دعى أحد فى الغرلة فلا يختتن • ليس الختان شيئا وليست الغرلة شيئا بل حفظ وصايا الله • الدعوة التى دعى فيها كل واحد فيلبث فيها » ، « **فاثبتوا فى الحرية التى قد حررنا المسيح بها** ، ولا ترتبكوا أيضا بنير عبودية ! ها أنا بولس أقول لكم : انه اذا اختتنتم لا ينفعكم المسيح شيئا ، لكن أشهد أيضا لكل انسان مختتن أنه ملتزم أن يعمل بكل الناموس • قد تبطلتم عن المسيح أيها الذين تتبررون بالناموس ، سقطتم من النعمة ، فاننا بالروح من الايمان نتوقع رجاء بر ، لأنه فى المسيح يسوع لا الختان ينفع شيئا ولا الغرلة ، بل الايمان العامل بالمحبة » ، « وجميع الذين يريدون أن يعملوا منظرا حسنا فى الجسد هؤلاء يلزمونكم أن تختتنوا لئلا يضطهدوا لأجل صليب المسيح فقط ••• لأنه فى المسيح ليس الختان ينفع شيئا ولا الغرلة ، بل الخليقة الجديدة » (١) •

* *

وأشهد أن كثيرا من أتباع الأديان السماوية فى أمس الحاجة الى تدبر وصايا المسيح ، ووصايا محمد ، ووصايا كل نبى يلفت المتدينين الى الجوهر لا المظهر ، والى اللباب دون القشور !! وأشهد أن دعوة الدين اليوم كثيرا ما تشوه بأيدى الجامدين الحرفيين (الطقوسيين) ، أكثر مما ينال منها الجاحدون والملحدون •••

ونحن نقرأ للكتاب المسيحيين المخلصـــين هذه الصرخة والنذير : « ان مسيحية الوقت الحاضر : لا هى يهودية مخطئة ولا هى مسيحية بالمعنى الصحيح بل هى خليط فيها وهذه هى الديانة التى نجح عدو المسيحية فى ايجادها ••• ديانة تقوم على الحسد وبعض آيات كتابية ضاعت قوتها الأدبية وفقدت مغزاها الروحى ••• انهم لايزالون تحت (الناموس) من جهة الاختبارات الروحية ••• » (٢)

ومن بين قومى ـ وهم الذين أنا أدرى بهم ـ من أرى منه استقصاء لمواعيد الصلوات الخمس بالدقيقة والثانية ، وضبطا لمواعيد الفطر عند

---

(١) أعمال ١٥ : ٥ ـ ١١ ، رومية ٢ : ٢٥ ـ ٢٩ ، كورنثوس ٧ : ١٨ ـ ٢٠ ، غلاطية ١ ـ ٦ ، ٦ : ١١ ـ ١٥

(٢) مجلة صـوت البرية : عـدد سبتمبر ، أكتوبر ١٩٦٤ ـ مقال : كفاية المسيح الكاملة

الصوم بالدقيقة والثانية ، ونقاشا محتدما يدور اذا اختلفت الساعات ، وتبادلا لاتهام الساعات بالتلف والخسران !!

وكم من موسوس في الوضوء ، يكرره مرات حتى يكاد يغرق نفسه في الماء ، لتكون قطرات الماء المتساقطة وثيابه المبتلة شاهدا باسباغ الوضوء !!

وكم من موسوس في تحديد قبلة الصلاة ، هل هي بانحراف يسير أو كبير أو بغير انحراف ؟ ومن موسوس في تكبيرة الاحرام : هل تلفظ النية بلسان عربي مبين أم لا ، وهل كبر الله بحيث ترتج الأرض أم لا ، وهل رفع اليدين حتى عركت الأذنين أم لا ؟؟ ...

وهؤلاء الذين يفعلون هذا كله ، ليس هناك بأس بأن يفعلوا ما يشاءون ، ان كانوا يحصون ثرواتهم فيخرجون الزكاة للفقير بهذا التدقيق ، وينصفون الناس من أنفسهم بهذا الميزان ، ويحاسبون أنفسهم على الكلمة الطيبة والعمل الصالح مثل هذا الحساب ، أو شيئا من هذا الحساب !! ان الذى فرض الصلاة لم يأمر بالصلاة فحسب ، لأنه لا يحاسب الناس على دقائق معدودات ، ثم يتركهم لانطلاقاتهم سائر الساعات الأربعة والعشرين !!

ولو كانت البيوت والمجتمعات تعمر بالتواصى بالحق واشاعة الخير والتعاون على البر والتقوى كما تعمر المساجد والكنائس وسائر المعابد ، لأثرت الانسانية من الدين ثراء بعيدا .

« ولقد آتينا بنى اسرائيل الكتاب والحكمة والنبوة ، ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين . وآتيناهم بينات من الأمر ، فما اختلفوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم ، ان ربك يقضى بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون » . « واذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ، ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ، ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم ، وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالاثم والعدوان ، وان يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم اخراجهم ... **أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض** ، فما جزاء من يفعل ذلك منكم الا خزى في الحياة الدنيا ، ويوم القيامة يردون الى أشد العذاب ، وما الله بغافل عما تعملون . أولئك الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فلا يخفف عنهم العذاب ولا هم ينصرون (١) » .

(١) الجاثية ١٦ ـ ١٧ ، البقرة ٨٤ : ٨٦

يصطادون ... بكلمة

صراع طويل بين المسيح وخصومه ...

صراع بدأ بغمز سيرة المسيح ، ثم تطرق الى نقد تعاليمه ، ووصل الى حد التهجم على معجزاته وعلى شخصه ، مع نثر الأسئلة بجانب نثر الأشواك ، لعله يتعثر باللسان اذا كان القدم لا يسير الا الى الخير والسلام !!

ماذا كانت نتيجة الصراع بين المظهر والجوهر ، بين الشكول والأصول ، بين التقاليد والروح ؟؟

ألقوا فى طريقه (بفخ سياسى) ليوقعوه بفلتة لسان ، فرد الكرة اليهم فى مهارة ، وحملهم عبء الوقوع :

« حينئذ ذهب الفريسيون ، وتشاوروا لكى يصطادوه بكلمة !! فأرسلوا اليه تلاميذهم مع الهيرودسيين قائلين : يا معلم ، نعلم أنك صادق ، وتعلم طريق الله بالحق ولا تبالى بأحد ، لأنك لا تنظر الى وجوه الناس ، فقل لنا ماذا تظن : أيجوز أن تعطى جزية لقيصر أم لا ؟ » .

ياسبحان الله ... (يصطادوه بكلمة) ! هذا الذى يتكلم المواعظ الطوال فيصيب الهدف وكأنه يعزف على أوتار القلوب ، يقع فى كلمة ! لو لم يكن الروح القدس يحميه بعصمة المرسلين ، لحق لبلاغته أن تحميه ...

وهذا الوصف الطويل من المدح والثناء ، ما باله اليوم يكال دون حساب !! هل اكتشف القوم ــ فجأة ــ أن المسيح (صادق .. ويعلم طريق الله بالحق .. ولا يبالى بأحد ، لأنه لا ينظر الى وجوه الناس) !!

ولكن لا يخفى المكر السيء على الرسول الموهوب المعصوم : « فعلم يسوع خبثهم ، وقال : لماذا تجربوننى يامراءون ! أرونى معاملة الجزية ..

فقدموا له دينارا ، فقال لهم : لمن هذه الكتابة ؟؟ ··· قالوا له : لقيصر ·

فقال لهم : أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله !

فلما سمعوا ··· تعجبوا ، وتركوه ومضوا » !!

وفشلت المؤامرة المدبرة : « راقبوه ، وأرسلوا جواسيس يتراءون أنهم أبرار ، لكي يمسكوه بكلمة حتى يسلموه الى حكم الوالى وسلطانه ·· فلم يقدروا أن يمسكوه بكلمة قدام الشعب ! » (١) ·

اذن فليحملوا هم اثم الجريمة كلها ···

« فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعا ، وقالوا : ماذا نصنع ، فان هذا الانسان يعمل آيات كثيرة ، **ان تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتي الرومانيون ويأخذون موضعنا وامتنا !** فقال لهم واحد منهم – وهو قيافا – كان رئيسا للكهنة فى تلك السنة : أنتم لستم تعرفون شيئا ، ولا تفكرون أنه خير لنا أن يموت انسان واحد عن الشعب ، ولا تهلك الأمة كلها ··· فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه ، فلم يكن يسوع أيضا يمشى بين اليهود علانية ، بل مضى من هناك الى الكورة القريبة من البرية الى مدينة يقال لها أفرايم ، ومكث مع تلاميذه · وكان فصح اليهود قريبا ··· وكان أيضا رؤساء الكهنة والفريسيون قد أصدروا أمرا : أنه ان عرف أحد أين هو ، فليدل عليه لكى يمسكوه » (٢) ··

وهكذا اختار احبار اليهود ان يكونوا عصابات للخطف والاغتيال !!

« ··· كان بيلاطس يطلب أن يطلقه ، ولكن اليهود كانوا يصرخون ان أطلقت هذا فلست محبا لقيصر ! كل من يجعل نفسه ملكا يقاوم قيصر ··· قال لهم بيلاطس : أأصلب ملككم ؟؟ أجاب رؤساء الكهنة : ليس لنا ملك الا قيصر » (٣) ·

مرحى للكهنة والفريسيين ، لقد صاروا (قيصريين) أكثر من عامل قيصر !!

« لعن الذين كفروا من بنى اسرائيل على لسان داود ، وعيسى بن

---

(١) مت ٢٢ : ١٥ – ٢٢ ، مر ١٢ : ١٣ – ١٧ ، لو ٢٠ : ٢٠ – ٢٦
(٢) يو ١١ – ٤٧ – ٥٧
(٣) يو ١٩ : ١٢ ، ١٥

مريم ـ ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون • كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه ، لبئس ما كانوا يفعلون • **ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا ،** لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن ســخط الله عليهم ، وفى العذاب هم خالدون • ولو كانوا يؤمنون بالله والنبى وما أنزل اليه ما اتخذوهم أولياء ، ولكن كثيرا منهم فاسقون » (١) •

***

كنت أتأمل تاريخ بنى اسرائيل فى الأناجيل المتداولة وفى القرآن ••• فازداد بصرا بعلة **تحول الرسالة ـ على يد محمد ـ من بنى اسرائيل، الى بنى اسماعيل •••**

فالعرب ـ فى جملتهم ـ قوم بسطاء فيهم سماحة البداوة ••• فيهم شجاعة الرأى وشجاعة القلب ، أصفياء من عقد الصولة والصولجان ، ومن عاهات الأحبار والكهان ••• الواحد منهم اما أن يكون معك أو عليك ، فمن كان معك فهو معك بكل ما يملك ولو حارب الخلق أجمعين ، ومن كان عليك فهو مجاهر بالعداء ســافر فى الخصومة ، ويوم يقتنع فهو يتحول بكل اخلاصــه وكل قواه من طريق الى طريق ، دون اضــطراب أو التواء •

وهذا صوت المســيح يســجل على بنى اسرائيل هــذا اللجاج فى التكذيب : « ان كنت أشهد لنفسى فشهادتى ليست حقا ، الذى يشهد لى هو آخر ـ وأنا أعلم أن شهادته التى يشهدها لى هى حق ••• لأن الأعمال التى أعطانى الآب لأكملها ـ هذه الأعمال بعينها التى أنا أحملها هى تشهد لى أن الآب قد أرسلنى ••• فتشوا الكتب لأنكم تظنون أن لكم فيها حياة أبدية ـ وهى التى تشهد لى ، ولا تريدون أن تأتوا الى لتكون لكم حياة ! مجدا من الناس لست أقبل ، ولكنى قد عرفتكم أن ليست لكم محبة الله فى أنفسكم • أنا قد أتيت باسم أبى ولستم تقبلوننى ••• لا تظنوا أنى أشكوكم الى الآب ! يوجد الذى يشكوكم وهو موسى الذى عليه رجاؤكم ، لأنكم لو كنتم تصدقون موسى لكنتم تصدقوننى لأنه هو كتب عنى ، فان كنتم لستم تصدقون كتب ذاك فكيف تصدقون كلامى » (٢) •

« لكن الله يشهد بما أنزل اليك ـ أنزله بعلمه ، والملائكة يشهدون، وكفى بالله شهيدا » •••

---

(١) المائدة ٧٨ : ٨١

(٢) يو ٥ : ٣١ ـ ٤٧ •

ويتجاوب مع هذه الترنيمة الشاكية عزاء القرآن لرسول الاسلام :
« فلعلك باخع نفسك على آثارهم ان لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا • انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا • وانا لجاعلون ماعليها صعيدا جرزا » • « قد نعلم انه ليحزنك الذى يقولون ، فانهم لا يكذبونك ـ ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون • ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ماكذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ، ولا مبدل لكلمات الله ، ولقد جاءك من نبأ المرسلين • وان كان كبر عليك اعراضهم فان استطعت أن تبتغى نفقا فى الأرض أو سلما فى السماء فتأتيهم بآية ، ولو شاء الله لجمعهم على الهدى ، فلا تكونن من الجاهلين • انما يستجيب الذين يسمعون ، والموتى يبعثهم الله ، ثم اليه ترجعون » (١) •

كان الطبيعى اذن أن تتحول رسالة السماء عن اليهود ••• وكان من الطبيعى اذن أن تكون وجهتها الجديدة هى العرب ـ أولاد عمومة بنى اسرائيل فى الأرومة السامية •••

ولقد لقى رسول الاسلام ما لقيه ، على أيدى حفنة من اليهود حين انتقل الى المدينة ـ فكيف لو كان قد بعث لهم وبين ظهرانيهم ؟؟

وليس معنى هذا أن العرب ـ وقريشا بخاصة ـ قد فتحت ذراعيها لدعوة الاسلام ••• ولكن الاسلام واجه عند العرب تحدى الرجال الصرحاء الشجعان ، فى حين نجد خصومة اليهود خصومة الختل والدس والغدر والالتواء !!

« أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ، ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون • واذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا ، واذا خلا بعضهم الى بعض قالوا : أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم ، أفلا تعقلون ؟ أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون • ومنهم أميون لا يعلمون الكتاب الا أمانى ، وان هم الا يظنون • فويل للذين يكتبون الكتاب بايديهم ، ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا ، فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون • وقالوا : لن تمسنا النار الا اياما معدودة !! قل اتخذتم عند الله عهدا فلن يخلف الله عهده ، أم تقولون على الله مالا تعلمون ؟؟ » « وآذا قيل لهم : آمنوا بما أنزل الله ، قالوا : نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه ـ وهو الحق مصدقا لما معهم ، قل فلم

---

(١) النساء ١٦٦ ، الكهف ٦ ـ ٨ ، الأنعام ٣٣ ـ ٣٦

تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين ! » ، « ٠٠٠ ومنهم من ان تأمنه بدينار لا يؤده اليك الا مادمت عليه قائما ، ذلك بأنهم قالوا **ليس علينا في الأميين سبيل** ، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون » ، « واذا جاءوكم قالوا آمنا ، وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به ، والله أعلم بما كانوا يكتمون ٠ وترى كثيرا منهم يسارعون في الاثم والعدوان وأكلهم السحت، لبئس ما كانوا يعملون ٠ لولا ينهاهم الربانيون والأحبار عن قولهم الاثم وأكلهم السحت ، لبئس ما كانوا يصنعون (١) » ٠

هذه بعض أوصاف اليهـــود في القــرآن ، وتعززها أوصافهم في الاناجيلَ المتداولة ، فهل يطيق هؤلاء الأدعياء المتعالون المتغطرسون رسالة جديدة ؟

لقد حسبوا أنفسهم قد أحـــاطوا بالحكمة من أطرافها ، وأحرزوا الخيرات من كل أبوابهـــا ، وتميزوا على ســـائر الأمم والشعوب الى يوم الدين !! ٠

ولقد لقى منهم المسيح ــ ورسالته هى شريعة الحب وحسب ــ ما لقى من عنت وايذاء ، فكيف (بمحمد) الذى سوف يكون صاحب شريعة مفصلة ، وأحكام مبينة ، تنال ما سبقها من الشرائع بالتعديل ، أو الزيادة والنقصان ؟؟

حسبك أن تقرأ هذه السورة القرآنية لأحاسيس قلة من اليهود كانوا (بطانة) للمسلمين لتتعرف على حكمة الله وتحمد نعماه : « يأيها الذين آمنوا لا تتخـذوا بطانة من دونكم لا يألونكم خبـــالا ٠٠٠ ودوا ماعنتم ٠٠٠ قد بدت البغضاء من أفواههم ، وما تخفى صدورهم أكبر ــ قد بينا لكم الآيات ان كنتم تعقلون ٠ ها أنتم أولاء تحبونهم ، ولا يحبونكم ٠٠٠ وتؤمنون بالكتاب كله ، واذا لقوكم قالوا آمنا ، واذا خلوا عضوا عليكم الأنامل من الغيظ ، قل موتوا بغيظكم ، ان الله عليم بذات الصدور ٠ ان تمسسكم حسنة تســـؤهم ، وان تصبكم سيئة يفرحوا بها ٠ وان تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ، ان الله بما يعملون محيط» (٢) !

---

(١) البقرة ٧٥ ـ ٨٠ ، ٩١ ، آل عمران ٧٥ ، المائدة ٦١ : ٦٣
(٢) آل عمران ١١٨ ــ ١٢٠ ٠

آيات ... وعجائب

« ... انطلق اليـــه ، وســـأله أن ينزل ويشفى ابنه ــ لأنه كان مشرفا على الموت... فقال له يسوع : لا تؤمنون ان لم تروا آيات وعجائب ! »

(يو ٤ : ٤٧ ــ ٤٨)

تعاليم الرسالة ... هي حجتها

تقترن سيرة المسيح بكثير من المعجزات ... في حياة أمه أولا ، وفي قصة مولده بعد ذلك ، ثم في واقعة رفعه أخيرا ... وأيامه التى عاشها في دنيا الناس ـ حافلة بالمعجزات !!

لكن الخوارق في النبوات تأتي لتكشف صدق النبي في موضوع رسالته ، لا لتكون هي الموضوع أولا وأخيرا .

والخوارق دورها تاريخي ، ينتهي أثرها في جيل واحد ـ أو لعله يستمر خلال عدد قليل من الأجيال ، أما الرسالة في جوهرها ومضمونها فخالدة على تعاقب الأجيال ، شاملة للناس أجمعين .

والمسيح نفسه ـ كما تحدثت الأناجيل المتداولة ـ كان يضيق بطلب الآيات والخوارق والمعجزات ... فحسبه آيات الوحي المقدس لمن لهم عقول يتوخون اعمالها ، وما أقل هؤلاء بجانب العـوام والطغام الذين يريدون ما يشده الحس ويأخذ بالأبصار !!

« حينئذ أجاب قوم من الكتبة والفريسيين قائلين : يا معلم ، نريد أن نرى منك آية ! فأجاب وقال لهم : جيل شرير وفاسق يطب آية ، ولا تعطى له آية الا آية يونان النبي ، لأنه كما كان يونان في بطن الحوت ثلاثة أيام وثلاث ليال ، هكذا يكون ابن الانسان في قلب الأرض ثلاثة أيام وثلاث ليال » (١) .

وظاهر أن المسيح يشير الى رفعه ، وهذا أمر لن يكون الا بعد انتهاء حياة الرسول والرسالة ، ومعنى ذلك صرف الأنظار عن المعجزات والخوارق بلباقة ـ طوال حياته على الأقل !

وقد ورد هذا في صـورة أصرح : « فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكي يجربوه ، فتنهد بروحه وقال :

---

(١) مت ١٢ : ٣٨ ـ ٤٠ ، لو ١١ : ٢٩ ـ ٣٠

لماذا يطلب هذا الجيل آية ؟ الحق أقول لكم : لن يعطى هذا الجيل آية » ، « ... هذا اذ سمع أن يسوع جاء من اليهودية الى الجليل ـ انطلق اليه وسأله أن ينزل ويشفي ابنه لأنه كان مشرفا على الموت ، فقال له يسوع : لا تؤمنون ان لم تروا آيات وعجائب ! » (١) .

فالأدلة متوافرة متواترة على زهد المسيح في هذا الأسلوب ، ومن واجب دعاة الأديان أن يتنبهوا دائما لهذه الحقيقة الهامة ، وأن يوجهوا اهتمامهم الى صلاحية الرسالة موضوعيا في ذاتها واستحقاقها للبقاء .

« وجاء اليه الفريسيون والصدوقيون ليجربوه فسألوه أن يريهم آية من السماء ، فأجاب وقال لهم : اذا كان المساء قلتم : صحو ، لأن السماء محمرة ! وفي الصباح اليوم شتاء لأن السماء محمرة بعبوسة ! يا مراءون ، تعرفون أن تميزوا وجه السماء ، وأما علامات الأزمنة فلا تستطيعون ! » ، « اذا رأيتم السحاب تطلع من المغارب تقولون : انه يأتي مطر ـ فيكون هكذا . واذا رأيتم ريح الجنوب تهب تقولون انه سيكون حر ـ فيكون . يا مراءون تعرفون أن تميزوا وجه الارض والسماء ، وأما هذا الزمان فكيف لا تميزونه (٢) ؟؟ ! »

ومع رسول الاسلام تكرر المشهد نفسه : « وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ! أو تكون لك جنة من نخيل وعنب ، فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ! أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا ، أو تأتي بالله والملائكة قبيلا ! أو ترقى في السماء ـ ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربي ... هل كنت الا بشرا رسولا !؟ » ، « ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه ... انما أنت منذر ، ولكل قوم هاد » ، « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه ، قل انما الآيات عند الله ، وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ، ان في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » ، « وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها ، قل انما الآيات عند الله ، وما يشعركم أنها اذا جاءت لا يؤمنون (٣) ! » .

ومع ذلك ، فقد كانت هناك معجزات ، وروايات المعجزات كثيرة في الأناجيل ...

---

(١) مر ٨ : ١١ ـ ١٢ ، يو ٤ : ٤٧ ـ ٤٨
(٢) مت ١٦ : ١ ـ ٣ ، لو ١٢ : ٥٤ ـ ٥٦
(٣) الاسراء ٩٠ : ٩٣ ، الرعد ٧ ، العنكبوت ٥٠ ـ ٥١ ، الأنعام ١٠٨

غير أن المسيح كان حريصا ألا تستعلن هذه المعجزات أو تشيع ، وكان يوصي أصحابها بالكتمان : « واذا أبرص قد جاء وسجد له قائلا : ياسيد ان أردت تقدر أن تطهرني ؟ فمد يسوع يده ولمسه قائلا : أريد فاطهر – وللوقت طهر برصه ! فقال له يسوع : **أنظر أن لا تقول لأحد** ، بل اذهب أر نفسك للكاهن وقدم القربان الذى أمر به موسى شهادة لهم » ، « وفيما يسوع مجتاز من هنـــاك تبعه أعميان من هناك يصرخان ... فانفتحت أعينهما ! فانتهرهما يسوع قائلا : **أنظر لا يعلم أحد** – ولكنهما خرجا وأشاعاه فى تلك الأرض كلها » ، « وتبعته جموع كثيرة فشفاهم جميعا **وأوصاهم أن لا يظهروه** » ، « ثم وضـــع يديه على عينيه وجعله يتطلع ، فعاد صحيحا وأبصر كل انسان جليا . فأرسله الى بيته قائلا : لا تدخل القرية ، ولا تقل لأحد فى القرية (١) ... » .

ترى هل كان المسيح يقصد ألا تنتشر معجزاته قبل أوان رسمه وحده لنفسه ، حتى لا يسارع اليهود لاقتلاع النبت الجديد قبل أن يستوى على ساقه !! أم تراه أراد ألا تكون هذه الخوارق مشغلة للنفوس عن جوهر الدين والرسالة ؟؟ ان المسيح نفسه قد أوصى تلاميذه حين شهدوا احدى معجزاته بأن يكتموها حتى قيامته : « وفيما هو يتكلم اذا سحابة نيرة ظللتهم ، وصـوت من الســحابة قائلا : هذا هو ابنى الحبيب الذى به سررت ، له اسمعوا ... ولما سمع التلاميذ سقطوا على وجوههم وخافوا جدا ، فجاء يسوع ولمسهم وقال : قوموا ولا تخافوا – فرفعوا أعينهم ولم يروا أحدا الا يسوع وحده . وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع : لا تعلموا أحدا بما رأيتم حتى يقوم ابن الانسان من الاموات (٢) » !

وهـذا يرجع القول بأن المسـيح كان حريصـا على ألا تكون هذه الخوارق محور اهتمام الناس ... والقول بأنه أخر اذاعتها الى حين ، يحمل هو نفســه دلالة عدم التعويل عليها ، اذ لو كانت هى جوهر الرسـالة لما تأخر قط فى اذاعتهـا ، لأن مرور الوقت ينــال من تأثيرها وآثارها ، ويفقدها روعة التحدى – اذ تفتر حرارتها وتصير مجرد حكاية طلية عن رسول ذهب من الوجود ، أو تكون دعوى بغير شهود !!

---

(١) مت ٨ : ٢ – ٤ ، ٩ : ٢٧ – ٣١ ، مرا : ٤٠ – ٤٥ ، ٣ : ١٢ ، ٨ : ٢٢ – ٢٦ ، لو ٥ : ١٢ – ١٥

(٢) مت ١٧ : ٥ – ٩ ، مر ٩ : ٧ – ٩ ، لو ٩ : ٣٤ – ٣٦ .

محبة ... ورحمة

والمسيح حريص في صدد هذه المعجزات ، على أن يبين دور الايمان فيها ، ليخرج الناس منها بثمرة في قلوبهم ، ولا ينحصر الأثر في مجرد النجاة من مرض وشر ٠

« ولما دخل يسوع كفر ناحوم جاء اليه قائد مئة يطلب اليه ويقول : يا سيدى غلامى مطروح فى البيت مفلوجا متعذبا جدا ، فقال له يسوع : أنا آتى وأشفيه ٠٠٠ فأجاب قائد المائة وقال : يا سيد ، لست مستحقا أن تدخل تحت سقفى ! ! لكن قل كلمة فقط فيبرا غلامى ! لأنى أنا أيضا انسان تحت سلطان ، لى جند تحت يدى ، أقول لهذا اذهب فيذهب والآخر ايت فيأتى ولعبدى افعل هذا فيفعل ٠٠٠

فلما سمع تعجب ، وقال للذين يتبعون : الحق أقول لكم لم أجد ولا فى اسرائيل ايمانا بمقدار هذا ٠٠٠ اذهب **وكما آمنت ليكن لك** ــ فبرأ غلامه فى تلك الساعة » ، « واذا امرأة نازفة دم منذ اثنتى عشرة سنة قد جاءت من ورائه ومست هدب ثوبه ، لأنها قالت فى نفسها : ان مسست ثوبه فقط شفيت !

فالتفت يسوع وأبصرها فقال : ثقى يا ابنة ، **ايمانك قد شفاك** ــ فشفيت المرأة من تلك الساعة » ، « وفيما يسوع مجتاز من هناك تبعه أعميان من هناك فيصرخان ٠٠٠ فقال لهما يسوع : أتؤمنان أنى أقدر أن أفعل هذا ؟ قال له : نعم ياسيد ، حينئذ لمس أعينهما قائلا : **بحسب ايمانكم ليكن لكما** ، فانفتحت أعينهما » (١) ٠

حرص المسيح على تأكيد هذه الحقيقة ، حتى تتفتح القلوب للايمان ذاته :

---

(١) مت ٨ : ٥ ــ ١٣ ، ٩ : ٢٠ ــ ٢٢ ، ٩ : ٢٧ ــ ٣١ ، مر ٥ : ٢٥ ــ ٣٤ ، ١٠ : ٤٦ ــ ٥٢ ، لو ٧ . ١ ــ ١٠ ، لو ٨ : ٤٣ ــ ٤٨ ، ١٨ : ٥٣ ــ ٤٣

« ولما جاءوا الى الجمع تقدم اليه رجل جاثيا له وقائلا : ياسيد ارحم ابنى فانه يصرع ويتألم شديدا ، ويقع كثيرا فى النار وكثيرا فى الماء ، وأحضرته الى تلاميذك فلم يقدروا أن يشفوه !! فأجاب يسوع وقال : أيها الجيل غير المؤمن الملتوى الى متى أكون معكم ؟ الى متى أحتملكم ؟ قدموه الى ههنا — فانتهره يسوع فخرج منه الشيطان فشفى الغلام من تلك الساعة ...

ثم تقدم التلاميذ الى يسوع — على انفراد — وقالوا : لماذا لم نقدر نحن أن نخرجه ؟؟ فقال لهم يسوع : **لعدم ايمانكم ، فالحق أقول لكم لو كان ايمانكم مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا الى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم** ، وأما هذا الجنس فلا يخرج الا بالصلاة والصوم » . « ... وفى الصبح اذ كان راجعا الى المدينة جاع ، فنظر شجرتين على الطريق ، وجاء اليها فلم يجد فيها شيئا الا ورقا فقط. فقال لها : لا يمكن منك ثمر بعد الى الأبد ، فيبست التينة فى الحال ! فأجاب يسوع وقال لهم : الحق أقول **لكم ان كان لكم ايمان ولا تشكون فلا تفعلون أمر التينة فقط ، بل ان قلتم أيضا لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر فيكون ، وكل ماتطلبونه حينما تصلون فآمنوا أن تنالوه فيكون لكم ، ومتى وقفتم تصلون فاغفروا ان كان لكم على أحد شيء لكى يغفر لكم أيضا أبوكم الذى فى السموات زلاتكم** » ، « وفى الهزيع الرابع من الليل مضى اليهم يسوع ماشيا على البحر ، فلما أبصره التلاميذ ماشيا على البحر اضطربوا قائلين : انه خيال ، ومن الخوف صرخوا !! فللوقت كلمهم يسوع قائلا : تشجعوا ، أنا هو لا تخافوا ! فأجابه بطرس وقال : ياسيد ان كنت أنت هو ، فمرنى أن آتى اليك على الماء ، فقال . تعال ! ... فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتى الى يسوع ، ولكن لما رأى الريح شديدة خاف ، واذ ابتدأ يغرق صرخ قائلا : يارب نجنى ! ففى الحال مد يسوع يده وأمسك به وقال له : **يا قليل الايمان لماذا شككت** » ؟ (١) .

وحول هذا المعنى أوصى نبى الاسلام أيضا : « ادعوا الله وأنتم موقنون بالاجابة، واعلموا أن الله لايستجيب دعاء من قلب غافل لاه» (٢).

والمسيح حريص على أن تكون هذه القوة الخارقة رحمة لا نقمة ...

---

(١) مت ١٤ : ٢٥ — ٣١ ، ١٧ : ١٤ — ٢١ ، ٢١ : ١٨ — ٢٢ ، مر ٦ : ٤٥ — ٥٣ ، مر ١١ : ٢٠ — ٢٦ ، لو ٩ : ٢٧ — ٤٣ ، يو ٦ : ١٦ — ٢١

(٢) رواه الترمذى والحاكم في المستدرك عن أبى هريرة .

« فلما رأى ذلك تلميذاه يعقوب ويوحنا قالا : يارب أتريد أن نقول أن تنزل نار من السماء فتفنيهم كما فعل ايليا أيضا ؟؟ فالتفت وانتهرهما وقال : لستما تعلمان من أى روح أنتما ، لأن ابن الانسان لم يأت ليهلك أنفس الناس بل ليخلص ، فمضوا الى قرية أخرى» (١) ٠

« واذ قالوا اللهم ان كان هذا هو الحق من عندك ، فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم ٠ وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم ، وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون » ٠٠٠

لقد توجه رسول الاســــلام الى ثقيف بالطائف فلم تحقق ثقيف الرجاء : « بل أرسلوا سفهاءهم وغلمانهم يقفون فى وجهه فى الطريق ويرمونه بالحجارة ٠٠٠ فدعا الله : اللهم انى أشكو اليك ضعف قوتى وهوانى على الناس ، يا أرحم الراحمين ـ أنت رب المستضعفين وأنت ربى ، الى من تكلنى ؟ ان لم يكن بك غضب على فلا أبالى ٠٠٠ وأتى جبريل برسالة من الله جل ذكره وقال : ان الله أمرنى أن أطيعك فى قومك لما صنعوه معك ، فقال عليه السلام : اللهم اهد قومى فانهم لايعلمون»!! (٢) .

ان ما أوتى المسيح من قوى خارقة سلاح خطير ، ينبغى أن يستخدم باتزان لا بحمق أو غباء : « ثم أخذه ابليس الى المدينة المقدسة وأوقفه الى جناح الهيكل ، وقال له : ان كنت ابن الله فاطرح نفسك الى أسفل ، لأنه مكتوب : أنه يوصى ملائكته بك ، فعلى أياديهم يحملونك لكى لا تصدم بحجر رجلك ! قال له يسوع : مكتوب أيضا : **لا تجرب الرب الهك ! ثم** أخذه أيضا ابليس الى جبل عال جدا وأراه جميع ممالك العالم ومجدها ، وقال له : أعطيك هذه جميعها ان خررت وسجدت لى ! حينئذ قال له يسوع : اذهب ياشيطان ، لأنه مكتوب : للرب الهك تسجد ، واياه وحده تعبد » (٣) ٠

***

والمسيح ينسب دائما هذه الخوارق الى الله : « وفيما هو مجتاز رأى انسانا أعمى منذ ولادته ٠٠٠ أجاب يسوع : لا هذا أخطأ ولا أبواه ، **ولكن لتظهر أعمال الله فيه ! ينبغى أن أعمل أعمال الذى أرسلنى** ـ مادام نهار ، يأتى ليل حين لا يستطيع أحد أن يعمل ٠ مادمت فى العالم فانا نور العالم » ، « فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعا ، ورفع يسوع

---

(١) لو ٩ : ٥٤ ـ ٥٦ ٠

(٢) الأنفال : ٣٢ ـ ٣٣ ، محمد الخضرى : نور اليقين ص ٦٦ ـ ٦٧ ٠

(٣) مت ٤ : ٥ ـ ١٠ ، لو ٤ : ٥ ـ ١٣ ٠

عينيه الى فوق وقال : أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لى ، وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى ، ولكن **لأجل هذا الجمع الواقف قلت ، ليؤمنوا أنك أرسلتنى** • ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلم خارجا — فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطات ••• !! » ، « فأجاب يسوع وقال لهم : الحق الحق أقول لكم : لا يقدر الابن أن يعمل من نفسه شيئا الا **ما ينظر الآب يعمل** ، لأن مهما عمل ذاك فهذا يعمله الابن كذلك ، لأن الآب يحب الابن ويريه جميع ما هو يعمله ، وسيريه أعمـــالا أعظم من هذه لتتعجبوا أنتم » (١) •••

وهكذا لا تذهب هذه الخوارق بددا ، ولا تكون مجرد غرائب ونوادر وأقاصيص : « ها أنا أعطيكم سلطانا لتدوسوا الحيات والعقارب وكل قوة العدو ولا يضركم شىء ، ولكن **لا تفرحوا بهذا** أن الأرواح تخضع لكم ، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كتبت فى السموات » (٢) •

دأب المسيح اذن على أن يربط المعجزات دائما بالايمان ، ولا يتركها تمر دون انتفاع من الأثر الذى تتركه فى النفوس بعرض الدعوة وبيان الرسالة ، وتمجيد الله الذى أجرى هذه الآيات على يدى رسوله : « وفيما هو يتكلم بهذا رفعت امرأة صوتها من الجميع وقالت له : طوبى للبطن الذى حملك ، والثديين اللذين رضعتهما ! أما هو فقال : بل طوبى للذين يسمعون كلام الله ويحفظونه » (٣) •

« واذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح ، أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟ فقال له : لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحد صالحا الا واحد — هو الله ، ولكن ان أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا(٤) •

ان معجزة المسيح الكبرى أنه ولد بنفخة من روح الله فى مريم ••• وهو يدعو الناس جميعا لأن (يولدوا من فوق) ، و (يولدوا من الروح) ، وبهذا يلقن المعلم درسه الباقى بعد ذهاب المعجزات •••

« كان انسان من الفريسيين اسمه نيقوديموس رئيس لليهود ، هذا جاء الى يسوع ليلا وقال له : يا معلم ، نعلم أنك قد أتيت من الله معلما ، لأن ليس أحد يقدر أن يعمل هذه الآيات التى أنت تعمل ان لم

---

(١) يو ٩ : ١ — ٥ ، ١١ : ٤١ — ٤٤ ، ٥ : ١٩ — ٢٠ •
(٢) لو ١٠ : ١٩ — ٢٠ •
(٣) لو ١١ : ٢٧ — ٢٨ •
(٤) مت ١٩ : ١٦ — ١٧ ، مر ١٠ ١٧ — ١٩ ، لو ١٨ : ١٨ — ٢٠ •

يكن الله معه • أجاب يسوع وقال له : الحق الحق أقول لك : **ان كان احد لا يولد من فوق ، لا يقدر أن يرى ملكوت الله** • قال له نيقوديموس : كيف يمكن الانسان أن يولد وهو شيخ ؟ ألعله يقدر أن يدخل فى بطن أمه ثانية ويولد ؟؟ أجاب يسوع : الحق الحق أقول لك : ان كان أحد لا يولد من الماء والروح لا يقدر أن يدخل ملكوت الله ! المولود من الجسد جسد ، **والمولود من الروح هو روح** ! لا تتعجب أنى قلت لك أن تولد من فوق ، الريح تهب حيث تشاء وتسمع صوتها لكنك لا تعلم من أين تأتى ولا من أين تذهب ، هكذا كل من ولد من الروح ! أجاب نيقوديموس وقال له : كيف يمكن أن يكون هذا ؟ أجاب يسوع وقال له : أنت معلم اسرائيل ولست تعلم هذا ! الحق الحق أقول لك : اننا انما نتكلم بما نعلم ونشهد بما رأينا ولستم تقبلون شهادتنا ! ان كنت قلت لكم الأرضيات ولستم تؤمنون ، فكيف تؤمنون ان قلت لكم عن السمويات ؟! » (١) •

---

(١) يو ٣ : ١ ـ ١٢

من الآيات

ولست بصدد استقصاء روايات المعجزات فى الأناجيل المتداولة ـ فقد ورد منها فيما مضى ـ نماذج تصلح للتمثيل والتصوير ...

وقد أجمل القرآن ألوان المعجزات التى أجراها الله على يد المسيح : « اذ قال الله يا عيسى بن مريم اذكر نعمتى عليك وعلى والدتك : اذ أيدتك بروح القدس ، تكلم الناس فى المهد وكهلا ، واذ علمتك الكتاب والحكمة والتوراة والانجيل ، واذ تخلق من الطين كهيئة الطير باذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا باذنى ، وتبرىء الأكمه والأبرص باذنى ، واذ تخرج الموتى باذنى ، واذ كففت بنى اسرائيل عنك اذ جئتهم بالبينات فقال الذين كفروا منهم ان هذا الا سحر مبين . واذ أوحيت الى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى ، قالوا آمنا وأشهد بأننا مسلمون » والقرآن يعبر بالاسلام عن دين الله الذى تعاقب على حمل رسالاته الأنبياء أجمعون : « بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن ، فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون (١) » .

« وكان يسوع يطوف كل الجليل : يعلم فى مجامعهم ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب ، فذاع خبره فى جميع سورية . فأحضروا اليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة ، والمجانين والمصروعين والمفلوجين ـ فشفاهم » ، « فأخرج الأرواح بكلمة ، وجميع المرضى شفاهم ، لكى يتم ما قيل بأشعياء النبى القائل : هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا » ، « العمى يبصرون ، والعرج يمشون ، والبرص يطهرون ، والصم يسمعون ، والموتى يقومون ، والمساكين يبشرون ـ وطوبى لمن لا يعثر فى (٢) » .

وقد روت الأناجيل كثيرا من الروايات عن شفاء الأمراض ، أما

---

(١) المائدة ١١٠ ـ ١١١ ، البقرة ١١٢ .
(٢) مت ٤ : ٢٣ ـ ٢٤ ، ٨ : ١٦ ـ ١٧ ، ١١ : ٥ ـ ٦ .

معجزة احياء الموتى فقد وردت على نطاق أضيق : « وفيما هو يكلمهم بهذا ، اذا رئيس قد جاء فسجد له قائلا : ان ابنتى الآن ماتت ، لكن تعال وضع يدك عليها فتحيا ، فقام يسوع وتبعه هو وتلاميذه ... ولما جاء يسوع الى بيت الرئيس ، ونظر المزمرين والجمع يضجون ! قال لهم : تنحوا ، فان الصبية لم تمت لكنها نائمة ، فضحكوا عليه ! فلما أخرج الجمع ، دخل وأمسك بيدها ـ فقامت الصبية . فخرج ذلك الخبر الى تلك الأرض كلها » ، « وبينما هو يتكلم جاءوا من دار رئيس المجمع قائلين : ابنتك ماتت ، لماذا تتعب المعلم بعد ؟ فسمع يســوع لوقته الكلمة التى قيلت ، فقال لرئيس المجمع لا تخف ، آمن فقط ! ولم يدع أحد يتبعه الا بطرس ويعقوب ويوحنا أخا يعقوب ... ودخل حيث كانت الصبية مضطجعة ، وأمسك بيد الصبية ، وقال لها . طليثا قومى ـ الذى تفسيره ياصبية لك أقول قومى ، وللوقت قامت الصبية ومشت ... فأوصاهم كثيرا أن لا يعلم أحد بذلك ، وقال : أن تعطى لتأكل » (١) !!

وهذه رواية أقوى وأوضح : « وفى اليوم التالى ذهب الى مدينة تدعى نايين ، وذهب معه كثيرون من تلاميذه وجمع كثير . فلما اقترب الى باب المدينة ـ اذا ميت محمول : ابن وحيد لأمه ، وهى أرملة ومعها جمع كثير من المدينة ، فلما رآها الرب تحنن عليها وقال لها : لا تبكى ، ثم تقدم ولمس النعش فوقف الحاملون ، فقال : أيها الشاب لك أقول : قم ـ فجلس الميت وابتدأ يتكلم فدفعه الى أمه !! فأخذ الجميع خوف ، ومجدوا الله قائلين : قد قام فينا نبى عظيم ، وافتقد الله شعبه . وخرج هذا الخبر عنه فى كل اليهودية وفى جميع الكورة المحيطة » (٢) !!

والقصة المشهورة الذائعة ـ هى قصة (لعازر) ...

« وكان انسان مريضا ـ وهو لعازر من بيت عنيا من قرية مريم ومرثا أختها ، وكانت مريم التى كان لعازر أخوها مريضا هى التى دهنت الرب بطيب ومسحت رجليه بشعرها ، فأرسلت الأختان اليه قائلتين : يا سيد ، هو ذا الذى تحبه مريض ! ... فلما سمع يسوع قال : هذا المرض ليس للموت ـ بل لأجل مجد الله ، ليتمجد ابن الله به ! وكان يسوع يحب مرثا أختها ولعازر ، فلما سمع أنه مريض مكث حينئذ فى الموضع الذى كان فيه يومين ، ثم بعد ذلك قال لتلاميذه : لنذهب الى

---

(١) مت ٩ : ١٨ ـ ٢٦ ، مر ٥ : ٢١ ـ ٤٣ ، لو ٨ : ٤١ ـ ٦ .
(٢) لو ٧ : ١١ ـ ١٧ .

اليهودية أيضا • قال له التلاميذ : يا معلم ، الآن كان اليهود يطلبون أن يرجموك ، وتذهب أيضا الى هناك ••• قال لهم : لعازر حبيبنا قد نام ، لكنى أذهب لأوقظه ! فقال تلاميذه ياسيد : ان كان قد نام فهو يشفى - وكان يسوع يقول عن موته ••• فلما أتى يسوع وجد أنه قد صار له أربعة أيام فى القبر • وكانت بيت عنيا قريبة من أورشليم نحو خمس عشرة غلوة ، وكان كثيرون من اليهود قد جاءوا الى مرثا ومريم ليعزوها عن أخيها • فلما سمعت مرثا أن يسوع آت لاقته ••• فقالت مرثا ليسوع : ياسيد لو كنت ههنا لم يمت أخى ، لكنى الآن أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله اياه ! قال لها يسوع : سيقوم أخوك ! قالت له مرثا : أنا أعلم أنه سيقوم فى القيامة فى اليوم الأخير • قال لها يسوع : **أنا هو القيامة والحياة ، من آمن بى ولو مات فسيحيا** ••• ولما قالت هذا مضت ، ودعت مريم أختها سرا قائلة : المعلم قد حضر وهو يدعوك ••• ثم ان اليهود الذين كانوا معها فى البيت يعزونها لما رأوا مريم قامت عاجلا وخرجت ، تبعوها قائلين : انها تذهب الى القبر تبكى هناك •

فلما رآها يسوع تبكى ، واليهود الذين جاءوا معها يبكون - انزعج بالروح واضطرب ، وقال : أين وضعتموه ؟ قالوا له : يا سيد ، تعال وانظره ! بكى يسوع ، فقال اليهود : انظروا كيف كان يحبه ؟ ! وقال بعض منهم : ألم يقدر هذا الذى فتح عينى الأعمى ، أن يجعل هذا أيضا لا يموت ؟ ؟ ؟ فانزعج يسوع أيضا فى نفسه وجاء الى القبر •

وكان مغارة - وقد وضع عليه حجر • فقال يسوع : ارفعو الحجر ، قالت له مرثا أخت الميت : يا سيد ، قد أنتن لأن له أربعة أيام ! قال لها يسوع : ألم أقل لك : ان آمنت سترين مجد الله !

فرفعوا الحجر حيث كان موضوعا ، ورفع يسوع عينيه الى فوق وقال : أيها الآب أشكرك لأنك سمعت لى - وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى - ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ، ليؤمنوا أنك أرسلتنى • ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم : لعازر هلم خارجا •

فخرج الميت ؛ ؛ ويداه ورجلاه مربوطات بأقمطة ، ووجهه ملفوف بمنديل ! فقال لهم يسوع : حلوه ، ودعوه يذهب ! ! ! »

وكان فى هذا فصل الخطاب •

« ويتساءل ناس : لماذا سجل لوقا وحده هذه الحادثة الهائلة ؟ ولكن هذا الاعتراض ينطبق أيضا على اقامة ابن أرملة نايين ••• ثم لماذا سجل

متى ومرقس دون سواهما اقامة ابنة يايرس ؟ قد تقوں من باب الحدس فقط ان البشائر كتبت بعد حادثة قيامة المسيح نفسه من الأموات وكانت الحياة فى نظر صحابة المسيح قد انتهت بالمدهشات المستغربات حتى لم يعد شىء فى نظرهم غريبا • ان اقامة لعازر وابن الأرملة من حوادث المرتبة الثانية اذا قيست بالأحداث المدهشة التى وقعت بعد الصلب » (١)

« فكثيرون من اليهود الذين جاءوا الى مريم ونظروا ما فعل يسوع آمنوا به ، وأما قوم منهم فمضــوا الى الفريسيين وقالوا لهم عما فعل يسوع ! فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعا ، وقالوا : ماذا نصنع ؟ فان هذا الانسان يعمل آيات كثيرة ، ان تركناه هكذا يؤمن الجميع به ••• فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه » (٢) •

« فما كان جواب قومه الا أن قالوا : اقتلوه أو حرقوه » ! « فلما جاءهم بالحق من عندنا قالوا : اقتلوا أبناء الذين آمنوا معه ••• وقال فرعون ذرونى أقتل موسى ــ وليدع ربه ! انى أخاف أن يبدل دينكم ، أو أن يظهر فى الأرض الفساد ! ! » (٣) •

***

والاتفاق كامل بين نصوص القرآن وروايات الأناجيل المتداولة عن شفاء المرضى واحياء الموتى •

لكن القرآن يروى فى آخر سورة المائدة قصة استمدت منها السورة اسمها :

« اذ قال الحواريون : يا عيسى بن مريم ، هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء ؟ قال : اتقوا الله ان كنتم مؤمنين • قالوا : نريد أن نأكل منها ، وتطمئن قلوبنا ، ونعلم أن قد صدقتنا ، ونكون عليها من الشاهدين • قال عيسى ابن مريم : اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيدا لأولنا وآخرنا وآية منك ، وارزقنا وأنت خير الرازقين • قال الله : انى منزلها عليكم ، فمن يكفر بعــد منكم فانى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين » (٤) •

---

(١) بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٢٧٠ ــ ١
(٢) يو ١١
(٣) العنكبوت ٢٤ ، غافر ٢٥ ــ ٢٦
(٤) المائدة ١١٢ : ١١٥ .

وفى الأناجيل تكررت روايات القصة التالية :

« وأما يسوع فدعا تلاميذه ، وقال : انى أشفق على الجمع لأن لهم ثلاثة أيام يمكثون معى ، وليس لهم ما يأكلون ، ولست أريد أن أصرفهم صائمين لئلا يخوروا فى الطريق ! فقال له تلاميذه : من أين لنا فى البرية خبز بهذا المقدار حتى يشبع جمعا هذا عدده ؟؟ فقال لهم يسوع : كم عندكم من الخبز ؟ فقالوا : سبعة وقليل من السمك ... فأمر الجموع أن يتكئوا على الأرض ، وأخذ السبع خبزات والسمك ، وشكر وكسر وأعطى تلاميذه ، والتلاميذ أعطوا الجمع . فأكل الجميع وشبعوا ، ثم رفعوا ما فضل من الكسر : سبعة سلال مملوءة ، والآكلون كانوا أربعة آلاف رجل ماعدا النساء والأولاد !! ثم صرف الجموع .. وصعد الى السفينة ، وجاء الى تخوم مجدل » ، « ... فلما رأى الناس الآية التى صنعها يسوع قالوا : ان هذا هو بالحقيقة النبى الآتى الى العالم ، وأما يسوع فاذ علم أنهم مزمعون أن يأتوا ويختطفوه ليجعلوه ملكا انصرف أيضا الى الجبل وحده » (١) .

فهل تعرض آيات المـائدة فى القــرآن وروايات الأناجيل لواقعة واحدة ؟؟

من مفسرى القــرآن من قالوا : ان المائدة لم تنزل – اذ لم ينص القرآن على نزولها بالفعل ، وان الطالبين للمائدة قد عدلوا عن طلبها ، اذ سمعوا الله ينذر بهذا العذاب المنقطع النظير لمن يكفر بعد نزولها : «.. عن مجاهد قال : هو مثل ضربه الله ولم ينزل شىء ... وعنه : مائدة عليها طعام أبوها حين عرض عليهم العذاب ان كفروا ، فأبوا أن تنزل عليهم ... وعن الحسن : لما قيل لهم (عن العذاب) قالوا : لا حاجة لنا فيها ، فلم تنزل . وهذه أسانيد صحيحة الى مجاهد والحسن ، وقد يتقوى ذلك بأن **خبر المائدة لا يعرفه النصارى وليس هو فى كتابهم** ، ولو كانت قد نزلت لكان ذلك مما تتوفر الدواعى على نقله ، وكان يكون موجودا فى كتابهم متواترا ولا أقل من الآحاد » (٢) .

وقول : انها نزلت ... والشيخ عبد الوهاب النجار يتأولها أنها هى نفسها قصة تكثير الطعام والبركة فيه ، وقد ذكر رواية الأناجيل وعقب بقوله : « ان هذه المسألة هى مسألة المائدة السماوية ، ومعنى

---

(١) مت ١٥ : ٣٢ – ٣٩ ، مر ٦ : ٣٠ – ٤٤ ، لو ٩ : ١٠ – ١٧ ، يو ٦ : ١ – ١٥ .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ١١٩ .

كونها سماوية أن الله تعالى بارك فى الطعام بطريقة غير معروفة ولا مألوفة ، وقد حكيت فى القرآن الكريم ٠٠ وأنا أكرر القول : ان مسألة المائدة هى مسألة الأرغفة الخمسة والسمكتين ، والمراد بانزالها عليهم أن يرزقهم الله الطعام الكثير من حيث لا يحتسبون » ٠

والحق أن قضية المائدة هذه أثارت أقوالا كثيرة ـ جمع ابن كثير بعضها فى أربع صفحات من القطع الكبير جدا ، بالخط الدقيق أيضا !٠٠ كذا أثار تأويل الشيخ النجار ما أثار !

والعبرة كما يبدو لى من قـــراءة الآراء المتخالفة ، هى بما تحتمله النصوص المروية فى القرآن والأناجيل المتداولة من دلالات لغوية لا أكثر ٠٠٠ فالمسألة مسألة أدب وذوق لغوى ، ولا تتعلق بالعقائد ، أو بحجية الأناجيل المتداولة عند أهل القرآن ـ خلافا لمن حاول أن يسوقها هذا المساق من مخالفى الشيخ النجار ، الناقدين لكتابه (١) ٠

وآيات القرآن قد سكتت عن نزول المائدة فعلا ، ومن الجائز أن القوم قد انصرفوا عنها بعد النذير ، خاصة وأن طالبيها هم حواريو المسيح الذين يؤمنون بالله ويخشون عذاب الآخرة ٠

روى الامام أحمد عن ابن عباس : قالت قريش للنبى ادع لنا ربك أن يجعل (الصفا) ذهبا ونؤمن بك ! قال : وتفعلون ؟ قالوا : نعم ٠٠٠ فدعا ، فأتى جبريل وقال : ان ربك يقرأ عليك السلام ، ويقول لك ان شئت أصبح الصفا لهم ذهبا ، فمن كفر منهم بعد ذلك عذبته عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين ، وان شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة ٠٠٠ قال : بل باب التوبة والرحمة !! (٢)

وبركة الطعام فيها روايات كثيرة فى تاريخ النبوات ٠٠٠

فى غزوة الأحزاب : « كان المسلمون قد أصابهم مجاعة شديدة ، وكان أهلوهم يبعثون اليهم بما قدروا عليه ٠٠٠ فأرسلت عمرة ابنة رواحة ابنتها بجفنة تمر عجوة فى ثوبها الى زوجها بشير بن سعد بن ثعلبة الأنصارى والى أخيها عبد الله بن رواحة ، فوجدت الرسول جالسا فى أصحابه ٠٠٠ فأخذه فى كفيه ، ونثره على ثوب بسط له ، وقال لجعال بن

---

(١) عبد الوهاب النجار : قصص الأنبياء ص ٤١٢ ، ٤١٩ ـ والهوامش

(٢) قال ابن كثير : رواه أحمد وابن مردويه والحاكم فى مستدركه من حديث سفيان الثورى ٠

سراقة : اصرخ : يا أهل الخندق ، هلم الى الغداء ! فاجتمعوا عليه يأكلون منه ، حتى صدر أهل الخندق ـ وانه ليفيض من أطراف الثوب !! وأرسلت أم معتب الأشهلية بقعبة فيها حيس ـ التمـــر والســـمن والدقيق والفتيت مخلوطا ـ الى الرســول ٠٠٠ فنادى مناديه : هلم الى عشائه ! فأكل أهل الخندق حتى نهلوا ـ وهى كما هى » !!

وتكرر ذلك في الحديبية ، وفي غزوة تبوك : « أرمل الناس ارمالا شديدا ـ أى نفد زادهم كأن لم يبق لهم من طعام الا الرمل !٠٠٠ فنادى منادى الرسول : من كان عنـــده فضـــل زاد فليأت به ! وأمر بالأنطاع فبسطت ، فجعل الرجل يأتي بالمد الدقيق والسويق أو التمر ، أو القبضة من الدقيق السويق والتمر ، والكسر ، فيوضع كل صنف على حدة ـ وكل ذلك قليل ٠ فكان جميع ما جاءوا به من الدقيق والسويق والتمر ثلاثة أفرق حزرا ٠ ثم توضأ وصلى ركعتين ودعا الله ، ونادى مناديه : هلموا الى الطعام ، خذوا منه حاجتكم ! فأقبل الناس ، فجعل كل من جاء بوعاء ملأه ، فقال بعضهم : لقد طرحت يومئذ كسرة من خبز وقبضة من تمر ، ولقد رأيت الأنطاع تفيض ، وجئت بجرابين فملأت أحدهما سويقا والآخر خبزا ، وأخذت فى ثوبى دقيقا كفانا الى المدينة ٠ فجعل الناس يتزودون حتى نهلوا عن آخرهم ، حتى كان آخر ذلك ان أخذت الأنطاع ونثر ما عليها !! » ٠

كذلك وردت رواية عن الماء أثناء الحديبية : « واشتكى الناس قلة الماء ، فانتزع الرســول ـ ســهما من كنانته فامر به فغرز فى الثمد ، فجاشت لهم بالرواء حتى صدروا عنه بعطن ـ أى بركت الابل حول الماء ـ وانهم ليغترفون بآنيتهم جلوسا على شفير البئر(١) » ٠

هذا ولم أعثر فى الأناجيل المتداولة على روايات تتعلق بخلق الطير من الطين !

---

(١) المقريزي : امتاع الأسماع ـ ص ٢٣٥ ، ٢٨٤ ، ٣٠١ ، ٤٧٣ ـ ٤٧٤

نبوءات عن المستقبل

لم تكن آيات المسيح مقصورة على معجزاته الحاضرة ، بل هناك أيضاً تنبؤاته المستقبلة ..

كان دائما يعرف مصيره ، ويتحدث عنه تارة بالتلميح وأخرى بالتصريح : « ... كما كان يونان فى بطن الارض ثلاثة أيام وثلاث ليال » ، « وفيما هم يترددون في الجليل قال لهم يسوع : ابن الانسان سوف يسلم الى أيدى الناس ، فيقتلونه وفى اليوم الثالث يقوم - فحزنوا جدا » ، « ولما أكمل يسوع هذه الأقوال كلها قال لتلاميذه : تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح ، وابن الانسان يسلم ليصلب » ، « وابتدأ يعلمهم أن ابن الانسان ينبغى أن يتألم كثيرا ويرفض من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة ويقتل ، وبعد ثلاثة أيام يقوم ! وقال القول علانية ، فأخذه بطرس اليه وابتدأ ينتهره ، فالتفت وأبصر تلاميذه وانتهر بطرس قائلا : اذهب عنى ياشيطان - لأنك لا تهتم بما لله ، لكن بما للناس !! » ، « وخرجوا من هناك واجتازوا الجليل ، ولم يرد أن يعلم أحد ! ... لأنه كان يعلم تلاميذه ويقول لهم : ان ابن الانسان يسلم . وأما هم فلم يفهموا القول وخافوا أن يسألوه » ، « واذ كان الجميع يتعجبون من كل ما فعل يسوع قال لتلاميذه : ضعوا أنتم هذا الكلام فى آذانكم ، ان ابن الانسان سوف يسلم الى أيدى الناس ، وأما هم فلم يفهموا هذا القول ، وكان مخفى منهم لكيلا يفهموه ... » ، « وأخذ الاثنى عشر وقال لهم : هانحن صاعدون الى أورشليم ، وسيتم كل ماهو مكتوب بالأنبياء عن ابن الانسان ، لأنه يسلم الى الأمم ويستهزأ به ويشتم ويتفل عليه ، ويجلدونه ويقتلونه ، وفى اليوم الثالث يقوم - وأما هم فلم يفهموا ... » ، « قال لهم يسوع أيضا : أنا أمضى وستطلبوننى وتموتون فى خطيتكم حيث أمضى أنا ، لا تقدرون أنتم أن تأتوا . فقال اليهود : ألعله يقتل نفسه ... » ، « من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه ، وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس منه ظلم ... لماذا تطلبون أن تقتلونى ! أجاب الجمع وقالوا :

بك شيطان ، من يطلب أن يقتلك ؟ » ، « بعد قليل لا تبصروننى ، ثم بعد قليل تروننى ـ لأنى ذاهب الى الآب » (١) !!

احساس صادق ملح بالمصير ••••

ولا عجب فهو مصير الأنبياء والمرسلين ••• وبهذا أخبر ورقة بن نوفل محمدا فى أول الوحى : « ليتنى فيها جذعا اذا يخرجك قومك ، قال أو مخرجى هم ؟ قال : لم يأت رجل بمثل ماجئت به الا عودى » ! « واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ، ويمكرون ويمكر الله ، والله خير الماكرين(٢) » •

وللمسيح بعد ذلك نبوءات أخرى : « ثم خرج يسوع ومضى الى الهيكل ، فتقدم تلاميذه لكى يروه أبنية الهيكل ، فقال لهم يسوع : أما تنظرون جميع هذه ؟ الحق أقول لكم : انه لا يترك هنا حجر على حجر لا ينقض •

وفيما هو جالس على جبل الزيتون تقدم اليه التلاميذ على انفراد قائلين : قل لنا متى يكون هذا ؟ وما هى علامة مجيئك وانقضاء الدهر ؟ فأجاب يسوع وقال لهم : انظروا لا يضلكم أحد ، فان كثيرون سيأتون باسمى قائلين أنا هو المسيح ، ويضلون كثيرين •

وسوف تسمعون **بحروب وأخبار حروب** ، انظروا ـ لا ترتاعوا ، لانه لا بد أن تكون هذه كلها !! ولكن ليس المنتهى بعد ، لانه تقوم أمة على أمة ، ومملكة على مملكة ، وتكون **مجاعات وأوبئة وزلازل** فى أماكن ••• ولكن هذه كلها مبتدأ الأوجاع •

حينئذ **يسلمونكم الى ضيق ، ويقتلونكم ، وتكونون مبغضين** من جميع الامم لأجل اسمى ، وحينئذ يعثر كثيرون ويسلمون بعضهم بعضا ، ويبغضون بعضهم بعضا ، ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ، ويضلون كثيرين ، ولكثرة الاثم تبرد محبة الكثيرين ! ولكن الذى يصبر الى المنتهى فهذا يخلص ، ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الامم ، ثم يأتى المنتهى » •

---

(١) مت ١٢ : ٤٥ ، ١٦ : ٢١ ـ ٢٣ ، ١٧ : ٢٢ ، ٢١ : ١ ، مر ٨ :٣١ ـ ٣٣ ، ٩ : ٣٠ ـ ٣٢ ، ١٠ : ٣٢ ـ ٣٤ لو ٩ : ٢١ ـ ٢٢ ، ٤٣ ـ ٤٥ ، ١١ : ٢٩ ـ ٣١ ، يو ٨ : ٢١ ـ ٢٢ ، ٧ : ١٨ ـ ٢٠ ، ١٦ : ١٦ ـ ٢٤

(٢) الأنفال : ٣٠

حروب ، واضطهاد ، ثم انتصار فى النهاية •

انه خط سير البشرية ، وتاريخ الدعوات والمبادىء •

« فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس ، ليفهم القارىء !

فحينئذ ليهرب الذين فى اليهودية الى الجبال ، والذى فى السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئا ، والذى فى الحقل فلا يرجع الى ورائه ليأخذ ثيابه ، وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الايام !! وصلوا ، لكى لا يكون هربكم فى شتاء ولا سبت ، لانه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم الى الآن ــ ولن يكون !! ولو لم تقصر تلك الايام لم يخلص جسد ، ولكن لأجل المختارين تقصر تلك الايام •• حينئذ ان قال لكم أحد : هو ذا المسيح هنا أو هناك فلا تصدقوا ــ لانه سيقوم مسحاء كذبة وأنبيــاء كذبة ، ويعطون آيات عظيمة وعجــائب حتى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا !

ها أنا قد سبقت وأخبرتكم ، فان قالوا لكم : ها هو فى البرية ، فلا تخرجوا !! ها هو فى المخادع ، فلا تصدقوا •• لانه كما آن البرق يخرج من المشارق ويظهر الى المغــارب ، هكذا يكون أيضــا مجىء ابن الانسان !

وللوقت بعــد ضــيق تلك الايام تظــلم الشمس ، والقمر لا يعطى ضوءه ، والنجوم تسقط من السماء ، وقوات السموات تتزعزع •• الحق أقول لكم لا يمضى هــذا الجيل حتى يكون هــذا كله ! السماء والارض تزولان ، ولكن كلامى لا يزول •

واما ذلك اليــوم وتلك الســاعة فلا يعلم بهمــا احد ــ ولا ملائكة السموات ، الا أبى وحده(١) » •

« يا أيهــا الناس اتقــوا ربكم ، ان زلزلة الساعة شىء عظيم • يوم ترونها تذهل كل مرضعة عما أرضعت ، وتضع كل ذات حمل حملها ، وترى الناس سكارى ــ وما هم بسكارى ، ولكن عذاب الله شديد(٢)» •

و (النبــوءات) و (علامات الساعة) و (آخر الزمان) ــ تجــد حديثها فى كل الأديان •

---

(١) مت ٢٤ : ١ ــ ٤١ ، مر ١٣ : ١ ــ ٣٢ ، لو ٢١ : ٥ ــ ٣٤ ، ١٩ : ٤٣ ــ ٤٤:
(٢) الحج : ١ ــ ٢

وفي القرآن نبـــوءات عن أحداث مستقبلة تقـــع للروم ، ولبني اسرائيل : « غلبت الروم في أدنى الارض ، وهم من بعد غلبهم سيغلبون في بضع سنين » ، « وقضينا الى بني اسرائيل في الكتاب لتفسدن في الارض مرتين ، ولتعلن علوا كبيرا • فاذا جاء وعد أولاهما بعثنا عليكم عبادا لنا أولى بأس شديد فجاسوا خلال الديار ، وكان وعدا مفعولا • ثم رددنا لكم الكرة عليهم ، وأمددناكم بأموال وبنين ، وجعلنـــاكم أكثر نفيرا • ان أحسنتم أحسنتم لأنفسكم ، وان أسأتم فلها ـ فاذا جاء وعد الآخرة ليسوؤا وجوهكم ، وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة، وليتبروا ما علوا تتبيرا • عسى ربكم أن يرحمكم ، وان عدتم عدنا ، وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا » •

كذلك في القرآن تبشير بانتشار الاسلام في العالمين : « هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ـ ليظهره على الدين كله ، وكفى بالله شهيدا » •

أما الساعة : فالاديان لا تحدد موعدها ، لتفسح للناس حبل الامل والعمل : « يسئلونك عن الساعة أيان مرساها ؟؟ قل انما علمها عند ربي، لا يجليها لوقتهـــا الا هو ، ثقلت في الســموات والارض ـ لا تأتيكم الا بغتة •• يسئلونك كأنك حفي عنها ، قل انما علمها عند الله ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون • قل لا أملك لنفسي نفعـــا ولا ضرا الا ماشاء الله ، ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء ، ان أنا الا نذير وبشير لقوم يؤمنون » ، « يسألونك عن الساعة أيان مرساها ؟ فيم أنت من ذكراها ؟ الى ربك منتهاها • انما أنت منذر من يخشاها • كأنهم يوم يرونها لم يلبثوا الا عشية أو ضــــحاها • » ، « يسألك الناس عن الساعة ـ قل علمها عند ربي ، وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا(١)» •

***

ومن أهم نبوءات المسيح ، مسألة مجيئه ثانية •

« فان ابن الانسان سوف يأتي في مجد أبيه مع ملائكته ، وحينئذ يجازي كل واحد حسب عمله • الحق أقول لكم : آن من القيام ههنا قوما لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الانسان آتيا في ملكوته » ! «وحينئذ تظهر علامة ابن الانسان في السماء ، وحينئذ تنـــوح جميع قبـــائل الارض

(١) الروم ٢ ، الاسراء ، ٤ : ٨ ، الفتح ٢٨ ، الأعراف ١٨٧ ـ ١٨٨ ، النازعات ٤٢ : ٤٦ ، الأحزاب ٦٣

ويبصرون ابن الانسان آتيا على سحاب السماء بقوة ومجد كثير ، فيرسل ملائكته ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الاربع الرياح من أقصاء السموات الى أقصائها • فمن شجرة التين تعلموا المثل : متى صار غصنها رخصا وأخرجت أوراقها تعلمون أن الصيف قريب ـ هكذا أنتم أيضا متى رأيتم هذا كله فاعلموا انه قريب على الأبواب ! الحق أقول لكم : لا يمضى هذا الجيل حتى يكون هذا كله • السماء والارض تزولان ولكن كلامى لا يزول • وأما ذلك اليوم وتلك الساعة **فلا يعلم بهما أحد ـ ولا ملائكة السموات ، الا أبى وحده** • وكما كانت أيام نوح كذلك يكون أيضا مجىء ابن الانسان، لانه كما كانوا فى الايام التى قبل الطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويزوجون الى اليوم الذى دخل فيه نوح الفلك ولم يعلموا ، حتى جاء الطوفان وأخذ الجميع ـ كذلك يكون أيضا مجىء ابن الانسان ! حينئذ يكون اثنان فى الحقل : يؤخذ الواحد ويترك الآخر ، اثنتان تطحنان على الرحى : تؤخذ الواحدة وتترك الاخرى » ، « ومتى جاء ابن الانسان فى مجده وجميع الملائكة والقديسين معه ـ فحينئذ يجلس على كرسى مجده ، ويجتمع أمامه جميع الشعوب فيميز بعضهم من بعض كما يميز الراعى الخراف من الجداء ، فيقيم الخراف عن يمينه والجداء عن اليسار •• » ، « انظروا ، اسهروا وصلوا لانكم لا تعلمون متى يكون الوقت • كأنما انسان مسافر ترك بيته وأعطى عبيده السلطان ، ولكل واحد عمله ، وأوصى البواب أن يسهر ••! اسهروا اذن ، لانكم لا تعلمون متى يأتى رب البيت : أمساء أم نصف الليل أم صياح الديك أم صباحا ، لئلا يأتى بغتة فيجدكم نياما » ، « فاحترزوا لانفسكم لئلا تثقل قلوبكم فى خمار وسكر وهموم الحياة ـ فيصادفكم ذلك اليوم بغتة ، لانه كالفخ يأتى على جميع الجالسين على وجه الارض ! اسهروا اذن وتضرعوا فى كل حين ، لكى تحسبوا أهلا للنجاة من جميع هذا المزمع أن يكون ، وتقفوا قدام ابن الانسان (١) » •

ومجىء المسيح له ذكره أيضا عند أهل القرآن :

« ولما ضرب ابن مريم مثلا : اذا قومك منه يصدون • وقالوا : أآلهتنا خير أم هو ؟ ماضربوه لك الا جدلا ، بل هم قوم خصمون • ان هو الا عبد أنعمنا عليه وجعلناه مثلا لبنى اسرائيل • ولو نشاء لجعلنا منكم ملائكة فى الارض يخلفون • **وانه لعلم للساعة** ، فلا تمترن بها واتبعون ـ هذا

---

(١) مت ١٦ : ٢٧ ـ ٢٨ ، ٢٤ : ٣٠ ـ ٥١ ، ٢٥ : ٣١ ـ ٤٦ ، مر ٨ : ٣٨ ـ ٣٩ ، ١٣ : ٢٦ ـ ٣٧ ، لو ٩ : ٢٦ ـ ٢٧ ، ٢١ : ٢٧ ـ ٣٦

صراط مستقيم » . فسر البعض الآية (وانه لعلم للساعة) : « أى ما وضع على يديه من الآيات من احياء الموتى وابراء الاسقام ، فكفى به دليلا على علم الساعة » . وفسرها آخرون : « قال هو خروج عيسى قبل يوم القيامة » . قال ابن كثير : « بل الصحيح انه عائد على عيسى فان السياق فى ذكره ، ثم المراد بذلك : نزوله قبل يوم القيامة كما قال تعالى (ومن أهل الكتاب الا ليؤمنن به قبل موته) - أى قبل موت عيسى ، ويؤيد هذا القراءة الاخرى : وانه لعلم للساعة - أى أمارة ودليل . وهكذا روى عن أبى هريرة وابن عباس وأبى العالية وأبى مالك وعكرمة والحسن وقتادة والضحاك وغيرهم ، وقد تواترت الاحاديث عن رسول الله انه أخبر بنزول عيسى عليه السلام قبل يوم القيامة : اماما عادلا ، وحكما مقسطا(١) » .

---

(١) الآيات من سورة الزخرف ٥٧ : ٦١ ، تفسير ابن كثير ج ٤ ص ١٣١ - ١٣٣ أحاديث حكم المسيح آخر الزمان : نص فنسنك فى (مفتاح كنوز السنة) على وجودها فى البخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وأحمد والطيالسى ، أما مايتعلق بخروجه بالشام وقتله الدجال فقد رواها أبو داود ومسلم والترمذى وابن ماجه وأحمد

سلطان للتلاميذ

ولم يقصر المسيح هذه القوة الخارقة على نفسه .

« ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر ، وأعطاهم سلطان على أرواح نجسة حتى يخرجوها ، ويشفوا كل مرض وكل ضعف » ، « وأرسلهم ليكرزوا بملكوت الله ، ويشفوا المرضى » ! لكنه ذكرهم بأن الغاية هي نيل رضاء الله أولا وأخيرا ، حتى لا تفتنهم القوة الجديدة : « ولكن لا تفرحوا بهذا : ان الارواح تخضع لكم ، بل افرحوا بالحرى أن أسماءكم كتبت فى السموات(١) » .

وانتشر التلاميذ الاثنى عشر — ومن بعدهم الاتباع السبعون — يبشرون برسالة المسيح طوال وجوده معهم وبعد رفعه ، يرون الناس من آيات الله كما يسمعونهم كلامه ووصاياه : « بل هذا ماقيل بيوئيل النبى: يقول الله — ويكون فى الايام الاخيرة انى أسكب من روحى على كل بشر ، فيتنبأ بنوكم وبناتكم ، ويرى شبابكم رؤى ويحلم شيوخكم أحلاما ، وعلى عبيدى أيضا وامائى أسكب من روحى فى تلك الايام فيتنبأون ، وأعطى عجائب فى السماء من فوق ، وآيات على الارض من أسفل : دما ونارا وبخار دخان» !! «وكانت عجائب وآيات كثيرة تجرى على أيدى الرسل» ! « وكان رجل أعرج من بطن أمه يحمل ، كانوا يضعونه كل يوم عند باب الهيكل ليسأل صدقة .. فقال بطرس : ليس لى فضة ولا ذهب ، ولكن الذى لى فاياه أعطيك : باسم يسوع المسيح قم وامش ، وأمسكه بيده اليمنى وأقامه — ففى الحال تشددت رجلاه وكعباه ، فوثب ووقف وصار يمشى ودخل معهما الى الهيكل — وهو يمشى ويطفر ويسبح الله !! وأبصره جميع الشعب .. فلما رأى بطرس ذلك أجاب الشعب : أيها الرجال الاسرائيليون ما بالكم تتعجبون من هذا ، ولماذا تشخصون الينا كأننا بقوتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشى ! ان اله ابراهيم واسحق ويعقوب —

---

(١) مت ١٠ : ١ ، مر ٦ : ٧ ، لو ٩ : ١ — ٢ ، لو ١٠ : ٢٠ .

اله آبائنا ـ مجد فتاه يسوع ٠٠ وبالايمان باسمه شدد اسمه هذا الذى تنظرونه وتعرفونه ، والايمـان الذى بواسطته أعطـاه هذه الصحة أمام جميعكم(١) » !!

وكان المسيح حكيما اذا أوصى تلاميذه فى آخر وصاياه ألا يرتبطوا بغير دعوتهم ورسالتهم ، وأن ينفضوا عنهم التطلع الى الغيب الذى حجبه الله عن العباد : « أما هم المجتمعون فسألوه قائلين : يا رب هل فى هذا الوقت ترد الملك الى اسرائيل ؟ فقال لهم : ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والاوقات التى جعلها الآب فى سلطانه ٠ لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم ، وتكونون لى شهودا فى أورشليم، وفى كل اليهودية والسامرة ـ والى أقصى الارض(٢) » ٠

ويقول الاب لويس برسوم الفرنسسكانى : « على أن نبوءات الكتاب تلك ، وان تكلمت حقا عن سيادة اسرائيل ـ فتقصد لا اسرائيل الجسدى، بل اسرائيل الروحى ـ أى الكنيسة ، وعن **سيادة روحية معنوية لا مادية**٠ وأما بخصوص ارتداد اسرائيل الجسدى وانخراطه تحت لوآء المسيح ـ فانه وان كان أمرا مؤكدا ، الا أن زمن ذلك غير مفهوم ، كما هو غير معلوم كذلك زمن دخول شعوب الارض قاطبة الكنيسة ملكوت المسيح(٣) » ٠

***

وبعـــد ٠٠٠

فأظن انه قد استبانت وجهة المسيح وتلاميذه ٠

لكم حرصوا ألا تحجب النبوءات والمعجزات وجه الرسالة الانسانية الخالدة !!

فالدين لا يلجـأ للمعجزة الا كشـاهد ودليل بين يدى النبى لدى الجمـاهير ، ثم تمضى المعجزات وتصير أحاديث ، ويبقى جوهر الرسالة وحده معروضا على الاجيال ٠

ويقول الدكتور مول عن (المعجزة) :

« انها ليست مجرد عمل لا يمكن تعليله أو تأويله ، وأغلب الظن ان اللفظة ذاتها تخلق فى الاذهان شيئا من سوء الفهم ، وقلما يستخدم النص

---

(١) أعمال : ٢ . ١٦ ـ ١٩ ، ٤٣ ، ٣ : ١ ـ ١٦

(٢) أعمال ١ : ٦ ـ ٨ ٠

(٣) لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج ٢ ص ٣٠١ ٠

اليونانى للعهد الجديد لفظة تعنى فقط مجرد حادث يذهل ويبهر ! وأحيانا نجد الكتاب الوثنيين يستعملون لفظة Teras للدلالة على حادث خارق ينبيء عن اقتراب وقوع أمر جلل وهذه اللفظة تحمل معنى الطيرة والشؤم • فقد اعتبر هيرودوت مثلا (ق ٥ ق م) من الخوارق اقتران مولد طاغية أثينا بيزيستراتوس بنضج لحوم الذبائح دون وقود ، واعتبر من الخوارق أيضا ماسبق استيلاء داريوس على بابل من نذير وهو اخصاب البغل ! أما اللفظة المستعملة فى (العهد الجديد) فتعنى فى أكثر الأحيان قوة أو آية • والمعجزة هنا ليست مجرد حادث مذهل يبهر الأنظار أو نذير بوقوع أمر خطير ، **انما هى حادث تتجلى فيه قوة الله وتعمل بطريقة خاصة ، هى عمل من أعمال الله • وعند بحث أية معجزة ينبغى أن نفكر فى قوة الدليل التى تحمله** •• وان كنا مسيحيين حقا فلا مندوحة لنا من أن نتخذ طبيعة الله ذاته الدليل الأوحد على صدق المعجزة أو كذبها • وقد جاء في (الابو كريفا) ـ وهى أناجيل غير معترف بها ولم تدمج فى أسفار العهد الجديد المعتمدة ـ قصص معجزية لا تنسجم مع طبيعة المسيح كما نعرفها في الاسفار المشروعة • فهل نقدر أن نصدق مثلا ما جاء في انجيل توما من أن غلاما صعق لأنه اصطدم بيسوع وهو بعد صبى ؟ •• ويسير علينا أن نرى في (سفر الاعمال) كيف تفرعت الحوادث من حقيقة القيامة، فقد وقعت أحداث حملت النظارة والمشتركين فيها دون قهر ولا ارغام على أن يروا الله عاملا بقوة عجيبة (وصارخون فى كل نفس ، وكانت عجائب وآيات كثيرة تجرى على أيدى الرسل ـ أعمال ٢ : ٤٣) •• **على ان المعجزات ـ مهما يكن شغفنا بها ـ ليست الطريق الوحيد التى يعمل بها الله ،** فهناك أفعال كثيرة أخرى تظهر لنا مجده وقوته • ومن تلك الافعال ماأتته دوركاس (طابيثا) في يافا ، وقد رأينا المسيحيين فى أورشليم وضعوا نظاما لاغاثة الارامل الفقيرات هناك ، وقد صنعت أصابع دوركاس الرحيمة الكثير من الاقمصة والثياب لستر العرايا وكانت أخلاقها وأعمالها آية تشهد لقوة الله لا تقل فى عظمتها عن آية اقامتها من الموت بيد بطرس ، وأن تكون الاولى أقل فى صفتها الخارقة من الثانية •• والعبرانيون قديما عرفوا بأن روح الله يعمل بين الناس حين كانوا يرون أحداثا عجيبة ذات قوة خارقة فى زعامة بارزة ، فالملك شاءول منح موهبة فجائية فى القيادة يوم ظهر خطر الاعداء (امم ١١ : ٦) والزعماء المؤقتون الذين عرفوا بالقضاة فى الفترة الاولى من تاريخ ذلك الشعب عزوا قوتهم الى هذا المصدر عينه ، وكذلك عزيت اليه شجاعة جدعون القافر (قض ٦ : ٣٤) وقوة شمشون الجبار (قض ١٣ : ٢٥ ، ١٤ : ٦ ، ١٩ ، ١٥ : ١٤)

واقتصر الامر على الزعماء ولم يكن له حتى بالنسبة لهؤلاء صفة الدوام ٠٠ وكان على الرسول بولس أن يذكر أصدقاءه فى كورنثوس (اكور ١٢-١٤) بأن مواهب يوم الخمسين مثل التكلم بألسنة وغيرها **ليست وحدها علامات الروح وهى ليست أهمها** وجوهر المسألة يرتفع الى ما فوق هذا المستوى - كما تدل الفقرة (١ كور ١٣) وهو مستوى يقدر أن يبلغه كل انسان بل ينبغى أن يبلغه كل انسان ، ويقول ان مواهب الروح قد ترتب بحسب أهميتها (١ كور ١٢ ، ٣١ ، ١٤ : ١) ولكن مواهب القمة لا قيمة لها مالم تستخدم لخير الجماعة كلها(١) » ٠

ويقول الدكتور بترسون سمث :

« ان المعجزات تمدنا بالعون حين تعلمنا ان مجد الله العظيم يحيط بنا دائما ، والصانع العظيم يظهر لنا بنفسه فى المعجزة **لأجل قصير** حتى نذكر انه يصنع ويعمل بعد ما تختفى المعجزات عن أنظارنا وشأن المعجزة أن تجعل المجد الخفى منظورا للأعين والحادث الخارق للعادة يبين لنا ان الاشياء العادية هى مجد الله أيضا ، أشبه بوميض البرق الذى يظهر لنا فى لحظة وجود القوة الكهربائية العاملة فى الكون ٠٠ وكان المسيح حريصا مقتصدا فى فعلها ولم يكن قصده فى صنعها اكراه القوم على الايمان به وقد استخدم القوة الالهية بالاكثر للترويح عن البشر واسعادهم ، فاذا احتاج جمع صاخب وطلب معجزة كآية فانهم يقرعهم بعنيف القول : جيل شرير وفاسق يطلب آية ! أما اذا تعرضت عروس للخزى أمام صواحبها أو اذا ثكلت أرملة نابين بفقد ولدها الوحيد واذا أصيبت امرأة كفر ناحوم بالحمى وأشرفت على الموت واذا جاء شحاذ أعمى على قارعة الطريق يطلب الانقاذ ، عندئذ يصنع المسيح المعجزات ٠٠ على **ان المعجزات فى حد ذاتها ليست من الاساليب المستحبة لاعلان الله** والفكر الذى ينظر الى قوة الله كأسمى درة فى تاج المجد الالهى انما هو فكر سطحى عقيم ! ولما صرخ موسى لله قائلا : أرنى مجدك ، قيل له : أجيز كل جودى قدامك ، فجود الله وكرمه ومحبته أعظم ما يتمجد به الله(٢) » !! ٠

ومن هنا يفهم موقف الاسلام الذى مضى فى هذا الاتجاه الى آخر الشوط ، فكانت معجزته التى يتحدى بها العالمين هى القرآن وكفى :

---

(١) دكتور مول : رسل المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ٢٣ - ٤ ، ٢٨ : ٣١ ، ٣٥ - ٦

(٢) بترسون سمث : حياة يسوع - ترجمة حبيب سعيد ص ٧٨ - ٩

« قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه ان كنتم صادقين· » ، « فليأتوا بحديث مثله ان كانوا صادقين» ، « قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات ، وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين » ، « فأتوا بسورة من مثله » ·

وكان القرآن واثقا من نتيجة التحدى : « قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن ، لا يأتون بمثله ـ ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا » ، « لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، تنزيل من حكيم حميد » ، « ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا(١)» ·

« ان حكمة الله اقتضت ألا تكون الخوارق دعامة لنبوة محمد ، وبرهانا على صحة رسالته ، وصدق دعوته التى جاءت بأسلوب جديد ـ أسلوب لفت النظر الى الكون وما فيه من آيات باهرة ، والبرهنة بها على وجود الله وقدرته الشاملة ، ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة والاتجاه ·· ثم أسلوب مخاطبة العقل والقلب فى الحث على الفضائل والتنفير من الرذائل ، واثبات قدرة الله على الحياة الاخرى وفكرة الحق والعدل فيها ، وعلى اعتبار ان الدعوة التى تقوم على تقرير وجود الله واستحقاقه وحده للعبودية واتصافه بجميع صفات الكمال ، وعلى التزام الفضائل واجتناب الفواحش ـ هى فى غنى عن معجزات خارقة للعادة لا تتصل بها بالذات ·· وآيات الانبياء السابقين الخارقات حادثات وقعت وانقضت ، ولكن أسلوب الدعوة القرآنية أسلوب خالد حى قوى فى كل زمان ومكان ببراهينه ودلائله ، وحيويته ونفوذه ، وفصاحته ومعقوليته ومنطقه وسموه(٢) » ·

وليس هذا بغريب بعد أن أكدت رسالة المسيح هذا الاتجاه ، وهى التى أحاطها سوار مزدان بتهاويل المعجزات !!

---

(١) القصص ٤٩ ، الطور ٣٤ ، هود ١٣ ، يونس ٣٨ ، البقرة ٢٣ ، الاسراء ٨٨ ، فصلت ٤٢ ، النساء ٨٢

(٢) محمد عزة دروزة : سيرة الرسول جـ ١ ص ٢٢٦

الله ... محبة

« أيها الاحباء : لنحب بعضنا بعضا ـ لان المحبة هي من الله • وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله • ومن لا يحب لم يعرف الله ••• لان الله محبة » •

(رسالة يوحنا الرسول الأولى ٤ : ٧ ـ ٩)

رسول السلام

هنا نضافح رسول السـلام ، فى موكب السـلام الذى نشره فى العالمين ٠٠٠

نشره فى الدنيا التى كانت تمزقها أهواء الاباطرة جريا وراء المزيد من التوسع والغلبة والنفوذ ! نشره فى الدنيا التى كانت تمزقها ــ فى الدولة الواحدة ــ خلافات الحاكم مع المحـكوم ، ويمزقها ــ فى صفوف الحاكمين أنفسهم ــ صراع الكبراء على السطوة والسلطان ، وتمزقها ــ فى صفوف المحكومين مع بعضهم بعضا ــ فوارق الطبقات وفوارق القوميات وفوارق الطوائف ، وتمزقها ــ بين الحـاكمين والمحكومين ــ من المظـالم والفتن صنوف وألوان !!

حتى بنى اسرائيـل ، الذين جمعتهم الأنسـاب وجمعتهم النبـوات المتعاقبة المتلاحقة ٠٠٠ رفعوا بأيديهم سـياط الفرقة والشقاق لأنفسـهم وللناس ٠٠٠

« وكان حاضرا فى ذلك الوقت قوم يخبرونه عن الجليليين الذين خلط بيلاطس دمهم بذبائحهم ، فأجاب يسوع وقال لهـم : أتظنون ان هؤلاء الجليليين كانوا خطاة أكثر من كل الجليليين لانهم كابدوا مثل هذا؟ كلا أقول لكم : بل ان لم تتوبوا فجميعكم تهلكون ! وأولئك الثمانية عشر الذين سـقط عليهم البرج فى سلوام وقتلهم ــ أتظنـون ان هؤلاء كانوا مذنبين أكثر من جميع الناس الساكنين فى أورشليم ؟ كلا أقول لكم : بل ان لم تتوبوا فجميعكم كذلك تهلكون(١) !! » ٠

فى ركام من الخطايا والذنوب ، والبلايا والمحن ، والدماء والاشلاء ٠٠٠ جاء المسيح ٠

---

(١) لو ١٣ : ١ ــ ٦

طوبى ... للرحماء

« ولما رأى الجموع صعد الى الجبل ...

فلما جلس ، تقدم اليه تلاميذه ـ ففتح فاه وعلمهم قائلا :

طوبى للمساكين بالروح ، لان لهم ملكوت السموات !... طوبى للحزانى ، لانهم يتعزون !... طوبى للودعاء ، لانهم يرثون الارض ! **طوبى للجياع والعطاش الى البر ، لانهم يشبعون !... طوبى للرحماء ، لانهم يرحمون !... طوبى للأتقياء** القلب ، لانهم يعاينون الله !.. طوبى لصانعى السلام ، لانهم أبناء الله يدعون !.. **طوبى للمطرودين من اجل البر ، لان لهم ملكوت السموات** ! طوبى لكم اذا عيروكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة ـ من أجلى ـ كاذبين ! افرحوا وتهللوا ، لان أجركم عظيم فى السموات ، فانهم هكذا طردوا الانبياء من قبلكم !!

سمعتم انه قيل : تحب قريبك وتبغض عدوك ، **وأما أنا فأقول لكم: أحبوا أعداءكم ، باركوا لاعنيكم ، أحسنوا الى مبغضيكم ، وصلوا لأجل الذين يسيئون اليكم ويطردونكم ـ لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات ، فانه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين ، ويمطر على الابرار والظالمين** !! لانه ان أحببتم الذين يحبونكم ـ فأى أجر لكم ؟ أليس العشارون أيضا يفعلون ذلك ؟ وان سلمتم على اخوتكم فقط ـ فأى فضل تصنعون ؟ أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا ؟ **فكونوا أنتم كاملين ـ كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل »** ، **« من ضربك على خدك الأيمن فاعرض له الآخر أيضا ، ومن أخذ رداءك فلا تمنعه ثوبك أيضا ، وكل من سألك فأعطه ، ومن أخذ الذى لك فلا تطالبه ، وكما تريدون أن يفعل الناس بكم ـ افعلوا أنتم أيضا بهم هكذا ... وان احببتم الذين يحبونكم ـ فأى فضل لكم ؟ فان الخطاة أيضا يحبون الذين يحبونهم ... واذا أحسنتم الى الذين يحسنون اليكم ـ فأى فضل لكم ؟ فان الخطاة أيضا يفعلون هكذا ... وان اقرضتم الذين ترجون أن تشتروا منهم ـ**

فاى فضل لـــكم ؟ فان الخطاة ايضا يقرضون الخطاة لكى يســتردوا منهم المثــل ٠٠٠ بل أحبــوا أعداءكم ، وأحســـنوا وأقرضوا وانتم لا ترجون شيئا فيكون أجركم عظيما ، وتكونوا بنى العلى فانه منعم على غير الشاكرين والاشرار !! فكونوا رحماء ـ كما ان أباكم أيضا رحيم(١)»٠

وعن هذه الموعظة التاريخية يقول جون ماثيسون الكاتب اللاهوتى الاسكتلندى :

« لقد كانت (موعظة الجبل) خطابا للعالم ، وان كان يسوع لم يبدأ خطابه الا حينما تقــدم اليه تلاميــذه ٠٠٠ والخيط الواحد الذى يربط الموعظة جميعها : هو نسيان الذات ٠٠٠ انه ليس عليك أن تكبح محبة الذات فقــط بل عليك أن تحب غــيرك ٠ ان القــداسة ليست فقط قمع العواطف القديمة ، انها ولادة عواطف جديدة ٠٠٠ وهكذا يضع يسوع اصبعه على نقطة الضعف فى الناموس القديم والوصايا القديمة : انه حبس النفس لا نسيانها ٠٠ ويسوع يقدم طريقة للصلاة ، لا شكلا لها ! ان نفس شكل الصلاة أو الصوم أو فعل الرحمة يمكن أن يصدر من الانسان بدافع الحب أو بدافع الانانية فالدوافع هى الامم(٢) » ٠

أما برجسون الفيلسوف الفرنسى اليهودى الأصل فهو يرى أنه لا الفلسفة من حيث هى امتثال عقلى محض تجعلنا نأخذ بالأخلاق أو نعمل بها ، ولا الأخلاق من حيث هى مجموعة من القواعد يدركها العقل تجعلنا نفضل الأخلاق تفضيلا عقليا ٠٠٠ فقبل قواعد الأخلاق وقبل الميتافيزيقا هنالك الانفعال « يتجلى من جانب الارادة فى وثبة ويتجلى من جانب العقل فى تصور مفسر ! أنظر الى هذه العاطفة التى بشرت بها المسيحية وأسمتها (بالمحبة) ، انها اذا استولت على النفوس تبعها سلوك معين وانتشرت فى أثرها عقيدة معينة ٠ فلا هذه الفلسفة هى التى فرضت تلك الاخلاق ولا تلك الاخلاق هى التى جعلتنا نفضل هذه الفلسفة ، وانما كلتا الفلسفة والأخلاق تعبران عن شىء واحد : الأولى تعبر عنه بلغة العقل والثانية تعبر عنه بلغة الارادة ، ونحن نسلم بكلا التعبيرين متى أحسسنا بالمعبر عنه»! وبرجسون يميز بين المشاعر التى تربط المجتمع المغلق فى حدود (الاسرة) أو (الامة) وبين المشــاعر التى تربط المجتمع المفتوح على الانسانية جمعاء فيقول « ونحن لا نصل الى الانسانية فى مراحل مارين بالاسرة فالامة ،

---

(١) مت ٥ : ١ ـ ١٢ ، ٤٣ ـ ٤٨ ، لو ٦ : ٢٩ ـ ٣٦

(٢) جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة الدكتور عزت زكى جـ ١ ص ١١٦ : ١٢٠

بل نتخطاها في قفزة ونفوقها من غير أن تكون قد اتخذناها غاية » ! وهو يميز كذلك بين أخلاق الضغط وأخلاق التطلع « فأخلاق الضغط تتضمن فكرة مجتمع لا يبغي الا البقـاء ٠٠٠ أما أخـلاق التطلع فتتضمن شعورا بالتقـدم والانفعـال ، والذى يبعث عليهـا هو الحمـاسة للمضى قدما » والضغط والتطلع يتلاقيان ولكن يتمايزان « ان التطلع يميل الى التصلب فيأخذ شكل الالزام المحـدود ، والالزام المحـدود يكبر ويتسع فيشمل التطلع ٠٠٠ يلتقيان فى منطقة الفكر حيث تصنع التصورات ، ثم يسفر اللقاء عن امتثالات ٠٠ ونحن نستطيع أن نعلل اخفاق النظريات الاخلاقية العقلية أى بوجه العموم اخفاق معظم النظريات الفلسفية فى الواجب ، وليس معنى هذا طبعا انه ليس للفكرة المحضة من تأثير فى ارادتنا ولكن هذا التأثير لا يكون ناجعا الا اذا اتفق له أن يكون وحده فى الميدان» ٠ ويرى برجسون ان الاخلاق الانسانية لا بد أن تتجسد فى شخصية ممتازة تتخذ قدوة تحتذى « فبعد أن تكون مبعثرة فى قواعد عامة يقبلها العقل من غير أن تصل الى أن تهز الارادة اذا بهـا تصـبح جارفة قوية بنسبة ما تنصهر مواعظها المتعددة العامة فى وحدة انسان فرد ٠٠٠ ان الضغط كلما أدى الى القوى الطبيعية التى تسمى عادة أو غريزة كان أتم ، وأما التطلع فيزداد سلطانا كلما كان الذى يوحى به الينا أشخاص وكلما كان أكثر ظفرا على الطبيعة ٠٠ يجب أن نمر بالبطولة حتى نصل الى الحب ، والبطولة لا يوعظ بها وعظا وليس عليها الا أن تظهر على المسرح حتى تهز الناس وتبعث فيهم الحركة ٠٠ ان كل ما يستطيعه العقل هو أن يورد حججا ، وهذه الحجـج من المتـاح دوما أن نرد عليها بأخرى ، لكن وراء العقل هنالك الرجال الذين اسبغوا على الانسـانية حلة الالوهية فطبعوا العقل وهو الصفة الاساسية فى الانسان بطابع الهى ، وهؤلاء هم الذين يجذبوننا الى المجتمع المثـالى فى نفس الوقت الذى نخضع فيه لضغط المجتمع الواقعى ٠٠٠ لقد انقضى ثمانية عشر قرنا قبل أن تعلن حقوق الانسان فى أمريكا أولا على يد المتطهرين ثم فى فرنسا على يد رجال الثورة ولكن هذا لا يبطل انهـا بتعـاليم الانجيل بدأت ثم استمرت بعد ذلك لا يحدها شىء وشتان بين مثل أعلى يقدمه للناس حكماء وان كانوا جديرين حقا بالاعجاب وبين مثل أعلى يقذف الى العالم رسـالة مترعة حبا تبشر بالحب ٠٠٠ وكما انه وجد عباقرة وسعوا حدود العقل فأتيح لافراد من حين الى حين أكثر مما كان من الممكن أن يوهب النوع دفعة واحدة ، كذلك قد انبثقت نفوس ممتازة شعرت انها تمت بقربى الى سائر النفوس فلم

تقف عند حدود الجماعة ولا اكتفت بالتضامن الذى أقامته الطبيعة بل ارتفعت فى وثبة من حب الى الانسانية كافة(١) »

دعوة الحب والرحمة ··· دعوة الكرم والسماحة ··· من رسول سمح رحيم ·

« لقد جاءكم رسول من أنفسكم ··· عزيز عليه ماعنتم ··· حريص عليكم ··· بالمؤمنين رءوف رحيم(٢) » !!

***

لقد رأينا بنى اسرائيل ـ فى الاطار التاريخى الذى قدمناه ـ وآفتهم التطاول والادعاء والجمود عند المظاهر والشكول ·

كانوا (حرفيين) (طقوسيين) ، يملؤهم الزهو بأنهم شعب الله المختار !

فأنى لهذه القلوب أن تخالطها دعوة الحب الصافية الخالصة ، دعوة الرحمة الكريمة السامية ؟؟

كان مفهوم الدين عندهم أن يقتل المخالفون لأدنى شبهة ، أن يهلك العابدون فى تزمت المراسم وجمود التقاليد ··· كانت صورة الاله فى مخيلتهم ـ تعالى عن ذلك علوا كبيرا ـ وحشا ضاريا لا يرضى بغير مزيد من الدماء ··· وكان لا بد أن يصحح هذا الفهم المنكوس، لتعرف السماحة طريقها لتلك القلوب ··· القلوب المتشـــهية للقـذف بالخطيئة واتهام السريرة والولوغ فى الحرمات : « ما يفعل الله بعذابكم ان شكرتم وآمنتم وكان الله شاكرا عليما(٣) » ·

وبدأت كلمات المسيح تنساب كالغدير الصافى الرقراق : « ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات ، بل الذى يفعل ارادة أبى الذى فى السموات ··· كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم : يارب يارب ، أليس باسمك تنبأنا ، وباسمك أخرجنا شـــياطين ، وباسمك

---

(١) برجسون : منبعا الاخلاق والدين ترجمة الدروبى وعبد الدايم ـ راجع تلخيصا لأهم فصوله فى كتابنا (الدين فى موقف الدفاع)

(٢) التوبة ١٢٨ ·

(٣) النساء : ١٤٧ ·

صنعنا قوات كثيرة ؟؟ فحينئذ أصرح لهم : انى لم أعرفكم قط ، اذهبوا عنى يافاعلى الاثم » (١) !!

فليست العبرة بالدعاوى العريضة الرنانة يوم الجزاء ... وليست مدائح الناس بالتى تغنى يوم يقوم الاشهاد ...

« احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى ينظروكم ، والا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات ... فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراءون فى المجامع وفى الأزقة لكى يمجدوا من الناس ، الحق أقول لكم : انهم قد استوفوا أجرهم . وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تعرف شمالك ما تفعل يمينك ، لكى تكون صدقتك فى الخفاء ، فأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك علانية » (٢) .

« يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ، فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شىء مما اكتسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين . ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل ـ والله بما تعملون بصير ... ان تبدوا الصدقات فنعما هى ، وان تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ، ويكفر عنكم من سيئاتكم ـ والله بما تعملون خبير » (٣) .

والمسيح ينعى على الصلف والغرور فى هجوم سافر مكشوف ..

« لا تدينوا لكى لا تدانوا ، لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون ، وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم . ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك ، وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها ؟ أم كيف تقول لأخيك : دعنى أخرج القذى من عينك ، وها الخشبة فى عينك ؟؟ يامرائى ، أخرج أولا الخشبة من عينك ، وحينئذ تبصر جيدا أن تخرج القذى من عين أخيك » !!

« وان أخطأ اليك أخوك فاذهب وعاتبه ، بينك وبينه وحدكما ... وان سمع منك فقد ربحت أخاك ، وان لم يسمع فخذ معك أيضا واحدا

---

(١) مت ٧ : ٢١ ـ ٢٣ ، لو ٦ : ٤٦ .
(٢) مت ٦ : ١ ـ ٤ .
(٣) البقرة ٢٦٤ ـ ٢٦٥ ، ٢٧١ .

أو اثنين ـ لكى تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة ··· وان لم يسمع منهم فقل للكنيسة ، وان لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثنى والعشار ·

··· الحق أقول لكم كل ماتربطونه على الأرض يكون مربوطا فى السماء ، وكل ماتحلونه على الأرض يكون محلولا فى السماء ! وأقول لكم أيضا : ان اتفق اثنان منكم على الارض فى أى شىء يطلبانه فانه يكون لهما من قبل أبى الذى فى السموات ، لأنه حيث اجتمع اثنان أو ثلاثة باسمى فهناك أكون وسطهم » (١) ·

ان الله لا يكون فى الهيكل وحده ، ولا يشهد الطقوس والمراسم وحسب : « وما تكون فى شأن ، وما تتلو منه من قرآن ، ولا تعملون من عمل ـ الا كنا عليكم شهودا اذ تفيضون فيه ، وما يعزب عن ربك من مثقال ذرة فى الارض ولا فى السماء ، ولا أصغر من ذلك ولا أكبر ـ الا فى كتاب مبين » ، « مايكون من نجوى ثلاثة الا هو رابعهم ، ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أينما كانوا ، ثم ينبئهم بما عملوا يوم القيامة ـ ان الله بكل شىء عليم » (٢)

« حينئذ تقدم اليه بطرس وقال : يارب كم مرة يخطىء الى أخى وأنا أغفر له ـ هل الى سبع مرات ؟ قال له يسوع : لا أقول لك الى سبع مرات ، بل الى سبعين مرة سبع مرات !! لذلك يشبه ملكوت السموات انسانا ملكا أراد أن يحاسب عبيده ، فلما ابتدأ فى المحاسبة قدم اليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة ، واذ لم يكن له ما يوفى ـ أمر سيده أن يباع هو وامـــرأته وأولاده وكل ماله ويوفى الدين · فخر العبد وسجد له قائلا : يا سيد تمهل فأوفيك الجميع ، فتحنن سيد ذلك العبد وترك له الدين ··· ولما خرج ذلك العبد وجد واحدا من العبيد رفقائه مديونا له بمائة دينار ، فأمسكه بعنقه قائلا : أوفنى مالى عليك ··· فدعاه حينئذ سيده وقال له : أيها العبد الشرير ، كل ذلك الدين تركته لك لأنك طلبت الى ، أفما كان ينبغى أنك أنت أيضا ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا ؟ وغضب سيده وسلمه الى المعذبين حتى يوفى كل ما كان له عليه ··· فهكذا أبى السموى يفعل بكم ان لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته» (٣) !

---

(١) مت ٧ : ١ ـ ٥ ، ١٨ : ١٥ ـ ٢٠ ، لو ٦ : ٣٧ ـ ٤٢ ·

(٢) يونس ٦١ ، المجادلة ٧ ·

(٣) مت ١٨ : ٢١ ـ ٣٥ ، لو ١٧ : ٣ ـ ٤ ·

وليس للسماحة حدود ...

ان القلب السمح لا يتأتى له أن يحدد لنفسه حدود سماحته : « ادفع بالتى هى أحسن السيئة ، نحن أعلم بما يصفون » ، « صل من قطعك ، وأحسن الى من أساء اليك ، وقل الحق ولو على نفسك » (١) .

ذلك أن السماحة اذا تشربتها النفس فلن تتكلفها بعد : « لأنه ما من شجرة جيدة تثمر ثمرا رديا ولا شجرة ردية تثمر ثمرا جيدا ، لأن كل شجرة تعرف من ثمرها ، فانهم لا يجتنون من الشوك تينا ولا يقطفون من العليق عنبا . الانسان الصالح من كنز قلبه الصالح يخرج الصلاح ، والانسان الشرير من كنز قلبه الشرير يخرج الشر ، فانه من فضلة القلب يتكلم فمه » (٢) !

حقا : (اذا صلح القلب صلح الجسد كله) ، « ان فى ذلك لذكرى لمن كان له قلب ، أو ألقى السمع وهو شهيد ! » .

« وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هونا ، واذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاما . والذين يبيتون لربهم سجدا وقياما . والذين يقولون ربنا اصرف عنا عذاب جهنم ، ان عذابها كان غراما . انها ساءت مستقرا ومقاما . والذين لا يدعون مع الله ألها آخر ، ولا يقتلون النفس التى حـــرم الله الا بالحق ، ولا يزنون ـ ومن يفعل ذلك يلق أثاما . يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهانا . الا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدل الله سيئاتهم حسنات ، وكان الله غفورا رحيما . ومن تاب وعمل صالحا فانه يتوب الى الله متابا . والذين لا يشهدون الزور ، واذا مروا باللغو مروا كراما . والذين اذا ذكروا بآيات ربهم لم يخروا عليها صما وعميانا . والذين يقولون ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة أعين واجعلنا للمتقين اماما . أولئك يجزون الغرفة بما صبروا ، ويلقون فيها تحية وسلاما . خالدين فيها ، حسنت مستقرا ومقاما » (٣) .

---

(١) المؤمنون ٩٦ ـ الحديث صححه السيوطى

(٢) لو ٦ : ٤٣ ـ ٤٥

(٣) (حديث اذا صلح القلب ...) فى مفتاح كنوز السنة لفنسنك انه مروى فى البخارى الطيالسى ـ الآية « ان فى ذلك لذكرى .. » من سورة ق ٣٧ ، الآيات التالية من الفرقان ٦٣ ـ ٧٦

امتحان ... من الواقع

وامتحنت دعوة المحبـــة أول أمرها فى المجتمع الصغير : مجتمع التلاميذ ...

« حينئذ تقدمت اليه أم ابنى زبدى مع ابنيها ، وسجدت وطلبت منه شيئا ، فقال لها : ماذا تريدين ؟ قالت له : قل أن يجلس ابناى هذان ، واحد عن يمينك والآخر عن اليسار فى ملكوتك ... فقال لهما : أما كأسى فتشربانها ، وبالصبغة التى أصطبغ بها أنا تصطبغان ، وأما الجلوس عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه الا للذين أعد لهم من أبى ...

فلما سمع العشرة اغتاظوا من أجل الأخوين !! فدعاهم يسوع وقال : أنتـم تعلمـــون ان **رؤساء الامم يسودونهم والعظماء يتسلطون** عليهـم ـ **فلا يكون هكذا فيكم ... بل من أراد أن يكون فيكم عظيما فليكن لكم خادما** ، ومن أراد أن يكون فيكم أولا فليكن لكم عبدا ـ كما أن ابن الانســـان لم يأت ليخدم ، بل ليخـــدم وليبذل نفسه فدية عن كثير » (١) .

ان مقعد الصدق بجوار المسيح أغرى القوم بالتنافس ، فنسوا وصية المسيح بالتواضع : « وقال للمدعوين مثلا ـ وهو يلاحظ كيف اختاروا المتكئـــات الأولى قائلا لهم : متى دعيت من أحـــد الى عرس فلا تتكىء فى المتكأ الأول ولعل أكرم منك يكون قد دعى منه ، فيأتى الذى دعاك واياه ويقول لك : أعط مكانا لهذا ! فحينئذ تبتدىء بخجل تتخـذ الموضــع الأخير !! بل متى دعيت ، فاذهـب واتكىء فى الموضـع الأخير ، حتى اذا جاء الذى دعاك يقول لك : ياصديق ، ارتفع الى فوق ! حينئذ يكون لك مجد أمام المتكئين معك ، لأن كل من يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع » (٢) .

---

(١) مت ٢٠ : ٢٠ ـ ٢٨ ، مر ١٠ : ٣٥ ـ ٤٥ .
(٢) لو ١٤ : ١٧ ـ ١١ .

ولطالما أوصى المسيح بالتضحية والفداء ، ولكن العشرة لم يتناسوا ذواتهم ازاء ما أحرزه صاحباهم من سبق ... والاثنا عشر قد حرصوا جميعا على تبين منازلهم فى دار الجزاء : « فأجاب بطرس حينئذ وقال : هانحن قد تركنا كل شيء وتبعناك فماذا يكون لنا ؟ فقال لهم يسوع : الحق أقول لكم : أنتم الذين تبعتموني فى التجديد ، متى جلس ابن الانسان على كرسى مجده ــ تجلسون أنتم أيضا على اثنى عشر كرسيا تدينون أسباط اسرائيل الاثنى عشر . وكل من ترك بيوتا أو اخوة أو أخوات أو أبا أو امرأة أو أولاد أو حقولا من أجل اسمى ــ يأخذ مائة ضعف ، ويرث الحياة الأبدية » .

ويذكر في تفسير عبارة (أسباط اسرائيل الاثنى عشر) ــ أنها تعنى الشعوب كافة : « لأن اسرائيل الله الحقيقى ما هو الا الكنيسة ، التى تضم ــ ان لم يكن بالفعل ، فكحق ــ جميع شعوب الأرض قاطبة ». أما (عهد التجديد) فهو آخر الأيام ، حيث ستجدد الطبيعة كلها ، على ما جاء فى سفر الرؤيا (٢١ : ٥) : « ها أنا أجعل كل شيء جديدا » .

وهكذا اتجه المسيح الى تكوين جماعة صغيرة محدودة تنهض بأعباء دعوته ، وتكوين نواة تنمو وتعمل على مدى الأجيال « وقد تظل ثلاث سنوات يجمع حوله يوما بعد يوم هذه الجماعة المختارة معلنا لهم مبادئه ملهما اياهم أفكاره معلما اياهم بنموذج حياته حتى يترك من ورائه جماعة من الرجال المدربين المجاهدين لتحقيق فكرته فى حمل لواء ملكوت الله ... انه يلهب فى نفوسهم غيرة وحماسة ويضع فيهم ثقته الكاملة وان لم يخترهم من ذوى المكانة والجاه أو العلم أو التفوق العملى ... كانت حاجته الى شهود أمناء للحقيقة التى قام عليها الملكوت ...» (١)

ولم يدعهم المسيح يتواكلون : « **ولكن كثيرون اولون يكونون آخرين وآخرون أولين** » ، « وكانت بينهم مشاجرة ، من منهم يظن انه يكون أكبر ؟ فقال لهم : ملوك الأمم يسودونهم ، والمتسلطون عليهم يدعون محسنين . وأما أنتم فليس هكذا ، بل الكبير فيكم ليكن كالأصغر ، والمتقدم كالخادم ــ لأن من هو أكبر : الذى يتكيء أم الذى يخدم ؟ أليس الذى يتكيء ؟ ولكنى أنا بينكم كالذى يخدم . أنتم الذين ثبتوا معى فى تجاربى ، وأنا أجعل لكم كما جعل لى أبى ملكوتا ، لتأكلوا

(١) بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ١٧٤ : ٧ .

وتشربوا على مائدتى فى ملكوتى ، وتجلسوا على كراسى تدينون أسباط اسرائيل الاثنى عشر » (١) •

ونحن نجد القرآن كذلك يعد المجاهدين والمهاجرين فى سبيل الله خير الجزاء فى الدنيا والآخرة : « ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الارض مراغما كثيرا وسعة ، ومن يخرج من بيته مهاجرا الى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله ، وكان الله غفورا رحيما » ، « ذلك بأنهم لا يصيبهم ظمأ ولا نصب ولا مخمصة فى سبيل الله ، ولا يطئون موطئا يغيظ الكفار ولا ينالون من عدو نيلا — الا كتب لهم به عمل صالح ، ان الله لا يضيع أجر المحسنين • ولا ينفقــون نفقة صغيرة ولا كبيرة ولا يقطعون واديا الا كتب لهم ، ليجزيهم الله أحسن ما كانوا يعملون » (٢) •

***

فاذا انتقلنا من مجتمع التلاميذ الى مجتمع اليهــود ، رأينا من المفارقات عجبا ••• لقد قدمنا فى (الاطار التاريخى) اجمالا لطوائف بنى اسرائيل ، يعطى صورة من هذه المجتمع المتشاحن المتناحر ، الذى لم يلم شعثه نسب ولا دين • !

وانجيل يوحنا بالذات حافل بشواهد الأنانية الطائفية والقومية عند هؤلاء : « ••• فيلبس وجد نثنائيل ، وقال له : وجدنا الذى كتب عنه موسى فى الناموس والأنبياء — يسوع بن يوسف الذى من الناصرة• فقــال له نثنائيل : **أمن النــاصرة يمــكن أن يكون شيء صالح** ؟؟ » ، « فجاءت امرأة من الســامرة لتستقى ماء فقال لهــا يسوع : أعطينى لأشرب ••• فقالت له المرأة السامرية : كيف تطلب منى لتشرب وأنت يهودى وأنا امرأة سامرية — **لان اليهود لا يعاملون السامريين** !!! ••• قالت له المرأة : يا سيد أرى أنك نبى ، آباؤنا سجدوا فى هذا الجبل وأنتم تقولون : ان فى أورشليم الموضع الذى ينبغى أن يسجد فيه ! قال لها يسوع : يا امرأة صدقينى أنه تأتى ساعة لا فى هذا الجبل ولا فى أورشليم تسجدون للآب ، أنتم تسجدون لما لستم تعلمون ، أما نحن فنسجد لما نعلم ، لأن الخلاص هو من اليهود ، **ولكن تأتى ساعة — وهى**

---

(١) مت ١٩ : ٢٧ — ٣٠ ، مر ١٠ : ٢٨ — ٣١ ، لو ١٨ : ٢٨ — ٣٠ ، ٢٢ : ٢٤ — ٢٩ ، لويس برسوم : حياة يسوع المسيح جـ ٢ ص ٣٥

(٢) النساء ٩٩ ، التوبة ١٢٠ •

الآن ـ حين الساجدون الحقيقيون يسجدون للآب بالروح والحق ، لأن الآب طالب مثل هؤلاء الساجدين له ! الله روح ، والذين يسجدون له فبالروح والحق ينبغي أن يسجدوا » (١) !!!

هذه هي الروحانية الغامرة والانسانية الرفيعة ، التي أقبلت تنير سراديب الطائفية والشكلية ... « الروح هو الذى يحيي ، أما الجسد فلا يفيد شيئا . الكلام الذى أكلمكم به هو روح وحياة » (٢) !!

حقا ما أكبر الفرق بين هذه الروح الخالصة وبين القوالب الجامدة : « أو من كان ميتا فأحييناه وجعلنا له نورا يمشى به فى الناس ، كمن مثله فى الظلمات ليس بخـــارج منها ، كذلك زين للكافرين ما كانوا يعملون » (٣) .

« وكان فى الجموع مفاجأة كثيرة من نحوه : بعضهم يقولون : انه صالح ، وآخرون يقولون : لا بل يضل الشعب . ولكن لم يكن أحد يتكلم عنه جهارا لسبب الخوف من اليهود ... فتعجب اليهود قائلين : كيف هذا يعرف الكتب وهو لم يتعلم ، أجابهم يسوع وقال : تعليمى ليس لى ، بل للذى أرسلنى . ان شاء أحد أن يعمل مشيئته يعرف التعليم : هل هو من الله أم أتكلم أنا من نفسى ؟ من يتكلم من نفسه يطلب مجد نفسه ، وأما من يطلب مجد الذى أرسله فهو صادق وليس فيه ظلم (٤) » .

« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ، ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان : ولكن جعلناه نور نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم . صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض ، ألا الى الله تصير الامور (٥) » .

وظل اليهود يتغامزون ويتهامسون : « فقال اليهود فيما بينهم : الى أين هذا مزمع أن يذهب حتى لا نجده نحن ؟ ألعله مزمع أن يذهب الى **شتات اليونانيين ويعلم اليونانيين** » ؟؟ .

« فتش وانظر ، **انه لم يقم نبى من الجليل** (٦) » !

---

(١) يو ١ : ٤٥ ـ ٤٦ ، ٣ : ٥ ـ ٢٦
(٢) يو ٦ : ٦٢
(٣) الأنعام ١٢٢
(٤) يو ٧ : ١٣ ـ ١٨
(٥) الشورى ٥٣
(٦) يو ٧ : ٣٥ ـ ٥٢

« فقال يسوع لليهود الذين آمنـــوا به : انكم ان ثبتم من كلامى فبالحقيقة تكونون تلاميذ ، وتعرفون الحق ، والحق يحرركم ... أجابوه : **اننا ذرية ابراهيم ولم نستعبد لأحد قط** ، كيف تقول أنت أنكم تصيرون احرارا ؟ أجابهم يسوع : الحق الحق أقول لكم : ان كل من يعمل الخطية هو عبـــد للخطية ... لو كنتم أولاد ابراهيم لكنتم تعملون أعمـــال ابراهيم ، ولكنكم الآن تطلبون أن تقتلوني وأنا انسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله هذا لم يعمله ابراهيم . أنتم تعملون أعمال أبيكم !! فقالوا له : اننا لم نولد من زنا ، لنـــا آب واحد هو الله . فقال لهم يسوع : لو كان الله أباكم لكنتم تحبوننى ، لأننى خرجت من قبل الله وأتيت ، لأنى لم آت من نفسى بل ذاك أرسلنى ... أنتم من أب هو ابليس ، وشهوات أبيكم تريدون أن تعملوا ... فان كنت أقول الحق ، فلماذا لستم تؤمنون بى ؟ الذى من الله يسمع كلام الله ، لذلك أنتم لستم تسمعون لأنكم لستم من الله ان كنت أمجد نفسى فليس مجدى شيئا ، أبى هو الذى يمجدنى ـ الذى تقولون أنتم أنه الهكم ـ ولستم تعرفونه ، وأما أنا فاعرفه ، وان قلت انى لست أعرفه أكون مثلكم كاذبا ، لكنى أعرفه وأحفظ قوله . أبوكم ابراهيم تهلل بأن يرى يومى فرأى وفرح .. فرفعوا حجارة ليرجموه (١) » !!!

لقد فزعت العقلية الضيقة المغلوبة فى الجدال ، المحجوجة بالبرهان ـ الى الطوب والحصى ، تكمل به المناقشة !!

« فدعوا ثانية الانسان الذى كان أعمى وقالوا له : أعط مجدا لله ، نحن نعلم أن هذا الانسان خاطىء !

فأجـاب ذاك وقال : أخاطىء هو ؟ لست أعلم ، انما أعلم شـيئا واحدا ، أنى كنت أعمى والآن أبصر !! ... ألعلكم أنتم تريدون أن تصيروا له تلاميذ ، فشتموه وقالوا : **أنت تلميذ ذاك ، واما نحن فاننا تلاميذ موسى . نحن نعلم أن موسى كلمه الله ، واما هذا فلا نعلم من اين هو ؟؟** أجاب الرجل وقال لهم : ان فى هذا عجبا ، انكم لستم تعلمون من أين هو وقد فتح عينى ، ونعلم أن الله لا يسمع للخطاة ، ولكن ان كان أحد يتقى الله ويفعل مشيئته فلهذا يسمع ! منذ الدهر لم يسمع أن أحدا فتح عينى مولود أعمى !! لو لم يكن هذا من الله لم يقدر أن يفعل

---

(١) يو ٨ : ٣٠ ـ ٥٩

شيئا • أجابوا وقالوا له : فى الخطايا ولــدت أنت بجملتك ، **وأنت تعلمنا !! فأخرجوه خارجا » (١) !**

أخرجوه خارجا ••• هكذا حلوا الاشكال ، ودسوا رءوسهم فى الرمال !!

انهم تلاميذ موسى وكفى ، وهم الأحبار والكهان الذين لا يتلقون علما من سواد الناس !

« ألم تر الى الذين أوتوا نصــيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل • والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا • من الذين هادوا ـ يحرفون الكلم عن مواضعه ، ويقولون : سمعنا وعصينا ••• ألم تر الى الذين يزكون أنفسهم ، بل الله يزكى من يشاء ولا يظلمون فتيلا • أنظر كيف يفترون على الله الكذب ، وكفى به اثما مبينا ••• أم يحسدون الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فقد آتينا ابراهيم الكتاب والحكمة وآتيناهم ملكا عظيما • فمنهم من آمن به ومنهم من صد عنه ، وكفى بجهنم سعيرا ••• ان الذين يكفرون بالله ورسله ويريدون أن يفرقوا بين الله ورسله ، ويقولون نؤمن ببعض ونكفر ببعض ويريدون أن يتخذوا بين ذلك سبيلا • أولئك هم الكافرون حقا ، وأعتدنا للكافرين عذابا أليما •• يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء ، فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة ، فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ، ثم اتخذوا العجل من بعد ما جاءتهم البينات فعفونا عن ذلك ، وآتينا موسى سلطانا مبينا • ورفعنا فوقهم الطور بميثاقهم ، وقلنا لهم ادخلوا الباب سجدا ، وقلنا لهم لا تعدوا فى السبت ـ وأخذنا منهم ميثاقا غليظا • فبما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله ، وقتلهم الأنبياء بغير حق ، وقولهم قلوبنا غلف ـ بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا ••• فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا • وأخذهم الربا ـ وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » (٢) •

« فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعا ، وقالوا : ماذا نصنع ؟

---

(١) يو ٩ : ٢٤ ـ ٣٤

(٢) النســاء ٤٤ : ٤٦ ؛ ٤٩ ـ ٥٠ ، ٥٤ ـ ٥٥ ، ١٥٠ ـ ١٥١ ، ١٥٣ : ١٥٥ ، ١١٩ ـ ١٦٠

فان هذا الانسان يعمل آيات كثيرة ! ان تركناه هكذا يؤمن الجميع به ، فيأتي **الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمتنا** » (١) !! « وكان أناس **يونانيون** من الذين صعدوا ليسجدوا في العيد ، فتقدم هؤلاء الى فيلبس الذي من بيت صيدا الجليل ، وسألوه قائلين : يا سيد ، نريد أن نرى يسوع . فأتى فيلبس وقال لأندراوس ، ثم قال أندراوس وفيلبس ليسوع ، وأما يسوع فأجابهما قائلا . قد أتت الساعة ليتمجد ابن الانسان . الحق الحق أقول لكم : ان لم تقع حبة الحنطة في الأرض وتمت ، فهي تبقى وحدها ! ولكن ان ماتت تأتي بثمر كثير ! من يحب نفسه يهلكها ، ومن يبغض نفسه في هذا العالم يحفظها الى حياة أبدية » (٢)..

ان بني اسرائيل يشفقون على ذهاب سلطانهم ... يشفقون من دعوة المحبة المسيحية أن تهدم العصبية ، وتأخذ طريقها الى اليونان والرومان ، والى غير اليونان والرومان ... ولكن هل يستطيع القوم بعنادهم وجمودهم وضيق أأفقهم أن يعترضوا مجرى التاريخ ؟؟ « لذلك أقول لكم : **ان ملكوت الله ينزع منكم ، ويعطى لأمة تعمل أثماره** » (٣) !!

« ماذا تظنون ؟ كان لانسان ابنان : فجاء الى الأول وقال : يا ابني اذهب اليوم اعمل في كرمي . فأجاب وقال : ما أريد ، ولكنه ندم أخيرا ومضى . وجاء الى الثاني وقال كذلك ، فأجاب وقال : ها أنا يا سيد ولم يمض . فأي الاثنين عمل ارادة الأب ؟ قالوا له : الأول . قال لهم يسوع : الحق أقول لكم : ان العشارين والزواني يسبقونكم الى ملكوت الله ، لأن يوحنا جاءكم في طريق الحق فلم تؤمنوا به ، وأما العشارون والزواني فآمنوا به ، وأنتم اذ رأيتم لم تندموا أخيرا لتؤمنوا به !

اسمعوا مثلا آخر : كان انسان رب بيت غرس كرما : أحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه الى كرامين وسافر ، ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيده الى الكرامين ليأخذ أثماره . فأخذ الكرامون عبيده ، وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا . ثم أرسل اليهم ابنه قائلا : يهابون ابني . وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم : هذا هو الوارث ، هلم نقتله ونأخذ ميراثه ، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه . فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين ؟؟ قالوا له : أولئك الأردياء يهلكهم هلاكا رديا ، ويسلم الكرم الى كرامين

---

(١) يو ١١ : ٤٧ ـ ٨

(٢) يو ١٢ : ٢٠ ـ ٢٥

(٣) مت ٢١ : ٤٤

آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها !! قال لهم يسوع : أما قرأتم قط فى الكتب : الحجر الذى رفضه البناءون هو قد صار رأس الزاوية — من قبل الرب كان هذا ، وهو عجيب فى أعيننا ··· ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم ، واذ كانوا يطلبون أن يمسكوه خافوا من الجموع — لأنه كان عندهم مثل نبى » (١) !!

« قل يأيها الذين هادوا ان زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس ، فتمنوا الموت ان كنتم صادقين · ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين · قل ان الموت الذى تفرون منه فانه ملاقيكم ، ثم تردون الى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون » (٢) ·

***

هكذا تلقى مجتمع التلاميذ ، ومجتمع اليهود دعوة المحبة المسيحية ···

أما مجتمع التلاميذ فسار على الدرب ، ولئن تعثر خطوات فقد عوضها وتقدم أشواطا ، وكل بنى آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون ···

أوصاهم المسيح وحدد لهم مهمتهم : « هؤلاء الاثنا عشر — أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا : الى طريق أمم لا تمضوا ··· والى مدينة للسامريين لا تدخلوا ··· بل اذهبوا بالحرى الى خراف بيت اسرائيل الضالة ! وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين : انه قد اقترب ملكوت السموات ! اشفوا مرضى ، طهروا برصا ، أخرجوا شياطين ! مجانا أخذتم ، مجانا أعطوا ! لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم ، ولا مزودا للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا ، لأن الفاعل مستحق طعامه · وأية مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا : من فيها مستحق ، وأقيموا هناك حتى تخرجوا · وحين تدخلون البيت سلموا عليه ، فان كان البيت مستحقا فليأت سلامكم عليه ، ولكن ان لم يكن مستحقا فليرجع سلامكم اليكم · ومن لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا خارجا من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم · الحق أقول لكم : ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالا مما

---

(١) مت ٢١ : ٢٨ — ٤٦ ، مر ١٢ : ١ — ١٢ ، لو ٢٠ : ٩ — ١٩
(٢) الجمعة ٦ : ٨

لتلك المدينة » ، « فخرجوا وصـــاروا يكرزون أن يتوبوا ، وأخرجوا شياطين كثيرة ، ودهنوا بزيت مرضى كثيرين ــ فشفوهم » (١) ٠

« يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون ٠ فان لم تجدوا أحدا فيها فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم ، وان قيل لكم ارجعوا ــ فارجعوا هو أزكى لكم ، والله بما تعملون عليم ٠ ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم ، والله يعلم ماتبدون وماتكتمون » ، « ٠٠ فاذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم ــ تحية من عند الله مباركة طيبة ، كذلك يبين الله لكم الآيات لعلكم تعقلون » (٢) ٠

وتجاوزت الرسالة بعد ذلك حدود بنى اسرائيل ، وانطلق رسل المسيحية فى أنحاء العالم الرومانى يبشرون برسالة المحبة ٠٠٠ « سلاما أترك لكم ، سلامى أعطيكم » (٣) ٠

وكانت لهم كلمات رائعة يؤسسون بها صرح المحبة فى مختلف أرجاء الأرض ٠٠٠

كانت وصية المسيح منقوشة على صفحات قلوبهم : « أنا الكرمة وأنتم الأغصان ٠ الذى يثبت فى وأنا فيه ، هذا يأتى بثمر كثير ، لأنكم بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئا ٠ ان كان أحد لا يثبت فى يطرح خارجا كالغصن ــ فيجف ويطرحونه فى النار فيحترق ٠ ان ثبتم فى وثبت كلامى فيكم تطلبون ماتريدون فيكون لكم ، بهذا يتمجد أبى ــ أن تأتوا بثمر كثير فتكونون تلاميذى ٠ كما أحبنى الآب كذلك أحببتكم أنا ٠ اثبتوا فى محبتى ٠ ان حفظتم وصاياى تثبتون فى محبتى كما أنى قد حفظت وصايا أبى وأثبت فى محبته ٠ كلمتكم بهذا لكى يثبت فرحى فيكم ، ويكمل فرحكم ٠

هذه هى وصيتى : أن تحبوا بعضكم كما أحببتكم ٠ ليس لأحد حب أعظم من هذا ، أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه ٠ أنتم أحبائى ان فعلتم ما أوصيكم به ٠ لا أعود أسميكم عبيدا ، لأن العبد لا يعلم مايعمل سيده ، لكنى سميتكم أحباء لأنى أعلمتكم بكـل ما سـمعته من أبى ٠ ليس أنتم اخترتمونى ، بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا وتأتوا بثمر ويدوم ثمركم ،

---

(١) مت ١٠ : ١ ــ ١٥ ، مر ٦ : ٧ ــ ١٢ ، لو ٩ : ١ ــ ٦
(٢) النور ٢٧ : ٢٩ ، ٦١
(٣) يو ١٤ : ٢٧

لكى يعطيكم الآب كل ما طلبتم باسمى ـ بهذا أوصيكم ، حتى تحبوا بعضكم بعضا » (١) ٠

فتغنى التلاميذ على قيثارة الحب ، بألحان من وحى معلمهم : «فالذين تشتتوا ، **جالوا مبشرين بالكلمة** » (٢) ٠٠٠

كتب بولس فى رسالته الى أهل رومية : « فانه كما فى جسد واحد لنا أعضاء كثيرة ولكن ليس جميع الأعضاء لها عمل واحد ، هكذا نحن الكثيرين ـ **جسد واحد فى المسيح وأعضاء بعضا لبعض كل واحد للآخر،** ولكن لنا مواهب مختلفة بحسب النعمة المعطاة لنا ٠٠٠ المحبة فلتكن بلا رياء ٠ كونوا كارهين الشر ، ملتصقين بالخير ، وادين بعضكم بعضا بالمحبة الأخوية ، مقدمين بعضكم بعضا فى الكرامة ٠٠٠ عاكفين على اضافة الغرباء ٠ باركوا الذين يضطهدونكم ٠ باركوا ولا تلعنوا ٠٠٠ لا تجازوا أحدا عن شر بشر ٠٠٠ ان كان ممكنا فحسب طاقتكم سالموا جميع الناس ٠ لا تنتقموا لأنفسكم أيها الأحباء ، بل أعطوا مكانا للغضب، لأنه مكتوب لى : النقمة أنا أجازى ـ يقول الرب ٠ فان جاع عدوك فاطعمه ، وان عطش فاسقه لأنك ان فعلت هذا تجمع جمر نار على رأسه ٠ لا يغلبنك الشر بل أغلب الشر بالخير » (٣) ٠

وفى رسالة بطرس الرسول الأولى : « ٠٠٠ أى مجد هو ان كنتم تلطمون مخطئين فتصبرون ؟ بل ان كنتم تتألمون عاملين الخير فتصبرون ـ فهذا فضل من عند الله ، لأنكم لهذا دعيتم ٠ فان المسيح أيضا تألم لأجلنا ، تاركا لنا مثالا لكى تتبعوا خطواته ، الذى لم يفعل خطية ولا وجد فى فمه مكر ، الذى اذا شتم لم يكن يشتم عوضا ، واذا تألم لم يكن يهدد ، بل كان يسلم لمن يقضى بعدل » (٤) ٠

وضمن يوحنا رسالته الأولى هذه الفقرات الغالية : « نحن نعلم **انا قد انتقلنا من الموت الى الحياة ، لاننا نحب الاخوة** ٠ من لا يحب أخا يبقى فى الموت ٠ كل من يبغض أخاه فهو قاتل نفس ، وأنتم تعلمون أن كل قاتل نفس ليس له حياة أبدية ثابتة فيه ٠ بهذا قد عرفنا المحبة ، أن ذاك وضع نفسه لأجلنا ، فنحن ينبغى لنا أن نضع نفوسنا لأجل

---

(١) يو ١٥ : ٥ ـ ١٧
(٢) أعمال ٨ : ٤
(٣) رومية ١٢ : ٤ ـ ٦ ، ٩ ـ ١٠ ، ١٣ ـ ١٤ ، ١٧ ـ ٢١
(٤) ١ بطرس ٢٠ ـ ٢٣

الاخوة ، وأما من كان له معيشة العالم ونظر أخاه محتاجا وأغلق أحشاءه عنه فكيف تثبت محبة الله فيه ! يا أولادي لا نحب بالكلام ولا باللسان ، بل بالعمل والحق ... **أيها الأحباء لنحب بعضنا بعضا ، لأن المحبة هي من الله ، وكل من يحب فقد ولد من الله ويعرف الله ، ومن لا يحب لم يعرف الله – لأن الله محبة** . بهذا أظهرت فينا أن الله قد أرسل ابنه الوحيد الى العالم لكي نحيا به ... أيها الأحباء ان كان الله قد أحبنا هكذا ، ينبغي لنا أيضا أن يحب بعضنا بعضا ... ان أحب بعضنا بعضنا ، فالله يثبت فينا ومحبته قد تكلمت فينا ... بهذا تكملت المحبة فينا ، أن يكون لنا ثقة في يوم الدين ... لا خوف في المحبة ، بل المحبة الكاملة تطرح الخوف الى خارج !! ... نحن نحبه ، لأنه هو أحبنا أولا . ان قال أحد انى أحب الله وأبغض أخاه فهو كاذب ، لأن من لا يحب أخاه الذى أبصره ، كيف يقدر أن يحب الله الذى لم يبصره ؟؟ » (١) .

وجاء في رسالة يعقوب : « من أين الحروب والخصومات بينكم ؟ أليست من هنا – من لذاتكم المحاربة في أعضائكم ؟ ... لا يذم بعضكم بعضا أيها الاخوة ، الذى يذم أخاه ويدين أخاه يذم الناموس ويدين الناموس ... **واحد هو واضع الناموس القادر أن يخلص ويهلك ، فمن** أنت يامن تدين غيرك ؟ ... أيها الاخوة ، ان ضل أحد بينكم عن الحق فرده أحد ، فعليكم أن من رد خاطئا فمن خلال طريقة يخلص نفسا من الموت ، ويستر كثرة من الخطايا » (٢) ..

.

وهكذا أقامت المسيحية جماعة تؤلف بينها العقيدة والولاء المشترك للمسيح . ولفظة (كنيسة) ecclesia تشير في مواضع من (سفر الأعمال) الى المسيحيين ، وهي اذا كانت تعنى مرة محفل المدينة (١٩ : ٣٢ ، ٣٩ ، ٤١) ، وتعنى أخرى مجمع اسرائيل فى البرية (خطاب اسطفانوس ٧ : ٣٨) فهي تكاد تعنى فى كافة المواضع من (سفر الأعمال) « الجماعة المحلية فى مكان معين » . وقد أطلقت شاملة لكنيسة فلسطين كلها التى انتظمت جماعات محلية عديدة (٩ : ٣١) ، على أن كنيسة أورشليم الأم وبناتها كانت رمزا للكنيسة المسكونية الجامعة ، وجاءت الكنيسة بمعناها المسكونى الجامع فى رسالتى افسوس وكولوسى .

---

(١) ١ يوحنا : ٣ : ١٤ – ١٨ ، ٤ : ٧ – ٢١

(٢) يعقوب ٤ : ١ – ٢ ، ١١ – ١٢ ، ٥ : ١٩ – ٢٠

وكانت الكنيسة الأولى تضم الى جانب الرسل الأولين ١٢٠ شخصا بين رجال ونساء من أنماط مختلفة ينتمون الى شتى أرجاء اليهودية وبينهم نفر من أهل أورشليم المحليين • ثم اتسع نطاق الجماعة وضمت حوالى ٣٠٠٠ في يوم الخمسين (١) • وقد قرأنا عن المناطق الكثيرة التى وفد منها الحجاج الى أورشليم فى عيد الخمسين (٢ : ٩ - ١١) فكان بينهم نفر من بلاد (مابين النهرين) حيث استوطنت جالية يهودية منذ عصور السبي ورحلت مجموعات من سكان السامرة واليهودية وكان هناك حجاج من ولايات (آسيا الصغرى) ومن (شـــمالى افريقية) ومن (شرقى الأردن) والى جانب الوافدين من بلدان شرقى حوض البحر المتوسط جاءت وفود من رومية ذاتها ، وكان منهم اليهود الأصلاء والدخلاء ••• وهكذا انسابت طرائق من الفكر مختلفة ونماذج من الحياة متباينة الى الجماعة المسيحية ••• وبين وشائج الالتحام الروحى العميق الذى أظل الكنيسة المسيحية الأولى أو المجتمع المسيحى المبكر تطالعنا ثغرآت وعثرات من خيانة ونزاع اليهود والأمميين ، على أن الأمر الواقع هو قيام نظام موحد وان لم يكن نظاما محكما كاملا منسقا تمام التنسيق • « وأما الكنائس فى جميع اليهودية والجليل والسامرة فكان لها سلام ، وكانت تبنى وتسير فى خوف الرب وبتعزية الروح القدس كانت تتكاثر - أعمال ٩ : ٣١ » وتعتبر الكنيسة المسيحية مشاركة لا مجرد زمالة أو ألفة وبهذه المشاركة ينتظم المسيحيون فى (أخوة) واحدة وعن طريق الكنيسة يتم الله نعمته ويوطد ملكوته « وكان لهذه الشركة المقدسة أثرها الظاهر فى حياة الجماعة ، كانوا يذهبون للهيكل كسائر الناس لأن المسيحيين الى ذلك الحين كانوا يهودا ، ولكن العبادة أوحت اليهم مثلا جديدة فى الحياة والسلوك وقوة أدبية جديدة مستمدة من الله ذاته اقترنت بشركة جديدة ورجاء جديد فى المستقبل ! لم يبطلوا عضويتهم فى الكنيسة اليهودية بل ازدادوا احساسا بأنهم يمثلون شعب الله الحقيقى الذى دعى لأداء مهمة فى التاريخ ، لا بسبب استحقاق فيهم ولكن بجود الله وفضله ليكونوا قلب هذا الشعب ! وهم فئة صغيرة مستضعفة ولكنهم أقوياء بالايمان الجديد القوى الذى يقدر أن يجذب الشعب كله الى الله » • « وكان المدبرون الأول لأموال الفقراء سبعة رجال اختيروا بعناية ، وفى العصور المتأخرة تضمنت واجبات الشمامسة العناية بالفقراء • ونلتقى

---

(١) يعرف عيد الخمسين أيضا بعيد الأسابيع أو يوم الباكورة أى بعد ٧ اسابيع من يوم الجمعة العظيمة - دكتور مول : رسل المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ١٩

بعد قليل بشيوخ هم قادة الجماعة presbytyriors فقد كان فى كنيسة أورشليم شيوخ استقبلوا المندوبين واشتركوا فى المجامع ، وعين بولس وبرنابا شيوخا للجماعات بآسيا الصغرى وسمى الشيوخ أساقفة ، Episkopol ووظيفتهم العناية والرعاية وكانوا يكرسون بوضع الأيدى وكان نظاما مألوفا بين اليهود » (١) ٠

***

هذه هى الرسالة الانسانية التى ضاقت عنها عقول بنى اسرائيل ، فانطلقت لتنير للعالم كله السبيل ٠٠٠

ان بطرس يعتز بنزعته الانسانية العالمية ، فيقول لقائد المائة (كرنيليوس) من الكتيبة الايطالية فى قيصرية : « أنتم تعلمون كيف هو محرم على رجل يهودى أن يلتصق بأحد أجنبى ، أو يأتى اليه ! وأما أنا فقد أرانى الله أن لا أقول عن انسان ما انه دنس أو نجس ! » (٢) ٠

وحاول الحرفيون الطقوسيون أن يناضلوا عن كيانهم بالشغب والتشويش ! كذلك فعلوا مع بولس ، عند عودته الى أورشليم بعد رحلته التبشيرية فىأوربا : « ٠٠٠ رآه اليهود الذين من آسيا فى الهيكل ، فأهاجوا كل الجمع وألقوا عليه الأيادى ـ صارخين : أيها الرجال الاسرائيليون أعينوا ، هذا هو الرجل الذى يعلم الجميع فى كل مكان ضدا للشعب والناموس وهذا الموضع ، حتى **أدخل يونانيين الى الهيكل ودنس هذا الموضع المقدس** ، لأنهم كانوا قد رأوا معه فى المدينة تروفيمس الافسسى فكانوا يظنون أن بولس أدخله الى الهيكل ٠ فهاجت المدينة كلها ، وتراكض الشعب وأمسكوا بولس وجروه خارج الهيكل ٠٠٠» (٣)

لكن اتجاه الريح سار على غير هوى أولئك اليهود : « وكانت كلمة الله تنمو وعدد التلاميذ يتكاثر جدا فى أورشليم ، وجمهور كثير من الكهنة يطيعون الايمان » ، « وأما الكنائس فى جميع اليهودية والجليل والسامرة فكان لها سلام ، وكانت تبنى وتسير فى خوف الرب ، وبتعزية الروح القدس كانت تتكاثر » ، « فسمع الرسل والاخوة الذين كانوا فى

---

(١) دكتور مول : رسل المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ٦٠ : ٦٢ ، ٦٦ ، ٦٨ ، ٧٣ : ٧٤

(٢) أعمال ١٠ : ٢٨

(٣) أعمال ٢١ : ٢٧ ـ ٣٠

اليهودية أن الأمم أيضا قبلوا كلمة الله » ، « وكان ــ بولس ــ يحاج فى المجمع كل سبت ويقنع يهودا ويونانيين (١) » !

وعبثا حاول دعاة العصبية والطائفية ايقاف تيار المحبة الغامر ٠٠٠

« وفى السبت التالى اجتمعت كل المدينة ــ أنطاكية بيسيدية ــ لتسمع كلمة الله ، فلما رأى اليهود الجموع امتلأوا غيرة ، وجعلوا يقاومون ما قاله بولس ومناقضين ومجدفين ٠ فجاهر بولس وبرنابا وقالا : **كان يجب أن تكلموا أنتم أولا بكلمة الله ، ولكن اذ دفعتموها عنكم وحكمتم أنكم غير مستحقين للحياة الأبدية ــ هو ذا نتوجه الى الأمم ، لأن هكذا أوصانا الرب : قد أقمتك نورا للأمم لتكون خلاصا الى أقصى الأرض ٠** فلما سمع الأمم ذلك كانوا يفرحون ويمجدون الرب ، وآمن جميع الذين كانوا معينين للحياة الأبدية ، وانتشرت كلمة الرب فى كل الكورة » (٢) ٠

ولم يكن المبشرون بالمسيحية يقصرون جهودهم على مجامع اليهود حيث ينزلون وأينما يرحلون : « فوقف بولس فى وسط أريوس باغوس ، وقال : أيها الرجال الأثينيون ، أراكم من كل وجه كأنكم متدينون كثيرا ، لأننى بينما كنت أجتاز وأنظر الى معبوداتكم وجدت أيضا مذبحا مكتوبا عليه : لاله مجهول !! فالذى تتقونه وأنتم تجهلونه هذا أنا أنادى لكم به ــ الاله الذى خلق العالم وكل مافيه هذا ، هو رب السماء والأرض لا يسكن فى هياكل مصنوعة بالأيادى ، ولا يخدم بأيادى الناس كأنه محتاج الى شىء ــ اذ هو يعطى الجميع حياة ونفسا وكل شىء ، **وصنع من دم واحد كل أمة من الناس يسكنون كل وجه الأرض** ٠ وحتم بالأوقات المعينة وبحدود مسكنهم ، لكى يطلبوا الله لعلهم يتلمسونه فيجدوه ــ مع أنه عن كل واحد منا ليس بعيدا » (٣) ٠

لقد نجحت رسالة المحبة بين التلاميذ ٠٠٠

ثم أشاعها دعاة المسيحية فى مختلف الأقطار وبين شتى الأقوام ٠

« يأيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله ، كما قال عيسى بن مريم للحواريين : من أنصارى الى الله ؟ قال الحواريون : نحن أنصار الله ــ

---

(١) أعمال ٦ : ٧ ، ٩ ، ٣١ ، ١١ : ١٠ ، ١٨ : ٤

(٢) أعمال ١٣ : ٤٤ ــ ٤٩

(٣) أعمال ١٧ : ٢٢ ــ ٢٧

فآمنت طائفة من بني اسرائيل وكفرت طائفة ، فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين » (١) ..

***

أما بنو اسرائيل فقد ضاقت عليهم الأرض بما رحبت ، وضاقت عليهم عقولهم وأنفسهم ، فانطووا لا يريدون أن يفتحوا نافذة على شيء خارج الهيكل والطقوس ، أو خارج حروف الناموس ...

وغلت صدورهم بالحقد ، وعجزت ألسنتهم عن البرهان ... فلم يكن متنفس لسخائمهم الا في العدوان !

وكان المسيح نفسه ــ موقنا من مصيره على أيدي القتلة والسفاكين، الذين تعددت سوابق جرائمهم مع الأنبياء والمرسلين ...

ولكنه كان يذوب شفقة على أورشليم ، وان كان أهلها قد تربصوا به الشر : « وفيما هو يقترب نظر الى المدينة وبكى عليها قائلا : انك لو علمت أنت أيضا حتى في يومك هذا ما هو لسلامك ؟ ولكن الآن قد أخفي عن عينيك ! فانه ستأتي أيام ، ويحيط بك أعداؤك بمترسة ويحدقون بك ويحاصرونك من كل جهة ، ويهدمونك ــ ونبيك فيك ــ ولا يتركون فيك حجرا على حجر لأنك لم تعرفي زمن افتقادك » (٢) .

وهو موقف يذكر بشبيهه لرسول الاسلام وهو يودع مكة مهاجرا فيقول : « الله يعلم أنك أحب بلاد الله الى الله ، وأحب بلاد الله الى ، ولولا أن قومك أخرجوني ما خرجت ! » (٣) .

أما وقائع التاريخ فتتحدث عن تدمير تيطس لأورشليم سنة ٧٠ م وتتناول اصطدامات للرومان مع اليهود سابقة ولاحقة ...

يقول الدكتور حتي : « عومل اليهـــود منذ عهـد بومبي كجماعة متميزة ، فكانوا في عهد الأباطرة معفون من الخدمة في الجيش ومن الطقوس الواجبة نحو الامبراطور ، وكانوا بممارستهم سياسة الانطواء والعزلة يغذون شعورهم القومي . وأدى هذا الى اصطدامات اتسعت فأصبحت ثورة قومية بين سنتي ٦٦ ، ٧٠ م في عهد نيرون ، وبين سنتي ١٣٢ ، ١٣٤ م تحت حكم هادريان . وقد عهد نيرون بمهمة قمع الثورة الأولى الى

(١) الصف ١٤

(٢) لو ١٩ : ١٤ ــ ٤٤

(٣) أحمد والترمذي والواقدي ــ (روى ذلك فنسنك في : مفتاح كنوز السنة)

قائده فسباسيان الذى أخضع سنة ٦٧ ـ ٦٨ م منطقة الريف والحصون المنعزلة ودمر يافا وغيرها من المدن ، وحين كان على وشك محاصرة أورشليم توفى نيرون وتولى هو العرش ، فعهد بانهاء المهمة الحربية الى ابنه تيطس الذى شدد الحصار على أورشليم خمسة شهور انتهت فى أيلول سنة ٧٠ م ويمكننا الحصول على مصير المحاصرين المفجع من وصف ميثاق متبادل بين اليهود تعهدوا فيه بابادة أنفسهم حين كان الجنود الرومان يفتحون المدينة ... لقد هدمت المدينة ، وأحرق المعبد المزخرف الذى بناه هيرودس ، وقدر أن مليون يهودى قد هلكوا فى هذه الحرب ، وأجبر كثير من الأسرى على أن يقاتل الواحد الآخر أو يقاتلوا ضد الحيوانات المفترسة ، وهكذا **أضيف فصل رومانى فى تاريخ تفرق اليهود الى الفصول الأشورية الكلدانية** ... أما بخصوص الديانة اليهودية ، فقد انحطت بانحطاط أتباعها ، **ولم يكن أساسها القومى الضيق وبعض مظاهر طقوسها مناسبة لانتشارها** ، وفشلت جميع محاولات العلماء اليهود ابتداء من فيلون الاسكندرى (زهاء عام ٤٠ م) لتقربها الى العقلية اليونانية الرومانية . وتعرض اليهود لقصة موت أخرى حين رفع راية الثورة اليهودية من سنة ١٣٢ م الى سنة ١٣٥ م قائد غامض يسمى سيمون باركوخيا ، وقد سحق هادريان الثورة وحول أورشليم الى مستعمرة رومانية باسم Aelia Capitolina وأبدل المعبد القديم بمعبد الاله Jupiter Capitolinus ويقدر ديو عدد القرى التى دمرت بـ ٩٨٥ قرية ، وعدد القتلى من السكان بـ ٨٥٠٠٠ » (١) .

وقد أعد المسيح تلاميذه للصبر على الأذى : « ها أنا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب ، فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام ، ولكن احذروا من الناس لأنهم سيسلمونكم الى مجالس وفى مجامعهم يجلدونكم ! وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلى ـ شهادة لهم وللأمم . فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون ، لأنكم تعطون فى تلك الساعة ماتتكلمون به ـ لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم الذى يتكلم فيكم . وسيسلم الأخ أخاه الى الموت والأب ولده ، ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم . وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى ... ولكن الذى يصبر الى المنتهى يخلص ، ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا الى الأخرى ، فانى الحق أقول لكم : لا تكملون مدن اسرائيل حتى يأتى ابن لانسان .. ليس التلميذ أفضل من المعلم ، ولا العبد أفضل من سيده ...

---

(١) حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ـ ترجمة حداد ورافق ص ٣٧٥ : ٣٧٧

ان كانوا قد لقبـــوا رب البيت بعــلزبول فكم بالحـــرى أهل بيته ؟ فلا تخافوهم ، لأن ليس مكتوم لن يستعلن وخفى لن يعرف . **الذى أقوله فى الظلمة قولوه فى النــور ، والذى تســمونه فى الأذن نادوا به على السطوح** ! ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ، ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها ، بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم ... وأما أنتم ، فحتى شعور رءوسكم جميعها محصاة ـ فلا تخافوا ، فكل من يعترف بى قدام الناس أعترف أنا أيضا به قدام أبى الذى فى السموات ، ولكن من ينكرنى قدام الناس أنكره أنا أيضا قدام أبى الذى فى السموات ...

لا تظنوا أنى جئت لألقى سلاما على الأرض ! ما جئت لألقى سلاما ، بل سيفا !! فانى جئت لأفرق الانسان ضد أبيه ، والابنة ضد أمها ، والكنة ضد حماتها ! وأعداء الانسان أهل بيته ، من أحب أبا أو أما أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى ... **من وجد حياته يضيعها ، ومن أضاع حياته من أجلى يجدها !** من يقبلكم يقبلنى ، ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى ! من يقبل نبيا باسم نبى فأجر نبى يأخذ ، ومن يقبل بارا باسم بار فأجر بار يأخذ (١) » .

اعداد صريح لجهاد مرير ...

ان العقائد ليست مسألة خوارق ومعجزات تظفر باعجاب الحاضرين، ثم يأتى الانقياد والتسليم ... انها ليست مسرحيات حواة ، انها تغيير وجهة واختيار قبلة !

« لو كان عرضا قريبا ، وسفرا قاصدا لاتبعوك ... ولكن بعدت عليهم الشقة ، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم ، يهلكون أنفسهم والله يعلم انهم لكاذبون » ، « لتبلون فى أموالكم وأنفسكم ، ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا أذى كثيرا ، وان تصبروا وتتقوا فان ذلك من عزم الأمور » ، « أم حسبتم أن تتركوا ، ولما يعلم الله الذين جاهدوا منكم ولم يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة ، والله خبـــير بما تعملون » ، « قل ان كان آباؤكم وأبناؤكم ، واخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم ، وأموال اقترفتموها ، وتجارة تخشون كسادها ، ومساكن ترضونها ـ أحب اليكم من الله ورسوله ،

---

(١) مت ١٠ : ١٦ ـ ٤١ ، مر ٨ : ٣٤ ـ ٣٥ ، لو ٩ : ٢٣ ـ ٢٤

وجهاد فى سبيله ، فتربصوا حتى يأتى الله بأمره ، والله لا يهدى القوم الفاسقين » (١) ٠

ان المسيح لا يلقى سلاما فحسب ، بل سيفا أيضا ٠٠٠ فدعوته سيف قاطع يفرق بين الحق والباطل ! دعوته تكشف أستار المرائين ، وتهتك حجب الأدعيــــاء ، وتذهب برهــبة الظالمين من قلوب المظلومين ، فلا تسكنها الا خشية الواحد القهار !! ومن الطبيعى أن يثور على هذه الدعوة المراءون والأدعياء ، ومن الطبيعى أن يثور عليها الظلمة والطغاة ٠٠ ولسوف تسرع السيوف ضد دعاة المحبة الذين لم يحملوا سيفا ولا عصا !! لقد كانت كلمات المســــيح وتعــاليمه وحدها ســــيوفا بواتر انتضيت لاتقائها سيوف الحديد !!! وقد قدم يوحنا المعمدان فاتحة التضحيات فى الكفاح الدامى كما قدم بشارة الرسالة الجديدة : « وتقدم تلاميذه ورفعوا الجسد ودفنوه ، ثم أتوا وأخبروا يسوع ٠ فلما سمع يسوع ، انصرف من هناك فى سفينته الى موضع خلاء منفردا ٠٠٠ فسمع الجموع وتبعوه مشاة من المدن » (٢) ٠

وعندما طلبت أم ابنى زبدى من المسيح أن يجلس ابناها على جانبيه فى ملكوته ، أشار داعية الحب والســـلام الى المصير المحتـــوم : « فأجاب يسوع وقال : لستما تعلمان ما تطلبان ! أتستطيعان أن تشربا الكأس التى سوف أشربها أنا ، وأن تصطبغا بالصبغة التى أصطبغ بها أنا ؟؟ قال له : نستطيع ! فقال لهما : أما كأسى فتشربانها ، وبالصبغة التى أصطبغ بها أنا تصطبغان ٠٠٠ وأما الجلوس عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه الا للذين أعد لهم من أبى (٣) » !

وترك المسيح لتلاميذه فى نبوءاته بشرى الامل فى خــلال خطوب المحن : « حينئذ يسلمونكم الى ضيق ويقتلونكم ، وتكونون مبغضين من جميع الامم لأجل اسمى ، وحينئذ يعثر كثيرون ويبغضون بعضهم بعضا ، ويقوم أنبياء كذبة كثيرون ويضلون كثيرين ، ولــكثرة الاثم تبرد محبة الكثيرين ٠٠ ولكن الذى يصبر الى المنتهى ــ فهذا يخلص ، ويكرز ببشارة الملكوت هذه فى كل المسكونة شهادة لجميع الامم ، ثم يأتى المنتهى » ! « فمتى ساقوكم ليسلموكم ، فلا تفتنوا من قبل بما تتكلمون ولا تهتموا ، بل مهما أعطيتم فى تلك الساعة فبذلك تكلموا ــ لان لستم أنتم المتكلمين،

---

(١) التوبة ٤٢ ، آل عمران ١٨٦ ، التوبة ١٦ ، ٢٤

(٢) مت ١٤ : ١٢ ــ ١٣ ، مر ٦ : ٣٠ ــ ٣١ ، لو ٩ : ١٠ ــ ١١

(٣) مت ٢٠ : ٢٢ ــ ٢٤ ، مر ١٠ : ٣٨ ــ ٤٠

بل الروح القدس!» «لانى أنا أعطيكم فما وحكمة لا يقدر جميع معانديكم ان يقاوموها أو يناقضوها ... ولكن شعرة من رءوسكم لا تهلك ، بصبركم اقتنوا أنفسكم (١) » .

ويختتم المسيح حياته بجلسة محبة مع أحبائه وأصفيائه وحوارييه ... يتناول معهم (العشاء الوداعى الاخير) « شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم ... انتم الذين ثبتم معى فى تجاربى» !

« ان (الفصح اليهودى) رمز الى قرب خلاص اسرائيل ... وجاء (الفصح المسيحى) يرمز الى خلاص أعظم ... يقول بولس : (الرب يسوع هو الذى فى تلك الليلة التى أسلم فيها أخذ خبزا وبعد أن شكر كسر وأعطى تلاميذه قائلا : خذوا كلوا ، هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم فاصنعوا هذا لذكرى ! وعلى مثال ذلك بعد العشاء أخذ الكأس وبعد أن شكر أعطاها لهم قائلا : اشربوا من هذا كلكم فان هذا دمى لعهد جديد ، فاصنعوا هذا لذكرى كلما شربتم منه !) وكل المسيحيين يرون فى سر (العشاء الربانى) شعارا (للشركة المسيحية) وذكرى دائمة لمن مات عن خطاياهم . وكثرة المسيحيين يرون فيه مهما اختلفت مصطلحاتهم وأساليب تعبيرهم وسيلة لانسياب حياة المسيح فى حياة البشر ، وتقوية وانعاش نفوسنا بجسد ودم المسيح كما تقوى وتنتعش أجسادنا بالخبز والخمر (٢) » !

ومع هذا الحب العميق الذى جمع بين المسيح وصحبه ، أخذ المعلم يسمع من تلاميذه كلمات تعبر عن مطالب صبيانية عن عالم الدنيا ... فى حين كان المسيح يودع هذه الدنيا كلها !!

ورأى المعلم بعينيه تنازع تلاميذه عمن يكون الأعظم بينهم ... وهكذا كان آخر عهده بهم قبل أن يفارقهم !!.

واخيرا كان ينازع الألم وهم يغطون فى النوم ، والأعجب أن يقول لهم أخيرا « ان كلكم تشكون فى هذه الليلة ... لانه مكتوب : انى أضرب الراعى فتبدد الخراف » !!

ومع ذلك لا ينسى المسيح فى آخر عهده بالدنيا ان يثبت تلاميذه على طريق الحق ، ويجعل من نفسه سلفا وقدوة : « ان كان العالم يبغضكم

---

(١) مت ٢٤ : ٩ — ١٥ ، مر ١٣ : ٩ — ١٣ ، لو ٢١ : ١٢ — ٢٠

(٢) بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٣٠٢

فاعلموا انه قد أبغضني قبلكم · لو كنتم من العالم ، لكان العالم يحب خاصته ، ولكن لانكم لستم من العالم بل أنا اخترتكم من العالم ، لذلك يبغضكم العالم ·· ان كانوا قد اضطهدوني فسيضطهدونكم ··· قد كلمتكم بهذا لكيلا تعثروا : سيخرجونكم من المجامع ، بل تأتي ساعة يظن كل من يقتلكم انه يؤدى خدمة لله ! ···· وأما الآن فأنا ماض الى الذى أرسلني ···· لكني أقول لكم الحق : انه خير لكم أن أنطلق ، لانه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزى ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية ، وعلى بر ، وعلى دينونة » ، « ومتى جاء المعزى الذى سأرسله أنا اليكم من الآب ، روح الحق الذى من عند الآب ينبثق — فهو يشهد لى ، وتشهدون أنتم أيضا — لانكم معى فى الابتداء(١) » ·

« ···· وعلى الله فليتوكل المؤمنون · ومالنا ألا نتوكل على الله وقد هدانا سبلنا ، ولنصبرن على ما آذيتمونا ، وعلى الله فليتوكل المتوكلون · وقال الذين كفروا لرسلهم : لنخرجنكم من أرضنا أو لتعودن فى ملتنا ، فأوحى اليهم ربهم : لنهلكن الظالمين · ولنسكننكم الارض من بعدهم ، ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد · واستفتحوا ، وخاب كل جبار عنيد ··· مثل الذين كفروا بربهم ، أعمالهم كرماد اشتدت به الريح فى يوم عاصف ، لايقدرون مما كسبوا على شيء ، ذلك هو الضلال البعيد··· وبرزوا لله جميعا ، فقال الضعفاء للذين استكبروا : انا كنا لكم تبعا ، فهل أنتم مغنون عنا من عذاب الله من شيء ؟ قالوا : لو هدانا الله لهديناكم ، سواء علينا أجزعنا أم صبرنا مالنا من محيص !··· ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، تؤتى أكلها كل حين باذن ربها ، ويضرب الله الامثال للناس لعلهم يتذكرون · ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الارض مالها من قرار · يثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت فى الحياة الدنيا وفى الآخرة ، ويضل الله الظالمين ، ويفعل الله ما يشاء(٢) » ·

***

« والمحك الذى تختبر به النفس العظيمة هو قدرتهما على مجابهة الفشل »

هكذا يقرر بترسون سمث فى (سيرته الشعبية عن المسيح) ، وهو

---

(١) يو ١٥ : ١٨ — ٢٧ ، ١٦ : ١ — ١١

(٢) ابراهيم ١١ : ١٥ ، ١٨ ، ٢١ ، ٢٤ : ٢٧

يضيف « ولقد وقف المسيح هنا موقف الثقة الاكيدة ليس لانه كان الها بل لأنه كان انسانا يسير فى طريق الواجب ويوكل كل شيء الى الآب • والنفس العظيمة هى التى تلقى الفشل هادئة مطمئنة وتسير فى طريقها الى الموت تاركة النتائج لله (١) » •

وكان لا بد أن تصطرع السيوف مع المنطق والايمان ••• وثبت المسيح فى الجولة متذرعا بمثله الانسانية الرفيعة « واذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه ، وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه • فقال له يسوع : رد سيفك الى مكانه ، **لان كل الذين يأخذون السيف ، بالسيف يهلكون** ! أتظن انى لا أستطيع الآن أن أطلب الى أبى ، فيقدم لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة ، فكيف تكمل الكتب : انه هكذا ينبغى أن يكون ؟؟! » « فقال يسوع لبطرس : اجعل سيفك فى الغمد ، الكأس التى أعطانى الآب ، أنا أشربها » ! « وضرب واحد منهم عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه اليمنى ! فأجاب يسوع وقال : دعوا الى هذا — ولمس أذنه وأبرأها (٢) » •

فى تلك اللحظات التاريخية الحاسمة : « جثا على ركبتيه وصلى ، قائلا : يا أبتاه ان شئت أن تجيز عنى هذه الكأس ! ولكن لتكن لا ارادتى بل ارادتك — وظهر له ملاك من السماء يقويه • واذ كان فى جهاد كان يصلى بأشد لجاجة ، وصار عرقه كقطرات دم نازلة على الأرض (٣) » !!

وقبض على المسيح بخيانة يهوذا ••••

« قيل ان الطمع قد تملكه فأسلم سيده لقاء ثلاثين قطعة من الفضة ••• والحق ان (يهوذا) لم يكن مجرد محب للمال ساع اليه ، ولثلاث سنوات خلت كان شابا يهوديا تقيا نابها ، شغف بدينه وكبرت آماله فى (المسيا المنتظر) ، وترك كل شيء وتبع المسيح واستمر يسير معه بعد ما تركه الآخرون ولم يعودوا يتبعونه ••• وأكبر الظن ان مطامعه كانت فى أمان خابت وملأت خيبتها قلبه مرارة ، ساقته الى (النفرة) من المسيح (فالعداوة) له ثم (الخيانة) ••• لقد ظن القوم أن يسوع جاء ليشيد دعائم (ملك أرضى) ، فطمحت نفس يهوذا كما طمح يعقوب ويوحنا الى مرتبة علية فى هذا الملك ، ولكن خاب فأله ! وأستطيع أن أتخيل ذلك (اليهوذى)

---

(١) بترسون سمث : حياة يسوع — ترجمة حبيب سعيد ص ٢١٤
(٢) مت ٢٦ : ٥١ — ٥٤ ، يو ١٨ : ١١ ، لو ٢٢ : ٥٠ — ٥١
(٣) لو ٢٢ : ٤١ — ٤٤

غريبا وسط الزمرة (الجليلية) من اخوانه فتمتلىء نفسه غيرة وحسدا منهم وهو يراهم يفضلون عليه ... وجاء موكب المسيح الشعبى فى (أحد السعف) وتصاعدت الهتافات (ملك اسرائيل الآتى باسم الرب) ، ولكن يسوع لم يفعل شيئا وترك نار الحماس تخبو ، وكان زعيم تلك الجماهير الحاشدة الصاخبة مستطيعا لو أراد اجلاء الرومان عن أورشليم ، ولكن وجهه لم ينم عن فرحة وكبرياء وارتسمت على محياه أمارات الاشفاق والعطف كأنه ينظر الى أطفال ... وتخلى المسيح عن الفرصة السانحة فى نظر القوم ، ثم تحدى الكهنوت اليهودى علانية ، وشعر كثيرون بالخيبة ، ولكن شعور (يهوذا) بلغ حد المرارة ، وكأنه قد أضاع سنين هباء فى خدمة قضية عقيمة ، ولفحته نار الكره والحقد على من أقام عليه صرح أحلامه فخيب كل آماله(١) » !! .

وقد ندم يهوذا أخيرا على فعلته الشنعاء ... وضاقت عليه نفسه ، فشنق نفسه !!

***

« فسأل رئيس الكهنة يسوع عن تلاميذه وعن تعليمه ، أجابه يسوع : أنا كلمت العالم علانية ! أنا علمت كل حين فى المجمع وفى الهيكل حيث يجتمع اليهود دائما ، وفى الخفاء لم أتكلم بشىء . لماذا تسألنى أنا ؟ اسأل الذين قد سمعوا ماذا كلمتهم ، هوذا يعرفون ماذا قلت أنا ... » (٢)

وجرت محاكمة رسول المحبة أمام محفل اليهود من رؤساء الكهنة والكتبة والشيوخ ، الذين اجتمعوا فى بيت قيافا ليصدروا حكما بالاعدام- سبق لهم أن أصدروه مرات !!

« على ان (قيافا) ، وان كان هو الرئيس رسميا ، الا انه كان رئيسا بالاسم . وأما رئيس الامة الفعلى فكان (حنان) حماه الحبر الداهية ، الذى وان عزلته السلطات الرومانية منذ زمن بعيد عن رئاسة الكهنوت — الا

---

(١) بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٢٨٧ : ٢٨٩ ، ٢٩٧ ، ٢٩٨ ، ٣١٢ ويرى جورج ماثيسون أيضا ان روح الغيرة كانت تدفع يهوذا أكثر من الطمع ص ١١٢ : ١١٥ حـ ٢ ترجمة دكتور عزت زكى — انظر أيضا فى النزوع لملك ارضى جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكى ص ١٨٢ : ١٨٣ ، ٢٤٦ ، ستيفن نيل : من هو المسيح ترجمة ابراهيم مطر ص ٣٠

(٢) يو ١٨ : ١٩ — ١٢

انه كان يتمتع بتلك الرئاسة ، وبجميع سلطاته لنفوذه الكبير عند سائر أبناء أمته ، التي أخذ يهيمن على شئونها السياسية والدينية العليا عن طريق أبنائه الخمسة الذين تولوا من بعده وعلى التتابع رئاسة الكهنوت ، حتى آلت تلك الرياسة الى قيافا صهره ... وقد وجهت الدعوة في هذه المناسبة ولا شك لهؤلاء الاعضاء الذين عرفوا بمناوأتهم الشديدة وعدائهم السافر ليسوع ، أما الاعضاء الذين كانوا يخشى معارضتهم ـ أمثال الرابى جملئيل والرابى نيقوديموس ـ فلم توجه اليهم الدعوة لحضور الجلسة الليلية ، بل الغالب انها لم توجه اليهم أيضا الدعوة لحضور الجلسة الصباحية ، لعدم توفر الشروط القانونية في كلا الجلستين . فمن هذه الشروط مثلا : أن لا ينظر في أية دعوى ليلا ، ولا سيما الدعاوى الجسيمة التي قد يترتب عليها الحكم بالقتل ، وقد جاء في كتاب التلمود : (يصير الحكم لاغيا اذا أصدره السندريم في الليل) ، وأيضا حكم الاعدام لا يصح اذا صدر في اليوم نفسه الذى نظرت فيه الدعوى . ومن ذلك يتضح أن محاكمة يسوع أمام محفل اليهود الاكبر كانت غير قانونية وباطلة من عدة وجوه : أولا لان أعضاء هذا المحفل قد اجتمعوا في قصر قيافا في حين أن المكان المعد لاجتماعات المحفل هو (قاعة الحجارة المنحوتة) الملاصقة للهيكل ، وقد اجتمعوا في بيت قيافا كما لا يخفى فرارا من اشاعة الخبر قبل اصدار حكمهم المبرم وظهور من يعرقل مؤامرتهم الخسيسة ، ولاسيما انهم خشوا مضايقة السلطات الرومانية الحاكمة التي كانت قد حظرت على السندريم منذ أكثر من أربع سنوات اصدار أى حكم بالاعدام ـ محتفظة بهذا الحق لنفسها(١) » .

واذا كانت المحاكمة باطلة شكلا لهذه الأسباب ، فهى باطلة موضوعا لان أساس الاتهام والتجريم هو العجب العجاب !!!

وقد مضى اليهود في مهزلتهم الى الغاية ، فقال رئيس الكهنة : « لقد جدف ، فما حاجتنا بعد الى شهود ؟ ها أنكم قد سمعتم تجديفه ، فماذا ترون ؟؟ أجابوا : انه يستوجب الموت !! » .

وأصدر اليهود الحكم ، وألقوا على الرومان عبء التنفيذ !!!

« ثم دخل بيلاطس الى دار الولاية ودعا يسوع وقال له انت ملك اليهود ! أجاب يسوع مملكتى ليست من هذا العالم لو كانت مملكتى من هذا العالم لكان خدامى يجاهدون لكى لا أسلم لليهود(٢) »

---

(١) لويس برسوم . حياة يسوع المسيح جـ ٢ ص ٢٠٠ ، ٢٠٦ ـ ٧

(٢) يو ١٨ : ٣٣ ـ ٦

وكان اليهود كشأنهم ـ متحرزين مدققين في الطقوس والمراسم :
« جاءوا بيسوع من عند قيافا الى دار الولاية ـ وكان صبح ، ولم يدخلوا هم الى دار الولاية لكي لايتنجسوا فيأكلون الفصح !!!٠٠٠ فخرج بيلاطس اليهم وقال : أية شكاية تقدمون على هذا الانسان ؟ أجابوا وقالوا له : لو لم يكن فاعل شر لما كنا سلمناه اليك ! فقال لهم بيلاطس : خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم ٠٠٠ فقال له اليهود ٠ لا يجوز لنا أن نقتل أحدا !!!؟؟ » (١)

« وانه لهين أن تقول انه كان واجبا على (بيلاطس) أن يتجاهلهم ، ولكن هذا التصرف كان يتطلب شجاعة ٠ وكان أخوف ما تخافه الحكومة الرومانية قيام أية دعاية عن (المسيا) فى فلسطين فقد كلفهم هذا كثيرا من قبل ٠ ورأى بيلاطس بعينى فكره مآل الامر لو رفعت هذه القضية أمام طيبريوس قيصر الذى لم يكن هو من محاسيبه ، فان هذا الانسـان قد اعترف علنا أمام منصة القضاء بأنه (المسيا) والشـعب اليهودى يعتبر هذا بمثابة ثورة وعصيان ٠٠٠ ومع ذلك نرى رأى بيلاطس الشخصى فى المتهم حين يلوح لليهود باطلاق سراحه بمناسـبة عيدهم ٠٠٠ حاول أن يتخلص من هذه القضية الشائكة باحالتها الى هيرودس بحكم الاختصاص الاقليمى ٠ ولكن هيرودس صاحب التجربة الأليمة مع يوحنا المعمدان أعاد القضية وصاحبها بالتالى الى بيلاطس (٢) » وقد تحدث ل٠ب٠ كوين أستاذ التاريخ الحديث بجامعة ليفربول عن وثيقة تنسب الى بيلاطس محاولات يائسة لانقاذ المسيح وتذكر أنه كتب الى القيصر طبريوس فى ذلك ٠ وهذه الوثيقة هى موضع شك عند الفاتيكان (٣) ٠

ويخرج المسيح من هذه الدنيا ، ويأتى بعد ذلك (ارانيوس) أسقف ليون بفرنسا ليتـحدث : كيف دخل المسـيح عالم الموتى وكرز لأنفس الراحلين ، فنال غفران الخطايا كل من علق الرجاء عليه وخضع لأحكامه وتعاليمه ! ومثل هذا يقرره اكليمندوس الاسكندرى الذى ولد بعد موت يوحنا بخمسين سـنة ، ويرى ان أرواح الرسل قامت بنفس المهمة عقب انسلاخها من الجسد ، وأن (الكرازة) ليس لليهود والقديسين فحسب بل للوثنيين أيضا ٠ ثم يمضى أوريجـانوس فى الطريق فيؤيد ما ذهب اليه أستاذه اكليمندوس ٠ ونحى هذا المنحى فى افريقية الغربية ترتوليانوس

---

(١) يو ١٨ : ٢٨ ـ ٣١

(٢) بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٣١٦ ـ ٧

(٣) محمود نعناعة : الصهيونية في الستينات ص ٤٤

كما كان يعلم به الأســقف كيرلس في أورشــليم ٠٠٠ وهكذا يواصل المسيح رسالته ويبدى للنــاس محبته وحرصه على خيرهم حتى بالنسبة للذين لم يروا وجهه قط ٠٠٠ فى نظر هؤلاء المعلمين !! وقد تؤول عبارة لبطرس لتأييد ذلك يقــول فيهــا « فانه لأجل هذا بشر الموتى (١ بط ٣ : ١٨ » (١) ٠٠٠ والحق أن لفظ (الموتى) هنا قد يكون اشارة بليغة عميقة الى (موتى الاحياء) !!

« ومكروا ومكر الله ، والله خير الماكرين ٠ اذ قال الله ياعيسى انى متوفيك ورافعك الى ، ومطهرك من الذين كفروا ، وجاعل الذين أتبعوك فوق الذين كفروا الى يوم القيامة ، ثم الى مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون ٠ فأما الذين كفروا فأعذبهم عذابا شديدا فى الدنيا والآخرة، وما لهم من ناصرين ٠ وأما الذين آمنــوا وعملوا الصــالحات فيوفيهم أجورهم ، والله لا يحب الظــالمين ٠ ذلك نتلوه عليك من الآيات والذكر الحكيم (٢) » ٠

---

(١) بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٢٢٨ ــ ٩ ٠

(٢) آل عمران : ٥٤ ــ ٥٧ ٠

اليهود ... ودم المسيح

في **٨ من نوفمبر ١٩٦٣** وزع المكتب الصحفي في الفاتيكان بيانا على أعضاء (**المجلس المسكوني المقدس**) للكنيسة الكاثوليكية الرومانية في دورته الثانية ٠

وقد سبق أن عقدت الكنيسة مؤتمرات عديدة ، وتتابعت المجامع الكنسية في العصور الوسطى لبحث بعض المسائل اللاهوتية عن طبيعة المسيح ، واللاهوت والناسوت ، والارادة ٠٠٠٠ الخ وشيئا فشيئا حدث الانقسام بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة روما ، ثم بين كنيسة القسطنطينية وكنيسة الاسكندرية ٠

واشترك الارثوذكس في مؤتمرات الكنيسة مع الكاثوليك الى أن وقع الخلاف ٠٠٠ ثم أخرجت صيحة لوثر فريقا آخر من الولاء للكنيسة الكاثوليكية ٠٠٠

وكان أول مؤتمر عقد بالفاتيكان بعد هذه الظروف سنة ١٨٦٩ ٠ وجاء المؤتمر الثاني سنة ١٩٦٢ : واستغرقت دورته الاولى من اكتوبر الى ديسمبر سنة ١٩٦٢ ، وانعقدت دورته الثانية في سبتمبر ١٩٦٣ ، ودورته الثالثة في سبتمبر ١٩٦٤ ، واستمرت حتى نوفمبر ١٩٦٤ ٠ وقد شارك في أعمال المؤتمر ٢٢٠٠ كاردينالا ٠

هذا عن مؤتمر المجلس المسكوني ٠٠٠ فماذا عن البيان ؟؟

لقد تضمن البيان (مشروع وثيقة) تقدم بها الكردينال الالماني (اغسطسين بيا) ويبلغ من العمر ٨٣ عاما ، وقد درس في جامعات هولندا والنمسا وألمانيا ، وتخصص في اللاهوت والدراسات العبرية وزار ديار الشام ومصر ورسم كاردينالا في عهد البابا يوحنا الثالث والعشرين ، وهو من اليسوعيين (الجيزويت) ، ويقال انه صاحب الاشارة بتعديل ما ورد في (صلاة الاحد) من أن اليهود هم الشعب العاصي ! وقد اختاره البابا يوحنا الثالث والعشرون على رأس (جهاز السكرتارية) الذي أنشأه

لبحث (الوحدة المسيحية) ، فلعب دورا بارزا فى تهيئة سبل اللقاء بين البابا وبين أقطاب الكنائس المسيحية الاخرى ، وبخاصة الدكتور جيوفرى فيشر أسقف كانتريرى البريطانى فى عام ١٩٦٠ ٠

وخرج (**الكردينال بيا**) **على العالم « بمشروع وثيقة » تنزع الى تبرئة اليهود من دم المسيح وتحميل البشرية جمعاء هذه المسئولية** ٠ ذلك أن بيانا يرى أن مصدر العداء ضد السامية (أو النزعة اللاسامية) يكمن فى نظرة (الكاثوليكية) الى اليهود ٠ وهو بذلك يحمل (الكنيسة) بطريقة غير مباشرة مسئولية ما تعرض له اليهود من (النازية) ، ويقال انه اعتكف خلال الحرب العالمية الثانية لهذا السبب !! ويمكن القضاء على هذا العداء فى نظر الكاردينال الالمانى بتغير نظرة الكاثوليكية لليهود ، وهذا هو ما توخاه فى مشروعه الذى قدمه الى (المجلس المسكونى) ليتبناه !! (١)

ويشير المشروع الى اعتقاد المسيحيين بأن جذور الكنيسة تمتد الى (العهد) الذى أقامه الله مع ابراهيم ونسله ، وانه بمجىء السيد المسيح وهو من نسل ابراهيم بحسب الجسد امتدت مراحم الله التى كانت للشعب المختار الى العالم بأسره ٠

وتناول المشروع نقطة أخرى هى أن **مسئولية (موت المسيح) تقع على « النوع الانسانى الواقع تحت الخطيئة »** ، وهذا هو التعليم الواضح الثابت فى (العهد الجديد) والذى ردده جميع آباء الكنيسة وعلمائها الكبار ، ويقوم على أن المسيح قد مات ليكفر عن خطايا كل انسان ٠ فالمسئولية التى دفعت قادة اليهود لا يبرأ من تبعتها النوع الانسانى كله ، كما أن جريمة هؤلاء القادة **جريمة شخصية لا يؤخذ بجريرتها الشعب اليهودى** كله فى ذلك الزمان أو فى أى زمان لاحق ٠

وألقى الكردينال (اغسطسين بيا) صاحب مشروع الوثيقة كلمة فى الدورة الثانية لاجتماع المجمع المسكونى الثانى قدم فيها مشروعه فقال : ان البابا الراحل يوحنا الثالث والعشرين هو صاحب الاقتراح ، لكن اللجنة التحضيرية لم تتمكن من بحثه فى يونيو ١٩٦٢ بسبب بعض الظروف السياسية غير المواتية فى ذلك الحين ٠ وقال : ان المشروع وضع على أساس أنه **مشكلة دينية بحتة لا علاقة لها باية مسالة قومية او سياسية ، وبخاصة موضوع اعتراف الكرسى البابوى باسرائيل** ٠ وآنما يتناول المشروع النواحى المشتركة بين الكنيسة الكاثوليكية والشعب

---

(١) جريدة الأهرام (ملحق الجمعة) ١٩٦٤/١٠/٢ ، ١٩٦٤/١١/٢٠

اليهودى ، اذ الكنيسة استطراد لشعب اسرائيل المختار ، كذلك لا يتعلق الامر باثارة الشك فى ما ذكرته الكتب المقدسة عن الحكم الظالم على المسيح البرىء وانما يتعلق بانه لا ينبغى أن ينسب الى جميع الشعب اليهودى ما ارتكبه بعض أفراده • ويشير الكاردينال الى ما دعا الى وجوب بحث هذه المسألة وهو سيطرة العداء لليهودية منذ عشرات السنين فى بعض المناطق واتخاذه صورة اجرامية كما حدث فى ألمانيا فى ابان حكم النازى • ويصل الى أن على المسيحيين أن يتخذوا ازاء اليهود نفس الموقف الذى اتخذه المسيح وتلاميذه •

هذا هو البيان ••• ويقال انه بينما حرص النص العربى على أن يتضمن النفى لان يكون مشروع الوثيقة مقدمة لاعتراف الفاتيكان باسرائيل ، فان النص الانجليزى قد خلا من هذا التحفظ !

والاتجاه الى تعاون أهل الاديان بصفة عامة ، وتعاون المسيحيين واليهود بوجه خاص ، قد وضح من قبل فى كثير من أهداف الجماعات والمؤتمرات •••

ومن قبل سلطت الاضواء بقوة على مسرحية الكاتب الالمانى البروتستنتى الشاب رولف هوشهدت التى كانت تنتقد بمرارة سكوت البابا بيوس الثانى عشر على جرائم النازى ضد اليهود !

وفشل مشروع الوثيقة فى الحصول على الاصوات الكافية لتقرير مبدأ مناقشته فى الدورة الثانية للمجمع المسكونى سنة ١٩٦٣، واقترعت ضده أغلبية ساحقة قيل انها بلغت ٩٦٪ من مجموع الاصوات فى الاقتراع(١) •

ولكن عاد المشروع مرة أخرى الى الظهور بعد تعديل يسير فى الصياغة عند انعقاد الدورة الثالثة للمجمع •••

وأصدر (المؤتمر القومى للكنيسة الأسقفية البروتستنية فى أمريكا) بيانا يؤيد فيه مشروع الوثيقة ••• بينما تلقى المشروع معارضة فن أساقفة آخرين وبخاصة من الاساقفة الشرقيين •

وبين المد والجزر تدخل مجلس (الكوريا) ــ الجهاز الادارى الأعلى للكنيسة الكاثوليكية الذى يشرف عليه البابا شخصيا ــ لايقاف بحث هذا المشروع المدرج فى جدول الاعمال حرصا على تدعيم الوحدة المسيحية ،

(١) محمود نعناعة . الصهيونية فى الستينات ص ١٥ : ٢٩

وقـدمت اقتراحات لقصر المشروع على (طبيعة الكنيسة) أو على الموقف الانسانى للمسيحية من أهل الاديان الاخرى بوجه عام ٠

ولكن جهودا مضادة بذلت ، واستجاب البابا لالتماس جديد بنظر المشروع وانتهى الأمر الى اقرار المشروع فى قراءة أولى (١) ٠

أما وجهة نظر الكنائس الشرقية فقد أوضحها أحد كبار رجال الدين الشرقيين فى كلمة ألقاها فى المجمع المسكونى فى ١٩٦٣/١١/٨ جاء فيها: « ان مسألة اليهود ومسألة الحرية الدينية قد أثيرتا فى وقت غير مناسب وفى غير مكانهما ٠ وان المجمع المسكونى يهتم أولا بالكاثوليك ولا يتناول سائر المسيحيين الا بطريقة غير مباشرة ، أما بالنسبة لسائر الأديان فهو لا يتعرض لها الا بصفة عارضة ودون تمييز بينها ، وتعلم السكرتارية انها قد شكلت من أجل وحدة المسيحيين فقط ٠ وان قرارا من هذا النوع قد يؤدى فى منـاطق كثيرة الى الحاق الأذى بالمسيحيين على حساب المصالح العامة للكنيسة الكاثوليكية٠٠٠ وبالرغم من ان المجمع المسكونى باصداره مثل هذا القرار قد يكون مدفوعا بدوافع روحانية الا أن نوايا آباء المجمع المقدسى المحترمين سوف لا تفهم على حقيقتها أو يساء تأويلهـا بدافع من المصلحة أو المناورات بسبب الظروف الحالية للسياسة وذلك على حساب المسيحيين الذين يجب أن يحتلوا المقـام الاول من اهتمامنا ٠ ومن جهة أخرى فان التفسيرات التى أعطيت مؤخرا سواء باللغة العربية أو بلغات أخرى لا تكفى لتجنب هذه الاخطار » ٠

وقد عقـــد القمص باخوم المحروقى منـــدوب الكنيســـة القبطية الارثوذكسية فى الدورة الثانية للمجمع مؤتمر صحفيا بمقر البطريركية بالقـاهرة فى ١٩٦٣/١٢/١٩ تحدث فيه عن جهود ممثل الكنيسة داخل المجمع وخارجه لاســقاط مشروع الوثيقة وحذفها من جدول الاعمــال ٠ وذكر ان الوفد القبطى أعلن فى كلمته أمام المجمع انه ينبغى عند بحث الديانات غير المسيحية أن يمثل الاسلام مكان الصدارة بينها لان الاسلام أقرب الديانات الى المسيحية (٢) ٠

وفى أثناء الدورة الثانية ألقى مندوب الكنيسة القبطية الارثوذكسية القس مرقص عبد المسيح فى الاجتماع الذى تعقده السكرتارية اسبوعيا

---

(١) الاهرام فى ١٣ ، ١٤ ، ١٥ — ١٦ اكتوبر ١٩٦٤

(٢) محمود نعناعة : الصهيونية فى الستينات ص ٢٩ — ٣٠ ، ٤٠ — ١

للمراقبين ـ وكان يحضر الاجتمـاع معهم مائة من أسـاقفة الكنائس غير الكاثوليكية ـ كلمة ذكر فيها بما يلى :

● ان الوضع السياسى فى الشرق الاوسط يبلـغ من شدة توتره حدا يؤدى بما لا يدع مجـالا للشـك الى سوء فهم لهذه الوثيقة وسـوء تفسيرها .

● والتجارب السابقة فى مثل هذه المواقف تمكننا جميعا من التنبؤ بمدى الكسب السياسى الذى ستجنيه اسرائيل نتيجة صدور هذه الوثيقة حتى وان قررت بوضـوح ان هدف المجلس روحى ودينى بحت .

● وقد أشار بعض آباء الكنائس الكاثوليكية الى ما سوف تخلقه هذه الوثيقة من صعوبات لكنائس الشرق الاوسط

ثم أضاف مندوب الكنيسة القبطية الارثوذكسية بعض النقاط بأمل وضعها فى الاعتبار لدى أعضاء سكرتيرية المجلس واللجنة التى تعمل فى الموضوع :

● ان الشعور فى الشرق الاوسط سوف يغلى ضد هذه الوثيقة... واذا تم اصدارها فلسوف يكون من المستحيل بعد ذلك الغاؤها . وأنا أخشى أن تتحمل (الكنيسة) النتائج المترتبة على ذلك لاننا لم نزن بعين الانصاف والعدل هذه النقطة

● ان النتائج الاجتماعية المترتبة على اصدار الوثيقة سوف تتحملها كل كنيسة مسـيحية لان رجل الشارع فى أى مجتمع لن يدين الرومان الكاثوليك وحدهم بتهمة (تأييد اسرائيل) وقد بدأت صـحف اسرائيل بالفعل تستعمل هذا التعبير هذا العام .

● وسـوف يعلن البعض بصراحة موقفهم المخـالف بخصوص هذه القضية نظرا لشعورهم بأنهم يتحملون مسئولية غير عادلة فى اصدار هذه الوثيقة والنتيجة توسيع الهوة التى نحاول نحن والمجلس تضييقها .

● وأجاب مندوب الكنيسة القبطية الارثوذكسية على سؤال وجهه أكثر من مرة كثير من الآباء والمراقبين بالمجلس : لماذا تخشى أنت والكنائس التى تمثلها من حكوماتكم بالشرق الاوسط ؟؟ فأبان أن موقف كنيسته ليس دافعه الخوف ، وانما السبب الوحيد هو اننا مدركون تماما لرسالة كنيستنا وبخاصة فى بلادنا وبين شعوبنا .

واقترح المنـدوب بتأييد من بعض الآباء فى المجلس اصـدار وثيقة

تحث بشكل عام على حب جميع الناس لبعضهم البعض وتعارض التفرقة العنصرية أو الاضطهاد • ولقى ذلك الرأى تعضيد الدكتور أوبرمان عميد جامعة هارفارد اللاهوتية والأب ماكس توريان ممثل بعض الكنائس الالمانية غير الكاثوليكية والاب اولدنوهفن ممثل الكنائس الكاثوليكية القديمة بهولندا(١) •

وانتقد البطريرك سيداروس الاول بطريرك الاقباط الكاثوليك فى مصر والسودان مشروع الوثيقة فى اجتماع عقده فى ١٨/١١/١٩٦٣ وقال ان فى الاشارة الى اليهود خروج على مشروع توحيد المسيحيين ، وليس من الضرورى اعلان استنكار العداء لليهود اذ ان الكنيسة دائما استنكرت كل اضطهاد من أى نوع ، والظرف التاريخى يبين خطورة معالجة مسألة اليهود فى الوقت الحالى • ونشرت الصحف الايطالية أن الكاردينال سيرى والكاردينال روفينى رئيسى أساقفة جنوا وبالرمو وغيرهما من الاساقفة ورؤساء الطوائف الكاثوليكية قد شنوا حملة شديدة على المشروع •

ووصف المونسنيور نعمة السمعان نائب بطريرك اللاتين فى عمان مشروع الوثيقة بانه « يتلاعب بالالفاظ وتكن وراءة درافع سياسية» كما انتقد الفكرة فى عمان أيضا الاب عقل الزعيم الروحى للكنيسة الانجليكانية العربية(٢) •

وكتب القس ابراهيم سعيد وكيل الاقباط الانجيليين بالجمهورية العربية المتحدة يقول ••• « ليس من حق مجمع الكرادلة أن يجعلوا الانجيل المقدس كبش فداء مقدم على مذابح السياسة ••• ذلك لان نصوص الانجيل صريحة فى دمغ اليهود بمسئولية صلب المسيح دون سواهم من حكام الرومان وغير الرومان • ان أول حكم صدر على المسيح بالصلب هو حكم (قيافا) الكاهن الزائف اذ قال : خير لنا أن يموت واحد من الشعب من أن يموت الشعب بأسره !•• ولقد صرخوا – اليهود – بصوت واحد قائلين : دمه علينا وعلى أولادنا !• وكأن باب السماء كان مفتوحا ، فاستجابت السماء الى طلبتهم هذه فجالوا فى الارض مكروهين منبوذين هم وأولادهم على رغم ما يملكون من جاه وثراء ••• أما ما يقال عن بعض القسوس الانجليكان – لا الانجيليين – من انهم أيدوا هذه الوثيقة فلا رد لنا عليه الا أن الامريكان فى أمريكا يعملون بوحى انتخابات

---

(١) الاهرام ١٥/١٠/١٩٦٤

(٢) محمود نعناعة : الصهيونية فى الستينات ص ٣٢ – ٣ ، ٥٠ : ٦٥

رياسة الجمهورية لا بوحى الكتاب ... وليس من اللياقة ولا من اللباقة أن نحابى شعبا على حساب الجمهورية العربية المتحدة فضلا عن مخالفتنا للانجيل(١) ! »

وبين رجال الكنائس الشرقيين من ينظر الى الامر من زاوية أخرى فقد جاء في بيان للبطريرك مكسيموس الرابع بطريرك انطاكية وسائر المشرق للروم الكاثوليك صدر فى ١١/١١/١٩٦٣ ان « مشروع الوثيقة هو نص ديني محض لا يجوز لأى ناقد نزيه أن يرى فيه سوى محاولة نظرية وعملية لشجب الحملات العنصرية والضغائن المذهبية فى بعض مناطق الغرب المسيحى » . وقال البيان « ان بلادنا العربية اذ تحارب اسرائيل من الوجهة السياسية كمغتصب لأرض فلسطين ما زالت تحترم حرية الاديان السماوية بما فيها اليهودية وتحافظ على حرية اليهود فى أراضيها وتميز كل التمييز بين الصهيونية التى هى حركة عنصرية سياسية وبين اليهودية التى هى دين سماوى » .

وفى ٢٥/١٢/١٩٦٣ تحدث المطران الياس زغبى النائب البطريركى للروم الكاثوليك فى مصر والسودان :

« طالعتنا بعض الصحف العربية بمقالات قلقة ، هى صادرة ولاشك عن مشاعر قومية شديدة وحرص أكيد على مصلحة الوطن ، ولكنها مبنية على تقدير للاوضاع لا يتفق مع الحقيقة . ولما كنت عضوا فى هذا المجمع وشهدت جميع جلساته واشتركت اشتراكا فعليا فى مداولاته وتناولت بالبحث والتحليل مختلف وثائقه ونشراته لا يسعنى الا القطع بأن ما ذهبت اليه هذه الصحف يدل على فهم أخطأه التوفيق ... ان الوثيقة هى مشروع قرار تقدم به (الكردينال بيا) وهو أسقف ألمانى كبير السن ظل ربع قرن يدير أكبر معهد فى روما لدرس الكتب المقدسة وتحقيقها ، فكيف يستطيع أن يتنكر لحقيقة بدت واضحة جلية فى صفحات كتبنا المنزلة وهى ان اليهود هم المسئولون عن صلب المسيح وموته» ! ثم يناقش سيادة المطران مسئولية اليهود فى هذه الجريمة وينتهى الى ان قادة اليهود وحدهم هم المسئولون عن الجريمة ويقول « لطالما صرح السيد رئيس جمهوريتنا العربية وهو المعلم الاول للوطنية بأن الشعوب لا يجوز أن تسأل عن جرائم قادتها (٢) ! » .

***

---

(١) الاهرام ١٩٦٤/١١/١٧

(٢) محمود نعناعة : الصهيونية في الستينات ص ٣٤ : ٦

ونحن لا نريد أن ندخل فى جدل عقائدى أو فقهى حول مسئولية (جميع) اليهود أو (أفراد) منهم ، ومسئولية (جيل) من اليهود أو جميع أجيالهم .

● نحن نقرأ فى جانب « وقرب عيد الفطير الذى يقال له الفصح وكان رؤساء الكهنة والكتبة يطلبون كيف يقتلونه لانهم **خافوا من الشعب**. فدخل الشيطان فى يهوذا .... فمضى وتكلم مع رؤساء الكهنة وقواد اللجنة كيف يسلمه اليهم ... لو ٢٢ : ١ ـ ٧ » .

« وكان رؤساء الكهنة والكتبة مع وجوه الشعب يطلبون أن يهلكوه، ولم يجدوا مايفعلوه **لأن الشعب كله كان متعلقا بما يسمع منه** ... لو ١٩ : ٤٧ »

● ونقرأ فى الجانب الآخر « فدعا بيلاطس رؤساء الكهنة والعظماء **والشعب** وقال لهم قد قدمتم الى هذا الانسان كمن يفسد الشعب وها أنا قد فحصت قدامكم ولم أجد فى هذا الانسان علة مما تشتكون به عليه ولا هيرودس أيضا لانى أرسلتكم اليه ، وها لا شىء يستحق الموت صنع منه، فأنا أؤدبه وأطلقه ـ وكان مضطرا أن يطلق كل عيد واحدا ، فصرخوا **بجملتهم** قائلين : خذ هذا واطلق لنا باراباس ... فكانوا يلحون بأصوات عظيمة طالبين أن يصلب ، فقويت **أصواتهم** وأصوات رؤساء الكهنة فحكم بيلاطس أن تكون طلبتهم ... وأسلم يسوع **لمشيئتهم** لو ٢٣ : ١٣ـ٢٦»

« وكان **الشعب** واقفين فينظرون والرؤساء أيضا معهم يسخرون منه قائلين خلص آخرين فليخلص نفسه ان كان هو المسيح مختار الله » .

ونقرأ للمسيح فى خطابه للكتبة والفريسيين « ... فأنتم تشهدون على أنفسكم أنكم أبناء قتلة الانبياء ، فاملأوا أنتم **مكيال آبائكم** ... كذلك ها أنا أرسل اليكم أنبياء حكماء وكتبة ، فمنهم تقتلون وتصلبون ومنهم تجلدون فى مجامعكم وتطردون من مدينة الى مدينة ، لكن يأتى عليكم **كل دم زكى سفك على الارض من دم هابيل الصديق الى دم زكريا بن برخيا** الذى قتلتموه بين الهيكل والمذبح ! الحق أقول لكم ان **هذا كله يأتى على هذا الجيل** متى ٢٣ : ٢٧ ـ ٣٧ » .

وبعض الكتاب يفسر الموقف هنا بأنه قد حدث (تحول) فى موقف الرأى العام اليهودى نتيجة لفجعته فى أمله فى المسيح كقائد ثورة ومؤسس ملك أرضى فضلا عن تأثير استثارة الكهنة للعامة ضد المسيح ـ والبعض الآخر يرى أن معاداة المسيح كانت ظاهرة « جزئية » فمثلا نجد بترسون سمث يقول « ومن العدالة أن تقول ان تلك الجماهير لم تكن كلها معادية ليسوع وليست البشرية مسيئة بجملتها ، ولو كنا فى حالة السوء

المتناهية التى نصور بها أنفسنا لما كنا أهلا لهذا الخلاص ••• وان غوغاء أورشليم المتعصبة المسوقة بايعاز رؤساء الكهنة لا تمثل قلب الجماهير الكبيرة التى وان لم تكن تتبع المسيح فقد أعجبت به ودافعت عنه » « ان الذين رفضوا المسيح هم رجال السلطات لا الشعب اليهـودى هم الامة بصفتها الرسمية وفى مظهرها الحكومى » ويقول الدكتـور عزت زكى « اعتاد الوعاظ والمفسرون أن يقارنوا بين صرخة الولاء والمحبة حين دخل يسوع أورشليم : أوصنا ، مبارك الآتى باسم الرب ، وبين صرخة الحقد التى هتف بها الشعب فى يوم الجمعة اللاحق : اصلبه اصلبه ! ومن هذه المقارنة خلقوا مقارنة عريضة عن تقلب الطبيعة البشرية ولكن ليس هناك دليل واحد يشير الى ان الجمهــور الذى هتف بهتافات الولاء هو بعينه الجمهور الذى صرخ بصرخات العـداء •• ان أولئـك الذين هتفوا بهذه الصرخة القاسية هم جماعة من حثالة اليهود ومن المأجورين ومن الصيارفة والتجار الذين طردهم السيد من الهيكل تغـذيهم رشاوى الكهنة والكتبة والفريسيين ص ٤٤ ـ ٥ » « والخلاصة اننا ينبغى ألا ندين شعب فلسطين بأكمله فى جريمة صلب يسوع ، فآلاف الآلاف استبد بهم الحزن لهذه المأساة الدامية ، وكان الجليليون الى جواره آخر ساعاته على الارض • ولقد نشأ سوء فهمنا لهذه الحقيقة من تكرار البشير الرابع لاتهامه لليهود وقد كتب بشارته بعد انفصال المسيحية عن اليهودية وكان البشير يقصد باليهود سكان اليهودية ويتركزون فى أورشليم حيث الصدوقيون والكهنة أكبر قوة معادية ليسوع ••• ولا يقع عبء صلب المسيح على الفريسيين فمع ان معظمهم رفضوا تعـاليمه وقاوموها الا ان كثيرين منهم كانوا غير موافقين على صلبه ••• والقارىء المنصف يستطيع أن يضع عبء الجريمة كله على (مجلس السنهدريم) واننـا لا نضع الـكثير من اللوم على بيلاطس(١) »

***

وأنا لا أحاول أن أخوض فى هذا الجدال ••• من زاوية العقائد أو زاوية التاريخ • وحسبى أن أقول :

---

(١) جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكى ج ١ ص ١١٠ : ١١٣ ، ١٨٢ ـ ٣ ، ج ٢ ص ٩ ـ ١٠ ، ١٩ ، ٢٧ ـ ٨ ، ٧٦ ـ ٧ ، ٩١ ـ ٢ ، ١٤٦ ، بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ١٤٩ ، ص ١٦١ ـ ٢ ، ٢١٣ ، ٢٢٤ ، ٢٢٩ ، ٢٦٣ : ٢٧٨ ، ٢٨٧ ، ٢٩١ ـ ٢ ، ٣١٧ ـ ٨ ، ٣٢٠ ، دكتور عزت زكى : فلسطين كما عرفها المسيح ص ٤٢ : ٦ ، ١٤٢ : ١٥٢

● ان دعوة المحبة الانسانية المسيحية ومبدأ العدالة الالهية فى القاء المسئولية وتوقيع الجزاء قد تقررتا فى الأناجيل والرسائل الملحقة بها فى صراحة ووضوح ... وهما من أصول الرسالة المسيحية التى لا تحتمل النقاش ولا تحتاج للتوكيد والتوثيق .

● وان دعوة المحبة الانسانية المسيحية قد جاء تطبيقها واضحا فى سيرة المسيح وتلاميذه ... وهو تطبيق يجمع بين انسانية العلاقة وتميز العقيدة .

● ومن هنا فليست الحاجة ماسة لتأكيد هذا الامر بوثيقة أو بقرار ... خاصة اذا كان هذا القرار سيتألف قلوب اليهود ويفرق قلوب المسيحيين أنفسهم !!

● واذا ما كانت نزعة الكراهية لليهود أو (اللاسامية) قد ظهرت كانحراف مؤقت نتيجة ظروف معينة ورد فعل لمواقف (دنيوية) بحتة فى كثير من الاحيان ، فلا يعنى هذا أن يعالج هذا الانحراف الوقتى الدنيوى بقرار دينى قد يدين ضمنا المسيحية والمسيحيين بالمسئولية عن هذا الانحراف طوال قرون سابقة على صدور الوثيقة !!

● واذا كانت هذه الوثيقة جاءت لتعالج استغلال النصوص المقدسة فى ظروف معينة لاشعال نيران العداء لليهود ... فانها من أجل معالجة ظروف ولت وانتهت بسقوط النازية ، تغفل ظروفا أخرى قائمة حاضرة سوف تستغل الوثيقة المقترحة عن يقين فى مظالم أخرى ... وهى (اسرائيل) التى حاول بنوها السالفون من قبل أن يصطادوا المسيح نفسه (بكلمة) !! ...

● ولماذا لا يتبرأ اليهود المعاصرون أنفسهم من جرم أسلافهم ومن جرم أقرانهم ... قبل أن يطالب المسيحيون بتبرئتهم مما لم يعلنوا قط فى (أدبهم) المعروف استنكارهم له !!

وأنا كمسلم أومن بالعدالة الالهية « وان ليس للانسان الا ماسعى ولا تزر وازرة وزر أخرى » .

وأنا كمسلم أقرأ القرآن يحدثنى عن جرائم اليهود فى أجيال متعددة وعن لعن الله اياهم وغضبه عليهم ... فى سورة النساء ـ مثلا ـ وهى ليست السورة الوحيدة من القرآن التى تعدد جرائم اليهود « ألم تر الى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا

السبيل • والله أعلم بأعدائكم ، وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا • من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا فى الدين ••• ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا • يأيها الذين أوتوا الكتاب آمنوا بما نزلنا مصدقا لما معكم من قبل أن نلمس رجوها فنردها على أدبارها ، أو نلعنهم كما لعنا أصحاب السبت وكان أمر الله مفعولا ••• فيما نقضهم ميثاقهم وكفرهم بآيات الله وقتلهم الانبياء بغير حق وقولهم قلوبنا غلف بل طبع الله عليها بكفرهم فلا يؤمنون الا قليلا • وبكفرهم وقولهم على مريم بهتانا عظيما(١) » ••• ويحدثنى القرآن عن أن الخلف اذا شاركوا سلفهم فى الرأى فقد شاركوهم فى الوزر من هنا قرع اليهود المعاصرين لرسول الاسلام على جرائم أسلافهم « قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل ان كنتم مؤمنين(٢) » •

واذا كان القرآن لا يدين اليهود بجريمة (قتل) تامة لشخص المسيح اذ رفعه الله اليه ، فانه يدينهم بجريمة (الاتفاق الجنائى) لقتله ، وبجريمة (الشروع) فى التنفيذ ، وبجريمة (قتل تامة لشبيه المسيح) ، وبالتباهى باقتراف جرائم القتل ، « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ما لهم به من علم الا اتباع الظن وما قتلوه يقينا • بل رفعه الله اليه وكان الله عزيزا حكيما » •

ومع هذا التاريخ الاسود لهؤلاء القوم فان القرآن يشهد لهم كما يشهد عليهم وفقا لميزان العدل الالهى المجرد • والقرآن يضمن (سورة النساء) نفسها آيات متتابعة لتبرئة يهودى أدين ظلما فى تهمة هو برىء منها بمؤامرة حيكت ضده « انا أنزلنا اليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما •• ولا تجادل عن الذين يختانون أنفسهم ، ان الله لا يحب من كان خوانا أثيما • يستخفون من الناس ولا يستخفون من الله وهو معهم ، اذ يبيتون مالا يرضى من القول ، وكان الله بما يعملون محيطا •• زمن يكسب خطيئة أو اثما ثم يرم به بريئا فقد احتمل بهتانا واثما مبينا • ولولا فضل الله عليك ورحمته لهمت طائفة منهم أن يضلوك ، ومايضلون الا أنفسهم ومايضرونك من شيء ، وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك مالم تكن تعلم ، وكان

---

(١) النساء ٤٤ : ٥٥ ، ٦٠ ، ١٥٣ : ٨

(٢) البقرة ٩١

فضل الله عليك عظيما (١) » ويضع القرآن مبدأ عاما : « ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا ، اعدلوا هو أقرب للتقوى (٢) » وأنا كمسلم أومن بأن ديانات الله أصلها واحد وتجمعها أوثق الصلات والروابط « شرع لكم من الدين ما وصى به نوحا والذى أوحيناالبك وما وصينا به ابراهيم وموسى وعيسى أن أقيموا الدين ولا تتفرقوا فيه (٣) ··· وما تفرقوا الا من بعد ما جاءهم العلم بغيا بينهم(٤) » « لا نفرق بين أحد من رسله ···(٥) »

ومن هنا قد اعتقد ان وثيقة تبرئة اليهود من الوجهة (الفنية) قد لا تعنى خطأ ما ، ولكن لا بد لصاحب الدعوة أن يقدر (ظروف الواقع) التى يبشر فيها بتعاليمه ، **وأن يحذر من أن يصطاده المغرضون (بكلمة) ··· وأن يتزود بما تزود به المسيح حين كان يتوقى الفخاخ المنصوبة ، فيقول « اعط ما لقيصر لقيصر وما لله لله » حتى لا يتلقف من فمه متربص كلمة تثير عليه الرومان ، ويقول « من كان منكم بلا خطيئة فليرمها بحجر » حتى لا يتلقف من فمه متربص كلمة تثير سدنة الناموس** !! ويترك للدعوة فى أصولها وللزمن فى تطوره أن يعملا العمل البطىء ويصلا للنتيجة المرجوة ··· سواء بالنسبة للرومان أو بالنسبة لليهود !!

ومن أجل ذلك كنت أرجو للكنيسة الكاثوليكية الا تتورط ···· وحسبها نصوص (العهد الجديد) نفسها دعوة للمحبة الانسانية، وتقريرا للعدالة الالهية ·

أقول هذا وأنا أذكر للفاتيكان حرصه على ضمان حقوق سكان فلسطين جميعا وحماية الاراضى المقدسة واعادة اللاجئين العرب الى ديارهم أو تعويض من لا يرغب منهم فى العودة تعويضا عادلا وأذكر له استنكار العدوان الثلاثى الذى شاركت فيه اسرائيل على مصر ·

أذكر هذا ·· وكنت أفضل من أجل المسيحية نفسها لو لم يقر المجمع المسكونى فى دورته الثالثة القراءة الاولى لوثيقة الكاردينال اغسطين بيا ·

ومع ذلك ··· فان الفرصة لم تفلت لتدارك ما فات ، فى ما يتلو ذلك من قراءات !

---

(١) النساء ١٠٥ · ١١٤

(٢) المائدة ٨

(٣) الشورى ١٣ · (٤) الشورى ١٤ · (٥) البقرة ٢٨٥ ·

بل جئت ... لأكمل

« لا تظنوا أني جئت
لأنقض الناموس أو الأنبياء ،
ماجئت لأنقض ، بل لأكمل .
فالحق أقول لكم : الى أن
تزول السماء والأرض
لايزول حرف واحد أو نقطة
واحدة من الناموس حتى
يكون الكل »

(مت ٥ : ١٧ ــ ١٨)

عقيدة ... وشريعة

« ليست التصورات الدينية تصورات محضة مطلقة ، ولو غلب عليها الطابع الفلسفي ـ كما هي الحال فيما يمس العقائد ، فالناس يحبونها بالقدر الذى يجعلونها فيه موضوعا لتفكيرهم ، وهى تثير فى أعماق النفوس مجموعة كبيرة من العواطف والمخاوف وحماس التقوى ، ومعنى ذلك أنها **تدفع الى العمل أو تنتهى عنه** ، فانها تنتهى بأن تصير معاملات اجبارية أو نواهى • وقد اعتاد العلماء اطلاق اسم (التابو) على الامور المحـــرمة Taboo ـ وهذا المصطلح مأخـــوذ عن اللغــة البولينيزية » (١) •

بهذا أوضح الاستاذ باستيد : Roger Bastide وجهة نظر علم الاجتماع فى اقتران العقيدة بالشريعة ، اذ يقترن الرمز المعبود بالنهى Totem, Taboo منذ ديانات الجماعات البدائية •

فلا يكفى الانسان أن تتحدد نظرته العامة الى الكون والحياة ، اذ هو لا يستغنى عن خطوط أخرى تنير له الطريق فى الدروب والشعاب••

ذلك أن من شأن مسالك (الشريعة) العملية أن تشرح وتوضح ، وتظاهر وتؤازر أصول (العقيدة) الفكرية ، فيكون المجال أوسع لتفهم الايمان والانتفاع به انتفاعا واقعيا فى دنيا الناس حين يصاغ فى (أحكام دين) ، ولا يكون مجرد (نظرية فلسفية) آثارهــــا متوقفة على مدى الاشعاع الروحى الذى ترسله فى أرجاء النفس الانسانية !

على أن بعض البيئات فى بعض الأوقات قد تكون أحوج لايقاظ روحى منها لتشريع تنظيمى ••• يقول جورج ماثيسون « فى عصر ابراهيم لم يكن موضوع اهتمام البشر (ناموسا) مقدسا بقدر ماكان (شخصا)

---

(١) روجيه باستيد Rober Bastide مبادىء علم الاجتماع الدينى (ترجمة دكتور محمود قاسم) ص ٩٧

مقدسا . لقد احتل هذا الأب (البطريرك) العظيم فى قلوب الناس مكانة الناموس المكتوب ، فبدلا من أن تتجه عيون القبيلة الى صحائف الناموس المسطورة تركزت أعينهم على شخص رئيس جبار رأوا فيه ممثل الله على الأرض فى كل ماهو حسن وصادق ... يقيسون أعمالهم فى نوره ويتساءلون : هل ترضى تصرفاتهم اله ابراهيم ؟ ... لقد كانت حياتهم حياة المثال أكثر منها حياة الناموس ، بل أكاد أقول انها حياة كان تأثير الفرد فيها أقوى من تأثير مثل كتاب أخلاق ... وكان ابراهيم يمثل عهد الآباء ، وموسى يمثل عهد الناموس ، وداود فى اسرائيل جمع الملك والنبوة معا » (١) .

والحاجة الروحية والاجتماعية التى تلبيها شخصية الرسول أو النبى وسيرته ليست مقصورة على عصر ابراهيم ... انها يمكن أن تتكرر بتكرار دواعيها ، فقد تكون الشريعة باقية من عهد رسول سبق ولم يأت أوان النسخ والتعديل ، وانما يحتاج النـــاس الى من يوقظ قلوبهم وعقولهم للاقبال على الله واتباع تعاليمه القائمة بينهم ... ومن الأمثلة الواضحة على ذلك (يوحنا المعمدان) ، يكفى أن يصيح فى قومه « توبوا ، لأنه قد اقترب ملكوت السموات » !

ومعنى ذلك أن يتبنى هذا الرسول الشريعة الالهية التى تقدمت بين يديه ، ومن هنا يمكن القول بوجه عام أن الدعوة الدينية تقوم على عقيدة وشريعة ، بالنظر الى وحدة الرســـالة الالهـــية وتكامل جهود المرسلين .

وقد تحددت مسالك الشريعة الالهـــية فيما صدر عن الرسل والأنبياء من أقوالهم وأفعالهم وفيما بلغو عن ربهم ...

والقرآن يشير الى الشرائع السابقة دون تفصيل لأحكامها ، وهو بالنسبة الى بعضها لا يورد الا أبرز هذه الأحكام : « ولوطا اذ قال لقومه أتأتون الفاحشة ماسبقكم بها من أحد من العالمين . انكم لتأتون الرجال شهوة من دون النساء ، بل أنتم قوم مسرفون » ، « والى مدين أخاهم شعيبا ، قال ياقوم اعبدوا الله ما لكم من اله غيره ، قد جاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ، ولا تفسدوا فى الأرض بعد اصلاحها ، ذلكم خير لكم ان كنتم مؤمنين (٢) » .

---

(١) جورج ماتيســون : دراسات فى صور من حيــاة المسيح ترجمة دكتور عزت زكى جـ ١ ص ١٨ ، جـ ٢ ص ٤٣

(٢) الاعراف ٨٠ ـ ٨١ ، ٨٥

ونحن لا ندرى ان كانت هذه الاحكام هى كل ما ورد فى رسالات أولئك الرسل من تشريع ـ على اعتبار أن احتياجات المجتمعات وتطور الشرائع اقتضى الاكتفاء بها ، أو أن هناك ما لم يجد القرآن مدعاة للاشارة اليه ··· على أن القرآن حريح فى أن شريعة موسى بالذات كانت مفصلة : « ثم آتينا موسى الكتاب تماما على الذى أحسن وتفصيلا لكل شىء ، وهدى ورحمة لعلهم بلقاء ربهم يؤمنون » ، « وكتبنا لهم فى الألواح من كل شىء موعظة وتفصيلا لكل شىء ، فخذها بقوة وأمر قومك يأخذوا بأحسنها » ···

وتلك هى الشريعة التى وجدها المسيح بين يديه : « ومصدقا لما بين يدى من التوراة ، ولأحل لكم بعض الذى حرم عليكم (١) » ·

ومعنى الآية القرآنية الأخيرة أن المسيح سيتناول شريعة موسى بالتعديل ، فيحل ما كان محرما ···

والناظر فيما ورد فى القرآن عن المحرمات على بنى اسرائيل ، يجد أن منها ما حرم كعقوبة الهية على التمرد والعصيان ، دون أسباب موضوعية ثابتة : « فبظلم من الذين هادوا ـ حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم ، وبصدهم عن سبيل الله كثيرا · وأخذهم الربا وقد نهوا عنه ، وأكلهم أموال الناس بالباطل ، وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما » ، « وعلى الذين هادوا حرمنا كل ذى ظفر ، ومن البقر والغنم حرمنا عليهم شحومها الا ماحملت ظهورها أو الحوايا أو ما اختلط بعظم ـ ذلك جزيناهم ببغيهم وانا لصادقون » !!

بل ان من هذه المحرمات ما حرمه اسرائيل على نفسه وفاء بالنذر وشكرا على النعمة وقربى الى الله : « كل الطعام كان حلا لبنى اسرائيل ، الا ما حرم اسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة ـ قل فأتوا بالتوراة فاتلوها ان كنتم صادقين (٢) » ·

ويروى انجيل لوقا : « كان الناموس والأنبياء الى يوحنا ، ومن ذلك الوقت يبشر بملكوت الله ، وكل واحد يغتصب نفسه اليه · ولكن زوال السماء والأرض أيسر من أن تسقط نقطة واحدة من الناموس » (٣) ! ·

---

(١) الانعام ١٥٤ ، الاعراف ١٤٥ ، آل عمران ٥٠

(٢) النساء : ١٦٠ ـ ١٦١ ، الانعام ١٤٦ ، آل عمران : ٩٣

(٣) لو ١٦ : ١٦ ـ ١٧

المسيح ... والناموس

« لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبيـــاء ... **ما جئت لأنقض ، بل لأكمل !** فانى الحق أقول لـــكم : الى أن تزول الســـماء والأرض ، لايزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل . فمن نقض احدى هذه الوصايا الصغرى وعلم الناس هكذا — يدعى أصغر الناس فى ملـكوت السموات ، وأما من عمـل وعلم — فهذا يدعى عظيما فى ملكوت السموات ، فانى أقول لكم : ان لم يزد بركم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات » !

اعمال لشريعة الناموس ، واحترام لها ... وحرص عليها يتجاوز حرص الكتبة والفريسيين ، الذين يزعمون أنهم قوامون بشريعة التوراة حفاظ عليها !

« قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تقتل ، ومن قتل يكون مستوجب الحكم ... وأما أنا فأقول لكم : **ان كل من يغضب على أخيه باطلا يكون مستوجب الحكم !** ومن قال لأخيه رقا يكون مستوجب المجمع ، ومن قال يا أحمق يكون مستوجب نار جهنم ! فان قدمت قربانك الى المذبح ، وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك ، فاترك هناك قربانك قدام المذبح ، واذهب أولا اصطلح مع أخيك — وحينئذ تعال وقدم قربانك ! كن مراضيا لخصمك سريعا مادمت معـه فى الطريق ، لئلا يسـلمك الخصـم الى القاضى ، ويسلمك القاضى الى الشرطى فتلقى الى الســجن — الحق أقول لك : لا تخرج من هنا حتى توفى الفلس الأخير !!

« قد سمعتم أنه قيل للقدماء : لا تزن ! وأما أنا فأقول لكم : ان **كل من ينظر الى امرأة ليشتهيها فقد زنى بهـا فى قلبه !!** فان كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك ، لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسمك كله فى جهنم ! ...

« وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب طلاق ، وأما أنا فأقول لكم :

ان من طلق امراته ـ الا لعلة الزنا ـ يجلعها تزنى ، ومن يتزوج مطلقة فانه يزنى !

« أيضا سمعتم أنه قيـل للقـــدماء : لا تحنث ، بل أوف للرب أقسامك • وأما أنا فأقول لكم : **لا تحلفوا البتة** ـ لا بالسماء لأنها كرسى الله ، ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه ، ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم ! ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء ، **بل ليكن كلامكم : نعم نعـــم** ، لا لا ـ وما زاد على ذلك فهو من الشرير !!

« سمعتم أنه قيل : عين بعين ، وسن بسن ، وأما أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشر ، **بل من لطمك على خدك الأيمن فحول له الآخر أيضا** ، ومن أراد أن يخاصمك ويأخذ ثوبك فاترك له الرداء أيضا . ومن سخرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين • ومن سألك فأعطه • ومن أراد أن يقترض منك ، فلا ترده » (١) ! •

انها شريعة الايثار •••

تتجاوز النصوص الى ماوراء النصوص ، وتسد كل ثغرة يتملص منها المتحايلون ! انها تسير مع دعوة الحب والسماحة حتى (تقوم المحبة بين الناس مقام القانون) !! انها تجعل النـــاس فى غنى عن تطبيق الناموس بحروفه فى المحاكم ، لأنهم تجاوزوا مايطالبهم به الناموس الى ما يطمئن اليه الضمير : « ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ، فمنهم ظالم لنفســه ، ومنهم مقتصـــد ••• **ومنهم سابق بالخيرات** باذن الله ـ ذلك هو الفضل الكبير » (٢) •

« وفى اعتقادنا أن (**شخصية**) **المسيح** لم تثبت وجودها التاريخى وجـلالها الأدبى بحقيقة من حقـائق الواقع **كما أثبتتها بوصـــايا هذه الشريعة : شريعة الحب والضمير** ••• هى شريعة تهدم كل عرف قائم وتعصف بكل شكل ظاهر ، ولكنها لا تهدم الناموس ولا تعصف بركن من أركانه ، وقد تزيد فرائضه ولا تنقص حرفا منها حين تنقلها من الأوراق ومناظر العيان الى الضمائر والقلوب ، لأن الانسان يحاسب نفسه اذا أحب حسابا لا تدركه الشرائع ولا يطلع عليه القضاء ! وقد كان

---

(١) مت ٥ : ١٧ ـ ٤٢

(٢) فاطر ٣٢

المصطدم بين الشريعتين حيث يتوقع وكما يتوقع ... ومن ثم نقول أن الشخصية التاريخية والدعوة المتناسقة لم تثبتا ببرهان أصدق من هذا البرهان ، وأن المصطدم بين الشريعتين لا يختلقه المختلق ان شاء (١) » !!

« البر حسن الخلق ، والاثم ما حاك فى صدرك وكرهت أن يطلع عليه الناس » .

***

« البر ما سكنت اليه النفس واطمأن اليه القلب ، والاثم ما لم تسكن اليه النفس ولم يطمأن اليه القلب ... وان أفتاك المفتون (٢) » !!.

والعبرة بالنيات فى شرائع العبـــادات : « **ومتى صليت فلا تكن كالمرائين** ، فانهم يحبون أن يصلوا قائمين فى المجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس ! الحق أقول لكم : انهم قد استوفوا أجرهم !! وأما أنت فمتى صليت فادخل الى مخدعك وأغلق بابك ، وصل الى أبيك الذى فى الخفاء ! فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية ... وحينما تصلون لا تكرروا الكلام باطلا كالأمم ، فانهم يظنون أنه بكثرة كلامهم يستجاب لهم ! فلا تتشبهوا بهم ، لأن أباكم يعلم ماتحتاجون اليه قبل أن تسألوه ...

ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين ، فانهم يغيرون وجوههم لكى يظهروا للناس صائمين ! الحق أقول لكم . انهم قد استوفوا أجرهم !! وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكيلا تظهر للناس صائما ــ بل لأبيك الذى فى الخفاء ! فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية » (٣) !!

ان المسيح يصادر كل ما يعتز به (الطقوسيون الحرفيون) ــ من مظاهر وشكول !!

« حينئذ أتى اليه تلاميذ يوحنا قائلين : لماذا نصوم نحن الفريسيون كثيرا ، وأما تلاميذك فلا يصومون ؟ فقال لهم يسوع : هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا مادام العريس معهم ؟ ولكن ستأتى أيام حين يرفع

---

(١) العقاد : عبقرية المسيح ــ ص ١٣٣ ، ١٣٨

(٢) الحديث الاول رواه البخارى في الادب ومسلم والترمذى وصححه الســيوطى والثاني رواه أحمد وحسنه السيوطى

(٣) مت ٦ : ٥ ــ ٨ ، ١٦ ــ ١٨

العريس عنهم – فحينئذ يصومون ! ليس أحد يجعل رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق ، لأن الملء يأخذ من الثوب فيصير الخرق أردأ !! » (١) ·

وباب الله مفتوح للدعاء ··· بلا مراسم أو تعقيدات :

« اسألوا تعطوا ··· **اطلبوا تجـــدوا ··· اقرعوا يفتح لكم** · لأن كل من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له · أم أي انسان منكم اذا سأله ابنه خبزا يعطيه حجرا ؟ وان سأله سمكة يعطيه حية ؟·· فان كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة ، فكم بالحرى أبوكم الذى في السموات يهب خيرات للذين يسألونه » (٢) !!

والمسيح يوصي رسله ليكونوا نورا للرسالة حيث يسيرون ···

« أنتم ملح الأرض ، ولكن ان فسد الملح فبماذا يملح ؟ لا يصلح بعد لشيء الا أن يطرح خارجـــا ويداس من الناس · **أنتم نور العالم !** لا يمكن أن تخفى مدينة موضوعة على جبل ، ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضيء لجميع الذين في البيت · **فليضيء نوركم هكذا قدام الناس لكي يروا أعمالكم الحسنة** ، ويمجدوا أباكم الذى في السموات » (٣) ·

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته ، ويجعـــل لـــكم نورا تمشـــون به ، ويغفر لـــكم ، والله غفور رحيم » (٤) ·

---

(١) مت ٩ : ١٤ ـ ١٦ ، مر ٢ : ١٨ ـ ٢١ ، لو ٥ : ٣٣ ـ ٣٦
(٢) مت ٧ : ٧ ـ ١١ ، لو ١١ : ٩ ـ ١٣
(٣) مت ٥ : ١٣ ـ ١٦
(٤) الحـديد ٢٨

التلاميذ ... والناموس

وقد واصل التلاميذ التبشير بالمسيحية ، وكثيرا ما التقوا باليهود أثناء تجوالهم ، فكان عليهم أن يوضحوا موقفهم من الناموس :

« شدة وضيق على كل نفس انسان يفعل الشر : اليهودى أولا ثم اليونانى ·· ومجد وكرامة وسلام لكل من يفعل الصلاح : اليهودى أولا ثم اليونانى ، **لأن ليس عند الله محاباة** ···

لأن كل من أخطأ بدون الناموس فبدون الناموس يهلك ، وكل من أخطأ فى الناموس فبالناموس يدان ! لأن ليس الذين يسمعون الناموس هم أبرار عند الله · بل الذين يعملون بالناموس هم يبررون ! · **لأن الأمم الذين ليس عندهم الناموس متى فعلوا بالطبيعة ما هو فى الناموس، فهؤلاء اذ ليس لهم الناموس ـ هم ناموس لأنفسهم !!**

هو ذا أنت تسمى يهوديا وتتكل على الناموس وتفتخر بالله ، وتعرف مشيئته وتميز الأمور المتخالفة متعلما من الناموس ، وتثق أنك قائد للعميان ونور للذين فى الظلمة ومهذب للأغبياء ومعلم للأطفال ، ولك صورة العلم والحق فى الناموس ! فأنت اذن الذى تعلم غيرك ـ ألست تعلم نفسك ؟ الذى تكرز : أن لا يسرق ـ أتسرق ؟ الذى تقول : ألا يزنى ـ أتزنى ؟ الذى تستكره الأوثان ـ أتسرق الهياكل ؟ الذى تفتخر بالناموس ـ أبتعدى الناموس تهين الله ؟ لأن اسم الله يجدف عليه بسببكم بين الأمم ـ كما هو مكتوب !

اذن ما هو فضل اليهودى ؟؟ ··· فلأنهم استؤمنوا على أقوال الله· فماذا ان كان قوم لم يكونوا أمناء ؟ ··· فماذا اذن : أنحن أفضل ؟ كلا البته ، لا نناقد شكونا أن اليهود واليونانيين أجمعين تحت الخطيه ··· ونحن نعلم أن كل مايقوله الناموس فهو يكلم به الذين فى الناموس لكى يستد كل فم ، ويصير كل العالم تحت قصاص من الله · لأنه بأعمال الناموس كل ذى جسد لا يتبرر أمامه ، لأن بالناموس معرفة الخطيئة ·

وأما الآن فقد ظهر بر الله بدون الناموس ، مشهودا له من الناموس والأنبياء ... بر الله بالايمان بيسوع المسيح ـ الى كل وعلى كل الذين يؤمنون ... متبررين مجانا بنعمته بالفداء الذى بيسوع المسيح ... **فأين الافتخار ؟ قد انتفى . بأى ناموس ؟ أبناموس الأعمال ؟ كلا ـ بل بناموس الايمان . اذن نحسب أن الانسان يتبرر بالايمان بدون أعمال الناموس ؟ أم الله لليهود فقط ؟ أليس للأمم أيضا ؟ بلى للأمم أيضا ...**

يا اخوتى أنتم أيضا قدمتم للناموس بجسد المسيح ، لكى تصيروا لآخر ـ للذى قد أقيم من الأموات لنثمر لله . لأنه لما كنا فى الجسد كانت أهواء الخطايا التى بالناموس تعمل فى أعضائنا لكى نثمر للموت ، وأما الآن فقد تحررنا من الناموس ـ اذ مات الذى كنا ممسكين فيه حتى نعبد بجدة الروح لا بعتق الحرف . فماذا نقول : هل الناموس خطية ؟ حاشا ! بل لم أعرف الخطية الا بالناموس ، فاننى لم أعرف الشهوة لو لم يقل الناموس لا تشته ... ولكن الخطية ـ وهى متخذة فرصة بالوصية ـ أنشأت فى كل شهوة ، لأن بدون الناموس الخطية ميتة ... فاننا نعلم أن الناموس روحى ، وأما أنا فجسدى مبيع تحت الخطية ... فانى أسر بناموس الله بحسب الانسان الباطن ، ولكنى أرى ناموسا آخر فى أعضائى يحارب ناموس ذهنى ويسبينى الى ناموس الخطية الكائن فى أعضائى . ويحى أنا الانسان الشقى !! من ينقذنى من جسد هذا الموت ؟ أشكر الله يسوع المسيح ربنا ـ اذن أنا نفسى بذهنى أخدم ناموس الله ، ولكن بالجسد ناموس الخطية » !!

ونتيجة هذا التصوير أن : « **الخليقة نفسها ستعتق من عبودية الفساد الى حرية مجد أولاد الله** » ، **وأن « لا فرق بين اليهودى واليونانى لأن ربا واحدا للجميع غنيا لجميع الذين يدعون به » (١) .**

لقد تجول بولس فى مدائن البحر المتوسط ينشىء الكنائس ، وقد اعتبر عمله الرئيسى الغرس والانشاء وعلى غيره الرعاية والانماء « أنا غرست وأبلوس سقى ولكن الله كان ينمى (١ كو ٣ : ١ ـ ٦) » . وقد كتب بولس معظم رسائله لتوجيه هذه الكنائس وكان يعلم نقائصهم تماما ، فمن مشاحنات بين النساء تهدد وحدة الكنيسة (فيلبى ٤ : ٢) ، الى تورط فى علاقات محرمة (١ كو ٥ : ١) بل كان البعض يسكرون

(١) رومية ٢ : ٩ ـ ١٤ ، ١٧ ـ ٢٤ ، ٣ : ١ ، ٩ ، ١٩ ـ ٢٩ ، ٧ : ٤ ـ ٨ ، ١٤ ، ٢٢ ـ ٢٥ ، ٨ : ٢١ ، ١٠ : ١٢

أثناء ممارسة العشاء الربانى (١ كو ١١) . ولكن على الرغم من هذا كله كان بولس يرى فى هذه الجماعات المسيحية الموزعة على ضعفها « رجاء لليوم الجديد ، لبشارة الحياة الجديدة فى المسيح ... كانت طرقا وممرات يعمل عن طريقها الروح القدس فى العالم » . وقد واجه المسيحيون فى هذه المدن التجربة التى تتعرض لها الأقليات : التميع أو العزلة ! وبين جاذبية الحياة القديمة وجاذبية الحياة الجديدة دعا بولس الى الصراط المستقيم الذى يسلكه المسيحى فى عالم غير مسيحى « فاطلب اليكم أيها الأخوة برأفة الله أن تقدموا أجسادكم ذبيحة حية مقدسة مرضية عند الله **عبادتكم العقلية** ، ولا تشاكلوا هذا الدهر بل تغيروا عن شكلكم بتجديد أذهانكم لتختبروا ما هى ارادة الله الصالحة المرضية الكاملة (رو ١٢ : ١ - ٢) » . « ... أن تخلعوا من جهة التصرف السابق الانسان العتيق الفاسد بحسب شهوات الغرور **وتتجددوا بروح ذهنكم** وتلبسوا الانسان الجديد المخلوق بحسب الله فى البر وقداسة الحق (١ ف ٤ : ١٧ - ٢٤) » . وكان بولس دائما هو الداعية الواسع الأفق ، الذى يعنيه الجوهر وحده ، ولكنه لا يهـمل الشـكل عند الاقتضاء ، ومن هنا نراه حين صحب تيموثاوس « ... ختنه من أجل اليهود الذين فى تلك الأماكن لأن الجميع كان يعرفون أباه أنه يونانى (أعمال ١٦ : ٣) » (١) .

ويكاد أن يتخصص بولس فى تكرار القول بأن رسالة المسيح قد غطت على الناموس ، ويكاد أن يصرح بأن الناموس قد استنفد أغراضه وصار غير ذى موضوع ... « قلت لبطرس قدام الجميع : ان كنت وأنت يهودى تعيش أمميا لا يهوديا ، فلماذا تلزم الأمم أن يتهودوا ؟ نحن بالطبيعة يهود ، ولسنا من الأمم خطاة ، اذ نعلم أن الانسان لا يتبرر بأعمال الناموس - بل **بايمان يسوع المسيح آمنا نحن ايضا بيسوع المسيح ، لنتبرر بايمان يسوع لا بأعمال الناس ، لأنه بأعمال الناموس لا يتبرر جسد ما** . فان كنا ونحن طالبون أن نتبرر فى المسيح نوجد نحن أنفسنا أيضا خطاة ، أفالمسيح خادم للخطية ؟ حاشا ! **فانى ان كنت أبنى أيضا هذا الذى هدمته ، فانى أظهر متعديا ، لأنى مت بالناموس للناموس لأحيا لله ! مع المسيح صلبت فأحيا ، لا أنا - بل المسيح يحيـا فى** . فما أحياه الآن فى الجسد ، فانما أحياه فى الايمان : ايمان ابن الله الذى

---

(١) بولس كلاسبر : الحياة الجديدة فى المسيح - ترجمة القس فايز فارس ص ٥٥ : ٧ . ٧١ : ٥ ، ٨٧

أحبني وأسلم نفسه لأجلي . لست أبطل نعمة الله ، **لأنه ان كان بالناموس بر ، فالمسيح اذن مات بلا سبب !!** جميع الذين هم من أعمال الناموس — هم تحت لعنة ! لأنه مكتوب ملعون كل من لا يثبت فى جميع ما هو مكتوب فى كتاب الناموس لنعمل به — ولكن أن ليس أحد يتبرر بالناموس عند الله فظاهر ، **لأن البار بالايمان يحيا ، ولكن الناموس ليس من الايمان** ؛ بل الانسان الذى يفعلها سيحيا بها . المسيح افتدانا من لعنة الناموس .. اذ صار لعنة لأجلنا ! لأنه مكتوب : ملعون كل من علق على خشبة ! ...

فلماذا الناموس ...

فلماذا الناموس قد زيد بسبب التعديات ، الى أن يأتى النسل الذى قد وعد له مرتبا بملائكة فى يد وسيط ، وأما الوسيط فلا يكون واحد . ولكن الله واحد . فهل الناموس ضد مواعيد الله ؟ حاشا ! لأنه لو أعطى ناموس قادر أن يحيى ، لكان بالحقيقة البر بالناموس . لكن الكتاب أغلق على الكل تحت الخطية ، ليعطى الموعد من ايمان يسوع المسيح للذين يؤمنون ! ولكن قبلما جاء الايمان ، كنا محروسين تحت الناموس مغلقا علينا الى الايمان العتيد أن يعلن ! اذن قد **كان الناموس مؤدبنا الى المسيح لكى نتبرر بالايمان ، ولكن بعد ما جاء الايمان لسنا تحت مؤدب — لأنكم جميعا أبنـــاء الله بالايمان بالمسيح يسوع ...** ليس يهودى ولا يونانى ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر ولا أنثى — لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع » !!! (١)

لقد كان بولس فى ماضـــيه يهـــوديا (فريسيا) متزمتا ، قـــاوم المسيحية ليحتفظ لليهودية بأصالتها ونقاوتها ... لكن بولس افتقد فى الطقوسية اليهودية احتياجات روحه « انه يصف الخلاص أو الحياة الجديدة (كقيامة) من الموت : (مع المسيح صلبت فأحيا لا أنا بل المسيح يحيا فى . فما أحياه الآن فى الجسد فانما أحياه فى الايمان ، ايمان ابن الله الذى أحبنى وأسلم نفسه لأجلى) . **وهكذا كما صلب المسيح على الصليب كذلك مات (الانسان العتيق) اى أسلوب الحياة القديم !** لكن الموت ليس الكلمة الأخيرة ، فكما غالب المسيح الموت وهو الآن حى ، كذلك ندخل نحن (الحياة الجديدة) ... ان قوة هذه الحياة الجديدة ينبع من أن (المسيح يحيا فى) ! لقد جاء (انسان جديد) وخليقة جديدة الى الوجود ... » (٢)

---

(١) غلاطية ٢ : ١٤ — ٢١ ، ٣ : ١٠ — ١٣ ، ١٩ — ٢٨

(٢) بولس تلاسبر : الحياة الجديدة فى المسيح — ترجمة القس فايز فارس ص ٧ ، ١٠ ، ٢٠ — ١

ان بولس يرى في الايمان المسيحي والمحبة المسيحية ثراء وغناء..

« وانما أقول : اسلكوا بالروح فلا تكملوا شهوة الجسد ، **لأن الجسد** يشتهي ضد الروح والروح ضد الجسد ، وهذان يقاوم أحدهما الآخر حتى تفعلون مالا تريدون ، ولكن **اذا انقدتم بالروح فلستم تحت الناموس !** وأعمال الجسد ظاهرة : التي هي زنى ، عهارة ، نجاسة ، دعارة ، عبادة الأوثان ، سحر ، عداوة ، خصام ، غيرة ، سخط ، تحزب؛ شقاق ، بدعة ، حسد ، قتل ، سكر ، بطر ـ وأمثال هذه .. وأما ثمر الروح : فهو محبة ، فرح ، سلام ، طول أناة ، لطف ، صلاح ، ايمان ، وداعة ؛ تعفف ـ ضد أمثـــال هذه ليس ناموس . ولكن الذين هم للمسيح **قد صلبوا الجسد مع الأهواء والشهوات !! ان كنا نعيش بالروح ، فلنسلك أيضا بحسب الروح** !! » (١) .

وفي الرسالة الى العبرانيين تعبير أقرب الى التصريح :

« فلو كان بالكهنوت اللاوي كمال ـ اذ الشعب أخذ الناموس عليه ، ماذا كانت الحاجة بعد الى أن يقوم كاهن آخر على رتبة ملكي صادق ولا يقال على رتبة هرون ، لأنه ان تغير الكهنوت فبالضرورة يصير تغير للناموس أيضا ... فانه واضح أن ربنا قد طلع من سبط يهوذا الذي لم يتكلم عنه موسى شيئا من جهة الكهنوت ، وذلك أكثر وضوحا أيضا ان كان على شبه ملكي صادق يقوم كاهن آخر ... فانه **يصير ابطال الوصية السابقة من أجل ضعفها وعدم نفعها ، اذ الناموس لم يكمل شيئا . ولكن يصير ادخال رجاء أفضل ـ به نقترب الى الله » (٢)** .

وهذه الرسالة نفسها تناقش مراسم العبادة عند اليهود ، وتقرر أنها ليست طريقا للخلاص : « لأن الناموس اذ له ظل الخيرات العتيدة ـ لا نفس صورة الأشياء ـ لا يقدر أبدا بنفس الذبائح كل سنة التي يقدمونهـــا على الدوام أن يكمل الذين يتقـــدمون . والا : أفمازالت تقدم ؟ ... لكن فيها كل سنة ذكر خطايا ، **لأنه لا يمكن أن دم ثيران وتيوس يرفع خطايا ... نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة** . وكل كاهن يقوم كل يوم يخدم ويقدم مرارا كثيرة تلك الذبائح عينها التي لا تستطيع البتة أن تنزع الخطية . وأما هذا ، فبعد ما قدم

---

(١) بولس كلاسبر : الحياة الجديدة في المسيح ـ ترجمة القس فايز فارس ص ٥٥ : ٧ ، ٧١ : ٥ ، ٨٧

(٢) عبرانيين ٧ : ١١ ـ ٢٠

عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس الى الأبد عن يمين الله ، منتظرا بعد ذلك حتى توضع أعداؤه موطئا لقدميه ، لأنه بقربان واحد قد أكمل الى الأبد المقدسين ! ٠٠٠ فاذا لنا أيها الاخوة ثقة بالدخول الى الأقداس بدم يسوع ، طريقا كرسه لنا حديثا حيا بالحجاب ـ أى جسده ـ وكاهن عظيم على بيت الله ، لنتقدم بقلب صادق فى يقين الايمان مرشوشة قلوبنا من ضمير شرير ومغتسلة أجسادنا بماء نقى ، لنتمسك باقرار الرجاء راسخا لأن الذى وعد هو أمين ٠ ولنلاحظ بعضنا بعضا للتحريض على المحبة والأعمال الحسنة ، غير تاركين اجتماعنا ـ كما لقوم عادة ـ بل واعظين بعضنا بعضا ، وبالأكثر على قدر ماترون اليوم يقرب ٠ فانه ان أخطأنا باختيارنا بعد ما أخذنا معرفة الحق ، لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا ، بل قبول دينونة مخيف وغيرة نار عتيدة التى تأكل المضادين » (١) ٠

اذن فهل يعنى اكمال الناموس الذى ذكره المسيح ، تجاوز دائرته كلية الى دائرة أوسع وأرحب ، تنتظم الناموس فى مجمله وجوهره ، وغايته وقصده ، لكنها تتخلى عن التفصيلات والجزئيات ؟؟

يعرض لهذه القضية أحد دعاة المجيئين السبئيين adventist وهى جماعة مسيحية خاصة ـ فى معرض الحديث عن الأخذ بيوم السبت : « يجب أن يكون مفهوما أن أية محاولة لاقامة حد فاصل بين كتابات العهدين القديم والجديد لا يعود علينا بفائدة أو جدوى سوى أنها تجعل وحدة الكتاب المقدس أمرا يكتنفه الابهام والغموض ! لأن مثل هذه التعبيرات ـ أى القديم والجديد ـ انما هى من وضع الانسان وتسميته ، ولم يصبح استعمالها متداولا الا بعد كتابة الأسفار المقدسة بزمن طويل ٠ وبالرغم من ذلك فان هناك اليوم كثيرين ممن يستفاد من أقوالهم : أن المسيحى قد أصبح لا شأن له بالعهد القديم ، وأنه غير ملتزم بأى نص من نصوص العهد القديم ـ ما لم يرد ذكره صريحا فى العهد الجديد ! صحيح أنه **يوجد فى العهد القديم أوامر كثيرة تتعلق بالتقدمات والذبائح مثلا وغيرها من الفرائض والطقوس ـ التى انتهت من تلقاء ذاتها بمجرد موت المسيح الفدائى** ، كما أوضح لنا ذلك أيضا كتبة العهد الجديد ٠ ففى مثل هذه الحال لا نكون مقيدين بتلك الأوامر المدونة فى العهد القديم ، لأنها تعتبر منتهية بانتهاء مدتها ٠ **وينطبق هذا المبدأ عينه على الشرائع والقوانين المتعلقة بحكومة الأمة الاسرائيلية ، لأن كتبة العهد الجديد**

---

(١) عبرانيين ١٠ : ١ ـ ٥ ، ١٠ ـ ١٤ ، ١٩ ـ ٢٧

أوضحوا لنا أن اليهود كافة أو كجنس قد فقدوا اعتبارهم كشعب الله المختار ، فمن ثم تكون قوانينهم وشرائعهم المدنية معدومة الدلالة والأهمية بالنسبة لنا ، أو بعبارة أخرى تصبح غير ذات موضوع ـ اللهم الا اذا كانت تنطوى على مبدأ من المبادىء الأدبية الأساسية العامة ٠

ولكن **ليست هكذا الحال فيما يختص ببعض الأوامر الأدبية العظمى التى أمر بها الله فى العهد القديم ، فانه قد لخص المبادىء الأدبية العامة وقننها فى الكلمات العشر** التى نطق بها الله نفسه ٠ وهذا القانون ـ أو هذه الوصايا العشر ـ ليست مقصورة على زمن دون زمن ، أو موضوعة لجيل دون آخر ، وانما هى مبادىء عامة لا يمكن أن تحد بحدود جنسية أو فوارق قومية ٠ وهى جزء من التعليم والارشاد الروحى المعلن من الله فى العهد القديم لكل الناس فى كل زمان وفى كل مكان ، فلا يمكن أن يقال عنها انها قد فقدت شيئا من تأثيرها أو قيمتها فى العهد الجديد ٠ وحينما كان الرسل يجولون مبشرين بالكلمة ، كانوا يستعملون العهد القديم طبعا ـ لأن العهد الجديد لم يكن قد كتب بعد ٠ ومن تصريحات بولس فى هذا الصدد قوله : كل الكتاب هو موحى به من الله ونافع للتعليم والتوبيخ ، للتقويم والتأديب الذى فى البر ، لكى يكون انسان الله كاملا متأهبا لكل عمل صالح (٢ تيموثاوس ٣ : ١٦ ـ ١٧) » (١) ٠

ويسلط باحث كاثوليكى الأضواء على (الذبيحة) عند اللاهوتيين، ووضعها فى العهد القـــديم والجديد ، فيقول « الذبيحة عقيدة ايجابية عنصرها الأساسى **التقدمه** ، فكل مايقدم لله من أجل عبـــادته يقال له ذبيحة ، بل كل مايقــدم لله ليكشف عن العــلاقة الموجودة بينه وبين الانسان يقال له ذبيحة وعلى هذا الأساس يتبين التمييز بين الذبيحة الباطنية غير المنظورة وبين الذبيحة الخارجية المنظورة ، فالأولى هى تقدمة الانسان ذاته وعقله وارادته لله تعالى والثانية هى سر ، أى **علاقة حسية مقدسة للذبيحة الباطنية ٠ والمحرقات** : هى أكمل الذبائح لأنها تعبر عن ذبيحة الانسان الباطنية أى تقدمة ذاته وكيانه لله تعالى وهذا ما كان يشير اليه احراق الذبائح فى العهد القديم ، وكانت الذبائح تحرق كلها اعترافا من الانسان بالهيته التامة واجلالا لعظمة الله ، واعترافا بسخائه وجوده ٠ **وقد كان لذبائح العهد القديم فائدة مباشرة وهى ابعاد الشعب**

---

(١) فرانسيس دانيكول : ايمانى ـ حججه وأسانيده (ترجمة جرجس سليمان) ص ٥٤ ـ ٥٦

المختار عن عبادة الاوثان ، فكان عليه أن يعرف الهه الحقيقي ويمجده عن طريق العلاقات الحسية ، والذبائح الخـارجية باطلة ان لم تصـحبها الذبيحة الباطنية • ولقد قال بولس « ••• لا مغفرة الا بسفك الدم (عبر ٩ : ٢٢) » **والتكفير** هو الرجوع الى الله ، وهو يقـوم فى مفهوم الكتاب المقدس على مغفرة الخطايا أنى وجدت ، **والخطيئة** فى مفهوم الكتاب هى تمرد اسرائيل وتمرد الانسان على الله ، أو كما يقول اللاهوتيون : الانصراف عن الله والابتعاد عنه ، والتكفير يمحو الخطيئة بارجاع حضور الله الى اسرائيل ومعاودة الاتحاد من جديد بين الله والانسان ، **ومن هذه الوجهة ــ وجهة الرجوع الى الله ــ يتخذ سفك الدم معنى ايجابيا أصليا فى كل ذبائح العهد القديم** • وقد كانت (الملاشاه) تحتل عادة المركز الأول فى ديانات الشرق القديم بينما كان سفك الدم يحتل المركز الأول عند بنى اسرائيل • وكانت الذبائح لا تنحر الا بمعرفة رئيس الكهنة فى العيد الكبير Kippur **وذبيحة (الفصح)** هى ذكرى لليوم الذى نجى فيه (يهوه) من فرعون وجنوده وخلص بنى اسرائيل من العبودية التى ترمز الى عبودية الخطيئة • وفى ذبيحة (العهد) كان الخدم يقومون بالملاشاة لأنها هنا طقس ثانوى بينما كان موسى يقـوم شخصيا برش الدم على المذبح ثم على اليهود بعد تلاوتهم عهد الله اليهم الذين وعدوا بحفظه ، ذلك أن رش الدم فى ذبيحة العهد كان هو الطقس الأساسى وكأنه توقيع بالدم على عقد بين طرفين ، فاتصال الدم الواحد ــ أى الروح الواحدة ــ بالطرفين (يهوه ممثلا فى المذبح ورعاياه) يجعلهما روحا واحدة • والكتاب المقدس يقرر أن العبرانيين كانوا ينسبون الى الدم وظيفة التطهير والتكريس لاعتقادهم أن الدم انما هو حى كما جاء كما كان هناك (كبش الفداء) الذى لا يقـدم ذبيحة وانما يطرد فى الصحراء مسكن الشياطين باعتباره يحمل الخطايا فهو غير طاهر بل كل من يقـربه يتنجس ، ومن هنـا لا يذبح اذ لا تتوافر فيه شروط الذبيحة ، وهذه العادة الشـعبية القديمة تعتبر طقسا مغـايرا لطقوس المحرقات والذبائح الأخرى • ويذكر أن ذبيحة الفصح كما ترمز للحدث التاريخى وهو تحرير بنى اسرائيل من عبودية فرعون ترمز الى ذبيحة الصليب ، ولذلك كان اليهـود يذبحون فى الهـيكل حملين واحد فى الصباح وآخر للمساء • وقد كانت كل ذبائح العهد القديم تقدم رمزا للذبيحة التامة الفريدة : ذبيحة المسيح ، وهى أسمى ذبيحة ، ويقول بوسوية : (لا يوجد فى العالم ما هو أسمى من المسيح ، ولا يوجد فى المسيح ما هو أسمى من الذبيحة) وقد حقق بوساطة سفك دمه فداء

نفوسنا وأجسادنا فداء أزليا ، فالذى سفك دمه لم يكن شخصا بشريا بل هو ابن الله ذاته الذى اتخذ طبيعتنا البشرية ومن هنا يتضح قدرة دمه على التطهير ، وبطبيعته الالهية استمدت ذبيحة المسيح قيمة تكفيرية وتعويضية ، فقد صالحنا الله مع نفسه فى المسيح ، وبطبيعته البشرية قدم المسيح نفسه ذبيحة وقربانا من أجلنا ، وهكذا كان المسيح (حمل الله) » (١) ٠

***

وقد صورت الأناجيل المسيح زاهدا فى القضاء والحكم بين الناس ولو على أساس الناموس :

« وقال له واحد من الجمع : يامعلم ، قل لأخى أن يقاسمنى الميراث ٠٠٠ فقال له :يا انسان من أقامنى عليكما قاضيا ومتسما ؟ » (٢) ٠

« وقدم اليه الكتبة والفريسيون امرأة أمسكت فى زنا ، ولما أقاموها فى الوسط قالوا له : يا معلم هذه المرأة أمسكت وهى تزنى — فى ذات الفعل ، وموسى فى الناموس أوصانا أن مثل هذه ترجم ، فماذا تقول أنت ؟ — قالوا هذا ليجربوه ، لكى يكون لهم مايشتكون به عليه ! وأما يسوع فانحنى الى أسفل وكان يكتب باصبعه على الأرض ، ولما استمروا يسألونه انتصب وقال لهم : من كان منكم بلا خطية فليرمها أولا بحجر !!

ثم انحنى أيضا الى أسفل وكان يكتب على الأرض ، وأما هم فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تبكتهم خرجوا واحدا فواحدا — مبتدئين من الشيوخ الى الآخرين ، وبقى يسوع وحده والمرأة واقفة فى الوسط ٠ فلما انتصب يسوع ولم ينظر أحدا سوى المرأة قال لها : يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك ؟؟ أما دانك أحد ؟ فقالت : لا أحد ياسيد ! فقال لها يسوع : ولا أنا أدينك ، اذهبى ولا تخطئى أيضا ٠٠٠ أنتم حسب الجسد تدينون ، أما أنا فلست أدين أحد ٠ وان كنت أنا أدين ، فدينونتى حق لأنى لست وحدى — بل أنا والآب الذى أرسلنى » (٣) ٠

---

(١) فيليب الثالثى : الفداء — ترجمة لويس أبادير ص ١٣٤ : ١٤٦

(٢) لو ١٢ : ١٣ — ١٤

(٣) لو ٨ : ٣ — ١١ ، ١٥ — ١٦

الدين ... والدولة

كان المفروض – وهذا موقف المسيح – ألا يوجد مايثير أولى السلطان عليه : سلطان الدين أو سـلطان الدنيـا ، سلطان الهيكل أو سلطان القيصر ...

فالمسيح – منذ سمع بمقتل يوحنا – باشر رسالته فى حذر وحيطة : « فارتد أولا الى القرى الهادئة وتجنب الجدل السياسى ... لكنه أصبح فى كل يوم أعظم جرأة فى اعلانه انجيل التوبة والايمان والنجاة ، حتى ظن بعض أتباعه أن يوحنا قام من بين الموتى !! » (١) ... « فى ذلك اليوم تقدم بعض الفريسيين قائلين له : اخرج واذهب من ههنا ، لأن هيرودس يريد أن يقتلك ... فقال لهم : امضوا وقولوا لهذا الثعلب ، ها أنا أخرج شياطين وأشفى اليوم وغدا ، وفى اليوم الثالث أكمل . بل ينبغى أن أسير اليوم وغدا وما يليه ، لأنه لا يمكن أن يهلك نبى خارج أورشليم » (٢) .

ومع هذه الجرأة ضد هيرودس ، فان اجابته فى شأن جزية قيصر – كاجابته فى قضية رجم الزانية – هى اجابة من لا يريد أن يصطدم بسلطان الولاة أو سلطان الكهنة على حد سواء ! ... لقد أراد خصومه أن (يصطادوه بكلمة) ، وقدموا الفخ بأنه : (صادق ، يعلم طريق الله بالحق ، ولا يبالى بأحد –لأنه لا ينظر الى وجوه الناس) ! ... لكن اجابته أخرجته من الحبل الذى قذفوه ليطوق عنقه : « أرونى معاملة الجزية ... فقال لهم : لمن هذه الصورة والكتابة ؟ قالوا له : لقيصر . فقال لهم : **أعطوا اذن ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » (٣) !!**

ومع ذلك فقد حاولوا اسـتغلال الاتهـام السياسى الشـائك عند

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ (قيصر والمسيح) – ترجمة بدران ص ٢١٨

(٢) لو ١٣ : ٣١ – ٣٣

(٣) مت ٢٢ : ١٥ – ٢٢ ، مر ١٢ : ١٣ – ١٧ ، لو ٢٠ – ٢٦

بيلاطس حين أراد اطلاق المسيح فى العيد : « ولكن اليهود كانوا يصرخون قائلين : ان أطلقت هذا فلست محبا لقيصر · **كل من يجعل نفسه ملكا يقاوم قيصر** ··· قال لهم بيلاطس : أأصلب ملككم ؟ أجاب رؤساء الكهنة: **ليس لنا ملك الا قيصر !** » (١) ·

ويتلقى رسل المسيح هذا الدرس من سـيرته ، فيلزمون الحذر ويوصون بالطاعة أثناء تجوالهم بين ربوع امبراطورية الرومان · ففى الرسالة الى أهل رومية :

« لتخضع كل نفس للسلاطين الفائقة ! لأنه ليس سلطان الا من الله ، والسلاطين الكائنة هى مرتبة من الله ـ حتى ان من يقاوم السلطان يقاوم ترتيب الله ، والمقاومون سيأخذون لأنفسهم دينونة ، فان الحكام ليسوا خوفا للأعمـال الصـالحة بل للشريرة · أفتريد أن لا تخاف السلطان ؟ افعل الصلاح ـ فيكون لك المدح منه ، لأنه خادم الله للصلاح ! ولكن ان فعلت الشر فخف ، لأنه لا يحمل السيف عبثا ، اذ هو خادم الله منتقم للغضب من الذى يفعل الشر ! لذلك يلزم أن يخضع له ـ ليس بسبب الغضب فقط ، بل أيضـا بسبب الضـمير ! فانكم لأجل هذا توفون الجزية أيضا ـ اذ هم خدام الله مواظبون على ذلك بعينه ! **فأعطوا الجميع حقوقهم : الجزية لمن له الجزية ، الجباية لمن له الجباية ، والخوف لمن له الخوف ، والاكرام لمن له الاكرام** (٢) » ·

وفى رسالة بولس الى تيطس : « ذكرهم أن يخضعوا للرياسات والسلاطين ، ويطيعوا ويكونوا مستعدين لكل عمل صالح ، ولا يطعنوا فى أحـد ، ويكونوا غير مخاصمين حلمـاء مظهرين كل وداعة لجميع الناس (٣) » ···

ونقل عن بطرس فى نفس الاتجاه : « فاخضعوا لكل ترتيب بشرى من أجل الرب · ان كان للملك فكمن هو فوق الكل ، أو للولاة فكمرسلين منه للانتقام من فاعلى الشر والمدح لفاعلى الخير ، لأن هكذا هى مشيئة الله أن تفعلوا الخير فتسكتوا جهالة الناس الأغبياء · كأحرار ـ وليس كالذين الحرية عندهم سترة للشر ـ بل كعبيد الله ! **أكرموا الجميع ، احبوا الاخوة ، خافوا الله ، أكرموا الملك !**

---

(١) يو ١٩ : ١٢ ، ١٥

(٢) تيطس ٣ : ١ ـ ٢

(٣) رومية ١٣ : ١ ـ ٧

أيها الخدام كونوا خاضعين بكل هيبة للسادة ، ليس للصالحين المترفقين فقط ـ بل للعنفاء أيضا ، لأن هذا فضل ـ ان كان أحد من أجل ضمير نحو الله يحتمل أحزانا متألما بالظلم (١) » !!

***

ومن هنا استقر فى العقل الغربى أخدود غائر يفصل السياسة عن الدين ...

ولكن الى أى حد تأتى هذا الفصل فى عالم الواقع ؟

ان علم الاجتماع الدينى يؤكد : « أن الوظيفتين الدينية والسياسية كانتا ممتزجتين فى بادىء الأمر ، فالملك كان الرئيس الدينى قبل كل شىء ... ثم أمكن أن تنفصل الوظيفة الثانية بالتدريج عن الوظيفة الأولى . ولكن على الرغم من انفصـــال هاتين الوظيفتين احداهما عن الأخرى ، فانهما تظلان مرتبطتين مـــدة طويلة . ولم يكن الخلاف بين الاشراف والعامة خلافا بين طبقتين اجتماعيتين فحسب ، بل كان بين ديانتين ! وقد مهدت الثورة الفرنسية نفسها للتغيرات التى أحدثتها سنة ١٧٨٩ م باعلان (حقوق الانسان) ، ذلك الاعلان الذى يرتبط مباشرة عن طريق التصريح الأمريكى بالاصلاح البروتستنتى فى القرن السادس عشر . وتؤدى المطالب الاشتراكية الى طبع كثير من الاتجاهات الروحية المسيحية بطابع مدنى . وفى مقـــابل ذلك تستعين السلطة السياسية بكل ماتنطـوى عليه العواطف الدينية من قـوة قاهرة حتى تثبت أقدامها ... وحتى اذا تم الانفصال نهائيا بين الدين والدولة ، فان السلطة السياسية تحتفظ ردحا طويلا من الزمن ببقايا العصر الذى كانت فيه الملكية مرتبطة بالكهنوت ، فان ملك فرنسا كان هو الذى فى مقدوره أن يشفى الداء العياء ـ داء الخنازير ! .. ومن ناحية أخرى تحلم السلطات الدينية دائما بالاستحواذ على السلطة السياسية ! وقد كانت الكنيسة الكاثوليكية فى الأصل سلطة روحية محضة ، ولكنها بدت عقب انهيار الامبراطورية الرومانية القوة الوحيدة التى مازالت باقية ، فاكتسبت سلطة سياسية لم تكن لها فى أول الأمر . وقد حاول الملوك اخضاعها لسلطانهم ، ولكن البابوية كانت ترفع رأسها دائما كلما ضعفت الملكية الزمنية وتحاول جهدها أن تصير سلطة زمنية .

ومع ذلك فالتفرقة بين الهـــيئات الكهنوتية وبين الدولة قانون

(١) ١ بطرس ٢ : ١٣ ـ ١٩

مطرد : لأن الديانات تصير عالمية فتتجاوز نطاق وطن بعينه ، ولأنه قد توجد فى نفس الوقت عدة ديانات مختلفة فى وطن واحد ... ومع هذا فهناك طغيان متبادل بين هاتين السلطتين عندما تكونان منفصلتين . وهنا يجب علينا أن نفحص ثلاث حالات :

أولا : **طغيان الكنيسة** التى تطالب بنصيب فى التشريع وبالحصانة من توقيع العقوبات ، والتى تكرس الملوك وتخلق الأحزاب السياسية .

ثانيا : **طغيان الدولة** التى تحل الهيئات الدينية وتنص على عدم مشروعية نظام الرهبنة .

ثالثا : ويوجد أخيرا طغيان غير شعورى ينجم عن هذا الأمر ـ وهو أن نفس **الأفراد ينتمون فى آن واحد الى كلتا الناحيتين ، وانهم يجدون مشقة كبيرة فى تقسيم نشاطهم الى قسمين** . وهكذا ارتضت الكنيسة الكاثوليكية القانون الرومانى ، ولكن فيما بعـــد اتخذ المجتمع المدنى القوانين الدينية مصدر وحى له (١) » .

والكنيسة فى الغرب كثيرا ما تتدخل فى شئون السياسة ، وهى مابرحت حتى اليوم ذات تأثير كبير ـ فى بعض الدول على الأقل . وقد تولى أسقف مسيحى أخيرا رئاسة السلطة الزمنية فى قبرص دون أن يخلع رداء الكهنوت ، والاتجاه المسيحى يلون النزعة الاشتراكية عند بعض أحزاب ألمانيا وانجلترا وبلجيكا الاشتراكية والديمقراطية ، ويبدو أثر الدين واضحا فى كتابات تشرشل وأتلى ، وأيزنهاور ودالاس .

ومن هنا يحق لنا أن نقول : ان كلمات رسل المسيح لا يمكن أن تنفصل عن العصر الذى كتبت فيه ...

فليس من الحق أن تحمل كلماتهم على أنهـــا تؤيد الطاعة لكل طغيان ! اذ لا ينسى أحد ثورات الحرية التى قامت بها شعوب الولايات المتحدة ، وفرنسا ، ثم روسيا ... وكلها شعوب مسيحية ! ولقد يقال ان فلاسفة الثورات لم يكونوا متدينين ، غير أن الجماهير ـ التى كانت وقود الثورات ـ سوادها متدينون ، كذلك لم يكن كل القادة فى هذه الثورات من الملحدين !!

---

(١) باسـتيد : Roger Bastide مبادىء علم الاجتماعى الدينى ـ (ترجمة دكتور محمود قاسم) ص ١٩٧ : ٢٠٥

ومن المعقول أن يقـــال : ان كلمات بولس وبطرس صدرت من تلاميذ تأثروا **بدعوة المحبة المسيحية** ، فرغبوا فى السلام بقدر الامكان ..

ومن المعقول أن يقال : **ان دولة الرومان باتساع ارجائها ، وتسامحها** الكبير ازاء اختلاف القـــوميات والطوائف والديانات فى امبراطوريتها العالمية ، وحرصها الدائم على التفاخر بالسلام الرومانى والعدل الرومانى والقانون الرومانى ... دولة كهذه قد أطمعت دعاة المسيحية أن يزلفوا رسالتهم بين الناس دون ضجيج أو صدام سيما وقد رأوا أن مطاردة المسيح كانت على أيدى كهنة اليهود لا ولاة الرومان !

ورسائل بولس وبطرس التى تجعل (السلاطين الكائنة هى مرتبة من الله) ـ تصورهم عادلين منصفين يحمون الاخيـــار ولا يهـــددون غير الأشرار : (فان الحكام ليسوا خوفا للأعمال الصالحة بل للشريرة) ـ كما يقول بولس ، وهم : (كمرسلين منه للانتقام من فاعلى الشر وللمدح لفاعلى الخير) ـ كما يقول بطرس :

لقد انتفع بولس نفسه من قواعد الاجراءات الرومانية مرات ـ كما تقدم القول ...

ومن هنا اختارت الرسالة المسيحية أن تحقق التحول بوسائل تطورية محضة ...

وفعلا استطاعت أخيرا أن تصل الى **قلب الامبراطور قسطنطين نفسه** فى خاتمة المطاف ...

لكنها اجتازت فى الطريق محن الاضطهاد ـ مما أذاع الرســـالة وأشاعها أكثر فأكثر ، ومما كسب لها على مر الأيام مزيدا من الأنصار والأتباع .

ذلك أن الشعور العميق الغامر الذى يستثيره الدين ، لا يمكن أن ينفصل عن الانسان أو ينخلع عنه الانسان ـ وهو يمارس شأنا من مختلف شئون الحياة !

وقد بدا تميز المسيحيين عن سائر الرعايا فى دولة الرومان ، وبدا التأثير الدينى فى مجرى حياتهم ومدى انقيادهم للدولة التى ينضوون تحت لوائها ـ فيما جاء فى رســـالة بولس الرسول الأولى الى أهل كورنثوس : « أيتجاسر منكم أحد له دعـــوى على آخر ، **أن يحاكم عند الظالمين وليس عند القديسين ؟؟** الستم تعلمون أن القديسين سيدينون

العالم ، فان كان العالم يدان بكم — أفأنتم غير مستأهلين للمحاكم الصغرى ؟ ألستم تعلمون أننا سندين ملائكة ، فبالأولى أمور هذه الحياة ! فان كان لكم محاكم فى أمور هذه الحياة ، **فأجلسوا المحتقرين فى الكنيسة قضاة !** لتخجيلكم أقول : أهكذا ليس بينكم حكيم ، ولا واحد يقدر أن يقضى بين اخوته ؟

لكن الأخ يحاكم الأخ — وذلك عند غير المؤمنين ! فالآن فيكم عيب مطلقا ، لأن عندكم محاكمات بعضكم مع بعض . لماذا لا تظلمون بالحرى ؟ لماذا لا تسلبون بالحرى ؟ لكن أنتم تظلمون وتسلبون — وذلك للاخوة ! أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله . لا تضلوا : لا زناة ، ولا عبدة أوثان ، ولا فاسقون ، ولا مأبونون ، ولا مضاجعو ذكور ، ولا سارقون ، ولا طماعون ، ولا سكيرون ولا شتامون ، ولا خاطفون — يرثون ملكوت الله ! وهكذا كان أناس منكم — لكن اغتسلتم ، بل تقدستم ، بل تبررتم باسم الرب يسوع وبروح الهنا » (١) .

يقول الدكتور حتى : « وبما أن المسيحيين كانوا موحدين ، فانهم لم يتمكنوا من التساهل ، وكانوا نشيطين متحمسين فى بحثهم عن أتباع جدد لديانتهم ، **وامتنعت جماعاتهم الأولى عن الاشتراك فى الاحتفالات الدينية والرسمية فى مدنهم . ومثل هذا الموقف تجاه العادات الوثنية ، بالاضافة الى جهدهم المستمر فى كسب الاتباع — كان لابد أن يؤدى الى الاصطدام ! حصل أول اضطهاد عنيف فى عهد نيرون** — بمناسبة حدوث حريق عارض دمر قلب مدينة روما سنة ٦٤م ، وفسر الجمهور الناقم هذا الحريق بأنه حادث آخر من حوادث لهو امبراطورهم الجنونى ! وعندما ارتاع نيرون من ذلك ، حاول أن يلقى التهمة على المسيحيين فى العاصمة وأمر بابادتهم جميعا . ومع ان هذا الاضطهاد كان محليا ، فقد تلته حوادث متفرقة ضد المسيحية فى الولايات . ويعتقد انه حكم على بولس بالموت فى روما عام ٦٧ م لكونه مسيحيا ، وذلك وفق القانون الذى أصدره نيرون . ويبدوا أن بطرس استشهد بالصلب فى روما حوالى هذا التاريخ الذى استشهد فيه بولس بالسيف ، وقتل كثيرون فى نفس الوقت . وقد أثارت عزلة المسيحيين عن بقية الجماعات الشكوك والأقاويل حولهم ، وكانوا بمثابة كبش الفداء كلما حل بالمدينة أو بالسكان حادث مشئوم ! .. وحدث الاضطهاد العنيف التالى عام ٩٥ م فى عهد دوميتيان،

(١) كورنثوس ٦ : ١ — ١١

وكان أيضا محليا وموجها بصورة خاصة ضد اليهود الذين كان الرومان لا يزالون يخلطون بينهم وبين المسيحيين فى كثير من الاحيان ٠٠٠ وفى عام ١١٢ م أصدر تراجان مرسوما ينص على أن المسيحيين الذين يرفضون تقديم مراسم الاحترام لآلهة الدولة وللامبراطور حين يطلب منهم ذلك فى المحكمة يعاقبون كخونة !٠٠٠ وكانوا يلاحقون ويعاقبون بشكل منتظم فى مناسبات متعددة ٠٠٠ وفى عام ٢٥٠ ــ ٢٥١ م أوجب ديكيوس من جديد معاقبة كل من رفض القيام بالعبادة الرسمية لآلهة الدولة ٠ وفى عام ٢٥٧ ــ ٢٥٨ م لم يوجب فالريان على المسيحيين أن يقدموا الذبائح علنا فحسب ، بل منعهم من عقد اجتماعاتهم معا ! وكان **دقلديانوس** هو الذى أمر بالاضطهاد الكبير الذى وقع على المسيحيين فى القرن الرابع ، وقد نص مرسومه عام ٣٠٣ م على محو كنائسهم وحرق كتبهم وطرد كل من يشغل منهم وظيفة مدنية وعسكرية من منصبه ، وأمر بفرض جميع أنواع العقوبات ــ باستثناء الاعدام ، ولكن حتى الاعدام نفسه طبق وعلى مقياس واسع ! وكان غريبا أن يصدر هذا المرسوم عن شخص كان يميل الى المسيحيين علنا ، ويظن ان زوجته وابنته كانتا مسيحيتين !! ويبدو ان الأمن والنجاح اللذين كانا يتمتع بها المسيحيون فى البلاد كلها قد أثارا حسد كبار الموظفين والكهنة الوثنيين ، الذين ملأوا رأس الامبراطور بتقارير عن مؤامرات وأعمال شغب مزعومة ٠ واستمر الاضطهاد مدة عشر سنوات لا يعدلها شىء ، واستخدمت عبقريات السوء لابتكار وسائل جديدة للتعذيب ٠٠٠

وبعد سنوات قليلة ، أصبحت المسيحية فى عهد قسطنطين الديانة الرسمية للدولة !!٠ وكان اضطهاد دقلديانوس آخر اضطهاد فى عهد الدولة الرومانية(١) » ٠

فهل يمكن بعد هذا أن يقال ان المسيحية تترك جماعتها تتمتع تحت نير أى سلطة سياسية ؟؟

وهل يمكن أن يقال : ان المسيحية تحض على الاستسلام أبدا وعلى طول الخط ؟؟

لو كان هذا صحيحا لما سمحت المسيحية بأية مقاومة ، ولو كانت سلبية ــ على طريقة غاندى !!

ولو كان هذا صحيحا لما وجدنا فى كلمات بولس الرسول ربطا

---

(١) حتى : تاريخ سوريا جـ ٢ ترجمة دكتور اليازجى ص ٣٦٦ : ٣٦٨

صريحا بين المسألة والطاقة والامكان : « **ان كان ممكنا ، فحسب طاقتكم** سالموا جميع الناس » ...(١)

يقول بترسون سمث :

« ومن أين جاءتنا فكرتنا عن (المسيحية الرخوة) التي تحسب الغضب خطأ في أية حال ! ان الغضب من صفات الله ويليق بنا أن نغضب ، وكلما تمكنت فينا صفات النبل والكرامة كثرت حالات غضبنا ... ان الطريقة التي بدأ بها يسوع خطته العامة لم يكن فيها سياسيا حذرا ، فانه توجد ظروف لا يصلح فيها الا الغضب المتقد كالنار ، لقد نال من قادة الهيكل وأصاب سلطة الفريسيين في تحد ظاهر أمام الملأ وكشف عورات تجارة الكهنة وجريهم وراء المادة . ونعتقد ان المسيح قد قضى على نفسه عمليا في أورشليم في ذلك اليوم ، وعرف هو نفسه ذلك، وبعد سنتين تآمروا عليه في هذا المكان عينه ليقتلوه ... ان محبة المسيح هي أساس غضبه فلأنه أحب المظلومين كره الظالمين » ! (٢) .

ولقد ورد في البيان الصادر عن مؤتمر تسالونيكي لمجلس الكنائس العالمي « ينبغي على الكنائس أن تعمل على تقديم ارشاد رعوى للمسيحيين في المواضع السياسية الهامة بحيث تهيىء وعيا حساسا وتنمي ادراكا مشبعا بالعطف للحقائق المعقدة للحالة التي يواجهها السياسيون وتعمل على اتاحة وسائل التعليق على موضوع ما أو اتخاذ اجراء بشأنه قبل أن يبت فيه ، وللقيام بهذا ينبغي ادخال طريقة مستحبة لتعليم القومية ضمن الاطار النظامي للكنيسة » ويجعل تقرير مؤتمر نيودلهي من واجب الكنائس أن « تأمل وتصلي وتعمل لأجل نظام سياسي يعبر ضمن جهازه الخاص عن الاعتراف بأن الانسان ليس مخلوق الدولة وان الدولة ليست رب الضمير » .

« وحيث يوجد الظلم والتمييز والعزل العنصري ، على الكنائس أن تنضم الى جانب العنصر المضطهد في صراحة لبلوغ العدالة ، وعلى المسيحيين أن يكونوا مستعدين لقيادة هذا الصراع (٣) » .

ويقول الأسقف ستيفن نيل :

---

(١) رومية ١٢ : ١٨

(٢) بينز : الامبراطورية البيزنطية ـ ترجمة مؤنس وزايد ـ ص ٨١ ، ١١٧ : ١١٩

(٣) التقرير المرفوع لبابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية من اللجنة المشكلة بقرار بابوى في ٧ اغسطس ١٩٦٢ لفحص مانسب الى مجلس الكنائس العالمي

« ان الحاكم الذى يجرى العدل بين رعاياه انما ينفذ ارادة الله ، والدولة جزء من ارادة الله للناس ولا يستطيع المسيحى أن يعطى ولاء كاملا وغير مجزء للدولة الا اذا كان ولاؤه الاول لملكوت الله · وعليه أن يحتفظ بحرية الانتقاد باسم الله وكلمته حتى ولو كان ذلك للدولة التى هو مخلص موال لها · وقد سبب هذا انزعاجا فى معظم الاوقات لا سيما عندما تتميز الدولة وتضع نفسها مكان الله ولا تعترف بولاء أعلى من الولاء الذى لها وهذا ما جرى أيام هتلر فى ألمانيا النازية فقد بان للمسيحيين المؤمنين ان الطريقة الوحيدة أمامهم هى أن يقاوموا الدولة وكثيرون من هؤلاء تحملوا السجن وذاقوا الموت نتيجة لذلك · وفيما عدا الحالات الشاذة فالمسيحى يجب أن يكون سعيدا فى خدمة الدولة(١) »

ومن المعروف أن الكنيسة الكاثوليكية سلكت سبيل المقاومة بالنسبة للفاشية فى ايطاليا وبالنسبة للشيوعية فى بعض الاقطار ·

وعندما أتيحت للمسيحية فرصة الافادة من السلطان لم تتردد··· فى الدولة الرومانية الشرقية ، أو فى الدول الأوربية فى الغرب ويصف بينز Norman Baynes : كيف تحول الحاكم الرومانى الى حاكم مدنى يعتمد على الدين فى تأييد نفوذه ـ حتى كان أباطرة بيزنطة جميعا يزعمون لانفسهم قداسة رجال الدين ! يقول : « واذن فمن الجلى أن الاوتوقراطية كهانة ملكية ، وما الامبراطور الا أحد رجال الدين ، حتى اذا قدم ماتلزمه العادة بتقديمه ـ استطاع أن يدخل المعبد المقدس ويقترب من المذبح حيث لا يسمح لأحد من العلمانيين بالمرور ! وفى مكنته أن يقبل ستار المذبح وأن يتناول بيده الخبز المقدس ، وعهدت له العناية الالهية ـ كما عهدت لبطرس من قبل ـ فى رعاية أتباع المسيح · ولكى يظهر هذا الجانب من كهانة الامبراطور فى وضوح أكثر ، أضيف ـ منذ القرن التاسع على ما يظن ـ عمل آخر رمزى فى حفل التتويج ، ألا وهو أن يقوم البطريق بمسح الامبراطور بالزيت المقدس ، ولم يكن يعبرون به عن ارادة الدولة بل عن المشيئة الالهية » !!

وقد تحمس الاباطرة البيزنطيون منذ قيام ليو الثالث ـ رأس الاسرة الايسورية ـ سنة ٧١٧ م لنزعة فى الدين عرفت باللاصورية Iconclast ، كانت تعتبر تقديس الصور والايقونات لونا من عبادة الاصنام ! وقد سعى الاباطرة لفرض هذه الفكرة ومحاربة مخالفيها بكل

---

(١) ستيفن نيل : ماهو الانسان ترجمة ابراهيم مطر ص ٧٢ ـ ٣

سبيل : « واكتسبت معركة اللاصورية طابعا سياسيا ، وقد رأى البعض ان الاضطهاد فى هذه الفترة الاخيرة كان مقصورا على القسطنطينية ، لان الامبراطور ربما سعى عن هذا السبيل لان يكون سيد العاصمة ! ولم يكن الرهبان مجرد مدافعين عن الصور ، يذودون عن تقليد كنسى فحسب ، بل كانوا **ثوريين على طريقتهم الخاصة** !!

لقد كانوا **ينافحون عن حرية جديدة** ، ويجاهدون فى سبيل تحطيم العلاقة بين الكنيسة والدولة — تلك العلاقة التى توطدت منذ زمن طويل فى العالم البيزنطى ، **لان امبراطور روما الشرقية لم يكن حامى الدين فحسب ، بل كان رئيس الكنيسة ووريث قسطنطين الكبير** ! وكان فى مقدوره وحده أن يدعو المجمع الكنسى — برلمان الامبراطور الدينى — حيث كانت الاجراءات صورة من شبيهاتها فى السناتو الدنيوى ، وحيث اتخذ الانجيل مكان هيكل النصر الوثنى ! وكان مندوبوه العلمانيون يرأسون اجتماعات المجمع ، وكانت قراراته التى تتخذ لا تفوز بالصيغة التنفيذية حتى يوافق الامبراطور على جعلها سارية المفعول... واستطاع الامبراطور الاوتوقراطى أن يحدد عقائد الكنيسة بمنشورات امبراطورية . وكان الامبراطور فى الحقيقة يعين أسقف البلاط الذى كان فى مقدوره أن ينفذ ارادته فى المسائل الدينية عن طريق عزل البطارقة العاصين . ولقد نادى رعايا جستنيان به ملكا كاهنا ، وأوضح أسقفه النظرية القيصرية بقوله : يجب ألا يحدث شىء فى الكنيسة ضد رغبة الامبراطور ! وهذه النظرية عن علاقة الكنيسة بالدولة هاجمها ثيودور — من رجال دير ستوديوس وأحد أنصار عبادة الصور المتأخرين ، فقد كان هؤلاء يمانعون فى اعطاء ما لقيصر لقيصر وما لله لله . ويوضح القديس يوحنا الدمشقى وجهة نظر هؤلاء الرهبان فى قوله : (نحن نطيع الامبراطور فيما يتعلق بحياتنا اليومية — أى فى الولاء والضريبة ... أما فى الحكومة الكنسية ، فلنا القسيسون والمبشرون بالكتاب وشارحو القوانين الكنسية . فالتقدم السياسى من اختصاص الامبراطور ، أما التنظيم الكنسى فهو من اختصاص القسيسين والمعلمين ، وليس تجريدهم منه الا من قبيل اللصوصية) !

ولكن عجز أنصار عبادة الصور عن تحقيق هدفهم هذا ، فقد ظلت النظرية سارية باختلاف واحد — وهو أن الاباطرة كفوا عن السعى فى تغيير العقيدة المسيحية عن طريق المنشورات الامبراطورية ، لان الكنيسة حين خرجت من النزاع حول اللاصورية أصبحت كنيسة ارثذوكسية بصورة أوفى ، وتوقف تطورها اللاهوتى(١) » .

---

(١) بينز : الامبراطورية البيزنطية — ترجمة مؤنس وزايد — ص ٨١ ، ١١٧ : ٩ .

وعلى هذا النحو جرى الصراع بين البابوية وبين بعض رءوس السلطات الزمنية فى أوربا ... وكان الفصل الظاهرى الرسمى لسلطتى الدين والسياسة ، يحمل معه أس النزاع حول سيادة أيهما على الاخرى!!

وعلى ذلك يمكن القول أن المسيحية لم تتخل عن واقعيتها وموافقاتها لدنيا الناس ، وقيامها باحتياجاتهم المختلفة ، مع السمو بمداركهم وموازينهم وآفاقهم وسلوكهم ـ بقدر ما يتسع له التطور الانسانى نحو الكمال على تتابع الاجيال ، وما تنفسح له الطاقة البشرية فى مختلف المجالات .

***

ومن الكتاب المسيحيين من يحاول أن يلقى على بعض المشكلات السياسية والاجتماعية التى تتبارى فى حلها مختلف المذاهب والنظم ، ضوءا مستمدا من دراسة الكتب المقدسة ، وما ورد فيها من نبوءات ، وان كان المسيح قد انصرف عن معالجة التشريع بطريق مباشر !

« فقد خرج الأدفنتست **Adventist** السبتيون ـ مثلا ـ ليعلنوا على مسامع العالم أن المستقبل سيتمخض عن **حروب وانقسامات** متناهية فى الشدة والقسوة ، مما لم يستسغه العقل فى السنوات السابقة لعام ١٩١٤ م ـ فى فترة ساد فيها الشعور بالرضا والتفاؤل ...

ومما تنبأ بحدوثه المجيئيون السبتيون فى الايام الاخيرة **مسألة السلم العالمية** . فقد قالوا : انه فى الايام الاخيرة ستظهر مشروعات عظيمة تهدف الى سيادة السلام على العالم ـ وهنا نبرز لنا مناقضة من مناقضات النبوات الكتابية التى يتحير فيها أكثر الناس تعبدا وتدينا . ولكن هذه السنوات الاخيرة قد شاهدت فعلا الجمع بين النقيضين فيما يتعلق بتشريعات السلم وتشريعات الحرب ...

وتنبأ الادفنتست السبتيون عن المشكلة الخاصة **بالراسمالية والعمال** ، لانه من دراساتنا للنبوات صرنا نعتقد انه قبل مجىء المسيح ستظهر مشاكل خاصة بتكدس الثروات فى أيدى القلائل والتفاوت العظيم بين الطبقات ، مما جعلنا نخلص بهذه النتيجة المتعلقة بشدة التوتر وزيادة المتاعب التى ستنشأ بين الرأسمالية والعمال . وكانت هناك بعض الدلائل التى تعزز وجهة نظرنا ، ولكن الناس وقتذاك ـ تحت تأثير الشعور العام بالتفاؤل ـ اعتقدوا ان تلك المتاعب التى كانت قد أخذت فى الظهور بين العامل وصاحب العمل انما هى متاعب مؤقتة ناشئة عن فترة

الانتقال ، وانه سيأتى الوقت الذى تنتهى فيه الامور الى حالة الاستقرار والتآلف والانسجام ، فيتمتع العالم بالرفاهية الاقتصادية ...

كذلك تنبأ الادفنتست عنـد فجر نهضتهم بأن الشر سـيطغى ، والاباحية ستزداد ، فقيل عنا اننا كمن يندب فى وسط معالم الافراح ! لان الفكرة عن امكانيات التقدم الانسانى كانت مسيطرة على ذلك العصر ، اذ خلط الناس وقت ذلك بين فكرة التقدم المادى والتقدم الادبى ...

وأخيرا : منذ ظهور نهضـة الادفنتست فى منتصف القرن التاسع عشر ، وهم يتنبأون بأنه فى آخر الايام **سينبذ العالم المبـادىء الاساسية للحرية** ! ولم تقابل أية نبوءة من نبوءاتنا بمثل ما قوبلت به هذه النبوءة من الاحتقار والازدراء(١) !! ... »

---

(١) فرانسيس دانيكول : ايمانى ، حججه وأسانيده ـ ترجمة جرجس سليمان ـ ص ٣٠ : ٣٩

فى طريق الانتشار

أرادت المسيحية اذن أن تمضى فى طريقها بسلام ، تسرق من القلوب الانقياد للهيكل دون أن تمس الهيكل ، وتخطف منها الولاء للقيصر دون أن تبارز القيصر بعداء ...

وهكذا يستحيل الهيكل حجارة بغير عباد أو قصاد ، وتستحيل الامبراطورية ـ (بيضة فارغة) كما يقولون !!

وأراد الكهان أن يتدركوا مصيرهم بمؤامرة قيافا ، كما أرادت الدولة أن تستنقذ كيانها بمذابح نيرون .... ولكن ذهب قيافا ونيرون مع من ذهب ، وبقيت المسيحية وخلد المسيح !!

وتنصرت الدولة الرومانية فى بيزنطة ، كما تسلم شرلمان تاج الامبراطورية المقدسة من يد البابا ، ولم يفلت من دعوة المحبة حتى (الشعوب المتبربرة) فى عرف الرومان ـ وهى التى كانت ترابط على الحدود ، ثم توغلت داخل الحدود ، ثم راحت تتقاسم غرب الامبراطورية قطعا وأشلاء ...

● ان لوقا يخبرنا عن **بداية (الكرازة) من أورشليم** ، ثم انتشارها الى الخارج حتى شملت **السامريين والامم** ، وقد بدأت البعثات الكاملة للامم من **انطاكية** (أعمال صح ١٣/٢٨) ثم يتوقف لوقا عندما يصل بولس الى **(روما)** ويبدأ عمله بين آلامم .

● وكانت كل جماعة ورد ذكرها فى أعمال الرسل وفى رسائل بولس تشكل **(كنيسة)** فى البيت ، وانما بدأنا نسمع عن بنايات صغيرة للعبادة بعد عام ٢٠٠م . وأظهرت الامبراطورية الرومانية استعدادها للتسامح مع المسيحية عام ٢٦١ م ، فظهرت بنايات (الباسليكا) المستطيلة التى تنتهى بشكل مستدير من الشرق حيث كانت مائدة الرب ، وشمل اضطهاد الدولة على المسيحية عام ٣٠٣م هدم تلك الكنائس أو حرقها . وانتهت هذه الاضطهادات عام ٣١٢م .

وفى زمن كتابة (العهد الجديد) نشأت كنائس خارج فلسطين ، فقد ورد ذكر كنيسة انطاكية ، وبدأ الامتداد الرئيسى للمسيحية من انطاكية وسرعان **ما برزت الاسكندرية وروما والقسطنطينية كمراكز مسيحية ، ولكن احتفظت أورشليم بمكانتها** بالنظر الى ماضيها • ودعى الاساقفة الذين تزعموا الدعوة المسيحيةفى هذه المدن الخمسة **بالبطاركة**•

● وكانت كنيسة أنطاكية هى التى بعثت بولس وبرنابا الى الغرب، وهى التى نشرت الانجيل فى الشرق حتى بلغ **(ادسا)** (أورفا ــ الرها) ، ومنها ومن آسيا الصغرى بدأت تأثيرات المسيحية تصل **ارمينية** • وانتشرت المسيحية التى تكلم أتباعها اللغة السريانية والذين جاء بعضهم من ادسا الى ما حول دجلة والفرات وشواطىء بحر قزوين • وتأسست أكثر من ٢٠ أسقفية حوالى عام ٢٢٥م • وفى ذلك الحين نهضت الدولة الساسانية فى فارس ونهضت الزرادشتية ، وأصاب مسيحى فارس رشاش من الصراع المستعر بين الفرس **والروم** •

● ووصلت المسيحية الى **اليمن** ، وقد ذكر ان « بنتانوس » من الاسكندرية مر بها فى أثناء رحلته الى الهند سنة ١٨٠ م كما ذكر ان تيوفيلوس وفق الى تنصير ملكها فى طريقه الى الهند أيضا ، وكان قد بعثه الامبراطور قسطنطين سنة ٣٥٤م فزار المسيحيين فى **بلاد العرب والحبشة وسومطرة وسيلان والهند** •

● ودخلت المسيحية افريقيــة عن طريق **مصر** • وذكر المؤرخ يوسيبيوس المتوفى عام ٣١١م رواية تناقلتها الالسن عن تبشير القديس مرقس بالمسيحية فى مصر وتأسيسه (كنيسة الاسكندرية) • وأول مخطوطه للعهد الجديد باليونانية وجدت بالاسكندرية وأول مركز للتعليم المسيحى تأسس هناك عام ١٩٠م ، وقد أسس تلك المدرسة اللاهوتية بانتابيوس وخلفه كلمنت الاسكندرى ثم اوريجنوس • وظهرت كتابة الانجيل باللغة القبطية فى القرن الثالث ، وكان قد كتب من قبل بالسريانية لأهل الشرق وباللاتينية لأهل الغرب • وتعرض مسيحيو مصر لاضطهاد الامبراطورية الرومانية الذى انصب على رءوس المسيحيين فى شتى أرجائها ، وكان يوسيبيوس شاهد عيان للاضطهادات التى وقعت عام ٣١١م وعلى الرغم من اعتزال **القديس انطونيوس** فى مصر العليا عام ٢٧٠م فقد ترك أثرا بالغا على كنيسة القرن الرابع • ولقد جاب شوارع الاسكندرية يحث المسيحيين على الصمود فى المحنة ، كما اختط طريق

« **الرهبنة** » التى انتشرت بسرعة وامتـدت الى الشرق والغرب ، وأصبح الرهبان رسل المسيحية فى شتى جهات العالم ٠

● وانتشرت المسيحية على طول ساحل **الشمال الافريقى**٠ وأخرجت (تونس) أعظم ثلاثة من آباء الكنيسة اللاتين : ترتيليـان المتوفى عـام ٢٣٠ م وكبريان المتوفى عام ٢٥٨ م وأوغسطينوس المتوفى عام ٤٣٠م ٠ كما وصلت المسيحية **الحبشة** عن طريق البحر الاحمر وغدا فرومنتيوس الذى أقلته الى هناك سفينة عبر هذا البـحر مؤسسا للكنيسة الحبشية بتوجيه أثناسيوس أسقف الاسكندرية ٠

● **أما روما** فنحن نقرأ فى (العهد الجديد) رسالة بولس اليها ٠ ونسمع فى نهاية القرن الاول عن (كنيستها) التى ظلت تهتم بشقيقتها كنيسة كورنثوس ٠ وقد كان كثير من مسيحيى الرومان من أصل شرقى وبقى معظمهم حتى القرن الثـالث يتـكلم اليونانية ٠ ثم وجدت ترجمة للكتاب المقدس عام ٢٠٠م ، وتكاثر عدد المسيحيين حتى انقسـموا عام ٢٥٠م بين ٧ مقاطعات ، وكان لهم ٤٦٠ شيخا ولا يقل عددهم عن ١٥٠٠ شخص ٠ ويذكر ان فى جنوبى ايطاليا كان هناك مالايقل عن ١٠٠أسقف٠ ويبدو ان الكنيسة تأثرت فى تلك الارجاء بالثقافة الاغريقية وان كانت قد أخذت تميل الى النظام الرومانى ٠ وأخذت المسيحية تنتشر فى **بلاد الغال** (فرنسا) عبر الطرق التجارية وبخاصة فى مدن الجنوب وعلى طول وادى الرون ٠ واننا نجد أسماء لاتينية واغريقية بين شهداء ليون وفيينا عام ١٧٧م وربما وصلت المسيحية الى المدن الرومانية الواقعة على الشاطىء الشرقى والجنوبى لأسـبانيا على يد بولس الذى كان يعتزم أن يسافر اليها ٠

● على ان الكنيسة فى الغرب قـد أخذت وضعها عنـدما أصدر الامبراطور قسطنطين **منشور ميلان** فى عـام ٣١٣م يعلن التسـامح مع المسيحيين وغيرهم ٠ وبلغت المسيحية ذروتها فى مدينة القسطنطينية التى تأسست فى جو شرقى يملؤه أنفاس المسيحية والمسيحيين ، وغدتعاصمة القسم الشرقى من الامبراطورية الرومانية ٠

واعلنت المسـيحية ديانة رسـمية فى أرمينية والحبشة ثم فى الامبراطورية الرومانية عموما ٠ أما مسـيحية أرمينية والحبشة فظلت محصـورة فى نطاقهما دون توسع ، وأما المسـيحية فى الامبراطورية الرومانية فقد غدت أساسا للحضارة الاوربية ٠ وعندما سقطت روما فى

أيدى القوط عام ٤١٠م قرر القديس أوغسطين فى «مدينة الله» : « ان أهوال الحرب ليست بجديدة على مسامع البشر ، انما الجديد أن نرى أكبر الكنائس يقع عليها الاختيار لتكون ملجأ وملاذا للاجئين من النساء والاطفال » ! وقد أخذت المسيحية طريقها الى قلوب البرابرة المهاجمين وهكذا انهارت امبراطورية روما لتكون المسيحية أساسا لحضارة جديدة ظل صرحها يشيد شيئا فشيئا حتى عام ١٠٠٠م ٠

● وأخذت المسيحية تنتشر فى **شمالى غربى اوربا** ، فقد توجه أحد الاساقفة الى ايرلندا ، ومنها خرج المبشرون الى الاسكتلنديين والبريطانيين ، ثم لم تلبث انجلترا ان صارت قاعدة لتبشير سكان الشمال ٠ وفى عام ٤٩٦م أجرى **تعميد كلوفيس ملك الفرنجة (فرنسا)** وآلاف من أتباعه ، ثم اندفع شرلمان (٧٦٨ ـ ٨١٤م) بعد ذلك فى التحمس للمسيحية ونشرها حيثما وصلت فتوحاته ٠

● واذا كانت الدعوة المسيحية قد تأثر انتشارها بسقوط روما وظهور الاسلام ، فانها قد اختطت لها طريقا **فى شرقى أوربا** ، ووصلت الى السلاف الذين تنازع على تنصيرهم الجرمان والبيزنطيون وتأرجحوا بين اللاتين والاغريق حتى انتصرت بيزنطة فى القرن التاسع ٠

وحين تنصرت **دوقية كييف** التى كانت نواة لدولة روسيا فى القرن العاشر اتجهت الكنيسة هناك الى الطابع الاغريقى **وكانت بعيدة عن الكنيسة اللاتينية الغربية ومحوطة بالمسلمين من الشرق والجنوب** ٠

كما انتشرت المسيحية عبر **آسيا** عن طريق الكنيسة السريانية وبلغت الصين ٠

● ومع مطالع القرن السادس قدم **(بندكت) الى حركة الرهبنة** فى أصولها الروحية القبطية تنظيما رومانيا ٠ وأسس ديره على جبل كاسينوجنوبى شرقى روما وأخذت الاديرة طريقها الى الانتشار ٠ وفى **دير كلونى** الذى تأسس عام ٩١٠م ظهرت حركة اصلاح الاديرة والكنيسة ٠ وجاء **فرنسيس** من احدى مدن شمالى ايطاليا فتخلى عن الدنيا وأخذ يجوب البلاد للكرازة والوعظ والتبشير ، مؤسسا بذلك « **اخوة الفرنسسكان** » التى تشبه الفروسية من بعض الوجوه ، وفى خلال جولاته قصد مصر عام ١٢١٩م ٠ كما ظهرت « **اخوة الدومنيكان** » التى أسسها دومنيك الاسبانى ٠

وهكذا أرادت أن تسلك هذه المنظمات سبيل الحكمة والموعظة

الحسنة بعد أن تكسرت السيوف فى الحملات الصليبية ، وكان من هؤلاء مبعوثون الى المغول والشرق الاقصى ·

● وحمل الاسبان والبرتغاليون **الروح الصليبية عندما شرعوا فى ارتياد طرق جديدة للالتفاف حول العالم** وكان من أهداف جهود (هنرى الملاح) فى الكشف الجغرافى الالتفـاف حول الدول الاسلامية والسعى لايجاد حليف مسيحى جنوبى الصحراء والتبشير بالمسيحية · وتتابعت الكشوف الجغرافية والمحـاولات الاستعمارية ، وجاءت طرق المواصلات الجديدة مواكبة للانتفاضة التى شـــهدها الحقل الدينى ··· وانتقلت المسيحية على الطرق الجــديدة ، فى مذاهبها التى تمخض عنها الاصلاح الدينى Reformation، وعلى يد الكنيسة الكاثوليكية أيضا التى انتعشت عن طريق الاصلاح المضاد · Counter-Reformation

والتحق اجناتيوس ليولا الاسبانى الاصل ١٥٢٨ بجامعة باريس ، وبعد اصابته فى الجندية طرح سلاحه ليختلى فى كهف حيث وضع كتابه (الرياضيات الروحية) وزار فلسطين ثم عاد الى أسبانيا ففرنسا حيث كون (جماعة المسيح) أو (اليسوعيين Jesuits) التى تعاقدت على الذهاب فى حملة صليبية الى أية بقعة من العالم يأمرهم البابا بالذهاب اليها واعترف البابا بالمنظمة سنة ١٥٤٠ « وسارت هذه المنظمة على تنظيم عسكرى بحيث فرضت الطاعة على أعضائها تجاه جميع الرؤساء وعندما أقفل العمل فى البلاد المقدسة فى وجه المرسلين بسبب احتلال العثمانيين لهــا ·· وجه هؤلاء للممتلكات البرتغـالية وأخذ نشـــاط اليســوعيين يتزايد(١) » ·

ويبلغ عدد المسيحيين حوالى ٩٤٠ مليون من بين سكان العالم (حوالى ٣ مليار نسمة) ، ويتضمن عدد المسيحيين حوالى ٥٠٠ مليون **كاثوليكى** ، ٢٦٥ مليون **بروتستنتى** و ١٧٥ مليون **ارثذوكسى** ويمثل الكاثوليك أكثر من ½ المسيحيين و ١٧٫٥٪ من تعداد العالم كله حوالى نصفهم فى أوربا و ٤٠٪ فى أمريكا وتأتى بعد ذلك آسيا وافريقيا ويبلغ تعداد السكان فى أمريكا الجنـوبية ١٧٠ مليونا منهم ١٥٥ مليون مســـيحى تغلب عليهم الكاثوليكية وهناك ٤٠٠ مليون مسلم تقريبا (هناك احصائيات ترفع عدد المسلمين عن هذا الرقم) ، ١٢ مليون يهودى · وقد أورد هذه الأرقام باحث

---

(١) جون فوستر : من اورشليم ـ ترجمة ابراهيم مطر ص ١١ : ٨٣ وبخاصة ١١ ، ١٣ ، ١٧ ، ١٩ ، ٢٠ : ٤٠ ، ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٦ ، ٥٢ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٦٠ ـ ١ ؛ ٦٤ ؛ ٧٣ ، ٧٤ ، ٧٥ وما بعدها

كاثوليكى ويعلق عليها بقوله «وبذلك نكون مجموعة من المؤمنين الموجودين **والمتحدرين من ابراهيم** يربو تعدادها على ١٫٣٣٠ مليون نسمة · ويغلب الاسلام على العالم العربى ويوجد فى ايران والهند ويشغل حيزا فى الصين وهو آخذ فى الانتشار فى افريقية السوداء حيث بلغ أتباعه على اختلاف المذاهب حوالى ٤٥ مليونا · **واليهودية** توجد وفقا للترتيب العددى فى الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى وفلسطين المحتلة وبريطانيا وهى تكون جماعات أصغر فى بلاد أخرى وأكبرها فى الارجنتين (٣٦٠٫٠٠٠ نسمة تقريبا) · ويتبع الهندوكية ٣٢٠ مليون معظمهم فى الهند ويتبع **البوذية** ٥٠٠ مليون يعيشون فى الشرق الاقصى (الصين،الهند،اليابان)· وهناك حوالى ١٠٠ مليون افريقى يعتقدون عقائد بدائية · ويذكر الباحث الكاثوليكى ان هناك قرابة ٤٥٠مليونا لايدينون بدين ، ويعترف عدد كبير منهم بالالحاد ، ويشير الكاتب صراحة الى الشيوعيين فى هذا المقام ·

● يمضى النشاط التبشيرى الكهنوتى والعلمانى فى طريقه فى آسيا وافريقية ويذكر الكاتب الكاثوليكى بالنسبة لبلاد الاسلام : « وفى بلاد الاسلام يقوم التجديد المسيحى اما على الاهتمام بنوثيق الوحدة أكثر فأكثر بين الطوائف المسيحية واما على تقديم دلائل وجود المحبة فى المدارس والمستوصفات ومراكز البحوث الشرقية ··· وسجلت الكاثوليكية تقدما فى افريقية ، فقد زاد عدد أتباعها من ٥ مليون الى ٢٨ مليونا بين عامى ١٩٣١ ، ١٩٥٩ ·

ويقول كاتب كاثوليكى « ان الكنيسة الكاثوليكية الافريقية كونت معظم القادة السياسيين الذين حملوا أعباء الاستقلال : نكروما رئيس غانا وتسير ارانا رئيس مدغشقر وقادة الكونغو ليوبولدفيل واليون ديوب صاحب النفوذ الفكرى فى شتى ارجاء القارة الافريقية وياسى فى ساحل العاج وكونومبو واودراجو ونيكيانا فى فولتا العليا وبنتو فى داهومى وسانتوس فى توجو ، وكلهم مدينون للارساليات بتكوينهم الفكرى والاخلاقى والعقيدى ··· »

● وعدد الشرقيين المتحدين مع الكرسى البابوى يبلغ ١٤ مليونا ، موزعون بين طقوس هامة لكل منها فرع كاثوليكى وآخر منفصل عن روما ـ عدا الموارنة الذين يتحد جميعهم مع روما · وطقوس الكنائس الشرقية ولغاتها تدخل ضمن التراث الروحى الثمين للكنيسة الكاثوليكية كالطقس اللاتينى واللغة اللاتينية سواء بسواء · ويجمع **الطقس البيزنطى** غالبية المسيحيين الشرقيين المنفصلين عن روما (أكثر من ١٦٠ مليونا) ،

كما يضم أكبر عدد من الكاثوليك الشرقيين بما فيهم السلافيون (٥ر١١ مليونا من مجموع ١٤ مليونا) وعلى ضفاف البحر المتوسط تقام طقوس بالعربية واليونانية كما تقام بلغات أخرى في غير ذلك من الجهات وبخاصة اللغة السلافية • والبيزنطيون (الروم)- كاثوليك أو ارثذوكس- كثيرون في الجمهورية العربية المتحدة ولبنان وفلسطين وتركيا ومعظم البلاد السلافية ، وكثير منهم هاجروا الى أمريكا خلال السنوات العشرين الاخيرة • وفي الشرق الادنى العربي يغلب **الطقس القبطي** وبخاصة في مصر واثيوبيا ولكن يوجد أيضا في اتحاد جنوبي افريقيا حيث يوجد ١٥ مليونا من المسيحيين المنفصلين عن روما و ٠٠٠ر١٢٥ كاثوليكي تقريبا • ويستخدم هؤلاء القبطية والعربية في الجمهورية العربية المتحدة ولغة محلية في اثيوبيا • **والطقس المارونى** جميع أتباعه من الكاثوليك يبلغون ٠٠٠ر٨٨٥ وينحدرون من أصل لبناني ويقيمون في البلاد العربية وبعض جهات افريقية السوداء وجزيرة قبرص ومنهم من يعيش في أمريكا ويستخدم هؤلاء العربية والسريانية • **والطقس الكلداني** يتبعه عدد من الكاثوليك يفوق عدد أتباعه من الارثذوكس وهو الطقس الوحيد من طقوس الشرق المزدوجة الاتباع الذى يتفوق فيه الكاثوليك على الارثذوكس عدديا (٠٠٠ر٢٢٠ر١ ، ٠٠٠ر١٤٠ على التوالى) ويوجدون في العراق والهند وبين المهاجرين الى أمريكا ويستخدمون العربية والسريانية **والطقس السرياني** يضم ٠٠٠ر٧٧٥ من غير الكاثوليك ، ٠٠٠ر١٧٠ من الكاثوليك يعيشون في سوريا ولبنان والعراق والهند ويستخدمون أيضا العربية والسريانية • ويضم **الطقس الأرمني** ٠٠٠ر٥٠٠ر٢ مليون مسيحي منفصلين عن روما ، ٠٠٠ر١٨٠ كاثوليكي وينتشر هؤلاء في أرمينية السوفييتية وفي جميع العالم العربي وغيره من البلدان التي هاجر اليها الأرمن وبخاصة الولايات المتحدة وفرنسا واليونان وتركيا • وقد صرح البابا بيوس الحادى عشر في عام ١٩٣٨ « ان الاحبار الرومانيين يقررون ان التنوع في الطقوس الناشئ عن عقلية الشعوب الخاصة بعيد عن أن يتعارض والوحدة في الايمان المقدس والعبادة لله ، بل يعد بالعكس سببا لتأييدها وتمجيدها اذ بفضله يسهل الفهم أن المذهب الكاثوليكي الواحد الوحيد ينطبق تماما على طبيعة جميع الشعوب وعاداتهم المختلفة وينتج ثمارا غزيرة يانعة متنوعة في جمالها(١) » •

---

(١) موريس بكاريني : الحياة الكاثوليكية في عالمنا المعاصر - ترجمة بطرس كساب •

وعلى هذا المتوال تمضي دعوة المسيحية مع موكب التاريخ :

« انا أنزلنا التوراة فيهـا هدى ونور ، يحـكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا والربانيون والاحبار بما استحفظوا من كتاب الله وكانوا عليه شهداء ، فلا تخشوا الناس واخشون ، ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون • وكتبنا عليهم فيها أن النفس بالنفس والعين بالعين والأنف بالانف والاذن بالاذن والسن بالسن والجروح قصاص ، فمن تصدق به فهو كفارة له ، من لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الظالمون •

وقفينا على آثارهم بعيسى بن مريم ـ مصدقا لما بين يديه من التوراة، وآتيناه الانجيل فيه هدى ونور ، ومصدقا لما بين يديه من التوراة ، وهدى وموعظة للمتقين • وليحكم أهل الانجيل بما أنزل الله فيه ، ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون •

وأنزلنا اليك الكتاب بالحق ، مصدقا لمابين يديه من الكتاب ومهيمنا عليه ، فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق ، **لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجا ، ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ، ولكن ليبلوكم فيما آتاكم ، فاستبقوا الخيرات ، الى الله مرجعكم جميعا فينبئكم بما كنتم فيه تختلفون(١)** » !

---

(١) المائدة ٤٤ : ٤٨

تعالوا ... يا جميع المتعبين

« تعالوا الى ياجميع المتعبين والثقيلى الاحمال ، وانا اريحكم ... احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى ـ لانى وديع ومتواضع القلب ... فتجدوا راحة لنفوسكم ، لان نيرى هين وحملى خفيف »

(مت ١١ : ٢٨ ـ ٣٠)

من الأعماق

هل كانت رسالة المسيحية الحانا حلوة النغمــات عن المحبة وانكار الذات ، والفناء فى الله وخدمة الناس ··· دون أن تتضمن حلولا مباشرة لمشكلات المغبونين والمقهورين ؟؟

ان المجتمع فى العالم الرومانى – وفى غير العالم الرومانى – كان يشكو فوارق القوميات ، وفوارق الطبقات ، كما تقــدم فى فصول هذا الكتاب ··· فماذا فعل المسيح تجاه الذين يئنون ويتوجعون من المظلومين ··· هل تركهم ومضى مكتفيا بالتبشير بملكوت السموات !!

كان « **الايمان** » أساسا وقبــل كل شىء هو العــلاج الجذرى ···· وهو الذى يبدع فى تصـــويره الكتاب المحدثون ابداعا يفصح عن مدى احساسهم العميق بالجوعة النفسية والمهلكة والفراغ الروحى الذى يدير رءوس المفكرين والمصلحين !! ·

« لقد كان الناس فى حالة قلق وتعب وارتباك ، ليس من تحريك الايدى والارجل ، بل من الاعباء الفكرية المثقلين بها ··· كانوا يقومون بأداء الاعمال بنفس كسيرة لانهم كانــوا يعملونها بدون دافع من الارادة الذاتية ··· ولقد قدم لهم يسوع دعوة الراحة، ليس من ظروفهم الخارجية بل من صراعهم الداخلى ··· بعث فيهم فكرة جديدة ، تقدم اليهم باكليل يضعه على رأس الخدمة ، ليجعل اسم الخادم مرادفا لكل ماهو عظيم (لان ابن الانسان جاء ليخدم) ··· لقد أتى **ليغير الفكرة لا الشىء، ولكن التغير فى الفكرة قد غير الشىء** أيضا · هذه الراحة الفكرية أضحت قوة دافعة·· والراحة التى بدأت فى النفس اتســعت حتى شــملت البدن ·· وهكذا نادى (**والحق يحرركم**) · ان المسيحية فى عصور متلاحقة لم تحاول أن تمتهن القانون الوضعى ســواء أكان مخطئا أم مصيبا ولم تحطم أغــلال العبيد بالايدى وبالقوة ، وانمــا بسريان فكرة جديدة فى نفوس العبد والسيد على الســواء ··· لقد احتــاج هذا الفــكر الى وقت طويل لينمو

ويتطور وينضج فى تجربة البشر ، لقد كان عليه أن يقتلع من كل مرافق الحياة الافكار القديمة البائدة ، ولكنه وان شق طريقه بصعوبة وبطء الا ان النهاية كانت مضمونة أكيدة. ان انسانية الانسان نحو أخيه قد نبعت من شعور الانسان بمكانة أخيه ، والمحبة العطوفة نبعت من الايمان الذى هو الروح الملهم(١) » .

« اننا عندما نسعى لخير أحد من الناس نجعل الدين عادة فى المرتبة الثانية ، لكن يسوع أراد أن يعلم الانسان قبل كل شىء محبة الله ومغفرته ، والشىء الاول والأهم أن نبرىء مرض الظلم فى العالم . حسن أن تشيد المنازل الصحية بدل أكواخ الفقراء القذرة ، هذا يأمر به يسوع ولكن أحسن من هذا أ نتهيء الانفس الصالحة لسكنى هذه المنازل الجديدة . جميل جدا أن نوفر السعادة والعزاء للمجاهدين المكافحين ، هذا ما يقول به يسوع ولكن الاجمل أن نجىء اليهم بالله ذاته . يسوع يعطف على أمثال هؤلاء أكثر مما نفعل نحن ، ولكنه يعرف حاجتهم أفضل منا . هذا هو موضع خلاف بيننا وبينه فى تقدير الحياة . وكان مثار دهشة القوم أن يفكر المسيح أولا فى نفس الانسان العليل المطروح أمامه (ثق يابنى ، قم وامش ... مغفورة لك خطاياك) ... ونحن لا نبخس صاحب (الدين الفردى) الذى يهتم أولا بنفسه وخلاصه وحياته الروحية وتكريسه لله ، فهو أساس كل دين وهو وحى الابطال والقديسين . ولكن متى تدعم الدين وتعمق لا يبقى فرديا ، بل تتفتح أكمامه وينساب اليه الكثير ، فتزكو روح المحبة والاشفاق والبر يجمع الناس ، والشعور بالألم حيال الشرور والمساوىء التى تعيقهم فى مضمار الحياة ، والغضب المقدس أمام المظالم التى يسامونها ، والغيرة المتقدة لان نبذل ونبذل لأجلهم ، والعمل الصالح المنتج لتهيئة أسباب الحياة النافعة لهم . وعلى (الكنيسة) ألا تكتفى فقط بمواساة البائسين بل يجب أن تنهض جادة لقطع دابر مصادر البؤس والشقاء ولا تكتفى باصلاح نفر من السكيرين والفاسقين ثم تترك الظروف والبيئات التى تهىء سبيل الادمان والفساد لأمثالهم وأمثالهم ! وعليها أن تهتم بالشئون الاجتماعية المتصلة بأخلاق الشعب وأن تعلم الحكومات وأهل الشورى أن الاخلاق القومية أهم شأنا من الثروة القومية ، وأن تعلم الافراد أن وراء نفوسهم وحياتهم الخاصة مجالا أوسع يجب أن تتجه اليه أفكارهم ، الى الاخوة فى الانسانية تاعسين،

---

(١) جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت جـ ١ ص ١٦٩ ـ ١٧٠

مرضى في المستشفيات يتوجعون ، أحداث في المصانع ومكدودين ، حانات يهرق فيها الحمقى عافيتهم وحيويتهم وأطفال شاردين أو مشردين ••• الى كل هـذا يجب أن تتجه الكنيسة • ولسـنا ننـكر ان مهمتها تخليص النفوس ، ولكن بالطريقة التى انتهجها سيدها ••• تمس الناس بلمسة الحياة المضحية الباذلة وتعلمهم محبة الأخ الذى يرونه ليؤمنوا بحجة الله الذى لم يروه » ••• « ان العالم فى اعادة تنظيمه الاجتماعى يفتقر فى هـذا العصر أشد افتقار الى (المسيح) • وأهل العـالم مأخوذون بتعلم القوانين الاقتصادية ومبادىء مذاهب المنفعة وأساليب الحث الاخلاقى لفعل الخير والصلاح ، ولكنهم عن المسيح غافلون ولذا هم لا يفلحون ! ويشعر قادتنا فى ميادين السياسة والصناعة والاجتماع بعجزهم وافتقارهم الى وازع روحى قوى لتغيـير مشروعاتهم عمليـا ، والحاجة هنا ماسة الى الدين(١) •• »

لقد مس المسـيح آلام هؤلاء المعذبين مبـاشرة ، وتابعه فى ذلك تلاميذه •• تحدث عن المستضعفين من الرجال والنساء والولدان الذين لا يستطيعون حيلة ولا يهتدون سبيلا •••

ولم تهمل المسيحية قضايا المجتمعات : أنصفت الطفولة كما أنصفت الامومة ، وتعرضت لمسألة الرقيق ، كما تناولت مشكلة الاغنياء والفقراء على طريقتها الخاصة المتميزة •

(١) بنرسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ١٣٦ ، ١٥١ – ٢ ، ٢٤٨

الطفولة

للمســيح على **الاطفــال** حدب وحنان ... تكلم عنهم ، وردد هذه العبارة الساحرة : « من أفواه الاطفال والرضع هيأت تسبيحاً » !!

« فى تلك الساعة تقدم التلاميذ الى يسوع قائلين : فمن هو أعظم فى ملكوت السموات ! فدعا يسوع اليه ولدا وأقامه فى وسطهم وقال : الحق أقول لكم : ان لم ترجعوا وتصيروا مثل الاولاد فلن تدخلوا ملكوت الســموات ! فمن وضع نفسه مثل هــذا الولد فهو الأعظم فى ملكوت السموات ، ومن قبل ولدا واحدا مثل هذا باسمى ـ فقد قبلنى ، ومن أعثر أحد الصــغار المؤمنين بى فخير له أن يعلق فى عنقه حجر الرحى ويغرق فى لجة البحر !... انظروا ، لا تحتقروا أحد هؤلاء الصغار ، لانى أقول لكم : ان ملائكتهم فى السموات كل حين ينظرون وجه أبى الذى فى السموات » !! (١)

« حينئذ قدم اليه أولاد لكى يضــع يديه عليهم ويصلى ، فانتهرهم التلاميذ ! أما يسوع فقال : دعوا الاولاد يأتون ولا تمنعوهم ، لان لمثل هؤلاء ملكوت السموات ! فوضع يديه عليهم ، ومضى من هناك(٢) » .

« فلما رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التى صنع ، والاولاد يصرخون فى الهيكل ويقولون : أوصنايابن داود ـ غضبوا ، وقالوا له أتسمع ما يقول هؤلاء ؟ فقال لهم يسوع : نعم ، أما قرأتم قط : من أفواه الاطفال والرضع هيأت تسبيحا(٣) !! »

وفى رواية لانجيلى مرقس ولوقا ـ يتخذ المسيح من الاطفال موضوعا يلقن منه تلاميذه الدرس الذى لا ينسوه : « وجاء الى كفر ناحوم ، واذ كان فى البيت سألهم : بماذا كنتم تتكالمون فيما بينــكم فى الطريق ؟؟

---

(١) مت ١٨ : ١ ـ ٥ ، ١٠ ، مر ٩ : ٤٢
(٢) مت ١٩ : ١٣ ـ ١٥ ، مر ١٠ : ١٣ ـ ١٦ ، لو ١٨ : ١٥ ـ ١٧
(٣) مت ٢١ : ١٥ ـ ١٦

فسكتوا ! لانهم تحاجوا فى الطريق بعضهم مع بعض فيمن هو أعظم !؟ فجلس ونادى الاثنى عشر ٠٠ فأخذ ولدا وأقامه فى وسطهم ثم احتضنه ، فقال لهم : من قبل واحدا من أولاد مثل هذا باسمى يقبلنى ، ومن قبلنى فليس يقبلنى أنا ـ بل الذى أرسلنى (١) » ٠

وقد كتب اكليمندوس الاسكندرى كتاب (المربى) تحدث فيه عن المسيح كمرب وعن القيم والمثل التى نادى بها وتكريمه للطفولة كما كشف عن طبيعة العلاقة الروحية بين الانسان والله ، وقرر ان العزوف عن رغبات الجسد يزيد الرقى الروحى والقرب من الله ومتابعة الصالحات فى صبر ومثابرة ٠ كذلك تناول الكتاب آداب الطعام والشراب والكلام والضحك والنوم والملبس والاحتفالات والاعياد٠ وينهى (المربى) عن الكلمات البذيئة والمعاشرات الرديئة ٠ ويذكر الكتاب ان الجمال الحق ليس فى الخلقة أو اللباس أو الزينة وانما فى الفضيلة ، ويبرز أضرار تمضية الفراغ فى اللهو ، ويدعو الى الحفاظ على وقت العبادة وغشيان الكنيسة والاعتياد على ضبط الحواس والعيون ٠ ثم يتعرض اكليمندوس لروح العلاقات التى ينبغى أن تسود الأسرة ولا يفوته أن يعرض لمعاملة الخدم معاملة طيبة (٢) ٠

---

(١) مر ٩ : ٣٣ ـ ٣٧ ، لو ٩ : ٤٦ ـ ٤٨

(٢) سليمان نسيم : أضواء على الشخصية المصرية ، المجلة ع ١٠١ مايو ١٩٦٥ ، للتفصيل راجع أيضا التربية القبطية

المرأة والأسرة

وللنساء فى (العهد الجديد) مكانة وكرامة ...

تحدث المسيح مع امرأة سامرية : « وعند ذلك جاء تلاميذه ، وكانوا يتعجبون انه **كان يتكلم مع امرأة** (١) !! ... »

فالحديث الى امرأة كان أمرا ادا لا يليق بمقام المرسلين !!

وقد رأى المسيح فى الزوجية عروة وثقى وميثاقا غليظا : « وجاء اليه الفريسيون ليجربوه قائلين له : هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب ؟ فأجاب وقال لهم : أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى ... وقال : من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ، ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا !! اذن ليسا بعد اثنين ، بل جسد واحد ـ فالذى جمعه الله ، لا يفرقه انسان(٢) ... »

واذا كانت تكاليف الدعوة وأعباء الرسالة قد شغلت المسيح عن أمه أحيانا ، فما كان ذلك يعنى قط عقوقا للأم أو اهمالا للأسرة ، وانما أراد المسيح أن يقرر مبدأ أو قاعدة : ان قرابة العقيدة مقدمة على كل قرابة : « وفيما هو يكلم الجموع ، اذا أمه واخوته قد وقفوا خارجا طالبين أن يكلموه ، فقال له واحد : هو ذا أمك واخوتك واقفون خارجا طالبين أن يكلموك ! فأجاب وقال للقائل له : من هى أمى ومن هم اخوتى ؟ ثم مد يده نحو تلاميذه وقال : ها أمى واخوتى ، لان من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى(٣) ... »

وشبيه هذا بما روته سيرة محمد اذ شغلته الشواغل الكبرى عن أهل بيته ، وزهد فى متاع الدنيا ، فلما اضطربت قلوب نساء النبى جاء

---

(١) يو ٤ : ٢٧

(٢) مت ١٩ : ٣ ـ ١٢ ، مر ١٠ : ٢ ـ ١٢ ، لو ١٦ : ١٨ ـ ١٩

(٣) مت ١٢ : ٤٦ ـ ٤٩ ، مر ٣ : ٣١ ـ ٣٥ ، لو ٨ : ١٩ ـ ٢١

الجواب الربانى الحاسم : « يأيها النبى قل لأزواجك ان كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها ، فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحا جميلا . وان كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة ، فان الله أعد للمحسنات منكن أجرا عظيما ... ومن يقنت منكن لله ورسوله وتعمل صالحا ، نؤتها أجرها مرتين واعتدنا لها رزقا كريما . يا نساء النبى لستن كأحد من النساء (١) » .

وعلى هذا يفسر قول المسيح : « وأعداء الانسان أهل بيته . من أحب أبا وأما أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى ، ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى » ، « ان كان أحد يأتى الى ولا يبغض أباه وأمه وامرأته وأولاده واخوته واخواته ـ حتى نفسه أيضا ، فلا يقدر أن يكون لى تلميذا » ، « أتظنون انى جئت لأعطى سلاما على الارض ؟ كلا أقول لكم ـ بل انقساما ! لانه يكون من الآن خمسة فى بيت واحد منقسمين : ثلاثة على اثنين ، واثنان على ثلاثة ـ ينقسم الاب على الابن ، والابن على الاب ، والام على البنت ، والبنت على الام ، والحماة على كنتها ، والكنة على حماتها(٢) » !!

فطبيعة الدعوات أن يفتديها أصحابها بكل شيء ...

وطبيعة العقائد أن تصل الى الاعماق فتزيل من طريقها ما دونها من أغيار : « يأيها الذين آمنوا ان من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم، وان تعفوا وتصفحوا وتغفروا فان الله غفور رحيم . انما أموالكم وأولادكم فتنة ، والله عنده أجر عظيم » ، « لا تجد قوما يؤمنون بالله واليوم الآخر يوادون من حاد الله ورسوله ـ ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو اخوانهم أو عشيرتهم ، أولئك كتب فى قلوبهم الايمـــان وأيدهم بروح منه » . « لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب اليه من ولده ووالده والناس أجمعين» .

ولا تتعارض روابط الاسرة مع تبعات العقيدة فى كل حين ، واذا اختلفت العقـــائد فينبغى ألا تتمزق الوشائج ـ مادامت العقيدة مصونة لم تمتهن : « ووصينا الانسان بوالديه ... أن أشكر لى ولوالديك ، الى المصير . وان جاهداك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم فلا تطعهما ، وصاحبهما فى الدنيا معروفا (٣) » ...

---

(١) الاحزاب ٢٨ : ٣٢

(٢) مت ١٠ : ٣٤ ـ ٣٨ ، لو ١٤ : ٢٦ ، لو ١٢ : ٥١ ـ ٥٣

(٣) التغابن ١٤ ـ ١٥ ، المجادلة ٢٢ : الحديث : رواه أحمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه ، وصححه السيوطى ، لقمان ١٤ ـ ١٥

وقد ظلت علاقة المسـيح بأمه علاقة البر والرحمة الى آخر يوم :
« وكانت واقفات عند صليب يسوع أمه ، وأخت مريم زوجة كلوبا ومريم المجدلية . فلما رأى يسوع أمه والتلميذ الذى كان يحبه واقفا قال لامه : يا امرأة ، هو ذا ابنـك ، ثم قال للتلميذ : هو ذا أمـك ... ومن تلك الساعة أخذها التلميذ الى خاصته (١) » .

« وبرا بوالدتى ، ولم يجعلنى جبارا شـقيا . والسلام على يوم ولدت ، ويوم أموت ويوم أبعث حيا » ، « النبى أولى بالمؤمنين من أنفسهم، وأزواجه أمهاتهم (٢) » .

***

وسارت كلمات رسل المسيح فى نفس الاتجاه ، تكرم المرأة وتشد بنيان الاسرة ، وترسى خطوطا لبعض الآداب والتقاليد : « .. وأريد أن تعلموا ان رأس كل رجل هو المسيح ، وأما رأس المرأة فهو الرجل ، ورأس المسيح هو الله ! كل رجـل يصلى أو يتنبأ وله على رأسه شىء ــ يشين رأسه ، وأما كل امرأة تصلى أو تتنبأ ورأسها غير مغطى ــ فتشين رأسها، لأنها والمحـلوقة شىء واحد بعينه !! اذ المرأة ان كانت لا تتغطى فليقص شعرها ، وان كان قبيحا بالمرأة أن تقص أو تحلق فلتتغط ... لان الرجل ليس من المرأة ، بل المرأة من الرجل ، ولان **الرجل لم يخلق من أجل المرأة بل المرأة من أجل الرجل** . لهذا ينبغى للمرأة أن يكون لهـا سلطان على رأسها من أجل الملائكة ، **غير ان الرجل ليس من دون المرأة ولا المرأة من دون الرجل فى الرب ، لانه كما ان المرأة هى من الرجل هكذا الرجل أيضا هو بالمرأة ، ولكن جميع الاشياء هى من الله**... أم ليست الطبيعة نفسها تعلمكم ان الرجل ان كان يرخى شعره فهـو يحب الله ، وأما المرأة ان كانت ترخى شـعرها فهو مجد لها لان الشـعر قـد أعطى لها عوض برقع (٣) » !

« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف ، وللرجال عليهن درجة (٤) » .

***

ولئن آثر بولس الرسول جانب الترهب ، الا انه لا يستنكر الزواج بل يراه حسنا : « ... فحسن للرجل أن لا يمس امرأة ، ولكن لسبب

---

(١) يو ١٩ ، ٢٥ ــ ٢٧
(٢) مريم ٣٢ ــ ٣٣ ، الاحزاب ٦
(٣) كورنثوس ١١ : ٣ ــ ٥١
(٤) البقرة ٢٢٨

الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها ! ليوف الرجل المرأة حقها الواجب ، وكذلك المرأة أيضا الرجل ...

ولكن أقول **لغير المتزوجين وللأرامل** : انه حسن لهم اذا لبثوا كما أنا ، ولكن ان لم يضبطوا أنفسهم فليتزوجوا ، **لان التزوج أصلح من التحرق !!**

وأما **المتزوجين** فأوصيهم — لا أنا بل الرب — أن لا تفارق المرأة رجلها ، وان فارقته فلتلبث غير متزوجة أو لتصالح رجلها . ولا يترك الرجل امرأته .

وأما **الباقون** : فأقول لهم — أنا لا الرب — ان كان أخ له امرأة غير مؤمنة وهي ترتضى أن تسكن معه فلا يتركها ، والمرأة التى لها رجل غير مؤمن وهو يرتضى أن يسكن معها فلا تتركه ، لان الرجل غير المؤمن مقدس فى المرأة والمرأة غير المؤمنة مقدسة فى الرجل ، والا فأولادكم نجسون ! وأما الآن فهم مقدسون ، ولكن ان فارق غير المؤمن فليفارق ... ليس الاخ والاخت مستعبدا فى مثل هذه الاحوال ، ولكن الله قد دعانا فى السلام . لانه كيف تعلمين أيتها المرأة هل تخلصين الرجل ، أو كيف تعلم أيها الرجل هل تخلص المرأة ؟؟ غير انه كما قسم الله لكل واحد — كما دعا الرب كل واحد ، هكذا ليسلك ، وهكذا أنا آمر فى جميع الكنائس ...

وأما **العذارى** : فليس عندى أمر من الرب فيهن : ولكننى أعطى رأيا كمن رحمه الرب أن يكون أمينا ، فأظن أن هذا حسن لسبب الضيق الحاضر — انه حسن للانسان أن يكون هكذا: أنت مرتبط بامرأة فلاتطلب الانفصال ، أنت منفصل عن امرأة فلا تطلب امرأة ! لكنك ان تزوجت لم تخطىء ، وان تزوجت العذراء لم تخطىء ، ولكن مثل هؤلاء يكون لهم ضيق فى الجسد ، وأما أنا فانى أشفق عليكم ... غير المتزوج يهتم فى ماللرب كيف يرضى الرب ، وأما المتزوج فيهتم فى ماللعالم كيف يرضى امرأته ! ان بين الزوجة والعذراء فرقا : غير المتزوجة تهتم فى ماللرب لتكون مقدسة جسدا وروحا ، وأما المتزوجة فتهتم فى ما للعالم كيف ترضى رجلها ! هذا أقوله لخيركم — ليس لكى ألقى عليكم وهقا — بل لأجل اللياقة والمثابرة للرب من دون ارتباك . ولكن ان كان يظن انه يعمل بدون لياقة نحو عذرائه اذا تجاوزت الوقت — وهكذا لزم أن يصير ،

فليفعل مايريد ! انه لا يخطىء ، فليتزوجا • وأما من أقام راسخا فى قلبه وليس له اضطرار بل له سلطان على ارادته وقد عزم على هذا فى قلبه أن يحفظ عذراءه فحسنا يفعل • اذن من زوج فحسنا يفعل ، ومن لا يزوج يفعل أحسن • المرأة مرتبطة بالناموس مادام رجلها حيا ، ولكن ان مات رجلها فهى حرة لكى تتزوج من تريد فى الرب فقط — ولكنها أكثر غبطة ان لبثت هكذا يحسب رأيى ، وأظن انى أنا أيضا عندى روح الله(١) » •

وقد تكررت وصية رسل المسيح للرجال بحسن معاملة النساء ، وللنساء بحسن معاملة الرجال ، فهذا بولس يقول :

«أيها **النساء** : اخضعن لرجالكن كما للرب ، ولان الرجل هو أساس المرأة كما أن المسيح أيضا رأس الكنيسة وهو مخلص الجسد • ولكن كما تخضع الكنيسة للمسيح ، كذلك النساء لرجالهن فى كل شىء •••

أيها **الرجال** : أحبوا نساءكم كما أحب المسيح أيضا الكنيسة وأسلم نفسه لأجلها لكى يقدسها مطهرا اياها بغسل الماء بالكلمة ، لكى يحضرها لنفسه كنيسة مجيدة ••• كذلك يجب على الرجال أن يحبوا نساءهم كأجسادهم ، من يحب امرأته يحب نفسه ، فانه لم يبغض أحد جسده قط بل يقوته ويربيه ••• ومن أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسدا واحدا • هذا السر عظيم ، ولكننى أنا أقول من نحو المسيح والكنسة ، وأما أنتم الأفراد : فليحب كل واحد امرأته هكذا كنفسه ، وأما المرأة فلتحب رجلها •••

« أيها **الأولاد** : أطيعوا والديكم فى الرب لأن هذا حق • أكرم أباك وأمك — التى هى أول وصية بوعد ، لكى يكون لكم خير وتكونوا طوال الأعمال على الأرض • وأنتم أيهـــا **الآباء** لا تغيظوا أولادكم ، بل ربوهم بتأديب الرب وانذاره » •

« أيتها النساء : اخضعن لرجالكن كما يليق فى الرب ! أيها الرجال : أحبوا نساءكم ، ولا تكونوا قساة عليهن • أيها الأولاد : أطيعوا والديكم فى كل شىء ، لأن هذا مرضى فى الرب • أيها الآباء : لا تغيظوا أولادكم فتفشلوا » (٢) •

وفى رسالة بطرس الأولى :

---

(١) ١ كورنثوس : ٧ كله

(٢) افسوس ٥ : ٢٢ — ٣٣ ، ٦ : ١ — ٤ ، كولوسى ٣ : ١٨ — ٢١

« كذلك أيتها النساء كن خاضعات لرجالكن ـ حتى وان كان البعض لا يطيعون الكلمة ، يربحون بسيرة النساء بدون كلمة ـ ملاحظين سيرتكن الطاهرة بخوف • ولا تكن زينتكن الزينة الخارجية ـ من ضفر الشعر والتحلي بالذهب ولبس الثياب ، بل انسان القلب الخفي في العديمة الفساد ، زينة الروح الوديع الهادىء الذى هو قدام الله كثير الثمن ! فانه هكذا كانت قديما النساء سارة تطيع ابراهيم داعية اياه سيدها ، التى صرتن أولادها صانعات خيرا وغير خائفات خوفا البته •

كذلك أيها الرجال : كونوا ساكنين بحسب الفطنة مع الاناء النسائى كالأضعف ، معطين اياهن كرامة كالوارثات أيضا معكم نعمة الحياة لكى لا تعاق صلواتكم » (١) •

***

والنصوص الواردة فى الاناجيل المتداولة لا تجيز **الطلاق** الا لعلة الزنا ، ولا يرتضى الكاثوليك أن يسموا الطلاق فى هذه الحالة طلاقا ، وانما هو افتراق جسمانى فحسب : « ودنا اليه الفريسيون ليجربوه ، وقالوا : هل يحل للرجل أن يطلق زوجته لكل علة ؟ فأجاب قائلا : أما قرأتم أن الخالق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى ؟ وأنه قال : لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته ويصيران كلاهما جسدا واحدا ، ومن ثم فليسا هما اثنين بعد ، بل جسد واحد ـ واذن فما جمعه الله فلا يفرقه انسان ! فقالوا له : **لماذا اذن أوصى موسى بأن تعطى كتاب طلاق وتخلى ؟** فقال لهم : انه لقساوة قلوبكم أذن لكم موسى أن تطلقوا نساءكم ، ولكن فى البدء لم يكن الأمر كذلك • وأنا أقول لكم : من طلق امرأته ـ الا لعلة الزنا ـ وتزوج أخرى فقد زنى ، ومن تزوج مطلقة فقد زنى • فقال له تلاميذه : **ان كانت هذه حال الرجل مع امرأته ، فالأولى له أن لا يتزوج** ! فقال لهم : ليس الجميع يفهمون هذا الكلام ، الا الذين وهب لهم أن يفهموا » ! وقد أكد بولس فى رسائله هذا المعنى ، وشرح الأب لويس برسوم الفرنسسكانى وجهة نظر الكاثوليك بقوله : « لما كان التعليم بأن لا طلاق اطلاقا قد جاء واضحا جليا فى ثلاثة من كتبة العهد الجديد ممن طرقوا هذا الموضوع ـ وهم مرقس ولوقا والرسول بولس ، وقد جاء غامضا فى كاتب واحد ـ ألا وهو البشير متى (الذى أورد استثناء حالة الزنا من حكم منع الطلاق بتاتا) ، فكان لا مناص من تفسير تعليم متى هذا الغامض بتفسير الرسل الثلاثة المذكورين الواضح

---

(١) ١ بطرس ٣ : ١ ـ ٧

(الذى لم يورد استثناء) ، والا وجب القول بأن هناك تضاربا وخلافا ـ وهذا محـال ٠٠٠ وعلى ذلك نقول ان المقصود بالطـلاق فى حالة الزنا فى نص متى ، لا طلاق بحصر المعنى ـ الذى فيه يتم فسخ العهد الزواجى، بل الطلاق باتساع المعنى ـ أى الافتراق وهجر الزوج الزانى اللذين لا يتم فيهما فسخ عقد الزواج ٠ وأيضا لو كان الطلاق الذى يأذن به السيد المسيح فى حالة الزنا هو نفس الطلاق الذى كان يأذن به موسى ـ أى الطلاق بحصر المعنى ، لما كان هناك أى فرق جوهرى بين الشريعتين الجديدة والعتيقة ولما كان السيد المسيح قد أصـلح بهـــذا الشأن شيئا أو أتى بجديد ٠ ولكن مثل هذا التفسير مناقض لكل القرائن ٠٠٠ ولما كان من الواضح أن قوله : ومن تزوج مطلقة فقد زنى ـ يشمل كل مطلقة سواء أكانت زانية أم غير زانية ، أصبح من الواضح أيضا أن سبب ارتكاب الزنا من جهة من يتزوج بمطلقة هو دوام رباط زواج المرأة برجلها الأول وعدم انفساخه بالطلاق » (١) ٠

وهكذا تقوم العلائق بين أفراد الأسرة ـ رجالا ونســـاء ، كبارا وصغارا ـ على التضامن والتراحم والتواصى بالخير والمعروف ٠٠٠

« يأيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة ، وخلق منها زوجها ، وبث منهما رجالا كثيرا ونساء ، واتقوا الله الذى تســـاءلون به والأرحام ، ان الله كان عليكم رقيبا » ٠

« ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجا لتسكنوا اليها ، وجعل بينكم مودة ورحمة ، ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون » ٠

« والذين يقولون : ربنا هب لنا من أزواجنا وذرياتنا قرة عين ، واجعلنا للمتقين اماما » ٠

« فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى ـ بعضكم من بعض » ٠

« الرجال قوامون على النساء ـ بما فضل الله بعضهم على بعض وبما أنفقوا من أموالهم » (٢) ٠

---

(١) مت ١٩ : ٣ ـ ١٢ ، مر ١٠ : ٢ ـ ١٢ ، لو ١٦ :١٨ ، رو ٧ : ٢ ـ ٣ ، ١ كور ٧ : ١١ ، لويس برسوم : حياة يسوع المسيح ج ٢ ص ٢٣ : ٢٦

(٢) النساء ١ ، الروم ٢١ ، الفرقان ، ٧٤ ، آل عمران ١٩٥ ، النساء ٣٤

الرق

ويسوق المسيح في الأناجيل المتداولة ، كثيرا من القصص حول العبيد والسادة ، فما موقف المسيحية تجاه **الرق والأرقاء ؟؟**

« ... يشبه ملكوت السموات انسانا ملكا أراد أن يحاسب عبيده ، فلما ابتدأ فى المحاسبة قدم اليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة ، واذ لم يكن له ما يوفى – أمر سيده أن يباع هو وامرأته وأولاده كل ماله ويوفى الدين . فخر العبد وسجد له قائلا : ياسيد تمهل على فأوفيك الجميع ! فتحنن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك الدين . ولما خرج ذلك العبد وجد واحدا من العبيد رفقائه كان مديونا له بمائة دينار ، فأمسكه وأخذ بعنقه قائلا : أوفنى مالى عليك ، فخر العبد رفيقه على قدميه وطلب اليه قائلا : تمهل على فأوفيك الجميع ! فلم يرد ، بل مضى وألقاه فى سجن حتى يوفى الدين ... وغضب سيده وسلمه الى المعذبين حتى يوفى كل ما كان عليه . فهكذا أبى السموى يفعل بكم ان لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته » (١) !

« كان انسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج ، وحفر فيه معصرة وبنى برجا ، وسلمه الى كرامين وسافر . ولما قرب وقت الأثمار ، أرسل عبيده الى الكرامين ليأخذ أثماره ، فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا ورجموا بعضا ! ثم أرسل أيضا عبيدا آخرين أكثر من الأولين ففعلوا بهم كذلك ، فأخيرا أرسل اليهم ابنه ... » (٢) !

« ... يشبه ملكوت السموات انسانا ملكا صنع عرسا لابنه ، وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين الى العرس – فلم يريدوا أن يأتوا ، فأرسل أيضا عبيدا آخرين ... ولكنهم تهاونوا ... والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم » (٣) .

---

(١) مت ١٨ : ٢٣ – ٣٥
(٢) مت ٢١ : ٣٣ – ٣٦ ، لو ٢٠ : ٩ – ١٢
(٣) مت ٢٢ : ٢ – ٦

« وكأنما انسان مسافر دعا عبيده وسلمهم أمواله ، فأعطى واحد خمس وزنات وآخر وزنتين وآخر وزنة ــ كل واحد على قــدر طاقتــه ، وسافر للوقت . فمضى الذى أخذ الخمس وزنات وتاجر بها فربح خمس وزنات أخر ، وهكذا الذى أخذ الوزنتين ربح أيضا وزنتين أخريين . وأما الذى أخذ الوزنة فمضى وحفر فى الأرض وأخفى فضة سيده ... وبعد زمان طويل أتى سيد أولئك العبيد وحاسبهم : فجاء الذى أخذ الخمس وزنات وقدم خمس وزنات أخر قائلا : يا سيد خمس وزنات سلمتنى ــ هو ذا خمس وزنات أخر ربحتها فوقها . فقال له : نعما أيها العبد الصالح والأمين ، كنت أمينــــا فى القليل فأقيمك على الكثــير ، ادخل الى فرح سيدك ! ثم جاء الذى أخذ الوزنتين وقال : يا سيد وزنتين سلمتنى ــ هو ذا وزنتان أخريان ربحتهـــما فوقهما . قال له سيده : نعما أيها العبد الصالح والأمين .. ! ثم جـــاء أيضا الذى أخذ الوزنة الواحدة وقال : يا سيد عرفت أنك انسان قاس تحصد حيث لم تزرع ، وتجمع من حيث لم تبذر ، فخفت ومضيت وأخفيت وزنتك فى الأرض ــ هو ذا الذى لك . فأجاب سيده وقال له : أيها العبد الشرير والكسلان عرفت أنى أحصد حيث لم أزرع وأجمع من حيث لم أبذر فكان ينبغى أن تضع فضتى عند الصيارف فعند مجيئى كنت آخذ الذى لى مع ربا !! فخذوا منه الوزن وأعطوها للذى له العشر وزنات ، لأن كل من له يعطى فيزداد ، ومن ليس له فالذى عنده يؤخذ منه ! والعبد البطال اطرحوه الى الظلمة الخارجية.. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان (١) » ! .

« ومن منكم له عبد يحرث أو يرعى ، ويقول له اذا دخل من الحقل : تقدم سريعا واتكىء ! بل ألا يقول له : أعدد ما أتعشى به ، وتمنطق واخدمنى حتى آكل وأشرب ، وبعد ذلك تأكل وتشرب أنت ! ... فهل لذلك العبد فضل لأنه فعل ما أمر به ، لا أظن ! كذلك أنتم أيضا ، متى فعلتم كل ما أمرتم به فقولوا : اننا عبيد بطالون ، لأننا عملنا ما كان يجب علينا ! (٢) » .

هل يمكن أن تتخذ هذه الأمثال دلالة على أن المسيح يجيز الرق ، ويقر هذه المعاملة للأرقاء ؟؟

ان دلالة الاستنكار الضمنى لتلك العلاقة بين السادة والعبيد بادية

---

(١) مت ٢٥ : ١٤ ــ ٣٠ ، لو ١٩ : ١١ ــ ٢٧
(٢) لو ١٧ : ٧ ــ ١٠

في معظم الأمثال التي يسوقها المسيح من هذا اللون ـ وخاصة في المثلين الأخيرين !! وما كانت رســـالة المحبة لترضى باستعباد النــاس للناس واستبداد الناس بالناس !

وأعتقد أن المسيح لم يشأ أن يتعرض لهذا الوضع الاجتماعي تعرضا مباشرا ، فهو وضع تاريخي له مكانه في التدرج الانساني الطويل ... وانما ترك لأصول المسيحية أن تنضج ثمرتها وتنتج أثرها عن طريق التطور الهادىء البطىء ...

ذلك أن الرق يعتبر ركنا لنظام اجتماعي واقتصادى معين ، والأسلم أن ينهار هذا الركن تلقائيا بعد أن يتم الاعداد للطور الاجتماعي الجديد !

كذلك كانت سنة الاسلام ـ مع خطوات أكثر تفصيلا لتحرير الرقيق القائم ، وتضييق موارد الرق في المستقبل ، وتهيئة النفوس والأذهان وأوضاع المجتمع والتشريع لاستقبال المجتمع الحر المتساوى ، المتكافل المتضامن ، الذى لا يستعبد فيه الانسان بنى الانسان وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا !! ولا يتأتى أن يؤخذ من مثل يضربه القرآن بعبد مملوك اجازة الاسلام للرق كمبدأ مقرر ثابت : « ضرب الله مثلا عبدا مملوكا لا يقدر على شىء ، ومن رزقناه منا رزقا حســـنا فهو ينفق منه سرا وجهـــرا ـ هل يستوون ؟ الحمد لله ، بل أكثرهم لا يعلمون » (١) .

وهى نفس القضية بالنسبة للأمثال التى تحدث بها المسيح .

وعلى هذا المنوال ساير رسل المسيح الاوضاع كما هى ، حتى تتغير من الجذور والأعماق برسالة المحبة المسيحية ، فكتب بولس الرسول : « أيها العبيد : أطيعوا سادتكم حسب الجسد بخوف ورعدة فى بساطة قلوبكم كما للمسيح ، لا بخدمة العــين كمن يرضى النــاس بل كعبيد المسيح ، عاملين مشيئة الله من القلب ، خادمين بنية صالحة كما للرب ليس للناس ، عالمين أن مهما عمل كل واحد من الخير فذلك يناله من الرب ـ عبدا كان أم حرا . وأنتم أيها السادة : افعلوا هذه الأمور تاركين التهديد ، عالمين أن سيدكم أنتم أيضا فى السموات وليس عند محاباة » (٢) !

وفى رسالة أخرى كان بولس أصرح فى تقرير العدالة والمساواة بين السادة والعبيد : « أيها العبيد : أطيعوا فى كل شىء سادتكم حسب

---

(١) النحل ٧٥
(٢) افسس ٦ : ٥ ـ ٩

الجسد ، لا بخدمة العين كمن يرضى الناس بل ببساطة القلب خائفين الرب ، وكل مافعلتم فاعملوا من القلب للرب ليس للناس ، عالمين أنكم من الرب ستأخذون جزاء الميراث لأنكم تخدمون الرب المسيح ، وأما الظالم فسينال ما ظلم به وليس محاباة •

أيها السادة : قدموا للعبد العدل والمساواة ، عالمين أن لكم أيضا سيدا في السموات » • « **ليس يهودى ولا يونانى ، ليس عبد ولا حر ، ليس ذكر ولا أنثى ـ لأنكم جميعا واحد في المسيح يسوع** » (١) •

اذن فقد اختار رسل المسيح ألا يصطدموا بأوضاع المجتمع ـ كما لم يشاءوا أن يصطدموا بسلطان الحكم ـ حتى لا يسيء فهم رسالتهم أحد ، ولا تنفر منها نفس ، أو تحاربها سلطة : « جميع الذين هم عبيد تحت نير : فليحسبوا سادتهم مستحقين كل اكرام ، **لئلا يفترى على اسم الله وتعليمه** • والذين لهم سادة مؤمنون لا يستهينون بهم ـ لأنهم اخوة ، بل ليخدموهم أكثر ، لأن الذين يتشـــاركون في الفائدة هم مؤمنون ومحبوبون » ، « والعبيد أن يخضعوا لسادتهم ويرضوهم في كل شيء غير مناقضين ، غير مختلسين بل مقدمين كل أمانة صالحة ـ لكي **يزينوا تعليم مخلصنا الله في كل شيء** » (٢) !!

« يأيها النبى قل لمن في أيديكم من الأسرى ، ان يعلم الله في قلوبكم خيرا يؤتكم خيرا مما أخذ منكم ويغفر لكم ، والله غفور رحيم » •

« يا أيها النـــاس انا خلقناكم من ذكر وأنثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان أكرمكم عند الله أتقاكم ، ان الله عليم خبير » (٣) •

---

(١) كولوسي ٣ : ٢٢ ـ ٢٥ ، ٤ : ١ ، غلاطية ٣ : ٢٨
(٢) اتيموثاوس ٦ : ١ ـ ٢ ، تيطس ٢ : ٩ ـ ١٠
(٣) الانفال : ٧ ، الحجرات ١٣

الفقـرة

بقيت المشـــكلة الدقيقة الخطيرة ··· **مشكلة الأغنياء والفقـراء** ، مشكلة تفاوت الثراء وصراع الطبقات ···

« ودخل يسوع الى هيكل الله ، وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون فى الهيكل ، وقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام ! وقال لهم : مكتوب : ببيتى بيت الصلاة يدعى - وأنتم جعلتموه مغارة لصوص !! » ، « لم يدع أحد يجتاز الهيكل بمتاع » ! « ··· ووجد فى الهيكل الذين كانوا يبيعون بقرا وغنما وحماما ، والصيارف جلوسا · فصنع سوطا من حبال ، وطرد الجميع من الهيكل : الغنم والبقر ، وكب دراهم الصيارف وقلب موائدهم ، وقال لباعة الحمام : ارفعوا هذه من هنا ، ولا تجعلوا بيت أبى تجارة » !! (١) ·

ترى هل هذه نظرة المسيح الى المال والتجارة ، والصيارف والدنانير - فى بيت الله المقدس وحده ··· أم هى نظرته اليها فى كل مكان ؟؟

« لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يفسد السوس والصدأ ، وحيث ينقب السارقون ويسرقون ! بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يفسد سوس ولا صدأ ، وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون ، لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا ! ···

لا يقدر أحد أن يخدم سيدين ، لأنه اما أن يبغض الواحد ويحب الآخر ، أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر · لا تقدرون أن تخدموا الله والمال ! لذلك أقول لكم : لا تهتموا لحيـــاتكم بما تأكلون وبما تشربون ، ولا لأجسادكم بما تلبسون · أليست الحياة أفضل من الطعام ، والجسد أفضل من اللباس ؟ انظروا الى طيور السماء : انها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع الى مخازن ، وأبوكم السماوى يقوتها ! ألستم أنتم بالحرى أفضل منها ؟

---

(١) مت ٢١ : ١٢ - ١٣ ، مر ١١ : ١٥ - ١٧ ، لو ١٩ : ٤٥ - ٤٦ ، يو ٢ : ١٤ - ١٦

ومن منكم اذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة ؟ ولماذا تهتمون باللباس ؟ تأملوا زنابق الحقل كيف تنمو ـ لا تتعب ولا تغزل ، ولكن أقول لكم انه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها ! فان كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويطرح غدا فى التنور يلبسه الله هكذا ، أفليس بالحرى جدا يلبسكم أنتم يا قليلى الايمان ؟ فلا تهتموا قائلين : ماذا نأكل ؟ أو ماذا نشرب ؟ أو ماذا نلبس ؟ ـ فان هذه كلها تطلبها الأمم ، لأن أباكم السماوى يعلم أنكم تحتاجون الى هذه كلها ، لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبره ، وهذه كلها تزاد لكم . فلا تهتموا للغد ، لأن الغد يهتم بما لنفسه ، يكفى اليوم شره ! (١) » .

هذه الكلمات دفعت الدكتور شويتزر Schweitzer ـ ومن ينحى منحاه ـ أن « يرى أن السيد المسيح أوصى الناس بوصاياه لاعتقاده أن الساعة قريبة ، وأن الدنيا التى يهجرونها مقضى عليها بالفناء فى مدى سنوات ! فكل ما أوصى به الناس فالمفهوم منه أنهم على سفر ، وأن الزاد للعالم الآخر من غير هذا الزاد الذى يدخره المدخرون للدنيا الزائلة !! .

وفى اعتقادنا أنه لا محل للخلاف على الوصايا التى وجهها المسيح لتلاميذه المتجردين لنشر الدعوة ، فان كل دعوة فى عصر المسيح أو فى عصرنا هذا ، وفى جهاد الدين أو جهاد الدنيا ـ تحتاج من الدعاة الى مثل ذلك التجرد ومثل ذلك الانقطاع عن الشواغل الأخرى ... انما الخلاف على الوصايا حين تتجه الى غير التلاميذ والرسل ... لا حاجة بنا الى الفرض والاحتمال ، فان المسيح قد غير المحور حين قبل انفاق الدنانير فى عطر تمسح به قدماه ، وحين قبل أن يشهد الأعراس ويضرب المثل لأتباعه فى أفراح الحياة ، وفى براءة كل فرح يأتى من القلب ويسر الجسد ولا يحزن الروح » (٢) !

والأستاذ العقاد يشـير بهـذا الى ما ورد فى الأناجيل المتداولة : « وفيما كان يسوع فى بيت عنيا فى بيت سمعان الأبرص ، تقدمت اليه امرأة معها قارورة طيب كثير الثمن ! فسكبته على رأسه وهو متكىء ، فلما رأى تلاميذه ذلك اغتاظوا قائلين : لماذا هذا الاتلاف ؟ لأنه كان يمكن أن يباع هذا الطيب بكثير ويعطى للفقراء ! فعلم يسوع وقال لهم : لماذا تزعجون المرأة ـ فانها قد عملت بى عملا حسنا ، لأن الفقراء معكم فى كل

---

(١) مت ٦ : ١٩ ـ ٣٤ ، لو ١٢ : ٢٢ ـ ٣١

(٢) العقاد : عبقرية المسيح ـ ص ١٤٣ ، ١٤٥

حين وأما أنا فلست معكم فى كل حين ! فانها سكبت هذا الطيب على جسدى ، انما فعلت ذلك لأجل تكفينى ! الحق أقول لكم : حيثما يكرز بهذا الانجيل فى كل العالم ، يخبر أيضا بما فعلته هذه تذكارا لها » (١) !!

« وصنع له لاوى ضيافة كبيرة فى بيته ، والذين كانوا متكئين معهم كانوا جمعا كثيرا من عشارين وآخرين » ! « وفيما هو متكىء فى بيته كان كثيرون من العشارين والخطاة يتكئون مع يسوع وتلاميذه » (١) ·

« وفى اليوم الثالث كان عرس فى قانا الجليل ، وكانت أم يسوع هناك ، ودعى أيضا يسوع وتلاميذه الى العرس · ولما فرغت الخمر قالت أم يسوع له : ليس لهم خمر · قال يسوع : مالى ولك يا امرأة ، لم تأت ساعتى بعد · قالت أمه للخدام : مهما قال لكم فافعلوه ··· قال لهم يسوع : املأوا الأجران ماء ــ فملأوها الى فوق ، ثم قال لهم : استقوا الآن وقدموا الى رئيس المتكأ ــ فقدموا · فلما ذاق رئيس المتكأ الماء المتحول خمرا ··· الخ » (٢) ·

والحق أن الدعوة الى الزهد يستفيد منها الفقراء ، لا الأغنياء ــ كما يشيع ! اذ أن الزاهد ينبغى أن يملك أولا مايزهد فيه ــ ثم يزهد ، وحين يملك فلن يكون سبيله الى الزهد أن يلقى ماله فى البحر ــ وانما سينفقه بما يعود بالنفع على المجموع !

فليس الزهد تخديرا لنفوس المحرومين ، بل هو تنبيه لعواطف القادرين والمالكين !! فلو زهد الجميع لكان رأس المال مشتركا بين الجميع ، ولو أصر قوم على تكديس المال ــ فهم وحدهم المنهيون عن الكنز والترف ، المأمورون بالزهد والبذل ··· وليس الفقراء الذين لا يجدون مافيه يزهدون !!

وما أكثر ما نعى المسيح على الأغنياء ، وما أكثر ما طيب خواطر الفقراء ··· لينخلع الأولون من فائض ثرواتهم ، وليعتز الآخرون بأنفسهم وايمانهم ــ ومن هنا يقترب هؤلاء وهؤلاء !

« واذا واحد تقدم وقال له : أيها المعلم الصالح ، أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية ؟ فقال له : لماذا تدعونى صالحا ؟ ليس أحد

---

(١) لو ٥ : ٢٩ ، الرواية كاملة مت ٩ : ٩ ــ ١٣ ، مر ٢ : ١٣ ــ ١٧ ، لو ٥ : ٢٧ ــ ٣٢
(٢) يو ٢ : ١ ــ ١١

صالحا الا واحد ـ وهو الله ، ولكن ان أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا • قال له : أية الوصايا ؟ فقال يسوع : لا تقتل ، لا تزن ، لا تسرق ، لا تشهد بالزور ، أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك • قال له الشاب : هذه كلها حفظتها منذ حداثتي ، فماذا يعوزني بعد ؟؟ قال له يسوع : ان أردت أن تكون كاملا ، فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز في السماء وتعال اتبعني ! •• فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا ، لانه كان ذا أموال كثيرة ! فقال يسوع لتلاميذه: الحق أقول لكم : انه يعسّر أن يدخل غني الى ملكوت السموات ! وأقول لكم أيضا : ان مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غني الى ملكوت الله ! فلما سمع تلاميذه بهتوا جدا قائلين . اذن من يستطع أن يخلص ؟ فنظر اليهم يسوع وقال لهم : هذا عند الناس غير مستطاع ، ولكن عند الله كل شيء مستطاع ! ••• فقال بطرس : ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك ، فقال لهم : الحق أقول لكم : أن ليس أحد ترك بيتا أو والدين أو اخوة أو امرأة أو أولادا من أجل ملكوت الله ، الا ويأخذ فى هذا الزمان أضعافا كثيرة ، وفي الدهر الآتى الحياة الأبدية » (١) •

« ••• ثم يقول الملك للذين عن يمينه : تعالوا يامباركى أبى ، رثوا الملكوت المعد لكم منذ تأسيس العالم ـ لأنى جعت فأطعمتمونى ! عطشت فأسقيتمونى ! كنت غريبا فآويتمونى ! عريانا فكسيتمونى ! مريضا فزرتمونى ! محبوسا فاتيتم الى ! فيجيبه الأبرار حينئذ قائلين : يارب متى رأيناك جائعا فأطعمناك ! أو عطشانا فسقيناك ؟ ومتى رأيناك غريبا فآويناك ؟ أو عريانا فكسوناك ؟ ومتى رأيناك مريضا أو محبوسا فأتينا اليك ؟ فيجيب الملك ويقول لهم : الحق أقول لكم : بما أنكم فعلتموه بأحد اخوتى هؤلاء الأصاغر ـ فبى فعلتم !!

ثم يقول أيضا للذين عن اليسار : اذهبوا عنى ياملاعين الى النار الأبدية المعده لابليس وملائكته ـ لأنى جعت فلم تطعمونى ! عطشت فلم تسقونى ! كنت غريبا فلم تأوونى ! عريانا فلم تكسونى ! مريضا ومحبوسا فلم تزورونى ! حينئذ يجيبونه هم أيضا قائلين : يارب متى رآيناك جائعا ، أو عطشانا ، أو غريبا ، أو عريانا ، أو مريضا ، أو محبوسا ولم نخدمك ؟؟ فيجيبهم قائلا : الحق أقول لكم : بما أنكم لم تفعلوه بأحد

---

(١) مت ١٩ : ١٦ ـ ٢٦ ، مر ١٠ : ١٧ ـ ٢٧ ، لو ١٨ : ١٨ ـ ٢٨ •

هؤلاء الأصاغر ـ فبى لم تفعلوا !! فيمضى هؤلاء الى عذاب أبدى ، والأبرار الى حياة أبدية (١) !! » ٠

هكذا يرفع الله جزاء من أدوا حق الفقير والمسكين ٠٠٠

والقرآن كذلك يجعل كل ما يقدم الانسان من خير واقعا فى يد الله العلى الأعلى : « ان تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ، والله شكور رحيم (٢) » ٠

ولا يترك المسيح حق الفقير حتى يوصى به فى موائد الأغنياء وولائمهم :

« وقال أيضا للذى دعاه : اذا صنعت غداء أو عشاء ، فلا تدع أصدقاءك ولا اخوتك ولا أقرباءك ولا الجيران الأغنياء ، لئلا يدعوك هم أيضا فتكون لك مكافأة ! بل اذا صنعت ضيافة ، ادع المساكين الجدع العرج العمى ـ فيكون لك الطوبى اذ ليس لهم حتى يكافوك ، لأنك تكافى فى قيامة الأبرار » !

فاذا أدى الغنى حق الفقير ، فهو مرضى العمل مبارك المال ، « ثم دخل واجتاز فى أريحا ٠ واذا رجل اسمه زكا ـ وهو رئيس للعشارين وكان غنيا ، وطلب أن يرى يسوع من هو ، ولم يقدر مع الجمع لأنه كان قصير القامة ، فركض متقدما وصعد الى جميزة لكى يراه ! ٠٠ فلما جاء يسوع الى المكان ، نظر الى فوق فرآه وقال له : يا زكا أسرع وانزل لأنه ينبغى أن أمكث اليوم فى بيتك ! فأسرع ونزل وقبله فرحا ٠ فلما رأى الجميع ذلك تذمروا قائلين : انه دخل ليبيت عند رجل خاطىء ! فوقف زكا وقال للرب : ها أنا يا رب أعطى نصف أموالى للمساكين ، وان كنت قد وشيت بأحد أرد أربعة أضعاف !! فقال له يسوع : اليوم حصل خلاص هذا البيت ، اذ هو أيضا ابن ابراهيم ، لأن ابن الانسان قد جاء لكى يطلب يخلص ما قد هلك » (٣) ! ٠

فالمسيحية تهتف بحق الفقير فى مال الغنى ، وتغرى الغنى بايثار ما عند الله فهو خير أبقى مما يقدمه من ماله للفقير ٠٠٠ ومعنى هذا أن

---

(١) مت ٢٥ ٣٤ ـ ٤٦
(٢) التغابن ١٧
(٣) لو ١٤ : ١٢ ـ ١٤ ، ١٩ : ١ ـ ١٠

يلتقي الاغنياء والفقراء عند مستوى من العدالة والتكافل ، ولا تنهشهم خوارق الترف والحرمان !!

« ورأس المال » الأصيل هو « الطاقة الانسانية » التى ينبغي أن تبذل في العمل . وقد كان المسيح يعمل أثناء صباه في النجارة « يصنع المحاريث والانيار ، فكان يأتي اليه الفلاحون الذين يريدون الأمانة فى المعاملة . هنا نراه قد علم البشرية كرامة العامل الأمين في عين الله . وقد كان الناس في عصره - ومنهم شيشرون مثلا - يحتقرون العامل ، ولقد سخر أهل الناصرة منه قائلين : أليس هذا النجار ؟ وكان فرضا على يسوع بحكم صنعته أن يتعامل بالنقود ويبتاع الاخشاب ويبيعها بعد صنعها . وفى هذا علم المسيح الناس أن الحياة العملية قد تكون مقدسة وأن منضدة البيع والشراء ومنضدة المكتب قد تبقيان سليمتين من الغش والاثم كمذبح الله » (١) .

فاذا توفر مستوى معيشى مرتفع للجميع : ثمرة انتاج ناجح وتوزيع عادل ، فهل يرفض الناس نعمة الله بدعوى الزهد ؟؟

ان الدين يأمر بالعمل والنشاط ، وهذا من شأنه أن يزيد الانتاج والثروة ، ويأمر بالعدل والاحسان وهذا من شأنه أن تصل الأموال الى مزيد من الأيدى - ومن هنا تظهر نعمة الله على عباد الله .

« ولكن الروح يقول صريحا انه فى الأزمنة الأخيرة يرتد قوم عن الايمان - تابعين أرواحا مضلة وتعاليم شياطين ، فى رياء أقوال كاذبة ، موسومة ضمائرهم ، مانعين عن الزواج ، وآمرين أن يمتنع عن أطعمة قد خلقها الله لتتناول بالشكر من المؤمنين وعارفى الحق . لأن كل خليقة الله جيدة ، ولا يرفض شيء اذا أخذ مع الشكر لأنه يقدس بكلمة الله والصلاة . ان فكرت الاخوة بهذا تكون خادما صالحا ليسوع المسيح ، متربيا بكلام الايمـــان والتعليم الحسن الذى تتبعته . وأما الخرافات الدنسة العجائزية فارفضها ، وروض نفسك للتقـــوى لأن **الرياضة الجسدية نافعة لقليل ، ولكن التقوى نافعة لكل شيء** : اذ لها موعد الحياة الحاضرة والعتيدة ، صادقة هى الكلمة ومستحقة كل قبول ! » (٢)

ما أنفسها من كلمات .. فليس الزهد بتحريم الحلال واضاعة المال ، ولكن أن تكون بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك ...

---

(١) بترسون سمث : حياة يسوع - ترجمة حبيب سعيد ص ٤٦

(٢) تيموثاوس ٤ : ١ - ٩

« يأيها الذين آمنوا لا تحرموا طيبات ما أحل الله لكم ، ولاتعتدوا ، ان الله لا يحب المعتدين • وكلوا مما رزقكم الله حلالا طيبا ، واتقوا الله الذى أنتم به مؤمنون ••• ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا اذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ، ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا ، والله يحب المحسنين » (١) •

« ••• أنتم تعرفون كيف يجب أن يتمثل بنا ، لأننا لم نسلك بلا ترتيب بينكم ، ولا أكلنا خبزا مجانا من أحد ، بل كنا نشتغل بتعب وكد ليلا ونهارا ، لكى لا نثقل على أحد منكم • ليس أن لا سلطان لنا ، بل لكى نعطيكم أنفسنا قدوة حتى تتمثلوا بنا ! فاننا أيضا حين كنا عندكم أوصيناكم بهذا : أنه **ان كان أحد لا يريد أن يشتغل فلا يأكل أيضا** ، لأننا نسمع أن قوما يسلكون بينكم بلا ترتيب ، لا يشتغلون شيئا بل هم فضوليون ! فمثل هؤلاء نوصيهم ونعظهم بربنا يسوع المسيح أن يشتغلوا بهدوء ويأكلوا خبز أنفسهم » (٢) !!

هذه اذن ليست رسالة الحرمان لذات الحرمان ، وليست رسالة التبطل والقعود •••

انها نور وحياة •••

وهى فى هذه الأضواء جميعا متكاملة ، مفهومة ، بغير انتقاص أو تشويه •••

دعوة تصرف القلوب والعقول الى ملكوت السموات ، فيتضاءل عندها متاع الحياة الدنيا — اذ قد تطلعت الى أفق أوسع وهدف أرفع ••• ومن ثم يتداول الناس المال بينهم ، وقد برئوا من تكالب الذين جعلوا الدنيا غاية همهم ومبلغ علمهم ومنتهى آمالهم !

ويجتمع الأغنياء والفقراء على رب الأغنياء والفقراء ، ويتقاسمون نعم الله بالعدل فيما بينهم طلبا لنعيم الله ••• وتكون (القبلة) الواحدة الجديدة هى أداة تفتيت الثروة ، وادماج الطبقة مع الطبقة :

« وجلس يسوع تجاه الخزانة ، ونظر كيف يلقى نحاسا فى الخزانة ، وكان أغنياء كثيرون يلقون كثيرا • فجاءت أرملة فقيرة — والقت فلسين قيمتها ربع (آس) ! فدعا تلاميذه ، وقال لهم : الحق أقول لكم : ان

---

(١) المائدة ٨٧ — ٨٨ ، ٩٣

(٢) ٢ تسالونيكى ٣ : ٦ — ١٢

هذه الأرملة الفقيرة قد ألقت أكثر من جميع من ألقوا في الخزائن ، لأن الجميع من فضلتهم ألقوا ، وأما هذه فمن اعوازها ألقت كل ماعندها ـ كل معيشتها » (١) ٠

« وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ، ولا تنس نصيبك من الدنيا ، وأحسن كما أحسن الله اليك ، ولا تبغ الفساد في الأرض ـ ان الله لا يحب المفسدين » « ثم قفينا على آثارها برسلنا ، وقفينا بعيسى بن مريم وآتيناه الانجيل ، وجعلنا في قلوب الذين اتبعوه رأفة رحمة ورهبانية ابتدعوها ـ ما كتبناها عليهم ، الا ابتغاء رضوان الله ـ فما رعوها حق رعايتها (٢) » ٠

***

وكان مجتمع التلاميذ ، هو المجتمع المتكافل الذى حقق تطبيق هذه المبادىء ٠٠٠

أوصى المسيح الاثنى عشر حين أرسلهم : « مجانا أخذتم ، مجانا أعطوا ٠٠٠ لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم ، ولا مزودا للطريق ، ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا ـ لأن الفاعل مستحق طعامه » (٣)

« ولما كانت الساعة اتكأ والاثنا عشر رسولا معه ، وقال لهم : شهوة اشتهيت أن آكل هذا الفصح معكم قبل أن أتألم ، لأنى أقول لكم : انى لا آكل منه بعد حتى يكمل فى ملكوت الله ! ثم تناول كأسا وشكر ـ وقال : خذوا هذه واقتسموها بينكم ٠٠٠ وأخذ خبزا وشكر ـ وكسر وأعطاهم قائلا : هذا هو جسدى الذى يبذل عنكم ٠٠٠ وقال لهم : حين أرسلتكم بلا كيس ولا مزود ولا أحذية ، هل أعوزكم كل شىء ؟ فقالوا : لا ٠ فقال لهم : لكن الآن من له كيس فليأخذه ، ومزود ـ كذلك ، ومن ليس له فليبع ثوبه ويشتر سيفا ! لأنى أقول : لكم : انه ينبغى أن يتم فى أيضا هذا المكتوب : وأحصى مع أثمة ـ لأن ما هو من جهتى له انقضاء ! فقالوا : ياربى هو ذا هنا سيفان ، فقال لهم : يكفى » (٤) !

لقد اشترك المسيح مع تلاميذه فى لقمة وشربة ، فغدت هذه الشركة من طقوس المسيحية : « وفيما كان يسوع يفيض بشرا وحنانا ، شاء أن

---

(١) مر ١٢ : ٤١ ـ ٤٤ ، لو ٢١ : ١ ـ ٤
(٢) القصص ٧٧ ، الحديد ٢٧
(٣) مت ١٠ : ٨ ـ ١٠ ، مر ٦ : ٨ ـ ٩ ، لو ٩ : ٣
(٤) لو ٢٢ : ١٤ ـ ١٩ ، ٣٥ ـ ٣٨

يرسم سر القربان آية حبه العجيب ، وذبيحة عهده الجديد ... هذا هو جسدى ، هذا هو دمى ـ فما أعظم وأبسط هذه الكلمات ، التى بها صارت وتصير على مر الأجيال على أيدى الكهنة أعجوبة الاستحالة : استحالة جوهر الخبز الى جسد المسيح ، واستحالة جوهر الخمر الى دم المسيح ! ولا غرو ، فكلمة يسوع هى ـ أمس واليوم والى مدى الدهور ، كلمة الله الضابطة الكل ، الكلمة التى لا يمكن أن يقف دونها حائل وتنفذ ماتشاء ... اذن يجب فهم تلك الكلمات : جسدى ودمى بمعناها الحقيقى ، ولاسيما أن ليس هناك مايشير من بعيد أو قريب الى المعنى المجازى المزعوم » (١) !

***

ومارس تلاميذ المسيح بعد رفع المسيح تجربة المعيشة الجماعية :

« وكانوا يواظبون على تعليم الرسل ، والشركة ، وكسر الخبز ، والصلوات ... **وجميع الذين آمنوا كانوا معا ، وكان عندهم كل شيء مشتركا . والأملاك والمقتنيات كانوا يبيعونها ويقسمونها بين الجميع ، كما يكون لكل واحد احتياج** . وكانوا كل يوم يواظبون فى الهيكل بنفس واحدة . واذ هم يكسرون الخبز فى البيوت ، كانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب ... » ، « وكان الجمهور الذين آمنوا قلب واحد ونفس واحدة ، ولم يكن أحد يقول : ان شيئا من أمواله له ، بل كان عندهم كل شيء مشتركا ... اذ لم يكن فيهم أحد محتاجا ، لأن كل الذين كانوا أصحاب حقول أو بيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أرجل الرسل ، فكان يوزع على كل واحد كما يكون له احتياج . ويوسف الذى دعى من الرسل برنابا ـ يترجم ابن الوعظ وهو لاوى قبرسى الجنس ـ اذ كان له حقل باعه وأتى بالدراهم ووضعها عند أرجل الرسل » .

« وفى تلك الأيام اذ تكاثر التلاميذ ، حدث تذمر من اليونانيين على العبرانيين : أن أراملهم كن يغفل عنهن فى الخدمة اليومية . فدعا الاثنا عشر جمهور التلاميذ ، وقالوا : لا يرضى أن نترك نحن كلمة الله ونخدم موائد ، فانتخبوا أيها الاخوة سبعة رجال منكم مشهودا لهم ومملوين من الروح القدس وحكمة ـ فنقيمهم على هذه الحاجة ، وأما نحن فنواظب على الصلاة وخدمة الكلمة . فحسن هذا القول أمام كل الجمهور ، فاختاروا ... » (٢) .

---

(١) لويس برسوم : حياة يسوع جـ ٢ ـ (رسم الافخارستيا) ص ١٥٥ : ١٥٨

(٢) أعمال ٢ : ٤٢ ـ ٦ ، ٤ : ٣٢ ، ٣٤ ـ ٧ ، ٦ : ١ ـ ٦

بذلك كان رسل المسيح يقولون مايفعلون ، يأمرون الناس بالبر ولا ينسون أنفسهم وهم يتلون الكتاب !

وكما كانوا القدوة الطيبة والأسوة الحسنة في العمل ، واصلوا بالقول والبيان معالجة مشـكلة الأغنيـاء والفقــراء من عقدتها النفسية والفلسفية ، يقول بولس الرسول :

« أوصي الأغنياء في الدهر الحاضر أن لا يستكبروا ، ولا يلقوا رجاءهم على غير يقينية الغنى ، بل على الله الحى الذى يمنحنا كل شيء بغنى للتمتع ! وأن يصنعوا صلاحا ، وأن يكونوا أغنياء في أعمال صالحة ، وأن يكونوا أسخياء في العطاء ، كرماء في التوزيع ، مدخرين أساسا حسنا للمستقبل ، لكى يمسكوا بالحياة الأبدية » ٠

وفي رسالة يعقوب : « ٠٠٠ وأما الغنى فباتضاعه ، لأنه كزهر العشب يزول ، لأن الشمس أشرقت بالحر فيبست العشب فسقط زهره وفنى جمال منظره ! هكذا يذبل الغنى أيضا في طرقه ! طوبى للرجل الذى يحتمل التجربة ، لأنه اذا تزكى ينال اكليل الحياة الذى وعد به الرب للذين يحبونه ٠٠٠ هلم الآن أيهـا الأغنيـــاء ، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة ٠ غناكم قد تهرأ ، وثيابكم قد أكلها العث ! ذهبكم وفضتكم قد صدئا ، وصدأها يكون شهادة عليكم ويأكل لحومكم كنار ! قد كنزتم في الأيام الأخيرة ٠٠٠ هو ذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المنحوسة منكم تصرخ ، وصياح الحصادين قد دخل الى أذنى رب الجنود ! قد ترفهتم على الأرض وتنعمتم وربيتم قلوبكم كما في يوم الذبح !! حكمتم على البار ٠٠٠ قتلتموه ٠٠٠ لا يقاومكم » (١) ٠

صرخة صادقة ٠٠٠ ونذير مبين !!

« آمنوا بالله رسوله وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ، فالذين آمنوا منكم وأنفقوا لهم أجر كبير ٠٠٠ وما لكم ألا تنفقوا في سبيل الله ، ولله ميراث السموات والارض ٠٠٠ من ذا الذى يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له ، وله أجر كريم » ٠

« والذين يكنزون الذهب والفضـــة ولا ينفقونها في سبيل الله ـ فبشرهم بعذاب أليم ٠ يوم تحمى عليها في نار جهنم ، فتكوى بها جباههم

---

(١) أتيموثاوس ٦ : ١٧ ـ ١٩ ، يعقوب ١ : ١٠ ـ ١٢ ، ٥ : ١ ـ ٦

وجنـــوبهم وظهورهم ـ هـــذا ما كنزتم لأنفســـكم ، فذوقوا ما كنتم تكنزون !! » (١) ٠

***

ومن البابوات المتأخرين من أصـــدر رسائل تبسط وجهة النظر البابوية فى علاج المشكلات المعـــاصرة على هدى المسيحية ، واذا كان لرسالة البابا يوحنا الثالث والعشرون ١٩٦١ دويها المسموع نظرا لقرب العهد بها ولما تضمنته من آراء محددة فى مشكلات قائمة ، فانه لاينبغى أن يغيب عن الذهن أن هذه الرسالة قد صدرت بمناسبة الذكرى السبعينية لرسالة كان أصدرها البابا ليو الثالث عشر سنة ١٨٩١ تعالج أحوال العمال القائمة وقتذاك ٠ ومن هنا يشير كاتب كاثوليكى الى « وجود مذهب مسيحى يحدده البابوات باستمرار مع الأساقفة واللاهوتيين ويلجأ اليه كل يوم الكثير من قادة النشاط الانسانى بل العديد من الحركات العالمية ذات الصبغة المهنية والسياسية » ٠

يذكر البابا يوحنا الثالث والعشرون أن أولى مهمات الكنيسة هى « تقديس النفوس وتبليغها خيرات الحياة الروحية » ، غير أنها « لا يسعها أن تمكث مكتوفة الأيدى أمام مشاكل الحياة اليومية للبشر » ، فكما أن المسيح كان يهتم بتخفيف آلام معاصريه فأطعم الجموع الجائعة ، كذلك الكنيسة تهتم بالأحوال المعيشية والحضارية لبنى البشر حتى تحملهم على النهوض بدعوتهم على الوجه الأكمل ، دعوة المحبة ، محبة الله ومحبة الناس ٠ واذا كان المسيح ـ كما يقول كاتب كاثوليكى « لم يعطنا قانونا مدنيا ولا تشريعا تجاريا ولا نظرية للدولة ولا قواعد للصحة ولا تعاليم للملبس والمآكل والمشرب ولا حتى لاهوتا ولا شعرا ولا نحوا ولا أى عنصر من عنـــاصر التنظيم الدنيوى للمجتمع اذ ملكوته ليس من هذا العالم ، فان المسيح وهبنا روح الحق والحرية والعدالة والمحبة ، وهبنا انجيل الطوباويات (طوبى ٠٠٠) الذى يجب علينا تحقيقه على الارض حتى نبلغ السعادة العظمى بمشاهدة الله ٠ ولذلك **على المسيحى أن يبذل جهده فى تجنب كل ما يشمل مساسا لروح الانجيل على الأرض ، سواء أكان ذلك فى نطاق المهنة أو التجارة أو التربية أو الثقافة أو السياسة أو العلاقات الدولية أو غيرها** ، والمسيحى ملزم أيضا ببذل جهده فى نصرة كل ما من شأنه أن يفسح المجال أمام الطوباويات الانجيلية المبنية على تخلص الانسان من أهوائه وأنانيته وبخله المقامة على الوداعة والمواساة

---

(١) التوبة ٣٤ ـ ٥ ، الحديد ٧ ، ٩ ـ ١٠ ٠

والعدالة والرحمة والعفة والسلام . فاذا كان التطور سنة التاريخ فلابد له من معنى ـ أى اتجاه ، وهذا الاتجاه فى نظر الكنيسة لا يمكن أن يكون سوى الانسان ، الانسان المطلق الذى يتحقق مليئا فى المسيح . والكنيسة فى وفائها للمسيح **لا تقترح على الانسان طرقا ولا وسائل ، ولكنها تقترح روحا** ، ومن هنا يتحدد اختصاصها فى المجال الاجتماعى. فالكنيسة تطلب أن **تتسم وتتشرب كافة التنظيمات الاجتماعية ومجموع الواقع** الانسانى بروح الحق والحرية والعدالة والمحبة . ولكن عندما يتقادم تنظيم من التنظيمات أو عندما تصبح المفاهيم البشرية لشعب ما غير مناسبة لشعب غيره فالكنيسة تتذكر أن ملكوت المسيح ليس من هذا العالم وأن واجبها عدم التحيز لنظام بعينه دون غيره أو ثقافة أو حضارة بعينها دون غيرها مادام الأساس فى كل حال هو احترام القيم الجوهرية للانسان اذ أن الكنيسة عليها أن تحمل مسئولية البشرية بأسرها فى سر الانسان الاله ، ولذلك فهى تحث المسيحيين على تحمل مسئولية الواقع الانسانى بما يحتويه من ثراء وثقافة وحضارة فى الزمن والبيئة اللذين يعيشون فيهما ليصنعوا من هذه العناصر عوامل تحرير الانسان وخلاصه. وهكذا عمدت الكنيسة أولا الى كسب الامبراطورية الرومانية التى نشأت فى أحضانها فلما انهارت أمام ضربات المتبربرين اتجهت الى ادماج هؤلاء فى حياتها وسرها ، وقد تجاوبت الكنيسة مع روح العصور الوسطى وخاضت أعماقها ولكن عندما ذهبت أيامهـــا وانقضت تحول بابواتها ولاهوتيوها ورهبانها الى عالم النهضة والعصر الحديث ، ثم هى تبذل جهودها اليوم فى انقاذ الحضارة الصناعية المزدهرة ... » .

ولقد عالجت رسالة البابا ليو الثالث عشر ١٨٩١ مشكلات الواقع السىء للعمال فى ذلك الوقت وكان مما جاء فيها « ان الطفل يجب ألا يدخل المصنع الا بعد أن تكون السنون قد أنمت فيه بدرجة كافية قواه الجسمية والأخلاقية لكيلا يذبله العمل المبكر فتضيع فرصة تكوينه ... وللنشاط كما للطبيعة حدود ، فعدد ساعات العمل فى اليوم يجب ألا يتجاوز قدرة العمال على الأداء ، كما يجب أن تحسب فترات الراحة وفقا لطبيعة العامل وحالته الصحية وظروف الزمان والمكان ، فان العـامل الذى ينتزع من الارض مواردها الخصبة يمارس نشـاطا يجب أن يحـدد بحيث يضمن تعويضه والضرر الذى يصيب صحته من جرائه ... »

وبالنســبة لقضية المرأة ذكر الكردينـال فردييه حين كان رئيس **مجلات الثقافة والكتاتب والمسرح . واضافة هذا الكتاب الى المكتبة**

أساقفة باريس « ان الكنيسة التى طالما اهتمت فى الماضى بقضية المرأة لا تستطيع أن تنكر عليها تحسين حالتها فى مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع غير أن الامر يقتضى الرجوع الى الطبيعة اذ أن للمرأة مصيرا خاصا يحدده تكوينها الجسدى والروحى من ناحية والرسالة التى يجب أن تؤديها داخل الاسرة بصفتها زوجة وأما من ناحية أخرى» . وقال البابا بيوس الثانى عشر « لا شك ان الرجل والمرأة متساويان من حيث الشخصية والشرف والكرامة والقيمة والتقدير ، لكنهما ليسا متساويين فى كل شيء اذ ان هناك بعض المواهب والميول والاستعدادات الطبيعية خاصة بالرجل دون المرأة أو العكس ، وليس الامر هنا أمر مقدرات أو استعدادات طبيعية ثانوية كما هو الحال بالنسبة الى الميل نحو الآداب أو الفنون أو العلوم بل المسألة هنا مسألة صفات ومقومات أساسية لها أثرها الجوهرى فى الحياة العائلية وفى المجتمع . وهل من انسان يجهل أن الطبيعة اذا كبتت لابد أن تعود الى الظهور ؟ ... » وقد طلب البابا بيوس الثانى عشر الى المسئولين فى رسالة الميلاد التى أذاعها عام ١٩٤٢ الحرص على ألا تبعد أماكن العمل عن مساكن العمال حتى لا يصبح رب العائلة ومربى الأولاد وكأنه « غريب فى بيته » ، وكتب الكردينال سوهارد يشير بتفضيل المدن الصغيرة أو المتوسطة لسكنى العمال « حيث تكون المساكن أوسع وأرحب ويكون العمل أقل ارهاقا والحياة العائلية أسلم » .

واقترح البابا بيوس الثانى عشر عام ١٩٤١ التفكير فى تخطيط سياسة للاسكان الشعبى قائلا « ألا يجدر قبل كل شيء التفكير فى المكان الحيوى اللازم للأسرة وفى تحرير هذه الأسرة من القيود التى تفرضها عليها ظروف حياة لا تسمح لها حتى بتخيل تملكها منزلا ؟؟ » وللكنيسة الكاثوليكية رأيها الذائع بالنسبة لتحديد النسل « فليس الأمر مجرد كثافة السكان ولكنه مرتبط ارتباطا وثيقا بالانتاج والتوزيع والتربية والصحة والمشروعات الاجتماعية أى بالعمل والادراك والايثار وذلك دون انكار أهمية عنصر الموارد الطبيعية المتوفرة فعلا فى كل بلد ... والكنيسة بسبب ثقتها فى امكانيات الانسان وفى الموارد التى كلف الخالق عبقرية الانسان باكتشافها واستغلالها متفائلة بالنسبة لمستقبل البشرية تفاؤلا يقوم على العمل الجدى والادراك والمروءة ... » .

ولقد ظاهرت الكنيسة حقوق العمال النقابية ، فلقد صرح البابا بيوس الحادى عشر « كما أن الذين يرتبطون بروابط الجوار ينتهون الى

تكوين جماعات خاصة فيما بينهم ، كذلك تدفع الطبيعة الذين يمارسون مهنة واحدة أيا كانت الى انشاء منظمات جماعية لهم لدرجة أن الكثيرين يعتبرون هذه المنظمات على أنها أعضـــاء طبيعية للمجتمع ان لم تكن جوهرية » وأصدر الأساقفة الأسبانيون فى نوفمبر عام ١٩٥٩ وثيقة جماعية قرروا فيها تأييد الكنيسة للمنظمات النقابية بشرط أن تهدف الى تحقيق العدالة والصالح العام وفى يونيو ١٩٥٧ ألقى البابا بيوس الثانى عشر خطابا كان مما جاء فيه « اذا درسنا مقومات التسلسل الفنى (للآلية) ، فلابد لنا أن ندرك أنه يتطلب رأس مال له قدره وموجودات مالية طويلة الأمد ، فضـــلا عن ضرورة توفر عدد ضخم من الاخصائيين القادرين على وضع برامج الانتاج المعقدة والاشراف الدقيق على تنفيذها ، ثم لابد أخيرا من تأمين أسواق التصريف اللازمة » ومن هنا استطرد البابا الى تقديم رأيه فى خطط التنمية وفى أزمات البطالة فقال « ان الشعب غير الغنى الذى يواجه التزامات فورية ملحة فى مختلف ميادين الخدمات كالتعليم ووسائل النقل والمواصلات والاصلاح الزراعى واقامة المساكن لابد له من الاكتفاء الذاتى فى نطاق رؤس أموال محدودة ، ومثل هذا الشعب لا يجوز له بأى حال أن يحيا حياة تفوق امكانياته كما يحدث غالبا عندما تسيطر جاذبية التقدم الفنى على المصروفات والاستثمارات.. وهناك مشكلة (البطالة الفنية) التى قد تظهر غالبا حسب الظروف مع ادخال (الآلية) ، ويعتقد البعض أن هذا الخطر لا يطول أمده لأن أبواب امكانيات أخرى للعمل تفتح مع مرور الزمن لأســـباب عدة منها اقامة صناعات جديدة واعادة تأهيل الأيدى العاملة لأعمال أخرى وخفض عدد ساعات العمل مع الاحتفاظ بنفس الاجور وتوسيع نطاق العمل ليلا ونهارا من أجل الربح ، ولكن لابد مع ذلك من اعتبار الضرر الذى قد يصيب بعض البلاد من جراء اتساع فجوة بطالة الفنيين ولو لفترة وجيزة ، ولا يجوز التضحية بجيل بأكمله بحجة ما قد تتمتع به أجيال لاحقة من امتيازات » وقد دعا البابا بيوس الثانى عشر أيضا الى الاهتمام بالزراعة والعاملين فيها وقال « ليس هناك خطأ أكثر ضررا من خطأ الاعتقاد بأن (المزارع) لا تحتاج الى تكوين جدى خاص ، اذ أن محبة الارض على ضرورتها لا تكفى » وصرح البابا يوحنا الثالث والعشرون « على كل انسان أولا وعلى السلطات العامة خاصة بذل الجهد اللازم حتى تتوفر لدى البيئات الريفية المرافق الاساسية من طرق ووسائل نقل ومواصلات ومياه صالحة للشرب ومساكن وعلاج طبى وتعليم ابتدائى وتربية مهنية وخدمات مدنية ووسائل لشغل أوقات الفراغ وكل مايقتضيه البيت الريفى من

أثاث ووسائل حديثة لتأمين الراحة ، فاذا انعدمت هذه الخدمات والمرافق وهى العناصر الجوهرية لتحقيق مستوى معقول للمعيشة فى البيئات القروية استحال كل نمو اقتصادى وكل تقدم اجتماعى ونجم خطر متزايد بهجرة القرويين الى المدن » وقد عرض البابا يوحنا الثالث والعشرون لنظم الضرائب والقروض والتامينات الاجتماعية وتثبيت الأسعار وانماء الصناعات التحويلية وتطوير المنشآت ، وترتكز توصياته فى هذا الصدد الى فكرة رئيسية « ان ايرادات القطاع الزراعى تتكون ببطء وتحدق بها احتمالات الخطر أثناء تكوينها » • وبالنسبة **لنظام التملك** كتب البابا بيوس الحادى عشر سنة ١٩٣١ فى رسالته « ان نظام الملكية أسوة بكافة الانظمة الاجتماعية ليس ثابتا جامدا والتاريخ يشهد بذلك ، فكم من شكل اتخذته الملكية منذ القالب البدائى الى النظم التى كان معمولا بها فى عهد الآباء البطاركة وفى عصور الاقطاع والممالك حتى المفاهيم المتعددة لما يحققه العالم الحديث فى هذا المضمار » • ونص المذهب التقليدى للكنيسة — كما يقول باحث كاثوليكى — على انه فى حالات الضرورة القصوى « عندما تكون الحياة البشرية مهددة — فى حالة نقص الغذاء أو الملبس أو المسكن مثلا — يتوارى حق الملكية أمام حق أعظم وأسمى هو حق الغير فى الحياة» • وأشار البابا يوحنا الثالث والعشرون الى تزايد عدد « الذين ينظرون الى مستقبلهم بطمأنينة نتيجة انتمائهم الى منظمات **التأمين الاجتماعى** وهى الطمأنينة التى كان مصدرها فى الماضى التملك مهما تضاءل الشىء المملوك ••• » وبالنسبة لتدخل الدولة فى المجالات الاقتصادية ونشاطها الاقتصادى لاحظ البابا أن سير التاريخ يظهر بوضوع يتزايد يوما بعد يوم ان الحياة المشتركة المنظمة الخصبة ليست ممكنة الا بمساهمة الافراد والسلطات العامة على السواء فى المجال الاقتصادى وهى مساهمة تحدث فى وقت واحد وتتحقق على أساس من التفاهم وفى حدود تتماشى ومقتضيات المصلحة المشتركة » • واستنكر البابوات — وبخاصة بيوس الحادى عشر — تسلط قوى (الرأسمالية) ، التى يمثلها فى الاطار القومى أو الدولى على السواء قلة من الافراد ليسوا دائما من ملاك الثروات الضخمة ولكنهم يستطيعون أن يتحكموا ويركزوا تحت أيديهم رءوس أموال خيالية وينتهى بهم المطاف الى فرض سيطرتهم على الحركة المالية لدول بأسرها بل على الاسواق العالمية •

ومن هنا جاءت كلمات البابا بيوس الحادى عشر تصف هؤلاء بانهم « يوزعون الدم على المنظمة الاقتصادية التى يتحكمون فى حياتها لدرجة لا يعود معها أحد يستطيع أن يتنفس بغير رضاهم » ويصل البابا الى

القول « ان هناك أنواعا من الاموال يمكن أن تقول عنها بحق انها ينبغى أن تئول اجباريا للمجموع ما دامت مصدرا لقوة اقتصادية لا يمكن معها تركها بين أيدى الأفراد دون أن تعرض المصلحة العامة للخطر » . ويعلق باحث كاثوليكى على هذا المبدأ فيراه ينطبق بوضوح على انتاج الاسلحة ، « كما انه من الطبيعي بالنسبة لكل مرفق عام سبق أن منح امتيازه لشركة خاصة أن يئول الى الدولة اذا اقتضت الظروف ذلك » . وقد طالب البابا بيوس الثانى عشر ب « تعبئة الجهود لتخفيض كمية الاموال التى يكدسها الرأسماليون بين أيديهم الى حدود العدالة مستقبلا ، حتى تبعث الرخاء بدرجة كافية فى صفوف العمال» وأعلن البابا يوحنا الثالث والعشرون انه « يجب بذل الاهتمام والجهد من أجل منع تزايد الاختلال فى الموازين الاقتصادية الاجتماعية ، ويجب العمل على الحد من هذا الاختلال بقدر المستطاع » وفى هذا الصدد دعا البابا الى « وجوب الاسراع فى نشر الملكيات الصغيرة — فى قطاعات الزراعة والصناعة والتجارة — ولا سيما فى عصرنا الحاضر حيث يتزايد عدد البلدان النامية اقتصاديا تزايدا سريعا . وباستخدام الوسائل الفعالة بحذر لن يكون من العسير أن تستثار روح المبادرة وأن توضع قواعد سياسية اجتماعية واقتصادية تشجع وتيسر التوسع فى نشر الملكية الخاصة للاموال الثابتة مثل مسكن أو قطعة أرض أو أدوات صناعة يدوية أو أجهزة استغلال عقار للاسرة أو بعض أسهم فى مؤسسات متوسطة أو كبيرة ، وقد أجرت بعض البلدان المتقدمة اقتصاديا واجتماعيا هذه التجربة بنجاح » . وعلى الرغم من اتجاه العصر نحو تكوين المؤسسات الكبيرة وتعميم الملكية العامة فان الكنيسة تحبذ بصفة خاصة المشروعات الزراعية والحرف اليدوية ذات الطابع العائلى ، وترى الكنيسة انه يمكن التوفيق بين ذلك وبين روح العصر عن طريق الجمعيات التعاونية حتى لايحدث تصادم مع حركة التاريخ على أن يحصل المزارعون وذوو الحرف اليدوية على تكوين فنى وانسانى يؤهلهم لمجاراة التقدم العلمى والفنى وبالنسبة لروح المبادرة فى النشاط الاقتصادى ومبدأ تدخل الدولة يقرر البابا يوحنا الثالث والعشرون انه « حيث تنعدم روح المبادرة تتباطأ حياة القطاعات الاقتصادية اذ تتركز بوجه خاص فى انتاج سلع استهلاكية وتقديم خدمات دون الاحتياجات المادية الاخرى والمقتضيات الروحية .... ولكن حيث ينعدم تدخل الدولة الضرورى تظهر فوضى لا علاج لها وينجم استغلال الأقوياء للضعفاء وهى عناصر تنمو فى كل أرض وفى كل زمن كما ينمو الزوان فى الحنطة » . والبابا لايفوته أن يشير الى وجوب تخطيط التعاون الاقتصادى على مستوى

عالمي يقول « ان التقدم العلمي والفني في كافة ميادين الحياة الاجتماعية قد ضاعف العلاقات بين الامم ووثقها ، وأصبحت المجتمعات السياسية اذا أخذت على انفراد عاجزة عن حل أهم مشكلاتها بنفسها وفي حدود قوتها مهما امتازت بثقافة عالية واسعة الانتشار او بكثرة عدد رعاياها وأوجه نشاطهم أو بفاعلية أنظمتها الاقتصادية أو باتساع أراضيها ومواردها • ان كل أمة تنمو باسهامها في تنمية الامم الاخرى وبالتالي فلا بد أن يسود بينها التفاهم والتعاون • وأهم مشـــكلات عصرنا هي علاقة المجتمعات السياسية المتقدمة اقتصاديا بالبلدان النامية ، فالاولى تتمتع بمستوى عال للمعيشة في حين تعاني الاخرى من حرمان يكون في الغالب خطرا • ـ والتضامن الذي يربط بين البشر جميعا بحيث يكونون أسرة واحدة يحتم على الامم التي توفرت لها سبل الرخاء ألا تقف موقفا سلبيا ازاء البلدان التي تكافح الفقر والجوع ولن يتحقق سلام وطيد الاركان طيب الثمار بين الدول اذا اتسعت ثغرة الفوارق بين مستوياتها الاقتصادية والاجتماعية• ولا نستطيع أن نتجـاهل ان التعـاون بين المجتمعات السياسية المتقدمة والبلدان النامية في المجالات العلمية والفنية الاقتصادية يحتاج الى توسع غير الذي نشهده اليوم • وان المساعدات الاولية السريعة لا تكفي لازالة أسباب الفقر والجوع التي تشيع في بلدان كثيرة ولا حتى لتخفيف حدتها، فان مصدرها الاصيل هو قبــل كل شيء النظام الاقتصـادي البدائي أو التخلف ، فلا بد من منظمات تعاونية توفر للسكان التأهيل والخبرة في مجال المهنة والاتقــان الفني والعلمي وتضع هذه المنظمــات تحت تصرف الشعوب رءوس الاموال الضرورية لدفع النمو الاقتصـادي وفقا للأصول والاساليب الحديثة • ان زيادة الانتاج واتقانه ضرورة لا غنى عنها ، على أن نوزع الثروة المنتجة توزيعا عادلا بين كافة أعضــاء الجماعة الانسانية بحكم الضرورة والعدالة • فينبغي الحرص على أن يسير الانماء الاقتصادي والتقدم الاجتماعي جنبا الى جنب ، وأن يستوعب الانماء بقدر المستطاع القطاعات الزراعية والصناعية والمرافق بصورة متناسبة » • ولا يغفــل البابا يوحنا الثالث والعشرون أن يحذر في مجـال التعاون الاقتصــادي الدولي من استهداف البلدان المتقدمة تحقيق امتيازات سياسية فان ذلك لا يعدو أن يكون « ارساء لاستعمار من نوع جديد مقنع لكنه لايقل تسلطا عن الاستعمار الذي تخلصت من نيره أخيراً مجتمعات سياسية عديدة ، وسيترتب على هذا الاستعمار الجديد اضطراب في العلائق الدولية وخطر على السلام العالمي(١) » •

---

(١) موريس يكاريني . الكنيسة أمام المشاكل الاجتماعية ـ ترجمة أنطون مطر •

واذ كان هذا هو موقف القيادة المسيحية الروحية العليا من مشكلات العصر فى مختلف المجالات ، فمن الطبيعى أن يسير كل مسيحى على هذا الهدى فى مجتمعه الذى يعيش فيه ، وبخاصة اذا كان كاثوليكيا !!

وهكذا تعدد النشاط المسيحى فى مجالات : التعليم والتربية والصحة والبر ورعاية الصغار والشباب والنساء والتوجيه لشغل أوقات الفراغ ، والادب والفن والصحافة والنشر ، بل والسياسة أيضا فى معناها المباشر الصريح !!

ليس هناك دولة فى أمريكا اللاتينية لا توجد فيها جامعة كاثوليكية على الاقل ، وفى البرازيل ٦ جامعات • وأنشأ الكاثوليك هناك أحزابا ديمقراطية مسيحية تعمل ـ كما يقول كتاب كاثوليكى ـ على رفع مستوى المعيشة ومناهضة الدكتاتورية وبخاصة عندما يحاول دعاتها الاحتماء وراء تسميات كاثوليكية ، كما تعمل الاحزاب الديمقراطية المسيحية على مقاومة الاستعمار فى شتى صوره •

ويقاوم الكاثوليك فى الولايات المتحدة على حد قول المصدر نفسه ـ التعصب اللونى ، حتى انهم يصلون الى توقيع عقوبة الحرمان على البيض الذين يرفضون كاهنا اسود واعترف لاهوتى بروتستنتى بتفوق الكاثوليك فى هذا المضمار كذلك يقاوم الكاثوليك أية نزعة للعزلة فى الولايات المتحدة •

وفى أوربا نجد الكاثوليك يشاركون فى الحكم فى النمسا وألمانيا (الحزب الديمقراطى المسيحى) وهولندا (الحزب الشعبى الكاثوليكى) • ومن بين اللاجئين الى ألمانيا الغربية ٦ مليون كاثوليكى ، هذا عن أوربا الجرمانية أما أوربا اللاتينية (فرنسا ، بلجيكا ، ايطاليا ، أسبانيا ، البرتغال) فيمثل فيها الكاثوليك أغلبية السكان ويشارك الحزب الديمقراطى المسيحى فى ايطاليا والحزب الاشتراكى المسيحى فى بلجيكا فى أعباء الحكم • وللكاثوليك رأيهم الصريح فى أن يكون لهم حق انشاء مدارسهم الخاصة التى تعان من ميزانية الدولة ، « **فما دامت الوحدة السياسية لا يمكن أن تقوم على وحدة العقائد الدينية المتعددة حسب الواقع ، فانه يجب البحث عن تحقيقها فى صورة من الايمان الدنيوى** الذى يتضمن معتقدات عملية محضة (كحق الحياة والعمل وضمان حد أدنى للأجر وكفالة المعاونة الاجتماعية وحق تولى الوظائف العامة والحرية والمساواة ••• الخ)

ويضيف الكاثوليك **ان تعداد الحقوق والواجبات دون تعميق دينى أو فلسفى لا يوجد الا اطارا فارغا** ، وهذا التأصيل الفكرى أو الروحى ليس للدولة أن تفرضها من لدنها مادامت فى خدمة الخير العام بالنسبة لجميع المواطنين ومن ثم **تقدمها العائلات الروحية التى يتكون منها جسم الامة السياسى التى تتفق على الحقوق والواجبات لكن ا لا تتفق على مبرراتها ، وعلى هذا الايمان المدنى المشترك الذى تبرره مبادىء دينية وأخلاقية متباينة تقوم حرية التعليم والتربيةفى أساسها وتتضح حدودها.** ففيما عدا مقررات مشتركة لدراسة اللغة الوطنية والتربية الوطنية والمبادىء الاساسية فى التاريخ والجغرافيا ــ وهى المقررات التى تعتبر أصولا لتكوين عقلية مشتركة ومن الطبيعى أن تشرف عليها الدولة فيما عدا هذه المقررات المشتركة يؤدى تنوع المدارس مع التثبت من كفايتها ومستواها التربوى والتعليمى والصحى الى زيادة الثقافة والتربية فى البلاد ثراء • وكثيرا ما كان مرجع أساليب تربوية متقدمة فى بلدان العالم الى مبتكرات معاهد التعليم الحر ، ولما كان الكاثوليك يدفعون ضرائب بصفتهم مواطنين أسوة بالكافة ، فان الدولة اذ تحبس عن مدارسهم الحرة المعونة اللازمة تجبر المواطنين الذين يختارونها على الدفع مرتين : مرة عن أولادهم خاصة ومرة بشكل ضرائب عن أولاد الآخرين الذين يلتحقون بالمدارس الحكومية ! وقد استقر قبول الدولة لاعانة هذه المدارس الكاثوليكية الحرة فى أوربا الغربية • على ان المسيحيين لا يغفلون عن أن وجود (المدرسة المسيحية) شىء وكفالة (التربية المسيحية) فى شتى مدارس الدولة وفى شتى مجالات المجتمع شىء آخر وقد أجريت تجارب لكهنة عمال ومرسلين الى القرى ومرشدين فى العمل فضلا عن جمعيات العلمانيين المتخصصة حسب البيئات والمنظمات النقابية المسيحية » •• وتحاول الاحزاب الديمقراطية المسيحية الاسهام فى كفالة حرية التعلم وحل أزمة البطالة ورفع مستوى العمال بتحديد الحد الادنى للاجور وتشجيع ابرام عقود العمل الجماعية والمعاونة فى تقدم جماعات الفلاحين باعادة توزيع الاراضى وانشاء صناديق الاعانة والاعارة وتشجيع الانماء الاقتصادى وتعجيل الاندماج الاوربى وتحرير البلدان غير المستقلة •

وتشع الكاثوليكية اشعاعا عالميا فى مجالات الفكر والفن : « يكفينا أن نذكر الاسماء اللامعة الفرنسية بيجى وبلوا ولاجرانج وسير تيلانج وتيار دى شاردين وبرنانوس ومونييه وردولت وكلوديل ومارتيان وجيلسون ومورياك ودانيال روبس ودون بروجلى وليبرتس رينجيه ••• وفى مجال المؤسسات الجامعية هذه روما بجامعاتها الجريجورية والملائكية

وغيرها ولوفان حيث تختلط المدينة بالجـــامعة وميـلانو وجامعة القلب الاقدس فيهـا ، وباريس وليون وليـل سنراسبورج ونيميـج وكبريات الجامعات الالمـانية ٠٠٠ وهذه دور النشر الـكبرى : هردر فى فريبورج بريسجو ، ويسكلى فى بروفير فى بلجيـكا وفرنسا ولا بون بريس فى فرنسا (وتصدر مجلة لى بليران التى تطبع حوالى ٦٠٠ر٠٠٠ نسخة غير القصص والتراجم والكتب المبسطة) وكاسترمان فى بلجيكا ، ونشرات دار سيرف وبلود وجاى ، ولامور تشيليانا فى ايطاليا ٠٠٠ ثم المجلات المتخصصة والعـــامة : الحضارة الـكاثوليكية بالايطـالية (لا تشيفلتا كاتوليكا) ، البـحوث (اتيودا) ، الحياة الروحية ، مراسلات هردر ، وورت ، دواهريت ، نوفا دفتيرا (فى فريبورج بســويسرا) ٠٠٠ ثم المنظمات الاجتماعية : مثل الاسابيع الاجتماعية فى فرنسا التى امتدت الى أكثر من ٢٠ دولة والاقتصاد والانسانية والحركة الشعبية فى فرنسا٠٠٠ ودراســـات البولاندست وقاموس هردر وقاموس اللاهوت الـكاثوليكى وتاريخ الكنيسة لفليش ومارتان والكتاب المقدس من القدس ٠٠٠ الخ» ٠

والكاثوليك صرحاء فى حديثهم عن محـاولاتهم لسيطرة الدين على شتى مجالات الحياة « فالانسان بسيطرته على المادة ــ أى بفنه الصناعى ونشاطه وعمله ــ يرمى الى أن ينتزع من الشيطان عالمه ، أى الى أن ينشر فى كل مكان الحرية والعدالة والمحبة والجمال ودعوته على الارض تقوم على أن يعيد بناء الانسجام فى العالم ليس فقط بين الآدميين بل خلال الطبيعة بأسرها ، بمد طابع الفكر الى أن يصل الى مملكة الحيوان والى المواد غير المتحركة ٠ فالعالم يحتاج الى الانسان حتى يقوم بهذا العمل القائم على الذكاء ــ ولذلك فان العـامل ورجل الفن يحققـان أعظم تحقيق صورة (الله الخالق) ٠٠٠ **فالعامل يعيد بذلك تكوين الطبيعة بتضمينها كلها فى تقدمة كهنوتية الى الله** ، وتلك التقدمة لا تكون مكتملة ما لم يأخذها على عاتقه ذلك الذى أزال الهوة بين الانســـان وخالقه السـيد المسـيح الانسان الاله ٠ **وسر الانسان الاله كما يظهر هو محور التفكير الكاثوليكى فى أيامنا وهو الذى سيسمح بتوجيه حركة الاشتراكية فى العالم توجيها مسيحيا** ويحــول دون تحقيقها جو البغض والاستعباد الذى يســود المجتمعات الخاضعة للنظـام الديكتاتورى فالمطلوب التوفيق بين أوسع حرية للانسان وبين ارتباطه العميق بخدمة اخوته ٠ وحتى يرفع المسيح الانسان نحو الله ، يسبغ عليه كرامة تتجـاوز كل نظام زمنى أرضى ، ولكن المســـيح فى الوقت نفسه نظرا لانه يلبس كل ما فى الانسان من طبيعة ومن انسانية ــ يصبح نواة الاندماج الاكثر عملا فى التاريخ ٠٠٠

ان معنى التاريخ ، وسيطرة الانسان على المادة ، وتوحيد الانسانية من جديد ـ هذه المميزات الثلاث قد يخشى أن يتركز التفكير العصرى فيها ، وأن يتوقف عندها التفكير المسيحى على ما فيه من الخصب والانتاج العجيب » ٠

وكان البابا الراحل بيوس الثانى عشر يوجه نشاط العلمانيين المسيحيين فى شتى المجالات العالمية ، وهكذا نشطت ٤٠ منظمة دولية كاثوليكية مثل الاتحاد العالمى للمنظمات النسائية الكاثوليكية الذى يضم ٣٦ مليون امرأة من ٧٠ دولة ، والشبيبة العاملة الكاثوليكية الدولية التى تضم أكثر من ٢ مليون عامل من ٩٠ دولة ، والاتحاد الدولى لهيئة الشابات الكاثوليكية الذى يجمع ١٠ مليون عضو ويشع نشاطه فى حوالى ١٠٠ دولة الى جانب نشاط المكتب الكاثوليكى الدولى للطفولة فى ٤٢دولة وحركة باكس كريستى (سلام المسيح) التى تعمل من أجل السلام والتربية الدولية ، وحركة باكس رومانا التى تضم مفكرين من ٣٩ دولة وطلبة جامعيين من ٧٩ دولة والمكتب الكاثوليكى الدولى للسينما الذى يضم ٣٦ مركزا وطنيا فى أنحاء العالم ٠ وتثبت المنظمات الدولية الكاثوليكية فى مجال النشاط الكاثوليكى بصفة خاصة أو فى مجال تحقيق أهداف معينة كمكافحة الخمور أو حماية الشباب أو معونة المهاجرين أو القيام بحركات فكرية أو تربوية ٠ وتتمتع تسعة من هذه المنظمات بالعضوية الاستشارية للمجلس الاقتصادى والاجتماعى لهيئة الامم المتحدة ولتسعة أخرى مثل هذه العضوية فى اليونسكو ولأربعة عضوية المؤسسة الدولية للامم المتحدة لمعونة الطفولة واثنتان منها عضوان استشاريان فى منظمة الامم المتحدة للأغذية والزراعة وواحدة لها صفة العضوية الاستشارية فى المنظمة الدولية للصحة ٠ وهذه الصفة تخول للمنظمات الكاثوليكية حق ابداء الرأى فى ما يطرح للبحث أمام هذه المنظمات الدولية ٠ وقد اتفقت ٣٣ منظمة دولية كاثوليكية على تكوين (هيئة جامعة) لتحقيق التعاون فى التخطيط والتنفيذ ٠ وقد نسقت الهيئة (حركة المفكرين) التى تنظم (دراسات تكوينية) على مستوى دولى أو اقليمى لفرع الطلبة الجامعيين التابعين لها (مثل حلقات باوراس وجنيف وسنغافورة وبوستون وأكرا ومانيلا) ٠ كما نسقت كذلك (حركة الشبيبة العاملة الدولية) التى أوفدت منذ عام ١٩٥٧ ستا وخمسين من القادة الاوربيين الى افريقية وآسيا لتكوين القادة المحليين ٠ وفى افريقية الاستوائية أنشئت ١٠٠ مجموعة فى بحر ٤ سنوات ٠ وفى خلال صيف ١٩٥٩ تقابل فى فرنسا ١٨٠ شابا حضروا من أوربا وافريقية وأمريكا

الجنوبية والشرق الاوسط • وقد انشىء فى فرنسا مؤخرا (مركز دولى لتكوين القادة الاجانب) • وضم المؤتمر العالمى الكبير للشبيبة العاملة المسيحية فى روما فى أغسطس ١٩٥٧ أكثر من ٣٠٠ر٠٠٠ عامل حضروا من ٨٠ دولة مختلفة • ونظم المؤتمر العالمى الاول نشاط العلمانيين سنة ١٩٥١ والثانى سنة ١٩٥٧ وانشىء للمؤتمر مكتب دائم ، وكان يديره فيثورينو فيرونيزى الذى غدا المدير العام لهيئة اليونسكو • وقد أسهم المكتب فى تنظيم عدة مؤتمرات اقليمية للنشاط الكاثوليكى وبخاصة مؤتمرى اوغندا ومانيلا(١) •

***

ولعل من الطريف أن يكون (الفاتيكان) اليوم من أعظم القوى الاقتصادية المعاصرة بجانب نفوذه الروحى وثقله السياسى • وطبقا لاحصاءات هيئة الامم المتحدة ، يملك الفاتيكان ثروة تبلغ مائة ألف مليون دولار ويأتى فى المرتبة الثالثة بعد الولايات المتحدة وروسيا ، وقد بنى الاحصاء على الظاهر من ممتلكات الفاتيكان ونشاطه مما قد لا يصور الحقيقة الكاملة التى لا يعرفها سوى ستة أشخاص : البابا والكردينال القائم على وزارة الدولة وأربعة كرادلة يؤلفون اللجنة التى تدير هذه الممتلكات • ويشرف الفاتيكان على مليون من رجال الدين الكاثوليك موزعين على (الابروشيات) الى جانب مئات الالوف من المستشفيات ودور الأيتام والعجزة والشيوخ والامراض المستعصية والمدارس من دور الحضانة الى ما بعد الجامعة ، ومنها معاهد عليا للتخصص والابحاث فى مختلف مجالات العلم من لاهوت وفلك وفلسفة وذرة وكيمياء وطبيعة وتربية وطب وغيرها ، الى جانب الجامعات لتخريج الرهبان والمعاهد لاعداد المبشرين والأديرة للمنقطعين للعبادة ، وكلها تحكم وتوجه وتدار من روما «بواسطة أكبر وأدق منظمة فى عصرنا الحديث » ـ على حد تعبير الدكتور الطاهر أحمد مكى •

واذا كانت كل (أبروشية) ينفق عليها من دخل أتباعها ، وهى تتولى المستشفيات والمعاهد والاديرة الواقعة فى دائرة اختصاصها ، الا أن الأبروشيات بالنسبة الى الفاتيكان ليست سوى أقاليم داخل دولة واسعة شاسعة ، ولا بد لأية حكومة مركزية من التدخل لاصلاح مالية أى اقليم اذا اختلت • وبعض القطاعات فى الكنيسة الكاثوليكية تتبع روما مباشرة وتكلف باهظا من النفقات مثل البعثات التبشيرية التى تتبع « ادارة نشر

---

(١) موريس بكارينى ـ الحياة الكاثوليكية فى عالمنا الحاضر ـ ترجمة بطرس كساب •

العقيدة الكاثوليكية » وقد اتسع نشاطها فى ربع القرن الاخير وتضاعف بعد الحرب العالمية الثانية لأجل مقاومة الشيوعية ، ومن هذه الاموال ما ينفق لمعاونة أية هيئة فى أية دولة وأيا كانت عقيدتها ما دامت تعمل على مقاومة الشيوعية . كما يضطلع الفاتيكان بالانفاق على مبانيه وموظفيه وحرسه فضلا عن رجال الدين « الذين يعيشون على مستوى أهميتهم فى العالم » . والى جانب مصارف الانفاق هناك موارد الدخل السنوى لاستثمارات الفاتيكان ، وتقدر الميزانية الرسمية بما يتجاوز بضع مئات من ملايين الدولارات يضاف اليها خمسون مليون دولار تقريبا فى كل سنة يوضع تحت تصرف البابا للنفقات الطارئة ، ولا تعيش الفاتيكان على الضرائب بل على المنح والهدايا ، ثم على ايراد دار (نشر الفاتيكان) التى تحتكر طبع الكتب الدينية بمختلف اللغات ، وايراد المتاحف والمقابر والآثار ذات الاهمية الدينية الواقعة تحت اشراف الكنيسة . ويصدر الفاتيكان عملة وطوابع تتداول داخل حدوده ، ويتلقى أرباح الاستثمارات التى يستغل فيها رءوس أمواله فى مختلف أنحاء العالم . ففى ايطاليا مثلا يعود الفضل الى أموال الفاتيكان فى قيام شركة (العقارات) الضخمة وشركة السكك الحديدية لجنوبى ايطاليا ، وشركة (ادرياتيك) للملاحة فى البندقية الى جانب بيوت مالية أخرى تعد من أقوى وأضخم رءوس الاموال فى ايطاليا . وفى سويسرا يملك الفاتيكان الشركة الايطالية السويسرية للاشغال العامة وشركة الكهرباء فى زيورخ ، بينما يملك فى هولندا (الشركة الهولندية للأزوت) ، وله فى فرنسا (البنك الايطالى الفرنسى للقروض) وفروعه فى كل أمريكا اللاتينية ، ويملك كذلك (شركة نسيج الشمال) و (بنك جاليزين مينان) و (شركة المبانى الخاصة) كذلك يملك الفاتيكان مطبعة وصحيفة (الاسبوع الاجتماعى) . كما يملك هناك مجموعة طيبة من أسهم (بنك مورجان) ، (انترناشيونال بوركومبانى) فضلا عن شركات أخرى نمسوية وكندية وانجليزية وألمانية. وفى أسبانيا يملك الفاتيكان أراضى شاسعة معفى معظمها من الضرائب ومعظم أسهم (بنك بسكايا) وجزءا كبيرا من صناعة النسيج فى برشلونة والحديد فى بلباو . وفى أمريكا اللاتينية يسيطر بالتعاون مع رأس المال الوافد من الولايات المتحدة على أغلب المصانع والبنوك والشركات الكبرى الى جانب أراض واسعة معفاة من الضرائب . ولكن هذا النشاط الاقتصادى للفاتيكان لم يمتد الى المكسيك بعد ثورتها ١٩١١ ولا الى كوبا بعد ثورة كاسترو ١٩٥٩ . وتدير أموال الفاتيكان ٣ منظمات : (ادارة ممتلكات الفاتيكان) وقد أنشأها البابا ليو الثالث عشر عام ١٨٧٨ لادارة

الممتلكات التى تنازلت عنها ايطاليا للكنيسة عام ١٨٧٠ فضلا عن ممتلكات الكنيسة بالخارج وأملاك الكنائس من أرض ومنقولات (سجاد ، تحف ، أثاث ...) . وفى عام ١٩٢٩ أنشأ البابا بيوس الحادى عشر (الادارة الخاصة للفاتيكان) لتدير الملايين التى حصل عليها الفاتيكان من الحكومة الايطالية بمقتضى معاهدة لوزان تعويضا عما تعرضت له الكنيسة من استيلاء على ممتلكاتها بعد ٢٠ سبتمبر ١٨٧٠م . وهناك أيضا (منظمة الاعمال الدينية) وهى بنك كامل وقد أنشأها بيوس الثانى عشر سنة ١٩٤٧ ولها شخصية معنوية وقانونية تميزها عن بقية أقسام الفاتيكان وتضطلع بادارة الاموال المخصصة للمشروعات الدينية واليها تحول الاعتمادات المرصودة للدفاع عن الكاثوليكية أو نشرها ويمكن لأى شخص أن يفتح حسابا فى هذا البنك أو فرعه فى روما بشرط أن يوافق على ترك نسبة من أمواله تخصص لنشر الكاثوليكية . وكل العاملين فى هذه المنظمة كسائر منظمات الكنيسة من رجال الدين ، ويعتمد الفاتيكان فى عملياته المالية فى الخارج على (بنك مورجان) بنيويورك و (بنك هامبر) فى لندن و (بنك الكريدى) فى زيورخ . ويملك الفاتيكان رصيدا كبيرا من الذهب يحتفظ به فى بنوك متعددة فى كندا والولايات المتحدة أهمها بنك ريزرف(١) .

---

(١) دكتور الطاهر مكى : الفاتيكان قوة اقتصادية فى العالم - الاهرام الاقتصادى ع ٢٢٩ أول مارس ١٩٦٥

الملكوت المنشود

هذه هي تعاليم المسيحية ازاء المرأة والطفل ، ازاء العبيد والفقراء.

فكيف ينظر المفكرون اليوم في عصر الديمقراطية والاشتراكية الى هذه التعاليم ؟؟

« قد فهم الكثيرون ملكوت الله ، بأنه (طوبى utopia) جماعية ، وحسبوا المسيح ثائرا اجتماعيا ! وانا لنرى في الاناجيل بعض الشواهد التي تؤيد هذا الرأي ... ويبدو ان الرسل كانوا يفسرون الملكوت بأنه انقلاب ثوري للعلاقات القائمة بين الاغنياء والفقراء ... (وجميع الذين آمنوا كانوا معا ، وكان عندهم كل شيء مشتركا) ... وكانت التهمة التي أدانت عيسى انه (ملك اليهود) !!...

لكن في وسع المحافظ أن يجد في العهد الجديد شواهد تؤيد رأيه! منها أن متى ظل عاملا للرومان ، ومنها أن المسيح لم يطعن على الحكومة المدنية ، ولم يكن له ـ فيما نعلم ـ نصيب في الحركة اليهودية للحرية القومية ، وكان ينصح بالكياسة البعيدة أشد البعدعن الثورة السياسية!! ولسنا نجد في قصة الرجل الذي (دعا عبيده) قبل سفره (وسلمه أمواله) أي شكوى من الربا أو الاسترقاق !! ويبدو انه يقر ما فعله العبد الذي استثمر العشر الميقات فصارت عشرين ، ولا يقر عمل العبد الذي حبس الواحدة فلم يستثمرها ! وينطق السيد : (ان كل من له يعطى فيزداد ، ومن ليس له فالذي عنده يؤخذ منه) ـ وهي خير ما تلخص به أعمال السوق التجارية ! بل خير خلاصة لتاريخ العالم !! وفي قصة رمزية أخرى نرى العمال غاضبين على صاحب العمل الذي يأجر عن عمل ساعة بقدر الذين كدحوا طول اليوم ، فينطق المسيح صاحب العمل : (أو ما يحل لي أن أفعل ما أريد بمالي !) . ويبدو انه لم يفكر في القضاء على الفقر ، لان الفقراء كانوا دائما معه !!

ويرى أن يخدم العبد سيده على خير وجه ، وهو لا يرى من شأنه

أن يهاجم النظم الاقتصادية أو السياسية القائمة فى وقته ، بل يهاجم ذوى النفوس الثائرة المتحمسة الذين يغتصبون ملكوت السموات !!؟

أما الثورة التي فكر فيها فاعمق وأبعد أثرا ، فهي ثورة اذا لم تحدث كانت كل الاصلاحات سطحية سريعة الزوال ! فاذا استطاع أن يطهر قلوب الناس من الأنانية والقسوة والفجور فان (الطوبى) تحل ، ولا يبقى أثر لتلك النظم التي تنشأ من شره الانسان وعنفه ، وما تستتبعه الحاجة للقوانين ! وهذا — اذ تم — أعمق الثورات ، اذا قيست اليه جميعا كانت تغيرا موقوتا يضع طبقة مكان طبقة ، فتظل الطبقة الغالبة تستغل الناس كما كانت تستغلهم الطبقة المغلوبة ! وبهذا المعنى كان المسيح أعظم الثائرين — أي محدثي الانقلابات — في تاريخ العالم • وليست أهم أعماله انه يبشر بدولة جديدة ، بل يضع الخطوط الرئيسية لمبادىء اخلاقية مثالية !» (١) •

هذا ما يرتئيه ديورانت في تاريخه للحضارة ••• ويقول جورج ماثيسون :

« ان يسوع لم يأل جهدا فى التصريح بأن (ملكوته داخلى) لا يتوقف على الظروف الخارجية هذه الحقيقة نراها وراء كل مثل نطق به : وراء مثل الزارع ومثل الخميرة والعجين ومثل حبة الخردل ومثل اللآلىء • ومجىء ملكوت الله لن ينتظر مواتاة لأية ظروف ، ان علامة مجيئه انه سيأتى (بلا مراقبة) ، وهكذا نرى انه مستقل عن كل الظروف الخارجية!! ولكن هل ملكوت الله غير متوقف أيضا على الامور الداخلية ؟ كلا ••• ان ملكوت الله ليس معاديا لفكرة استمرار (التعب الجسدى) ، ولكنه يناقض استمرار (الخطايا الجسدية) • وما هو هذا الملكوت ؟ ملكى، جمهورى، ديمقراطى ؟؟ لم يكن هذا أو ذاك ، لانه كان جميعها معا ! كان نظاما يبدأ فيه الناس سواسية بدون استناد الى أى أساس من فروق التمييز الاولى، ولكن شيئا فشيئا يتقدم المثال الاخلاقى الاعظم ويبرز الى المقدمة ويسيطر على كل شىء آخر بالسلطان الادبى فقط • انه يبدأ بديمقراطية روحية تتنافس فيها القوى الروحية فترتفع الى القمة وتسيطر على ماعداها وتكون سيطرتها متناسبة مع مجدها الروحى •• انى أدعو مثال الملكوت (خط التحول) بين المسيح الذى أطعم الجماهير فى البرية وبين المسيح المعلق

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ (قيصر والمسيح) — ترجمة بدران ص ٢٢٦ : ٢٢٨ ملخصا

على الصليب ! لقد كان يسعى لملكوت يصبح فيه البر القوة الغالبة والشر القوة المغلوبة ، فماذا لو تكاثر الشر وطغى على البر ؟ لقد كان يسوع من هذه اللحظة وحيدا فى أعماق نفسه ولكنه كان متفائلا بمستقبل مدينة الله ومتعزيا بأصداء تتجاوب مع صوته ٠٠٠ لقد تناول الجمهور فى البرية الطعام بين يدى يسوع ، وهـــكذا رأوا فيه مصلحا اجتماعيا ، ونتيجة لمعجزة الشركة امتلأت صدورهم حماسا واقترحوا أن يقوموا بثورة عامة ويتوجوا يسوع ملكا عليهم ويجلسوه على عرش داود أبيه ويعيدوا أمجاد الأمة اليهودية القديمة ! وفى لحظة نظر يسوع الى الجمهور ، واذا الكل قد تفرقوا عنه وانقطعت الشركة الفكرية ! لقد كان مثال الجمهور بعيدا عن مثاله » (١) ٠

« ان ملكوت المســـيح لا يتطلب تحطيما للامبراطورية الرومانية وانقلابا سريعا للأوضاع الكائنة ، اذ »ملكوت يستطيع أن يتسلل الى داخل الدار دون أن يحطم الأبواب ، فهو سيأتى فى هدوء ، بلا مراقبة ! انه لا يتطلب افساح مكان له ، لانه سيعمل فى المـكان الحالى كما تعمل الخميرة عملها فى العجين » (٢) ٠

« لم يكن (ملكوت الله) فى عرف المسيح مجرد حياة مستقبلة فى السماء نترقبها بفارغ الصبر بعد الموت ٠٠٠ كان ذلك الملكوت مختصا بالزمن الحاضر ومتعلقا بالأرض قبل كل شيء ، فيها يبدأ وينمو وينتشر ليكون خيرا وبركة على الساكنين فيها ٠ والصورة التى رسمتها أمثاله تؤيد ذلك ، فملكوت السموات أشبه بحبة صغيرة تغرس فى بطن الثرى لتنبت دوحة كبيرة وارفة الظلال ، وأشبه بخميرة تتفاعل فى العجين كله حتى تختمر ، وأشبه بحبة حنطة تنبت نباتا فسنبلا ثم قمحا يملأ السنبل ٠٠٠ انه شيء حى متحرك قابل للنماء والتقـــدم التدريجى فى الأرض لخيرها وبركتها ، مشروع جميل ليخلق عالمـا جميـــلا ، رؤيا محببة عن انسانية نبيلة تسودها الشجاعة والبطولة والبر والحق ! عصر ذهبى على الارض ، يعيش فيه البشر يخدم بعضهم بعضا فى تواد ومحبة ٠٠ وكأن المسيح أراد أن ينشىء على الارض مستعمرة على نسق ذلك الملكوت الأعلى فى السماء كذلك على الارض) ! وهذه هى الفكرة التى أراد بولس الرسول

---

(١) جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكى جـ ١ ص ١٨١ ـ أنظر أيضا فى النزوع للملك الأرضى بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٢٨٧ : ٩ ، ستيفن نيل : من هو المسيح ص ٢٠

(٢) جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة حبيب سعيد جـ٢ ص١٠

أن ينقلها الى أهل فيلبي (ان رعويتنا نحن هى فى السموات) ! ...
وهذه هى الفكرة الحية المثيرة التى تحمل بين ثناياها الرجاء والشجاعة فى أيام اليأس والبؤس فكرة قد افتقر اليهـــا المسيحيون قديما ابان الاضطرابات والاضطهادات ، ويفتقر اليها المسيحيون فى هذا العصر فى الأيام العصيبة القاسية ... ولعل فى هذا الشعور التعليل الصحيح للثقة الكاملة والطمأنينة الهادفة والتفاؤل السعيد الذى بدا على المسيح فى الســـنوات الثلاث التى لاقى فيهـــا من عوامل التثبيط ما لاقى وهو يؤسس مملكته هذه ... انه لم يكن فى عجلة ، لأن الزمن ممتد أمامه ، ومحال أن يكون الفشل مصيره ... » (١)

« لقد آمن المسيحى فى قرارة نفسه أن روما العظيمة ستدمر وأن امبراطوريتها بل العالم كله سيزول ، وآمن بأن المملكة الوحيدة الخالدة هى (مملكة المسيح : ملكوت الله) ! والحق ان الكنيسة الاولى آمنت بأن نهاية العالم قريبة على الابواب ، فان التلاميذ الاول رأوا المسيح الذى قام من الاموات واقتنعوا بانهم سيرونه فى حياتهم الارضية مرة ثانية فى مجد وجلال ليدمر نظام الاشياء الارضية ويدين الاحياء والاموات وقد تاقت نفوسهم الى هذا اليوم وتوقعوا سقوط مملكة رومية ليقـوم على أنقاضها ملـــكوت الله . ومن هنـــا كانت كراهيتهم للامبراطورية الرومانية التى اعتبرتهم خائنين » (٢) .

ويلح بعض كتاب المسيحية على التأكيد بأنه « من الامور البديهية فى المسيحية أن السيد المسيح له المجد لم يأت الى العالم ليؤسس مملكة أرضية يحكمها هو ويخلفه فى حكمها كنيسته ورؤساؤها » «وكل مسيحى يعرف المعنى الروحى لتسمية المسيح (ملك) وكيف أنه قال (مملكتى ليست من هذا العالم) » (٣) .

وتقرأ (لمجلس الكنائس العالمى) ـ ويضم مجموعة من الكنائس تقوم على أساس قانون المسيح وترغب فى التعارف والتآلف والتعاون فى المهام المشتركة والواجبات العـــامة ـ فى نشرته العــربية الصادرة فى أغسطس ١٩٦٢ وجهة نظره فى الموقف المسيحى من الاصلاح الاجتماعى اذ يقول :

---

(١) بترسون سمث . حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ١٧١ ـ ٢

(٢) حبيب سعيد : عشرون قرنا ص ٦

(٣) مجلس الكنائس العالمى من واقع رد ممثليه ، التقرير المرفوع الى قداسة بابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية من اللجنة المشكلة بقرار بابوى فى ٧ أغسطس ١٩٦٢ لفحص مانسب لمجلس الكنائس العالمى

« يستند الموقف المسيحي ازاء التغير الاجتماعي الى المفهوم المسيحي للانسان والجماعة الراسخ في المسيح واقرار سيادته على العالم وفي الخليقة وفي موته وبعثه · ان مصير الانسان المحتوم يقوده الى ماوراء جميع أشكال المجتمع البشري ، بجعله وارثا لملكوت الله · وهكذا فان الانسان الذى في المسيح ينال (حرية أولاد الله) ويعلم كيف ينظر في جميع التفاعلات الاجتماعية باعتبارها نسبية لا نهائية ، وهذا يعطيها في الحقيقة معنى مطلقا ، لأن الله لا يحب المسيحيين فحسب ولكن العالم كله ! وجميع ثورات هذا العالم تحدث في أسلوب ما تحت العناية الالهية لتخدم الاهداف النهائية لارادة المحبة الالهية ··· اننا كبشر مدعوون لان نكون أعضاء مسئولين في المجتمع ، وكمسيحيين أعضاء محبين · ان محبة الله للعالم هي التي تربط الكنيسة والعالم كل منهما بالآخر ، وتدعو الكنيسة لأن تكون في خدمة المجتمع ··· نحن نؤمن بأن الله يعمل في التغير الاجتماعي السريع موفيا أغراض ملكوته ، وهذا لا يعني أن كل مايحدث في التغير الاجتماعي السريع هو حسن ، وانما يعني أن الله يهتم بهؤلاء الذين في حاجة وأنه يوفر لهم عدالة ومساواة أكثر ، وأنه ينهض الجموع الكبيرة من الناس لتحدي ما هم فيه من ركود اجتماعي ويفتح لهم امكانيات جديدة لأجل تقدم الحياة الشخصية والاجتماعية » · ومجلس الكنائس العالمي يلقي على كنائس افريقية وآسيا وأمريكا اللاتينية عبء محاولة « تخليص نفسها من التشبيه الكاذب بالثقافة والسياسة الغربية واتخاذ موقف ايجابي ازاء الصراع لأجل الحرية وبناء الوطن » · وهو يقرر أن على الكنيسة أن تتبين وتبين معالم الصراع بين المسيحية والرأسمالية وتطورات الرأسمالية تختلف من بلد لآخر فاستغلال العمال الذى كان خاصة الرأسمالية القديمة كثيرا ما تناوله الاصلاح الى حد كبير تحت تأثير النقابات والتشريع الاجتماعي والادارة المسئولة ، ولكن الرأسمالية تجنح لجعل مايلزم أن يكون الواجب الأساسي لأي اقتصاد ـ وهو مواجهة الحاجات الانسانية ـ ذا أهمية ثانوية بالنسبة للمنافع الاقتصادية لهؤلاء الذين بيدهم أكثر السلطة على نظم الرأسمالية ، كما تجنح الى ايجاد ضروب من عدم المساواة البالغة ، وقد كشفت عن شكل عملي من المادية في الدول الغربية بالرغم من التاريخ المسيحي لتلك الدول ، لأن الرأسمالية قد ركزت كل همها في جمع المال ، ثم أنها أبقت شعوب الدول الرأسمالية خاضعة لمصير أخذ شكل نكبات اجتماعية كالتعطل الجماعي » ···

وهكذا يسترشد المسيحيون في كل زمان ومكان بتعاليم المسيح

وفلسفة المسيحية فى تخطيط العالم الأرضى ... مادام (ملكوت الله) الذى يعلنه المسيح فكرة هادفة قبل كل شىء ...

« اننا نخدم حكم الله حينما نجاهد لبلوغ أهداف معينة من العدالة والحرية والسلام » ولأجل بلوغ هذا الهدف لا بأس من سلوك أى سبيل مشروع « ان الكنيسة مدعوة لأن تكافح بنشاط فى سبيل العدالة الاجتماعية . ولا ينبغى أن يتقيد المسيحيون فى ذلك بخطة واحدة ، بل عليهم أن يستخدموا استخداما بناء عدة وسائل : التوفيق ، المقاضاة ، التشريع ، الوساطة ، الاعتراض ، العقوبات الاقتصادية والاعمال غير العنيفة ، بما فى ذلك التعاون مع (الجماعات المدنية) التى تجاهد لاجل الاهداف نفسها . وعلى الكنائس أن تسعى كى تؤمن عدم قيام قوانين الهجرة على أساس التمييز العنصرى . ان المسيحى لا يخشى التغيير لأنه يعرف كم هى ثقيلة احمال الفاقة والحرمان التى يقع عبؤها الآن على غالبية الجنس البشرى . وهو مستعد لأن يبدع تغيرات ويقدم اصلاحات تخدم أهداف العدالة والحرية وأن يحطم سلاسل الفقر . وهو راغب كل الرغبة فى أن يتعاون مع كل من يشاركه هذا الاهتمام بخير الجنس البشرى »

« وعلى المسيحيين الذين يعيشون فى أحوال اقتصادية واجتماعية مواتية أن يعبروا عمليا عن انسانيتهم التى يتساوون فيها مع جميع الشعوب المظلومة المعذبة فيجب مثلا أن يرتضوا دفع ضرائب أعلى حتى تستطيع حكوماتهم أن تقوم عن طريق القروض والمنح بمساهمتها المنصفة فى سبيل التقدم الاقتصادى لبلد آخر ، وهذه الأعمال يجب أن تؤدى وبشعور من التضامن فى عالم قد أصبح واحدا .. ويجب أيضا على المسيحيين أن يحثوا حكوماتهم على القيام بهذه الاعمال والتعاون فى ذلك مع الحكومات الأخرى وبوساطة الأمم المتحدة والمؤسسات الدولية الأخرى مما يمكن أن يؤدى الى عمل مشترك يشمل العالم كله . ويجب على المسيحيين أن يحثوا على اعطاء مثل هذه المساعدة دون اشتراطات» (١)

***

أما من ناحية أسلوب العمل لتحقيق (الملكوت المنشود) على الأرض أو (المجتمع المسيحى) فقد اختار المسيح منذ البداية سبيل علاج القلوب بالتوجيه على سبيل التشريع المباشر ... ولكن ليس معنى هذا

---

(١) التقرير المرفوع لبابا الاسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية من اللجنة المشكلة بقرار بابوى فى ٧ أغسطس ١٩٦٢ لفحص التهم المنسوبة لمجلس الكنائس العالمى .

أن وصايا المسيحية غامضة مبهمة الى حد اقرار الرق والربا ــ كما يشير ديورانت ، فان أمثال الأناجيل لا تخفي دلالاتها الاستنكارية لأوضاع الظلم والعدوان في معظم الأحيان ! ولم تكن جموع المستضعفين والمضطهدين التي أقبلت على المسيحية تسير الى متاهة أو تتلهى عن آلامها بخيالات ٠٠٠ والقول بأن المسيح لم يفكر في القضاء على الفقر لأن صحبه كانوا من الفقراء دعاية ممجوجة مردودة !

والمولعون في عصرنا (بالتفسير المذهبي للتاريخ) ــ أو التفسير (الواحدي) للتاريخ ــ حيث يتجه التفسير الى انتقاء علة واحدة تهيمن على مجرى الحوادث التاريخية كلها ــ هؤلاء الواحديون يرغبون أن يدخلوا المسيحية في مجال انتصارهم لمذهبهم وتدليلهم على صوابه : « لما كان (المذهب التاريخي المادي) الذي قال به كارل ماركس Karl Marx وانجلز F. Engels. ــ يفسر دائما الناحية المعنوية في المجتمعات بأنها تقوم على أساس تركيبها المادي ، ولما كان يجعل الحـــاجة الحيوانية محورا للتطور الانساني ،فقد كان هذا هو السبب نفسه في تفسيره الدين بأنه مجرد ظاهرة عرضية لا أهمية لها من الوجهة الاجتماعية ٠ وقد كتب أحد أتباع ماركس فقال : (ما كان للدين والفلسفة أن يوجدا دون الشروط الاقتصادية التي تجعل ظهورهما أمرا ممكنا) ! فما كان للمسيحية أن توجد دون الانقلاب الذي صحب الفتوح الرومانية ، وما كان للمذهب البروتستنتي أن يوجد دون نشأة الطبقة المتوسطة ! ويرى هذا المذهب ــ بصفة خاصة جدا ــ أن نظام توزيع الأراضي يلعب دورا هاما ، ويفسر على هذا النحو بعض الظواهر التي يبدو عليها غلبة الطابع الصوفي لأول وهلة مثل النبوات لدى اليهود أو مجيء المنقذ لدى المسيحيين ! وهكذا لا تعكس أصول العقيدة والمعتقدات ســوى المصـــالح الحيوية للطبقات الاجتماعية ، وسوى المنازعات الدينية والصراع بين هذه المصالح أو بين هذه الطبقات !!

والى جانب هذا التفسير المادي للعلاقات بين المذاهب الدينية والنظم الاقتصادية ، يوجد تفسير آخر : وهو التفسير السيكلوجي (النفسي) كما يسميه ماكس فيبر Max Weber ٠ وقد جاء نيتشه بهذا التفسير ، فالمسيحية ديانة الجماعة المضطهدة ، لأنها تعبر عن عواطف الكراهية التي يشعر بها الأرقاء تجاه أسيادهم ، ولأنها تستخدم في الوقت نفسه الايمان بوجود الفردوس لتخفف آلام الحاجة الى التحرر والراحة التي يضطرب لها تفكير هؤلاء البؤساء ! ولما ترك المذهب الكاثوليكي نفسه فريسة لعدوى وثنية عصر النهضة وأصبح مذهبا ارســـتقراطيا ، أخذ المذهب

البروتستانتي على نفسه مهمة المطالبة بحقوق الطبقات العاملة !! ...
وليس أساس هذا التفسير شديد الاختلاف عن أساس التفسير » (١) !!

والتفسير الواحدى ـ ماديا كان أو نفسيا أو غير ذلك ـ لا يتأتى له أن يغني ويشفي ازاء مختلف ظواهر التاريخ المعقدة ! ومع اعترافنا بوجاهة هذه الملاحظات التي يبديها المنتصرون لهذا المذهب أو ذاك ـ اذ الانسان له مطالب وحاجات لابد من العمل لاشباعها ، فان البعض يرى أن الظاهرة المضادة هي التي تحدث في أكثر الأحيان من قديم : « فتطور الدين هو الذى يغير النظام الاقتصادى لدى الشعوب ... وقد بين كثير من الاقتصاديين ـ مثل دولافيلي ـ أن رخاء الشعوب يتوقف على عقائدها . وبعد أن قرر ماكس فيبر ـ على خلاف المذهب المادى التاريخي ـ أن الاصلاح البروتستنتي لم يكن ظلا لظهور الطبقة الوسطى ، أبرز على ضوء الاحصاءات وجود علاقة بين المذهب البروتستنتي والنظام الرأسمالي في أسمى درجاته ، وهكذا من الأحرى أن يقال ان النظام الرأسمالي كان احدى نتائج المذهب البروتستنتي ! وليس معنى هذا أن البروتستنتي يفوق الكاثوليكي في اتجاهه المادى ، فان للمتطهرين Puritans فكرة تقوم على التشاؤم من العالم والزهد فيه ! لكن لما كان الزهد يحفز على الاقتصاد ، فقد ساعد على تركيز رءوس الأموال ـ وهكذا استخدم على نحو غريب كدعامة للنظام الرأسمالي ! أضف الى هذا أن البروتستنتي لما كان يتخذ عمله سبيلا الى تحقيق سعادته الأخروية ، فانه يؤدى عمله على أكمل وجه طبقا لما يوحي به اليه ضميره ـ وهكذا يصبح مديرا صناعيا ممتازا ! وفيما عدا هذا فان بعض البحوث الأخرى ـ وبخاصة فيما يتعلق بالاقتصاد الهندى والصيني ـ أكدت لماكس فيبر وجهة نظره الخاصة : وهي أن النظام الرأسمالي الذى يبدو للوهلة الأولى أنه لا يرجع الا الى أصول مادية ، يحتاج في نشأته ونموه الى بيئات دينية ملائمة (٢) » ...

ونحن اذ لا نقبل أى تفسير واحدى ، نعرف أن الدين ليس (مقذوفا) ينطلق على الناس مباغتا من عل دون أن يتحرى موافقة احتياجاتهم وتلبية رغباتهم ! ... فمن اعجاز الرسالات أن يرسلها الله في وقتها المناسب لتعمل عملها المنتظر ، ولكن لا يعني هذا أنها اصطنعت اصطناعا من لدن

---

(١) بستيد Bastide : مبادىء علم الاجتماع الديني ـ (ترجمة دكتور محمود قاسم) ص ٢٠٥ ـ ٢٠٦

(٢) باستيد Bastide : مبادىء علم الاجتماع الديني ـ (ترجمة دكتور محمود قاسم) ـ مبحث الدين والحياة الاقتصادية ص ٢٠٥ ـ ٢١٢

القوم لعلاج أدوائهم ، لأن مستوى الرسالة يكون دائما أرفع وأسمى من أى جهد بشرى للاصلاح ٠

وغريب أن يقال : ان المسيحية ـ على حد قول نيتشه والتفسير السيكلوجى ـ هى دين الجماعات المضطهدة ! فاليهود وقت الرسالة المسيحية ـ كما يدل التاريخ وتشهد الأناجيل نفسها ـ لم يكونوا مضطهدين الى هذا الحد ٠٠٠ كانت تطوف حول طائفتهم شكوك ، وربما حامت حول بعض أفرادهم شبهات ، وقد قام الغلاة الجليليون بثورات ، لكنا لا نستطيع أن نقول : ان اليهود كطائفة كانوا محل اضطهاد عام شامل فى امبراطورية الرومان وقت مبعث المسيح ٠ بل على العكس كانت لهم امتيازاتهم الدينية والطائفية ، وبيلاطس الوالى الرومانى أراد أن يدع المسيح لليهود لينفذوا فيه حكم التوراة : « فقال لهم بيلاطس خذوه أنتم واحكموا عليه حسب ناموسكم ! فقال له اليهود لا يجوز لنا أن نقتل أحدا » ! (١)

والمسيح لم يؤت من قبل الدولة ، بل من قبل اليهود ٠٠٠ واقبال المضطهدين والمستضعفين على المسيحية بهذا المعنى المقصود قد يكون بعد أن عبرت الرسالة طريقها الى أوربا ، وهذا اذا فسر نجاحها فى الانتشار هناك فلا يفسر قيامها بفلسطين فى البداية ٠

أما أن نقول ان الله يرسل رسله وينزل كتبه لصالح الخلق ـ فهذا بديهى مسلم ، اذ أنه سبحانه لن يزيد ملكه بطاعة الطائعين ، ولن ينتقص منه بمعصية العاصين ! وانما يريد الله أن يحرر عباده من سيطرة الأهواء والأفراد والجماعات بتوجيههم اليه جل وعلا ، ليأووا الى ركن شديد ، وينقادوا للقوة الكبرى التى لا تحابى ولا تتحامل ٠٠

« تعالوا الى يا جميع المتعبين والثقيلى الأحمال وأنا أريحكم ٠٠٠ احملوا نيرى عليكم وتعلموا منى ـ لأنى وضيع ومتواضع القلب ، فتجدوا راحة لنفوسكم ٠٠٠ لأن نيرى هين وحملى ضعيف » (٢) ٠

« وقام ليقرأ ٠٠٠ روح الرب على ، لانه مسحنى لأبشر المساكين ، أرسلنى لأشفى المتكسرى القلوب ، لأنادى للمأسورين بالاطلاق ، وللعمى بالبصر ، وأرسل المنسحقين فى الحرية » ٠

« ٠٠٠ الذين يتبعون الرسول النبى الأمى ـ الذى يجدونه مكتوبا

---

(١) يو ١٨ : ٣١

(٢) مت ١١ : ٢٨ ـ ٣٠

عندهم فى التوراة والانجيل ، يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، ويضع عنهم اصرهم والأغلال التى كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزروه ونصروه واتبعوا النور الذى أنزل معه ــ أولئك هم المفلحون » ، « واذكروا اذ أنتم قليل مستضعفون فى الارض ، تخافون أن يتخطفكم الناس ــ فآواكم ، وأيدكم بنصره ، ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون » (١) ٠

***

وجماع القول فى الاتجاهات المختلفة لتفسير المسيحية واتجاهاتها الاجتماعية ، ما أجمله الكاتب الامريكي جون هرمان راندال اذ يقول : « ورث التقليد المسيحى من الشعب العبرى الاعتقاد الأساسى فى أن الله أعطى الانسان عن طريق الوحى السماوى شريعة أبان له فيها واجباته ، فما أوصت به الشريعة فهو خير وما نهت عنه فهو شر ، وتقوم الأخلاق على أساس من العدل والطاعة لهذه الشريعة الالهية العليا ٠٠٠ وتتضمن كتب العبرانيين المقدسة نزعتين متباينتين : الأولى ــ تذهب فى تفسير هذه الشريعة الى أنها مجموعة كاملة ثابتة من الطقوس والاحتفالات ، وسنة اجتماعية تلائم بيئة فلسطين الزراعية البسيطة نمت وتطورت على أيدى طبقة من الكهنة ونفذت بحرفيتها لأنها كانت تمثل ارادة الله ، والثانية ــ تذهب الى ما وراء هذه الشريعة اللاوية (لاويين الكتاب الثالث من التوراة ، وهو مجموعة قوانين العبادات) الى مبادىء الخير والحق والشفقة التى أعرب الأنبياء عنها فى دعواتهم الشاملة والبسيطة ٠ فالنزعة الأولى تنتهى الى نظام شكلى ثابت محدد يقوم على المحافظة الدقيقة على الطقوس ، بينما تنتهى الثانية الى كراهية ملتهبة للظلم وحماس ثورى للمظلومين يصبح أحيانا عنيفا شرسا قاسيا متعصبا غير متسامح ، ويكون أحيانا أخرى شفوقا متعقلا كليا فى عواطفه واتساعه ٠٠٠

ومع أن القرون الوسطى لم تحافظ على قانون الطقوس القديم ، أو على العرف الاجتماعى ــ بسبب تشديد بطرس الرسول على أن مجىء المسيح نقض القانون القديم ، وبسبب عادة اللاهوتيين المسيحيين من البحث عن المعانى الروحية الخفية لا عن المعانى الحرفية فى ظاهر النصوص ــ مع ذلك فقد بقيت تلك الفكرة قوية ، وانتهت الى الواجب الأخلاقى القائل بضرورة المحافظة على العبادات كما توصى بها الكنيسة ٠

---

(١) الاعراف ١٥٧ ، الانفال ٢٦

ولم يناد سوى البسطاء ـ وخاصة فرق المتطهرين Puritans المتشددين في الأخذ بحرفية النص في حركة الاصلاح الديني ـ بتوطيد الحياة على أساس الحكومة الدينية التي عرفها قدماء العبرانيين ! ٠٠٠

تلقت المسيحية من الأناجيل تيارا جديدا كاملا من المحبة ، ويعتبر يسوع الناصري من نواح كثيرة ـ وخاصة من حيث تعاليمه الأخلاقية ـ في عداد الأنبياء ٠ وترن كلماته بنبرات الغضب الشديد على قانون الكتبة والفريسيين الشكلي ، كما تعكس مواعظه الشفقة على الفقراء والمنبوذين ، والاعتقاد بالأبوة الالهية الشاملة والاخاء الانساني ، والتشديد على اطاعة الأوامر الالهية ـ كما فعل الأنبياء تماما قبله ٠ ولكن جوهر الأناجيل هو تشديد جديد على محبة الله الشاملة للانسان ، ومحبة الانسان للانسان في الله ٠٠٠ وليس اتباع وصايا الله في الصلاة والصوم ، وانما في طهارة القلب ـ تلك الطهارة التي ترفض عمل الشر وفكرته ، وتسعى لأن تولد حسن النية ازاء جميع الناس ٠٠٠

وواقع الأمر أنه وجدت أنوار وحي والهام مشرق مشع ! وفي هذه الرسالة بذور ثورة قوية : لأنه ان كان ملكوت الله سيصبح حقيقة واضحة حية على الارض ، واذا كان الأقوياء سيهبطون والضعفاء سيرتفعون ، واذا امحت الثورة وتلاشت الأنانية ـ فلابد للانسان أن يحقق سماء جديدة وأرضا جديدة ! ولقد حاول الناس مرة بعد أخرى أن يفسروا الانجيل بهذا الاتجاه ٠٠٠

على أننا لا نعدم أن نجد اتجاها معاكسا في الأناجيل ، وأن نجد ما يؤيده ! فاذا كان ملكوت الله قبل كل شيء فينا ـ وليس في العالم الخارجي ، واذا كان من واجبنا أن نعطي ما لقيصر لقيصر وأن نشغل أنفسنا بالامور الالهية دون سواها ، واذا كانت الحكومات القائمة من أمر الله وبمشيئته حتى اذا قاومها الانسان قاوم أوامر ربه واستحق نقمته : اذن فالنظام القائم نظام مقدس ! وطريق المحبة ـ وان كان طريقا قاسيا ـ فهو الطريق الذى مشاه القديس فرنسوا الهادىء المسالم ، لا طريق الثائر الاجتماعي ! ومن الطبيعي أن يؤيد الملوك والأساقفة وأصحاب الأملاك الكبيرة والمصالح القائمة مثل هذا التأويل !! أما اذا كان ملكوت الله ليس على الأرض وانما هو في العالم الثاني ، اذن فطريق الكنيسة لابد وأن توصل اليها ٠ وفي الأناجيل مصادر لجميع هذه الآراء دخلت كلها في التقليد المسيحي !

وكان بولس هو الذى طبع المثل الأعلى المسيحي بطابع المحافظة٠٠

ولكن تحدر من بولس أيضا التشديد على الواجبات المتقابلة بين جميع الطبقات ، والتذكير بأن القوى الحاكمة هى خادمة لله ومسئولة تجاهه ، وأن الثروة مجرد وسيلة لخدمة الاخاء الانســـانى • ولقد جذبت هذه الناحية من نظرية بولس مجتمع القرون الوسطى الطبقى بصفة خاصة ، بمثل ما ألهم تشديده على الناحية الشخصية فى الدين أصحاب النزعة الفردية فى حركة الاصلاح الدينى » (١) •

« ولما جاء عيسى بالبينات قال : قد جئتكم بالحكمة ، ولأبين لكم بعض الذى تختلفون فيه ، فاتقوا الله وأطيعون • ان الله هو ربى وربكم فاعبدوه ، هذا صراط مستقيم • فاختلف الأحزاب من بينهم ، فويل للذين ظلموا من عذاب يوم أليم (٢) » •

---

(١) جون هرمان راندال John Herman Randall : تكوين العقل الحديث (ترجمة دكتور جورج طعمة) جـ١ ص ٨٠ ـ ٨١ ، ٨٤ : ٨٦

(٢) الزخرف ٦٣ : ٥

الحق ... أقول لكم

« فتقدم التلاميذ وقالوا :
لماذا تكلمهم بأمثال ؟ فأجاب
وقال لهم : لأنه قد أعطى لكم
أن تعــرفوا أسرار ملكوت
السموات ، وأما لأولئك فلم
يعط • فان من له سيعطى
ويزاد ، وأما من ليس له
فالذى عنده سيؤخذ منه ••
من أجــل هــذا أكلمهم
بأمثال »

(مت ١٣ : ١٠ ـ ١٣)

أمثال ... وقصص

في الأناجيل المتداولة أمثال سائرة موجزة من محكم القول ... وفي الأناجيل المتداولة أمثال قصصية يستعمل فيها أسلوب التصوير والتمثيل للتعبير عن المعنى المقصود . وفي هذه وتلك من الجوانب الفنية ما يستحق التأمل ...

« فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه : لماذا يأكل معلمكم مع العشارين والخطاة ؟

فلما سمع يسوع قال لهم :

لا يحتاج الأصحاء الى طبيب ... بل المرضى ...

انى أريد رحمة ... لا ذبيحة ...

لم آت لأدعو أبرارا ... بل خطاة — الى التوبة ... » (١)

وكل كلمة من كلمات المسيح الثلاثة ، شعار جميل لرسالته ، يحمل في طيات كلماته القليلة ، الكثير ...

« وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يعلم في مجامعها ، ويكرز ببشارة الملكوت ، ويشفي كل مرض وضعف في الشعب . ولما رأى الجموع تحنن عليهم ، اذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعي لها . حينئذ قال لتلاميذه :

الحصاد كثير ، ولكن الفعلة قليلون ... فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة الى حصاده » (٢) !!

مثل مستمد من بيئة زراعية ، يصور قلة الصالحين — (وقليل من

---

(١) مت ٩ : ١١ — ١٣ ، مر ٢ : ١٦ — ١٧ ، لو ٥ : ٣٠ — ٣٢
(٢) مت ٩ : ٣٥ — ٣٨ ، لو ١٠ : ٢

عبادى الشكور) ! وقرينه فى بيئة الابل عند نبى العرب : (انما الناس كابل مائة : لا يكاد تجد فيها راحلة) ! (١) ٠

والمثل السائر : لا كرامة لنبى فى وطنه ـ له رواية فى الانجيل : « ولما جاء الى وطنه كان يعلمهم فى مجمعهم حتى بهتوا وقالوا : من أين لهذا هذه الحكمة والقوات ؟ أليس هذا ابن النجار ؟ ٠٠٠ وأما يسوع فقال لهم : **ليس نبى بلا كرامة الا فى وطنه وفى بيته** ٠٠٠ ولم يصنع هناك قوات كثيرة لعدم ايمانهم » ، « ليس لنبى كرامة فى وطنه » (٢) ٠

وعبر المسيح عن قرابة الروح بين أبناء العقيدة الواحدة : « **من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو اخى وأختى وأمى** » ، « **أمى واخوتى الذين يسمعون كلمة الله ويعملون بها** » (٣) ٠

كذلك عبر عن نداء السلام فى رسالته فى حكمة تناقلتها الألسنة من بعده : « وفيما هو يتكلم ، اذ يهوذا واحد من الاثنى عشر قد جاء ومعه كثير بسيوف وعصى من عند رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب ٠٠٠ واذا واحد من الذين مع يسوع مد يده واستل سيفه ، وضرب عبد رئيس الكهنة ـ فقطع أذنه ٠ فقال له يسوع : رد سيفك الى مكانه ٠٠٠ **كل الذين يأخذون السيف ، بالسيف يهلكون** » (٤) !

ورد المسيح على من زعم أنه يستعين على معجزاته برئيس الشياطين : « فعلم يسوع أفكارهم ، وقال لهم : **كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب** ٠٠٠ وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت ٠ فان كان الشيطان يخرج الشيطان ـ فقد انقسم الشيطان على ذاته ، فكيف تثبت مملكته ؟ » (٥) ٠

وردد المسيح فى الهيكل تلك الشهادة الجميلة فى حق الاطفال ـ وهو يحاج اليهود : « أما قرأتم قط : **من أفواه الاطفال والرضع هيأت تسبيحا** » (٦) !

كما صور رسول الروح وداعية المحبة غاية الدين ـ وكل رسالة

---

(١) الحديث لاحمد والبخارى ومسلم والترمذى وابن ماجه وصححه السيوطى
(٢) مت ١٣ : ٥٤ ـ ٥٨ ، مر ٦ : ٢ ـ ٦ ، لو ٤ : ٢٤ ، يو ٤ : : ٤٤
(٣) مت ١٢ : ٤٩ ، مر ٣ : ٣٥ ، لو ٨ : ٢١
(٤) مت ٢٦ : ٤٧ ـ ٥٢
(٥) مت ١٢ : ٢٥ ـ ٢٧ ، مر ٣ : ٢٣ ـ ٢٦ ، لو ١١ : ١٧ ـ ١٨
(٦) مت ٢١ : ١٦

خلقية أو أدبية ، وحدد الفارق بين التقدم المادى والأدبى فى هذه الكلمة : « **ماذا ينتفع الانسان** لو ربح **العالم كله وخسر نفسه ؟** » ··· ومن هنا قال : « من أراد أن يخلص نفسه يهلكها ، ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها » (١) · وفى كتاب الصلاة العامة وردت العبارة التالية « ان خدمة الله هى الحرية التامة » (٢) ·

وقريب من هذا فى الأدب الاسلامى (احرص على الموت توهب لك الحياة) !! وعند الصوفية : أعبد العبودية هى أقصى درجات الحرية !! ويقول ابن عطاء الله السكندرى مناجيا ربه ومولاه : (ماذا فقد من وجدك ؟ وماذا وجد من فقدك ؟)

ولا ننسى أن نشير الى ذلك النشيد السماوى الذى يجمل رسالة المسيحية : « وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السموى مسبحين الله وقائلين : المجد لله فى الأعالى ، وعلى الأرض الســـلام ، وبالناس المسرة » (٣) ·

وللمسيح كذلك اشارات بيانية بارعة : « واذ كان يسوع ماشيا عند بحر الجليل ، أبصر أخوين : ســـمعان ـ الذى يقال له بطرس ـ وأندراوس أخاه يلقيان شبكة فى البحر ، فانهما كانا صيادين · فقال لهما : **هلم ورائى فأجعلكما صيادى الناس** » (٤) ! ·

« ولما رأى يسوع جموعا كثيرة حوله ، أمر بالذهاب الى العبر · فتقدم كاتب وقال له : يا معلم أتبعك أينما تمضى ··· فقال له يسوع : للثعالب أوجرة ولطيور السماء أوكار ، وأما ابن الانسان فليس له أين يسند رأسه !

وقال له آخر من تلاميذه : يا سيد ، ائذن لى أن أمضى أولا وأدفن أبى ؟ فقال له يسوع : **اتبعنى ، ودع الموتى يدفنون موتاهم** » ! « وقال آخر أيضا : أتبعك ياسيد ، ولكن ائذن لى أولا أن أودع الذين فى بيتى · فقال له يسوع : ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر الى الوراء يصلح لملكوت الله » (٥) ·

---

(١) مت ١٦ : ٢٥ ـ ٢٦ ، مر ٨ : ٣٥ ـ ٣٦ ، لو ٩ : ٢٤ ـ ٢٥
(٢) ستيفن نيل : ماهو الانسان ترجمة ابراهيم مطر ص ٢٨
(٣) لو ٢ : ١٤
(٤) مت ٤ : ١٨ ـ ١٩ ، مر ١ : ١٦ ـ ١٧
(٥) مت ٨ : ١٨ ـ ٢٢ ، لو ٩ : ٥٧ ـ ٦٢

وفيما سلف من فصـــول كلمات للمسيح محكمة : ليس بالخبز وحده يحيا الانسان ... لا تجرب الرب الهك ... للرب الهك تسجد ، واياه وحده تعبد ... كل من يرفع نفسه يتضــــع ، ومن يضع نفسه يرتفع !

ومن هذه الكلمات ما كان يردد به المسيح كلمات العهد القديم ... ومنها ماكان ثمرة بيانه وبلاغته .

***

أما الأمثال القصصية فهى كثيرة متعددة فى الأناجيل المتداولة ، وهى تجمل طابع البيئة المحلية التى أجملنا وصفها (فى الاطار التاريخى) لهذا الكتاب ...

فكثيرا ما ترد الأمثال ومدارها حول الزرع أو المرعى ، وأحيانا تعرض للتجارة أو الصيد .

« ... وقالوا له : لماذا تكلمهم بأمثال ؟

فأجاب وقال لهم : لأنه قد أعطى لكم أن تعـــرفوا أسرار ملكوت السموات ، وأما لأولئك فلم يعط . فان من له سيعطى ويزاد ، وأما من ليس له فالذى عنده سيؤخذ منه ! من أجل هذا أكلمهم بأمثال ـ لأنهم مبصرين لا يبصرون ، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون ! فقد تمت فيهم نبوة أشعياء القائلة : تسمعون سمعا ولا تفهمون ، ومبصرين تبصرون ولا تنظرون ، لأن قلب هذا الشعب قد غلظ ، وآذانهم قد ثقل سماعها ، وغمضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم ! ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر ، ولآذانكم لأنها تسمع . فانى الحق أقول لكم : ان أنبياء وأبرارا كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا ، وأن يســـمعوا ما أنتم تســـمعون ولم يسمعوا » (١) .

« ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا من الجن والانس : لهم قلوب لا يفقهون بها ، ولهم أعين لا يبصرون بهـــا ، ولهم آذان لا يسمعون بها ـ أولئك كالأنعام بل هم أضل ، أولئك هم الغافلون » ! « ومنهم من يســـتمعون اليك ، أفأنت تسمع الصم ولو كانوا لا يعقلون ؟ ومنهم من ينظر اليك ،

(١) مت ١٣ : ١٠ ـ ١٧ ، مر ٤ : ١ ـ ١٢

أفأنت تهدى العمى ولو كانوا لا يبصرون ؟ ان الله لا يظلم الناس شيئا ، ولكن الناس أنفسهم يظلمون » (١) ·

وقد تساءل بطرس يوما : هل يقصد التلاميذ أيضا بالأمثال فى الخطاب ؟؟ « فقال له بطرس : يارب ألنا تقول هذا المثل ، أم للجميع أيضا ؟ » ، « وبأمثال كثيرة مثل هذه كان يكلمهم ـ حسبما كانوا يستطيعون أن يسمعوا ، وبدون مثل لم يكن يكلمهم ، وأما على انفراد فكان يفسر لتلاميذه كل شيء » (٢) ·

ولنتجول مع المسيح قليلا فى حديقة الأمثال ···

سأله تلاميذ يوحنا : لماذا لا يشترك أتباعه معهم ومع الفريسيين فى الصيام ؟ « فقال لهم يسوع : هل يستطيع بنو العرس أن ينوحوا مادام العريس معهم ؟ ··· ليس أحد يجعل رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق ، لأن الملء يأخذ الثوب فيصير الخرق أردأ ! ولا يجعلون خمرا جديدة فى زقاق عتيقة ، لئلا تنشق الزقاق فالخمر تنصب والزقاق تتلف ، بل يجعلون خمرا جديدة فى زقاق جديدة فتحفظ جميعا » (٣) ·

وفى هذا المعنى ورد فى القرآن : « لكل أمة جعلنا منسكا هم ناسكوه ، فلا ينازعنك فى الأمر ، وادع الى ربك ، انك لعلى هدى مستقيم » (٤) ·

« فى ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر ··· فكلمهم كثيرا بأمثال قائلا : هوذا الزارع قد خرج ليزرع ، وفيما هو يزرع سقط بعض على الطريق ـ فجاءت الطيور وأكلته ، وسقط آخر على الأماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرا ـ فنبت حالا اذ لم يكن له عمق أرض ، ولكن لما أشرقت الشمس احترق واذ لم يكن له أصل جف ، وسقط آخر على الشوك ـ فطلع الشوك وخنقه ، وسقط آخر على الأرض الجيدة ـ فأعطى ثمرا : بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين !! ··· من له أذنان للسمع فليسمع ···

فاسمعوا أنتم مثل الزارع ··· كل من يسمع كلمة الملكوت ولا

---

(١) الاعراف ١٧٩ ، يونس ٤٢ ــ ٤٤
(٢) لو ١٢ : ٤١ ، مر ٤ : ٣٣ ــ ٣٤
(٣) مت : ٩ : ١٤ ــ ١٧ ، مر ٢ : ١٨ ــ ٢٢ ، لو ٨ : ٩ ــ ١٠
(٤) الحج ٦٧

يفهم ، فيــأتى الشرير ويخطف ما زرع فى قلبه ــ هــذا هو المزروع على الطريق ! والمزروع على الأماكن المحجرة ــ هو الى حين ، فاذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالا يعثر ! والمزروع بين الشوك ــ هو الذى يسمع الكلمة ، وهم هذا العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر ! وأما المزروع على الأرض الجيدة ــ فهو الذى يسمع الكلمة ويفهم ، وهو الذى يأتى بثمر فيصنع بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين » (١) ٠٠

وتشبيه الايمان بالزرع ، وتشبيه القلب بالتربة التى يستنبت فيها الزرع ــ تشبيه جميل بليغ ٠٠٠

وقد ورد فى القرآن : « يأيها الذين آمنوا لا تبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى ، كالذى ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر ــ فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا ، لا يقدرون على شيء مما كسبوا ، والله لا يهدى القوم الكافرين ٠٠٠ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم ــ كمثل جنة بربوة أصابها وابل ، فآتت أكلها ضعفين ، فان لم يصبها وابل فطل ، والله بما تعملون بصير » ٠٠٠

وفى الحديث النبوى ، شبه رسول الاسلام قلوب من يعرض عليهم الهدى بأنواع التربة المتباينة :

« ان مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم ، كمثل غيث أصاب أرضا : فكان منها طائفة قبلت الماء ــ فأنبتت الكلأ والعشب الكثير ، وكانت منها أجادب أمسكت الماء ــ فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا ، وأصابت طائفة منها أخرى انما هى قيعان ــ لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ ٠٠٠ فذلك مثل من فقه فى دين الله ونفعه الله بما بعثنى ونفع به فعلم وعلم ، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هدى الله الذى أرسلت به » (٢) ٠

« قدم لهم مثلا آخر قائلا : يشبه ملكوت السموات انسانا زرع جيدا فى حقله ، وفيما الناس نيام جاء عدوه وزرع زوانا فى وسط الحنطة ومضى ! فلما طلع النبات وصنع ثمرا ، حينئذ ظهر الزوان أيضا ٠٠٠ فقال له العبيد : أتريد أن نذهب ونجمعه ؟ فقال : لا ، لئلا تقطعوا الحنطة

---

(١) مت ١٣ : ١ ـ ٩ ، ١٨ ــ ٢٣ ، مر ٤ : ٢ ـ ٩ ، ١٣ ــ ٢٠ ، لو ٨ : ٤ ــ ٨ ، ١١ ــ ١٥

(٢) البقرة ٢٦٤ ــ ٢٦٥ ، الحديث رواه البخارى ومسلم

مع الزوان وأنتم تجمعونه ! دعوهما ينميان كلاهما معا الى الحصاد ، وفى وقت الحصاد أقول للحصادين : اجمعوا أولا الزوان واحزموه حزما ليحرق ، وأما الحنطة فاجمعوها الى مخزنى ... فتقدم اليه تلاميذه قائلين : فسر لنا مثل زوان الحقل . فأجاب وقال لهم : الزارع الزرع الجيد هو ابن الانسان ، والحقل هو العالم ، والزرع الجيد هو بنو الملكوت ، والزوان هو بنو الشرير ، والعدو الذى زرعه هو ابليس ، والحصاد هو انقضاء العالم ، والحصادون هم الملائكة ـ فكما يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء هذا العالم ، يرسل ابن الانسان ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الاثم ويطرحونهم فى أتون النار ! هناك يكون البكاء وصرير الأسنان !! حينئذ يضىء الأبرار كالشمس فى ملكوت أبيهم . من له أذنان للسمع فليسمع » (١) .

« ليميز الله الخبيث من الطيب ، ويجعل الخبيث بعضه على بعض ـ فيركمه جميعا ، فيجعله فى جهنم ـ أولئك هم الخاسرون » .

« أنزل من السماء ماء ... فسالت أودية بقدرها ، فاحتمل السيل زبدا رابيا ، ومما يوقدون عليه فى النار ابتغاء حلية أو متاع ـ زبد مثله ... كذلك يضرب الله الحق والباطل ـ فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ، كذلك يضرب الله الأمثال » (٢) !!

***

ويضرب المسيح أمثاله أحيانا بأسلوب أكثر ايجازا ...

« قدم لهم مثلا آخر قائلا : يشبه ملكوت السموات حبة خردل ، أخذها انسان وزرعها فى حقله وهى أصغر جميع البذور ، ولكن متى نمت فهى أكبر البقول ! وتصير شجرة ، حتى ان طيور السماء تأتى وتتآوى فى أغصانها ...

قال لهم مثلا آخر : يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاث أكيال دقيق حتى اختمر الجميع ... **هذا كله كلم به يسوع الجموع بأمثال ، وبدون مثل لم يكن يكلمهم ـ لكى يتم ماقيل بالنبى القائل : سأفتح بأمثال فمى ، وانطلق بمكتومات منذ تاسيس العالم ...**

---

(١) مت ١٣ : ٢٤ ـ ٣٠ ، ٣٦ ـ ٤٣
(٢) الأنفال ٣٧ ، الرعد ١٧

أيضا : يشبه ملكوت السموات كنزا مخفى فى حقل ، وجده انسان فأخفاه ، ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل ...

أيضا : يشبه ملكوت السموات انسانا تاجرا يطلب لآلىء حسنة ، فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع كل ما كان له واشتراها .

أيضا : يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة فى البحر وجامعة من كل نوع ، فلما امتلأت أصعدوها على الشاطىء ، وجلسوا وجمعوا الجياد الى أوعية ، وأما الأردياء فطرحوها خارجا ! هكذا يكون فى انقضاء العالم ـ يخرج الملائكة ويفرزون الأشرار من بين الأبرار ، ويطرحونهم فى أتون النار ! هناك يكون البكاء وصرير الأسنان !! ...

قال لهم يسوع : أفهمتم هذا كله ؟؟ ... فقالوا : نعم ياسيد .

فقال لهم : من أجل ذلك ، كل كاتب متعلم فى ملكوت السموات ـ يشبه رجلا رب بيت يخرج من كنزه جددا وعتقاء !

ولما أكمل يسوع هذه الأمثال ... انتقل من هناك (١) » .

***

أمثلة حول الزرع ، والتجارة ، والصيد ...

ان المسيح يتكلم بلسان قومه ، ليبين لهم مايتقون ، بالأسلوب الذى به يفهمون ! .

والكروم أيضا مألوفة فى بيئة الرسالة المسيحية ، وصالحة كى تستمد منها الأمثال :

« فان ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكرمه ، فاتفق مع الفعلة على دينار فى اليوم وأرسلهم الى كرمه . ثم خرج نحو الساعة الثالثة ، ورأى آخرين قياما فى السوق بطالين فقال لهم : اذهبوا أنتم أيضا الى الكرم فأعطيكم مايحق لكم ـ فمضوا ، وخرج أيضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك ، ثم نحو الساعة الحادية عشرة ...

فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله : ادع الفعلة وأعطهم

---

(١) مت ١٣ : ٣١ ـ ٣٥ ، ٤٤ ـ ٥٣ ، مر ٤ : ٣٠ ـ ٣٢ ، لو ١٣ : ١٨ ـ ٢١

الأجرة – مبتدئا من الآخرين الى الأولين ! فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة – وأخذوا دينارا دينارا ، فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر – فأخذوا هم أيضا دينارا دينارا ! وفيما هم يأخذون تذمروا على رب البيت قائلين : هؤلاء الآخرون عملوا ساعة واحدة ، وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر !! فأجاب وقال لواحد منهم : يا صاحب ما ظلمتك ، أما اتفقت معى على دينـــار ؟ فخذ الذى لك واذهب ، فانى أريد أن أعطى هذا الأخير مثلك ! أو **ما يحل لى أن افعل ما أريد بمــالى ؟ أم عينك شريرة لأنى أنا صالح ؟ هكذا يكون الآخرون اولين والأولين آخرين ، لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون ! » (١)**

وهذا المثل هو الذى ارتأى فيه الأستاذ ديورانت – اقرارا من المسيح للتفاوت فى المعـاملة ، ولحـرية الفرد المطلقة فى التصرف فى ماله : (أو ما يحل لى أن أفعل ما أريد بمالى ؟) ...

وظاهر من القصة أن صاحب الكرم قد أعطى كل أجير حقه المقرر المفروض ، وشاء أن يزيد منحة وهبة لمن يختار – لأن هذا فضل منه يزيد عما التزم به ، فهو حر فى توجيهه الوجهة التى يرتضيها ! وظاهر كذلك أن القصة تريد أن تشـير الى اصطفاء الله لمن يشاء من العباد ، فلربما يعمل الانسان عملا يسيرا يأتى فى وقته المناسب فيثمر ثمرات وافرة تبارك جزاءه ، ولربما يعمل المرء عملا يستوى فيه مع آخر أو يقل عنه لكنه يفترق حسب النية . والله سبحانه وتعالى يقدر الأجر حسب النية ، وحسب الطاقة والوسع ، وحسب العلم والمعـــرفة ، وحسب الثمرة والنتيجة ...

وهكذا لا يتخلف عدل الله ولا فضل الله ، ولا رحمة الله – فى جزاء العباد .

« ... ويأتون من المشارق ومن المغارب ومن الشمال والجنوب ، ويتكئون فى ملكوت الله . وهو ذا آخرون يكونون أولين وأولون يكونون آخرين » (٢) .

وقد سبق أن عرضنا من قبل لمثلين آخرين ورد فيهما ذكر الكرم : « كان لانسان ابنان ، فجاء الى الاول وقال يا ابنى : اذهب اليوم اعمل

---

(١) مت ٢٠ : ١ – ٢٦

(٢) لو ١٣ : ٢٩ – ٣٠

فى كرمى ، فأجاب وقال : ما أريد ••• وجاء الى الثانى ، فأجاب وقال : ها أنا يا سيد ••• » ، « كان انسان رب بيت غرس كرما •• وسافر ، ولما قرب وقت الأثمار أرسل عبيدة الى الكرامين ليأخذ أثماره •• » الخ٠

***

ويسوق المسيح لملكوت السموات مثالا من الأعراس والولائم :

« وجعل يسوع يكلمهم أيضا بأمثال قائلا : يشبه ملكوت السموات انسانا صنع عرسا لابنه ، وأرسل عبيده ليدعوا الى العرس ، فلم يريدوا أن يأتوا ٠ فأرسل أيضا عبيدا آخرين قائلا : قولوا للمدعوين : هوذا غذائى أعددته ، ثيرانى ومسمناتى قد ذبحت ، وكل شىء معد ــ تعالوا الى العرس ! ولكنهم تهاونوا ومضوا ــ واحد الى حقله وآخر الى تجارته ، والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم ! فلما سمع الملك غضب ، وأرسل جنوده وأهلك أولئك القاتلين وأحرق مدينتهم ، ثم قال لعبيده : أما العرس فمستعد ، وأما المدعوون فلم يكونوا مستحقين ! فاذهبوا الى مفارق الطرق ، وكل من وجدتمـوه فادعـوه الى العرس ! فخرج أولئك العبيد الى الطرق ، وجمعوا كل الذين وجدوهم أشرارا وصالحين ، فامتلأ العرس من المتكئين ! فلما دخل الملك لينظر المتكئين ، رأى هناك انسانا لم يكن لابسا لباس العرس ، فقال له : يا صاحب كيف دخلت الى هنا وليس عليك لباس العرس ؟ فسكت ٠ حينئذ قال الملك للخدام : اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه فى الظلمة الخارجية ! هناك يكون البكاء وصرير الأسنان ، لأن كثيرين يدعون وقليلين ينتخبون » (١) !!

ونبى الاسلام يشبه كتابه أيضا بالمأدبة : « ان هذا القرآن مأدبة الله ، فاقبلوا مأدبته ما استطعتم » (٢) ٠

وهذا مثل يحذر به المسيح أتباعه من أن يعيشوا فى سكرة فيؤخذوا على غرة :

« فمن هو العبد الأمين الحكيم الذى أقامه سيده على خدمه ، ليعطيهم الطعام فى حينه ! ••• طوبى لذلك العبد الذى اذا جـــاء سيده يفعل هكذا ٠ الحق أقول لكم : انه يقيمه على جميع أمواله ••• ولكن ان قال ذلك العبد الردى فى قلبه : سيدى يبطىء قدومه ، فيبتدىء يضرب العبيد

---

(١) مت ٢٢ : ١ ــ ١٤

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك ــ وضعفه السيوطى

رفقــاءه ، ويأكل ويشرب مع السكارى ! يأتى سيد ذلك العبد فى يوم لا ينتظره ، وفى ساعة لا يعرفها ، فيقطعه ويجعل نصيبه مع المرائين !!٠٠ هناك يكون البكاء وصرير الاسنان !!

حينئذ يشبه ملكوت السموات عشر عذارى أخذن مصابيحهن وخرجن للقاء العريس ، وكان خمس منهن حكيمات وخمس جاهلات ٠ أما الجاهلات فأخذن مصابيحهن ولم يأخذن معهن زيتا ! وأما الحكيمات فأخذن زيتا فى آنيتهن مع مصابيحهن ٠ وفيما أبطأ العريس نعسن جميعا ونمن ٠ ففى نصف الليل صار صراخ : هو ذا العريس مقبل فاخرجن للقائه !! فقامت جميع أولئك العذارى وأصلحن مصابيحهن ٠ فقالت الجاهلات للحكيمات : أعطيننا من زيتكن ، فان مصـــابيحنا تنطفىء ! فأجابت الحكيمات قائلات : لعله لا يكفى لنا ، ولكن بل اذهبن للباعة وابتعن لكم ٠ وفيما هن ذاهبات ليبتعن ، جاء العريس ، والمستعدات دخلن معه الى العرس ، وأغلق الباب ! أخيرا جاءت بقية العذارى أيضا قائلات : ياسيد ياسيد افتح لنا ، فأجاب وقال : الحـــق أقول لكم انى ما أعرفكن !! فاسهروا اذن ، لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها ابن الانسان (١) » !

« يأيها الذين آمنوا اتقوا الله ، ولتنظر نفس ماقدمت لغد ، واتقوا الله ، ان الله خبير بما تعملون ٠ ولا تكونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم ، أولئك هم الفاسقون ٠ لا يستوى أصحاب النـــار وأصحاب الجنة ، أصحاب الجنة هم الفائزون » ! « ويوم يعض الظالم على يديه ، يقول ياليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا » !!

« قل ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم : لا تقنطوا من رحمة الله ، ان الله يغفر الذنوب جميعا ، انه هو الغفور الرحيم ٠ وأنيبوا الى ربكم وأسلموا له من قبل أن يأتيكم العذاب ثم لا تنصرون ٠ واتبعوا أحسن ما أنزل اليكم من ربكم،من قبل أن يأتيكم العذاب بغتة ـ وأنتم لا تشعرون! أن تقــول نفس يا حسرتا على ما فرطت فى جنــب الله ، وان كنــت لمن الساخرين ٠ أو تقول لو أن الله هدانى لكنت من المتقين ! أو تقول حين ترى العذاب لو أن لى كرة فأكون من المحســنين ! بلى قد جــاءتك آياتى فكذبت بها واستكبرت وكنت من الكافرين ٠ ويوم القيامة ترى الذين

---

(١) مت ٢٤ : ٤٥ ـ ٥١ ، ٢٥ : ١ ـ ١٣ ، مر ١٣ : ٣٤ ـ ٣٧ ، لو ١٢ : ٣٦ ـ ٤٨

كذبوا على الله وجوههم مسودة ، أليس فى جهنم مثوى للمتكبرين ؟ وينجى الله الذين اتقوا بمفازتهم ، لا يمسهم السوء ولا هم يحزنون » (١) ٠

وكما أرسل المسيح الى (الحرفيين الطقوسيين) قوارع الكلم صريحة سافرة ، فقد أدار عليهم أمثاله وقصصه الرمزية :

«واذا ناموسى قام قائلا : يامعلم ، ماذا أعمل لأرث الحياة الابدية ؟ فقال له : ما هو مكتوب فى الناموس ـ كيف تقرأ ؟ فأجاب وقال : تحب الهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قدرتك ومن كل فكرك ، وقريبك مثل نفسك ٠ فقال له : بالصواب أجبت ، افعل هذا فتحيا ٠٠٠ وأما هو فاذ أراد أن يبرر نفسه قال ليسوع : ومن قريبى ؟ فأجاب يسوع وقال :

انسان كان نازلا من أورشليم الى أريحا ، فوقع بين لصوص فعروه وجرحوه ، ومضوا وتركوه بين حي وميت ، فعرض أن كاهنا نزل فى تلك الطريق ، فرآه وجاز مقابلة ! وكذلك لاوى أيضا ، اذ صار عند المكان جاء ونظر وجاز مقابلة ! ولكن سامريا مسافرا جاء اليه ، ولما رآه تحنن فتقدم وضمد جراحاته وصب عليها زيتا وخمرا وأركبه على دابته ، وأتى به الى فندق واعتنى به ، وفى الغد لما مضى أخرج دينارين وأعطاهما لصاحب الفندق وقال له : اعتن به مهما أنفقت أكثر فعند رجوعى أوفيك ٠٠٠ فأى هؤلاء الثلاثة ترى صار قريبا للذى وقع بين اللصوص ؟ فقال : الذى صنع الرحمة ! فقال له يسوع : اذهب أنت أيضا واصنع هذا » !! ٠

« وكان جميع العشارين والخطاة يدنون منه ليسمعوه ٠ فتذمر الفريسيون والكتبة قائلين : هذا يقبل خطاة فيأكل معهم ! فكلمهم بهذا المثل قائلا :

أى انسان منكم له مائة خروف وأضاع واحدا منها، ألايترك التسعة والتسعين فى البرية ويذهب لأجل الضال حتى يجده ! واذا وجده يضعه على منكبيه فرحا ، ويأتى الى بيته ويدعو الأصدقاء والجيران قائلا لهم : افرحوا معى لانى وجدت خروفى الضال ! أقول لكم : انه هكذا يكون فرح فى السماء بخاطىء واحد يتوب ، أكثر من تسعة وتسعين بارا لا يحتاجون الى توبة !! وأية امرأة لها عشرة دراهم ان أضاعت درهما

---

(١) الحشر ١٨ : ٢٠ ، الفرقان ٢٧ ، الزمر ٥٣ : ٦١

بواحدة ، ألا توقد سراجا وتكنس البيت وتفتش باجتهاد حتى تجده ؟ واذا وجدته تدعو الصديقات والجـارات قائلة : افرحن معى ، لانى وجدت الدرهم الذى أضعته ٠٠ هكذا أقـول لكم : يكون فرح قدام ملائكة الله بخاطىء واحد يتوب !!

وقال : انسان كان له ابنان ، فقال أصغرهما لأبيه : يا أبى أعطنى القسم الذى يصيبنى من المال ! فقسم لهما معيشته ، وبعد أيام ليست بكثيرة جمع الابن الاصغر كل شىء وسافر الى كورة بعيدة ، وهناك بذر ماله بعيش مسرف • فلما أنفق كل شىء ، حدث جوع شـديد فى تلك الكورة ــ فابتدأ يحتاج ! فمضى والتصق بواحد من أهل تلك الكورة ، فأرسله الى حقـوله ليرعى خنـازير • وكان يشتهى أن يمـلأ بطنه من الخرنوب الذى كانت الخنازير تأكله ، فلم يعطه أحد ! فرجع الى نفسه وقال : كم من أجير لأبى يفضل عنه الخبز وأنا أهلك جوعا ! أقوم وأذهب الى أبى وأقول له : يا أبى أخطأت الى السماء وقدامك ، ولست مستحقا بعد أن أدعى لك ابنا ، اجعلنى كأحد أجراك ! ٠٠ فقام وجاء الى أبيه • واذ كان لم يزل بعيدا رآه أبوه فتحنن وركض ووقع على عنقه وقبله ٠٠٠ فقال الأب لعبيده : أخرجوا الحلة الاولى وألبسوه ، واجعلوا خاتما فى يده وحذاء فى رجليه ، وقدموا العجل المسمن واذبحوه فنأكل ونفرح ، لان ابنى هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوجد ــ فابتدأوا يفرحون !٠٠٠ وكان ابنه الاكبر فى الحقل ، فلما جاء وقرب من البيت سـمع صوت آلات طرب ورقصا ــ فدعا واحدا من الغلمان وسأله ٠٠٠٠ فغضب ولم يرد أن يدخل ، فخرج أبوه يطلب اليه ، فأجاب وقال لأبيه : ها أنا أخدمك سنين هذا عددها ، وقط لم أتجاوز وصيتك ، وجديا لم تعطنى قط لأفرح مع أصدقائى !٠٠٠ فقال له يابنى أنت معى فى كل حين ، وكل مالى فهو لك • ولكن كان ينبغى أن نفرح ونسر ، لان أخاك هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوجد ! » (١)

وهكذا نجد أنفسنا مع المسيح دائما فى (فلسطين !) ٠٠٠٠

تارة فى أرض الكروم أو الحنطة ، وأخرى فى مرعى الخراف أو الخنازير !

وكثير من أحاديث نبى الاسلام تصور أفراح السماء بتوبة المذنبين،

---

(١) لو ١٠ : ٢٥ ــ ٣٧ ، ١٥ : ١ ــ ٣٢ ، مت ١٨ : ١٢ ــ ١٣

ومن أوجزها : « لله أشد فرحا بتوبة عبــده ، من أحدكم ـ اذا سقط عليه بعيره وقد أضله بأرض فلاة (١) » !!

***

وقد صور المسيح تكالب الفريسيين على المال ، ولو أتى من الحرام.

« وقال أيضا لتلاميذه كان انسان غنى له وكيل ، فوشى به اليه بأنه يبذر أمواله ـ فدعاه وقال له : ماهذا الذى أسمع عنك ؟ أعط حساب وكالتك ، لانك لا تقدر أن تكون وكيلا بعد ! فقال الوكيل في نفسه : ماذا أفعـــل ؟ لان سيدى يأخذ منى الوكالة ، لست أســتطيع أن أنقب وأستحي أن أستعطى !.. قــد علمت ماذا أفعــل ، حتى اذا عزلت عن الوكالة يقبلونى فى بيوتهم ! فدعا كل واحد من مديونى سيده ، وقال للأول : كم عليك لسيدى ؟ فقال : مائة بث زيت ، فقال له : خذ صكك واجلس عاجلا واكتب خمسين . ثم قال لآخر : وانت كم عليك ؟ فقال : مائة كر قمح ، فقال له : خذ صكك واكتب ثمانين !! فمدح السيد وكيل الظلم ـ اذ بحكمة فعل ، لان أبناء هذا الدهر أحكم من أبناء النور فى جيلهم . وأنا أقول لكم : اصنعوا لكم أصدقاء بمال الظلم ، حتى اذا فنيتم يقبلونكم فى المظال الابدية !!.. الامين فى القليل أمين أيضا فى الكثير ، والظالم فى القليل ظالم أيضا فى الكثير . **فان لم تكونوا أمناء فى مال الظلم ، فمن يأتمنكم على الحق ؟ وان لم تكونوا أمناء فى ما هو للغير ، فمن يعطيكم ما هو لكم ؟ لا يقدر خادم أن يخدم سيدين ... لا تقدرون أن تخدموا الله والمال !!**

وكان الفريسيون أيضا يسمعون هذا كله ـ وهم محبون للمال ـ فاستهزأوا به ! فقال لهم : انتم الذين تبررون أنفســكم قدام الناس ، ولكن الله يعرف قلوبكم ، **ان المستعلى عند الناس هورجس عند الله...**

كان انسان غنى وكان يلبس الارجوان والبز وهو يتنعم كل يوم مترفها ، وكان مسكين اسمه لعازر الذى طرح عند بابه مضروبا بالقروح ، ويشتهى أن يشبع من الفتات الساقط من مائدة الغنى ، بل كانت الكلاب تأتى وتلحس قروحه ... فمات المســكين وحملته الملائــكة الى حضن ابراهيم ، ومات الغنى أيضا ودفن . فرفع عينيه فى الهاوية ـ وهو فى العذاب ـ ورأى ابراهيم من بعيد ولعازر في حضنه ... فنادى وقال :

---

(١) البخارى ومسلم

يا أبي ابراهيم ارحمني ، فأرسل لعازر ليبل طرف اصبعه بماء ويبرد لساني ، لاني معذب في هذا اللهيب !! فقال ابراهيم : يا ابني اذكر أنك استوفيت خيراتك في حياتك ، وكذلك لعازر البلايا ، والآن هو يتعزى وأنت تتعذب ! وفوق هذا كله بيننا وبينكم هوة عظيمة قد أثبتت ، حتى ان الذين يريدون العبور من ههنا اليكم لا يقدرون ، ولا الذين من هناك يجتازون الينا ... فقال : أسألك اذن يا أبت أن ترسله الى بيت أبي ، لان لى خمسة اخوة حتى يشهد لهم لكيلا يأتوا هم أيضا الى موضع العذاب هذا !! ... قال له ابراهيم : عندهم موسى والانبياء ليسمعوا منهم ! فقال : لا يا أبي ابراهيم ، بل اذا مضى اليهم واحد من الاموات يتوبون . فقال له : ان كانوا لا يسمعون من موسى والانبياء ، ولا ان قام واحد من الاموات يصدقون!!!» (١) .

« ونادى أصحاب الجنة أصحاب النار أن قد وجدنا ماوعدنا ربنا حقا ، فهل وجدتم ماوعد ربكم حقا ؟ قالوا . نعم : فأذن مؤذن بينهم أن لعنة الله على الظالمين . الذين يصدون عن سبيل الله ويبغونها عوجا ، وهم بالآخرة كافرون . وبينهما حجاب ، وعلى الأعراف رجال يعرفون كلا بسيماهم ، ونادوا أصحاب الجنة أن سلام عليكم ــ لم يدخلوها وهم يطمعون . واذا صرفت أبصارهم تلقاء أصحاب النار قالوا : ربنا لا تجعلنا مع القوم الظالمين . ونادى أصحاب الاعراف رجالا يعرفونهم بسيماهم ، قالوا : ما أغنى عنكم جمعكم وما كنتم تستكبرون ! أهؤلاء الذين أقسمتم لا ينالهم الله برحمة ؟ ادخلوا الجنة لا خوف عليكم ولا أنتم تحزنون ! ونادى أصحاب النار أصحاب الجنة : أن أفيضوا علينا من الماء أو مما رزقكم الله ... قالوا : ان الله حرمهما على الكافرين ! الذين اتخذوا دينهم لهوا ولعبا ، وغرتهم الحياة الدنيا ، فاليوم ننساهم كما نسوا لقاء يومهم هذا ، وما كانوا بآياتنا يجحدون (٢) » !!

***

« تمتاز **القصة** بأنها تصور نواحي الحياة ... فتعرض لك الاشخاص وحركاتهم وأخلاقهم ، وأفكارهم واتجاهات نفوسهم ، وبيئتهم الطبيعية والزمنية ، فتعرضها عليك بعرض أعمالهم وتصرفاتهم ونقاشهم . فاذا رأيت هذه التصرفات والاعمال ، ومضيت مع الحوار والنقاش ــ

---

(١) لو ١٦ : ١ ــ ١٥ ، ١٩ ــ ٣١

(٢) الأعراف ٤٤ ــ ٥١

عرفت ما يستكن في النفوس من طباع ، وما يهجس فيها من الخواطر ، وانشرح صدرك لأهل الخير منهم ، وضقت ذرعا بذوى النفوس المظلمة والوسائل الملتوية ، حتى لكأنك تراهم رأى العين وتسمع منهم سمع الأذن وتعاشرهم وتحيا بينهم ...

وتمتاز القصة كذلك بأن النفس تميل اليها، فغريزة حب الاستطلاع تعلق عين السامع وأذنه وانتباهه بشفتي القصصى البارع استشرافا لمعرفة ما خفى من بقية الأنباء ...

والقصة - بهاتين الميزتين - من خير الوسـائل التى يتوسل بها الداعية لابلاغ تعاليمه الى أعماق القلوب ، فهى بالميزة الاولى تعرض هذه التعاليم في صورة عملية حية تحرك الوجدان وترفع نبض المشاعر ، وهي بالميزة الثانية - ميزة التنبيه والتقبل - تجعـل النفـوس أوعية مفتوحة يصب فيها الداعية ما يشاء ، فيبلغ القرار !

والناس فى قديم الزمان يجدون فى طبائعهم الميل الى الاستشهاد بالمثل ، والمثل قول واضح موجز حكيم ، ينتصب صدقه فى القول فيألفه الناس ويجرى بينهم ويشيع فى أحاديثهم . فقد يكون أحدهم بصدد حال يحكيها أو يسمعها فيحضره مثل يشابهها فى المعنى فيستشهد به - لا لان الكلام يزيد به صـــدقا ، بل لأن النفس تستأنس بالمثل ، ويلتمع فى جوانبها ضوء من وضوحه وجمال حكمته فما أسرع ما تنفرج جوانب النفس عن ثغرة يتعانق فيها معنى المثل ومعنى الحديث ثم تنطبق عليها فى تزاوج ووئام ، فاذا بالحال التى كانت تحكى قد استقرت لدى السامعين فى رضا وقبول واطمئنان !! ومن ضرب الامثال أن تشبه أمرا دقيقا خفيا - أو به بعض الخفاء - بأمر حسى مما يعهده الناس فى حياتهم اليومية ...

ومن قبيل ضرب الأمثال القصص الرمزية : وهى قصص يضعها مؤلفها ولا يريد ظاهر معناها ، بل يريد معنى مستورا يكشفه بعد الانتهاء منها أو يشير اليه قبل البدء فيه ... فقد يكون الداعية فى مقام لا يحسن فيه التصريح ، فيسمعه مثله القصصى الرمزى بمراده ، هذا الى أن فيه طرافة وتجديدا للنشاط النفسى . فقد يغرب المؤلف قليلا ويطالعك فى قصته بشىء من الاوضاع الشاذة غير المعقـولة ، فتعـذب القصة وتفيض طرافتها حلاوة ، فتقبل عليك العقول بأزمتها ، فاذا انتهى وشرع يحل العقـدة ويوضح الرموز ، لمعت الانوار فى العقول والقلوب ، واستفاض الرضا عن معناه فى النفوس !! » (١) .

---

(١) البهى الخولى . تذكرة الدعاة (الطبعة الأولى ١٩٤٥) ص ٣٩ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٧٥

ولقد اتبع المسيح فى تعليمه للجمـــاهير « طريقة الأم فى تربية طفلها » ٠٠٠٠ انه يستثير العجب والاعجاب ٠ فالمثل عنده يهدف قبل كل شىء الى ايقاظ روح الدهشة ٠ « لقــد قصد أن يريهم انه حتى فى الامور الدنيا هناك أشياء تحير الناظر المتأمل ، فاذا أخذهم معه الى نيران المدفأة فلكى يريهم جمال الذرات المتوهجة وهى تصعد الى أعلى ، وان سار معهم فى طريق معروف فذلك ليقودهم الى بوابة موصدة ، وان اقتادهم فى العالم الطبيعى فذلك ليجدوا فيه ناموسا روحيا ٠ ان هدفه هو اثارة الاحساس بالغموض ، الاحساس بأن هناك شيئا أعمق ٠ ان يسوع يرى انه فى مرئياتنا العادية البسيطة يختفى شىء لا تدركه العين ، وأعظم اعلان عنده هو اكتشاف هذا الشىء المختفى ٠٠٠ ان المسيح قد عرف ان التعليم الالهى للانسان يبدأ بنداء واعلان للطفولة (انى أحمدك أيها الآب لانك أعلنت هذا للأطفال) ! ولكى تدرب العين والأذن واليد فى الطفل علينا أن نربى ملـــكة التعجب ٠٠٠ وكان التلاميذ يتصـــورون أن (المثل) لا يناسب حالة الجمهور الفكرية ، ولكن يسوع كان يقدر الطاقة الكامنة فى الجمهــور لانه كان يعرف تمــاما الطاقة الكامنة فى الطفولة ، وكان يسوع يرى الاجنحة الجبارة المستترة فى أعماق الطفل» (١) !!

والمســـلمون يقرأون كثيرا من القصص والأمثال فى كتاب ربهم وحديث نبيهم ٠٠

فالتصــوير هو الاداة المفضلة فى أســلوب القرآن ، فهــو يعبر بالصورة المجسمة المتخيلة عن الواقعة الملموسة المباشرة أو المعنى الذهنى ، أو الحالة النفسية ، ثم يمنح تلك الصورة الحركة والحياة فى بيان رائع مشرق فوار بالحياة !! تأمل هذه الصور مما جاء فى القرآن: « ان الذين كذبوا بآياتنا واستكبروا عنها ، لا تفتح لهم أبواب السماء ، ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل فى سم الخياط ! » ٠٠٠ « له دعوة الحق ، والذين يدعون من دونه لا يستجيبون لهم بشىء ـ الا كباسط كفيه الى الماء ليبلغ فاه ، وما هو ببالغه ، وما دعاء الكافرين الا فى ضلال ! » « ومن يشرك بالله فكأنما خر من السماء فتخطفه الطير ، أو تهوى به الريح فى مكان سحيق » ! ٠٠

حقا كان بيان المسيح من رصيد النجاح لدعوته ٠٠٠

وكانت شخصيته كلها شخصية الداعية الموفق ، والمعلم الملهم ، والمؤمن المبارك ٠٠٠

---

(١) جورج ماثيسون . دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكى ج ١ ص ١٧٣ ـ ٤ ، ص ١٧٦

بيان المسيح

« ولم يكن احتياج العالم للعقيدة ولا استعداده لسماعها مغنيا للعقيدة عن أدوات النجاح والفلاح : وأولها قدرة الداعي على كسب النفوس واجتذاب الأسماع ، والغلبة على ما يقاومه من المكابرة والعناد . وقد كانت هذه القدرة موفورة في معلم المسيحية ، وبحق سمي المعلم — عند تلاميذه وخصومه — ونودى به في مختلف المجامع المحافل ، لأن مهمته الكبرى كانت مهمة تعليم وايحاء روحي حيوى من طريق التعليم ... وكان نداؤهم له بهذا اللقب ، لأنهم يجدون في كلامه علما واسعا بالكتب والأسفار ، وبديهة حاضرة في الاستشهاد بها والتعقيب عليها ، ويكفي مابين أيدينا من الأناجيل للجزم بأنه كان يرتل المزامير ، وكان يحفظ كتب أرميا وأشعيا وحزقيال ، فضلا عن الكتب الخمسة التي نسبت الى موسى عليه السلام ، وفضلا عن اختلاف المذاهب في تطبيق الوصايا والأحكام ! ويرجح بعض المؤرخين أنه كان يعرف اليونانية ، وأن الحديث الذي دار بينه وبين بيلاطس كان بهذه اللغة ، لان اليونانية كانت شائعة في عصره بين أبناء الجليل ! ... ولكن المحقق أنه كان يعرف العبرية الفصحى التي تدرس بها كتب موسى والأنبياء ، وأنه كان يعرف الآرامية التي كان يتكلمها كلام البلغاء فيها ... على أن هذا العلم كله بالثقافة الموسوية الاسرائيلية لم يكن فريدا بين أحبار اليهود في تلك الآونة ، ولم تكن لواحد منهم كفاية المعلم الذي يبث الحياة الروحانية في النفوس ، وينفث في الخواطر تلك الراحة التي كانت تشبه راحة السريرة — حين تتناسق فيها الأنغام التي كانت متنافرة قبل أن تجمع وتصاغ ! لقد كانت اللغة التي حملت بشائر الدعوة الأولى لغة صاحبها ، بغير مشابهة ولا مناظرة في القوة والنفاذ ... كانت لغة فذة في تركيب كلماتها ومفرداتها ، فذة في بلاغتها وتصريف معانيها ، فذة في طابعها الذي لا يشبهه طابع آخر في الكلام المسموع أو المكتوب ، ولولا ذلك لما أخذ السامعون بها ذلك المأخذ المحبوب ، مع غلبته القوية على الاذهان والقلوب ... كانت في تركيبها نمطا بين النثر المرسل والشعر المنظوم ،

كانت فنا خاصا ملائما لدروس التعليم والتشويق وحفز الذاكرة والخيال . وهو نمط من النظم لا يشبه نظم الأعاريض والتفعيلات التي نعرفها في اللغة العربية ، لأن هذا النمط من النظم غير معروف في اللغة الآرامية ولا في اللغة العبرية ، ولكنه أشبه ما يكون بأسلوب الفواصل المتقابلة والتفريعات المرددة التي ينتظرها السامع انتظاره للقافية ، وان كانت لا تتكرر بلفظها المعاد !

كان أسلوبه في ايقاع الكلام أسلوبا يكثر فيه الترديد والتقرير ، وليس في الترجمة العربية مايدل عليه من قريب ، ولكنها مع التأمل تدل عليه من بعيد - كما في هذا المثال : (اسألوا تعطوا ... اطلبوا تجدوا ... اقرعوا يفتح لكم ... لأن من يسأل يأخذ ، ومن يطلب يجد ، ومن يقرع يفتح له الباب ... من منكم يسأل ابنه خبزا فيعطيه حجرا ، أو يسأله سمكة فيعطيه حية ، أو يسأله بيضة فيعطيه عقربا ؟؟؟ فاذا كنتم - وأنتم أشرار - تحسنون العطاء للأبناء ، فكيف بالآب الذي في السماء ، يعطي الروح القدس لمن يسألون !) ... وقريب من هذا نذيره لأورشليم : (يا أورشليم ! يا أورشليم ! يا قاتلة الأنبياء ، وراجمة المرسلين ! ... كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحيها - ولم تريدوا ... هو ذا بيتكم رهين بالخراب) ! وقريب منه نذيره لبنات أورشليم : (يابنات أورشليم ! لا تبكين علي ، وعلى أنفسكم وأولادكم فابكين ! ... أيام يقولون : طوبى للعواقر ، والبطون التي لم تلد ، والثدي التي لم ترضع ... أيام ينادون الجبال أن تسقط عليهم ، والآكام أن تكون غطاء لهم ... ان كان بالغصن الرطب يصنع هذا ، فباليابس ماذا يصنعون ؟؟) ! أما أسلوب المعنى فقد اشتهر منه نمط الأمثال ، في كل قالب من قوالب الأمثال : ومنه القالب الذي يعول على الرمز ، والقالب الذي يعول على الحكمة ، والقالب الذي يعول على التشبيهات ... ومعظم هذه الأمثلة تأتي في مناسباتها عفو الخاطر ، جوابا على سؤال أو تعقيبا على حادث عارض أو تقريعا لمكابر ، ولهذا يرجح بعض الشراح المحدثين أن الأمثلة المتوالية في المقاصد المختلفة لم تصدر عنه في سياق واحد أو جلسة واحدة ... لم يكن محضرا قبل ساعته ، وغاية مايعرض له التحضير أن الفكر الذي يجود به لم يخل قط من التفكير فيه ، وأنه تعود التفكير في المواقف المتشابهة فانسكبت قوالب التعبير في بواطن قريحته - غير مقصودة ولا متكلفة ، وهي عادة يعرفها من تعودوا التفكير والتعبير وحضور الشعور بينهم وبين الجماهير !

ومن البيان ما يروع ويهول ، ويخيل الى سامعه أنه يبتعد من مصدره كلما أصغى اليه ! ومنه مايجذب ويقرب ، ويخيل الى سامعيه أن كل كلمة منه ترفع حاجزا أو تدنى مسافة وتزيل وحشة بين القائل والسميع ! من هذا البيان كان بيان المعلم المحبوب ، القـــدير على تقريب سامعيه بالعطف والافهام ـ فمن فهم قريب ، ومن لم يفهم غير بعيد ! ••• وفى وسعنا أن نتخيل أولئك المستمعين البسطاء يقبلون على الاستماع وهم فى ظلام الجهالة لا يدرون ماذا سيسمعون ، ثم تتفتح فى أذهانهم الخواطر وتتفتق فيها الأشياء وتتبين الفوارق بين الأضداد ، فينجاب الظلام سدفه بعد سدفة ويعقبه النور قبسا وراء قبس ، ويداخلهم على مهل شعور الأعمى الذى يسترد بصره ـ مشدوها بالرؤية لأول مرة ! أو شعور المدلج الذى يصحب الليل من السحر الى الفجر الى الصباح •• هداية فى رفق ورحمة ، واقتراب فى غير عناء واقتحام » (١) !!

هكذا يحكم على أسلوب الأناجيل أديب العـــربية ومفكرها الكبير العقاد ، وكفى به خبيرا ••

والمسيح يسير فى التصوير أحيانا على طريقة المتوازيات ، وحين تترجم حكمه التى تجرى على هذا الأسلوب الى الآرامية لغة المسيح تبدو شعرا ذا موسيقى ووزن وأبيات • وطريقة تقديم الحكمة على هذه الصورة كانت من أدق خصائص تعاليم المسيح لتلاميذه فهو يؤثر الرباعيات والترجيع الموسيقى والأوزان الشرقية ــ على حد قول يواقيم أرميا • حتى أن هذا الطابع للآسلوب يتخذ معيارا للحكم على مدى صحة نسبة أقوال معينة للمسيح • ومن هنا قبل البعض مثلا القول الذى روى أوريجانوس أنه قرأه منسوبا للمسيح :

الغريب منى ••• قريب من النار

والبعيد عنى ••• بعيد عن الملكوت (٢) •

(١) العقاد : عبقرية المسيح ص ١٦٦ : ١٧٤

(٢) يواقيم ارميا : أقوال المسيح غير المدونة في بشائر الانجيل ص ٦٧ ــ ٨

مصاعب النقل

ويأتى الحكم على أسلوب المسيح كما ورد فى الاناجيل المتداولة ، مؤسسا على ما وصل الينـا وقرأنا من أساليب ، نالت منهـا ولا شك متاعب النقل والترجمة ...

« ليست لدينا معلومات وثيقة عن الترجمة السريانية **للعهد القديم** ، ولا عن أصلها ... ومهما يكن من أمرها فقد وصلنا ـ الى جانب النص الذى تمثله أغلب المخطوطات التى يرجع تاريخ كتابة بعضها الى القرن السادس ـ نص آخر يشتمل على سفرى التكوين والخروج فى مخطوط محفوظ بالمتحف البريطانى يرجع تاريخه الى سنة ٤٦٤ م ـ وهو أقدم مخطوط مؤرخ للكتاب المقدس عرف حتى اليوم ، وهو يتفق مع النص العبرى بوجه عام ... هذه الترجمة اليهودية لبعض أسفار العهد القديم ، هى التى أخذتها الكنيسة المسيحية ، فأتمتها وهذبت أسلوبها ، واتخذت من هذا النص الموسع نموذجا مثاليا نقلت عنه أكثر مخطوطات العهد القديم ...

ثم رأينا المبشرين المسيحيين قد استقروا فى بلاد أشور قبيل نهاية القرن الأول ... فأى نصوص **العهد الجديد** كانت تستعملها هذه الجاليات المسيحية ؟

هناك نظريتان : أما أصحاب النظرية الأولى فيرون أن طاطيان ـ الذى جاء من أشور ويرجح أنه ولد حوالى سنة ١١٠ م ، وكانت لغته السريانية وتثقف فى المراكز الكبرى ودرس فلسفة اليونان ـ لما عاد من روما رأى أن المسيحيين محتاجون الى نص سريانى للكتاب المقدس ، فوضع كتابه (الدياطسرون) ـ أى مضمون الأناجيل الأربعة ، ولكن هذا الكتاب لم يعجب رجال الكنيسة فيما بعد ، فترجموا الأناجيل من اليونانية الى السريانية ترجمة كاملة !

وأما أصحاب الرأى الثانى فيرون أن المسيحيين فى حذيب كانت

لديهم ترجمة سريانية كاملة للأناجيل ، الى جانب الترجمة السريانية التى كانت عندهم للعهد القديم والتى ورثوها عن العصر اليهودى الذى أظل بلادهم حينا • ويرى أصحاب هذا الرأى أن طاطيان نفسه قد استخدم هذه الترجمة السريانية القـــديمة للأناجيل فى تصـــنيف كتـابه (الدياطسرون) !

•• ونستطيع اذن أن نقول : ان أقدم ترجمة سريانية كاملة للأناجيل قد وضعت قبل تأليف الدياطسرون ، ولكن لم تصل الينا ترجمة مؤرخة ترجع الى ذلك العهد ، **وأقدم ما وصل الينا من نصوص الترجمة السريانية للأناجيل مخطوطتان : احدهما الكيوريتانية ـ (نسبة الى وليم كيوريتون المستشرق الانجليزى) ويرجح أنها كتبت فى القرن الخامس ، والثانية ممحوة ديرطورسينا** ـ والممحوه Polimpsest كتابة دونت على الجلد أو الورق ثم محيت وكتب مكانها غيرها ، ولكن تمكن العلماء حديثا من اظهار الكتابة الممحوة بطريقة خاصة ـ وتشتمل الكتابة الظاهرة فيها على قصص للقديسين كتبها الراهب يوحنا فى دير (معرة مصرين) بين أنطاكية وحلب وفرغ من كتابتها حوالى سنة ٧٧٨ م ، وربما كانت الكتابة الممحوة قد كتبت حوالى القرن الرابع » •

هذه قصة الترجمـة السريانية ، وهى أقـــرب الترجمات الى اللغة الأصلية للكتاب المقدس : « فاللغة السريانية احدى اللهجات الآرامية ، والآرامية لغة من مجموعة اللغات التى اتفق العلماء على أن يطلقوا عليها اللغات السامية ••• وآرامية الكتاب المقدس ، كتب بها بعض أجزاء من أسفار عزرا ودانيال ، وهى تدل على مدى انتشار الآرامية بين اليهود فى عصر الفرس حتى أصبحت عندهم لغة دينية مقدسة » •

بل ان متاعب النقل والترجمة قد استهلت فى عصر المسيح نفسه ، ولم تنقطع حتى ظهرت الترجمات السريانية واليونانية :

« ••• كانت العـــامة فى فلسطين قـــد نسيت العبرية فى زمان المسيح ، واتخذت لها لهجة آرامية غربية ، وكان المسيح يحدث تلاميذه ويخاطب العامة (باللهجة اليهودية الغربية المقدسية والجليلية) ، مع أننا نعرف من الانجيل انه كان يعرف العبرية • ولم يكن الكتاب المقدس قد ترجم الى هذه اللهجة فى أول الأمر ، فكان الأحبار يقرأون التوراة فى الصلاة بالعبرية ، ثم يترجمون الى الآرامية على السامعين ـ حتى أصبحت الترجمة قسما من الصلاة عند اليهود ! ثم كتبوا التراجم مع شروح

وانتهوا من جمعها وتصحيحها فى القرن الرابع الميلادى (ترجوم) ، وكذلك كتب بها المدراشيم والتلمود الفلسطينى أو المقدسى - وتحتوى على شرائع ونبذ أخبارهم المشهورين ...

واستعمل السامريون لهجة آرامية غربية ، ترجموا اليها التوراة وألفوا فيها طقوسا وأشعارا وأدعية خاصة بالصلاة ... وهى قريبة من اللهجة اليهودية الفلسطينية ، لكنها مضطربة ...

وقد أثبت البحث **كذلك أن بعض الأناجيل قد كتب أولا باللهجة الآرامية الغربية - اللهجة التى كان يخاطب بها المسيح تلاميذه ، ثم نقل بعد ذلك الى اللغة اليونانية . ولكن الترجمة كانت مع ذلك تشتمل على كلمات آرامية بحروف يونانية ، ولكن هذه النسخ من الأناجيل لم تصل الينا ، ولم يصل الينا غير النسخة اليونانية - وعنها ترجم ثانية الى الآرامية والسريانية .**

وأما كتابات بولس الرسول فقد كتبت باليونانية مباشرة ...

وقد أخذ نصارى فلسطين وسوريا هذه الترجمة السريانية للعهد الجديد فاستعملوها فى كنائسهم ، مع بعدها عن لغة العامة . ثم حدث بعد ذلك أن انقسم النصارى الى نساطرة ويعاقبة وملكية ، وكان الملكية يخالفون أكثر النصارى الآراميين فعدلوا عن كتابة لهجتهم بالخط السريانى - واستبدلوا به خطا الى حد ما مزيج من الخطوط السريانية جميعها . وكان من أهل فلسطين ملكية ، فترجموا الكتاب المقدس الى لهجتهم وكانت ترجمتهم حرفية لم يراعوا فيها المعانى ولا ترتيب الكلمات فى الجملة على قواعد اللغة الآرامية ، وكان املاؤهم غير واضح وغير مشكل فيمكن الاختلاف فى نطق كلماته - لذا لم تلق (اللهجة الآرامية الفلسطينية المسيحية أو الملكية) عناية كافية ...

وكان يهود العراق الساكنون فى بابل وما حولها يستعملون (اللهجة الآرامية اليهودية البابلية) فى كتب الدين بين القرنين الثانى والسابع الميلادى ، وتأثرت كغيرها من اللهجات الآرامية اليهودية باللغة العبرية . أما (اللهجة المندعية) فاسمها مشتق من كلمة آرامية معناها المعرفة ويسمى أصحابها بالصابئين أو المندعيين - طائفة من القبائل الآرامية كانت تسكن منطقة نهر الأردن ثم هاجرت منها الى العراق ، وكانت أهل حران منهم يسمون أنفسهم ناصريين ، وخلطوا فى تعاليمهم بين مذاهب اليهود والنصارى ووثنية البابليين وأثينية الفرس وأدخلوا

عليها أخيرا بعض تعاليم الاسلام ـ وهم يدعون أنهم على مذهب يحيى ابن زكريا (يوحنا المعمدان) !

ولما ظهرت المسيحية وانتشرت فى اقليم الرها ، اتخذت اللهجة الآرامية هنـــاك لغة أدبية لها ، وكره أصـحابها أن يطلق عليهم اسم الآراميين ، ورأوا فى هذه التسمية مرادفا للوثنية والالحاد ، فعدلوا عنه الى الاسم الذى أطلقه عليهم اليونان ـ وهو (السريان) ، وسموا لغتهم السريانية • وليس من شك فى أن السريانية قد استفادت كثيرا من اتخاذ المسيحية لها لغة أدبية ، فانتشرت فيما بين النهرين ••• أما عن أسلوب الكتابة السريانية فقد كان المؤلفون متأثرين بأسلوب الكتاب المقدس ، وكثرت فى كتاباتهم الاصطلاحات والاستعارات المستقاة منه » (١) •

ولا يفوتنا أن نلاحظ أن لكل لغة بيانا ، وأن ترجمة القرآن المعجز لغير العربية لن تكون في اشراق الأصل العـــربى ، فلا يستغرب على الأناجيل فى هذه الظروف أن تتثنى لغتها أحيانا أمام متاعب التنقل بين اللهجات الآرامية ، والتأثيرات العبرية ، والترجمة اليونانية ـ ثم بقية الترجمات الى مختلف اللغات !!

« ••• ويرجح المؤرخون المختصون أن الأناجيل جميعا تعتمد على نسخة آرامية مفقودة ••• أما الأناجيل الموجودة الآن فقد كتبت جميعا باليونانية العامة ، ولوحظ فى ترجمتها أنها تعتمد على نصوص آرامية وتحافظ على ما فيها من الجناس وترادف المعانى والمفردات • وتتفق الآراء على أن هذه الأناجيل لا تحتوى كل مافاه به السيد المسيح ، اذ جاءت فى أعمال الرسل التى تضمنها العهد الجديد كلمة منسوبة الى السيد المسيح لم ترد فى الأناجيل وهى : (تذكروا كلمات المسيح أن العطاء مغبوط أكثر من الأخذ) ، وجاء فى الأناجيل الأخرى التى لم تعتمد كلمات من هذا القبيل، وكشفت أوراق بردية فى مصر ترجع الى منتصف القرن الثانى لا تشبه الأناجيل المعتمدة فى نصوصها • وتتفق الآراء أيضا على أن نسختين من الأناجيل كتبهما مسيحيان لم يجتمعا بالسيد المسيح ولم يسمعانه : وهما نسخة مرقس التى دون فيها ماسمعه من بطرس الرسول بغير ترتيب ـ وقد كتبها فى روما بعد مقتل الرسول

(١) دكتور مراد كامل ودكتور محمد حمدى البكرى : تاريخ الأدب السريانى ص ٤٩ : ٥١ ، ٣ ، ٧ ، ٩ : ١٣ ، ١٥

وليس معه أحد من التلاميذ ، ويتراوح تاريخ كتابتها بين سنتي ٦٧ ، ٧٠ م والنسخة الأخرى هي نسخة لوقا صاحب بولس الرسول دون فيها ما سمعه منه ، ولعله أضاف اليها جزءا من النسخة المفقودة ثم جزءا من انجيل مرقس بعد اطلاعه عليه ــ وكانت كتابتها على الأرجح سنة ٨٠ م · أما انجيل يوحنا فهو آخر الأناجيل كتابة ومراجعة ، وأكثر النقاد على أنه مكتوب بقلم يوحنا تلميذ المسيح ، وآخرون يعتقدون أنه بقلم يوحنا آخر كان في افسس ولم ير المسيح ، لأن يوحنا التلميذ هو صاحب سفر الرؤيا المؤلف على أصح الأقوال سنة ٩٦ م ، ولا يظن أن مؤلفا واحدا يكتب في وقت واحد كتابين بينهما مثل ذلك التباين في المنهج والفحوى · على أن الأب فرارفنتون مترجم الانجيل (طبعة أكسفورد) يعن له أن انجيل يوحنا هو أقدم الأناجيل ، وأنه كتبه أولا بالعربية بين سنتي ٣٠ ٤٠ م ثم نقله الى اليونانية · ولكن تأخر الزمن الذي كتب فيه هذا الانجيل ثابت من تفصيله بعض ما أجملته الأناجيل ، وزيادته في التعبيرات الفلسفية ، وتوسعه في شرح العقائد التي أثرت عن بولس الرسول » (١) ·

***

ومن بين آلاف المخطوطات القديمة المتضمنة أجزاء من (الكتاب المقدس) نعرف أربع نسخ هي أكمل المخطوطات وأقدمها وأهمها ··

* **نسخة الفاتيكان :** (كودكس فاتيكانس) Codex Vaticanes ملك مكتبة الفاتيكان بروما وبقيت هنـــاك مدة طويلة وسجلت ضمن محتوياتها سنة ١٤٧٥ ثم نقلت لبـــاريس على أثر حملة بونابرت على ايطاليا وقام بدراستها أحد العلماء من سنة ١٨٠٩ الى ١٨١٥ · وصورت سنة ١٨٩٠ وبيعت النسخ المصورة للجامعات والمتاحف · وهي في ٨٢٠ صحيفة والكتابة في الصحيفة على ٣ أعمدة كل منها يحتوي ٤٢ سطرا ويرجح الخبراء أنها كتبت في تاريخ لا يتعدى منتصف القرن ٤ م ·

* **نسخة سينا :** واكتشفت في (دير سان كاترين) بسفح جبل سيناء الذي بني سنة ٣٧٢ م بأمـــر الملكة هيـــلانة والدة الامبراطور قسطنطين وأطلق عليه اسم الشهيدة التي استشهدت في حكم الامبراطور مكسمليان (٣٠٥ : ٣١٣) وأدت حصانة بناء الدير الى حفظه وبقائه

---

(١) العقاد عبقرية المسيح ص ١٩٢ ــ ١٩٣

وحماية ما به من تراث . واكتشف نسخة الانجيل فيه العالم الألماني قسطنطين تشندورف الذى زار الدير عام ١٨٤٢ بحثا عنها فوجدها فى ٤٥ رقا تحوى أجزاء من الأسفار المقدسة وكرر الزيارة ١٨٥٣ ، ١٨٥٩ فوجد الأجزاء الناقصة . واكتمل تحت يده (العهد الجديد) كما عثر على أجزاء من القديم مع رسالة برنابا ورسالة بعنوان راعى هرماس وقد نقلها الى بتروغراد حيث صورت ثم اشتراها المتحف البريطانى . ويقدر عدد صفحات نسخة سيناء الأصلية بـ ٧٣٠ صفحة أحرق الرهبان منها ٣٤٠ صفحة لجهلهم بها ، ويظن أن تاريخ كتابتها يرجع الى تاريخ كتابة نسخة الفاتيكان والبعض يظن أنها احدى النسخ الخمسين التى أمر قسطنطين بنسخها لاستخدامها فى كنائس العاصمة . وبعض العلماء يرجح بأنها لم تكتب قبل القرن ٦ م .

وهكذا تختلف الآراء حول تاريخ نسخة سيناء وهى منقولة عن ترجمة للبشائر حدثت فى القرن ٢ م ومن هنا تعد أقدم النسخ المعروفة للانجيل والبشائر فيها تنقص ٨ صفحات ، لكن النسخة تتضمن الى جانبها كتابا متأخرا فى سير بعض القديسات .

※ **نسخة الاسكندرية** : ولا تبلغ قدم النسختين السابقتين ، وقد قدمها بطريرك القسطنطينية عام ١٦٢٤ هدية للسفير البريطانى فى تركيا ويعتقد البعض أنها من كتابة (القديس تكلا) معاصر الرسول بولس ولكن هذا القول محل نظر . وقد نقلت من الاسكندرية حينما كان البطريرك اثناسيوس على كرسيها وقبل تنصيبه على كرسى القسطنطينية ويعتقد أن ذلك كان عام ١٣٠٨ . وتحوى النسخة ٨٢٠ صفحة بقى منها ٧٧٣ صفحة يرجح أنها كتبت فى القرن ٥ م .

※ **نسخة افرايم** : (كودكس افرايم رسكربتوس) Codex Ephiraïm Spiritus وترجع الى القرن ٥ م وكانت رقوقها قد استخدمت فى القرن الـ ١٢م لكتابة مصنف اللاهوتى افرايم السريانى الذى عاش فى القرن ٤م بعد أن بهتت سطور الكتاب المقدس المدونة عليها أولا . وكانت ملك أسرة مديشى فى فلورنسا ونقلتها كاترين الى باريس فى القرن ٦ م وقرأها تشندورف ومعظم صحائف (العهد الجديد) فيها مكتوبة فى عمود واحد بلا فواصل .

وهكذا لم تكن معظم النسخ الاثرية موجودة حين قام العلماء بترجمة الكتاب المقدس الى الانجليزية عام ١٦١١ م وهى الترجمة المعروفة بترجمة الملك جيمس .

وهناك نسخ أخرى لأجزاء من الكتاب المقدس ترجع لعصور متباينة، وهناك نسخة واحدة ترجع الى القرن الأول أو الثانى للميلاد .

***

* وقد اكتشفت **مخطوطات فى كهف قديم قرب البحر الميت**، ظهر بفحصها أن احداها نسخة كاملة من (سفر أشعياء) يرجع تاريخها الى العام المائة قبل مولد المسيح وهى تعد أقدم نسخة لسفر موجود من التوراة . واكتشفت قرب المكان خرائب معبد لليهود وثقود يرجع تداولها الى الفترة بين القرن الأول قبل الميلاد والقرن الأول بعده. وتتابعت اكتشافات الرقوق والمخطوطات لأسفار العهد القديم عدا (سفر استير) .

* **وفى عام ١٩٤٥ اكتشف قرب نجع حمادى فى صعيد مصر عدد من مخطوطات البردى** ترجع الى القرن ٤ م ، وتحتوى على دراسات فى اللغة القبطية ومجموعة أخرى من كتابات تعرف (بانجيل توما) وهو لا يحوى تاريخا مفصلا لحياة المسيح بل مجموعة من الأقوال المنسوبة اليه يبدأ بعضها بكلمة (قال يسوع) وهى ليست مرتبة ترتيبا تاريخيا ويمكن تقسيمها الى فئات أربع : الأولى ما يوجد في البشائر وهو أكثرها والثانية منها تحوى نفس المعانى الموجودة بالبشائر وتختلف عنها لفظا ، والثالثة ما اقتبسه آباء الكنيسة فى كتاباتهم وتعتبر تأييدا لصحة ما أوردوه ، والرابعة تنفرد بها هذه الاقوال منها « يقول يسوع ان كان من يرشد فيكم يقولون لكم هو ذا الملكوت فى السموات فالطيور ستقبلكم ، ولو قالوا لكم هو ذا الملكوت فى البحر فالاسماك ستقبلكم ولكن الملكوت داخلكم كما هو خارجكم » « وقال له تلاميذه هل الختان نافع أم لا ؟ فأجابهم لو كان نافعا لولدتم مختونين من أمهاتكم ، ولكن الختان الحقيقى الوحيد النافع هو ختان الروح » « وقالت مريم ليسوع بماذا تشبه تلاميذك ؟ فأجاب يشبهون أطفالا صغارا استقروا فى حقل آخرين فاذا جاء أصحابه قالوا اتركوا لنا حقلنا فيتركون الحقل ويمضون » « وقال يسوع ويل للفريسيين لانهم مثل كلب يرقد فى مذود القطيع لا يأكل ولا يدع القطيع يأكل » . ويلاحظ أن يوحنا قد كتب فى ختام بشارته « وأشياء أخرى كثيرة صنع يسوع ان كتبت واحدة فواحدة فلست أظن أن العالم نفسه يسع الكتب المكتوبة » ويذكر لوقا فى مستهل بشارته أن كثيرين قد أخذوا فى كتابة قصة المسيح غير أصحاب الاناجيل الاربعة .

*** وأكثر ما انتهى الينا ، من كتابات العهد الجديد وصل الينا ضمن مجموعة شستريتي البردية** وهو انجليزى اشتراها من أسواق مصر وبيع جزء آخر منها لجامعة متشجن بالولايات المتحدة • وتتكون المجموعة من ١١ ملفا تحـــوى مقتبسات من ٩ أسفار من العهد القديم ومعظم أسفار العهد الجديد عدا الرسائل الصغرى • أما الجزء الذى يحوى رسائل بولس فيرجع الى سنة ٢٠٠ م ولقد كتب بولس رسائله للكنيسة مابين عامى ٥٠ ، ٦٠ م وأقدم نسخة لدينا من أسفار العهد الجديد قبل اكتشاف هذه المجموعة كانت هى (نسخة الفاتيكان) وقد كتبت فى منتصف القرن ٤ م • وهكذا تأتى هذه المجموعة فى منتصف التاريخ ما بين كتابة هذه الرسائل وبين أقدم اكتشاف لدينا • وترتيب الاسفار فى مجموعة بتى يختلف قليلا عن ترتيبها فى العهد الجديد الذى بين أيدينا فالرسالة الى افسوس تأتى قبل غلاطية والرسالة الى العبرانيين تأتى بين رومية وكورنثوس الأولى • وبمقارنة هذه الأسفار مع أسفار العهد الجديد التى بين أيدينا لا نرى الفارق فى اللفظ ولا فى المعنى •

*** وفى عام ١٨٨١ اكتشـــــف الدياطسرون أو الرباعى** وقد كتبه طاطيان السريانى فى شـــمالى العراق بالسريانية واستخدم نصوص الأناجيل الأربعة مدمجة فى انجيل واحد اغفل منه المكرر ، وقد اشتهر هذا المصنف واستخدمه المسيحيون الأوائل حتى أبطلته الكنيسة خوفا من أن يأخذ مكان الأناجيل • واكتشفت فى السنوات الأخيرة مخطوطات عدة من الدياطسرون بلغات مختلفة فى خرائب دورا على الفرات ، منها ورقة من الاصل اليونانى لعلها ترجع الى الفترة بين عامى ٢٥٤ ٢٥٧ ، ومنها ترجمة أخرى بالعربية فى مكتبة الفاتيكان ترجع للقرن ١٠ ونسخة بالفارسية ترجع للقرن ١٣ • وتتضافر هذه الاكتشافات على اثبات شيوع الدياطسرون فى القرن الثانى وهذا مما يرد به على ما يثار من شبهات حول انجيل يوحنا وتأخر كتابته (١) •

***

كل هذه مصـــاعب اجتازتها الأناجيل المتداولة وترجماتها حتى وصلت الينا باللسان العربى •••

ومع هذه المصاعب كلها ••• وصل الينا ما وصل فى الأناجيل المتداولة يشرق منه النور :

---

(١) دكتور جون الدر : الاحجار تتكلم ترجمة دكتور عزت زكى ص ١٢٦ : ١٣٤ ، ١٤٣ ـ ٤ ، ١٤٨ : ١٥٠

« طوبى للمساكين بالروح ··· لأن لهم ملكوت السموات ·

« طوبى للحزانى ··· لأنهم يتعزون ·

« طوبى للودعاء ··· لأنهم يرثون الارض ·

« طوبى للجياع والعطاش الى البر ··· لانهم يشبعون ·

« طوبى للرحماء ··· لانهم يرحمون ·

« طوبى للأنقياء القلب ··· لأنهم يعاينون الله ·

« طوبى لصانعى السلام ··· لأنهم أبناء الله يدعون ·

« طوبى للمطرودين من أجل البر ··· لأن لهم ملكوت السموات»

يقول ديورانت عن المسيح :

« كان يعلم الناس بالبساطة التي يتطلبها حال مستمعيه ، ويمزج التعاليم بالقصص الطريفة لتنفذ دروسه للأذهان ، وبالحكم والأمثال القوية ـ بدل الحجج العقلية ، وبالاستعارات والمجازات التى لا تقل روعة عن أمثالها فى آداب العالم » ·

ويشير ديورانت الى أن القصص الرمزى كان مألوفا في الشرق وقد استعمله أنبياء بنى اسرائيل والمزامير وأحبار اليهود ، كما يقرر أن خطب المسيح كانت واضحة تتجه الى هدفها مباشرة ، وهى تنبىء بروعة خيال صاحبها وقوته واخلاصه العظيم مما رفعها الى مستوى الشعر الملهم ·

وقد تقدمت مناقشة رأى ديورانت فى « غموضـــها ، ومجافاتها العدالة لأول وهلة » ! وهو يزيد أن فى بعضها « سخرية وحقدا » !! وهو يعقب أخيرا : « وتصعب علينا النظرة الموضوعية المجردة ، ومن اكبر أسبابها أن تراثنا الاخلاقى ومثلنا العليا وثيقة الصلة به ، تكونا على منواله ، ولهذا فانا نحس بما يصيبنا من أذى اذا وجدنا عيبا فى أخلاقه ! لقد بلغ شعوره الأخلاقى حدا جعله يندد أشد التنديد بمن لا يشاركونه فى آرائه ، ويعفو عن كل الأغلاط الا عدم الايمان ، وان الانسان ليجد فقرات قاسية مريرة لا توائم قط مايقال لنا عن المسيح فى مواضع أخرى منها !! ··· كانت عقائده القوية تملأ قلبه ، كما كان غضبه للحق يطمس من حين الى حين معالم انسانيته العميقة ··· أما فيما عدا هذا فقد كان أحب الناس الى القلوب » !!! وفى خاتمة المطاف

يجمل ديورانت وصف كلمات المسيح بأنها : « نماذج فى الايجاز ، والوضوح ، والقوة » (١) ..

وأنا ـ كمسلم ـ لا أرى فيما أشار اليه ديورانت ثلمة فى رسالة المسيح ، أو مثلبة فى سيرته ...

فهو عندى انسان ، ينفعل بانفعالات الانسان ...

ورسالته دعوة متطورة نامية ، لها مراحل ، ولها غايات عامة شاملة ومواقف جزئية محددة ، ولكل من هذه وتلك ـ فلسفتها ومطالبها ...

والمسيحية دين واقعى ، نزل ليلائم الانسان بكل أحواله ، والمجتمع بكل ظروفه ...

تارة يجيب المسيح حين يقول يوحنا : « يا معلم رأينا واحدا يخرج الشياطين باسمك ، فمنعناه لأنه ليس يتبع معنا . فقال له يسوع : لا تمنعوه ، **لأن من ليس علينا فهو معنا** » ...

وتارة أخرى يقول المسيح : « **من ليس معى فهو علي** ، ومن لا يجمع معى فهو يفرق » (٢) .

وهذا وذاك موقفان مفهومان ... لأن الدعوات والمبادىء تجتاز فترة تجميع وتأليف فى بدايتها وبعد غلبتها ، وتجتاز فترة تمييز وتصفية فى مرحلة كفاحها .

أما قول المسيح : « لذلك أقول لكم كل خطيئة وتجديف يغفر للناس ، وأما التجديف على الروح القدس فلن يغفر للناس ! ومن قال كلمة على بن الانسان يغفر له ، وأما من قال على الروح القدس فلن يغفر له ، لا فى هذا العالم ولا فى الآتى » (٣) ـ فهو قول لا يقصد به طبعا الا الذين يتعرضون للمسيح ورسالته مكابرة ومعاندة ، لا عن رأى برىء واقتناع !! . وكل مبدأ يواجه المعارضين بحسن نية ويواجه المعارضين بسوء نية ، والأخيرون من العدل والمنطق أن ينالوا جزاءهم وقد ركبت أهواؤهم عقول رءوسهم وعطلوا نعمة الله فيهم : « وجحدوا بها ،

---

(١) ديورانت : قصة الحضارة جـ ٣ م ٣ (قيصر والمسيح) ترجمة بدران ص ٢١٨ ـ ٢١٩ ، ٢٢٤

(٢) لو ٩ : ٤٩ ـ ٥٠ ، مت ١٢ : ٣٠

(٣) مت ١٢ : ٣٢

واستيقنتها أنفسهم ظلما وعلوا ، فانظر كيف كان عاقبة المفسدين » (١) !!

هؤلاء المكابرون المتمردون على الحق والعقل هم الذين يعنيهم المسيح ، أما غيرهم فيفتح لهم كل باب مهما أخطأوا : « وقال لقوم واثقين بأنفسهم أنهم أبرار ويحتقرون الآخرين هذا المثل : انسانان صعدا الى الهيكل ليصليا ، واحد فريسي والآخر عشار ... أما الفريسي فوقف يصلي في نفسه هكذا : اللهم أنا أشكرك انى لست مثل باقى الناس الخاطفين الظالمين الزناة ، ولا مثل هذا العشار ! أصوم مرتين فى الأسبوع ، وأعشر كل ما أقتنيه !! ... وأما العشار فوقف من بعيد لا يشاء أن يرفع عينيه نحو السماء بل قرع على صدره قائلا : اللهم ارحمنى أنا الخاطيء ! ... أقول لكم : ان هذا نزل الى بيته مبررا دون ذاك ، لأن كل من يرفع نفسه يتضع ومن يضع نفسه يرتفع » (٢) .

« ومن يشاقق الرسول ـ **من بعدما تبين له الهدى** ـ ويتبع غير سبيل المؤمنين نوله ما تولى ، ونصله جهنم وساءت مصيرا . ان الله لا يغفر أن يشرك به ، ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء ، ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا » (٢) .

—***—

ولا أختم هذا الفصل ـ قبل الاشارة الى طاقة المناقشة التى أوتيها المسيح ، والتى تجلت فى ثنايا ردوده الخطابية على الكتبة والفريسيين، فقد ضل ضلالا بعيدا » (٣) .

« ... جاءوا يسوقونه الى حيث أبى أن يساق ، وكان همهم الأكبر أن يثبتوا عليه أنه يبطل شريعة ، أو يتصدى لتنفيذ ذريعة !!

وتعمدوا وهو فى الهيكل أن يضطروه الى موقف الحكم أو انكار الشريعة ، فاقتحم عليه الكتبة والفريسيون درسه ومعهم امرأة يدفعونها الى وسط الحلقة وراحوا يتصايحون : أيها المعلم هذه امرأة أخذت وهى تزنى ، وقد أوصانا موسى أن نرجم الزانية ، فماذا تقول أنت ؟؟ ...

---

(١) النمل ١٤

(٢) لو ١٨ : ٩ ـ ١٤

(٣) النساء ١١٥ ـ ١١٦

ماذا يقول هو ؟ ... ما بالهم يسألونه ويستأذنونه ، وهو لا يملك أن يمنعهم لو ذهبوا بها الى قضاتها ؟

ان الشرك مكشوف : ان قال ارجموها ــ فذلك حق الولاية يدعيه ، وان قال أطلقوها ــ فتلك شريعة موسى ينكرها فى قلب الهيكل !! .

فوقف قائما ، ورد عليهم رياءهم في وجوههم ، وكسر الشرك بقدميه من كلا طرفيه وهو يقول لهم : (من كان منكم بلا خطيئة فليتقدم وليرمها بحجر) !

لا ينقض شريعة موسى ، ولا يدعي تنفيذها ، ولا يجاهل رياءهم ، بل يدعهم هم يحاولون الخلاص من الحيرة والخجل بالروغان !! ..

ولم تحدث مناوشة قط من هذا القبيل بينه وبين المتفيهقين من متخذى العلم صناعة وأحبولة الا ارتدوا منها مفحمين ، وخرج منها مجيبا أحسن جواب ، بل أكرم جواب !

فلم يصعب عليه أن يحطم (الشرك السياسى) الذى نصبوه له ليسمعوا منه اشارة باعطاء الجزية أو بعصيان الدولة ، وأراهم أنهم يتعاملون بنقود ويكنزون منها الثروة والمال ، فلماذا لا يعطون ما لقيصر لقيصر وما لله لله ؟ ولم يصعب عليه أن يسكت الصدوقيين والفريسيين معا ...

والحق أن قدرة السيد المسيح على الردود السريعة والأجوبة المسكتة ، لهى دليل آخر الى جانب أدلة كثيرة على (الشخصية) التاريخية والدعوة المتناسقة ، لأنها قدرة من وراء طاقة التلاميذ والمستمعين ، بل هم يروونها ولا يفطنون الى أهم البواعث عليها فى سياسة الرسالة المسيحية ، فان هذه الرسالة قائمة على اجتناب التشريع واجتناب التعرض له بالابطال أو الابدال ... وعلى ذلك جرى أسلوبه فى كل أمر وفى كل موعظة ، فهو أسلوب الآداب والمثل العليا ، وليس بأسلوب النصوص والقوانين » (١) .

---

(١) العقاد : عبقرية المسيح ــ ص ١٢٤ : ١٢٦

... وعلى الأرض السلام

« وظهر بغتة مع الملاك ،
جمهـور من الجند السموى
مسبحين الله وقائلين :
المجد لله فى الأعالى ...
وعلى الأرض السلام ...
وبالناس المسرة ... »
(لو ٢ : ١٣ ـ ١٤)

شقاء ... فى طلب السعادة

ماذا ينشد الناس من وراء العقائد والأفكار ؟؟

سعادة الجنس البشرى ··· دون جدال ·

سعادة النفس والروح ، ســـعادة العقل والفكر ، ســـعادة الفرد والمجموع ··· فمن عجب أن يحطم النـــاس الســعادة وهم يبحثون عن السعادة ، يحطمون سعادتهم الحاضرة المقررة ، من أجل سعادة مستقبلة مرغوبة !

يختلفون ويصطرعون ··· وهم يطلبون الراحة والهناء !

آلهة شتى : قد تكون هى الذات أو الأسرة أو الأرض أو الدولة أو الطبقة !! وقد يؤمن الناس بالله الذى له مافى السموات وما فى الأرض وما بينهما واليه المصير ، ثم لا يعصمهم الايمان من الشقاق فى تصور الاله بين مذاهب شتى !!

ما أحكم الكلمات المنيرة التى أرسلها فيلسوف التاريخ والحضارات الكبير أرنولد توينبى : « ··· ان التائهين فى بيداء المجتمع الغربى ، قد انحرفوا عن طريق الرب الواحد الحق الذى آمن به أجدادهم — أولئك الذين علمتهم التجربة الواقعية بأن الدول الاقليمية مثل الكنائس الطائفية أوثان نجلب عبادتها الحرب لا السلام · وهذا ما يجعل التائهين يندفعون صوب التعلق بهدف بديل — هو النظم السياسية الشاذة » (١) ·

والسعادة البشرية قبلة الجميع ، وانما الخلاف فى مجال السعادة والطريق اليها ···

وينصف الناس لو بدأوا السعادة من نقطة البدء الصحيحة : من حاضرهم وواقعهم ، من اليوم قبل الغد !!

---

(١) فؤاد شبل : فلسفة التاريخ عند توينبى — (المجلة) ع ٥٨ نوفمبر ١٩٦١

ما لهم لا يتفقون على أن يخلوا بين الناس وبين عقولهم ــ يفكرون دون تشويش ، ويقارنون ويوازنون دون شغب أو فتنة !

ما لهم لا يقصرون خلافهم على ميدان الكلمة والبيان ، فيكون أسلوب البحث عن السعادة هو خير بشارة بالمجتمع السعيد ــ المجتمع الذى يكون فيه الاحتكام للعقل والبرهان !

ما لهم لا يتفقون على احترام العقل أساسا قبل الدعوة لأى مبدأ ، وتقديس الحرية فى نفس كل فرد بدل انقياد التقليد وولاء العصبية ، وتذكير الناس (بالحياد العلمى) عند التفكير والتقدير !!

—***—

واذا تنكب دعاة أى مبدأ هذا السبيل القويم ، فما أنكر أن يقترف نفس الخطأ هداة الدين ٠٠٠

يتشاحنون على الدين ، وهم يبشرون بوحدة الديان ٠٠٠

المسيح : اله أم نبى ؟

له طبيعة واحدة (مونوفيزيت) ، أو طبيعتان (ديوفيزيت) ؟

وفى لجاج الجدل ، ينسى الدعاة الهداة الغيورون ــ أن الأرض تغص بالذين ينكرون النبوة والألوهية معا ، ويكفرون بالمسيح وبالله والمرسلين!!

كتب ابن تيميـة (٦٦١ : ٧٢٨ هـ) كتابا أفرده لمناقشة عقـائد المسيحية هو « الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح » قال فى مقدمته :

« وكان من أسباب نصر الدين وظهروه أن كتابا ورد من قبرص فيه الاحتجاج لدين النصارى بما يحتـج به علماء دينهم وفضلاء ملتهم قديما وحديثا من الحجج السمعية والعقلية فاقتضى أن نذكر من الجواب مايحصل به فصل الخطاب وبيان الخطأ من الصواب لينتفع بذلك أولو الألباب ويظهر ما بعث الله به رسله من الميزان والكتاب ٠ وأنا أذكر ماذكروه بألفاظهم بأعيانها فصلا فصلا ، واتبع كل فصل بما يناسبه من الجواب فرعا وأصلا ، وعقـدا وحلا ٠ وما ذكـروه فى هذا الكتاب هو عمدتهم التى يعتمد عليها علماؤهم فى مثل هذا الزمان وقبل هذا الزمان ، وان كان قد يزيد بعضهم على بعض بحسب الأحوال ٠ فان هذه الرسالة وجدناهم يعتمدون عليها قبل ذلك ويتناقلها علماؤهم بينهم ، والنسخ بها موجودة قديمة ، وهى مضافة الى بولس الراهب أسقف صيدا الانطاكى

كتبها الى بعض أصدقائه وله مصنفات فى نصر النصرانية ، وذكر أنه لما سافر الى بلاد الروم والقسطنطينية وبلاد الملافطة وبعض أعمال الافرنج وروميه ، اجتمع باجلاء أهل تلك الناحية وفاوض أفاضلهم وعلماءهم ، وقد عظم هـذه الرسالة وسماها « الكتاب المنطيقى الدولتخانى المبرهن عن الاعتقاد الصحيح والرأى المستقيم » ومضمون ذلك ستة فصول :

الفصل الأول : دعواهم أن محمدا صـلى الله عليه وسلم لم يبعث اليهم بل الى أهل الجاهلية من العرب ودعواهم أن فى القرآن ما يدل على ذلك والعقل يدل على ذلك ·

الفصل الثانى : دعواهم أن محمدا صلى الله عليه وسلم اثنى فى والزبور والانجيل ، وغير ذلك من النبوات ـ تشهد لدينهم الذى هم عليه

الفصل الثالث : دعواهم أن نبوات الأنبيـاء المتقدمين ـ كالتوراة والزبور والانجيل ، وغير ذلك من النبوات ـ تشهد لدينهم الذى هم عليه من الاقانيم والتثليث والاتحاد وغير ذلك بأنه حق وصـواب ، فيجب التمسك به ولا يجوز العدول عنه اذ لم يعـارضه شرع يرفعه ولا عقل يدفعه ·

الفصل الرابع : منه تقرير ذلك بالمعقول وأن ما هم عليه من التثليث ثابت بالنظر المعقول والشرع المنقول موافق للأصول ·

الفصل الخامس : دعواهم أنهم موحدون ، والاعتذار عما يقولونه من ألفاظ يظهر منها تعدد الآلهة ـ كألفاظ الاقانيم ـ بأن ذلك من جنس ما عند المسلمين من النصوص التى يظهر منها التشبيه والتجسيم ·

الفصل السادس : ان المسيح عليه السـلام جاء بعد موسى عليه السلام بغاية الكمال فلا حاجة بعد النهاية الى شرع مزيد على الغاية ، بل يكون ما بعد ذلك شرعا غير مقبول ·

« ونحن ـ ولله الحمد والمنة ـ نبين أن كل ما احتجوا به من حجة سمعية من القرآن أو من الكتب المتقدمة على القرآن ، أو عقلية ، فلا حجة لهم فى شىء منها بل الكتب كلها مع القرآن ، والعقل حجة عليهم لا لهم بل عامة ما يحتجون به من نصوص الأنبياء ومن المعقول فهو نفسه حجة عليهم ··· وذلك أن دين النصارى الباطل انما هو دين مبتدع ابتدعوه بعد المسيح عليه السلام ، وغيروا به دين المسيح ، فضل منهم من عدل عن شريعة المسيح الى ما ابتدعوه · ثم لما بعث الله تعالى محمدا عليه أفضل

الصلاة والسلام كفروا به ، **فصار كفرهم وضلالهم من هذين الوجهين : تبديل دين الرسول الأول ، وتكذيب الرســـول الثانى** ، كما كان كفر اليهود بتبديلهم أحكام التوراة قبل مبعث المسيح ثم تكذيبهم المسيح عليه السلام • ونبين ان شاء الله تعالى أن ما عليه النصارى من **التثليث والاتحاد** لم يدل عليه شيء من كتب الله ، لا الانجيل ولا غيره ، بل دلت على نقيض ذلك • بل وكذلك عامة شائع دينهم محدثة مبتدعة لم يشرعها المسيح عليه السلام • ثم التكذيب لمحمد صلى الله تعالى عليه وسلم هو كفرهم المعلوم لكل مسلم ، مثل كفر اليهود بالمسيح عليه السلام وأبلغ ••• » (١)

ومن الجانب الآخر نجد نيكيتاس البيزنطى يكتب فى النصف الثانى من القرن التاسع ليخطىء بعض ما ورد فى كتاب المسلمين « لا بوساطة النقد التاريخى ـ كما يقول جرونباوم Gustave E. Von Grunebaum Medical Islam بل بمقارنة ما ورد فى القرآن بما ورد فى التوراة » !! من ذلك مثلا قول نيكيتاس : كيف يصح نسبة بناء الكعبة الى ابراهيم الخليل وابنه اسـماعيل كما يزعم القــرآن مع أن مؤرخ سفر التكوين الشديد التدقيق لا يذكر أى شيء مطلقا عن اقامة ذلك الأب الكبير لهذا البيت ؟ ولطالما حاول الآباء المسيحيون أن يثبتوا بالبرهان صحة رسالة المسيح مستندين الى نبوءات العهد القديم ، ويقرر يوحنا الدمشقى (المتوفى حوالى ٧٤٩ م) أن المسلمين كلما طولبوا بأن يقدموا مايثبت رسالة نبيهم من الكتب المقدسة « أصابهم الخزى واحتواهم الصمت » !! ومع هذا لم يمض وقت حتى شرع المسلمون فى تأويل نفس تلك الفقرات من العهد القديم بأنها تتنبأ بظهور محمد ، بل لقد وجدوا عدا ذلك من آيات العهد الجديد تظاهر قضيتهم • مثلا ورد فى أشعياء ٢١ : ٥ ـ ٧ « قوموا أيها الرؤساء امسحوا المحن ، لأنه هكذا قال لى الرب : اذهب أقم الحارس ليخبر بما يرى ، فرأى ركابا أزواج فرسان ، ركاب حمير ، ركاب جمال ، فأصغى اصغاء شديدا» فكتب عنذلك على بن ربان الطبرى قرابة عام٨٥٥م وكان حديث عهد بالاسلام « نبوة مفصحة مصرحة لا يدفعها الا من غش نفسه ونبذ رشده ، فكما أنه ليس لقـــائل عاقل أن يتجاسر ويتجاهل فيقول أنه قد كان فى الدنيا راكب حمار أولى بهذه النبوة من المسيح ، فكذلك ليس لذى ورع أو لب أن يقول انه قد كان فى الدنيا راكب جمل أولى بهذه النبوة من النبى ـ محمد ـ ومن أمته » وقد كتب ليو الثالث

---

(١) ابن تيمية : الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ـ مطبعة المدنى ـ المقـــدمة وبخاصة ص ١٩ : ٢٤

الى عمر بن عبد العزيز حوالى سـنة ٩٠٠ م رسـالة أعدها ليونتيوس (جيفوند) وفيها جهد كبير لدحض هذا التأويل لرؤيا أشعياء • ويعرض يوحنا الدمشقي لظهور الاسلام على أنه دعوى متنبىء psuedo-prophetes على العهدين القديم والجديد ، ثم اتصل براهب من أتباع آريوس فأسس نحلته وما لبث أن اكتسب قلوب قومه لتظاهره بالتقوى !! وعالج المؤرخ البيزنطي ثيوفانيس Theophanc.(المتوفى سنة ٨١٧ م) خبر محمد على هذا النحو « وفي هذه السنة ـ عام ٦١٢٢ من بدء الخليقة المقابل لعام ٦٣٢ من ميلاد المسيح ـ توفى محمد حاكم العرب ونبيهم بعد أن عين قريبه أبا بكر خليفة له ، وكان الخوف وقتذاك مستوليا على الجميع ! وعند بدء ظهوره ظن العبرانيون الضالون أنه المسيح الذى كانوا يتوقعونه فانضم اليه كبارهم وكان عدتهم عشرة وقد لازموه حتى لقى نهايته ثم عدلوا عن رأيهم عندما رأوه يأكل لحم الجمل وخاف التعساء من الارتداد عن دينه ••• ولما كان محمد المذكور فقيرا ويتيما فانه قرر أن يربط نفسه بامرأة ثرية من ذوى قـرباه هى خديجة ، وبذلك حصـل على ابلها وسـائر ممتلكاتها ، وقد اختلط فى فلسطين باليهود والمسيحيين وبواسطتهم حصل على بعض الكتب المنزلة ، وأصيب كذلك بمرض عصبى ! ••• » وهذا بارثلوميو الرهاوى Barrhlomen of Edessa يخاطب المسلم فى القرن عشر « قل لى بربك ماذا تعنى بالنبوة والرسالة ! والله يعلم أنكم ما كنتم تستطيعوا أن تعرفوا لو لم يعلمكم المسيحى ! اذا كنت تنكر بتمام الجد أن شيئا قد حصل بوساطة محمد ابان السنوات الاثنتين والثلاثين الاولى من حياته ، فكيف لا ينبغى لى أنا المسيحى أن أنكر أحداث السنوات الخمس عشرة التالية ؟ كيف استطاع أن يعرف الله ؟ واذا كنتم تسمونه نبيا فأرونى ماذا تنبـأ به وبأى لفظ تنبأ وما هى وصـاياه وما هى الآيات والعجـائب التى صنع ؟ •• » ويمضى فى الطريق يولوجيوس القرطبى Eulogius of Cordova المتوفى سنة ٨٥٩ م) فيورد عن محمد « أكاذيب وتخرصات عجيبة عن السر فى كراهية الاسلام للكلاب » ـ على حد تعبير جرونباوم الذى يعقب على ذلك بقوله « والشىء الذى يحير اللب فى كلام هذا القسيس هو اعترافه الصريح بأنه لم يبـذل أية محـاولة لتحقيق ما وصله من معلومات عن طريق مخطوط لاتينى تصادف أن وقع فى يده ، وذلك عن طريق الرجـوع الى مواطنيه المسـلمين أو تصـفح مؤلفاتهم التاريخية » !! ونيكيتاس مثلا أخذ من آية البقرة « يأيها الناس كلوا مما فى الأرض حلالا طيبا ، ولا تتبعوا خطوات الشيطان انه لكم عدو مبين » ان محمد يسمى الشيطان بالفيصل الذى يفرق الخبيث من الطيب ويدعوه

ربا !! ونجد كثيرا من الدعاوى والمزاعم عند جيبرت النوجنتى (المتوفى ١١٢٤ م) رغم اعترافه بعدم كفاية مصادره الشفوية البحتة والمسيحية الصرفة ، وعند هلدبرت انليمانزى Heldbert of Lemans (المتوفى ١٣٥٤ م) وكان رئيس أساقفة تور ، وعند أندريا داندولو دوق البندقية (المتوفى سنة ١٣٥٤ م) ، وكذلك بطرس بلومان ووليم دنبار (المتوفى حوالى ١٥٢٠ م) ولعل الحروب الصليبية أدت فى نتائجها الى التماس المسيحيين صـــورة أدق لرسول الاسلام ، ويظهر هذا فى كتابات وليم الطرابلسى سنة ١٢٧٣ م وريكولدوس دى سانتا كروس Ricoldus de Santa Cruce وان كان قد ذهب الى أن جمال أسلوب القرآن دليل على وبفضل بطرس الكولونى (المتوفى ١١٥٦ م) تمت أول ترجمة للقرآن سنة ١١٤١ م ، وارتأى رامون لل القطلونى أمام مجلس فيينا (١٣١١ ـ ٢ م) وجوب دراسة المبشرين بالانجيل للغات الشعوب كافة وتكون نظام لجميع الفرسان المسيحيين من أجل الجهاد لفتح الاراضى المقدسة ثم الرد على ابن رشـد الذى حاول فى كثير من المواضـع الاعتراض على العقيدة الـكاثوليكية ۰ وكان من ثمـار مقترحات بطرس الكولونى اصدار قرار بانشـاء كليـات تعـلم العبرية والعربية والكلدانية فى روما وبولونيا وباريس واكسفورد وسلامنكا ، وكان هذا استهلالا للاستشراق المنظم فى الغرب (١) ۰

—***—

ان الخلاف ليتبدد ـ أو يتخفف ـ بالبحث والعلم ، ويتجمد ويتأبد بالشحناء والخصام !!

● **تكاد ترتكز الأديان كلها على (الايمان بالله واليوم الآخر)** ۰۰۰ وهو (الايمان بالغيب) الذى يمتحن فى عصرنا ، بعد أن ثبت العلم الاتجاه الى الحس والاعتماد فقط على التجريب !

● **والغاية من الايمان بالله هى سعادة الخلق ، ومن الايمان بالآخرة هى عمارة الدنيا** ۰۰۰ فالله تعالى غنى عن طاعة الطائعين ، ولاتضره معصية العاصين ، وانما يريد لعباده اجتماعا عليه ليتحابوا ويتناصفوا !

لقد خلق الله الانســان ويعلم ماتوسوس به نفســه : يعلم أشواقه (للغيب) وتطلعه لما وراء الحس ۰۰۰ يعلم نزوعه الى الخضوع لقوة مهيبة

---

(١) جرونباوم : حضارة الاسلام ـ ترجمة جاويد ص ٣٠ ، ٣٢ : ٣٤ ، ٦٥ : ٧٥ و ١٣١

تملأ عليه نفسه وعقله وحواسه ، وتكون أكبر من كل مايعرفه ويلمسه ـ بل ويتصوره ٠٠٠ ويعلم أن دافع الخضوع لهذه القوة الكبرى هو الذى يهدهد دافع التسلط والسيطرة من الانسان على الانسان ٠٠٠ ويعلم أن قاعدة (الجزاء) هى العقدة التى تحكم ضوابط النفس وتعين الضمير على الرعاية والرقابة ٠٠٠ فلا عجب أن يوجه الله عبـاده الى الايمان بالاله والجزاء ، ليعمق فى النفوس جذور العدل والاحسان ، ويعين الناس على مجاهدة أنانية النفس بطاعة الرب ، وعلى الجد فى تعـمير الدنيا ابتغاء الآخرة ٠٠٠

« لا **يؤمن** أحدكم ٠٠٠ حتى **يحب** لأخيه مايحب لنفسه » (١) ٠

ومن هنا تثرى المثل الانسانية من المسيحية ثراء عظيما ٠٠٠

فالله ٠٠ محبة ، وكفى !!!

● **وشعائر العبادة فى أى دين من الأديان وسائل ـ لا غايات ،** وهى مدرسة للطاعة وطابع للجماعة ، لكنها لا تقصد لذاتها وانما لما تطبع عليه النفوس : « رب قائم حظه من قيامه السهر ، ورب صائم حظه من صيامه الجوع والعطش ! » (٢) ٠

وللمسيح هجمات بارعة لاذعة موفقة ٠٠٠ على الشكول والطقوس !! والحق أن (الفريسيين) ليسوا اسما لطائفة بقدر ما هم علم على نوع ، وهؤلاء المظهريون الجامدون يصدون الناس عن الدين ، فلا يستفيدون منه ولا يفيدون ! ٠

● **وشرائع الدين لا ترتكز على الحـروف بل على الضمير ٠٠٠** والحق أن أزمة البشرية دوما ليست فى (المقدرة التشريعية) ، لكنها فى الأعماق النفسية للمشرع والمنفذ والقاضى والمتقاضى ـ على السواء !

ولقد كان المسيح مكملا للناموس حقا اذ دفع البشرية الى أفق أرحب من التعامل مع النصوص والألفاظ وحدها ٠٠٠ لقد أعطى قوالب التشريع حرارة الضمير ، وسما بالناس الى أن يكون الواحد منهم قاضى نفسه ـ حسب رقابة الله الذى فى الخفاء ! ٠

---

(١) رواه أحمد والبخارى فى المستدرك والبيهقى فى السنن ، ورواية أخرى لابن الصغير ٠

(٢) الطبرانى وأحمد والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن ، ورواية أخرى لابن ماجه ـ صححها السيوطى فى الجامع الصغير

● وأديان الله كلها دفعة للحياة ... وليست (قوالب مجمدة) !!

انها أصول وجذور ، تتفاعل مع نفس الفرد وروح العصر ، فتنبثق عنها حضارات متباينة ، وأفكار متطورة ...

فليس غريبا أن يصدر عن روح المسيحية ألوان من الفكر الديمقراطي بعد استثارتها للايمان بالله ، وهو الذى يستوى الخلق أمام جلاله ...

« ... وقام ليقرأ ، فدفع اليه سفر اشعياء النبى ولما فتح السفر وجد الموضع الذى كان مكتوبا فيه : روح الرب على ، لأنه مسحنى **لأبشر المساكين ، أرسلنى لأشفى المنكسرى القلوب ، لأنادى للمأسورين بالاطلاق وللعمى بالبصر وأرسل المنسحقين فى الحرية !! » (١) .**

وليس غريبا أن يصدر عن روح المسيحية ألوان من الفكر الاشتراكى ، بعد أن صورت كلماتها الملتهبة الثروات المكدسة أغلالا يجرجرها الأغنياء فتثقل خطوهم نحو الخلاص ، وأغرتهم أن يتملصوا من هذه الأعباء : فيرتد الفائض عن الفرد عائدا على المجموع : « هلم الآن أيها الأغنياء ، ابكوا مولولين على شقاوتكم القادمة ! غناكم قد تهرأ ، وثيابكم قد أكلها العث ! ذهبكم وفضتكم قد صدئا ، وصدأهما يكون شهادة عليكم ويأكل لحومكم كنار ! قد كنزتم فى الأيام الأخيرة — هو ذا أجرة الفعلة الذين حصدوا حقولكم المنحوسة منكم تصرخ ، وصياح الحصادين قد دخل الى أذنى رب الجنود ! قد ترفهتم على الأرض وتنعمتم وربيتم قلوبكم كما فى يوم الذبح ! حكمتم على البار ... قتلتموه ... لا يقاومكم » (٢) .

صرخة مخلصة من أجل العامل ضد طغيان رأس المال !

حسب الأديان أن تسكب فى النفوس هذه الروح الحية ، ليحيلها الفكر الانســـانى — فى مراحل تطوره — فلسفات محـددة ، وتشريعات مقننة ...

وتمضى الاطوار ... وتفسح فلسفة مكانها لأخرى ، ويحل تشريع محل تشريع ، ويبقى الدين الخالد روحا ملهمة ، ونورا هاديا ...

---

(١) لو ٤ : ١٦ — ١٨

(٢) يعقوب ٥ : ١ — ٦

وهكذا يدأب الفكر فى كل جيل على أن يصل الى ما يظن أنه مفهوم الدين ، فاذا بالجيل التالى يرى غير رأى سلفه ويجد أمامه شوطا وأشواطا فى مجالات النظر والعمل ، ولا يلبث أن يجد أزياء الفكر الماضى لم تعد تتسع لمفهوم الدين فى العصر الجديد !!

ان أرسطو قد أجاز الرق ، فما كان ليستطيع أن يتصـــور علاقة اجتماعية اقتصادية غير هذه العلاقة ...

ثم جاء المجتمع الاقطاعى ، وأصبح أقنان الأرض sefdom صورة جديدة تسعف وتغنى فى تنظيم العلاقات الاجتماعية الاقتصادية ...

وجاءت الآلة ... فزالت الحاجة للرقيق والاقنان ، وأصبحت الحاجة أمس لأن تنقل السفن المواد الخـــام والوقود من المســـتعمرات وتنقل المصنوعات الى الأسواق — بدلا من أن تنقل جحافل العبيد ! واحتاجت المصانع الى العمال ، لا الى الرقيق أو الأقنان !!

فهل كان ينتظر من المسيحية — أو من أى دين طويل العمر — أن يتعرض لهذه الصور المتعددة ، التى حدثت عبر الأجيال المتطاولة ، بالنص والحرف ووضع النقط فوق الحروف ؟؟

ان الدين يجمد نفسه حين يحصر نفسه فى حد لا يتعداه ، ويصبح كأى نص تشريعى معرض للابطال بذهاب مقتضاه !! لكنه يخلد ، مادام ينفث فى النفس روح الانسانية والحياة ، ويقيم مزاجا ينفر من الجور — اذ يؤمن بالله ...

ومن انعكاسات (الدين) فى أغوار الضمير ، يأتى استنكار العقل الانســـانى للرق فى وقت ، واستنكاره للاقطاع فى وقت ، واستنكاره لطغيان الرأسمالية على حقوق العمال وأهل المستعمرات !

ولا يتطلب من الدين أن ينص على استنكار عـــلاقة بذاتها ، بقدر ما يتطلب ذلك من (الفكر المتدين) ... فالمؤمنون بالدين هم الذين عليهم أن يفطنوا الى التناقض القائم بين واقع مجتمعهم وأصول عقائدهم . ومن الانصاف ألا ننتظر منهم ذلك قبل أن ينضج مفهوم الدين فى رءوسهم ، ويتحـرروا من شـــتى الضغوط على عقولهم ، ويستطيعوا أن يخططوا مستقبلا أفضل — يرون فى طاقتهم أن يصنعوه .

ولا تنكشف هذه الغشـــاوات الا على مراحل من عمـــر البشرية ، تسلخها الأجيال — مؤمنوها وكافروها — حتى تستبين للناس الظلمات

من النور • وحين تنكشف هذه الغشاوات ، يكون المؤمنون المتدينون أسرع الى الخير ، وأخلص للحق ، وأصبر على الكفاح ، وأحرص على التقدم نحو الكمال •

—***—

والاسلام والمسيحية يتفقان فيما قدمناه كله •••

فأين يختلفان ؟؟

- **يختلفان في علاقة المسيح بالله – أو فكرة التثليث !**
- **ويختلفان في واقعة صلب المسيح – أو فكرة الخلاص !**
- **ويختلفان – طبعا – في الحكم على نبوة محمد ودين الاسلام •**

والخلاف بين المسيحية والاسلام خلاف حقيقي قائم ، ليس الصواب أن تصطنع له المسوح والدهون لتغطي الشق وترأب الصدع !!

وانما أريد أن أقول :

- **ان قضية الخلاف يجب أن تعرض أولا على العقل ، لا أن تركد تحت ضغط التقاليد •**
- **ان العقل المتحرر اذا انتهى الى الاقتناع برأى ، فلا ينبغي أن يفسد اختلاف الرأى للود قضية •**
- **ان الدين الخالص أزهد المبادىء في اصطراع الانسان مع الانسان ، أو تأبيد الفرقة والشقاق ••**

والكفر – في نظر الدين – خطأ ناشىء عن تعمد الانكار مع سبق الاصرار ، لأن معنى الكفر (ستر الحق) ••• وهذا موقف مخالف لموقف كثير ممن يوصفون (بالكفار !) •

المسيح ... عند المسلمين

ولنبدأ بالخلاف حول ألوهية المسيح ...

المسيح عند المسلمين نبى ، أى شخص غير عادى ، (تعرض لنفحات من روح الله فى أصل الخلق) ثم فى (سر الوحى) : « انما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله ، وكلمته ألقاها الى مريم ، وروح منه (١) » .

والمسلمون يقرأون فى كتابهم ثناء الله على المسيح ، وعلى مريم ، وعلى الحواريين ... وهم لا يذكرون المسيح ـ شأنهم مع كل الانبياء ـ الا بالصلاة والتسليم !!

والمسلمون يتفقون مع المسيحيين فى الايمان بالله ـ عموما ـ واليوم الآخر ،

ويتفقون معهم فى أن الدين دعوة للحياة بالمثل العليا الفاضلة فى كل مكان ... وليس مجرد طقوس مطمورة فى زوايا المعابد ...

والمسلمون يتفقون مع المسيحيين على أن هدف الدين تقرير الاخاء البشرى ، وتحقيق التقدم الانسانى .

فهل الذين يتفقون فى هذا كله ـ يعز عليهم أن يتعاونوا على اقامة المجتمع المتدين الفاضل ، والدفاع عن (التدين) كقضية فكرية انسانية كبرى ؟؟

ان المسلمين الذين يكرمون المسيح (نبى الله) ، أقرب للمسيحيين من الذين ينكرون الالوهية والنبوة على الاطلاق ، ويحاربون المسيحية والاسلام وكل الاديان !! والمسيح نفسه يقرر ذلك :

« أقول لكم : كل خطية وتجديف يغفر للناس ، وأما التجديف على الروح فلن يغفر للناس ! ومن قال كلمة على ابن الانسان يغفر له ، وأما

---

(١) النساء ١٧١

من قال على الروح القدس فلن يغفر له ـ لا فى هذا العالم ولا فى الآتى (١) » .

ونحن نعرف عن مذهب أريوس مثلا رأيه فى « ان الاله الحقيقى والكامل هو الآب ، اله قصى لا يدركه العقل البشرى ولا يمكن أن يتوصل اليه نظير اله الافلاطونيين ، وهذا الاله لا يصدر من أحد ، وبما أن الكلمة صادرة من الآب فلا يمكن بالتالى أن يكون الها حقيقيا ، فصدوره من الآب يتطلب أن يكون ضرورة مخلوقا فى الزمن ، ثم بالكلمة خلق الله العالم وبالتالى ليس الكلمة أزليا ولا مساويا للآب فى الجوهر . ومن هذا ينتج حتما أن المسيح ليس ابن الله بالمعنى الحصرى ، **أى ليس ابنا طبيعيا وانما هو ابن بالتبنى فقط وبالتالى أقل مرتبة من الآب . وهكذا أنكر أريوس** ألوهية السيد المسيح وبدعة آريوس لا تمس ألوهية المسيح الا عن طريق غير مباشر وانما هى أولا بدعة موجهة ضد عقيدة الثالوث» وكانت المدرسة الانطاكية التى أسسها لوسيانوس فى بداية الجيل الرابع تنزع الى فلسفة أرسطو وتؤثر المعانى الحرفية على الرمزية فى شرح الكتاب المقدس «وفيما يتعلق بشخصية المسيح كان أتباع هذه المدرسة يؤثرون الوقوف الى جانب العنصر البشرى ويظهرون المسيح انسانا كاملا مستقلا مستضيفا عنده الكلمة الالهى . وكانوا يرون فى المسيح شخصين مختلفين متميزين تماما الواحد عن الآخر . وأنصار هذه المدرسة هم ديودور الطرسوسى وتيودور أسقف المصيصة ونسطور والقديس يوحنا فم الذهب ـ الا ان الاخير لم يشايعهم آراءهم . وأخذوا يعلمون بأن لاهوت الكلمة فى المسيح اتحد بانسان دون أن يحدث فى هذا الانسان تغييرا . لقد حل الكلمة فى هذا الانسان واتحد به دون اختلاط . وفسروا الاتحاد على هذا النحو : **فاما ان الكلمة حل فى المسيح يسوع الانسان كحلول الروح القدس على الأنبياء** ، واما أن الكلمة يسكن فى يسوع الانسان بحيث انه بعد الاتحاد لا يوجد الا شخص واحد أو مركز واحد لكل ما ينسب اليه . والتفسير الاخير أقرب الى العقيدة الصحيحة ، ولكنه يختلف مع مدرسة الاسكندرية عندما تثار مسألة الكيفية التى تم بها اتحاد الطبيعتين فى شخص واحد . وبدأت المشكلة يوم أحضر نسطور أحد كهنته المدعو انستازيوس من أنطاكية الى القسطنطينية ليعظ الشعب أمامه فقال : ان مريم العذراء هى مخلوقة من الجنس البشرى ولما كان من المستحيل أن يلد البشر الها فلا

---

(١) مت ١٢ : ٣١ ـ ٣٢ ، مر ٣ : ٢٨ ـ ٢٩ .

ينبغي أن تدعى (أم الله) • وامتنع البطريرك نسطور نفسه عن تسمية العذراء بوالدة الاله «Theatokos» (١) »

ويصدر الأب لويس فرييه مشكلة التعبير والتفسير فى النصوص المقدسة فيقول « ان المعانى العبرية كان يعبر عنها بألفاظ تنزع نحو التصوير المبنى على الحس ، فالتجريد فى المعانى العبرية نادر ، وهذا أمر طبيعى عند شعب فقير تكونت أفراده من طبقة الرعاة الرحل أو الفلاحين الملازمين لأرضهم ••• وحين أخذ الناس يشرحون العقائد ويفسرونها وجدوا أنفسهم أمام خطر التعبير ومحنة اللغة • فقد حاول سيرنث Cerenthe أن يتكلم عن اللاهوت ، كما حاول نسطور أن يتحدث فى الناس ، وأوطيخا عن الاقنوم ، فمروا بتجربة قاسية • لقد بدأوا يصطنعون لهم تعبيرا فسقطوا فى الهرطقات (٢) ! » •

ويشير أوجان جولى الى انه قد اتفق على تحديد تاريخ كتابة نصوص الاناجيل بحوالى سنة ٦٠ م أى قبل سنة ٧٠م ، وقد كان بولس فى ذلك التاريخ قد كتب رسائله التى قرئت فى الكنائس والتى كرر فيها القول بشأن ألوهية المسيح « فكيف أن نصوصا وقد كتبت فى هذا الجو لا تتضمن ذكرا ظاهرا لألوهية يسوع ؟ وكيف ان لوقا الذى كان أمين سر بولس لم يتحدث عن ألوهية يسوع ؟ واذا قرأتم بدقة كل آيات أناجيلنا الازائية لن تجدوا اثباتا صريحا لألوهية المسيح لا من فم المعلم ولا من قلم الكتاب • بل بالعكس تجدون تأكيدات حائرة مثل (قال يسوع : لماذا تدعوننى صالحا ولا صالح الا الله ؟ ••• ثم بكى يسوع على قبر أليعازار وشكا الى الآب انه تركه) ••• اذن اما أن الكتاب لم يؤمنوا بأن يسوع هو الله ، واما انهم لم يريدوا أن يضيفوا الى الوقائع والكلمات شيئا لانهم كانوا شهودا لها • وعلى كل فلنا فى ذلك ضمانة عظيمة لأصل الأناجيل التاريخى (٣) » •

***

والمسلمون الذين يرون أن المسيحية قد دخلت عليها أفكار غريبة عنها ، لا يذهبون فى هذا أبعد مما ذهب اليه فلاسفة مسيحيون كبار•••

---

(١) فرنسيس فرييه . التجسد تعريب لويس أبادير ص ٣١ ـ ٢ ، ٣٨ ـ ٩
(٢) لويس فرييه : التجسد ـ تعريب لويس أبادير ص ١٢ ، ٦٨
(٣) اوجان جولى : ماهو الايمان ـ الترجمة العربية ـ مطبوعات دار السلام ص٤٠

تقرأ للفيلسوف الانجليزى العظيم برتراندرسل Bertrand Russel فى كتابه عن تاريخ الفلسفة الغربية History of Western Philosophy

« ... وأخيرا أرسل الاله الأسمى ابنه ليحل مؤقتا فى جسم (يسوع) الانسان ، كى يحرر العالم من تعاليم موسى الخاطئة . (؟!!) وان من يعتنقون هذا الرأى أو ما يشبهه ، ليدمجونه ـ عادة ـ **فى فلسفة تسودها الصبغة الافلاطونية !! وقد مر بنا أن افلوطين قد وجد شيئا من العسر فى هذا الرأى** . وان الغنوسطية لتقع فى مكان وسط بين الوثنية الفلسفية وبين المسيحية ، لانها بينا هى تكرم المسيح من جهة تراها تسىء الظن باليهود من جهة أخرى ويصدق هذا نفسه ـ فيما بعد ـ على المذهب (المانوى) الذى كان وسيلة القديس أوغسطين للوصول الى العقيدة الكاثوليكية ، وكان المذهب المانوى يجمع بين عناصر مسيحية وعناصر زرادشتية ...وقد ساعدت أمثال هذه المذاهب المتوسطة مساعدة كبرى فى تحول المثقفين الذين يتكلمون اليونانية تحولا تدريجيا الى الدين المسيحى ، غير أن العهد الجديد يحذر المؤمنين الصادقين من أمثال هذه المذاهب ... »

وظلت الغنوسطية (١) والمانوية تزدهران حتى أصبح الحكم فى أيدى المسيحيين ، وبعدئذ انتهى بهما الأمر الى اخفاء عقائدهما ، وان يكن قد بقى لهما تأثير تسرى عوامله فى الخفاء . واصطنع (محمد) مذهب شعبة من الشعب الغنوسطية ـ وأنصار هذه الشعبة يقولون : ان (يسوع) مجرد انسان من البشر ، وان (ابن الله) قد هبط عليه عند تعميده ثم تركه ساعة العذاب (؟!!) وهم فى تأييدهم لهذا الرأى يرجعون الى النص : (يا الهى لماذا تركتنى) !! **ولا بد من الاعتراف بأن المسيحيين قد وجدوا صعوبة فى تفسير هذا النص دائما !** أما الغنوسطيون فقد رأوا أنه مما لا يجوز (لابن الله) أن يولد وأن يكون رضيعا ، ثم لا يليق به فوق ذلك كله أن يموت على الصليب ، وقالوا : ان هذه الاشياء انما حدثت ليسوع

---

(١) **الغنوصية** Gnosticism نزعة من نزعات التوفيق syncratism فى مجال الدين ، تستهدف صهر معتقدات كان لكل منها قبلا طابعها المتميز الخاص ، وكانت قد اختطت مجراها جنبا الى جنب مع المسيحية الأصيلة التى اخذت تتبلور بالتدريج فى الكنيسة الكاثوليكية خلال عصورها الأولى ، وقد حملت الغنوصية ملامح قوية من المؤثرات المسيحية واصطلاح (غنوص) Gnosis فى الكتابات الهيلنستية يقترن بالمعرفة التى يحصل عليها بوسائل تفوق الوسائل الطبيعية ، وان كانت المعرفة بهذه السبل ضرورية للخلاص الذى لايغنى فيه التسليم أو العمل الصالح . والغنوصية تقول بالثنائية أى باعتبار الخير والشر عنصرين أساسيين فى الوجود وتدمج الى ذلك شيئا من السحر والشعوذة . وتأثرت بالغنوصية بعض

الانسان لا (لابن الله) السماوى !! وقد اعترف محمد بنبوة يسوع لكنه لم يعترف بالهيته ، وكان متأثرا بصالح طبقته (طبقة الانبياء) حين قال

الفرق اليهودية مثل الاسينيين الذين استبدلوا بفكرة (الاله العادل) (الحكمة الالهية). وقد نبذت الغنوسطية المسيحية الاولى الاسس اليهودية للمسيحية وكذلك العهد القديم ونادت بان الخلاص يتم عن طريق الحكمة (صوفيا) وقسمت الناس مراتب ثلاثة : مسيحيون غنوصيون وخلاصهم مضمون ومسيحيون غير غنوصيين يمكن أن يخلصوا بالايمان ومن عدا هؤلاء وأولئك هالكون وقد كان للنزعة الغنوصية أثرها فى تحديد العقيدة المسيحية ومحاربة الهرطقة والالحاد كما حملت هى بدورها ملامح قوية من المؤثرات المسيحية ومعلوماتنا عن الغنوصية مستمدة في أغلبها من نصوص قبطية وجدت بنجع حمادي وبعض كتب الحكمة الأخرى • وقد أخذت هذه النزعة طريقها الى البروز فى مستهل أعوام القرن الثانى الميلادى ، وبلغت ذروتها فى الربع الثالث من ذلك القرن ثم ما لبثت أن أخذت في الانحدار لتفسح الطريق لنزعات أخرى ، مثل المانوية التى ظهرت فى بابل وانتشرت بسرعة حتى شرعت تشغل مكان الغنوصية منذ النصف الأخير من القرن الثالث • على أن بعض روافد تيار الغنوصية قد استمرت خلال القرنين الرابع والخامس ، وواصل كثير من افكارها الحياة فى ثنايا نزعات التصوف المتأخرة وكلمة غنوص Gnosis قد تؤدى الى كثير من الخلط فى تحديدها وتحديد مايوصف بها ، فتحت هذا الاسم ينطوى العديد من مذاهب الاعتقاد التى سادت في القرنين الاول والثانى ، والتى نزعت الى ربط تعاليم المسيحية بالمعرفة الرفيعة الراقية . وعلى ذلك لايدل اللفظ على تخطيط محدد من التفكير بقدر مايشير الى نزعة كبيرة متعددة الجوانب تعرضت للكثير من التغييرات. ولقد غدا من المسلم به أن الغنوصيين كانوا الفريق الذهنى المستنير أو اهل الرأى فى الكنيسة الذين يهدفون الى أن يعرضوا الرسالة المسيحية كفلسفة مقبولة لدى كل العقول المستنيرة • وهذا التحديد للنزعة الغنوصية ليس خاطئا كل الخطأ كما أنه ليس مصيبا كل الصواب فمن الخطأ أن يعتبر الغنوصيون وكأنهم ممثلو الفكر المستنير بصفة أساسية بين المسيحيين وأن تعتبر الغنوصية نزعة عقلية تعنى أكثر ما تعنى بالجدل الفلسفى واعادة الوفاق بين الدين والفلسفة واللاهوت • ومن الحق أن الغنوصية فى أوجها قد تعدد بين اتباعها فقهاء اللاهوت ورجال العلم ولكن هذا ليس طابعها الرئيسى ، فان الغنوصية كانت تفهم بين سواد اتباعها لا على أنها تعنى المعرفة أو الفهم كما تعنى الكتمان عندنا وانما كانت تعنى الالهام revelation ولقد عاشت الطوائف والجماعات الغنوصية الصغيرة مقتنعة انها تمتلك معرفة مكنونة خبيئة ليست بحال فى متناول من هم خارجها ، وهى معرفة لم تتأسس على التأمل أو البحث والتدليل العلمى ولكن على الالهام، انها مستمدة بصفة مباشرة من عهد المسيحية المبكر ، من المخلص نفسه ومن حوارييه وصحابته عن طريق آثار مكتومة زعم الغنوصيون انها تربطهم بأولئك السابقين • وعندما عمد المفكرون الغنوصيون الى نشر معتقداتهم انساقوا الى بناء مذاهب جدلية الى حد بعيد ترمى الى ايضاح أصل الشر وطبيعة الكائن الالهى وفى العلاقات المتبادلة بين ماهو روحى وما هو مادى وينقل عن كلمنت الاسكندرى القول ان (الغنوص) Cnosis يعنى « معرفة من كنا وماذا صرنا ، أين كنا والى أين ألقى بنا ، والى أين نتعجل المسير والمصير ، وأنى يكون الخلاص ، ماهو المولد وماهو المبعث » . وهذا التعريف على اية حال يرجع الى المرحلة المتأخرة للغنوصية ، تلك المرحلة التى يبرز فيها الطابع الجدلى بصورة أكبر ، ولكن مهما يكن الأمر فهى تبين فكرة المعرفة التى لا يتسنى الحصول عليها بالوسائل العقلية المعتادة والتى لا تكتسب الا بالاشراق الصوفى •

انه لا يجوز للانبياء أن ينتهوا الى خاتمة سيئة (؟!!) ، ولذا اعتنق رأى فرقة غنوسطية يذهب الى أن الذى صلب مجرد شبح !

وبمقدار ما اصطبغت المسيحية بالصبغة الهيلينية باتت لاهوتية . ذلك أن اللاهوت اليهودى كان دائما بسيطا ... ولا تزال هذه البساطة اليهودية تميز بصفة عامة الأناجيل المختصرة (أناجيل متى ومرقص ولوقا) ، لكنها زالت بالفعل عن انجيل القديس يوحنا حيث اتحد المسيح (بالكلمة) - كما وردت فى أفلاطون وعند الرواقيين ، فلم يعد المبشر الرابع من مبشرى الاناجيل يهتم (بالمسيح الانسان) بقدر اهتمامه بالمسيح الذى هو شخصية لاهوتية ، وهذا الكلام أكثر انطباقا على (الآباء) ... وكذلك تشتمل رسائل بولس على كثير من اللاهوت خصوصا فيما يتعلق بالخلاص ، وتدل تلك الرسائل كذلك على المام واسع بالثقافة اليونانية ...

ولبث التأليف بين الفلسفة اليونانية والكتب المقدسة يحدث متفرقا وكما اتفق ، حتى جاء (أوريجين ١٨٥ : ٢٥٤ م) ، وقد عاش - مثل فيلون - فى الاسكندرية التى ظلت منذ نشأتها الى سقوطها المركز الرئيسى للعلماء الذين يحاولون التوفيق بين مختلف المذاهب ...

وعلى الرغم من أن أوريجين قد اعترف به أبا من الآباء ، الا انه فيما بعد ذلك قد اتهم بالخروج على الدين فى أربعة أشياء :

١ - فى اعتقاده وجود الارواح قبل مولد أصحابها وهو رأى أفلاطون .

٢ - وفى اعتقاده أن الطبيعة البشرية للمسيح قد كانت قائمة قبل حلوله فى الجسد ، وليس الامر فى ذلك بمقتصر على طبيعته الالهية .

٣ - وفى اعتقاده أن أجسادنا عند البعث ستتحول الى أجساد أثيرية خالصة .

٤ - وفى اعتقاده أن الناس جميعا - بل والشياطين كذلك - سيصيبها الخلاص فى آخر الامر(١) ! » .

فالفيلسوف رسل لا يستبعد تسرب مؤثرات فلسفية الى العقيدة المسيحية ، والى الاسلام أيضا فى رأيه .

والفيلسوف الفرنسى Leon Gauthier أكثر تصريحا فى أثر تلك المؤثرات على فكرة التثليث :

---

(١) برتراند رسل . تاريخ الفلسفة الغربية - (الترجمة العربية للدكتور زكى نجيب محمود) - جـ ٢ ص ٣٧ : ٤٢

« كان أفلاطون أول من أدرك المشكلة ، وأول من أدرك الحل الذى يجب على العقل الاغريقى ـ بعد انضاجه طويلا ـ أن يجتمع نهائيا عليه ... أعنى عقيدة الثلاثة أقانيم أو التثليث ...

ومن السهل ادراك الغرض منها : فللاحتفاظ لله بالكمال المطلق والبراءة من التغير ، وضع بينه وبين العالم وسيطين دونه ، وخارجين عنه على نحو ما ، داخلين فيه أى تتضمنهما ذاته ، صادرين عنه ، دونه فى الكمال ، ويجعلان ممكنا أن يصدر عن الله العالم الكثير التغير ... أول الوسيطين العقل ، وثانيهما الروح الالهية ...

وهكذا لم ينتج التزاوج بين العقيدة اليهودية والفلسفة الاغريقية ، فلسفة فقط بل دينا ـ أعنى المسيحية التى تشربت كثيرا من الآراء والافكار الفلسفية عن اليونان ! ذلك أن اللاهوت المسيحى مقتبس من نفس المعين الذى استمدت منه الأفلاطونية الحديثة ، ولذا نجد بينهما مشابهات كبيرة وان افترقا فى التفاصيل ! فيرتكزان على عقيدة التثليث ، والثلاثة أقانيم واحدة فيهما . أول الاقانيم : الله مصدر كل كمال وفى وحدته كل الكمالات ـ ودعاه المسيحيون الآب ، والثانى : الابن وهو الكلمة ، والثالث : هو دائما الروح القدس . على انه يجب أن يلاحظ ـ وهذا بعض ما يفرق اللاهوت المسيحى عن الافلاطونية الحديثة أن الاقانيم الثلاثة ليست فى نظر المذهب متساوية فى الجوهر والرتبة ، بينما هى متساوية عند المسيحية(١) » .

ولست حين أورد هذه الكلمات أنتصر لكل ما جاء فيها ، بل حسبى ان أخرج منها بأنها لم تبغض (رسل) Russel أو (جوتييه) Gauthier الى قلوب المسيحيين ، فهل يكون بدعا أن نرى أنفسنا ـ نحن المسلمين المؤمنين بنبوة المسيح ـ أولى بالالفة والمودة !

ويقرر توكارو فى « دائرة المعارف الفلسفية ٣ : ٤٩٢ » لقد أخذت المسيحية عقيدة الاله الاعظم ولكنها أضافت الى ذلك عقيدة الاله الابن الذى يتجسد فى المسيح الاله الانسان ، كما أضافت عقيدة الافلاطونية الحديثة من الايمان بروح العالم (الروح القدس) ولهذا ليست المسيحية ان أردنا الدقة دين توحيد (٢) » .

---

(١) لبون جوتييه . فقرة من كتابه : المدخل الى الفلسفة الاسلامية ترجمها الدكتور محمد يوسف موسى وألحقها الشيخ محمد أبو زهرة بهامش كتابه محاضرات فى النصرانية ص ٣٣ ـ ٣٥

(٢) خطاب الكردينال كونج في جامعة الازهر في ٣١ مارس ١٩٦٥

ويشير الاستاذ فريد كامل فى مقاله (الفن فى خدمة الدين) الى التأثيرات (المصرية) على (المسيحية) ، فيقول : « تميزت الديانة المصرية السكندرية بظهور التأثير الفينيقى فيها ٠٠٠ اتخذت فى الاسكندرية الالهة ايزيس زوجة اله المدينة سيرابيس ـ أى أوزيريس ـ وكذلك ابنها حورس دورا جديدا ليخففا من حدة التوتر ويكونا سفيعى الانسان عند الاله وليكونا أيضا محبوبين عند الانسان ومحبين له وبذا يعوضانه عن الخوف الذى يشعر به نحو عدالة الاله الصارمة ٠ ووضعت ايقونات كثيرة تمثل (ايزيس الام) ترضع (حورس الطفل) وتجلسه على ركبتيها ولا يظهر ممثلا فيها الاب الصارم الذى يخافه الناس واعتاد السكندريون على التحلى بتلك الايقونات التى يوجد منها المئات فى قاعة أنطونيادس بمتحف الاسكندرية اليوم ٠ (وظهر قبل الاتجاه الفينيقى اتجاه مضاد لتعدد الالهة اعتبر ان الصور الالهية المختلفة ما هى الا نواح مختلفة من شخصية وصفات الاله الواحد الذى لا يمكن فهمه أو استيعابه فى صورة واحدة معتادة ويسمى هذا الاتجاه : الوحدة فى التعدد) ٠٠٠ ومع ان الرومان هم الذين غزوا مصر الا أن حضارة مصر ـ أو بالاخرى الاسكندرية ـ ودينها غزوا الامبراطورية الرومانية بسرعة هائلة حتى ان شحاذى طرقات روما كانوا يطلبون الصدقة حبا وكرامة فى الالهه ايزيس ، واضطر الامبراطور اغسطس الى اصدار قانون يحرم اقامة احتفالات مصرية فى روما وضواحيها ٠٠٠ لهذا لم يكن من الغريب أن توجه روما عينها الى مصر عند ظهور المسيحية لتنقل عنها العقيدة الدينية الجديدة ، وان لا تنتشر المسيحية فى العالم الا بعد انتشارها فى مصر واكتسابها الطابع المصرى حتى انه يمكننا أن نقول **ان المسيحية التى نعرفها اليوم هى فى الواقع المسيحية التى حورت وطورت فى مصر** وهكذا أخذت عن رسوم ايزيس والطفل حورس طريقة رسم العذراء والمسيح الطفل ـ الذى كان فى أول الامر يضع اصبعه فى فمه مثل حورس ، وأخذت صورة صعود العذراء الى السماء فوق الهلال عن صعود ايزيس فوق سفينة الشمس ، ورسم الله ينظر الى أسفل من أعلى الصورة مثل رسوم حورس فى أوراق البردى ، واتخذ الصليب القبطى الاول شكله عن مفتاح الحياة المصرى القديم (الابح) ٠ كذلك أخذ الاعتقاد أن كل شىء كامل له ثلاثة نواح عن المصريين، وكان لكل مدينة مصرية ثالوثها وكان الثالوث السكندرى قبل المسيحية مباشرة هو الاله والحكمة والكلمة ٠ والتزاوج الالهى أصله مصرى ، وكذلك تفاصيله كلها من بشارة وحمل بدون اثم وولادة وتعبد واهداء هدايا ، وظهور الاله فى جسد بشرى وقتله وقيامه من الموت توجد كلها

فى قصة أوزيريس ، والفداء أصله مصرى فالآلهة الأربعة الثانوية : أمست وهيبى وسموتيف وسنوف الذين كانوا يتوسطون روح الميت ويدافعون عنه كانوا يقدمون أنفسهم أيضا كفداء للميت والاعتراف بالخطايا ابتدعه الملك أمازيس آخر ملوك الاسرة ٢٦ وكان واجبا على كل فرد مرة كل سنة ، كذلك وجود شـجرة حياة بالجنة وحراس الجنة الذين يحملون سيوفا من لهب ووصف الجنة بأنها تروى بلا مطر واغراء المرأة عن طريق الثعبـان كل هذه عنـاصر مصرية قديمة • كذلك أخذت عمارة الكنيسة (طراز البازيليكا الرومانى) عن المعابد السكندرية التى اختلفت عن المعابد المصرية القديمة فى انها كانت مركزا للكهنة لا مسكنا للالهة وبتركيزها على داخلها بدلا من خارجها ، وجاءت العمارة البيزنطية لتضيف القبة أو التاج رمز السلطة الى الكنيسة ، وفى نفس الوقت تغلبت مثاليات الفن الاغريقى فالرومانى على الفن المصرى القـديم ذى الصـلابة الشديدة فى الاسكندرية ••• وظهرت فى الفيوم (بورتريهات) الموميات والأقنعة المليئة بالواقعية والحياة بعيونها الواسعة وتقاطيعها المصرية وتفاصيلها الدقيقة ، وهى التى يدعوها أندريه مالرو (الفن المسيحى لما قبل المسيحية) ••• وانتشرت المسيحية بسرعة بين اغريق الاسكندرية باعتبارها حركة مقاومة وتمرد ضد الرومان (وكان أول بطريرك مسيحى لكرسى الاسكندرية عينه القديس مرقس يهودى الاصل ، وتلاه بطاركة اغريق •••) وعمل الاغريق على تقريب المسيحية من فهم المصريين فقاموا بدراسات فى سحر الارقام والمعانى الخفية فى الانجيل ، وتقبل المصريون الدين الجديد بسرعة ولكن على أساس ان المسيحية تقدم أسماء جديدة للآلهة المعروفة والمتعارف عليها كما تحمل بعض التغييرات الاسطورية الاخرى • وهكذا حل المسيح فى المسيحية المصرية محل حورس والعذراء محل ايزيس والله محل سيرابيس (أوزيريس) واعتبر المسيح والعذراء شفيعين عند الله (القاضى الصارم) وأحب المسيحيون المصريون المسيح وصلوا له أكثر من الله نفسه ، كذلك تحول المسيح عن كونه معلما لدين جديد كما هو فى الرسائل والبشارات ليصير وسيطا ومدافعا أمام القاضى ••• وكان المصريون السكندريون قد اعتبروا ان الاله لا يمكنه أن يخلق أو يقر الشر والخطيئة وبذلك أعلنوا عن وجود الهين خالقين أزليين متداخلين للخير والشر (أوزيريس ثم حورس للخير وست للشر فى الديانة المصرية القديمة ، فنشو وشينا ويعلوهما براهما فى الديانة الهندية ، أهرمزدا وأعرمن فى الديانة الفارسية ، واعتبر الاغريق وجود مبدأ الخلق ومبدأ الفناء مع وجود منظم لهما على شكل مبدأ ثالث) • وقد أضاف المصريون فكرة الالهين الخالقين — أى

تعدد الالهة – الى الديانة المسيحية • كذلك أضاف المصريون للمسيحية المخلوقات الروحانية أى تجسدات الاله أو المخلوقات التى عاش فيها الاله وتجسد فى صورها وهى انعكاس لفكرة تناسخ الأرواح الموجودة فى أغلب الديانات الشرقية ، وكانت هذه التجسدات سبعة أحدها هو المسيح (اذ ان علوم الأرقام اعتبرت الاله كالأسرة ثالوث من ٣ عناصر والعالم مكون من ٤ مواد أو أبعاد ورمز لعملية الخلق بالسبعة أى اتحاد الاله والعالم معا) • ومن المعتقد أيضا أن الاصحاحين الأولين فى انجيل متى والأولين فى انجيل لوقا – وهى الأجزاء الوحيدة فى الانجيل التى تذكر مولد المسيح عن طريق التزاوج الالهى (المعروف فى الديانة المصرية القديمة) قد أضيفت الى الانجيل فى مصر • ونسخ الانجيل القديمة التى يرجع اليها دائما كتبت فى مصر فى الاسكندرية وسيناء ، وهى الاناجيل المحفوظة فى باريس والفاتيكان وكامبريدج والمتحف البريطانى ومتحف موسكو والنسخ القديمة بالحبشية واللاتينية والسريانية ••• وفى (مجمع نيقية) انتصرت وجهة النظر المصرية التى آزرها اثناسيوس الاسقف الاغريقى بالاسكندرية وقد كتبت عقيدة اثناسيوس القائلة بان (الاب اله والابن اله والروح القدس اله ولكنهم اله واحد لا ثلاثة) – أى مذهب (الوحدة فى التعدد) بعد موت اثناسيوس بقرنين أو ثلاثة قرون••• هكذا تحددت الاسكندرية كقاعدة للعالم المسيحى وقبلة لفلاسفة ومفكرى المسيحية فى القرن ٤ م ، كما هاجر اليها الرهبان الرومان ليتعلموا على أيدى المصريين • (وكان أثر العبادة المصرية القديمة ما زال باقيا فى الاسماء حتى أسماء الرهبان المسيحيين أنفسهم وكان أشهرهم باشميوس أى كاهن الاله شم وحورسيسى أى ابن ايزيس فكلمة قبط أصلها هاكوبتاح أى موضع روح بتاح وهو من أسماء مدينة ممفيس حورها الاغريق الى كوبتو وجيبتو • وبلغ من شهرة المسيحية المصرية أن طلبت كنائس القسطنطينية فى القرن الرابع أيضا بعض عظام الشهداء المصريين لتوضع بها • وحينما وصلت هذه العظام وقف أسقف القسطنطينية كريستوسوم يقول : أشكر الله لان مصر التى أرسلت قمحها لتطعم جيرانها الجوعى ، أمكنها أن ترسل لهم أيضا عددا كبيرا من الشهداء لتطهر كنائسهم !! وقام الصراع بين الاسكندرية والقسطنطينية حينما صارت عاصمة الامبراطورية الشرقية حول القيادة الدينية، وانضمت الكنيسة الاغريقية للقسطنطينية والكنيسة الرومانية للاسكندرية وبالتدريج انفصلت الكنيسة الاغريقية عن القسطنطينية وضاعت سلطة الامبراطورية الشرقية فى أوربا وانفصلت الكنيسة القبطية عن الرومانية سنة ٤٥١ م وهى التى ورثت العقائد

المصرية المسيحية لتبشر بها ، وبدأت تجدد القيود والرموز والتقاليد ، وجاء الفتح الاسلامي سنة ٦٤٠ م فزاد القبطية المصرية تقاليدا ورمزية ... » (١)

وهذا اميل لودفيج يقول عن المسيح :

« ويعد الجميع المعلم الجديد نبيا ، ويبدو المعلم الجديد نبيا ، ولم يفكر يسوع فى انه أكثر من نبى ، وليس بقليل أن يرى نفسه فى بعض الاحيان دون النبى ! ولم يحدث أبدا من يسوع ما يخيل به الى السامع أن له خواطر وآمالا فوق خواطر البشر وآمالهم ، وما كان يسوع ليذهب الى أبعد من ذلك فيدعى انه المنقذ المنتظر ! فاذا ما قال الناس انه أحد قدماء الانبياء راقه ذلك ، موجها أفكارهم الى ملكوت السموات ، واذا ما قال انه ابن الرب كان ذلك محمولا على انه ابن الرب كجميع الذين يشعرون بانطواء أنفسهم على القوى المبدعة التى يشتق منها وجودنا ! والآن يجد يسوع كلمة جديدة صالحة للتعبير عن تواضعه بقوله عن نفسه : انه ابن الانسان ! وقديما أراد الانبياء أن يلفتوا الانظار الى الهوة الواسعة التى تفصلهم عن الله ، فكانوا يسمون أنفسهم بأبناء الانسان ، ومن هؤلاء دانيال وحزقيال — اللذان أظهرا الرب مخاطبا كل واحد منهما بابن الانسان ، أى بآدمى ضعيف هالك ولد ليفنى بعد ألم ، ولكن مع استعداد لنيل عفو الرب (٢) » .

والدكتور بترسون سمث صاحب الكتاب الذى حقق درجة كبيرة من الرواج والشعبية عن سيرة المسيح People Life of Christ يقول يعزب عن البال أن **التلاميذ قبلوا المسيح فى بادىء الأمر كانسان** ، وقد كان هذا هو القصد الالهى الذى أراده المسيح ، فانه كانسان اكتسب عطفهم واعجابهم : وتدريجا أخذت أحاسيسهم تتعمق وتزداد دهشة ورهبة وحيرة وترددا ... ولم يبدأ باعلان ذاته الا قبيل نهاية حياته ، ولم يشرق عليهم فجر هذا الاعلان الهائل الا بعد القيامة والاربعين يوما التى قضاها مترددا عليهم والصعود فى السماء ونزول الروح القدس وبعد هذا أدركوا فى رهبة وخشوع من كان ذلك الشخص العجيب الذى قضى معهم ثلاث سنوات فى فلسطين فكتب أحدهم (الكلمة صار جسدا وحل بيننا ورأينا مجده ، مجدا كما لوحيد من الآب) تم هذا كله دون أن

---

(١) فريد كامل . الفن فى خدمة الدين — مجلة الطليعة ع ٦ السنة الأولى يونية ١٩٦٥

(٢) لودفيج : ابن الانسان — ترجمة عادل زعيتر ص ٩٥

يفطن أحد الى ميلاده العذراوى ، وأغلبهم لم يكن قد عرف شيئا عن تلك الحادثة العجيبة ... وبالطبع قد أذيع هذا السر عن طريق العذراء أو بواسطة أخصائها ، ونحن لا نعرف شيئا عن كيفية ذيوع هذا السر ولا الدليل الذى أقنع الكنيسة بصدق تلك الحادثة ، ولكننا نعلم أن السر قد ذاع فعلا خلال سنوات قليلة في أرجـــاء فلسطين وتناقلته الألسنة كحديث متواتر دونه البشـــير متي وفصله البشير لوقا وأدمجت هذه العقيدة في أول قوانينها • أما البشير مرقس فقد بدأ بشارته بمعمودية المسيح ، ويوحنا لم يشر اليها الا أنها يمكن أن تفهم ضمنا من كلامه عن تجسد الكلمة • واذا كان لم يشر الى ذلك فان لوقا كان تلميذه اللصيق به ، وقد كان لبولس تصويره وتعبيره عن سيرة المسيح مما يشير اليه في أحد رسائله بقوله (انجيلى) الا أنه لم يصلنا • على **أن العذراء نفسها لم تفكر في ولدها (كاله)** رغم مولده الاعجازى الفريد » (١) •

وقد تربى المسيح **كصبى عادى** « وكان يتقدم في الحكمة والقامة والنعمة عند الله والناس » **وكانت أمه توجهه وتؤنبه** وهو لها مطيع • **ومن حواريي المســيح انفسهم من أمضي وقتا طويلا وهو لا يؤمن بأن للمسيح شخصية الهية** : فيليبس ، ونثنانيل وبرثلماوس ومتى وتوما ، ويرى بترسون سمث أن هذا « ليس عيبا فهكذا ركبت نفوسهم وطبائعهم ... فيلبس يقـــول : ياسيد أرنا الأب وكفانا ، وتوما يرفض الايمان بالقيامة بشهادة زملائه الرسل » (٢) ! •

ويشهد الكتاب المسيحيون المخلصون أنفسهم بصعوبة تفهم عقيدة التثليث بالنسبة لعامة الناس تقرأ لواحد منهم مثلا « وان كان قد تعذر على البعض فهم هذه العقيدة فليس معنـــاها أنها غير صحيحة أو غير حقيقية ، **والكنيسة** منذ البداية توصلت الى هذه العقيدة بأن الله هو ثلاثة في واحد وواحد في ثلاثة ، مع العلم بأن الآباء المسيحيين الذين انتهوا الى هذه العقيدة كانوا من أعظم المفكرين • ولولا تأكدهم من أن هذه هى أفضل طريقة للتعبير عن هذه الحقيقة لما التجأوا اليها ، وهى بلا مراء مستقاة من تعاليم الكتاب ومن اختبارات الذين يحلو لهم اتباع يسوع المسيح والايمان به كابن لله » « **ولا يعتقد جميع الذين يسمون انفسهم مسيحيين انه عن طريق المسيح جاء الله بنفسه الى العالم ليعيش عيشة**

---

(١) دكتور بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٢٥ : ٢٨ ، ٣١ : ٣٢ ، ٤٢ : ٤٣

(٢) بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ١٨٥ ـ ١٨٦

بني البشر ، فهناك فرق تدعي بأن المسيح كان نبيا عظيما وانسانا كاملا وان الله سكن فيه ولم يسكن في أحد سواه وأنه عن طريق تعاليمه أعطانا صورة حقيقية عن الله ، بيد أن هؤلاء يقولون بأنه ضلال أن يتحدث أحد عن المسيح كاله ، فهؤلاء لا يعترفون بالمسيح سيدا ومخلصا مثلما يعترف به باقي المسيحيين والذين يقولون بمثل هذا هم أتباع المذهب التوحيدى Unitarians وفي الوسع أن نقول بأن هؤلاء يحيون حياة روحية عالية وربما فاقت في كثير من الحالات حياة المسيحيين غير أن ذلك لا يغير الواقع الاليم بأنهم ينكرون حقيقة عاشت الكنيسة بوحيها على مـــدى الأجيال والسنين ...» « وأهم ما وضـــعته الكنيسة الأولى بعـــد قانون ايمان الرسل : قانون الايمان المنسوب لمجمع نيقيه وقانون ايمان اثناسيوس والذين وضعوا قوانين الايمان لم يقولوا جديدا من عندياتهم ولكنهم فى محاولتهم الافصاح عن الايمان بدقة وعناية اضطروا أحيانا للذهاب آلى ما هو أبعد من الفاظ الكتاب المقدس واستخدام مصطلحات مستمدة من الفلسفة اليونانية فى ذلك العصر • وبعض تلك المصطلحات لا يسهل على الانسان العادى فهمها ، وحتى اليوم حين تتضام عدة كنائس لتكون واحدة كما حدث فى جنوبى الهند يرون ضروريا أن يصيغوا قانونا لايمانهم لايضاح موقفهم حيال الماضي وحيال الكنائس الأخرى وربما حيال الأديان غير المسيحية المحيطة بهم • وتكون هذه القوانين عادة أكثر اسهابا من قوانين الايمان المعروفة • وليس من الغريب أن يشعر المسيحيون العاديون بشىء من الحرج اذ يلقون نظرات الى هذه الوثائق التاريخية ويحارون فى فهم عباراتها ويجدون صعوبة فى شرحها لغير المسيحيين » « وقد عدلت الكنيسة كلية عن استعمال لقب (العبد) بالنسبة للمسيح بعد أن بدأت به فى أول العهد فلماذا ؟ لعل الاجابة نجدها فى حقيقة القيـــامة كما فهمتها الكنيسة بعد اذ توثقت صلتها بالمسيح (المقام) ، فيسوع الذى عرفته الكنيسة واحبته هو بعينه يسوع الانسان الذى عاش وتألم ، أما الآن فان حياة الكنيسة قد اقترنت بصلة مع المسيح (المقام) وفازت بنصيب من مجده فلم تعد ثمة حاجة للعودة للاختبار القديم الذى عرفه التلاميذ الأولون قبل القيامة • ولعلهم أحسوا أن لقب (العبد) كان ملائما للفترة الأولى من حياة السيد على الارض ولكنه لم يعد لائقا لمن هو الآن رب المسيحية • وانا لواجدون هذا اللقب أحيـــانا فى المؤلفات والصلوات

المسيحية التى كتبت بعد عصر العهد الجديد ولكن اللقب بطل استعماله بصفة عامة » (١) ٠

أما بالنسبة لاستعمال لفظ (رب) « **فان الكلمة اليونانية الأصلية التى معناها رب** Kyrios **يمكن استعمالها كصيغة للتأدب فى المخاطبة**٠ فسجان فيليبى يخاطب بولس وسيلا بكلمة Kyrios (سيدى) (اعمال ١٦ : ٣٠) ٠ **ولكن يمكن أن تستعمل بمعنى أرفع وأرقى ، وكانت تستعمل وصفا للامبراطور فى كل أنحاء الامبراطورية الرومانية كما كانت تستعمل أيضا لملوك اليهود** ٠ وكانت اللفظة لقبا من ألقاب الكرامة خلع على كثير من الآلهة الوثنية وخاصة آلهة أديان الأسرار ٠ ولهذا السبب ذهب بعض العلماء الى أن **لفظ (الرب) أطلق أولا على يسوع فى الجماعات الامية الناطقة باليونانية وذلك لانه هو الوصف الذى خلعوه على آلهتهم قبل أن يعتنقوا المسيحية** وكان من الهين على أولئك الامم أن يقبلوا هذا اللقب الذى كان مألوفا لديهم ٠ على ان الكلمة (ماران اثا) توحى الى الذهن بأن الامم ليسوا أول من استعملها وأن يسوع كان (ربا) للمسيحيين الناطقين بالآرامية ٠ ومما هو جدير بالمراعاة انه عقيب القيامة مباشرة أطلق اليهود اليونانيين الذين اعتنقوا المسيحية على يسوع الكلمة عينها التى ألفوا استعمالها عن الله الآب ، وقد مهد هذا بلا شك الطريق الذى أدى بالكنيسة الى أن تعترف بيسوع (اله من اله ٠٠٠ اله حق من اله حق) (٢) » « **ولقب (ابن الله) لم يكن شائعا فى أسفار العهد الجديد** ففى بعض الاسفار مثل رسالة يعقوب ورسالة بطرس الاولى لم يرد اطلاقا ولم يرد فى سفر الرؤيا الا مرة واحدة (٢ : ١٨) وفى سفر الاعمال ورد مرتين احداهما جاء اقتباسا عن مزمور (٢ : ٧) ولم يرد مطلقا فى العظات الاولى من هذا السفر التى يحاول لوقا أن يرسم لنا فيها صورة للرسل وهم يجتهدون فى ادراك معنى المسيح المقام فى حياة الناس ٠ **أما بولس فهو الذى نادى بعد اهتدائه فى المجمع قائلا: هو ابن الله (أعمال ٩ : ٢٠) ويميز كاتب سفر العبرانيين تمييزا صارخا بين الانبياء وبين الابن** الذى هو أعلى من الملائكة (الله بعد ما علم الآباء والانبياء قديما ٠٠٠ كلمنا فى هذه الايام الاخيرة فى ابنه) (عبرانيين ١ : ٢) لكن بولس هو الذى يقتادنا أكثر من أى كاتب آخر الى الايمان بيسوع ابن الله وقد استند

---

(١) ستيفن نيل : الله فى المسيحية ترجمة ابراهيم مطر ص ١٠٦ ـ ١٠٩ ، ١٠ ـ ١١ ، ٤٧ ـ ٨

(٢) ستيفن نيل : من هو المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ٤٩ : ٥٠٠

ايمانه هو شـــخصيا الى (ابن الله الذى أحبنى وأسلم نفسه لأجلى) (غلاطية ٢ : ٢٩) ، (ابن الله يسوع المسيح الذى كرز به بينكم) (٢ كورنثوس ١ : ١٩) وهو الذى قال ان الهدف هو (أن نكون مشابهين صورة ابنه ليكون هو بكرا بين اخوة كثيرين) (رومية ٨ : ٢٩) على ان هذا اللقب لم يكن كافيا للتعبير تعبيرا وافيا عن كل ما أرادت الكنيسة أن تقوله عن يسوع ، ذلك لأن المسيحيين وجدوا لقب (ابن الله) فى العهد القديم ، وكان طبيعيا أن يطبقوا على يسوع مثل العبارة الواردة فى مزمور ٢ : ٧ (انت ابنى أنا اليوم ولدتك) اذ تومىء الى ملك الهى آت أرفع من كل ملك أرضى ، **ولكن اللقب نفسه أطلق فى العهد القديم على أشخاص كثيرين : اسرائيل (اسرائيل ابنى البكر) (حز ٤ : ٢٢) وملك اسرائيل (أنا أكون له أبا وهو يكون لى ابنا) (٢ صم ٧ : ١٤) والملائكة (ترنمت كواكب الصبح معا وهتف جميع بنى الله) (ايوب ٣٨ : ٧) ... ترى ما العلاقة بين الابن وبين أبناء الله الآخرين ؟ ومتى صار يسوع ابن الله ؟ أكان هذا عند مولده أم معموديته حين هبط صـوت السماء (انت ابنى الحبيب) (مرقس ١ : ١١) أم كان عند القيامة يوم تعين من كان من نسل داود (ابن الله بقوة) (رو ١ : ٥) أم ترجع بنوته الى زمن أبعد؟؟ لعل هذه الأسئلة هى التى حملت أحد مفكرى العهد الجديد على استعمال لفظ (الكلمة) (١)** » . « على ان الكلمة Logos لها تاريخ طويل بين اليونان وبين اليهود على السواء ، فلم يكن معناها الكلمة المنطوقة فقط ، بل أيضا مبدأ العقل فى الانسان ومبدأ النظام والتناسب فى الكون الذى يحفظه كلا متوازنا . والارجح أن هاتين الفكرتين كانتا فى عقل كاتب البشارة ــ يوحنا ــ وهو يكتب لليونان واليهـــود على السواء (٢) » . لا عجب اذن أن يكون الامر محتاجا الى تقليب وجهات النظر ، وتسليط مزيد من الاضواء !! وموقف المسلمين ازاء ألوهية المســـيح قد ثار بين المسيحيين أنفسهم قديما وحديثا « فالابيونيون قد زعموا أن يسوع الذى تألم لم يكن الهيا وأكثرهم من المسيحيين اليهـود فى فلسطين وسوريا وظلوا طائفة مستقلة عدة قرون ... وزعم الدوكيون (من دوكى اليونانية بمعنى ظهور) أن جسد يســـوع البشرى لم يكن جسدا حقيقيا ــ حتى لا يقال ان يســـوع الالهى تألم ــ بل كان مجرد ظهـور ... ولويس السمسطائى اسقف انطاكية سنة ٢٦٠م علم الناس ان يسوع كان فى

---

(١) ستيفن نيل : من هو المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ٥٤ ــ ٥٥
(٢) ستيفن نيل : من هو المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ٥٦

أول الامر انسانا لا غير ولكن كلمة الله ونعمة الله استقرتا فيه بطريقة فريدة وأخذت قوة الله الساكنة فيه تعظم شيئا فشيئا حتى رفع أخيرا ليكون هو الله ، وعلى مقتضى هذا الزعم لم يكن ابن الله هو الذى نزل من السماء وصار جسدا بل ابن انسان هو الذى تسلق المرقى وصار الها ٠٠٠ وآريوس الاسقف الاسكندرى يعلم الناس ان ابن الله هو فقط بكر الخلائق وأرقاها وأرفعها مقاما وليس أزليا كما ان الاب أزلى ففى البدء كان الله وحده بدون الكلمة ثم كان الها بكلمته وهو يقول (حتى ان دعى الله فهو ليس الها حقا ولكنه شريك فى نعمة الله فقط شأنه شأن الآخرين) ٠٠٠ ونسطوريوس الذى اعتلى كرسى القسطنطينية سنة ٤٥٨م نفى أن تكون العذراء أم الاله Theotckos وانما هى أم المسيح ، أما (الكلمة) فليس لها بداية ولا يمكن أن يتألم أو يموت ٠٠٠ وأبوليناريوس أسقف لاودكيا بآسيا الصغرى فى النصف الثانى من القرن الرابع حاول كذلك تفهم علاقة اللاهوت والناسوت فى المسيح وكذلك فعل يوتيخوس » ٠٠٠

ومن أجل حل هذه المعضلات تتابعت اجتماعات المجامع المسيحية ونحن نقرأ فى قرار مجمع خليقدونية سنة ٤٥١ م « نعترف ونعلم كلنا معا بالابن الواحد الوحيد ربنا يسوع المسيح الكامل فى لاهوته والكامل فى ناسوته اله حق وانسان حق مسيح واحد الابن الرب الابن الوحيد المعلن فى طبيعتين بدون امتزاج وبدون تغيير وبدون انقسام وبدون انفصال ٠ واختلاف الطبيعتين لا يفسد هذا الاتحاد بل الاحرى تحتفظ كل طبيعة بخواصها المعينة ليس كأنه مجزأ أو منقسم الى شخصين بل هو واحد ابن الله اللوغوس (الكلمة) والرب يسوع المسيح(١) » ولكن المجمع عبثا حاول أن يقطع الجدل فى شأن طبيعة المسيح هل هى طبيعة واحدة (مونوفيزيت) أو طبيعتان (ديوفيزيت) ومن أجل التوحيد ثار جدل جديد حول مشيئة واحدة للمسيح (مونوثليت) لم يرض بها القائلون بالطبيعة الواحدة ولا القائلون بالطبيعتين ٠٠٠ ولقد سلفت الاشارة الى أصحاب مذهب التوحيد المحدثين unirarians الذين يرون عظمة المسيح لكن لا يعتقدون ألوهيته ٠٠٠

أفلا تتسع الصدور والعقول فى قضايا لا تحسم بطبيعتها فى كلمة أو صيحة أو حتى ضربة ٠٠٠ ولقد اتسعت للنقاش القرون تلو القرون ، بين أتباع المسيح أنفسهم !!

الصليب ... والخلاص

ثم نأتي **لفكرة الخلاص** ...

انها فكرة فلسفية تجعل عمل المسيح مكفرا لخطيئة آدم ، مطهرا للبشرية من وزرها ...

« هل كان من الممكن أن يتجسد الكلمة الالهى حتى ولو افترضنا ان آدم لم يسقط الخطيئة ؟ أجاب القديس توما ومعظم كبار اللاهوتين مستندين الى نصوص الوحى والتقليد : بانه لولا خطيئة آدم لما تجسد الكلمة الالهى • وقد أجاب دون سكوت يقول : ان التجسد كان لا بد من تحقيقه سواء أخطأ آدم أم لم يخطىء ، لان الخطيئة لا يمكن أن تكون سببا يدفع الى تجسد ابن الله • وقد أدلى دون سكوت بأدلة لياقية وجهية ولكنها لا تعتمد على نصوص الكتاب المقدس أو الآباء • ولم تظهر نظرية أتباعه الا فى الجيل الثانى عشر ، وكان أول من نادى بها هونوريوس Honorius diuton وتسربت النظرية الى المدرسة اللاهوتية بفضل الكسندر هالس وألبرت الكبير ، الا أن اثنين من ألمع تلاميذهما هما القديسان توما الأكوينى وبونافنتورا نبذا رأى معلميهما وان لم ينعتاها بنعوت قاسية احتراما لهما • وجاء أخيرا دون سكوت وتناول النظرية ودافع عنهما وأصبح اماما لكل من اعتنقها بعده ونخص بالذكر سوارز والقديس فرنسيس سالس ولاهوتيو سلمنك والفرنسيسكان عموما...

والتجسد عمل ثمين وغنى تصدر عنه نتائج كثيرة : فالتجسد يظهر مجد الله ، والتجسد يظهر للبشر الله الحق الكامل والخير المطلق ، والتجسد يعطى الانسان المثل الأعلى ــ وانما هذه النتائج كلها أو هذه الغايات هى ثانوية ، ويقول الرأى العام ان الغاية الرئيسية هى **التعويض عن الخطيئة وفداء الجنس البشرى وتجديده** وليس تتويج الخليقة وآسعادها ، لانه لولا خطيئة آدم لما تجسد ابن الله ...

قال توما الاكوينى فى رصانة واتزان وتواضع : توجد آراء مختلفة، فيزعم البعض أن ابن الله كان يتجسد حتى ولو لم يخطىء آدم ، ويرى البعض الآخر خلاف ذلك ، ويبدو آنه من الاصوب الانتماء الى الرأى

الثانى ، فان ما هو متعلق بارادة الله وحدها ليس لنا أن نعرفه الا بالمقدار الذى يكشفه لنا الله بواسطة كتبه المقدسة ، والحال أن الكتاب يقول لنا دائما ان خطيئة الانسان الاول هى الدافع لتجسد ابن الله ، وعليه يظهر أن هذا السر انما رتبه الله كدواء للخطيئة بحيث انه لولا الخطيئة لما كان التجسد ··· وقال اغسطين : لولا هلاك الانسان لما جاء ابن الانسان(١) »

والقرآن يقرر مغفرة الله لهذه الخطيئة منذ أيام آدم : « وقلنا يا آدم اسكن أنت وزوجك الجنة ، وكلا منها رغدا حيث شئتما ، ولا تقربا هذه الشجرة فتكونا من الظالمين · فأزلهما الشيطان عنها فأخرجهما مما كانا فيه ، وقلنا : اهبطوا بعضكم لبعض عدو ، ولكم فى الأرض مستقر ومتاع الى حين · **فتلقى آدم من ربه كلمات فتاب عليه ، انه هو التواب الرحيم** · قلنا : اهبطوا منها جميعا ، فاما يأتينكم منى هدى فمن تبع هداى فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون ··· » (٢) ·

والاسلام لم يرفض واقعة الصلب لأنها (خاتمة سيئة لطبقة الأنبياء !!) ـ كما يظن الفيلسوف العظيم رسل ! ··· فالأنبياء ان صح أن يقال عنهم انهم (طبقة) فهى طبقة دائبة على التضحية بالنفس فى سبيل الحق الذى تؤمن به : « لقد أخذنا ميثاق بنى اسرائيل وأرسلنا اليهم رسلا ، كلما جاءهم رسول بما لا تهوى أنفسهم فريقا كذبوا وفريقا يقتلون » (٣) !! والقرآن ملء بمثل هذه الاشارات الى قتل الأنبياء !

ومن هنا لا يستغرب الاسلام أن يسعى بالمسيح ليصلب ويقتل ، والاتفاق تام مع المسيحية حتى بدء حدوث الواقعة نفسها ، وقد يستمر الاتفاق بعد حدوث الواقعة على تأويل بعيد ـ لا يخرج صاحبه عن نطاق الاسلام على أى حال ـ ونعنى القول الذى يأخذ من آيات القرآن الدلالة على انتفاء حدوث الموت نتيجة الصلب ، لا انتفاء حدوث الصلب نفسه : « وقولهم انا قتلنا المسيح عيسى بن مريم رسول الله ، وما قتلوه وما صلبوه ولكن شبه لهم ، وان الذين اختلفوا فيه لفى شك منه ـ ما لهم به من علم الا اتباع الظن ، وما قتلوه يقينا · بل رفعه الله اليه ، وكان الله عزيزا حكيما » (٤) ·

---

(١) فرنسيس فرييه : التجسد ـ تعريب لويس أبادير ص ١٣٤ : ٦ ، ١٣٨ ـ ٩·
(٢) البقرة ٣٥ : ٣٨
(٣) المائدة ٧٠
(٤) النساء ١٥٧ ـ ١٥٨

وثمه مسيحيون آمنوا بلاهوت المسيح وناسوته هم أصحاب نزعة الدوسيت ، ومع ذلك ارتأوا « ان سمعان القيرواني هو الذى صلب عوضا عن المسيح الذى رفع الى السماء » • وارتأى آخرون تأويلا فلسفيا يذهب الى « أن المسيح الروحانى انفصل عن المسيح النفسانى ليس قبيل الموت وحسب ، وانما منذ بداية الآلام بحيث ان الذى تألم ومات ليس هو المسيح الحقيقى ، وانما شبيه له فقط(١) »

والعبرة فى الصلب ليست فى مجرد حدوث واقعة من الوجهة التاريخية على صورة معينة أو حدوثها على صورة مغايرة !! وانما العبرة بالنتيجة المستخلصة من وراء الحادثة ، ونعنى بها فكرة الخلاص •••

ويرى جورج ماثيسون أن اعتراض اليهود على المسيح فى حياته لم يكن لأنه جعل نفسه (المسيا) فهذه دعوى تناقش بالدليل ، والمسيح لم يتعد على ناموس أو تقليد ، فى حين أنكر الصدوقيون مثلا قيامة الأموات ولكن لم ينفصلوا عن بقية طوائف الأمة ، وانما جاء اعتراض اليهود على المسيح **بسبب سلطان مغفرة الخطايا** « لقد تعدى حدود العهد القديم • لقد أثبت (للمسيا) ما لم يجرؤ كتبة الأسفار المقدسة فى أمته أن يصفوه به ! **لقد أضفى على نفسه سلطانا خصصه أبناء اسرائيل لله وحده** ، فلا مشرع ولا نبى ولا كاهن فى الأمة اليهودية نسب مثل هذه القوة للمسيح الآتى ! لقد كان (أشعياء) هو النبى الوحيد الذى اقترب من هذه الفكرة فقد رأى فى (المسيا) كفارة عن خطايا البشرية : قدوس الله الوحيد الذى سيكفر بحياته وموته عن خطايا العالم والذى ستشفع امكانياته واختباراته الانسانية فى ضعف البشرية وسقوطها ! ولكن حتى فى هذا الرأى القريب اتسعت الفجوة بين الحق الذى أثبته أشعياء للمسيا والحق الذى ادعاه يسوع لنفسه ! فان تعوض بحياتك وموتك عن خطيئة الانسان شىء وان تغفر بنفسك خطيئته شىء آخر ••• ان الأخير حق أكيد للسلطان الالهى ! **وحادثة (كفر ناحوم) التى يقوم فيها المفلوج للمسيح فيقول له : ثق يابنى مغفورة لك خطاياك ، هى البداية المميزة للمسيحية عن اليهودية** • وكثيرون تقدموا للاجابة عن السؤال : متى انفصلت المسيحية عن المحراب الأول ؟ باحثين عن النقط الواضحة التى يفترق فيها العهد الجديد عن العهد القديم • البعض رأى هذا الانفصال فى حادثة سقوط أورشليم ، والبعض رآه فى معارضة التلاميذ لفكرة الختان ،

---

(١) فرنسيس فرييه : التجسد تعريب لويس أبادير ص ٤٤ ـ ٥

والبعض لاحظه في حادثة تجديد شاءل الطرسوسى ، والبعض قال انه فى حادثة انسكاب الروح القدس فى يوم الخمسين ، وكاتب سفر أعمال الرسل قال (ودعى التلاميذ مسيحيين أولا فى أنطاكية) ولكن حسبما اعتقد هذه كلها ظواهر خارجية سطحية ••• ان النغمة المميزة للانجيل الجديد ليست هى التى نادى بها يسوع بأنه المسيح فهذه كانت نغمة أبواق العهد القديم ، ولكن الحق الذى أعلنه يسوع لنفسه فى علية كفر ناحوم كان حقا جديدا فريدا لم يسمع به موسى ولم يعرفه الأنبياء » (١) •

وهناك من يقولون ان القول (بالخطيئة الأصلية) كان اعتذارا وتبريرا ساقه المؤمنون بالمسيح كى يدفعوا عن أنفسهم وزر التخلى عن المسيح عند اعتقاله ولياذهم بالفرار ، ويمكن أن يسار بفكرة (الخلاص) هذا المسار ، سيما ولقب (**الفادى**) لم يرد فى الأناجيل بل جرى عليه العرف بين المسيحيين ، ولقب (**المخلص**) يحتمل معانى أخرى غير التخليص بالدم والفداء وهو لم يخلع على المسيح الا نادرا فى العهد الجديد وقيل ان ذلك كان لأن اللقب خلع على آلهة وثنية وبخاصة على الامبراطور الرومانى (٢) •

ونحن لا يهمنا أن نناقش الفكرة من الوجهة الفلسفية أو الدينية ، **وانما يهمنا أن نناقش مداها ، والى أى حد يصل هذا المدى فى التفريق بين المسلمين وبين المسيحيين •••**

فكرة الخلاص فى المسيحية لا تذهب الى تقرير (امتيازات) لطائفة من الخلق لمجرد أنهم مسيحيون ، ولمجرد أن المسيح قد كفر عن الخطيئة الأصلية ••• بل لابد من أن يعمل المسيحى بتعاليم المسيحية كى يحقق لنفسه الخلاص : « ليس كل من يقول لى يارب يارب يدخل ملكوت السموات ! بل الذى يفعل ارادة أبى الذى فى السموات ••• كثيرون سيقولون لى فى ذلك اليوم : يارب يارب ، أليس باسمك تنبأنا وباسمك أخرجنا شياطين ، وباسمك صنعنا قوات كثيرة ؟ فحينئذ اصرح لهم : انى لم أعرفكم قط ؟ اذهبوا عنى يافاعلى الاثم !! » (٣) •

---

(١) جورج ماثيسون : دراسات فى صور من حياة المسيح ترجمة دكتور عزت زكى ج ١ ص ١١٣ وج ٢ ص ٩٠

(٢) ستيفن نيل : من هو المسيح ترجمة حبيب سعيد ص ٤٠

(٣) مت ٧ : ٢١ ـ ٢٣ ، لو ١٣ : ٢٥ ـ ٢٧

ولقد رفض المسيح أن يجيب أم تلميذيه الى طلبها بأن يجلس ابناها عن يمينه ويســـاره فى ملكوته : « ••• وأما الجلوس عن يمينى وعن يسارى فليس لى أن أعطيه الا للذين أعد لهم من أبى » (١) ••

كذلك قطع بولس الطريق على كل من يتعلل بالخلاص ثم لا يعمل : « أيها الاخوة : ان انســـبق انســـان فأخذ فى زلة ما ، فأصلحوا أنتم الروحانيين مثل هذا بروح الوداعة ، ناظرا الى نفسك لئلا تجرب أنت أيضا • احملوا بعضكم أثقال بعض ، وهكذا تمموا ناموس المسيح ، **لأنه ان ظن أحدا أنه شىء وهو ليس شيئا فانه يغش نفسه ! ولكن ليمتحن كل واحد عمله ، وحينئذ يكون له الفخر من جهة نفسه فقط لا من جهة غيره ، لأن كل واحد سيحمل حمل نفسه » (٢) !!**

« نحن مقدسون بتقديم جسد يسوع المسيح مرة واحدة ••• فبعد ما قدم عن الخطايا ذبيحة واحدة جلس الى الأبد عن يمين الله ••• **فانه ان أخطأنا باختيارنا بعـد ما أخذنا معـــرفة الحق ، لا تبقى بعد ذبيحة عن الخطايا ، بل قبـــول دينـــونة مخيف ، وغـــيرة نار عتيدة التى تأكل المضادين » (٣)** •

ويعقوب يلح فى أن العمل الصالح هو ثمرة الايمان الصحيح :

« ما المنفعة يا اخوتى ان قال أحد أن له ايمانا ولكن ليس له أعمال ؟ هل يقدر الايمان أن يخلصه ؟ ان كان أخ وأخت عريانين ومعتازين للقوت اليومى ، فقال لهما أحدكم : أمضيا استدفئا واشبعا ، ولكن لم تعطوهما حاجات الجسد ــ فما المنفعة ؟ هكذا الايمان أيضا ، ان لم يكن له أعمال ــ ميت فى ذاته • لكن يقول قائل : أنت لك ايمان وأنا لى أعمال ، أرنى ايمانك بدون أعمالك ، وأنا أريك بأعمالى ايمانى • أنت تؤمن أن الله واحد ــ حسنا تفعل ، والشياطين يؤمنون ويقشعرون ! ولكن هل تريد أن تعلم أيها الانسان الباطل أن الايمان بدون أعمال ميت ؟ ألم يتبرر ابراهيم أبونا بالأعمال اذ قدم اسحق ابنه على المذبح ؟؟ فترى أن الايمان عمل مع أعماله ، وبالأعمال أكمل الايمان ، وتم الكتاب القائل : فآمن ابراهيم بالله ، فحسب له برا ودعى خليل الله • ترون اذن أنه بالأعمال يتبرر الانسان لا بالايمان وحده • كذلك راحاب الزانية أيضا ، أما تبررت

---

(١) مت ٢٠ : ٢٣ ، مر ١ : ٤٠

(٢) غلاطية ٦ : ١ ــ ٥

(٣) عبرانيين ١٠

بالأعمال اذ قبلت الرسل وأخرجتهم فى طريق آخر ! **لأنه كما أن الجسد بدون روح ميت ، هكذا الايمان أيضا بدون أعمال ميت** » (١) !! ٠

ومن هنا لا يكون الخلاص فلسفة تبريرية تفاؤلية وحسب ! ٠٠٠ ان المسيح كم ذكر الناس بملكوت الله وملكوت السموات ، ولم يتركهم **للأماني العريضـــة بل وضع أيديهم على البـــاب والطريق** : « **ولما سأله** الفريسيون : متى يأتى ملكوت الله ؟؟ أجابهم وقال : لا يأتى ملكوت الله بمراقبة ، **ولا يقولون هو ذا ههنا أو هو ذا هناك ، لأن ها ملكوت الله** ٠٠٠ داخلكم » (٢) ٠

والمسلمون عندهم فكرة شفاعة رسول الاسلام فيهم يوم القيامة ٠٠٠ ففى الحديث « ٠٠٠ وأعطيت الشفاعة ٠٠ » (٣) ٠

غير أن لهذه الشفاعة فى الاسلام حدودا لا تتعداها : « لا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون ٠ يعلم مابين أيديهم وما خلفهم ، **ولا يشفعون الا لمن ارتضى** ، وهم من خشيته مشفقون » ، « ولا تنفع الشفاعة عنده **الا لمن أذن له** ، حتى اذا فزع عن قلوبهم قالوا : ماذا قال ربكم ؟ قالوا : الحق وهو العلى الكبير » ، « وكم من ملك فى السموات لا تغنى شفاعتهم شيئا الا من بعد أن **يأذن الله لمن يشاء ويرضى** » (٤) ٠٠٠

وحديث الشفاعة فى هذا المعنى صريح : « يجمع الله الناس يوم القيامة فيقولون **لو استشفعنا على ربنا ليريحنا من مكاننا** ٠٠٠ الخ » ، « آتى تحت العرش فأخر ساجدا ، فيدعنى ماشاء الله أن يدعنى ، ثم يقال : ارفع رأسك واشفع تشـــفع ٠٠٠ **قال : فيحد لى حدا ، فادخلهم الجنة** » (٥) ٠٠٠

غير أن هذه الشـــفاعة لهـــا أثرها وقدرها فى مغفرة الله للخطايا والذنوب ٠ يقول ابن حزم فى مقدمة التوحيد لكتابه المحلى : « وأن شفاعة رسول الله فى أهل الكبائر من أمته حق ، فيخرجون من النار ويدخلون الجنة ٠٠٠ عن أنيس بن مالك أن نبى الله قال : (لكل نبى دعوة دعاها

---

(١) يعقوب ٢ : ١٤ ـ ٢٦

(٢) لو ١٧ : ٢٠ ـ ٢١

(٣) البخارى ومسلم والنسائى وصححه السيوطى فى الجامع الصغير : « أعطيت خمسا لم يعطهن أحد من الأنبياء ٠٠٠ الخ »

(٤) الأنبياء ٢٧ ـ ٢٨ ، سبأ ٢٣ ، النجم ٢٦

(٥) ابن كثير فى سياق تفسير آية ٢٥٥ من سورة البقرة ٠

لأمته ، واني اختبأت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة) • وعن أبي سعيد الخدرى قال : قال رسول الله : (أما أهل النار الذين هم أهلها فانهم لا يموتون فيها ولا يحيون ، ولكن ناس أصابتهم النار بذنوبهم ـ أو قال بخطاياهم ـ فأماتهم الله اماتة ، حتى اذا كانوا فحما أذن بالشفاعة ، فجيء بهم ••• الخ) » (١) •

وتختلف فكرة الشفاعة عند المسلمين عن فكرة الخلاص عند المسيحيين ، من الناحية الفلسفية ومن ناحيةالنتيجة الأخروية • ولكن تضيق بينهما شقة الخلاف في المجال العملي في الحياة الدنيا !

فالمسلمون والمسيحيون ينبغي علهم أن يعملوا ولا يتواكلوا ، وفكرة الشفاعة أو فكرة الخلاص لن تغني عنهم من الله شيئا ان اجترحوا السيئات وأصروا على مافعلوا وهم يعلمون !

والمسلمون والمسيحيون لهم يقين في رجاء مغفرة الله ورحمته ، الا أن للمغفرة والرحمة مجـالا لا يخدش عدل الله من أجل تكريم محمـد أو المسيح !! ••• فلا يشمل هذا المجال الانحـراف الجوهرى الأصيل ، الثابت المطرد ، في الفكـر والعمل ! ولا خطر بعد ذلك أن تبقى فكرة الشفاعة وفكرة الخلاص على تمايزهما وتباينهما : في الأساس والمدى ••

« ولئن كانت فكرة افتداء المسيح بدمه خطايا اخوته بني الانسان جميلة لاريب ، وتستحق ما كتب فيها دراسـة من نواحيهـا الشعرية والخلقية والفلسفية ، فان المبدأ الذى قرره الاسلام من أن لا تزر وازرة وزر أخرى ، وأن كل امرىء يوم القيامة مجزى بأعماله ـ ان خيرا فخير وان شرا فشر ، يجعل التقريب المنطقي بين العقيدتين غير ممكن ••• » (٢) •

---

(١) المحلى جـ ١ (طبعة المنيرية) ص ١٦ ـ ١٧ ـ في مفتاح كنوز السنة : أن الاحاديث حول الشفاعة فى الكبائر مروية فى الترمذى وأبى داود ومسند الطيالسى •

(٢) دكتور هيكل : حياة محمد ـ المقدمة •

المسيحيون ... ومحمد

واذا كان المسلمون يكرمون المسيح كنبى من أنبياء الله ، فليس فى وسع المسيحيين أن يتخذوا نفس الموقف من **محمد رسول الاسلام ...**

ومع تسليمى بهذه العقدة القائمة ، فانها لا تسوغ أى قطيعة فكرية أو نفسية أو اجتماعية بين المسلمين والمسيحيين .

ان الأناجيل تورد فى ثنـــايا نبوءات المسيح : « ويقوم **أنبياء كذبة** كثيرون ويضلون كثيرين » ، « لأنه سيقوم مسحاء كذبة وأنبياء كذبة ويعطون آيات وعجائب لكى يضلوا لو أمكن المختارين أيضا » ، « فقال انظروا ولا تضلوا ، فان كثيرين سيأتون باسمى قائلين انى أنا هو والزمان قد قرب ، فلا تذهبوا وراءهم » (١) !!

والقول بقيام أنبياء كذبة بعد المسيح لا يمنع من (البحث الموضوعى الأمين) فى دعاوى الرسالات بعد المسيح ، حتى يتبين الصادق من الكاذب والصحيح من الزائف ! فالمسيح قـد تكلم عمن جـــاءوا قبله ، فوصف بعضهم بأنهم سراق ولصوص ، ولا يعنى هذا طبعا خلو الزمان قبله من النبوات الصادقة الصحيحة : « الحق الحق أقول لكم : ان الذى لا يدخل من الباب الى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص ، وأما الذى يدخل من الباب فهو راعى الخراف ، لهذا يفتح البواب والخراف تسمع صوته فيدعو خرافه الخاصة باسماء ويخرجها ، ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها والخراف تتبعه لأنها تعرف صوته ، وأما الغريب فلا تتبعه بل تهرب منه لأنها لا تعرف صوت الغرباء !! . هذا المثل قاله لهم يسوع ، وأما هم فلم يفهموا ما هو الذى يكلمهم به ، فقال لهم يسوع أيضـا : الحق الحق أقول لكم : انى باب الخراف ، **جميع الذين أتوا قبلى هم سراق ولصوص** ، ولـكن الخراف لم تسـمع لهم ! أنا هو الباب ، ان دخل بى أحد فيخلص ويدخل ويخرج ويجد مرعى . السارق لا يأتى

---

(١) مت ٢٤ : ١١ ، مر ١٣ : ٢١ ـ ٢٢ ، لو ٢١ : ٨

الا ليسرق ويذبح ويهلك ، وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل • أنا هو الراعي الصالح ، والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف ، وأما الذي هو أجير وليس راعيا ، الذي ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلا ويترك الخراف ويبددها ••• أما أنا فاني الراعي الصالح ، وأعرف خاصتي وخاصتي تعـــرفني ، كما أن الآب يعرفني وأنا أعرف الآب ، وأنا أضع نفسي عن الخراف » (١) •

وما أدقه من ميزان ذلك الذي نصبه المســـيح ليفرق بين الأدعياء والأصلاء : « السارق لا يأتي الا ليسرق ويذبح ويهلك ، وأما أنا فقد أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل ••• والراعي الصالح يبذل نفسه عن الخراف ، وأما الذي هو أجير وليس راعيا الذي ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلا ويترك الخراف ••• » **والمسلمون يرحبون بهذا الميزان ••• لتعرض عليه سيرة نبيهم ورسالته !**

وقد ألمعنا في تقديم هذا الكتاب الى اشارة المسيح التي تستحق التأمل : « ان كنتم تحبـــونني فاحفظوا وصـــاياي ، **وأنا أطلب من الآب فيعطيكم معزيا آخر ليمكث معكم الى الأبد** ــ روح الحق الذي لا يستطيع العالم أن يقبله لأنه لا يراه ولا يعرفه ، وأما أنتم فتعرفونه لأنه ماكث معكم ويكون فيكم ••• **وأما المعزي الروح القدس الذي سيرسله الآب باسمي فهو يعلمكم كل شيء ويذكركم بكل ما قلته ••• ومتى جاء المعزي الذي سأرسله أنا اليكم من الآب روح الحق من عند الآب ينبثق فهو يشهد لي ، وتشهدون انتم ايضا لأنكم معي في الابتداء** ••• لكنني أقول لكم الحق : انه خير لكم أن أنطلق ، لأنه ان لم أنطلق لا يأتيكم المعزي ، ولكن ان ذهبت أرسله اليكم ، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطية وعلى بر وعلى دينونة » (٢) !!

والاختلاف حول الأنبياء ، وتمحيص شخصياتهم ورسالاتهم ، أمر واجب في كل حين ، وقد تعرض لذلك المسيح نفسه : « ولما جاء يسوع الى نواحي قيصرية فيلبس سأل تلاميذه قائلا : من يقول الناس اني أنا ابن الانسان ؟ فقالوا : قـــوم ــ يوحنـــا المعمدان ، وآخرون ــ ايليا ، وآخرون ــ أرميا ، أو واحد من الأنبياء • قال لهم : وأنتم من تقولون اني أنا ؟ فأجاب سمعان بطرس وقال : أنت هو المسيح » ، « وخرج هذا

---

(١) لو ١٠ : ١ ــ ١٥

(٢) يو ١٤ : ١٥ ــ ١٧ ، ٢٦ ، ١٥ : ٢٦ ــ ٢٧ ، ١٦ : ٧ ــ ٨

الخبر عنه فى كل اليهودية وفى جميع الكورة المحيطة ، فأخبر يوحنا تلاميذه بهذا كله . فدعا يوحنـــا اثنين من تلاميذه وأرسل الى يسوع قائلا : أنت هو الآتى أم ننتظر الآخر ؟ » ، « فقال قوم من أهل أورشليم : أليس هذا هو الذين يطلبون أن يقتلوه ؟ وها هو يتكلم جهارا ولا يقولون له شيئا ، ألعل الرؤساء عرفوا يقينا أن هذا هو المسيح حقا ، ولكن هذا نعلم من أين هو ، وأما المسيح فمتى جاء لا يعرف أحد من أين هو » ، « فكثيرون من الجمع لما سمعوا هذا الكلام قالوا : هذا بالحقيقة هو النبى، آخرون قالوا : هذا هو المسيح ، وآخرون قالوا : ألعل المسيح من الجليل يأتى ؟ ألم يقل الكتاب انه من نسل داود من بيت لحم ـ القرية التى كان داود فيها ـ يأتى المسيح ؟ فحدث انشقاق فى الجمع لسببه » (١) !!

وقد كتب الأستاذ عبد الوهاب النجار فى كتابه (قصص الأنبياء) : « جاء المسيح عليه السلام ليبشر بهذا النبى الكريم (محمد) ... كان يعبر عن المبشر به بلفظ النبى ، وبلفظ فارقليط ـ وهو تعـــريب لفظ (بيريكلتوس) اليونانية ... قلت للدكتـــور كارلو نللينو المستشرق التليانى وأنا أعلم أنه حاصل على شهادة الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة : ما معنى بيريكلتوس ؟ فأجابنى بقوله : ان القسس يقولون ان هذه الكلمة معناها (المعـــزى) ! فقلت : انى أسأل الدكتور كارلو نللينو الحاصل على الدكتوراه فى آداب اللغة اليونانية القديمة ... فقال : ان معناه (الذى له حمد كثير) . فقلت : هل ذلك يوافق أفعل التفضيل من حمد ؟ فقال نعم !! فقلت : ان رسول الله من أسمائه أحمد ... » (٢)

وكتب الأب لويس برســـوم الفرنسسكانى : « البارقليط كلمة يونانية معناها المحامى والشفيع والوسيطى والمعزى ، هو **الأقنوم الثالث** من الثالوث الأقدس ، روح الحق ـ بل الحق بالذات ، مساو للآب والابن فى الجوهر ... يعلن يسوع الرسل بأنهم لن يكونوا وحدهم فى تأدية الشهادة له ، اذ يكون بجانبهم يؤدى ذات الشهادة وعن طريقهم من هو أقوى منهم : الروح القدس ... غير أن يسوع يذهب أيضا ليرسل لهم الروح القدس ـ المعزى الذى وعدهم ، والذى من اختصاصه تأهيلهم للرسالة الشاقة التى أناطها بهم ... لن يرشدهم روح الحق الى جميع التعاليم التى علمهم آياها يسوع ابان حياته الأرضية فحسب ، بل والى

---

(١) مت ١٦ : ١٣ ـ ١٦ ، مر ٨ : ٢٧ ـ ٢٩ ، لو ٧ : ١٧ ـ ١٨ ، ٩ : ١٨ ـ ٢٠ ، يو ٧ : ٢٥ ـ ٢٧ ، ٤٠ ـ ٤٢

(٢) عبد الوهاب النجار : قصص الانبياء (الطبعة الثالثة) ص ٣٩٧ ـ ٣٩٨ والهامش

جميع التعاليم التى لم يعلمهم اياها ، حيث أنه سيرشدهم الى معرفة الحق جميعه ويخبرهم بالمستقبلات أيضا • ومن هذه الحقائق ولاشك تلك التى تتعلق بالأسرار وارتداد الأمم وتأسيس الكنيسة وادارتها ••• ان الروح القدس لا يتكلم من عنده ، بل يتكلم بكل مايسمع من الآب والابن — بسبب وحدة الطبيعة الالهية بين الأقانيم الثلاثة » ! على أن الأرثذوكس يعتقدون أن الروح القدس ينبثق عن الآب وحده، لا الآب والابن ،ويخالفهم الكاثوليك فى ذلك ويحاجونهم : « بأى سلطان اذن يرسل يسوع الروح القدس ؟؟ » (١) •

بوسع المنصف أولا أن يبحث البحث الجاد فى حقيقة الاســـلام ، فليس من دين يصد أهله عن البحث والنظر •••

وبوسع المنصف أخيرا أن يعتبر محمدا داعية خير ورشاد — ان لم يعتبره نبيا مرسلا ، يؤكد أساس الايمان بالله واليوم الآخر ، ويدعو لمكارم الأخلاق ، ويقيم شريعة لا تتنكر لأصل من أصول الشرائع الالهية ، ولا لمبدأ استقام أمام الفكر الانسانى •

***

ولقد سجل التاريخ بأصرح عبارة ، تقدير المسيحيين فى مصر والشام للمسلمين ، وايثارهم لهم على الروم البيزنطيين المسيحيين •••

فلنقرأ ما كتبه مؤرخ انجليزى مسيحى هو الدكتور ألفرد • ج • بتلر فى كتابه (فتح العرب لمصر) ، وهو يورد فيما كتبه نصوصا نقلها من المؤرخ المســـيحى أبى الفرج (١٢٢٦ — ١٢٨٦ م) — وهو مسيحى يعقوبى صـــار أســـقفا فبطريقا لطائفته وله (تاريخ الدول) بالعربية و (تاريخ الكنائس) بالسريانية :

« ••• فى سنة ٦٣١ هـ ذهب الامبراطور (هرقل) الى هيرابوليس، وبدأ فيهـــا تحقيق ما كان يرجو انفاذه من توحيد الكنيسة ، واختـــار أثناسيوس ، رئيسا لأســـاقفة أنطاكية وجعل قيرس رئيسا لأســـاقفة الاسكندرية •••

وكان الأمر فى بلاد الشام على ما كان عليه فى مصر ، اذ أخفق سعى الامبراطور هناك فأراد حمل الناس على ما أراد بالاضطهاد •••

---

(١) لويس برسوم : حياة يسوع المسيح جـ ٢ ص ١٦٦ ، ١٧٤ — ٥ ، ١٧٦ : ١٧٨

قال أبو الفرج : (ولما شكا الناس الى هرقل لم يجب جوابا ، **ولهذا أنجانا الله المنتقم من الروم على يد العرب ، فعظمت نعمته لدينا أن اخرجنا من ظلم الروم وخلصنا من كراهيتهم الشديدة وعداوتهم المرة . على أن** كنائسنا لم ترجع الينا ، لأن العرب أبقوا كل طائفة من المسيحيين على ما كان فى يدها عند فتحهم للبلاد) ! وانه لمن المحزن أن يقرأ الانسان مثل هذا الترحيب من قوم مسيحيين بحكم العرب ، وزعمهم أن ذلك كان تخليصا لهم ساقه الله اليهم ليخرجهم به من حكم اخوان لهم فى المسيحية !

وهكذا نجد أيضا مطرآنا نسطوريا ـ بعد أخذ دمشق بخمسة عشر عاما ـ يقول فى كتابه : (وهؤلاء العرب الذين أعطاهم الله السلطان فى أيامنا لا يحاربون دين المســـيح ، بل هم يدافعون عن ديننا ويجلون قسوسنا وقديسينا ويهبون الهبات لكنائسنا وأديرتنا) ! .. » .

أما الدولة البيزنطية فقد ذاق المسيحيون المخالفين لمذهبها ألوان الاضطهاد المرير على أيدى رجالها :

« وابتدأ الاضطهاد الأعظم بعد مجمع الاسكندرية الذى عقده قيرس فى أكتوبر سنة ٦٣١ ... جاء فى كتاب ساويرس : (لقد كانت هذه السنون هى المدة التى حكم فيها هرقل والمقوقس ، بلاد مصر ، وقد فتن فى أثنائها كثير من الناس لما نالهم من عسف الاضطهاد والظلم ، ومن شدة العذاب الذى كان يوقعه هرقل بهم لكى يحولهم على رغمهم عن مذهبهم الى مذهب خلقيدونية ، فكان يعذب بعضهم ويعد البعض أحسن الجزاء ، ويمكر بالبعض ويخدعهم) ! .. كان أخو بنيامين ـ البطريق ـ ممن عذبوا ثم قتل غرقا ، وكان تعذيبه بأن أوقدت المشاعل وسلطت نارها على جسمه فأخذ يحترق (حتى سال دهنه من جانبيه على الأرض) ـ كما يقول ساويرس أسقف الأشمونين القبطى الذى كتب تاريخ حياة البطارقة ـ ولكنه لم يتزعزع عن ايمانه ، فخلعت أسنانه ثم وضع فى كيس مملوء من الرمل ، وحمل فى البحر حتى صار على قيد سبع غلوات من الشاطىء ، ثم عرضـــوا عليه الحيـــاة اذ هو آمن بما أقره مجلس خلقيدونية !! ... فعلوا ذلك ثلاثا ـ وهو يرفض فى كل مرة ، فرموا به فى البحر فمات غرقا !

ووضعت على مصر حماية الاسلام ... تعلوا أحزابها جميعا ، فأدى ذلك الى تنفس الناس فى عباداتهم واختيار مايشاءونه فى تدينهم ...

وأصبح القبط فى مأمن من الخوف الذى كان يلجئهم الى انكار عقيدتهم أو اخفائها تقية ومداراة ، فعادت الحياة الى مذهب القبط فى هذا الجو الجديد — جو الحرية الدينية • وما لبث أن صار مذهب الكثرة الذى يحق له أن يكون مذهب الأمة السائد وقد قضى عمرو بن العاص بأنه كذلك ، وأنفذ قضاءه بأن كتب أمانا لبنيامين — البطريق — وأقر عودته • وقيل ان الذى حدا بعمرو الى المبادرة بهذا الأمر ما أبلغه اياه رجل اسمه سنويتوس (أو هو شنوده) ••• ولكن الموضع الذى كان به بنيامين كان مجهولا لا يعلم به أحد ، ولا يعرفه شنوده نفسه ، وعلى ذلك كان لابد من كتابة أمر الأمان على هيئة كتاب لا تخصيص فيه — وكانت صورته كما يلى : (أينما كان بطريق القبط بنيامين — نعده الحماية والأمان وعهد الله ، فليأت البطريق الى ها هنا فى أمان واطمئنان ، ليلى أمر ديانته ويرعى أهل ملته) •••

اذن فما كان أعظم ابتهاج القبط بخلاصهم مما كانوا فيه ، فقد خرجوا من عهد ظلم وعسف تطاول بهم ، وهوت بهم اليه حماقة البيزنطيين، وآل أمرهم بعد خروجهم منه الى عهد من السلام والاطمئنان • وكانوا من قبل تحت نيرين من ظلم حكام الدنيا واضطهاد أهل الدين ، فاصبحوا وقد فك من قيدهم فى أمور الدنيا وارخى من عنانهم ، وأما دينهم فقد صاروا فيه الى تنفس حر وأمر طليق •

وقد يقال : ان حكامهم الجديدين قد أدخلوا الى الأرض دينا غريبا غير دين المسيح ! وهذا حق ، غير أنهم لم يروا فى ذلك الا عدلا من الله ، اذ أجمع الناس على قول واحد فقالوا : (ما خرج الروم من الأرض وانتصر عليهم المسلمون ، الا لما ارتكبه هرقل من الكبائر وما أنزله بالقبط وملتهم على يد قيرس ، فقد كان هذا سبب ضياع أمر الروم وفتح المسلمين لبلاد مصر) — هكذا كان الناس يرون ، وهكذا كانوا يحكمون » !! (١) •

وحول المعنى نفسه كتب باحث انجليزى آخر هو الأستاذ توماس أرنولد Thomas Arnold ، فى كتابه (الدعوة الى الاسلام) : The Preaching of Islam

« وقد استطاع ميخائيل الاكبر Michael the Elder بطريق أنطاكية اليعقوبى أن يحبذ — فيما كتبه فى النصف الثانى من القرن الثانى عشر —

(١) بتلر : فتح العرب لمصر — (ترجمة فريد أبو حديد) — ص ١٣٨ : ١٤٢ ، ١٥٣ : ١٥٦ ، ١٦٣ ، ٣٨١ — ٣٨٢ ، ٣٨٧

ما كان قــد كتبه اخوانه في الدين ، وأن يرى اصــــبع الله فى الفتوح العربية ، حتى **بعد أن خبرت الكنائس الشرقية الحكم الاسلامى خمسة قرون !!!**

ان الجيش الاسلامى حين بلغ وادى الأردن وعسكر أبو عبيدة فى **فحل ، كتب الأهالى المسيحيون فى هذه البــــلاد الى العــرب يقولون : (يا معشر المسلمين : أنتم أحب الينا من الروم وان كانوا على ديننا ! أنتم أوفى الينا وأراف بنا ، وأكف عن ظلمنا وأحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على امرنا وعلى منازلنا !! وغلق أهل حمص أبواب مدنيتهم دون جيش هرقل ، وابلغوا المسلمين أن ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الاغريق وعسفهم !!!**

لقد كان خوف الناس من أن يكرههم الامبراطور على اتباع مذهبه ، يجعل الوعد الذى قطعه المسلمون على أنفسهم بالحرية الدينية أحب الى نفوسهم من ارتباطهم بالدولة الرومانية وبأية حكومة مسيحية ! ولم تكد المخاوف الأولى التى أثارها نزول جيش فاتح فى بلادهم تتبدد ، حتى أعقبها تحمس قوى لمصلحة العرب الفاتحين !

أما ولايات الدولة البيزنطية التى سرعان ما استولى عليها المسلمون بسالتهم ، فقد وجدت أنها تنعم بحالة من التســــامح لم تعرفها طوال قرون كثيرة !! ... اللهم الا اذا استثنينا بعض القيود التى فرضت عليهم منعا لاثارة أى احتكاك بين أتباع الديانات المتنافسة ، أو اثارة أى تعصب ينشأ عن اظهار الطقوس الدينية فى مظهر المفاخرة ، حتى لا يؤذى ذلك الشعور الاسلامى . ويمكن الحكم على مدى هذا التسامح – **الذى يلفت النظر فى تاريخ القرن السابع** (!) – من هذه العهود التى أعطاها العرب لأهالى المدن التى استولوا عليها ... » (١) .

***

هكذا اســــتقبل المسيحيون الاســـلام والمسلمين فى ديار مصر والشام ...

وعاش المسلمون والمسيحيون معا ...

امتزجوا وتفاعلوا ، وصهرتم الأحداث ...

---

(١) أرنولد : الدعوة الى الاسلام – (ترجمة الدكتور حسن ابراهيم حسن وعابدين والنحراوى) – ص ٥٣ وما بعدها .

● امتزاجا لا يهمل قدر الدين ، فهؤلاء وهؤلاء متدينون ...

ولا يقوم على النفاق والمداهنة ، فهـذا ما لا يرتضيه الاســـلام ولا ترتضيه المسيحية ...

● وانما يأتى التجاوب من أعماق النفس ...

ويأتى التفاهم من الأصول الفكرية التى قررها المسيح ومحمد ـ اللذان أبلغا رسالة الله الى الناس كى يسعدوا دنياهم بهدى دينهم ... لا ليشقوا أنفسهم بالفرقة والشقاق !

« ان الدين والتدين لأحوج الى الســـلام الدينى فى حياة الأديان ذاتها منهما الى أشياء أخرى ، تثبت بهما معالمهما فى الوجود .

وأما حاجة الحياة الى السلام الدينى فعلى قدر ما تعانى من آثار الحرب المدنية ، على اختلاف صنوفها وميادينها ، ثم ما عانت فى تاريخها الطويل من الحــرب الدينية ـ ســـافرة حينا ، ومقنعة تارة ، وموجهة لأسباب الحرب المدنية ...

لا أحسب أن قســـوة التجارب الماضية تبعد هذا الســلام الى حد الاستحالة ـ بل هو ممكن ـ وان أعوزه غير قليل من الشجاعة : شجاعة القوى المتكتلة فردية واجتماعية ، ومثل هذه القوى الشجاعة ـ شجاعة النفوس فى مقاومة أهوائها وأخطائها ... » (١)

تلك كلمة مخلصة ، من أديب مبرز بين المسلمين ...

وفى « قاعة الامام محمد عبده » بجامعة الأزهر ألقى نيافةالكردينال كوننج رئيس أساقفة النمسا بحثه القيم عن « التوحيد فى العالم المعاصر » وذلك فى ٣١ مارس ١٩٦٥ ، كان مما جاء فيها :

« وبدافع من مصادر القوة فى كل منهما ومن ايمان أتباعهما يتوجه كل من الدينيين الى الناس ، كل منها يدعو الى اعتناقه والدخول فيه ، وبهذه الدعوة المعلنة يبدأ الحوار بين المسيحية والاسلام . وحين يتجه الدينان الى الناس بالدعوة لله الحق الصمد ، وكل منها يستلهم وحيا منزلا تختلف صوره فى كل منهما اختلافا يصل حد التناقض ، لابد أن يتساءل الناس عن وجه الحق فى كل منهما ، ولا نستطيع أن ننكر أن

---

(١) أمين الخولى : مقال (سلام دينى يحتاج اليه الدين والحياة) ـ العدد الخامس من المجلة مايو ١٩٥٧

حماس دعاة كل من الدينيين يقوم عند أتباع أحد الدينيين على الايمان العميق بصدق الرسالة ، ولكن هذا الايمان العميق لا يجيب عن تساؤل المتسائلين عن معنى الدين الآخر ومكانته عند الله • والى هذا يشير القرآن الكريم (ولو شاء ربك لآمن من فى الأرض كلهم جميعا) • هذا هو موقف التوحيد اليوم وهذه هى قضيته الرئيسية الكبرى • واذا كنا نقرر ايماننا وقدسيته واذا كنا جادين فى دعوة غيرنا اليه فلن نستطيع بحال أن ننسى هذه القضـــية الكبرى أو نغفل عنهـــا • ونحن نعلم جميعـــا أن (لاهوت المسيحية) يختلف عن (علم الكلام) عند المسلمين ، ولو أن اللاهوت وعلم الكلام يواجهان نفس الموقف اليوم ••• وفى عالمنا المعاصر لا تكون مهمة اللاهوت المسيحى وعلم الكلام عند المسلمين حل الصغير من القضايا بل لابد لنا جميعا أن نشغل أنفسنا بلقاء الفكر الذى لا يرتكز على عقيدة التوحيد • ويتوقف امكان المجابهة المتبادلة لقضايانا المشتركة على التسليم بأمور منها : الأساس المشترك للتوحيد والرابطة المشتركة التى تربط بين الدينين لأن كلا منهما دين كتـــاب ، واحترام اتباع كل دين للآخر باعتباره ســبيلا يسره الله للانســـان ليبلغ غايته على أنه ليس فى هذا الاحترام مايتطلب تخلى صاحب الدين عن دينه أو ماينقض ايمانه بأن دينه هو وحده الحق المطلق ، ثم هناك المبدأ الذى يؤمن به المسيحيون والمسلمون على السواء وتنادى به الأية الكريمة (لا اكراه فى الدين) ولا يجرح هذا المبدأ ما شجر بينهم من خلافات فى عصور التاريخ ••• هذا بعض ما عن لى من آراء حاولت بها أن أحدد موقف التوحيد فى عالم اليوم ، ولم أرد أن أحدد بها الوسائل العملية التى نستطيع أن نعد بها للقاءات بين أبناء الدينين ولكننى قصدت من ورائها أن أبرز القضية الكبرى ومايتطلبه الاعداد للقاءات مخلصة صادقة بينهما

••• ونظرة سريعة الى الموقف العـــالمى اليوم توضح أن الانسان لا ينتقص من حريته الا بقدر تحرره من عبوديته لله ، لأن مثل هذا التحرر هو فى ذاته عبودية من وجوه كثيرة ، لأنه يمنح كل صاحب سلطان قدرة لا تحد على من هم تحت يده • فاذا استبعدنا من أى نظام انسانى مسئولية الانسان أمام خالقه فاننا نستبعد فى نفس الوقت كل حائل بين الانسان وبين التردى فى مهاوى الاستعباد بصوره المختلفة • نحن لا ندعو الى خضوع البشر للبشر ولكننا ندعو الى كرامة الانسان التى لا تقوم الا بفضل الله ورحمته • وكل سلطة للبشر لابد أن تقف عند حدود مسئوليتها أمام الله ، والتوحيد عدو لكل من نصب نفسه معيارا للحياة الانسانية فى هذه الأرض ، فلسنا نحن الذين نقوم على أمر تنظيماتنا الاجتماعية والدينية

خان لها كلها ربا يحميها هو رب العالمين . وليكن همنا أن نعين الناس على أن يستجيبوا لأمر الله فيقيموا حياتهم وفق أمره ومشيئته ... ولعل السبب الرئيسى لهجوم المادية الملحدة على التوحيد هو أنها تعتبر الانسان وحده ربا لهذا العالم ... والصلات بين الاسلام والمسيحية قديمة ولابد لنا من أن نعترف بأنها لم تكن دائما ودية . ولكن لعل مما يسرى عنا فى هذا الصدد مانراه فى كتابات العالم المسيحى يوحنا الدمشقى مثلا وما يبرز فى نظامها العام من صلات بعلم الكلام عند المسلمين أوثق من صلاتها بعلم اللاهوت فى الغرب . ونستطيع أن نتبين فى هذا المقام أن علماءنا وعلماءكم يستطيعون فى لقائنا مع الالحاد أن يتبادلوا من الخبرات ما يعينهم على هذه الحرب التى يخوضها التوحيد اليوم فيتعلم علماء المسيحيين من علماء الاسلام واقعية العرض ووضوحه كما يتعلم علماء الاسلام من علماء المسيحية دقة الشكل ومنطقيته . وينبغى علينا جميعا الى جانب ذلك كله أن نكون على حذر من الجهود السائدة التى تدعو الى الوحدة حتى لا يغرر بنا الى رقة فى العقيدة لا نكترث معها الى أى دين ننتمى وحتى لا نسهم فى دعم قضية الالحاد لأن الالحاد المتحرر ينادى بأن الأديان كلها متشابهة وهو يعنى بذلك أن الأديان كلها باطلة . وعلى المسئولين بيننا فى نفس الوقت أن يعززوا وسائل الفهم والادراك والتسامح فيما بيننا دون أن يسمحوا للحدود الفاصلة أن تزول أو تنهدم . وأقصد بالتسامح لا أن لا يبادىء أحدنا الآخر أو يلقاه بعدوان فحسب ولكن أن نتعلم كيف نتعاون فى قضايا الدين والاخلاق عامة وفى القضايا الاجتماعية بوجه خاص حتى لا نلام على تجاهل المتطلبات المادية التى لابد أن تقتضيها الكرامة الانسانية التى ندعو اليها » (١) .

والقرآن يرسى القواعد الفكرية والعملية للسلام الدينى المنشود :

● « قل يا أهل الكتاب لستم على شىء حتى تقيموا التوراة والانجيل وما أنزل اليكم من ربكم » ...

● « ولا تجادلوا أهل الكتاب الا بالتى هى أحسن » ...

● « قل أتحاجوننا فى الله وهو ربنا وربكم ، ولنا أعمالنا ولكم أعمالكم ... ونحن له مخلصون ؟ ؟ »

---

(١) خطاب الكردينال كوننج فى جامعة الأزهر ــ ٣١ مارس ١٩٦٥

● « فلذلك فادع ... واستقم كما أمرت ، ولا تتبع أهواءهم ، وقل آمنت بما أنزل الله من كتاب ، وأمرت لأعدل بينكم ...

الله ربنا وربكم ...

لنا أعمالنا ولكم أعمالكم ...

لا حجة بيننا وبينكم ...

الله يجمع بيننا ، واليه المصير »

● « ... ولتجدن أقـــربهم مودة للذين آمنــوا الذين قالوا انا نصارى ...

ذلك بأن منهم قسسين ورهبانا ، وانهم لا يستكبرون .

واذا سمعوا ما أنزل الى الرسول ، ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق ، يقولون : ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين . وما لنا لا نؤمن بالله وما جـــاءنا من الحق ، ونطمع أن يدخلنا ربنـــا مع القوم الصالحين !

فأثابهم الله بما قالوا ... جنات تجرى من تحتها الأنهار ، خالدين فيها ـ وذلك جزاء المحسنين » (١) !!!

---

(١) المائدة ٦٨ ، البقرة ١٣٩ ، الشورى ١٥ ، المائدة ٨٢ ـ ٨٥

وبعـــد :

فلقد وعى التاريخ صورة نفسية معبرة ، لمسلم لو وزن ايمانه بايمان أمته لرجحها – كما شهد له نبى الاسلام ...

هذا المسلم المؤمن الصادق الغيور ، قد اتسع أفقه فعرف أن قضية (التدين) عموما قضيته ... فاندفعت عواطفه تظاهر المسيحيين الروم ، فى صراعهم مع الفرس المجوس عباد النار ، فى الديار المقدسة من أرض الشام ...

كان يتابع جهادهم ، ويشد على أيديهم ، ويفرح لانتصاراتهم ، على تنائى الديار ...

حتى اذا ربح الفرس الجولة وخسرها الروم ، أبت مشاعره الملهمة التسليم بالهزيمة ... فاندفع يراهن على أن الروم سوف ينتصرون ، ولو بعد حين !!

وينتظر المسلم المؤمن الصادق الغيور على أحر من الجمر ، مترقبا تحقق نبوءته وكسب رهانه ...

ويسجل القرآن هذا الموقف الكريم ، ويبشر نبى الاسلام المؤمنين بفرحة النصر للمتدينين – عن قريب :

« غلبت الروم فى أدنى الأرض ، وهم من بعد غلبهم – سيغلبون فى بضع سنين • لله الأمر من قبل ومن بعد ، ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ، ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم • وعد الله لا يخلف الله وعده ، ولكن أكثر الناس لا يعلمون » (١) ...

وبطل القصـــة ... هو المؤمن الأول ، والخليفة الأول : أبو بكر الصديق – رضى الله عنه .

ان المتدينين جميعا ، يحسنون للانسانية ويكسبون كثيرا للايمان لو بذلوا كل جهـــودهم لاقرار (الحقيقة) فى العقيدة دون اعتســاف ، و (الفضيلة) فى الدين – دون تزمت ! •

---

(١) سورة الروم ٢

ويوم يبدأ الانتصار للدين بأهواء العصبية ، فقد بدأ العمل للدين من طريق (اللادين) !!!

والدين لا يأتى ليرفع عن الناس حواجز وسدودا من نوع ، ليقيم حواجز وسدودا من نوع جديد ··· انه لا يرفع حواجز الطبقة والسطوة والعصبية ، ليشقى الناس بحواجز أخرى من حزازات الدين والمذهب والطائفة !!

ويوم ينصف المتدينـــون فى فهم (الدين) والدعوة له ، يسخر المسيحيون من استغلال المسيحية السمحاء لخدمة مصالح الرجل الأبيض فى أفريقيا وآسيا ، ويسخر المسلمون من تستر الاستعمار وراء الاسلام فى بعض الأحيان !!

ويومها يسر المسلمون لو انتشرت المسيحية انتشارا نزيها سليما بريئا فى أية بقعة من بقاع الأرض ، لأنها ستحمل معها نور الحياة وأمل الراحة لجميع المتعبين !

كذلك يسر المسيحيون لو جـــدد المسلمون فهمهم لدينهم وعملهم بتعاليمه ، ولا يرون فى هذا خطرا الا على سراق الشعوب !!

لنبدأ من ديارنا ، مهد النبوات والديانات ···

الشرق البرىء من المطامع ، المتطلع للنهوض ···

● « فاعبد الله مخلصا له الدين ·

ألا لله ··· الدين الخالص ··· »

● « قل يا قــوم اعملوا على مكانتكم ··· انى عامل ، فســـوف تعلمون ··· »

● « ··· فمن اهتدى فلنفسه ، ومن ضل فانما يضل عليها ·· وما أنت عليهم بوكيل » ·

● « قل اللهم فاطر السموات والأرض ، عالم الغيب والشهادة ··· أنت تحكم بين عبادك فيما كانوا يختلفون » ·

● « ··· وانا أو اياكم لعلى هدى ··· أو فى ضلال مبين !!

قل لا تسئلون عما أجرمنا ! ··· ولا نسئل عما تعملون !

قـل يجمع بيننا ربنـــا ··· ثم يفتح بيننا بالحق ـ وهو الفتاح العليم » (١) ·

---

(١) الآيات من سورة الزمر ٢ ـ ٣ ، ٣٩ ، ٤١ ، ٤٦ ، سبأ ٢٤ : ٢٦

تصويب

● يرجى استكمال الهوامش المبينة بعد على النحو التالى :

ـ يضاف للهامش رقم (١) من ص ١٨ (السطر ٢٨) ما يلى :

على أن هذا لا يغض من قدر ابن حزم فى منهجيته العلمية أو منطقه الجدلى « وحسبنا أن نحيل القارىء الى الجزئين ١ ، ٢ من كتاب (الفصل فى الملل والأهواء والنحل) فانهما مليئان بالكثير من المناقشات الدقيقة لنصوص التواره والانجيل ، لا من وجهة نظر عقلية فحسب وانما من وجهة نظر تاريخية أيضا . وقد كان ابن حزم اسبق من الكثير من علماء الأديان ورجال النقد التاريخى الى دراسة التوراة والانجيل بروح الفيلسوف المتعمق والمؤرخ الفاحص المدقق ، حتى اننا لنجد فى تضاعيف كتبه الكثير من الآراء التى سوف يرددها من بعد خصوم المسيحية من أمثال دافيد شتراوس وبرونوباوم وربنان وغيرهم . وقد يكون من الطريف أن يعمد الباحث الى القيام بدراسة مقارنة لكتب ابن حزم فى نقد الديانتين اليهودية والمسيحية ومؤلفات أنصار الفكر الحر من رجالات المدرسة الانجليزية المعاصرة فانه واجد بلا شك لدى فيلسوفنا العربى الكثير من الآراء المطابقة لما انتهى اليه أولئك (المفكرون الأحرار) ــ د . زكريا ابراهيم : ابن حزم الأندلسى ــ أعلام العرب ع ٥٦ » .

ـ يوضع رقم (١) فى آخر السطر ١٢ من ص ٣١٤ . وفى آخر الصفحة يوضع هامش برقم (١) أمامه ما يلى :

تعددت اتصالات الفاتيكان أخيرا بدول الكتلة الشرقية (المجر ، يوغوسلافيا ، الاتحاد السوفيتى ،تشيكوسلوفاكيا ...) وقد استقبل البابا بول السادس جروميكو وزير الخارجية السوفييتى ، وقد أوصى تولياتى الزعيم الشيوعى الايطالى الراحل بضرورة مراعاة الطابع الكاثوليكى فى الواقع الايطالى .

ـ يضاف للهامش رقم (٤) من ص ٣٤٢ (السطر ٣٠) ما يلى :

والفصح كلمة عبرية معناها الاجتياز والعبور ، وعيد الفصح ذكرى لخروج بنى اسرائيل من دار العبودية ونجاة أبكارهم عندما أرسل الله ملكا ليبيد أبكار المصريين جميعا ، فلما مر ببيوت العبرانيين ورأى على أبوابها دم (الحمل الفصحى) جاز عنها وعبر . وكان الله قد أمرهم أن يأخذوا فى اليوم العاشر من شهر أبيب (نيسان) حملا ذكرا صحيحا حوليا من الضأن أو المعز ، فيحفظ الى اليوم الرابع عشر منه ــ فيذبحه رب البيت بين

بدء الغروب وتمامه ويأكله مع ذويه مشويا بخبز من الفطير مع أعشاب مرة ، فان كان عدد أفراد الأسرة اقل من العشرة فعلى رب البيت أن يشرك فيه جاره ولا يتبقى منـــه شيء للغد « سبعة أيام تأكلون فطيرا ، فى اليوم الأول تخلون منازلكم من الخمير ، فان كل من أكل خميرا من اليوم الأول الى اليوم الســابع تنقرض تلك النفس من اسرائيــل . ويكون لكم فى اليوم الأول احتفال مقدس ، وفى اليوم السابع احتفال مقدس لا يعمل فيه عمل الا ما يؤكل ... واحفظوا هذا اليوم مدى أجيالكم فريضة أبدية فى الشهر الأول ، وفى اليوم الرابع عشر منه بالعشى . كلوا فطيرا الى اليوم الحــادي والعشرين من الشــهر بالعشى ... واذا قال لكم بنوكم : ما هذه العبادة ؟ فقولوا : هى ذبيحة فصح للرب الذى عبر عن بيوت اسرائيل بمصر ، اذ ضرب المصريين وخلص بيوتنا » «خروج ١٢ : ١٥ ــ ٢٧» وكان عيد الفصح أكبر أعياد اليهود وسـمى أيضا بعيد الفطير وقد تطور الاحتفال به على مر السنين وأهم الطقوس الجديدة فى العشاء الفصحى على عهد المسيح : ان تدار على المتكئين أربع كئوس خمر ويدار طست ماء لغسل الأيدى بعد الكأس الأولى تذكارا لعبــور البحر الاحمر . ويرمز الحمل الفصحى عند المسيحيين الى حمل الله الذى يرفع خطيئة العالم ــ أى المسيح ، أما الفصح فهو تجديدوانتقال من حال الى حال «اذن نقوا منكم الخميرة العتيقة لكى تكونوا عجينا جديدا كما أنكم فطير ، لان فصحنا أيضا المسيح قد ذبح لاجلنا . اذن لنعيد ليس بخميرة عتيقة ولا بخميرة الشر والخبث بل بفطير الاخلاص والحق » (١ كور ٥ : ٧ ــ ٨) لويس برسوم حياة يسوع المسيح حـ ٢ ص ١٣٦ ــ ٧ ، ١٤٢ : ٥ .

ــ يضاف للهامش رقم (١) ص ٤٢١ (بعد السطر ٣٩) ما يلى :

مادة Gnosticism فى :

Encyclopaedia of Religions, Ethics

Encyclopaedia Britannica

Encyclopaedia of Colombia

وأيضا : الموسوعة العربية الميسرة .

ويقول يوسف كرم أن مبدأ الغنوصية أن العرفان الحق ليس العلم بوساطة المعانى المجردة والاستدلال كالفلسفة وانما هو العرفان الحدسى التجريدى الحاصل عن اتحاد العارف بالمعروف « فالغنوصية صوفية تزعم انها المثل الأعلى للمعرفة وترجع بأصلها الى وحى أنزله الله منذ البدء وتناقله المريدون سرا ... وكانت الغنوصية تعدو على الاديان والمذاهب بالتأويل والتحوير ، وما كادت المسيحية تظهر حتى تناولتها الغنوصية فتزيت بزيها ونافستها منافسة قوية ــ تاريخ الفلسفة اليونانية ص ٢٤٤ و ٢٥٥ »

ويقول الأب فرنسيس فريبه « الغنوصية مزيج من آراء فلسفية وأساطير دينيــة رحبت بالثنائية الفارسية التى تقرر النزاع المحتدم باستمرار بين المادة والروح ، كما رحبت بالنظرية الافلاطونية التى وضعت الاله فى مكان قصى لا يدركه الفكر ولا يمــكنه الوصول اليه ، فلما وجدوا الفراغ جسيما بين الله والعالم اقبلوا يملأونه بكائنــات يسمونها (أيونات) أو (ديميورج) تكون وسيطة بين الله والعالم ، وزعموا أن المســيح أحد هذه الأيونات نزل فى انسان اسمه يسوع وليس جسما خياليا ليحـــرر النفس البشرية من سجن المادة ، وهكذا لا يكون جسما حقيقيا بما أن جسمه خيالى ومن هنــا

جاء رأى (الدوسيت) الذى ينكر الجسم المادى الذى اتخذه الكلمة وزعموا أنه لم يظهر الا فى شبه جسم ، وزعم بعض (الدوسيت) أن سمعان القيروانى هو الذى صلب عوض عن المسيح ، وزعم البعض الآخر أن المسيح الروحانى انفصل عن المسيح النفسانى ليس قبيل الموت وحسب وانما منذ بداية الالام بحيث ان الذى تألم ومات ليس هو المسيح الحقيقى وانما هو شبيه له فقط » ـ (التجسد : ترجمة الآب لويس أبادير ص ٢٩ : ٣١

هذا وقد جرى تعريب هذا الاصطلاح الفلسفى لكلمة (غنوصية) أو غنسطية على السواء .

● وقد وقعت أخطاء وبخاصة فى ترقيم بعض الهوامش وفى ارقام الآيات وصفحات المراجع الواردة فيها يرجى التفضل بتصويبها على النحو التالى :

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٧	٧	معاقبا	معقبا
١١	١٧	ـــ	يضاف أول السطر كلمة (فى)
١٨	٢٦	لهذا	بهذا
١٩	٣١ (هامش ١)	مت ـ ٢٥ ، ٣١	مت ـ ٢٥ : ٣١
٢٣	٣١ (هامش ١)	ص ١٦٨ ـ	ص ١٦٨ ـ ٩
٢٨	٢	لبيترسون سميث	محذوف
٢٨	١١	الحكمة والنعمة	الحكمة والقامة والنعمة
٢٨	١٥	بلغ	بلغ المسيح
٣١	٢٥	مضيت	مضت
٣٢	٢٦	جشيمانى	جثسيمانى
٣٣	٨	جشيمانى	جثسيمانى
٣٨	٤	بعد السطر ٨	يضاف اسم الكتاب فى اصله بالانجليزية A People's Lif(e of Christ وله ترجمة عربية بعنوان(حياة يسوع) لحبيب سعيد .
٤٠	١٠	ولدى	وادى
٤٢	٢١	Tirus	Titus
٥٣	٣	٣ أعمال ١ : ١١	١ اعمال ٣ : ١١
٥٣	٣٠ (هامش ١)	او جزء	اوجز
٥٥	٢٠	ص ٣٥١ ـ ٣١٦	ص ٣١٥ ـ ٣١٦
٥٦	٣١ (هامش ١)	متجه	تتجه
		Buyton... etc.	Buxton : Peoples of Asia (Ch. The Near East)
٦٠	٢٩ (هامش ١)	مر ٧ : ١٤٦	مر ٧ : ٢٦
٦٤	٦	Rabi	Rabbi
٧١	١٧	Ehohim , Jeovah	Elohim 'e[illegible] ovah
٧٣	٢٩ (هامش ٢)	مت ـ ٢٤ ـ ٥	مت ـ ٣٤ ـ ٥
٧٤	٣١ ، بعد السطر ٣٢	ـ	يوضع رقم (٢) آخر السطر ويضاف الى الهوامش هامش برقم (٢) امامه يو ٢ : ٢٢ .

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٧٥	٢١	Centurio	Centurion
٨٥	٢٣	——	يضاف الى أول السطر (واذا كان تيبيريوس)
٨٦	٣٢ (هامش ١)	ص ٣٩ ـ ٤٥	ص ٣٩ ـ ٤٠
٨٧	١٩	Aarelian	Aurlien
٩١	١١	نقرا	نظرا
٩٢	١٥	الرمان	الرومان
٩٢	١٨	تياقا	قيافا
٩٢	٢٠	الثارة العملة الشاللة	الثورة العامة الشاملة
من ص ٩٦ ٩،١ الى ص٩٧ ٢٣		الموضع الصحيح لهذه الفقرات صفحة ١٠٠ بعد السطر ٨ على أن يصحح اسم (فيليب الثالث) الوارد فى أول هذه السطور الى (فيليب الثانى) . والنص المنقول عنه ماخوذ من كتاب « الفداء » ترجمة لويس ابادير ص ١١٢ ـ ٣ . كذلك تصحح كلمة Messias الى Messia	
٩٩	٢٣ (هامش ١)	مر ١٩ : ٣٧	مر ٩ : ٣٧
١٠١	٦،٧	Arrher Drews	Arthur Drews وتنقل لأول السطر التالى بعد كلمة (فيها)
١٠٢	٢٠	وبرز	ويبرز
١٠٤	١٧	EpCctitus	Epectitus
١٠٦	٣٢ (هامش ١)	ص ٣٥٢	ص ٣٢٢
١١٤	٢٣	خاجات	حاجات
١١٥	٣ ، ١٢	كولوسي	كولوسى
١١٥	١١ ، ١٢	——	الكلام متصل فى السطرين، ولا يوجد فراغ
١١٧	٢٥	اليها	الى تيموثاوس
١١٧	٢٨	اكليندوس	اكليمندوس
١١٨	٢٨	ودرجع	وترجع
١٢٨	٢١ (هامش ٢)	مت ٣ : ٢٤	مت ٣ : ٤
١٣١	٣٠ (هامش ١)	لو ١٠:١ـ٨	لو ٢٠ : ١ ـ ٨
١٣٢	١٩ (هامش ٢)	يوم ٣:٢٥ ـ ٢٦	يو ٣ : ٢٥ ـ ٣٦
١٣٦	٣١ (هامش ١)	ص ٤٦ ـ ٤٩	ص ٤٦ ـ ٤٧ ، ٤٩ ... الخ
١٣٧	٩ (هامش ١)	ص ١٣ : ١٩	ص ١٣ : ١٦
١٤١	٢٦	تعدل	يقول
١٤١	٢٧ ، ٢٨	——	الكلام فى السطرين متصل ولا يوجد فراغ
١٤٢	١	مهاينه	معانيه
١٥٠	١٠ (هامش ١)	ص ٤٣	ص ٤٢
١٥٧	٢٤ (هامش ١)	الاحجار الكريمة	الاحجار تتكلم
١٦٤	٣	——	يوضع رقم(١)بعد كلمة(خلاقة)،
١٦٤	فى السطر ٤ ، ٢٢ ، ٢٥ ، ٢٧	تعدل الارقام ١،٢،٣،٤	الى ٢،٣،٤،٥ على التوالى .

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
١٦٤	بعد السطر ٢٩ (الهوامش ٢ : ٤)	ـــ	يضاف هامش برقم (١) أمامه: ستيفن نيل : ما هو الانسان؟ ترجمه مطر ص ١٩ ويعدل أرقام الهوامش (٢) ، (٣) ، (٤) الى (٣) ، (٤) ، (٥) على التوالى
١٦٦	١٤	يسفد	يستفد
١٦٧	٨	الماموبه	المانوية
١٦٧	١٠	للحسد	للجسد
١٧٢	٣٢ (هامش ٢)	مابوى	بابوى
١٧٣	١٥ ، ١٨	(١) ، (٢)	يصير الرقمان (٢) ، (٣) على التوالى
١٧٣	١٩ (هامش ١)	ـــ	يضاف هامش برقم (١) أمامه: العقاد : عقائد المفكرين فى القرن العشرين ص ١٥٦ ويعدل ترقيم الهامشين (١) ، (٢) الى (٢)،(٣) على التوالى
١٧٥	٣ ، بعد السطر ٤	اسرارا	برارا ـ ويضاف بعد نهاية النص (مت ٩ : ١٣)
١٧٩	١٧	للعشورين	للعشارين
١٨١	٢٣	مش	من
١٨٥	٢٣	العليقة	الطليقة
١٨٧	١٤	التميم	التيمم
١٩١	١٦	يعملون	يعلمون
١٩٣	٣٣ (هامش ٣)	أعمال ١ : ١٥ ـ ٦	أعمال ١٠ : ١٤ ـ ٦ ويضافه فى نهاية الهامش (رومية ١٤ : ٢٠)
١٩٦	٢٣	الحسد	الجسد
٢٠٥	١٥	يطب	يطلب
٢٠٨	٢٤ (هامش ١)	لو ـ ١٨ : ٥٣ـ٤٣	لو ـــ ١٨ : ٣٥ ـ ٤٣
٢١٤	٣٠ (هامش ١)	لو ٨ : ٤١ ـ ٦	لو ٨ : ٤١ ـ ٥٦
٢٢٨	١١	التى	الذى
٢٣٣	٢	يضافح	يصافح
٢٣٥	١٥	الامم	الاهم
٢٤١	٢٦ (هامش ٢)	١٧ ـ ١١	٧ ـ ١١
٢٤٢	١٤ ، ٢٢ ، الهوامش	ـــ	يوضع فى آخر سطر ١٤ رقم (١) ويعدل الرقم فى آخر السطر ٢٢ الى (٢) ويضاف هامش برقم (١) أمامه : لويس برسوم : حياة يسوع المسيح جـ ٢ ص ٣٥. ويعطى الهامش الموجود من قبل رقم (٢) بدلا من (١)

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٢٤٣	٢٩ (هامش ١)	لويس برسوم... الخ	يحذف
٢٤٤	٣٠ (هامش ٤)	١٣ ـ ١٨	١٢ ـ ١٨
٢٤٤	٣٢ (هامش ٦)	٣٥ ـ ٥٢	٣٥ ، ٥٢
٢٤٦	٣١ (هامش ٢)	١١٩ ـ ١٦٠	١٥٩ ـ ١٦٠
٢٤٩	٢٤	احبتكم	احببتكم
٢٤٩	٢٩ (هامش ١)	مت ١٠ : ١ ـ ١٥	مت ١٠ : ٥ ـ ١٥
٢٥٠	٣٠ (هامش ٣)	١٧ ـ ٣١	١٧ ـ ٢١
٢٥٣	١	Presbytyriors	Presbyteros
٢٥٥	٢٨ (هامش ٢)	١٤ ـ ٤٤	٤١ ـ ٤٤
٢٥٩	٢٩ (هامش ١)	مت ٢٤ : ٩ ـ ٥١	مت ٢٤ : ٩ ـ ١٥
٢٦٢	٢٨ (هامش ١)	——	تضاف (جـ ١) قبل أرقام الصفحات
٢٦٢	٢٩ (هامش ١)	٢٤٦	١٤٦
٢٦٢	٣٠ (هامش ٢)	١٩ ـ ١٢	١٩ ـ ٢١
٢٦٦	٢٠	اغسطسين	اغسطين
٢٦٨	٢٥	فن	من
٢٦٩	٢١	مؤتمر	مؤتمرا
٢٧٠	٢	بما	ما
٢٧١	٨	خروج	خروجا
٢٧١	١٥	وتكن وراءه دراقع	وتكمن وراءه دوافع
٢٧١	٢٧	جاء	جاءه
٢٧٣	٢٩	لفجمته	لفجيعته
٢٧٤	١٤	ص ٤٤ ـ ٥	محذوف
٢٧٦	٥	نلمس وجوها	نطمس وجوها
٢٨١	٦	او تنتهى عنه	او تنهى عنه
٢٨١	١٢	الوضع الصحيح لهذا السطر	بعد السطر ٩
٢٨١	٢٣	Rober	Roger
٢٨٢	٢٨	تأوافوا	تأوفوا
٢٨٣	٤	حريج	عريج
٢٨٣	١٩	شحومها ... ظهـورها	شحومهما ... ظهورهما
٢٨٤	١٢	سمعنم	سمعتم
٢٨٦	بعد السطر ٥	——	الوضع الصحيح للفاصل (على شكل نجوم) بعد السطر ٧
٢٨٨	٢٢	لا نناقد	لاننا قد
٢٨٩	٢٩	نورط	تورط
٢٩٠	١٤	ا ف	ا ف (اى السوس)
٢٩٠	١٧	كان	كانوا
٢٩٠	٢٦	توحد	توجد
٢٩١	٣	نحت	تحت
٢٩١	٨	فلماذا الناموس ...	تحذف هذه العبارة لانهـا تكررت فى السطر التالى
٢٩٢	٢٥	لم	ثم
٢٩٢	٢٩ (هامش ١)	بولس كلاصبر ... الخ	غلاطية ٥ : ١٦ ـ ٢٥
٢٩٥	٢٩	واحد	واحدا

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٢٩٦	٢٣	أحد	احدا
٢٩٦	٢٧ (هامش ٣)	لو ...	يو ...
٢٩٧	٢	وها	وهذا
٢٩٨	٥	الخذر	الحذر
٢٩٨	٣٠ ، ٣١ (هامش ٣،٢)	يعطى هامش (٣) رقم (٢)	ويعطى هامش (٢) رقم (٣)
٣٠٢	١٦	بها	بهما
٣٠٤	٢٩ (هامش ٢)	بينز .. الخ	بترسون سمث : حياة يسوع ترجمة حبيب سعيد ص ٨٤ : ٧
٣٠٧	١٩	نبرز	تبرز
٣٠٩	٧	يتدركوا	يتداركوا
٣١٠	١٨	وسومطرة	وسوقطرة
٣١٢	١٦	اللاتين والاغريق	اللاتينية والاغريقية
٣١٣	٢٢	الرهينة	الرهبنة
٣١٤	١	تكون	تكون امام
٣١٤	٢٠	كاتب كاثوليكى	الكاتب الكاثوليكى
٣١٤	٣٢	تسير أرانا	تسيرا رانا
٣١٦	٧	من	ومن
٣١٧	٧	مث	مت
٣٢٣	٢١	ينسوه	ينسونه
٣٢٦	٢٩	،ورنثوس ، ١ : ٣ ـ ١٥	١ كور ١١ : ٣ ـ ١٥
٣٢٧	١	الرنا	الزنا
٣٢٧	٦	المتزوجين	المتزوجون
٣٢٨	٦	يحسب	بحسب
٣٢٨	١٨	والكنسة	والكنيسة
٣٢٨	٢٢	الأعمال	الاعمار
٣٣١	٦	كل ما له	وكل ماله
٣٣٣	٢٦	عند	عنده
٣٣٤	٢٣ (هامش ٣)	الأنفال ٧	الانفال ٧٠
٣٣٥	١	الفقرة	الفقر
٣٣٧	٦ ، ٢٤	(١) ، (٣)	(٢) ، (٣)
٣٣٧	٢٨ (هامش ١)	—	يكون هامش (١) كما يلى : مت ٢٦ : ٦ ـ ١٣ ، مر ١٤: ٣ ـ ٩ ، لو ٧ : ٣٦ ـ ٩ ، يو ١٢ : ١ ـ ٨ اما الهامشان الموجودان برقم (١) ، (٢) فيعدل ترقيمهما الى (٢) ، (٣) على التوالى
٣٤٠	٣٠ (هامش ٢)	تيموثاوس	١ تيموثاوس
٣٤٢	٦	آثارها	آثارهم
٣٤٣	٧	رحمة	ورحمة
٣٤٤	٢٨	تحمى	يحمى
٣٤٤	٣٦	انيموثاوس	١ تيموثاوس

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٣٤٥	٣١ (هامش ١)	التوبة ٣٤ ــ ٥ ، الحديد ٧ ، ٩ ــ ١٠	الحديد ٧ ، ١٠ ــ ١١ ، التوبة ٣٤ ــ ٥
٣٤٦	٣٢	مجلات الثقافة ... الخ	محذوف
٣٤٩	٢١	بوضوع	بوضوح
٣٥١	٢٣	نوزع	يوزع
٣٥٢	١	واذ	واذا
٣٥٣	٢	تفرضها	تفرضه
٣٥٣	٥	لكنا	لكنها
٣٦١	٣١ (هامش ١)	٢٠	٣٠
٣٦٢	٢٢	ملك	ملكا
٣٦٦	٢	على أساس التفسير	على أساس التفسير السابق
٣٦٦	٣	لا يتأنى	لا يتأتى
٣٦٧	٧	الجليلون	الجليليون
٣٦٧	٢٨	ـــــ	يوضع رقم(٣)فى آخرالسطر. ويضاف هامش برقم (٣)أمامه: لو ٤ : ١٦ ــ ١٨
٣٧٠	١٢ (هامش ٢)	ج ١١	ج ١
٣٧٦	٨	تجمل	تحمل
٣٧٦	٢١	نسمع	تسمع
٣٨١	٢٧	آحرين	آخرين
٣٩٠	٦	المحافل	والمحافل
٣٩١	٢٨	سباق	سياق
٣٩٨	٢٣ ــ ٢٤	رسكريتوس ، Spiritus	سكريتوس . وفى أول السطر التالى تصحح الكلمة اللاتينية الى Scriptus
٣٩٨	٢٨	٦ م	١٦ م
٤٠٢	٢٩ (هامش ٣)	مت ١٢ : ٣٢	مت ١٢ : ٣١ ــ ٣٢
٤٠٣	١٦	(٢)	(٣)
٤٠٣	١٩	ـــــ	يحذف
٤٠٤	٨	يجاهل	يتجاهل
٤٠٧	١٧	نجلب	تجلب
٤٠٨	١٨	وظهروه	وظهوره
٤٠٩	١٠	والزبور والانجيل ...	يحذف السطر ويوضع موضعه: فى القرآن على دينهم الذى هم عليه ، ومدحه بما أوجب لهم أن يثبتوا عليه
٤١٠	١٢	Medical Islam	فى كتابه Medieval Islam
٤١١	١٧	Barrhlomen	Barthlomen
٤١١	١٨	عشر	الثالث عشر
٤١٢	٤	١٣٥٤ م	١١٣٢ م
٤١٣	٩	دليل على	دليل على عدم صحته
٤١٣	٢٧ (هامش ١)	رواه احمد...الخ	رواه احمد والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه وصححه السيوطى فى الجامع الصغير

الصفحة	السطر	الخطأ	التصويب
٤١٣	٣٠ (هامش ٢)	صححها	صححهما
٤١٥	٧	Sefdom	Serfdom
٤١٩	٢	Theatokos	Theotokos
٤١٩	٣	ويصدر	ويصور
٤١٩	٩	Cerenthe	Cerinthe
٤٢١	٣٤ (هامش)	Cnosis	Gnosis
٤٢٣	٢٤	اكعارف	المعارف
٤٢٤	٥	سفيعى	شفيعى
٤٢٤	١٥	بالاخرى	بالاحرى
٤٢٧	٢١	يعزب	« ولا يعزب ...
٤٢٩	١٥	نتضام	كتضام
٤٣٠	٢٨	عبرانيين ١ : ٢	عبرانيين ١ : ١ ــ ٢
٤٣٢	١٠	Theotekos	Theotokos
٤٣٢	بعد السطر ٣١	ـــ	يوضع هامش برقم (١) أمامه: ســتيفن نيــل : الله فى المسيحية ترجمـــة مطر ص ٦٢ : ٧٥
٤٣٣	١٣	diutun	d'Autur
٤٣٣	١٥	ينعتاها	ينعتاه
٤٣٣	٢٠	للبسر	للبشر
٤٣٥	٢٦	تق	تق
٤٣٥	٣١ (هامش ١)	ص ٤٤ ــ ٥	ص ٢٠ ــ ٢
٤٣٨	٢٥	انيس	انس
٤٤٤	١٢	المخالفين	المخالفون
٤٤٤	١٦	صكم	حكم
٤٤٤	٢٦	اذ	اذا
٤٤٦	٨	مدنيتهم	مدينتهم

فهرس

الموضــــوع	الصفحة
مقدمة الطبعة الثانية	٥
مقدمة الطبعـة الأولى	١١
خطوط من الصورة	٢٨ : ٣٣
اطار من البيئـة والتاريخ	٣٥ : ١٢٢
أرض	٣٧
قوم	٥٢
دولة	٧٥
معلم وتلاميذ	٩٩
صوت صـارخ من البرية	١٢٣ : ١٤٣
تعاصر الانبياء	١٢٥
يوحنا بين يدى المسيح	١٢٧
المعمودية	١٣٣
ارهاص الميلاد	١٣٨
ليس الخبز وحده	١٤٥ : ١٧٣
الانســان والدين	١٤٧

الموضوع	الصفحة

فطرة وضرورة ١٥١
منطق ١٥٨
راحة ١٦٣
نظام ١٧٠
للخطاة ، لا للأبرار ١٧٩
السبت لأصل الانسان ١٨٤

رحمة لا ذبيحة .. .. ١٧٥ : ٢٠٢

حين تصير الأشكال أغلالا ١٨٨
حوار فى الختان ١٩٤
يصطادون بكلمة ١٩٨

آيات وعجائب .. .. ٢٠٣ : ٢٣٠

تعاليم الرسالة هى حجتها ٢٠٥
حجة ، ورحمة ٢٠٨
من الآيات ٢١٢
نبوءات عن المستقبل ٢٢٠
سلطان للتلاميذ ٢٢٦

الله محبة .. .. ٢٣١ : ٢٧٧

رسول السلام ٢٣٣
طوبى للرحماء ٢٣٤
امتحان من الواقع ٢٤١

الموضـــوع	الصفحة

اليهود ودم المسيح ٢٦٦

نظام ١٧٠

بل جئت لأكمل .. .. ٢٧٩ : ٣١٦

عقيدة وشريعة ٢٨١

المسيح والناموس ٢٨٤

التلاميـــذ والناموس ٢٨٨

الدين والدولة ٢٩٧

فى طريق الانتشار ٣٠٩

تعالوا يا جميع المتعبين .. .. ٣١٧ : ٣٧٠

من الأعماق ٣١٩

الطفولة ٣٢٢

المرأة والأسرة ٣٢٤

الرق ٣٣١

الفقر ٣٣٥

الملكوت المنشود ٣٥٩

الحق أقول لكم .. .. ٣٧١ : ٤٠٤

أمثال وقصص ٣٧٣

بيان المسيح ٣٩٠

مصاعب النقل ٤٠٥

الموضـــوع	الصفحة

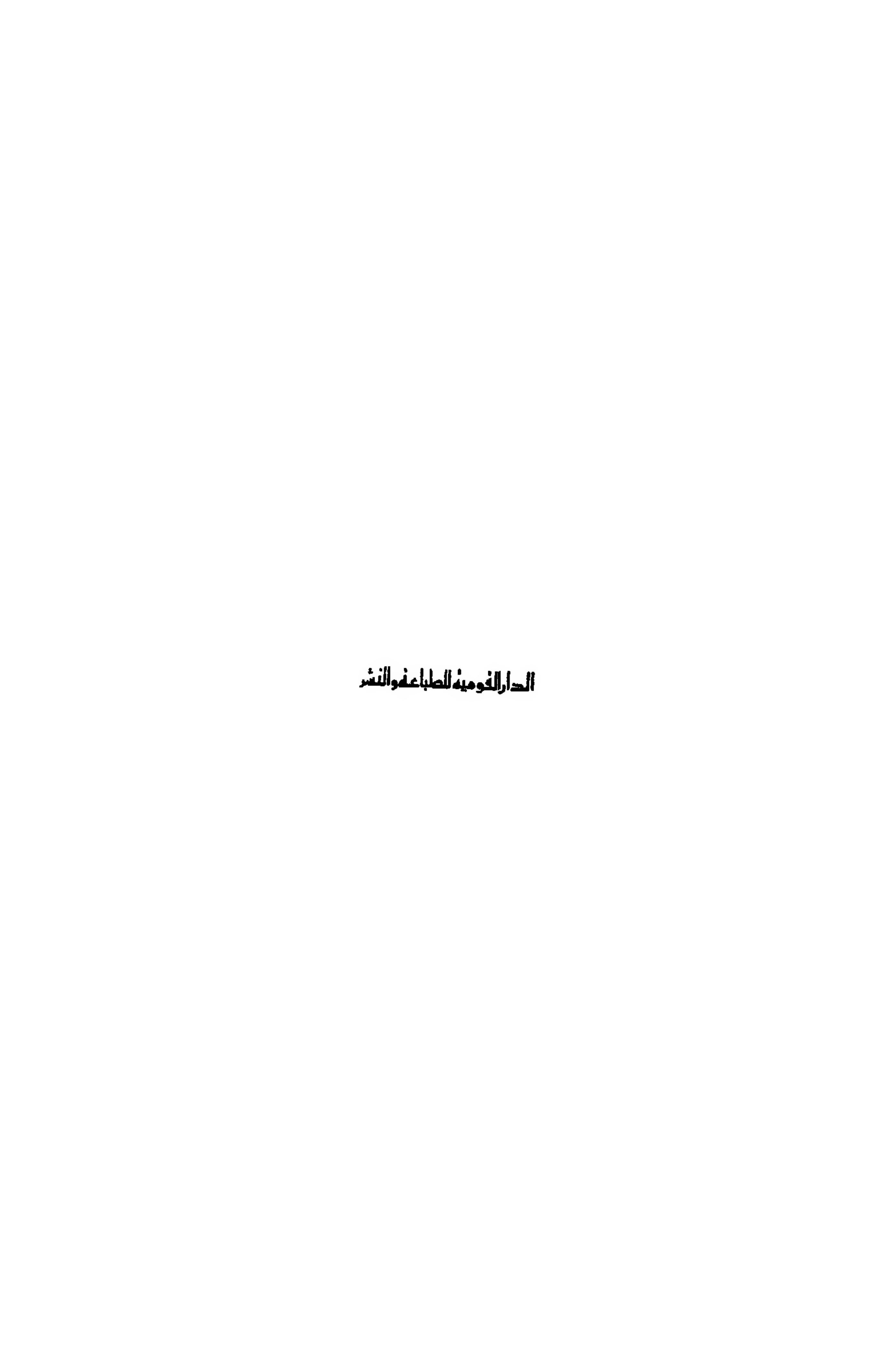
وعلى الأرض السلام .. .. ٤٠٥ : ٤٥٢

شقاء فى طلب السعادة ٤٠٧

المسيح عند المسلمين ٤١٧

الصليب والخلاص ٤٣٣

المسيحيين ومحمد ٤٤٠



الدار القومية للطباعة والنشر